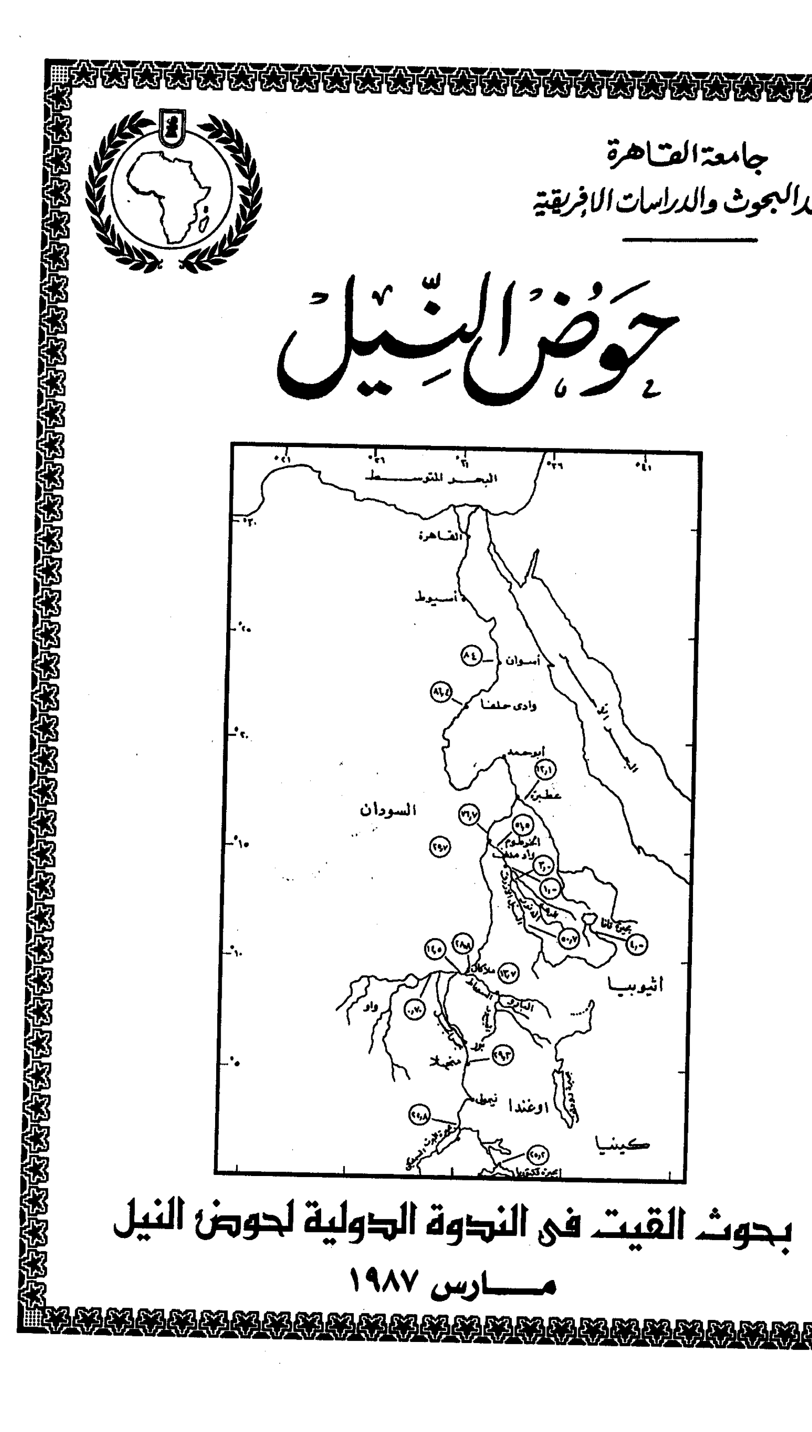
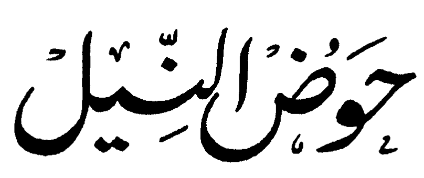


جامعة القاهرة

معهد البحوث والدراسات الافريقية



حوض النيل

بحوث ألقيت فى الندوة الدولية لحوض النيل

مارس ١٩٨٧

تقديم

بقلم أ.د / السعيد البدوى
عميد المعهد

مر على عقد مؤتمر حوض النيل أكثر من عشر سنوات ، ومع ذلك ظلت قضايا هذه المنطقة حية ومتفجرة ، ويرجع هذا بصفة أساسية إلى مجموعة من الاعتبارات أهمها :-

أولاً: أنه يجرى فى هذا الحوض أطول نهر على مستوى العالم (٦٦٩٥ كم) ، يجمع مياهه من منطقة شاسعة المساحة تصل الى ٤ مليون كم٢ وتمتد روافده العليا الى عدد كبير من الدول فمن رواندا وبوروندى ، الكنغو الديموقراطى (زائير) وأوغندا وتنزانيا وكينيا وإثيوبيا وأفريقيا الوسطى والسودان تأتى مياه هذا النهر العظيم . ويتميز هذا النهر بسمة أخرى ذات أهمية خاصة وهى امتداده من النطاق الاستوائى فى الجنوب حتى نطاق البحر المتوسط فى الشمال (حوالى ٣٥ درجة عرضية) متخطياً فى ذلك الجبال والوهاد ، الغابات والأحراش ، الفيافى والصحارى حتى يصل الى أرض الكنانة لكى يصب مياهه فى البحر المتوسط .

ثانياً : يكون هذا النهر شريان الحياة بالنسبة لمصر والسودان على وجه الخصوص حيث توجد المناطق الصحراوية (شمال السودان + كل مصر) والتى بدون مياه النيل تصبح لاحياة فيها ولازرع ولاضرع .

وفى نفس الوقت فإن المنبع (الاستوائية وشبه الإستوائية) يستفيد البعض منها من مياه النهر فى توليد الكهرباء بصفة أساسية على إعتبار أن الأمطار الغزيرة

على هذه المناطق هى المصدر الأساسى لقيام الزراعة وبالتالى لاتحتاج الى مياه النهر فى هذا الفرض بشكل أساسى .

ثالثاً : يكون هذا الحوض مساحة ضخمة من منطقة القرن الأفريقى التى تعتبر ذات أهمية استراتيجية وحيوية بالنسبة لمصر حيث أنها تطل على مدخل البحر الأحمر الجنوبى وعلى بحر العرب والمحيط الهندى ، ومن ثم فإنها تمثل منطقة عمق إستراتيجى وأمن قومى بالنسبة لمصر .

رابعاً: أن المشكلات التى كانت موجودة فى القرن الأفريقى منذ عشر سنوات مازالت حتى الآن قائمة ، بل إنها إزدادت تفاقما ، حيث تدهورت الأمور فى الصومال لدرجة انهيار الدولة ذاتها ، وبعد استقلال إرتريا عن أثيوبيا (١٩٩٣) ظهر الخلاف بينهما لدرجة أنه وصل إلى الحرب الشاملة، أما جنوب السودان فقد ازداد الوضع تدهوراً نتيجة لقيام نظام عسكرى فى السودان يدعو إلى «الجهاد» فى الجنوب وطمس هويته وبالتالى ازدادت الحرب الأهلية ضراوة فى هذه المنطقة ، كذلك تفاقم الموقف فى شرق الكونغو الديمقراطى وقيام حرب أهلية بين عناصر التمرد من التوتسى فى الجزء الشرقى ونظام الحكم القائم برئاسة كابيلا والذى وصل إلى كرسى الحكم نتيجة لتمرده على نظام موبوتو السابق له ، يضاف إلى ذلك عدم الاستقرار فى جمهورية أفريقيا الوسطى والكونغو برازافيل ... الخ .

خامساً: إن انضمام مصر الى تجمع "الكوميسا" فى العام الماضى (١٩٩٨) يضفى على هذه المنطقة أهمية خاصة ، حيث أن عدد دول هذا التجمع الآن (يونيو ١٩٩٩) يصل الى ٢٠ (عشرين) دولة بما فيها مصر ، منها دول حوض نهر النيل ، ومن هنا فإن دراسة هذه المنطقة تعتبر ذات أهمية خاصة بالنسبة لمصر ، عضو هذا التجمع الهام .

– ولكل هذه الأسباب وغيرها عقدنا العزم على طبع بحوث هذا المؤتمر الهام لكى تخدم وتساعد الباحثين المهتمين بمنطقة حوض النيل والقرن الأفريقى

وشـرق أفريقيا ، وبهذا نكون قد أضفنا لبنة جديدة فى " البيت " الأفـريقى الذى نأمل أن يزداد ارتفاعاً واتساعاً وشموخاً لكى تعيش الشعوب الأفريقية فى بيتها آمنة مطمئنة فى ظل تحقيق المطالب الأساسيـة للإنسـان الأفـريقى الذى عـانى الكثير ، وآن الأوان لتحقيق آماله وأمانيه فى معيشة كريمة آمنة يمكن أن يحققها عن طريق التكامل الإقتصادى والاجتماعى والسياسى بين الدول الأفـريقيـة تحت شعار " أفريقيا للأفريقيين "

وفقنا الله لما فيه الخير لمصرنا الحبيبة وقارتنا الأفريقية الواعدة

أ.د. السعيد البدوى

عمـــيد المعهد

يونيـــــو ١٩٩٩

الفهرس

الصفحة

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ١ - ٣٤

تعيين الحدود السودانية الحبشية
وأثره على قبائل الوطاويط والبيرتا والبورون والخوما
دراسة وثائقية للفترة ١٨٩٩ - ١٩٣٦

د. السيد على أحمد فليفل

معهد البحوث والدراسات الإفريقية

تشكلت الخريطة السياسية للقارة الأفريقية وبصفة خاصة فى حوض النيل ، فى الأغلب الأعم ، فى غيبة من شعوبها ، وذلك إبان فترة تكالب الدول الاستعمارية الأوروبية على القارة ، ووفقاً لمصالح هذه الدول أساساً .

وقد حظيت الحبشة بتعاطف شديد من الدول الأوروبية التى سيطرت على المناطق المحيطة بها، وهى إيطاليا وفرنسا وبريطانيا، فسمحت لها بالمشاركة فى موجة التكالب الاستعمارى ، بحيث كانت الدولة الأفريقية الوحيدة التى لم تتقلص حدودها أو ينتهك استقلالها إبان تلك الموجة ، بل على العكس من ذلك كانت الحبشة الدولة الافريقية الوحيدة التى اتخمت بالمستعمرات، وكونت إمبراطورية شاسعة لها على حساب الشعوب المجاورة ، علي نمط الإمبراطوريات التوسعية القديمة فى وقت كان التوسع الاستعمارى فيه وليد عصر الثورة الصناعية. (١)

ولكن على الرغم من هذا الجذب الأوروبى على الحبشة ، فإنه من الملاحظ أنها كانت عرضة للاستخدام كورقة ضغط فى صراعات الدول الأوروبية الثلاث من حولها فرنسا ، وبريطانيا وإيطاليا ، وتبدى هذا الاستخدام جليا فى خلال أزمتى عدوة وفاشودة . وقد نجح منليك الثانى فى الاستفادة فى النهاية من هذه الصراعات للتوسع فى القرن الافريقى والسودان .

(١) السيد فليفل (دكتور) : تصور بريطانيا للخريطة السياسية للقرن الافريقى والسودان والحبشة بعد الحرب العالمية الأولى ، الندوة الدولية للقرن الافريقى ، معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، ٥ - ١٠ يناير ١٩٨٥ .

أ - الظروف التاريخية لتحديد الحدود السودانية الحبشية :

فى نفس العام الذى تربع فيه منليك الثانى على عرش الامبراطورية الحبشية كان المسئولون البريطانيون ينظرون بجدية فى امكانيات تنفيذ فكرة أحد كبار امبراطوريتهم الاستعمارية، وهو سيسل جون رودس، للسيطرة على القطاع الشمالى الجنوبى من القارة الافريقية يمتد بين القاهرة والكيب ، ويتقاطع مع خطة فرنسية للسيطرة على القطاع الشرقى الغربى من القارة بين جيبوتى والسنغال .

ففى ١٨٨٩ قرر لورد سالسبورى السيطرة على حوض النيل ، وبهذا صارت الحبشة مصدر قلق لصناع السياسة البريطانية . وطالما كانت الحياة فى وادى النيل تعتمد على الأمطار التى تسقط على الهضبة فإن الموقف السياسى فيها شديد الأهمية لشعب وادى النيل(٢) .

وفى ١٠ أبريل ١٨٩١ أصدر منليك الثانى خطاباً دورياً يحدد فيه ما اعتبره حدود بلاده. وعلى الناحية الغربية فقد كان يرى أنها تشتمل على الخرطوم ذاتها، وبحيرة فيكتوريا ، وهو ما كان أمراً مجهولاً لكثير من الساسة البريطانيين(٣) .

ومن هنا يمكن أن نتلمس ملامح سياسة بريطانية واضحة خلال التسعينات تقوم على دعم الادعاءات الايطالية فى الحبشة مقابل دعم الادعاءات البريطانية فى وادى النيل من قبل إيطاليا . وقد عبر عن هذا الوضع البروتوكول الانجلو إيطالى فى ١٥ أبريل ١٨٩١ . ولكن هذه السياسة البريطانية تعرضت لضربة هائلة بهزيمة إيطاليا فى عدوه فى أول مارس ١٨٩٦ . وبهذا صارت الجبهة الشرقية لوادى النيل مفتوحة أمام خصم بريطانيا اللدود ، أى فرنسا ، بينما كانت قوات لها تتقدم صوب أعالى النيل من الغرب، لتقابل قوة حبشية قادمة من الشرق، وذلك تحت قيادة كل من رأس ماكونين ورأس جوبانا Gobana ، ميممة صوب بنى شنقول ، التي تشرف على وادى النيل الأبيض وقام جيش آخر باحتلال

(٢) Marcus, Harold: Ethio-British Negotiations Concerning the Western Border With the sudan 1902 (in Journal of African History, Vol. IV, 1963, p. 81).

(٣) F.O. 403/255, Menelek to Rodd, 13 May 1897.

كافا ، واتجه صوب بحيرة رودلف فى إطار خطة مارشان، الذى كان يشق طريقه صوب فاشودة(٤) .

وبهذا استغل الأحباش الموقف الدولى لصالحهم، ونجحوا فى خلق أمر واقع يجعل بوسعهم ابتزاز قطبى الاستقطاب الرئيسيين فى المنطقة بريطانيا وفرنسا، وهرعت لأديس أبابا بعثتان دبلوماسيتان ، إحداهما فرنسية يقودها لاجارد Lagarde ، والأخرى بريطانية يقودها رينيل رود Rynell Rodd وقد بدا أن البعثة الأولى حجبت التفوق البريطانى فى وادى النيل ، وهددت مشروع القاهرة - الكيب(٥) .

ومن هنا فإن بعثة سيررينيل رود واجهت مصاعب حقيقية فى تفاوضها مع منليك الثانى فى أديس أبابا . ولقد كانت بريطانيا مستعدة للاستجابة لتوسع الامبراطور فى أوجادين والسودان ، مقابل ضمان مساعدته لها ضد الدولة المهدية(٦) . ولقد بدا الأمر كما لو كان فرصة سانحة لمنليك لإملاء شروطه فى وقت حاسم بالنسبة للتقدم البريطانى فى وادى النيل ضد المهديين ، وضد الفرنسيين على السواء(٧) .

وبهذا يمكن لنا القول بأن عملية تعيين الحدود الحبشية السودانية ارتبطت بموقف منليك الثانى من الدولة المهدية ، وبالصراع بين بريطانيا وفرنسا فى أعالى النيل(٨) ، وارتبطت أيضاً بالصراع بينهما فى القرن الافريقى ، ومطامع منليك التوسعية فيه(٩) .

---

(٤) Jones A.H.M. & Monroe, E.: Ahistory of Ethiopia, Oxford, 1960; P. 151.

(٥) Marcus, Harold G.: OP. Cit., P. 82.

(٦) F.O. I/32, Salishury's Instructions to Rodd.

(٧) F.O. 403/255, Memorandum by Wingate, 7 May 1897.

(٨) يونان لبيب رزق (دكتور) : السودان فى عهد الحكم العثمانى الأول ١٨٩٩ - ١٩٢٤ القاهرة، ١٩٧٦، ص ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٩) السيد فليفل (دكتور) : مشكلة أوجادين بين الاحتلال الحبشى والانتماء العربى الإسلامى ١٨٨٧ - ١٩١٣، الفصل الثالث : أوجادين والصراع الدولى فى أعالى النيل ، تحت الطبع.

ب- المفاوضات والمعاهدة :

مهد سيررينيل رود - خلال مفاوضاته مع منليك الثانى ورأس ماكونين فى ١٨٩٧ - السبيل لفتح باب التفاوض بين بريطانيا والحبشة بخصوص الحدود مع السودان . ولقد حصل منليك مقابل تخليه عن مساعدة فرنسا والدولة المهدية علي توسع معترف به فى أوجادين والسودان ، ولقد عينت بريطانيا الضابط جون هارينجتون Jhon Lane Haringten قنصلها فى زيلع معتمداً لها فى أديس أبابا ، وعهدت إليه ببحث مسألة الإدعاءات الحبشية فى السودان ، مع رعاية حقوق مصر فى وادى النيل (١٠) .

وبالنسبة للحدود بين الحبشة والسودان فإنها لم تحدد باعتبارها حدوداً سودانية ، بل حددت كحدود مصرية إسماً، وفى ظل وجود استعمارى بريطانى قوى قاهر فى وادى النيل فعلاً، كما أن الاتفاق الأساسى لتحديد هذه الحدود فى ١٩٠٢ لم يحظ بموافقة مصر(١١) .

● وسوف تتضمن الورقة عدداً من النقاط الرئيسية على النحو التالى :

١- الظروف التاريخية لتحديد الحدود السودانية الحبشية .

ب- المفاوضات والمعاهدة .

جـ- الآثار السياسية والاجتماعية لتحديد الحدود السودانية - الحبشية .

د- دراسة مكثفة لاثار تحديد الحدود علي قبائل الوطاويط والبيرتا والبورون والخوما :

● تحديد لمنطقة الدراسة وقبائلها :

١- هجرة بعض الزعماء إلى السودان .

٢- علاقة الزعماء بمهاجرى قبائلهم وراء الحدود .

٣- صراع الزعماء فيما بينهم علي جانبى الحدود .

(١٠) يونان لبيب رزق (دكتور) : مرجع سابق ، ص١٠١ .

(١١) Brownlie, Ian: African Boundriss, Parts, Sudan Ethiopia & East Africa, 1979, PP. 855, 866.

٤- اضطراب الأمن على جانبى الحدود .

٥- لجوء بعض رعايا الحبشة إلى السودان .

وأخيراً نعقد خاتمة لاستخلاص أهم النتائج التى توصل إليها الباحث .

وقد تأكد هارينجتون بأن منليك الثانى كان مدركاً تماماً لأهمية أن يكون له إحتلال فعلى فى المناطق التى يدعى السيادة عليها . ومن ثم فقد طالب هارينجتون بلاده بأن تحقق إنجازاً عسكرياً كبيراً ضد المهديين قبل أن تتفاوض مع منليك بخصوص حدود السودان . ولقد استبان مدى صدق حدس هارينجتون عندما قامت جيوش منليك بالتوسع ناحية المتمة، فى ذات الوقت الذى كان القتال يدور فيه بين كتشنر والخليفة عبد الله . وقد احتلت قوات منليك بنى شنقول Beni Shengol قبل أن تسقط أم درمان(١٢) .

وقد نصح كرومر هارينجتون بأن يكتفى بإرسال المذكرات واستقبالها مع الحكومة الحبشية، ريثما يتدعم وضع بريطانيا في السودان. وقد أدى هذا التلكؤ إلى إغضاب منليك. والذى كان يزداد مع كل تقدم بريطانى على مناطق كان يدعى ملكيتها، وبصفة خاصة الروصيرص بموقعها الهام على النيل الأزرق ، فضلاً عن منطقة القضارف كاملة بين نهرى العطبرة والنيل الأزرق متضمنة نهر دندر(١٣) .

على أية حال فقد شهدت الفترة الواقعة بين ابريل ١٨٩٩ ، حين بدأت المفاوضات بين الجانبين البريطاني برئاسة هارينجتون، والحبشى برئاسة منليك الثانى نفسه ومشاركة مستشاره السويسرى الفريد إيلج Ilg و ١٥ مايو ١٩٠٢م حين وقعت اتفاقية الحدود فى أديس أبابا مناورات دبلوماسية قوية من الجانبين ، بل ومن إيطاليا التى طلبت إلى منليك عدم تحديد الحدود في منطقة تودلك

(١٢) البخارى عبد الله الجعلى (دكتور) : دبلوماسية الحدود في افريقيا ، نزاع الحدود بين السودان واثيوبيا - التطورات الديبلوماسية والأوضاع القانونية لحدود السودان مع اثيوبيا وارتيريا ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ص ٣٨ .

(١٣) Marcus, Harold G.: OP. Cit., PP 85 - 90.

والقلابات حتى تصل هى إلي إتفاق مع بريطانيا بشأن الحدود الاريترية، مما كان مثار احتجاج بريطاني عنيف لدى ايطاليا(١٤) .

وفى أولى جلسات المفاوضات بين منليك وهارينجتون ، والتي عقدت فى أبريل ١٨٩٩ ، كان السند الأساسى لادعاءات منليك فى الأرض السودانية سنداً تاريخياً يتمثل فى قيام بعض حكام هذه الأرض فى بعض الأحيان، بدفع ما يُظن أنه كان جزية لإمبراطور الحبشة . وقد رفض هارينجتون مسألة الحقوق التاريخية على أساسين :

أولهمـا : أنه لا يمكن التثبت منها ، بل إن هناك ما يدحضها (١٥) .

ثانيهما: أنها لم تعد لها قيمة فيما يتعلق بحيازة الأرض ، ثم إن بلاد منليك الحالية ليست هى اثيوبيا القديمة بالضرورة .

كانت الجلسة الثانية فى المفاوضات ، والتى عُقدت في ٢٢ أبريل ١٨٩٩ ، مخصصة لعرض المطالب وتقديم الخرائط . وكانت خريطة هارينجتون تتضمن إصراراً على أن تكون الحمران والقلابات ودارسوماتى ودارجيبا ودارجاموسى وبنى شنقول داخل الحدود السودانية . وبدا أن منليك مستعد للتغاضى عن الكثير عدا بنى سنقول بسبب ما تضمه أرضها من مناجم ذهب، فضلا عن موقعها الاستراتيجى بالنسبة للملاحة فى النيلين الأبيض والأزرق ، وبالنسبة لتجارة السودان والحبشة (١٦) .

ولقد وجد هارينجتون نفسه مسوقاً إلى تسوية مسألة الحدود باقتراح أمرين:

أولاً : اقتسام مدينة وجمارك المتمة .

ثانياً : التنازل لمنليك عن بنى شنقول .

وبررها رينجتون ذلك بأن الحدود المصرية «السودانية» مع الحبشة لم يسبق تحديدها من قبل، وأن إسترضاء منليك يحول بينه وبين الوقوع فريسة للنفوذ

(١٤) Ibid وكذلك يونان لبيب (دكتور) : مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٠٢ – ١٠٣ .

(١٥) Marcus, Harold G.: OP. Cit., P. 89.

(١٦) البخارى عبد الله الجعلى، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٠ – ٤١ .

الفرنسى والروسى ، من ناحية ، ويوفر على بريطانيا استخدام القوة ضده من ناحية أخرى. كما كان التنازل عن المتمة استجابة لرجاء منليك بألا تحرمه بريطانيا من ضم مدينة قتل فيها الامبراطور يوحنا الرابع قبل عشر سنوات على أيدى المهديين ، فضلا عن أنها تضم كثيراً من السكان المسيحيين. ولقد حاول هارينجتون التخفيف من خسارة بنى شنقول بضمان حق التنجيم عن الذهب لشركات التعدين البريطانية(١٧) .

واشترط هارينجتون أيضاً لتوقيع معاهدة مع منليك بخصوص حدود السودان شرطين أساسيين هما :

أولاً : مسح الحدود كاملة، وهو الأمر الذى اضطلعت به لجنة مشتركة بريطانية - حبشية ، وكان الممثل البريطانى عن حكومة السودان فيها هو ميجورجواين C.W. Gwynn وبه اشتهر تحديد خط الحدود .

ثانيا : تأمين حقوق مصر فى مياه النيل .

وقد استجاب منليك الثانى للشرطين البريطانيين ، فبدأ جواين مسح الحدود بطريقة استطلاعية على ما يبدو منذ أواخر عام ١٨٩٩ وطوال عام ١٩٠٠(١٨) .

ثم اضطلع بمهمة تحديد الحدود بشكل فعلى بعد توقيع المعاهدة منذ نهاية ديسمبر ١٩٠٢ ، وطوال العام التالى (١٩) .

وبهذا زالت العقبات أمام الطرفين البريطانى والحبشى ، ووقع منليك معاهدة مع هارينجتون لتحديد الحدود السودانية فى ١٥ مايو ١٩٠٢ . والمتفحص للمعاهدة يجد أنها تضمنت عدداً من الإشارات التى تدل على عدم مراعاتها لمصالح السكان السودانيين فى المنطقة. وسوف نُعدد هذه الإشارات بعد أن نستعرض أهم مواد المعاهدة .

نصت المعاهدة في مادتها الأولى على تحديد الحدود بين السودان والحبشة

---

(١٧) نفسه ص ص ٤٢ - ٤٣ . وكذلك .Marcus, Harold G.: OP. : Cit., PP. 89-90

(١٨) يونان لبيب رزق (دكتور): مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٠٣ .

(١٩) Marcus, Harold G.: OP. Cit., P. 94.

بحيث صارت تمتد من خور أم حجر - علي نهر ستيت - إلى القلابات : فالنيل الأزرق - جنوب فامكه - وأنهار البارو Baro والبيبور Pibor والاكوبو Akobo ثم ميليلى Melile ثم إلى نقطة التقاء خط عرض ٦° شمالاً مع خط طول ٣٥° شرق جرينتش(٢٠) .

ونصت المادة الثانية على تشكيل لجنة مشتركة لتحديد الحدود بين طرفى التعاقد أما المادة الثالثة فنصت على تعهد منليك الثانى بعدم بناء أى سد على النيل الأزرق ، أو بحيرة تانا «أو نهر السوباط» مما يكون من شأنه تحويل فيضان المياه فى النيل ، إلا باتفاق مع حكومة بريطانيا وحكومة السودان. ولكن منليك احتفظ لنفسه بحق استعمال قوة المياه دون أن يؤثر ذلك علي كميتها .

أما المادة الرابعة فنصت على أن تؤجر لحكومة السودان - طالما هى تحت الحكم الثنائى الانجلو مصرى - مساحة من الأرض بجوار ايتانج Itang على نهر بارو، لا تزيد مساحتها على ٤٠٠ هكتار ، لتستخدمها كمحطة تجارية، على ألا تستخدمها لأية أغراض سياسية أو عسكرية .

وأما المادة الخامسة فنصت على أن يَمنح منليك الثانى للحكومة البريطانية وحكومة السودان حق مد خط حديدى عبر الأرض الحبشية لربط السودان بأوغندا . واتفق على أن يعقد اتفاق مشترك لتحديد الأرض التى يخترقها الخط الحديدى .

جـ- الآثار السياسية والاجتماعية لتحديد الحدود السودانية الحبشية:

كان ما أدى إليه الإتفاق من أيلولة بنى شنقول ونصف المتمة إلى الحبشة ، يعنى أن المعاهدة قطعت صلة أناس كانوا يحيون حياة واحدة من قبل. كذلك فقد جاء تأجير المنطقة المجاورة لإيتانج دليلاً على أن خط الحدود لم يراع المصالح الاقليمية لمن يحيون على جانبيه ، وأثر على التجارة بين السودان والحبشة لدرجة

(٢٠) أنظر النص الانجليزى للمعاهدة فى : Brownlie, Ian: Op. Cit.: PP. 866-70. وانظر تفصيلات أخرى فى كل من : يونان لبيب رزق (دكتور): المرجع السابق ص ١٠٥ ومحمد عبد الغنى سعودى (دكتور): السودان، الانجلو المصرية ، ١٩٨٥، ص ٧ .

(٢١) Jones A.H.M & Monroe, E.: Op. Cit., P. 149.

اضطر معها طرفا التعاقد إلى النص على هذا الوضع لضمان التجارة السودانية مع الحبشة[٢٢] .

ومن أهم الملاحظات على خط الحدود الذى أقرته المعاهدة أنها عقدت فى ظل الاستعمار البريطانى لوادى النيل ، ودون أن يمثل فيها شعب السودان، أو يستشار ، وأنها غضت النظر عن آراء شعب منطقة الحدود وقبائلها، ولم تضع أدنى اعتبار لانتماءاتها ومصالحها. وعلى سبيل المثال فإن قبيلة الأنواك قد انقسمت على جانبى الحدود بين السودان والحبشة فى القطاع الجنوبى[٢٣] . وكان منليك قد وافق على تحديد الحدود ولم يعترض عليها، ولكن في عام ١٩٠٧ طالب بضم جيروك Jerok إلى بلاده بهدف أن يحصل على كل منطقة البيرتا والوطاويط - على ما يبدو - ولكن لم تستجب له حكومة السودان [٢٤] .

وقد أدى عمل اللجنة المشتركة لتحديد الحدود إلى تكريس هذا الوضع ، بعد أكثر قليلاً من عام بعد عقد المعاهدة [٢٥] . وقد جرى مزيد من العمل على صعيد تحديد الحدود فى أعوام ١٩٠٣ و ١٩٠٧ و ١٩٠٩، بمعرفة نفس الضابط [٢٦] .

وكان قد اتفق فى عام ١٩٠٧ على أن تعيين الحكومتان الحبشية والسودانية ممثلين لهما لتحديد الحدود «على الطبيعة» ، إلا أن الحكومة الحبشية تقاعست عن تعيين ممثل لها، مما أدى إلى انفراد جوين بالعمل فى عامى ١٩٠٧ ، ١٩٠٩، ولكن الحكومة الحبشية سجلت رفضها للتحديد الذى قام به ميجورجواين ، كما كانت الحكومة المصرية تثير مشاكل كبيرة بصدد بروتوكلات الحدود السودانية عامة، متهمة الحكومة البريطانية بالتفريط في الأراضى السودانية، لصالح الدول المجاورة . ولكن خرائط الحكومتين الحبشية والبريطانية توافقت كثيراً مع المعاهدة .

---

(٢٢) راجع نص المادة الرابعة من المعاهدة .

(٢٣) محمد عبد الغنى سعودى (دكتور) مرجع سبق ذكره ، ص ص ٧ - ٨ .

(٢٤) البخارى عبد الله الجعلى (دكتور): مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢٥) Brownlie, Ian: Op. cit, PP., 880-1.

(٢٦) راجع الخرائط التى تبين نطاقات العمل في كل مرة .

ولقد استمرت الصلة قوية بين القبائل التى فصلها خط الحدود ، كما استمرت القبائل الرعوية تقطعه ليل نهار، وتزرعه جيئه وذهاباً . وقد كان هذا نتيجة طبيعية تماماً لعدم مراعاة ميجور جواين للمصالح الاقتصادية للقبائل، واعتماده على الأنهار كحدود طبيعية، مثل خور أم حجر ، والنيل الأزرق ، ونهر بارو ، ونهر بيبور ونهر أكوبو ، ثم على خطوط الطول والعرض الفلكية، مثل خط عرض ٦° شمالاً وخط طول ٣٥° شرقاً. ولقد ترتب على هذا الوضع أن صارت أغلب الحدود بين السودان والحبشة تقع بصورة واضحة داخل السهول السودانية وقد اسفر هذا عن وجود أكثر من نتؤ حدودى لصالح الحبشة فى أراضى السودان ، أن قبائل مثل النوير والانواك دأبت على الانتقال عبر الحدود التى فصلتها ، ولم تراع مصالح رعاتها ، ولا صلات الدم والتراث المشترك بين بطونها. ولقد صارت اقتراحات بعض مسئولى حكومة السودان - أمثال كابتن كيللىKelly فى ١٩١٣ وميجور باكون Bacon فى ١٩٢١ وميجور هاوكينز Hawkins صارت ترى تطلب تعديل الحدود ، بحيث تضم مساحات من الأرض الحبشية للسودان لمعالجة هذه الأوضاع ، إلا أن حكومة السودان أبت أن تثير مشكلة سياسية مع الحبشة. بل ولقد عرض ماكمايل(٢٧) Mac Michael السكرتير الإدارى لحكومة السودان أن تتنازل حكومته عن مزيد من الأرض السودانية فى ١٩٢٣ ، تشمل قطاع البارو ، بعد محاولة الحكومة الحبشية فرض ضرائب عليهم لعبورهم الحدود إلى داخل أراضيها. ولقد ظن جيمس مافى حاكم عام السودان أن تنازل بريطانيا عن زيلع قد يمكن حكومته من حل مشكلة حدود السودان مع الحبشة ، ولكن الفكرة لم تتطور وتدخل مجال التنفيذ (٢٨) .

وإلى هذا الحد إذا كانت الحدود السودانية مجالاً للمناورات السياسية البريطانية، وذلك دون مراعاة لمصالح الشعوب التي تخطط لها هذه الحدود ، وفى غيبة كاملة منها .

---

(٢٧) لما كمايكل كتاب هام هو ، Ahistory of the Arabs in the Sudan يستحسن مراجعته فيما يتعلق ببعض القبائل المذكورة في هذه الورقة. إذا لم يذكر القبائل موضوع البحث .

(٢٨) البخارى عبد الله الجعلى (دكتور) : مرجع سبق ذكره، ص ص ٥٢ - ٦٨ . ولاحظ أن بريطانيا التي تنازلت عن أدجامين للجبشة في معاهدة ١٨٩٧، تعرض للتنازل عن زيلع فى الصومال البريطانى للحبشة أيضاً .

وإذا كانت هذه وجهات نظر كل من الحكومة المصرية ، والإدارة البريطانية فى السودان من قضية الحدود الحبشية - فإن من المطلوب أن نتتبع ممارسات الأحباش بشأنها . من الملفت للنظر أن الأحباش لم يراعوا الاتفاقية ، ولم يكفوا عن محاولات التوسع ، وشهدت مناطق الحدود التى تمتد ألسنتها فى السهول السودانية نشاطا حبشياً توسعياً . وإذا لم يكن من شأن هذه الورقة أن تقدم سجلاً لكل هذا النشاط ، فإن بعض الأمثلة عليه قد تكون مفيدة .

ففى مارس ١٩٢٣ قام فيتورارى فانتا Fitaurari Fanta وفيتورارى عودة Oda ومعهما نحو ٣٦٠ رجلاً مسلحين بالبنادق بعبور الحدود وتقدموا صوب واراقارا Warragarra ، حيث هاجموا قبيلة البورون Burun وقتلوا عشرة أشخاص منها ، بينهم أحد الزعماء ، وخطفوا رجلين وامرأة وطفلين(٢٩) .

وفى فبراير من العام التالى هاجم ديجازماتش بيرو Dejazmatch Birru قبيلة البورون علي خور داجا Daga. وقد فر الناس أمامه من المنطقة ، فتقدم صوب منطقة إقامة قبيلة النوير Nuer علي الداجا غرب ليس Liss ، حيث وضعوا علامة قالوا إنها هى نقطة الحدود بين السودان والحبشة . وقام الغزاة بجمع الجزية ، سواء عيناً أم نقداً، وهى تقدر بحوالى عشرين دولاراً على كل قرية . وقد رحل القسم الأكبر من جيش الغزاه فى ٢٢ فبراير، تاركين ستين جندياً تحت قيادة فيتورارى يانبو F. Yanbo لجمع بقية الجزية . وقد باغتتهم قوة من شرطة السودان ، ففروا تاركين ثلاثة من الأسرى وبعض البنادق والذخائر. كذلك فقد غزا مجموعة من قطاع الطرق الأحباش بقيادة ديجازماتش موكريا Mukria من معسكراتهم فى تابوثا Tapotha منطقة قبيلة تيشانا Tishana . ويبدو أنهم كانوا مصممين على الاستحواذ علي أرض هذه القبيلة وضمها لبلادهم . وإزاء هذا كله اضطرت حكومة السودان إلى إنشاء موقع عسكرى متقدم فى فاذيره Fazira للحد من الاعتداءات الحبشية التى اضطرت السكان فى منطقة الحدود إلى إخلائها(٣٠).

---

(٢٩) Sudan Government, Sudan No. I (1925): Report on Finance, Administration & Condition of the Sudan in 1924, London, 1925, P. 9.

(٣٠) Ibid.

د- دراسة وثائقية لآثار تحديد الحدود على قبائل الوطاويط (البيرتا والبورون والخوما):

تقع البلاد التى تهتم هذه الورقة بتبيان مدى تأثير تحديد الحدود بين السودان والحبشة عليها بين خطى طول ١٢° و ١٠° على الحدود، والتى تعرف باسم بلاد دابوس داخل الحبشة(٣١) . وكانت هذه المنطقة ترتبط بالقسم الجنوبى من المنطقة التى عرفت خلال الاحتلال البريطانى للسودان باسم إقليم الفونج، والذى تحيا فيه قبائل الهمج Hamag الذين كانوا عماد مملكة الفونج قبل سقوطها، فسيطروا على مقدراتها وتحكموا فى ملوكها ، وأداروا أمورها من عاصمتها سنار(٣٢) .

وقد اشتملت المنطقة على ثلاث زعامات محلية فى فازوغلى Fazoghli وكيلى Keili وبنى شنقول ، وكانت جميعاً تعد من توابع مملكة الفونج، وتدفع لها الجزية(٣٣) . وعلى الرغم من أن الهمق كانوا سوداً(٣٤) ، فإن الهجرة العربية إلى بلادهم، مكنت من نشر الإسلام بين ظهرانيهم وتحويلهم إلى اللسان العربى. وليس أدل على توثق العلاقة بين الفريقين من الدور الذى لعبه الهمق فى حياة مملكة الفونج . وقد أدى فتح مصر للمملكة إلى هجرة مزيد من العرب إلى المنطقة، حيث أصهروا إلى أسر الزعماء المحليين فيها ، وأسسوا لأنفسهم نفوذا قويا بين قبائل البيرتا Berta والبورون Burun والخوما Khama ، وصاروا ونسلهم يعرفون بالوطاويط Watawit(٣٥) وهو إسم عام اشتهرت به قبائل الجعليين Ja'llin(٣٦) .

---

(٣١) انظر الخريطة شكل (٣) .

(٣٢) Sudan National Archieve (S.N.R.) Report by G.A. Willis, Under the Heading Fung Prevince, dated 12, 7. 1926. وراجع أيضا Seligman, C.G., Pagan Iribes of The Nilotic Sudan, London, 1932, PP. 413-6.

(٣٣) S.N.A. Note On Sitt Amina (Amna)

(٣٤) S.A.A. Report by G.A. Willis, Op Cit. p 2.

(٣٥) S.N.A. Note on Sitt Amina (Amna)

(٣٦) S.N.A. Arkell, Souther District Commissioner, White Nile province (W.N.p.), Kosti 29 April, 1928. to the governor, W.N.P., El-Dueim.

وكان الزعيم الاقطاعى من الفونج يعرف باسم مانجيل Mangil وكان يتولى الإشراف على هؤلاء الزعماء فى المنطقة مانجيل الكبير ، الذى يعتبر نائباً عن ملك الفونج فيها . وقد مارس هؤلاء الزعماء الاقطاعيون نفوذهم شبه المطلق على أتباعهم بنجاح بطول الحدود الحبشية - السودانية . وكانت التلال تمتد عبر أقاليمهم، لتوفر لهم حماية طبيعية ضد الأحباش ، عدا فى منطقة الأنجسنا Angassana ، التى كانت مع منطقة بورون تحت الحماية المباشرة لمانجيل الكبير زعيم جولو Gulo، وهو أقوى من مارس السلطة باسم ملك الفونج فى سنار[٣٧] .

وقد دخل الأحباش إلى المنطقة فى أواخر عهد الدولة المهدية ، وتدعم الوجود الحبشى فى المنطقة بعد معاهدة ١٩٠٢، وصار الزعماء الثلاث لقبائل Watawit فى كل من بنى شنقول وخوماشا Ghomasha واصوصا Asosa يخضعون لحكم الحبشة، وصارت بلادهم، بالتالى ، مضطرة إلى التعرف على نمط جديد من الحكومات لم تألفه من قبل، وأصبحت عرضة لممارسات السلطات الحبشية القمعية العنيفة ، وطالبتها بدفع جزية باهظة[٣٨] .

وقد ترتب على هذا الوضع أن دب الخلاف بين بعض الزعماء المحليين واشتعل الصراع على السلطة بينهم، وصار كل منهم يقدم نفسه للسلطات الحبشية باعتباره زعيماً أوحد لقبيلته؛ فطالب حمدان أبو شوك زعيم قبه Gubba، وهو من أصل فونجى همقى - يحكم جوموز Gumuz ، أما خوجالى الحسن [٣٩] زعيم أصوصا فطالب بكل منطقة خوما. ولقد أدى كل هذا إلى نتيجتين خطيرتين :

---

(٣٧) S.N.A. Report by G.A. Willis, 12.7. 26. Selignan, C.G.: Op. Cit., PP. 416, 426.

(٣٨) S.N.A. Note on Sitt Amina (Amna).

(٣٩) وصف الوزير البريطانى فى أديس أبابا شيخ خوجالى في يونيو ١٩٢٧ بأنه رجل داهية وعلى قدر كبير من الذكاء والقوة، وغم تجاوزه السبعين من عمره، كما صورته زوجه ست آمنه على أنه الزعيم المطلق لقبيلة بيرتا، ولكل البيرتاويين فى السودان والحبشة، مهما هددت قواهم وجبالهم.

أولهما : توفر سوق لتجارة الرقيق فى المنطقة .

وثانيهما: فرار كثير من أبناء القبائل إلى السودان، هرباً من الحكم الحبشى ومطالبة الحكام الأحباش ومن يلونهم من الزعماء بعودتهم (٤٠) . والثابت أن منطقة الحدود شهدت عمليات هروب كثيرة ، حتى من أشخاص مرموقين، مثل الإمام عبد الله شيخ نوجارا Nogara الذى تكرر هروبه على جانبى الحدود، كما تكرر إيداعه السجن على جانبيها أيضا(٤١) .

ا - هجرة بعض الزعماء إلى السودان :

من أبرز عمليات الهجرة التى شهدتها السودان فى اعقاب المعاهدة هجرة زوجة زعيم أصوصا شيخ خوجالى الحسن، والمدعوة ست آمنه بنت الملك سعيد فى عام ١٩٠٥ ، بصحبة الشيخ حامد، وهو فصل اقطاعى وتابع مخلص للشيخ خوجالى الحسن . وقد رافقهما فى هذه الهجرة ستمائه من الاتباع دفعة واحدة ، من أجل الهروب من سوء نظام الحكم الحبشى وقد استقر المهاجرون فى جبل أورا Jebel Ora وصار حامد شيخا عليهم. وقد أخبرتهم حكومة السودان بأن وجوده وأتباعه داخل الأرض السودانية يجعلهم بالضرورة خاضعين لقوانينها وقد مات حامد فى عام ١٩٠٩، فخلفته ست آمنه شيخه أو عمدة على المنطقة - وصارت مدينة مورتوسورو Mortosoro عاصمة لها (٤٢) .

ويبدو أن الامبراطور منليك الثانى شعر بأن الضرورة تستوجب سحب قواته من منطقة الحدود المواجه الثورة الاوجادينية بقيادة السيد محمد بن عبد الله حسن ، وبعد أن تمكنت قواته من إرغام المنطقة الجديدة على دفع الجزية ، وبعد أن ازاق أهلها قوة جيوشه التى أعادت تجوس خلالها ديار من لا يدفع الجزية، في مواسم الحصاد . وقد سحب الامبراطور منليك الثانى قواته من المنطقة . واعترف بزعماء قبيلة الوطاويط الثلاثة فى بنى شنقول وخوما وأصوصا وأقرهم على بلادهم ، وذلك فى عام ١٩٠٨(٤٣) .

(٤٠) S.N.A. Report by G. A Willis.

(٤١) Sudan Government, Sudan No. 1 (1925) OP. Cit. PP. 8-9.

(٤٢) S.N.R. Report by Willis هذا وتقع موتوسورو حالياً داخل حدود أثيوبيا بعد سلسلة من التعديلات الحدودية.

(٤٣) S.N.A. Note on Sitt Amina (Amna).

ولقد أدار هؤلاء الزعماء أمور قبائلهم على جانبى الحدود دون كثير من الالتفات للأوضاع السياسية التى جدت بعد تحديد الحدود . وفى حالة شيخ خوجالى الحسن زعيم أصوصا ، نجد أنه فى غضون أكثر من ربع القرن التالى لخضوعه للحماية الحبشية حاول مرارا التدخل فى شئون مجتمع جبل أورا على أساس أن القوم الذين يعيشون فيه هم رعاياه. ولقد حظيت وجهة نظر الزعيم هذه بتأييد كامل من المهاجرين ، الذين اعتبروا أنفسهم ملتزمين تماماً أمام زعيمهم أولاً وقبل كل شىء . وقد عبرت ست آمنة مراراً عن هذا الوضع حين أبدت امتعاضها من السلطات المحلية فى السودان، ورفضت الخضوع لعمدة المنطقة، وقررت أن تتعامل مباشرة مع الإدارة البريطانية في كورموك Kurmuk، وذلك باعتبار أنها تتولى الإشراف على شعبها من قبل شيخ خوجالى، وهى بالتالى ، كشيخه عليهم ، تعتبر نفسها مسئولية أمام الحكومة عنهم . ثم إن لها، فى نظر نفسها ، وضعاً ملكياً خاصاً cauasi-royal status وينبغى أن تعامل بما هى أهله من هيبة ووقار، ولقد قبلت حكومة السودان هذا الوضع حين تبادل الحاكم العام والسيدة قرينته ليدى وينجت الهدايا مع ست آمنة فى عام ١٩١٦[٤٤] .

٢- علاقة الزعماء بمهاجرى قبائلهم وراء الحدود :

طالب شيخ خوجالى الحسن بالسيادة الاقطاعية Feudal Lordship على كل قبيلة خوما Khoma، التى ينتمى إليها أتباعه الذين رافقوا ست آمنة، إضافة إلى قبيلة البيرتا . وقد قام هؤلاء المهاجرين بزراعة مساحات كبيرة من الأرض تكفى مؤنتهم، وصارت مورتوسورو Mortosoro، مركزا لحياة نابضة داخل الحدود - السودانية ، ومقرا ثابتاً لست آمنة ، تشرف منه على عمل أتباعها . وعلاقة ست آمنة بهؤلاء الأتباع هى علاقة السيد بخادمه الإقطاعى، إلا أن السلطات البريطانية كانت تعتبر ذلك نوعاً من الرق. ولقد أكد أكثر من مراقب للأحداث خلال هذه الفترة أن هؤلاء الأتباع كان أقرب إلى الخدمة الإقطاعية، من كونهم رقيق خدمة منزلية .Feudal Serfdom Rather Than Domestic Slavery[٤٥] .

---

(٤٤) S.N.A. None On Sitt Amina (Amna).

(٤٥) Ibid

ولم يكن خوجالى الحسن وحيداً فى موقفه هذا، فإن غيره من الزعماء فى منطقة الحدود كان لهم نفس الرأى . ويمكن القول بأن كل قبيلة الوطاويط هذه والتى انتشرت بطونها على جانبى الحدود ، مرت بنفس الظروف واشتركت فى نفس الرأى. فإذا كان ما سبق لنا أيضاحه من آراء خوجالى الحسن مُعبراً عن أحد أقوى بطون القبيلة ، وهو الركابية Rikabia ، فإننا نجد مثيلاً لآرائه تلك لدى البطون القبلية الأخرى الممتدة في بنى شنقول وأصوصا ، لا سيما فى قبة حيث يحكم حمدان أبو شوك، وفى جبل بيلوارا Belwara، قرب كورموك ، حيث بطون عراكيين Arakiin أو الكباشاب Kubashab ، ولدى أقربائهم من كباشاب دار محارب، وكذلك لدى بطون الحضر Hodor والعقباب Ugubab فى عمق أصوصا داخل الحبشة، ولدى بطون تورجورى Tor Juri، من أتباع شيخ توم باناقه Tom Bannag على النيل الأزرق ، ولدى بطون البديرية Bedeiria، والذين يعرفون بناس واد محمود فى جبل دول Jebel Dul، ولدى بطون الخناقية Khanagia، والذين يعرفون باسم ناس أحمد، وهم أقرباء لخوجالي الحسن ، ولدى بطون الربوطاب Rubutab، والذين يعرفون باسم ناس محمد حسن فى فداسى . Fadasi وكانت هذه البطون جميعها تضطر إلى التجارة في الرقيق، حين يشتد ضغط الحكومة الحبشية المركزية عليها لدفع ضرائب مبالغ فيها، فتزداد بالتالى تحركات القبائل هرباً من تحمل ما تنوء به من التزامات، ويزداد أيضاً هروب الرقيق منها إلى داخل السودان[٤٦] .

وقد اعتاد شيخ خوجالى الحسن أن يرسل لزوجته عدداً من أتباعه لزراعة المنطقة الواقعة بين جنوب مورتوسورو على نهر يابوس Yabus داخل السودان ، وبين منطقة إقامته داخل الحبشة . والواضح تماماً أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبيلة لم تتأثر كثيراً بتحديد الحدود ، وأن أغلب التأثيرات وقعت على عاتق الزعماء الذين كان عليهم الاتصال بالسلطات الحبشية، باعتبار أنهم

(٤٦) S.N.A. Ar Kell, Southern district Commissioner, (W.N.P) Kosti, 29 April 1928 to the governor, (W.N.P) El dueim.

وراجع عن القبائل الواردة أعلاه MacMichael, H.A: Op. Cit., PP. 200, 209, 271, 329, 333, 346.

علي رأس الهرم السلطوى مطالبون بتقديم فروض الولاء والطاعة للحكومة الحبشية ، ومكلفون بإرسال ما افترضته عليهم هذه الحكومة من جزية(٤٧) ، فضلاً عما كان يرسله إلى أديس أبابا من رقيق ، خلال رحلاته إليها ، كهدية للحكام والرؤوس الأمهرة(٤٨) .

وقد أخذت ست آمنة جزءاً كبيراً من الممتلكات المنقولة لزوجها شيخ خوجالى خوفاً من المصادرة الحبشية لها. بينما كان على زوجاته الأخريات داخل الحدود الحبشية فى مناطق أصوصا وكيرين Kirin وبيلميتى Belmiti ، أن يراعين الممتلكات شبه الثانية من أرض وماشية. وكان بيت خوجالى في كيرين هو أهم بيوته إطلاقاً؛ ففيه تُحفظ الأسلحة والذخائر، ويقيم رجاله ورقيقه الذين يحملون السلاح ، إذ يتولى الإشراف عليه أحد أتباعه، يعرف باسم البمباشى . ولقد كان وضعه هذا قريباً من وضع قادة المهدية، بل إن خوجالى يوصف بأن له ما كان لهم من ذكاء وتوقد . ولما كان ابنه المهدى هو ابن ست آمنه أيضاً ويقيم في كيرين، ولما كان وكيل أبيه العام، وموضع ثقته، فإن الحكومة الحبشية قد اعترفت به خليفة الأبيه فى حالة غيابه . وقد وُصفَ بأنه «مهدى» ودرويش» فى كل تصرفاته(٤٩) . وهكذا خضع أناس ينتمون تماماً للمجتمع السودانى للحكم الحبشى.

وكان خوجالى يرسل بأبنائه الكثيرين ، الذين يصلون لسن الثامنة أو التاسعة إلى كيرين ليعنى بهم البمباشى ، ويقوم بتدريبهم على السلاح وركوب الجياد والصيد والقنص(٥٠) .

ويمكن لنا أن نقول إن كل المنطقة الحدودية الممتدة من النيل الأزرق إلى خور داجا Daga عاشت بعد تحديد الحدود نفس الظروف ، حيث صار الزعماء العرب، السودانيون سابقاً، رعايا أحباشاً، وصارت قبائلهم من برتاوية وغيرها تحيا على جانبى الحدود. ورغم المشاكل التى ترتبت على تقسيم هذه القبائل بين سلطتين

(٤٧) S.N.A. Report by G.A Willis.

(٤٨) S.N.A. Khojali el Hassan's Household, Report by an Informant Who Lived There, but left the District In 1918.

(٤٩) Ibid. pp. 1-2.

(٥٠) Ibid. p. 1.

سياسيتين، فإنها كانت تمارس حياتها التي اعتادتها قبل التقسيم. وصارت حكومة السودان مضطرة إلى القبول بوجودهم، رغم ولائهم المشترك ، سياسياً لها واجتماعياً لزعماء من رعايا الحبشة، وذلك بعد ما تأكد لها أن طردهم لن يؤدى إلى خير بسبب اعتماد اقتصادهم على الانتقال الدائم عبر الحدود ، التي لم تراع هذا الوضع(٥١) .

ولقد تحكمت الزعامات التقليدية من أمثال خوجالى الحسن وحمدان أبى شوك، لحد كبير فى تحركات قبائلهم على جانبى الحدود. ولكن كان هناك عامل آخر أدى إلى تحرك جماعات من أتباعهم، دون موافقتهم، بعيداً عن نفوذهم. ولقد ساعد على هذا التحرك اختلاف نظامى الحكم علي جانبى الحدود ، وتباين وجهتى نظر كل منهما إزاء القبائل المحلية. فهذه القبائل الخاضعة بشكل مطلق لسلطة الزعيم فى الحبشة، هى فى نظر الإدارة البريطانية فى السودان قبائل مستعبدة، فإذا ما فر بعض رجالها إلي السودان رفضت حكومتها إعادتهم، واعتبرت وجودهم فيها تحريراً لهم من ربقة الاستعباد . وقد تزايدت حركة الهروب إلى السودان ، بسبب تركيبة المجتمع الحبشى وسيطرة مسألة الاسترقاق علي سوق العمل فيه، من ناحية، وبسبب إصرار حكومة السودان على عدم إعادة الفارين إلى الحبشة. وكان كثير من الزعماء التقليدين عاجزاً عن تصور كيفية سماح حكومة السودان لرعاياه بالحياة الحرة وإبعادهم عن سيادته. ولقد أدى هذا إلى توتر العلاقات بين حكومة السودان وبين الزعماء داخل الحبشة من حين إلى آخر(٥٢) .

ومن هؤلاء الأتباع البسطاء، الذين كانوا ينتقلون للزراعة من مكان إلى آخر حسب أمر أسيادهم الأقطاعيين، من لم يكن يعلم على وجه اليقين هل يقع موطنه داخل الحبشة أم داخل السودان. وكانت هذه الحقيقة واضحة تماماً بالنسبة لسكان منطقة دابوس ، الذين تمتد قراهم على طول خور دابوس، وتعرف جميع هذه القرى بأسم دابوس مع إضافة إسم محلى إليها، ربما كان إسم العمدة،

(٥١) S.N.A. Not e from Mr 1. f Nolder, Governor Fung province To.

(٥٢) S.N.A. Report by G.A. Willis.

أو إسم عائلته التى تتوارث المنصب ، أو ما إلى ذلك ولعل الجهل بحقيقة إنتماء هذه القرية أو تلك لأحدى السلطتين على جانب الحدود يعكس - وبقوة - ضعف الانتماء السياسى فى المنطقة من ناحية، وقوة الانتماء القبلى من ناحية أخرى وعجز الحبشة عن كسب ولاء أهالى المنطقة عن طريق إيجاد مصلحة مشتركة بينهم وبين السلطة المركزية ، من ناحية ثالثة(٥٣) .

٣- صراع الزعماء فيما بينهم على جانبى الحدود :

وقد أدى عجز الحبشة هذا ، وضعف إشراف حكومتها المركزية على المنطقة الجديدة إلى سنوح فرصة للصراعات بين الزعامات التقليدية وإلى إمكانية فرار أحدهم إلى السودان، ومحاولته تزعم البطون المقيمة بها من قبيلته. وفيما يتعلق بقبيلة البيرتا فقد كان من دأب أباطرة الحبشة أن يحتجزوا أبناء الزعماء فى بلاطهم، أو حتى الزعماء أنفسهم ، ضماناً لاستتباب الأمن فى أقاليمهم. ومن هنا فإن شيخ خوجالى ذهب إلي أديس أبابا ذات مرة ولم يعد، بينما اعترفت الحكومة الحبشية بابنه المهدى حاكماً وزعيماً على بلاد أصوصا ، خلفاً لأبيه(٥٤). وقد أثار هذا حفيظة أخ له غير شقيق هو أحمد خوجالى . وقد يمكن لنا أن تظن أن السلطات الحبشية كانت تحاول إرغام ست آمنة على العودة إلى الحبشة بممتلكاتها الكبيرة، وحتى تجعلها تحت رقابتها، ولكنها فشلت في ذلك. أما أحمد فيبدو أنه أراد الزعامة على قبيلته داخل الحبشة، على أن تكون الزعامة للمهدى داخل السودان ، حيث توجد ست آمنة (٥٥) .

وقد أصدر شيخ خوجالى أمره من أديس أبابا إلى ابنة المهدى بقتل أخيه أحمد، وأن يحكم السيطرة على الأمور فى غيابه . ولكن أحمد فر إلى السودان مع عدد من أتباعه نجاة بنفسه. وقد عاد أحمد إلى الحبشة بعد ذلك ، حيث توجه إلى أديس أبابا ، لتقديم شكواه للحكومة المركزية (٥٦) .

---

(٥٣) انظر شهادة بعض المهاجرين ، ولا سيما مريم بنت موسى من قبيلة الوطاويط والمقيمة فى دابوس فى : S.N.A. Fung Provice 41/D/15, Singa, 22 April , 1926.

(٥٤) S.N.A. Khojali El Hassan's Honsehold p. 1.

(٥٥) S.N.A. M.R. D.M. purves, Acting Governor, Fung Province Singa 3.10.26, to civil Secretary. Khartoum.

(٥٦) S.N.A. Daga District Intelligence Report, Jan. 1928.

على أنه إبان فترة بقاء أحمد فى السودان كان بعض رفاقه قد استقر فيه بالفعل وفضل عدم العودة إلى الحبشة ، فقامت حكومة السودان بمصادرة بنادقهم (٥٧) .

ومن المهم هاهنا أن نحاول تفهم وتحليل نظرة السلطات البريطانية فى السودان لهذا الصراع. والواقع أن هذه السلطات اعتبرت أن وجود زوجة الشيخ خوجالى لديها هو عامل من عوامل توطيد أواصر الصداقة مع هذا الزعيم القوى. وعلى الرغم من أن زوجة خوجالى قد ضبطت متلبسة بتجارة الرقيق بين السودان والحبشة ، فإن السلطات البريطانية ترددت إزاء التزامها الأدبى والقانونى بإنزال العقاب بها، أو على الأقل طردها خارج السودان، بسبب رغبتها فى الحفاظ على صداقة زوجها (٥٨) .

وكانت آمنة ذاتها تخشى غضب حكومة السودان عليها ، وتوجست خوفاً من إعادتها للحبشة ، فأعلنت اعتذارها عن أية ممارسات خاطئة لها ، وحاولت أن تومىء إلى أن الأمر أقرب ما يكون إلى مؤامرة حبشية ضدها تستهدف تشوية صورتها الناصعة أمام حكومة السودان لإرغامها على العودة إلى الحبشة (٥٩). وأكدت ست آمنة أنها «ليس لها ملجأ سوى حكومة السودان، والتى تدعو ليل نهار أن تستمر فى الحكم ... إنها أعدل حكومة وإن رجالها أعدل حكام، ونحن رعاياكم... وإنى أمتثل للحكومة فأفعل ما تأمر به ، وأنتهى عما تنهانى عنه» (٦٠).

ولقد استجابت حكومة السودان لتلميح ست آمة ، على الفور فعفت عما سلف منها . وعلى الرغم من أن حكومة السودان أكدت لها ضرورة تحملها مسئولية تصرفاتها وتصرفات أتباعها، حيث أعتبرتها مسئولة أمامها عن عدد من القرى ، فإن نائب السكرتير الإدارى فى الخرطوم أرسل إلى حاكم إقليم الفونج فى سينجا فى ١٠ أكتوبر ١٩٢٦، يأمره بتخفيف حدة إنذاره لست آمنة ، وذلك بحذف عبارة

(٥٧) Ibid.

(٥٨) S.N.A. Report by G.A. Willis.

(٥٩) S.N.A. Mr. D.M. purves Acting G. overnor F.P., Singa, 3.10.26 to Civil Sec. Khartoum.

(٦٠) S.N.A. Amna Bint Saad to the Goverar F.P., Singa.

«إجبارها على العودة إلى الحبشة» إن عادت إلى مخالفة أوامر الحكومة، إلى عبارة «النظر بجدية فى أمر بقائها فى السودان فى حالة مخالفتها أوامر الحكومة» (٦١).

٤- اضطراب الأمن على جانبى الحدود :

أدت هذه الحالة من عدم الاستقرار السياسى ، وعدم وضوح الهوية والانتماء إلى اضطراب الأمن على الحدود . فقد عجزت الحبشة على ملىء الفراغ السياسى الناتج عن انسحاب الحكم المهدى أولاً، وعن تنازل بريطانيا لها عن المنطقة ثانياً. فشهدت الحدود، وبخاصة المنطقة الجبلية المواجهة لمدينة كورموك Kurmuk السودانية ، نشاطاً ملحوظاً لعديد من العصابات الخارجة على القانون ، أو على الأصح الخارجة على القانونين الحبشى والانجليزى، وصارت المناطق الجبلية الوعرة ملجأ لهذه العصابات التى صارت تفر من كل جرم تقترفه فى الحبشة إلى السودان ، ومن كل جرم تقترفه فى السودان إلى الحبشة بينما نفضت السلطات الحبشية يديها من أغلب هذه الأمور، وتركتها للزعماء المحليين (٦٢).

ومن أبرز الأمثلة التى تقدمها لنا وثائق الجيل التالى لمعاهدة ١٩٠٢ ، عصابة محمد واد محمود، الذى اشتهر أمره وذاع صيته في مسائل السلب والنهب على جانبى الحدود ، مستخدماً أعداد كبيرة من أتباعه أو رقيقه . وقد طلبت حكومة السودان من السلطات الحبشية مراراً وتكراراً بين عامى ١٩١٧ ، ١٩١٩ أن تكبح جماحه وتردعه . وأخيراً وفى العام الأخير ، كلفت الحكومة الحبشية شيخ خوجالى الحسن بالتخلص من المنطقة ، وتمكن خوجالى من هزيمته وقتله . إلاّ أن بعضاً من رقيقه وأتباعه رفضوا الاستسلام للسلطات الحبشية ، وظلوا يمارسون السلب والنهب واللصوصية وقطع الطريق ، باستخدام الأسلحة النارية والجياد، لأكثر من عقد كامل نجحو خلاله فى الحصول بأستمرار على ذخائرهم،

(٦١) S.N.A. Acting Cirl S ecretary 10.10.26 to the Governor F.P., Singa.

(٦٢) S.N.A. Mr E.N. Gorbynop, Fung Province, Singa, To Civil Secrtary, Khartoum, 29 March 1926.

وفى تجنب السلطات الحبشية والسودانية على جانبى الحدود . وعجز شيخ خوجالى الحسن المكلف بالقضاء عليهم ، عن الضرب على أيديهم (٦٣).

وعندما خلف شيخ محمد المهدى خرجالى أباه خوالى الحسن فى حكم قبيلته عجز أيضاً عن كبح جماح عصابات محمد واد محمود . وقد تكررت إعتداءات هذه العصابات على بعض القرى السودانية . ولما لم تجد مطالب السلطات البريطانية إلى السلطات الحبشية بكبح جماحها ، آذاناً صاغية فقد أرسل مساعد مأمور كورموك يوم ٦ فبراير داورية نظامية خرجت إلى مورتوسورو ، عن طريق جبل جيروك من ناحيته اليسرى . وكانت الداورية تضم باش شويش وثلاث جنود شرطة. وقد تعرضت الداورية فى الخامسة مساء لهجوم خاطف من عصابة قدر عدد رجالها بأربعين رجلاً . ورغم ذلك فقد صمد رجال الداورية للهجوم ، حتى تمكنوا من قتل ثلاثة من اللصوص وأسر اثنين منهم بينما فر الباقون إلى جبل بورو Borro فى الحبشة (٦٤).

وفى الحبشة مارس رجال العصابات ما اعتادوه من قطع الطريق ، حتى أرسل محمد المهدى خوجالى خطاباً فى ٣٠ يناير ١٩٢٦ إلى مستر ديفيز C.G. Dives مساعد مدير إقليم الفونج الجنوبى Ass istaut District Commissioner في كورموك، يخير فيه بهجوم أتباع محمد واد محمود على دول Dul من جبل جيروك ، ويفيد بأنهم أسروا أربعين رجلاً من أتباعه، ويطالب السلطات السودانية بالتخلص من هذه العصابة من قاطعى الطريق من على الحدود ، وإعادة رجاله إليه (٦٥).

وقد اعتبر حاكم مديرية الفونج - في خطاب أرسله من عاصمته في سينجا إلي السكرتير الإدارى فى الخرطوم - اعتبر المهدى وقحا لأنه يطلب العمل علي كبح قوم هم فى الحقيقة من «رعايا الحبشة» . وعلى أية حال فقد أمر مستر ديفيز رجال الشرطة بتفتيش جبل جيروك. وتحرك الصول على رأس اثنى عشر رجلاً ، مع رسول محمد مهدى خوجالي، إلى قرية جيل جيروك داخل الحدود

(٦٣) Ibid.

(٦٤) Ibid.

(٦٥) S.N.A. Mr. E.N. Corbyn, Gov. F.P. to Civil Secretary 29 March 192.

السودانية، حيث عثر ، على بُعد بضع مئات من الياردات منها، على مأوى للصوص يضم أكواخاً قديمة ، وأخرى حديثة ، ولكن لم يعثر على أحد من اللصوص . وبعد مزيد من البحث والتفتيش عُثر على واحد وعشرون شخصاً مختبئين داخل أحد الكهوف، فأحضروا إلى كورموك. وقد اتضح أنهم هم الأشخاص الذين يطالب شيخ محمد المهدى بعودتهم إليه، كما اتضح أيضاً أنهم هربوا إلى اللصوص برغبتهم ، ولم يتم خطفهم قهراً (٦٦).

هذا وقد أنزل مستر ديفيز العقاب بمكوك جيروك، لعدم إخبارهم إياه بوجود هذه المستوطنة للصوص على الجبل . ولقد كان يمكن الحدس بوجود مزيد من مستوطنات الخارجين على القانون على جبال المنطقة (٦٧).

وقد استمر الأتباع القدامى لمحمد واد محمود فى القيام بهجمات خاطفة على جانبى الحدود . وقامت عصابة منهم كانت تعسكر فى جبل دول بالهجوم على بعض أتباع شيخ محمد المهدى وقتلوا وخطفوا ستة منهم . وقد طلب المهدى من أبيه شيخ خوجالى - الذى كان محتجزاً فى أديس أبابا - أن يطلب إلى الحكومة المركزية إرسال قوات إليه لمهاجمة جبل دول داخل الحبشة. ولكن لما كان وصول هذه القوات يستغرق ما يزيد عن شهرين، فقد قام المهدى بإخبار المسئولين البريطانين بأنه سيقوم بإجراءات عسكرية على الحدود ، وطلب إخطار سكان القرى السودانية بذلك، لئلا يتعرضوا لنيران قواته. هذا وقد مشط المهدى ورجاله الغابة الواقعة وراء جبل جيروك ، ولكن كان واضحاً أن رجال العصابات قد انتقلوا من المنطقة بعد هجومهم (٦٨).

وهكذا أدى انقسام قبيلة واحدة على جانبى الحدود السودانية الحبشية إلى ضياع مسئولية حفظ النظام فيها بين سلطتين، وصارت حياة الآمنين عرضة للترويع فى كل لحظة .

---

(٦٦) Ibid.

(٦٧) انظر نص خطاب محمد المهدى خوجالى إلى مستر ديفيز فى .Ibid

(٦٨) S.N.A. Mr J.T.B Chata way, Acting District Commissiner, Southern Fung, Kurmuk, 26 Dec. 1927 to Governor, F.P. Southern District Comm., Roseires.

ولم يكن ترويع الآمنين هذا قاصراً على ممارسات بعض العصابات ، بل إن بعض المسئولين الأحباش قد قاموا بقدر يعتد به من الممارسات العنيفة على الحدود [٦٩]. ومن أمثلة ذلك ما قام به فيتورارى زللاكة F. Zallaka بصحبة عدد من رجاله لا يقلون عن مائة وسبعين جندياً مسلحين بالبنادق من صيد وقنص عند منطقة نهر ديندر فى إقليم جاليجا Galega، وذلك في أبريل ١٩٢٥ ، حيث جمعوا كمية كبيرة من العاج. ومن ثم فقد قامت شرطة حكومة السودان مراراً بمصادرة قوافل العاج الحبشية ، فعهدت السلطات الحبشية بشكل غير رسمى على ما يبدو لأحد ضباطها بالعمل على استعادة العام أو الحصول على تعويض مماثل . ولكن الضابط رفض عبور الحدود دون أوامر مكتوبة من قائده، وقد أرسلت داورية من الكتيبة الثانية عشرة إلى المنطقة ، ولكن القوة الحبشية عادت إلى سايو Sayo قبل وصولها . وقد استمرت العصابات الحبشية تذرع منطقة الحدود جيئة وذهاباً ، وقامت بمصادرة القوافل التجارية، وحدثت بينها وبين شرطة السودان وبصفة خاصة فى منطقة الرهد - مصادمات مستمرة. كذلك فقد شهدت منطقة الحدود حركة نشيطة لتهريب الأسلحة الحبشية داخل السودان ، لأنها كانت تجد فيه سوقاً رائجة نظراً لأرتفاع أسعارها فيه بشكل أكبر منه فى الحبشة [٧٠].

٥- هجرة البروتاويين إلى السودان وسياسة حكومته إزاءهم :

شهدت منطقة الحدود هجرة مستمرة لجماعات صغيرة من البرتاويين إلى السودان ، حيث يعيش أقرباؤهم. وعلى الرغم أن هذه الجماعات لم تكن تقارن ، من ناحية العدد ، بهجرة كبيرة مثل هجرة أسرة خوجالى ، إلا أنها كانت هجرة مستمرة . وقد تدافعت جماعات تضم كل منها رجلين أو ثلاثة إلى كورموك والروصيرص. وكذا فرغم أن هؤلاء المهاجرين لم يكونوا رقيقاً، بل كانوا أشبه بأقنان الأرض Serfs فإن سادتهم داخل الحبشة طالبوا بعودتهم بإلحاح شديد، كما طالبوا بدفعهم ما كان مرتباً عليهم من ضرائب سنوية . كما كان بعضهم مطلوباً فى جنايات ارتكبها قبل هجرته ، أو هروبه على الأصح [٧١].

---

(٦٩) راجع ص٨ من هذه الورقة .

(٧٠) Sudan Government, Sudan No. 2 (1926) pp. 10-11-, 62.

ويبدو ضرورياً أن نعرض لسياسة حكومة السودان إزاء هؤلاء المهاجرين أو اللاجئين، مثلما عرضنا لموقفها من الزعماء . وقد حددت إدارة إقليم الفونج معالم هذه السياسة، من ناحية المبدأ ، فى عدم إجبار هؤلاء اللاجئين على العودة إلي الحبشة ، ما لم يثبت ارتكابهم لجرائم يعاقب عليها القانون، فيتم تسليمهم لحكومتها . أما بقية اللاجئين فقد قام حاكم الجزء الجنوبى من إقليم الفونج بإنشاء عدد من القرى والمستوطنات في منطقة الروصيرص ، بغية توطينهم فيها إن رغبوا فى ذلك ، أو يرسل بعضهم لإقليم شمال الفونج ، وتبذل الجهود لمنع تشرد أى منهم، وذلك بتعيين شيوخ عليهم ، فى كل قرية . هذا ويمنح المهاجرون أرضا لزراعتها ، تشجيعاً لهم على الاستقرار. أما من أراد منهم العودة إلى الحبشة فعليه أن يدفع ضرائب العام . وقد جرت عادة إدارة الإقليم عندما تكون حالة الفقر والضنك واضحة على اللاجئين أن تمنحهم قروضاً لتمكينهم من زراعة الأرض، حتى يمكنهم جنى المحاصيل ، كما يُعفون من سداد ضرائب العام الأول لاستقرارهم، حتى يوطدوا أقدامهم فى أوطانهم الجديدة (٧٢).

وقد أحرز اللاجئون نجاحاً فى مستوطناتهم الزراعية ، وبصفة على أخوار تومبا في Tombakh ويابوس Yabus وخوما على الداجا، ولثبتوا أنهم عمال مهرة، وزراع أكفاء (٧٣).

وقد اضطرت حكومة السودان إلى الإسراع بفتح مستشفى سينجا قبل الموعد المقرر لذلك (٧٤).

على أية حال فقد تحمل السودان عبء إيواء المهاجرين واللاجئين الأحباش وتوطينهم وتوفير فرص العمل لهم، وتمليكهم الأرض. بينما كانت الحكومة الحبشية لا تكتفى بجباية الجزية ، بل يقوم ضباطها بغارات على قبائل الحدود .

(٧١) S.N.A. Mr. D.T Bothell, Acting Governor, F.P Singa, September, 15, 1927 to Civil Secretary, Khartoum P. 1.

(٧٢) S.N.A. Mr. D.T. Bothell, Op. Cit., PP. 1-2.

(٧٣) S.N.A. Report by Mr. G.A. Willis, 21. 7. 26.

(٧٤) Sudan Government, Sudan No. 2 (1926) Op. Cit, P. 62.

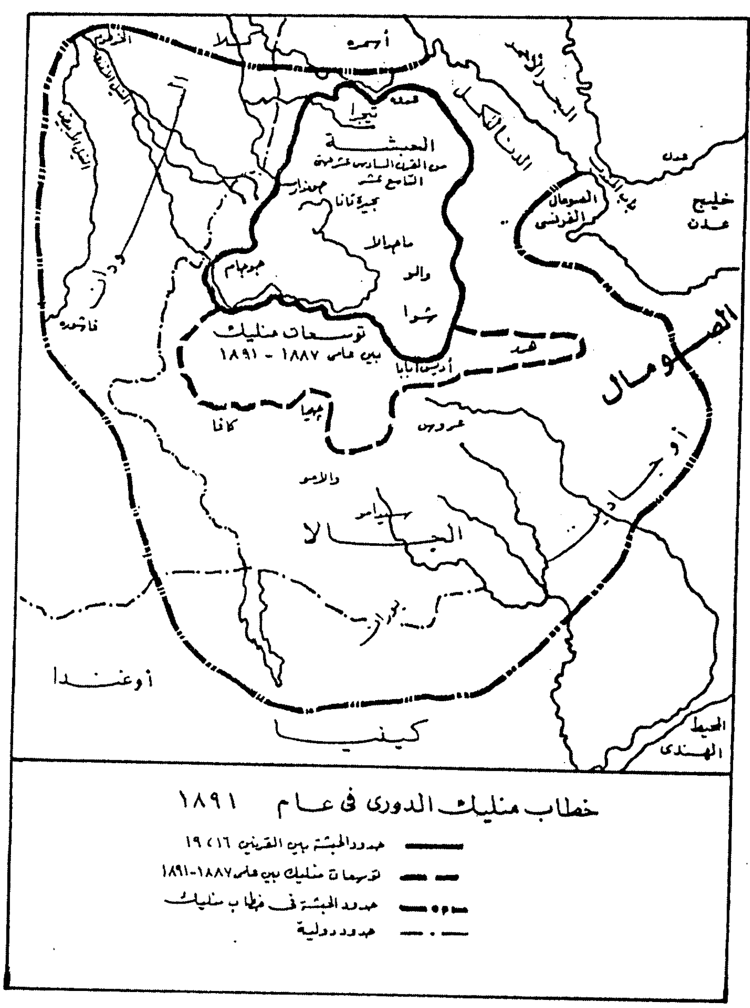
الخــاتمـة

ترتب على تحديد الحدود السودانية الحبشية ، فى وقت سيطرة بريطانيا الفعلية على مقدرات الأمور فى وادى النيل أن انقسمت بعض القبائل السودانية على جانبى الحدود. ولم تكن تلك هى خسارة السودان الوحيدة ؛ بل إن حكومة السودان قد حملت ميزانيته أموالاً لا يستهان بها من أجل العمل على إقرار الأمن والنظام على الحدود ، وبصفة خاصة بعد أن ضربت حكومة الحبشة عرض الحائط، باتفاقية تحديد الحدود فى ١٩٠٢، وواصلت العمل على التوسع داخل الأرض السودانية، للسيطرة على مزيد منها .

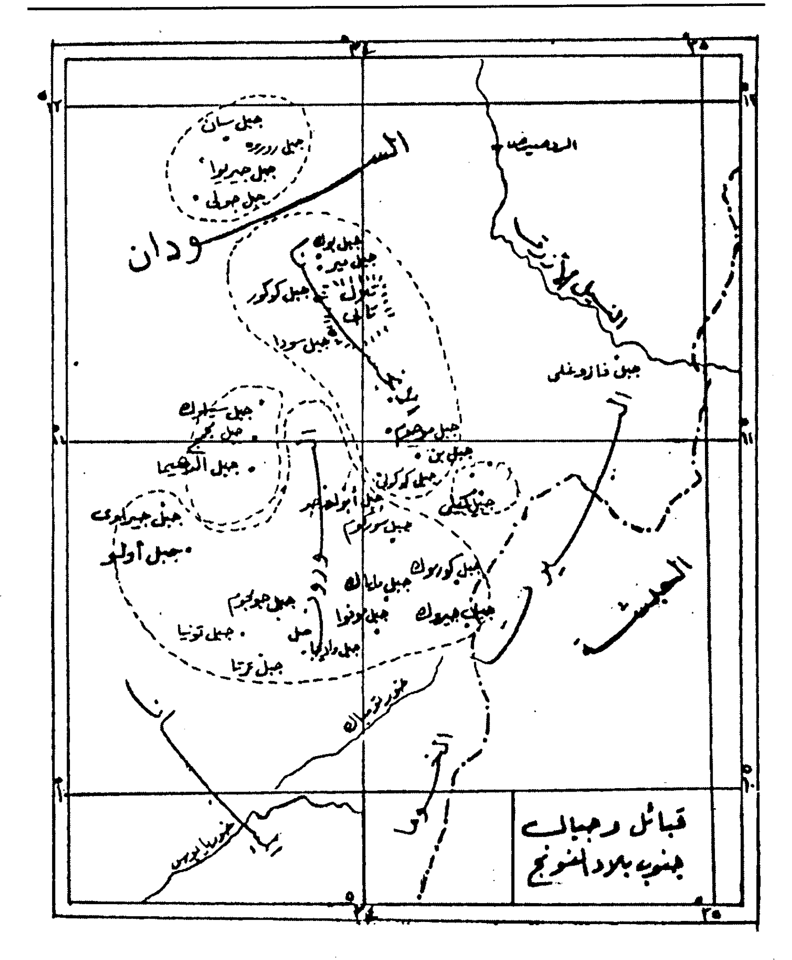
وقد أدى عجز الحكومة المركزية الحبشية وسلطاتها المحلية فى ربط المنطقة التي حصلت عليها من أرض السودان بالوطن الحبشى الأم، وفشلها فى إيجاد مصالح مشتركة بينها وبين رعاياها فى تلك المنطقة ، فضلا عن تكريسها لسياسة العنف إزاء هم وتركيز جهدها على جباية الجزية، دون تقديم خدمات تذكر للأهالى . أدى كل هذا إلى شيوع روح الكره للحكم الحبشى، والرفض له ، وهو الأمر الذى أدى بالتالى إلى فرار كثير من أبناء القبائل الخاضعة له، بل وبعض زعمائها إلى السودان.

وقد اضطرت حكومة السودان إلى القيام بجهد كبير من أجل توطين هؤلاء المهاجرين وتقديم المساعدات لهم ، وإقامة مستوطنات لإيوائهم ، ومدهم بالقروض وإعفائهم من الضرائب إلى حين تثبيتهم لأقدامهم فى الوطن الجديد.

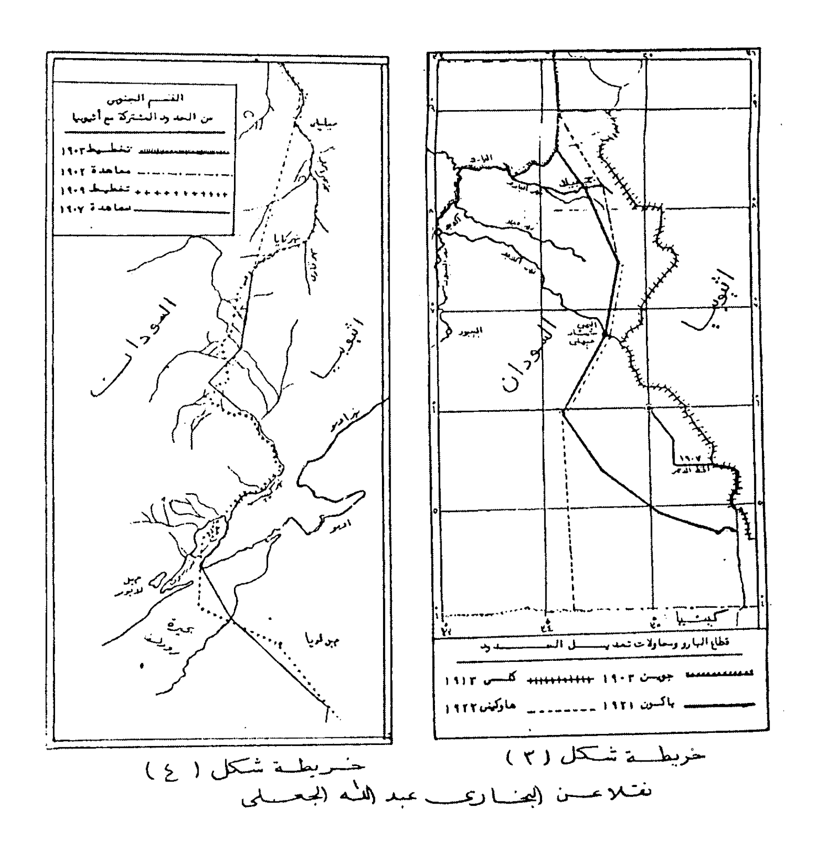
ولقد يبدو الأمر كأنما هو مقدور على شعب السودان أن يستضيف اللاجئين من الحبشة مع مرور الأيام. والواقع أن حل مثل هذه المشاكل لا يتأتى إلا بأن تخطط الحدود تخطيطاً صحيحاً ، وعلى الطبيعة، مع مراعاة أن ترتبط كل البيئات الطبيعية بأهلها، وأن يكون هدف الحكومات هو تقديم المقابل الفعال من تنمية اقتصادية واجتماعية لقاء ما تجبيه من ضرائب ، فليس الأمر أمر توسعات أرضية فقط ، بل إن للشعوب ، لدى حكامها، حقوقاً هى أولى بالرعاية من كل شيء.


أسمرة
تيجرا
الحبشة
مصوع
عدن
خليج عدن
الصومال الفرنسى
جوجام
بحيرة تانا
والو
شوا
توسعات منليك بين عامى ١٨٨٧ - ١٨٩١
أديس أبابا
هرر
الصومال
كافا
جيما
والامو
البحر الأحمر
أوغندا
كينيا
المحيط الهندى
خطاب منليك الدورى فى عام ١٨٩١
حدود الحبشة بين القرنين ١٦، ١٩
توسعات منليك بين عامى ١٨٨٧-١٨٩١
حدود الحبشة فى خطاب منليك
حدود دولية

خريطة شكل (١)

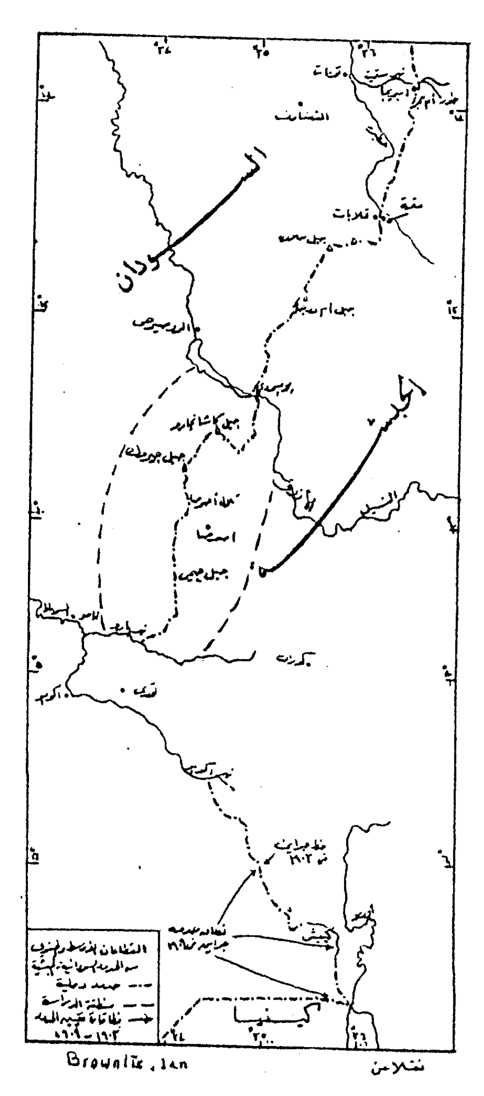


خريطة شكل (٢١)

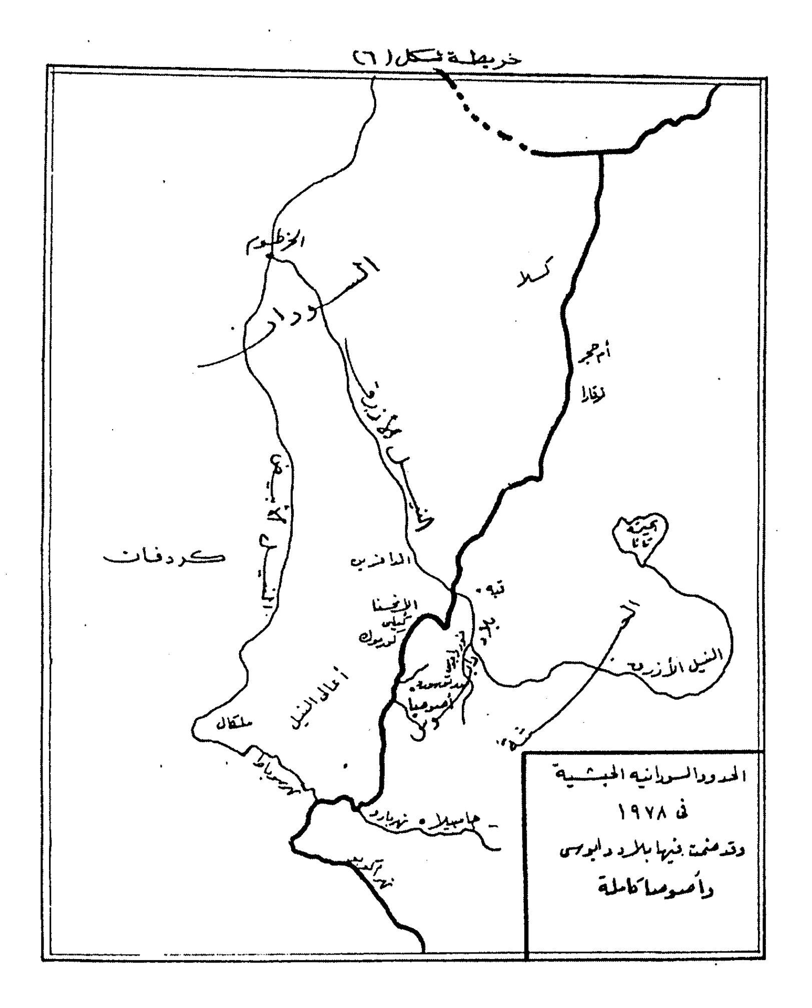


خريطة شكل (٤) — خريطة شكل (٣)

نقلا عن البخاري عبد الله الجعلي



خريطة شكل (٥)


خريطة شكل (٦)
الخرطوم
السودان
كسلا
أم حجر
كردفان
أعالي النيل
ملكال
بحيرة تانا
النيل الأزرق
الحدود السودانيه الحبشية
في ١٩٧٨
وقد ضمت فيها بلاد دابوسى
وأصوصا كاملة

المصـــادر والمراجــــع

ا - وثائق غير منشورة:

F.O. .

- F.O. 4.3/255, Menelek to Rodd, 13 May 1897.

- F.O. 1/32, Salisbury, s Instruction, s to Rodd.

- F.O. 403/255, Memomrandum by Wingate, 7 May 1897.

- Sudan National Archieve (S.N.A.)

- Report by G.A Willis, Under the Heading Fung Province, 12.7. 1926.

- Note on Sitt Amina (Amna).

- Amna Bint Saad to the governor, Fung Province, Singa.

- Arkell, Southern District Commissiones White Nile Province (W.N.P) Kost, 29 April 1928, to the Governor (W.N.P) El-Dueim .

- Khojabi El Hassan,s Household, Report by an Informtion who lived There, but left the District in 1918.

- Note From Mr L.F. Nalder, Governor, Fung province, to Mr Davies, Director of Intelligence, Written at Khartoum 29.3. 1928.

- Fung Province / 41/D/15, Singa, 22 April 1926.

- Mr. D.M. Purves, Acting Governor, Fung Province, singa; 3.10.26 to Civil Secretary; Khartoum.

- Daga Province intelligence Report; Jan 1928.

- Acting Civil secretary, 10.10.26 to the goernor, F.P. Singa.

- Mr. E.N. corbyn, Governor, F.P. Singa, to Civil Secretary, Khartoum, 29 March, 1926.

- Mr. J.T.B. Chataway, Acting district Commissioner Sowthern Fung; Kurmuk, 27 Dec. 1927 to the Governor, F.P. Thro District Comm, Roseires.

- Mr. D.T. Bothell, Acting Governor, F.P., September 15, 1927, To civil Sec. Khartoum.

ب- وثائق منشورة فى :

- Brownlie, Ian : African Bounderies, PIV, Sudan Ethiopia & East Africa, Landon, 1979.

وقد نشر المؤلف وثائق عديدة أهمها معاهدة ١٩٠٢ وخرائطها ، وتعديلاتها.

- Sudan Government, Sudan No. 1 (1925) Report on Finance, Administration & Condition of the Sudan in 1924, Landon 1925.

- Sudan Government, Sudan No. 2 (1926) Report on Finance, Administration & Condition of the Sudan in 1925, London 1925.

جـ- مراجع عربية :

- البخارى عبد الله الجعلى (دكتور) . ديبلوماسية الحدود فى افريقيا ، نزاع بين السودان واثيوبيا - التطورات الديبلوماسية والأوضاع القانونية لحدود السودان مع أثيوبيا واريتريا ، والكويت، الطبعة الأولى , ١٩٧٩

- السيد فليفل (دكتور) . مشكلة أوجادين بين الاحتلال الحبشى والانتماء العربى الإسلامى ١٨٨٧ - ١٩١٣ ، تحت الطبع .

- : تصور بريطانى للخريطة السياسية للقرن الافريقى والسودان والحبشة ، بعد الحرب العالمية الأولى - بحث قدم للندوة الدولية للقرن الأفريقى. معهد البحوث والدراسات الافريقية ، ١٩٨٥ .

- محمد عبد الغنى سعودى (دكتور) ؛ السودان ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٥ .

- يونان لبيب رزق (دكتور) السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول ١٨٩٩ - ١٩٢٤ القاهرة ، ١٩٧٦ .

د- دوريات أجنبية :

- Marcus, Harold G. Ethio-British Negotiations Concerning The Western Border With The Sudan 1896-1902 (in Journal of African History, Vol. IV, 1963).

هـ- مراجع أجنبيه :

Jones A.H.M. & Monroe, E: Ahistory of Ethiopia, Oxford, 1960. Seligman, C.G: Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, London, 1932.

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٣٥ - ٥٢

تقييم لكتابات المؤرخين المصريين والسودانيين عن التاريخ السياسى والحضارى لدول حوض النيل

(مع التركيز على مصر والسودان)

شــوقى عطا اللــه الجــمل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالمعهد

اتجهت الأنظار إلى حوض النيل بعد الكشوف الجغرافية التى ترتب عليها تسليط الأضواء على المناطق التى لم تكن معروفة للعالم الخارجى من القارة الأفريقية.

وكانت الحركة الكشفية قد تركزت فى البداية ولزمن غير قصير على السواحل الأفريقية فلم يهتم الأوربيون بالتوغل فى داخل القارة إلا بعد ذلك بزمن طويل [1].

ولا يهمنا هنا أن نتعرض لما أسفرت عنه هذه الكشوف لكن ما يرتبط بحديثنا هذا هو ما كتبه الرحالة من يوميات، وما تبع ذلك من محاولات للدول الأوربية للسيطرة على المناطق التى كشف عنها النقاب والتى ظهرت أهميتها للدول الإستعمارية.

والحقيقة أن يوميات الرحالة الأوربيين، وما اتصفت به من دقة وإسهاب وتسجيل لكافة المشاهدات من معالم طبيعية أو بشرية كانت هى البداية للإهتمام بتاريخ الشعوب والجماعات والقبائل التى تسكن أو التى سكنت فى الماضى هذه المناطق المكتشفة.

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن تطورات كشف أفريقيا انظر:
شوقى الجمل: تاريخ كشف وأفريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠)

وفيما يتعلق بحوض النيل وتاريخه الحضارى والسياسى - فلاشك فى أن هذا التاريخ ارتبط إلى حد كبير بالكشف عن مجرى النهر العظيم الذى قامت الحياة على ضفتية والذى لم يُكشف تماما عن حقيقته إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ومن الغريب أنه كانت لدى بعض سكان هذا الحوض - وبخاصة المصريين القدماء معلومات عن بعض المناطق التى زاروها أوسمعوا عنها أو ارتبطوا بها بشكل ما من هذا الحوض - لكن ما أضعف من قيمة هذه المعلومات أنها لم تسجل تسجيلاً يتيح المجال للإستفادة منها.

وقد دلت الاثار التى عُثر عليها على أنه كانت بين مصر وبلاد النوبة الشمالية الواقعة جنوبها علاقات تجارية، وأن علاقات المصريين بأهالى النوبة ترجع إلى فجر التاريخ وأن هذه العلاقات أخذت تتطور منذ عهد الدولة القديمة فى مصر، وتعددت رحلات المصريين نحو الجنوب فى عهد الدولة القديمة وإن كنا لا نستطيع الجزم بالمدى الذى وصلوا إليه (٢) .

على أن الآثار المصرية ظلت فى الحقيقة مُهملة إلى حد كبير ولم يهتم أحد بأستنطاقها ومعرفة تاريخها ودلالتها وإلقاء الضوء عليها لمعرفة تاريخ الشعوب التى تركت هذه الآثار ومحاولة قراءة ما سجلوه عليها حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تقريباً.

ويرجع للفرنسيين الفضل فى الإهتمام بهذه الآثار.

ولعل العالم الفرنسى ماريت (Mariette) كان من أبرز من ظهر فى هذا المجال. فقد جاء إلى مصر فى سنة ١٨٥٠ وعكف على التنقيب عن آثار سقارة، وإليه يرجع الفضل فى الكشف عن معبد(٣) فن العجول فى (السرابيوم)، ولقد ظل

(٢) Emery W.H.: Nubian Treasure (London 1948) P. 22

(٣) Mariette : La Serapeum de Memphis

ولمارأيت العديد من الكتب التى نُشرت بالفرنسية فى باريس عن الآثار المصرية المكتشفة فى عصره.

يعمل منفرداً دون أن تكون له بالحكومة المصرية صلة رسمية حتى عينّه سعيد باشا سنة ١٨٥٨ مأموراً لأعمال العاديات بمصر. وقد بذل ماريت جهوداً موفقة فى التنقيب عن العاديات بمصر ودراستها والكتابة عنها ونقلت الآثار المكتشفة فى ذلك الوقت إلى مخازن فى بولاق .

ولقى ماريت بعد ذلك تعضيداً كبيراً من الخديوى إسماعيل ، وقد أمر إسماعيل بإصلاح وتوسيع مخازن بولاق وافتتحها الخديوى فى حفلة رسمية فى ١٨ أكتوبر ١٨٦٣ ، وبعد موت ماريت بعشر سنوات تقريباً أى عام ١٨٩١ نُقل متحف الجيزة إلى مكانه الحالى بجوار قصر النيل فى سنة ١٩٠٢ .

ومن الذين لمعت أبحاثهم فى ذلك الوقت أيضاً ماسبيرو (Maspero) الذى ألف العديد من الكتب عن الآثار المصرية المكتشفة ومنها دليل للآثار الموجودة وقتئذ فى المتحف المصرى بقصر النيل (٤) .

ولا نريد أن نسترسل فى الإشارة إلى الأعمال العلمية والأبحاث التاريخية التى بدأت من ذلك الوقت تظهر عن الآثار المصرية المعروفة أو التى أخذت الرمال والأتربة تزال عنها لتحكى تاريخ وحضارة المصريين القدماء.

هذا وأشير إلى أن الإهتمام أيضاً بدأ يوجه إلى الآثار العربية المرتبطة بتاريخ مصر منذ أن دخلت ضمن الدولة العربية فى القرن السابع الميلادى. وقد بدأ منذ عام ١٨٦٩ التفكير فى إنشاء دار للآثار العربية وإن كان هذا العمل الهام قد تم فعلاً فى عهد الخديوى توفيق.

على أن بعض الرحالة كانوا منذ أوائل القرن التاسع عشر قد بدأوا يهتمون بزيارة مصر وبلاد النوبة الواقعة جنوبها (بلاد السودان المعروفة فى ذلك الوقت) ويكتبون عن مشاهداتهم وعما سمعوه عن تاريخ وسكان هذه البلاد.

ونذكر من هؤلاء الرحالة على سبيل المثال - الرحالة الفرنسى كيو (Caillaut) الذى وصل فى رحلته عن مصر والسودان حتى فازوغلى وسجل مشاهداته فى هذه البلاد(٥) .

(٤) Maspero: Guide de Visteur au Muse de Caire (Caire 1915).

(٥) Caillaut F.: Voyage a Meroé au Fleuve Blanc, au dela Defazogli L fait dans les années 1819, 1820, 1821, 3 Vols., (Paris 1886).

كذلك الرحالة الفرنسى كومب الذى زار مصر وبلاد النوبة وعبر صحراء بيوضة وكتب عن البشاريين وحياتهم[٦] .

كذلك ممن إهتموا بتاريخ السودان، وأثاره الرحالة الإنجليزى بدج وكتابه بجزئية من المراجع الهامة فى ذلك الوقت المبكر[٧] .

على أن الأضواء فى الحقيقة تركزت إلى حد كبير على بلاد النوبة وآثارها بسبب البعثات التى بدأت منذ أوائل القرن العشرين تفد إلى هذه البلاد للتنقيب فى المسافات الشاسعة التى ستغمرها مياه خزان أسوان عندما فُكر فى إنشاء الخزان ، فبحثت عدة مناطق فى بلاد النوبة الشمالية وعملت حفائر من أبرزها الحفائر التى قام بها الدكتور ريزنر (Dr. Reisner) فى كرمة جنوب الشلال الثالث [٨] .

كذلك يذكر فى هذا المجال بعثة العالم الأثرى الإنجليزى والتر إمرى (Walter Emery) الذى سبقت الإشارة لمؤلفه[٩] .

ولا نريد أن نسترسل فى ذكُر أسماء الرحالة والكتاب الذين إهتمو بالكتابة عن تاريخ مصر والسودان القديم

لكن ما نريد أن نسجله هنا فيما نحن بصدده هو أن الظاهرة التى تبرز هى

(٦) Combes, E.: Voyage en Egypt., en Nubie dans le desert de Bayouda des bischarys (Paris 1846).

(٧) Budge E. A. Wallis: The Egyptian Sudan, its History and Monuments 2 Vols. (London 1901).

(٨) G. Reisner وكذلك جيمس برستيد (Breasted) من علماء الآثار الأمريكيين ومن تلاميذ العالم الألمانى الكبير المتخصص فى المصريات أدولف أرمن الذى وضع أجرومية اللغة المصرية القديمة. وبرستيد مؤلف الكتاب المعروف الذى ترجم للعربية عن تاريخ مصر القديمة . برستيد (جيمس هنرى) : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى. (ترجمة د. حسن كمال القاهرة ١٩٢٩).

ملاحظة : ولع الألمان بدراسة الحضارة الفرعونية وأصبحت المدرسة الألمانية بالذات رائدة فى هذا المجال.

(٩) Emery, W. B. Op Cit.

أن الإهتمام بالكشف عن الآثار القديمة فى مصر والسودان وكتابة تاريخهما تركزت فى هذا الوقت بالذات فى الرحالة والكتاب والباحثين وعلماء الآثار الأجانب.

وقد ظل الوضع كذلك حتى بدأ يظهر جيل من المؤرخين والأثريين المصريين والسودانيين - من أمثال الأستاذ الدكتور سليم حسن الذى أثرى بحق المكتبة التاريخية بكتاباته وأبحاثه عن تاريخ مصر وبلاد النوبة. (١٠)

والظاهرة التى تبرز للعيان والتى ستلاحقنا فيما بعد حين نتعرض لكتابات هؤلاء المؤرخين المصريين وكذلك للمؤرخين السودانيين أيضاً - هى أن مؤلفاتهم لم تقتصر على اللغة العربية بل اتجهوا للتأليف أيضاً باللغتين الإنجليزية والفرنسية ولعل هذه الظاهرة تحتاج لتعليل وتفسير(١١) .

كذلك يذكر فى هذا المجال الأستاذ الدكتور/ أحمد فخرى وعبد المنعم أبوبكر وعبد العزيز صالح وغيرهم من العلماء البارزين فى دراسة تاريخ مصر والبلاد التى اتصلت بها فى العصور القديمة.

وقد تركز جزء كبير من جهد الأستاذ الدكتور أحمد فخرى على الصحراء الغربية والآثار التى عُثر عليها فى الواحات بها(١٢) .

وإذا تركنا الأبحاث والكتابات الأثرية والتاريخية المتعلقة بهذا الجانب من تاريخ مصر وبلاد النوبة القديم والذى إهتم به الأجانب وتبعهم فيما بعد

---

(١٠) سليم حسن: مصر القديم (١٦ جزء) ١٩٤٠ - ١٩٥٨,

(١١) سليم حسن له عدة مراجع بالإنجليزية نذكر منها على سبيل المثال Excavations at Giza, The Sphinx; its History in the Light of Recent Excavations.

وهو من عدة مجلدات تجاوزت ١٢ مجلداً.

وله عدة مؤلفات بالفرنسية منها مثلا بحث هام مدعم بالعديد من الرسومات التخطيطية عن معركة قادش.

Le Poeme dit de pentaour et 1e Rapport officiel sur la bataille de Qadesh. 162 plates (universite `Egyptienne, faculté des letters - 1929 Caire)

(١٢) انظر Fakhry, Ahmed: The Egyptian Deserts, Siwa Oasis (London 1975)

: The Egyptian Deserts, Bahria Oasis.

المصريون بإلقاء الأضواء على حضارة وتاريخ هذه البلاد التى ظهر أنها من أعرق الحضارات الإنسانية وأقدمها - نجد أن تاريخ مصر والسودان (بلاد النوبة) فى العصور الوسطى يرتبط إلى حد كبير بالدول التى كانت تبسط نفوذها على هذه البلاد، فمصر حتى الفتح العربى لها كانت خاضعة لحكم الرومان، ولا نكاد نجد لها تاريخاً محدداً سوى ما يتعلق بالأحداث الهامة التى إرتبطت بها كدخول المسيحية مصر وبلاد النوبة وإنتشارها بها وما ترتب على ذلك من إضطهاد الرومان للمسيحيين المصريين.

والحقيقةُ أن كتابات المؤرخين المصريين عن هذه الفترة لا تُشفى الغليل - لكن معالجة تاريخ هذه الفترة جاء فى الغالب ضمن الكتابات التى أرخت لتاريخ الكنيسة المصرية، ونشير فى هذا المجال إلى الكتابات الأخيرة لبعض المؤرخين المصريين والتى تعرضت بالذات لأوضاع مصر والمصريين فى ظل حكم الرومان والتى ركزت بالذات على إضطهاد الرومان خاصة فى عهد دقلد يانوس للمسيحيين المصريين ثم الإشارات إلى إنتشار المسيحية فى بلاد النوبة وتكوين ممالك النوبة الثلاث(١٣).

وبدخول العرب مصر فى عام ٦٤١ هـ يدخل تاريخ هذه البلاد ضمن التاريخ العربى.

وكما دخلت المسيحية بلاد النوبة عن طريق مصر كذلك الإسلام دخل بلاد النوبة عن هذا الطريق.

---

(١٣) انظر زاهر رياض: كنيسة الإسكندرية (١٩٦٢)،
كذلك انظر يوحنا الا سنسى: التاريخ الكنسى (وقد ألفه فى القرن السادس عشر) عن تاريخ الكنيسة والحركات التبشيرية.
ومن أهم ما كتب عن كنائس وآثار مصر المسيحية من أديره وغيرها وأثار النوبة التى أندثر كثير منها ما كتبه.

Abu - Salih - Al - Armani: The churches and Monasteries of Egypt and some Neighbouring countries

(Edited and Translated by B. T. Evetts.,. with Notes by A. J. Butler Oxford 1895).

والحقيقة أن تاريخ هذه الفترة خاصة فيما يتعلق ببلاد النوبة وإنتشار الإسلام فى العصور الوسطى - لم تحظ بالدراسة والتحليل من المؤرخين المصريين إلا حديثاً [١٤]

وإن كان (Budge) قد تعرض للكثير من الأحداث المتعلقة بهذه الفترة فقد تعرض للعلاقات بين ممالك النوبة المسيحية والولاة المسلمين فى مصر وأحوال ممالك النوبة المسيحية من الناحية السياسية والإجتماعية والإقتصادية والظروف التى أدت فى النهاية إلى نهاية هذه الممالك [١٥] .

وأهم ما يعتمد عليه المؤرخون المصريون حديثاً فى كتاباتهم عن تاريخ بلاد النوبة المسيحية وعلاقاتها بمصر الإسلامية مصدران هما:

١- المسعودى [١٦] .

٢- عبدالله بن سليم الأسوانى[١٧] .

ولعل من أهم ما حظى بالدراسة هو الإتفاقية التى أطلق عليها المقريزى إسم "معاهدة البقط" والتى عُقدت بين والى مصر عبدالله بن سعد بن أبى السرح وبين حاكم النوبة[١٨] .

على أن تاريخ مصر الإسلامية والتطورات التى طرأت عليها سواء فى ظل الدولة العباسية أو فى عهد الطولونيين والإخشيديين ثم الفاطميين والأيوبيين والمماليك - قد حظى أخيراً بدراسات متخصصة من الباحثين المصريين بالذات

---

(١٤) من أهم الدراسات الحديثة فى هذا المجال:

مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى (١٩٥٦).

(١٥) Budge, E. A. Wallis: The Egyptian, Sudan, its History and Monuments 2 Vols.. (London 1901).

(١٦) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر (توفى ٣٤٦ هـ ٩٥٨م).

(١٧) عبدالله بن سليم الأسوانى: أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل.

(١٨) انظر المقريزى: المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار جـ ١ ص , ٣٢٣

(١٨) ولتحليل المعاهدة ارجع إلى : شوقى الجمل: تاريخ سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر جـ١ (ص ٢٣١ وما بعدها).

ومن أساتذة التاريخ الإسلامى فى الجامعات المصرية على وجه الخصوص وقد تعددت الرسائل العلمية التى عكف الباحثون فيها على دراسة حقبة من حقبات هذا التاريخ بل إن هناك دراسات متعمقة اتجهت لدراسة ناحية معينة أو ظاهرة متعلقة ببعض من هذه العصور، ولا شك فى أن هذه الدراسات التى أعتمد الكثير منها على المصادر الأصلية ألقى أضواءً طيبة على تاريخ مصر.

وقد لقى تاريخ السودان وعلاقاته بمصر وبالأزهر الشريف فى هذه الفترة بعض العناية - وإن كنت اعتقد أن هذه الدراسات عن تاريخ السودان منذ أن إنضم إلى الدول العربية الإسلامية وما يتعلق بذلك من دراسة للمجتمع السودانى ومدى تغلغل الإسلام بمبادئة الصحيحة فيه ، والمدى الذى وصل إليه فى تغلغله إلى الجنوب والعوائق التى اعترضت طريقه هذا - تحتاج إلى دراسات أوفى [١٩] .

ولابد من الإشارة إلى أن الأجانب أيضاً كان لهم نصيبهم فى هذا المجال - وفى مقدمة هذه الدراسات ما كتبه الإستاذ ترمنجهام عن الإسلام فى السودان[٢٠].

وارتبط تاريخ دول حوض النيل عامة، ومصر والسودان بوجه خاص فى العصر الحدييث إلى حد كبير بالجهود التى بُذلت لحل مشكلة النيل والكشف عن مجرى هذا النهر وتاريخ الشعوب القاطنة على جانبية، وقد أدخلت هذه الكشوف دول حوض النيل كلها فى دائرة الصراع الأوربى، وأنعكس ذلك بالطبع على تاريخ هذه البلاد.

وكان القرن الثامن عشر والنصف الثانى من هذا القرن بالذات بداية للجهود المكثفة والرحلات الكشفية والكتابات عن هذا النهر.

وكان للرحالة الإنجليز بالذات نصيب الأسد فى الكشف عن منابع النيل واعطاء صورة كاملة عنه.

(١٩) من الدراسات التى عملت فى هذا المجال:

حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا.

محمد ضيف بن محمد الجبلى (محمد نور الدين - ود ضيف الله) : كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان (١٩٣٠) والأسس الإجتماعية التى قامت عليها - ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٥٩).

(٢٠) Trimingham, J.S.: Islam in the Sudan (1949)

فالرحالة جيمس بروث (James Bruce) قام برحلات فى السنوات من ١٧٦٨ إلي ١٧٧٣ كشف خلالها المنابع الحبشية للنيل وزار منابع النيل الأزرق ووصل إلى مخرج النيل من بحيرة تانا واقتفى أثره إلى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق ثم سار شمالاً إلى بلاد النوبة فمصر.

وقد سجل ملاحظاته فى عدة مجلدات، وبروث أسكتلندى الأصل، والحقيقة أن وصفه لمشاهداته المتعلقة بمنابع النيل الحبشية دقيقة وإن كان إصراره على أن هذه هى المنابع الوحيدة للنهر قد أثار الكثير من الغبار حول المياه المتدفقة من الجنوب(٢١) .

ولابد أن نشير فى هذا المجال إلى رحلات وكتابات الرحالة المصرى البكباشى سليم قبطان الذى قام بثلاث رحلات بين عام ١٨٣٩، وعام ١٨٤٢ ووصلت رحلاته إلى قرب خط عرض ٤٢ , ٤° وسجل هذه الرحلات وأخبار المناطق التى مرت بها الحملات والقبائل التى قابلها خاصة قبائل البارى - وأهمية هذه الرحلات أنها وجهت الأنظار إلى المجرى المائى الآتى من الجنوب فكانت بداية للرحلات الكشفية التى كشفت عن منابع النيل الإستوائية (٢٢) .

وتبعت ذلك رحلات برتون وسبيك (Speke and Burton) وهما إيرلنديان، وقد قاما برحلة من زنجبار فى عام ١٨٥٦ للكشف عن منابع النيل الإستوائية وقد أدى الخلاف بين المكتشفين عن حقيقة منابع النيل الإستوائية وهل ينبع النهر من بحيرة فكتوريا أم أن له صلة ببحيرة تنجانيقا وإصرار بيرتون على ذلك - إلى إرسال بعثات أخرى للوصول إلى حقيقة الأمر (٢٣).

---

(٢١) Bruce, J. : Travels to discover the Source of the Nile in the years 1768 - 1776 5 vols. (Edmburg 1809)

(٢٢) سليم قبطان : الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض) تعريب محمد مسعود القاهرة (١٩٢٢).

- نسيم مقار: البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (١٩٦٠).

Werne, F.; Expedition to discover the Sources of the White Nile In the years 1840, 1841 (2 Vols. London 1849).

(٢٣) Burton, Richard: The Lake Regions of central Africa 2 vols, (London 1860).

فقد قام سبيك وجرانت (Speke and Grant) فى رحلة بدأت من زنجبار فى عام ١٨٦٠ وترتب عليها أنهما تحققا من أن النيل يخرج فعلاً من بحيرة فكتوريا [٢٤].

ومن الذين ساهموا أيضاً فى الكشف عن منابع النيل - سير صموئيل بيكر (S. Baker) الذى قضى فى السودان عاماً متتبعا روافد النيل الحبشية وطاف بالبلاد الواقعة على نهر العطبرة والنيل الأبيض حتى ملتقاه بالسوباط ونشر رحلته فيما بعد [٢٥].

وقد قام بيكر برحلة أخرى إلى المنابع الإستوائية للنيل فاكتشف فى مارس ١٨٦٥ بحيرة البرت وشلالات مرشيزون وسجل مشاهداته هذه التى إستحق عليها اللقب الذى إشتهر به وهو بيكر مرتاد النيل (Baker of the Nile) [٢٦].

وقد كانت لبيكر جولة أخرى قرب منابع النيل الإستوائية حين أوفدته الحكومة المصرية فى عام ١٨٦٩ لضم الأقاليم الواقعة جنوب غندكرو للإدارة المصرية وقد بقى فى مهمته هذه حتى سنة ١٨٧٣ وسجل مشاهداته هذه فى مجلدين كبيرين[٢٧].

كذلك نذكر فى هذا المجال جهود غوردون (Gordon) الذى عينته الحكومة المصرية مديراً للمديرية الإستوائية خلفاً لصموئيل بيكر، وقد بقى فى هذه المديرية من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٦ ونذكر فى هذه الفترة جهود شايى لونج (Chaillé Long) الذى أرسلته مصر مع بعثة غوردون والذى كشف بحيرة البرت والذى عقد مع امتيسه ملك أوغندا معاهدة ربطت بلاده بمصر [٢٨].

(٢٤) Speke, J.H.: Journal of the Discovery of the Source of the Nile (Edinberg 1893)
ولمزيد من التفاصيل يرجع إلى : شوقى الجمل: تاريخ كشف أفريقيا وإستعمارها (١٩٨٠) ص ٨٣

(٢٥) Baker, Sir S. : The Nile Tributaries of Abyssinia (London 1867)
Baker : The Al bert Nyanza Great Basin of the Nile, (2 Vols - London 1866 - 1872).

(٢٦)

(٢٧) Baker: Ismailia (2 Vols. London 1874).

(٢٨) Chaillé Long: My life in four continents Vol. 1 P. 67

كذلك نذكر جهود عدد آخر من المكتشفين منهم أمين باشا (ادوارد شنيتزر (Edward Schnitzer) الذى أصبح مديراً للمديرية الإستوائية وبقى بها قرابة العشر سنوات وكتب وصفاً دقيقاً لأحوال هذه البلاد وسكانها (٢٩).

ولعل تقرير الجنرال ستون (Stone) رئيس عموم أركان حرب الجيش المصرى عن هذه الأعمال المتعددة التى قام بها عدد من الرحالة الأجانب لكن لحساب مصر وفتوحه فيها يُعطى فكرة هامة عن هذه الجهود (٣٠).

على أن كتابات الأجانب عن مصر والسودان كان لها تأثيرها القوى فى فتح عيون الدول الإستعمارية لأهمية مصر وأهمية السودان بالنسبة لموقعهما الاستراتيجى خاصة بعد أن مدت مصر سلطانها كاملاً على ساحل البحر الأحمر الأفريقى والبلاد الواقعة عليه (٣١).

ولذا اتسمت كتابات الأوربيين عن مصر والسودان منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر بالذات بالصفة الإستعمارية. وكان الإتجاه الواضح هو الدعوة للدول الأوربية لتضع يدها على هذه المناطق الهامة خاصة بعد أن قنن مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ مثل هذه العمليات وأشعل نار التطاحن الإستعمارى فى القارة.

والأجانب الذين كتبوا عن مصر والسودان واتسمت كتاباتهم بالنزعة الإستعمارية عديدون – لكن نذكر منهم على سبيل المثال كوبلاند (Coupland) (٣٢). وجونستون (Johnston) (٣٣). وتشرسل (Churchil) (٣٤). وكرومر (Cromer) (٣٥)

---

(٢٩) انظر Schweitzer, A. : Emin Pasha, his life and work 1898.

(٣٠) تقرير ستون موجود فى المحفوظات التاريخية بالقلعة.
Doss, 721 (Soudan et Afrique Equatoriate).

(٣١) لمن يريد دراسة الظروف التى مدت مصر نشاطها فيها على هذه الجهات يرجع إلى شوقى الجمل: سياسة مصر فى البحر الأحمر (١٩٧٣).

(٣٢) Coupland, R. : East Africa and its invaders (London 1938).

(٣٣) Johnston H.: The Opening of Africa (London 1828)

وكذلك Churchil, W: The River war

(٣٤) Cromer: Modern Egypt 2 Vols. (London 1692).

(٣٥) Gordon: The Journals of Major C.G. Gordon at Kartoum, (London 1885).

وغوردون (Gordon) [٣٦] وروملوجيسى (Gessi Romolo) [٣٧] ولوجارد (Lugard) [٣٨].

وقد إتسمت كتابات هؤلاء الأجانب كما قلنا بالدعوة إلى أن تمد دول أوربية نفوذها إلى هذه البلاد الهامة الواقعة فى حوض النيل، وقد اتسمت كتاباتهم بالبعد عن الموضوعية فكثيراً ما بعدوا عن ذكر الحقيقة الواضحة، فمثلاً عند الحديث عن تجارة الرقيق يحملون العرب والمسلمين وزرها متجاهلين الدور الأوربى فى إدخال الأسلحة النارية لاستخدامها فى عمليات القنص، بالإضافة إلى تشجيع الأوربيين للجلابة لجلب أكبر عدد ممكن من الرقيق لسد حاجة الأوربيين للأيدى العاملة فى المزارع وغيرها فى العالم الجديد [٣٩].

ومع ذلك نشير إلى أن بعض الفلتات من أقلامهم تشير إلى حضارة شعوب حوض النيل.

فمثلاً كوبلاند (Coupland) يشير إلى أن الرحالة العرب والأجانب على السواء لاحظوا ما عليه دول حوض النيل من حضارة، ويعلق على ذلك بقوله إن العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة، فلا شك فى أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التى فى أكسفورد أو التى فى أية مدينة أوربية أخرى [٤٠].

وفيما يتعلق بالمؤرخين المصريين والسودانيين فى العصر الحديث فإنهم لم يتناولوا تاريخ بلادهم خاصة بلاد حوض النيل بصفة عامة فى كتاباتهم إلا أخيراً والذين تصدوا لهذا العمل من المؤرخين المصريين والسودانيين قلة محدودة.

ويلاحظ أن الكتابة التاريخية فى مصر والسودان قد سايرت إلى حد كبير الحركة الوطنية وكرست نفسها لخدمتها - ولعله أقرب إلى الصواب أن نقول أن الحركة الوطنية والكفاح ضد الإستعمار ساعدت على دفع عجلة التاريخ والكتابة

(٣٦) Gessi, Romolo: Seven Years in the Sudan (london 1812)

(٣٧) Lugard, F.J.D.: The Rise of our East African Empire 2 Vols

(٣٨) (London 1893).

(٣٩) Jhonston : Op. Cit.

(٤٠) Coupland : Op. Cit. P. 39.

التاريخية، فظهر جيل من المؤرخين حاول أن يبرز دور مصر والسودان الحضارى ليصل من ذلك إلى إثبات حق شعوب وادى النيل فى أن تنال حريتها وحقها فى أن تحكم نفسها بنفسها - وفى نفس الوقت ساعدت هذه الكتابة التاريخية فى خلق وعى قومى وفى شحذ إلهمم وإثارة النفوس ضد المستعمر.

ولعل من أبرز المؤرخين الذين ظهروا فى هذا المجال فى مصر عبد الرحمن الرافعى فى سلسلته الهامة عن تاريخ الحركة القومية، وقد خرجت هذه السلسلة فى عدة مجلدات تناول فيها الكاتب تاريخ مصر الحديث منذ الحملة الفرنسية مبرزاً بالذات ثورات المصريين ضد الغزاة المستعمرين وثوراتهم ضد الحكام المستبدين (٤١).

وقد أفرد دراسة خاصة للثورة العرابية، وكذلك لكل من مصطفى كامل، ومحمد فريد، كما أفرد دراسة للأوضاع فى مصر فى أعقاب الثورة المصرية وذلك فى جزئين خصص الأول للفترة من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى (٢٣ أغسطس ١٩٢٧)، والثانى لتاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول إلى وفاة الملك أحمد فؤاد فى ٢٨ أبريل ١٩٣٦ . وتتسم كتابات الرافعى بغزارة المادة العلمية إذ يستقى معلوماته من العديد من المصادر والمراجع باللغة العربية واللغات الأجنبية.

وقد حظى تاريخ السودان بالذات بإهتمام كثير من المؤرخين المصريين - فقد كانت قضية السودان هى القضية التى تؤرق بال المصريين خاصة بعد أن نجحت بريطانيا فى تحقيق حلمها فيه بعد القضاء على الثورة المهدية، وفى ظل النظام الجديد الذى وضع لحكم السودان بإسم وفاق أو إتفاق الحكم الثنائى عام ١٨٩٩ .

وإنبرى للكتابة فى هذا المجال لفيف من المؤرخين المصريين، وكان إعتماد عدد غير قليل منهم على ما بدار المحفوظات المصرية من وثائق خاصة بعد أن حظيت

(٤١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية فى عدة أجزاء إبتداءً من عصر المقاومة الوطنية التى اعترضت الحملة الفرنسية إلى ثورة ١٩١٩ .

الوثائق المرتبطة بتاريخ السودان بالعناية فترجم عدد كبير من الوثائق التركية إلى العربية وأنشئت محافظ السودان، ونظمت إلى حد كبير الدفاتر الخاصة بكل محافظة من محافظاته والتى سجلت فيها المكاتبات الواردة إليها أو الصادرة من المعية أو غيرها لهذه المحافظات (٤٢).

هذا بالإضافة إلى الإستفادة من الوثائق التى أودعها ونجت (Wingate) مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درهام (School of Oriental Studis in Derham University) وقد إنكب بعض الباحثين المصريين على دراسة العلاقات التى ربطت بين مصر والسودان منذ أقدم العصور إلى عصرنا هذا (٤٣).

كما أن بعضها تعرض لقضية بعينها كالمنافسة بين الدول الإستعمارية على النفوذ فى المناطق الهامة من وادى النيل (٤٤).

والبعض ركز على دراسة تاريخ منطقة معينة من حوض النيل كالمديرية الإستوائية مثلاً (٤٥).

كما أن بعض الدراسات إهتمت بالنواحى الثقافية والإجتماعية فى مصر والسودان (٤٦). وقد حظيت قضية وادى النيل بالدراسات الرسمية بالإضافة إلى

---

(٤٢) أنظر ما أورده كاتب هذا البحث عن بعض مجموعات الوثائق الموجودة بمحفوظات القلعة فى هذا الشأن - شوقى الجمل : علم التاريخ - نشأته وتطوره ومناهج البحث فيه (١٩٨٢) ص ١٣٠ وما بعدها .

(٤٣) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان وتاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (١٩٥٨) .

- الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى التاسع عشر القاهرة (١٩٥٥) .

زاهر رياض : السودان المعاصر (١٩٦٦) .

(٤٤) على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل (١٩٥٨) .

(٤٥) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الأستواء المصرية (ثلاثة أجزاء ١٩٢٧) .

- جميل عبيد : المديرية الأستوائية (١٩٦٨) .

(٤٦) عبد العزيز عبد المجيد : التربية فى السودان والأسس النفسية والإجتماعية التى قامت عليها (ثلاث أجزاء - القاهرة ١٩٤٩)

الدراسات الفردية - وتتميز هذه الدراسات بإستنادها على الأسانيد القانونية وعلى المعاهدات والوثائق والقوانين الدولية (٤٧).

وقد كان تاريخ السودان بالذات وعلاقاته بمصر وكفاحه فى سبيل سيادته موضع العديد من الأبحاث الجامعية وهى أبحاث تخصصية عميقة تتميز بالدقة والإلتزام بالمنهج السليم فى البحث التاريخى وتعتمد على المصادر الأصلية من وثائق وغيرها (٤٨).

وهكذا نلاحظ أن هناك تركيزاً كبيراً على وضع السودان والحركة الوطنية فيه والروابط التى تربطه بمصر.

ولا شك فى أن الظروف التى كانت تمر بها قضية مصر والسودان والمحاولات المستميته للمستعمر لبذر بذور الشقاق بينهما كانت هى الدافع القوى وراء هذا الإهتمام بهذه القضية التى شغلت الرأى العام المصرى أكثر من غيرها.

ومن جهة المؤرخين السودانيين فقد تركزت كتاباتهم إلى حد كبير على تاريخ السودان الحديث بالذات، وقد حظيت الثورة المهدية بإهتمام خاص وليس هذا غريباً فهى ثورة وطنية لها مكانتها لدى السودانى العادى فبالاحرى أن تجد إهتماماً أكثر لدى المثقفين السودانيين.

---

(٤٧) جمهورية مصر - رئاسة مجلس الوزراء (السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير ١٩٥٢) .

(٤٨) يوسف فوزى عبد الله العربنى : أسترداد السودان (١٨٩٦ - ١٨٩٩) رسالة ماچيستير معهد البحوث والدراسات الأفريقية (١٩٦١) .

يونان لبيب رزق : السودان فى عهد الحكم الثانى الثنائى الأول (١٨٩٩ - ١٩٢٤) رسالة دكتوراه كلية الأداب - جامعة عين شمس (١٩٦٧) .

- تمام همام تمام: السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ - ١٩٥٣) رسالة ماچيستير معهد البحوث والداسات الأفريقية (١٩٧١)

- تمام همام تمام : موقف حزب الوفد المصرى من مسألة السودان (فى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٩)

- محمد صلاح الدين قبضايا : حملات السودان فى الصحف القومية المصرية (١٨٩٦ - ١٨٩٨) رسالة ماچيستير معهد البحوث والدراسات الأفريقية (١٩٧٨) .

وفى مقدمة الذين كتبوا عن الثورة المهدية الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم وقد أتيحت له فرصة الإطلاع على كثير من الوثائق الموجودة بدار الوثائق المركزية بالخرطوم فأمكنه أن يكشف الغموض عن كثير من المفاهيم المتعلقة بالمهدية، خاصة أن المهدية كما نعلم – بعكس الحركة السنوسية لم تترك لنا مصادر أصلية مطبوعة توضح مفاهيم الحركة ومبادئها فقد كانت فترة حكم المهدى بعد سقوط الخرطوم قصيرة جداً ولم تتح له فرصة الكتابة أو التأليف ولم يكن الخليفة التعايشى الذى ابتدأ حكمه بعد المهدى قرابة ثلاثة عشر عاما (١٨٨٥ – ١٨٩٨) فى وضع يتيح له فرصة نشر أى شىء يتعلق بتعاليم المهدية (٤٩).

وقد إكتسبت بعض المعارك المتصلة بالمهدية أيضاً إهتماما خاصاً (٥٠).

كذلك إهتم بعض المؤرخين بعلاقات الإدارة المهدية بجيرانها خاصة الحبشة (٥١). وقد حظيت حركة اللواء الأبيض وكفاح البطل على عبد اللطيف بإهتمام أيضاً من المؤرخين السودانيين (٥٢).

ومن الكتابات الجادة عن تاريخ السودان مؤلفات الدكتور مكى شبيكه (٥٣). كذلك يذكر فى هذا المجال كتابات الأستاذ نعوم شقير (٥٤). وهناك كتابات تعرضت لقضية الجنوب بإعتبارها قضية حساسة تهم السودان بعد استقلاله(٥٥).

(٤٩) محمد أبراهيم أبو سليم : منشورات المهدية (بيروت ١٩٧٠)
– الأرض فى المهدية (الخرطوم ١٩٧٠)– مفهوم ولاية العهد فى المهدية (الخرطوم ١٩٧٠).
– المهدى عليه السلام (الخرطوم ١٩٧٢) .

(٥٠) ميمونه – مرغنى حمزة : حصار وسقوط الخرطوم (١٩٧٢)
عصمت زلفو : كررى – تحليل عسكرى لمعركة أم درمان (الخرطوم ١٩٣٧) .

(٥١) محمد سعيد القدال : المهدية والحبشة (الخرطوم ١٩٧٣)

(٥٢) سليمان كشة : اللواء الأبيض (الخرطوم ١٩٦٠) .
محمد حسن عوض : قضية كفاح البطل على عبد اللطيف (القاهرة ١٩٥٥)

(٥٣) مكى شبيكه : السودان عبر القرون (القاهرة ١٩٦٤)
شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل – مصر والسودان فى القرن التاسع عشر الميلادى (بيروت ١٩٦٥) .

(٥٤) نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٠٣)

(٥٥) محمد عمر بشير : مشكلة جنوب السودان (الخرطوم ١٩٦٧)

ومن الكتابات التى تناولت موضوعاً متكاملاً فى تاريخ السودان ما كتبه الأستاذ محمد عمر بشير عن تاريخ الحركة الوطنية فى السودان (١٩٠٠ - ١٩٦٩) (٥٦).

من هذا العرض السريع للجهود المبذولة لتاريخ مصر والسودان نلاحظ:

١- بدأت الأنظار تتركز على حوض النيل وأقطاره نتيجة الكشوف الجغرافية وما كتبه الرحالة من يوميات.

٢- دلت الآثار التى كُشف عنها عن قيام حضارة زاهرة فى مصر وبلاد النوبة، وقد كان للفرنسيين الفضل فى الحفاظ على الآثار المصرية بالذات ونذكر فى هذا المجال جهود ماريت، وماسبيرو.

٣- منذ بداية القرن التاسع عشر بدأ عدد من الرحالة الأجانب يهتم بزيارة مصر وبلاد النوبة ويسجل ملاحظاته عنها.

٤- بدأت البعثات الأثرية منذ أوائل القرن العشرين تكشف عن آثار بلاد النوبة بالذات.

٥- ظهر بعد ذلك جيل من المؤرخين المصريين الذين اهتموا بالبحث فى آثار مصر القديمة ودراستها، وقد أبرز هؤلاء المعالم الرئيسية للحضارة الفرعونية.

٦- تاريخ مصر وبلاد النوبة فى العصر الرومانى إرتبط بالأحداث الهامة كدخول المسيحية فى هذه البلاد وأضطهاد الرومان للمسيحيين.

٧- بدخول العرب مصر فى عام ٦٤١م دخل تاريخها ضمن التاريخ العربى أما فيما يتعلق بعلاقات مصر الإسلامية ببلاد النوبة فقد أتسمت بالمعاهدات التى عقدت بين حكام البلدين .

٨ - حظى تاريخ مصر الإسلامية بالأهتمام والدراسة خاصة من أساتذة التاريخ الإسلامى فى الجامعات المصرية، كذلك هناك بعض الدراسات عن المجتمع

---

(٥٦) صدر الكتاب باللغة الانجليزية Mohamed Omer, Beshir: Revolution and Nationalism in the Sudan (London 1974).

وقد ترجم إلى العربية : ترجمه هنرى رياض - وصدرت الترجمة فى دمشق ١٩٨٠

السودانى والثقافة فى السودان بعد أن أنتشر الإسلام فى ربوعه يحتاج الأمر للمزيد من الدراسات .

٩ – أرتباط تاريخ حوض النيل عامة ، ومصر والسودان خاصة فى العصر الحديث بالجهود التى بُذِلَتْ لحل مشكلة النيل والكشف عن حقيقة مجرى هذا النهر .

١٠ – كتابات الأجانب عن مصر والسودان التى أبرزت أهمية موقعهما فتحت عيون الدول الإستعمارية لهذه البلاد ، فقد أتسمت هذه الكتابات بالدعوة السافرة أو المقنعة لإستعمار هذه البلاد .

١١ – كتابات المورخين المصريين والسودانيين فى العصر الحديث أبرزت إلى حد كبير الحركة الوطنية وتفاعلت معها .

وقد برز فى هذا المجال عدد من المؤرخين المصريين ، وعدد من المؤرخين السودانيين.

١٢ – حظيت قضية السودان والوحدة بين شطرى وادى النيل بكتابات الكثيرين من المؤرخين المصريين .

وقد أعتمدت كتابات الكثيرين من المؤرخين المصريين فى هذا المجال على وثائق المحفوظات التاريخية المصرية خاصة بعد أن نظمت الوثائق المتعلقة بتاريخ السودان ، وترجم عدد كبير من الوثائق التركية إلى العربية.

١٣ – أتجهت بعض الأبحاث والدراسات لدراسة منطقة بذاتها لها أهميتها الخاصة كالمديرية الإستوائية .

١٤ – كما ظهر العديد من الأبحاث الجامعية المتعلقة بتاريخ مصر والسودان .

١٥ – كان للثورة المهدية بالذات دور بارز فى كتابات كثيرين من المؤرخين السودانيين، وأعتمدت كتابات الكثيرين منهم على دار الوثائق المركزية فى الخرطوم خاصة بعد أن رتبت الوثائق ونظمت وأصبحت فى متناول الباحثين.

كما اهتم كثيرون منهم بالتاريخ للحركة الوطنية فى السودان خاصة حركة اللواء الأبيض وجهاد على عبد اللطيف .

جامعة القاهرة – معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٥٣ – ٨٧

النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها
فيما بين عامى (٢٠ - ٣١ هـ / ٦٤١ - ٦٥٢ م)

د. محمد عبد العال أحمد

النوبة ، طائفة من طوائف السودان ، تنتسب إلى نوبى بن قفط بن مصر بن نيصر بن حام بن نوح[١] ، وقيل أنهم ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام[٢] ، ويزعمون أنهم من نسل حمير[٣] .

وتقع بلاد النوبة إلى الجنوب من مصر ، وكانت تضم المناطق الممتدة على طول جانبى النيل فيما بين الشلال الأول عند أسوان شمالاً ، إلى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق[٤] ، أى إلى مدينة الخرطوم الحالية جنوباً .

وتضم هذه المنطقة ثلاثة أقاليم رئيسية مختلفة، تتصل فيما بينها من الشمال إلى الجنوب على النحو التالى :

■ إقليم النوبة السفلى (الشمالية) ، ويشمل المنطقة الواقعة فيما بين الشلال الأول شمالاً ، إلى وادى حلفا جنوباً . والنهر فيه صالح للملاحة لاستقامة مجراه وانعدام العوائق فيه[٥] .

---

(١) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ليبزج ١٩٢٨ ، ص ٢٦٨ .
(٢) ابن خلدون : العبر، طبع بيروت ، جـ٢ ص ١٩٨ .
(٣) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٩، ص٢٤.
(٤) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨ هـ، جـ١ ص١٩١ ، المقريزى ؛ الخطط ، بولاق ١٢٧٠ هـ، ص ١٩١ وما بعدها .
(٥) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، ١٩٥١ ، ص٢٨٥ .

■ إقليم النوبة الوسطى ، ويحتل منطقة الوسط فيما بين وادى حلفا شمالا إلى دنقلة جنوباً . وهى منطقة صخرية وعرة ، والنهر هنا غير صالح للملاحة في معظم أجزائه، لكثرة الجنادل والصخور التى تعترض مجراه الضيق . أما الوادى فمرتفع عن مستوى النهر ، ولذلك أعاق إمكانية تسرب المياه إلى معظم الأراض الواقعة على جانبى المجرى، بالإضافة إلى انعدام الأمطار فى تلك المنطقة، مما جعلها صحراء جرداء ، باستثناء ذلك الشريط الضيق القريب من مجرى النهر(٦) .

■ إقليم النوبة العليا (الجنوبية)، ويقع فى أقصى الجنوب ، ويمتد فيما وراء دنقلة حتى التقاء النيلين الأبيض بالأزرق جنوباً . والنهر فى تلك المنطقة معتدل المجرى، متسع الوادى ، صالح للملاحة ، تغمر المياه معظمه أيام الفيضان . ويعد هذا الإقليم من أخصب المناطق(٧) .

وقد تداول على حكم تلك المناطق عدد من الدول التى ارتبطت بشكل أو بآخر بعلاقات لاسيما مع مصر منذ القدم ، وتعتبر دولة كوش من أهم تلك الدول التى حكمت بلاد النوبة .

أما عن العوامل التى أدت إلى قيام دولة كوش ، فترجع إلى ما كان من غزو الليبيين لمصر نحو منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، وتولى ملكهم شاشانق الأول حكم مصر. ونتيجة لذلك اضطرت جماعة من سلالة كهنة آمون إلى مغادرة طيبة والتوغل جنوباً، حيث تمكنوا من إقامة دولة كوش في منطقتى النوبة الوسطى والعليا (٨) ، واتخذوا مدينة نباتا(٩) عاصمة لدولتهم. وعلى ذلك تكون تلك الدولة مصرية التأسيس ، نوبية المنشأ

---

(٦) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ، ١٩٦٥ ، ص٢٨٥ .

(٧) محمد عوض محمد : نهر النيل ، الطبعة الأولى ، ص١٢٢ وما بعدها .

(٨) أى المنطقة الواقعة فيما بين وادى حلفا شمالاً إلى النيل الأزرق وكردفان جنوباً
Arkell: A History of the Sudan to A.D. 1821, London, 1955; pp. 112 f..

وانظر، نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم ، ١٩٦٢، جـ٢ ص٣٠٨ وما بعدها.

(٩) تقع نباتا بالقرب من الشلال الرابع عند سفح جبل البركل (مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ١٩٦٠، ص٤ وما بعدها .

وقد تركزت جهود حكام كوش من أجل إخراج الليبيين من مصر ، فلما تحقق لهم ذلك، نقلوا مركز دولتهم إلى مصر، واتخذوا من مدينة طيبة عاصمة لهم. وهكذا بدأ حكم الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر .

لم يمض غير نصف قرن (٧١٥ - ٦٦٣ ق.م) حتى اضطر ملوك تلك الأسرة إلى اتخاذ نباتا مرة أخرى عاصمة لهم، بعدما استولى الآشوريون على مصر[١٠].

ومع بداية القرن الثالث قبل الميلاد، بدأت نباتا تفقد أهميتها بسبب انتقال ملوك كوش إلى مروى[١١] واتخاذها عاصمة لهم، فاحتلت مروى مكانتها وحافظت على كيانها نحو ستة قرون ونصف ، أى إلى عام ٣٥٦ للميلاد ، وبلغ من شهرة مروى أن صار اسمها علماً على الدولة .

ومما يذكر ، أن النوبة السفلى كانت قد دخلت فى إطار دولة كوش ، وإن تمتعت بنوع من الاستقلال إلى أن حدث نزاع بين أحد ملوكها وبين كهنة نباتا ، فانتقل الملك إلى النوبة السفلى ، واتخذ من مدينة دكة عاصمة له، وارتبط بعلاقات ودية مع البطالمة فى مصر . فلما كان عهد بطليموس السادس (١٨١-١٤٥ ق.م) استولى البطالمة على النوبة السفلى ، وظلت تابعة لهم إلى أن استولى الرومان على مصر البطلمية سنة ٣٢ ق.م، وعندئذ تمكن الكوشيون من استعادة نفوذهم على النوبة السفلى[١٢] .

وباحتلال الرومان لمصر، واستعادة الكوشيين للنوبة السفلى ، دخل الكوشيون فى صراع ضد الرومان، وتوالت إغاراتهم على جنوب مصر[١٣] . وتتابعت الحملات الرومانية لتأديب الكوشيين ، ووصلت حملاتهم إلى أعماق النوبة إلى دكة وابريم ونباتا .

لم تؤد تلك الحملات إلى تحقيق الهدف فى وضع حد لإغارات النوبيين ،

(١٠) دريوتون وفانديه : مصر، ترجمة عباس بيومى ١٩٥٠ ، ص٥٩٧ وما بعدها .

(١١) تقع مروى القديمة بالقرب من كبوشية الحالية، أما مروى الجديدة فتقع بجوار نباتا.

(١٢) Budge, the Egyptian Sudan; Its history and monuments, London, 1907, Vol.II; P. 166.

(١٣) Budge, Op. Cit., P. 175.

نظراً لعودة قوات الرومان إلى قواعدها بعد كل حملة ، لذلك تركزت جهود الرومان على ضرب دولة كوش وإضعافها، عن طريق الارتباط بدولة أكسوم ، والعمل فى نفس الوقت على تعزيز الحاميات الرومانية على حدود مصر الجنوبية . كما أقام الرومان قلعة حصينة هناك ، ونقلوا سكان الواحة الخارجة إلى منطقة النوبة السفلى لتكون منطقة عازلة ويتولى المستوطنون الجدد التصدى للإغارات النوبية . كما قرر الرومان قدراً من المساعدات لكل من المستوطنين الجدد والسكان الأصليين، مما ساعد على هدوء الموقف واستقرار الأوضاع، وتوقف الإغارات النوبية ، ولكن إلى حين[١٤] .

وأياً ما كان الأمر ، فقد لجأ الرومان فى عهد الامبراطور قنسطنطين الأول إلى توطيد العلاقات مع الملك عيزانا ملك اكسوم، وعقد معه معاهدة تجارية[١٥]، كما كان لاعتناق عيزانا المسيحية سنة ٣٤٠م أثره فى إقبال رعاياه على اعتناقها وانتشارها فى بلاده ، وبإيعاز من الرومان قام حليفهم عيزانا بمحاربة الكوشيين، واكتسح بلادهم وقضى على دولتهم وعلى الأسرة الحاكمة فيها[١٦] .

وبسقوط دولة كوش (مروى) ، وبمرور الزمن ، قام على انقاضها ثلاث ممالك وهى من الجنوب إلى الشمال ؛ مملكة علوة ، ومملكة مقرة ، ومملكة نباتا .

---

(١٤) Bury, History of the later Roman Empire, London, 1889, Vol. II, P. 318.

(١٥) Bury, Op. Cit. P. 318, Paul, A History of the Beja Tribes of the Sudan, Camb., 1954, P. 47, Trimingham, Islam in the Sudan, London, 1949, P. 49.

(١٦) Shinnie: The Fall of Meröe, Kush, Vol. III, (Sudan Antiquities service occasional Papers) 1955, PP. 83 ff.

(لم تكتف دولة كوش بتحدى الرومان عن طريق تنظيم الإغارات على جنوب مصر، بل وباعتراض حركة الملاحة التجارية فى منطقة النوبة السفلى عبر النيل إلى مناطق وسط إفريقية، وبالتصدى لتيار التبشير، مما أدى إلى فشل المحاولات الرامية إلى إدخال تلك الدولة فى المسيحية ، ولذا لجأ الرومان إلى الإيعاز لملك أكسوم بمحاربة الكوشيين والقضاء على دولتهم) . مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠، ص٤ - ٣٤ .

مملكة علوة :

وتمتد من منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق ، عند مدينة الخرطوم الحالية جنوباً ، إلى إقليم الأبواب[١٧] شمالاً ، وعاصمتها مدينة سوبة[١٨] ، وكانت تعرف أيضًا بمملكة سوبا ، نسبة إلى عاصمتها [١٩] .

وكانت هذه المملكة من أوسع ممالك النوبة وأخصبها وأكثرها مالا وثراء وأعظمها جيشاً [٢٠] .

مملكة مقرة[٢١] :

وتقع فى المنطقة الوسطى، وتحدها جنوباً مملكة علوة ، وشمالاً مملكة نباتا، أى فيما بين كبوشية[٢٢] جنوباً إلى قرب الشلال الثالث شمالاً ، وعاصمتها دنقلة ولذلك كانت تسمى مملكة دنقلة[٢٣] .

مملكة نباتا:

وهى المملكة الشمالية ، وتقع فيما بين مملكة مقرة ومصر ، وتمتد فيما بين

---

(١٧) يقع إقليم الأبواب بالقرب من مروى القديمة ، ويذكر المقريزى: أن هذا الإقليم ، هو أول بلاد علوة من الجهة الشمالية، وهو من أهم أقاليمها ، ويشتمل على عدة قرى على الشاطىء الشرقى للنيل . وكان والى هذا الإقليم من قبل صاحب علوة يلقب بالرحراح (الخطط، جـ١ ص١٩٠ – ١٩٢) وكان يتمتع بمكانة كبيرة بحكم مسئولياته عن الدفاع عن الحدود الشمالية للنوبة. Trimingham: Islam in the Sudan , P. 64.

(١٨) تقع مدينة سوبة إلى الشرق من الجزيرة الكبرى الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق على بعد خمس عشرة ميلاً إلى الشرق من الخرطوم الحالية . (مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة ، ص ٧٩) .

(١٩) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ١٩٥٣ ، ص٢٥ .

(٢٠) أبو صالح الأرمنى : تاريخه ١٨٩٤ ، ص ١٢٠ ، المقريزى ؛ الخطط ، جـ١ص ص١٩٣، عبد المجيد عابدين : نفس المرجع والصفحة .

(٢١) قال المقريزى : أن «النوبة والمقرة جنسان بلسانين . (الخطط ، جـ١ ص ١٩١) .

(٢٢) تقع كبوشية بالقرب من مروى القديمة . (Budge: Op. Cit., Vol. II, P. 166.).

(٢٣) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ص٢٥ .

الشلال الثالث جنوباً إلى قرية القصر[٢٤] بالقرب من أسوان شمالاً ، وعاصمتها نجراش[٢٥] .

وتنقسم كل مملكة من هذه الممالك إلى مقاطعات أو ولايات ، لكل منها حاكم يلقب بالملك ، ويخضع للملك المستقر فى العاصمة ، أى لملك الملوك الذى يتمتع بسلطات مطلقة، ولا يعصى رعاياه له أمراً ، فهو مالك رقابهم جميعا[٢٦] .

ويقضى نظام وراثة العرش بأن يكون ذلك حقاً لابن الأخت بعد وفاة الملك ، وليس للابن أن يرث عرش أبيه ، قال ابن حوقل : أن [٢٧] من سُنة السودان إذا هلك الملك أن يقعد ابن اخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل ، إلاَّ إذا لم يكن له ابن اخت ، فحينئذ يكون من حق الابن أن يخلف أباه على عرشه[٢٨] .

وإذا كانت دولة كوش قد اتخذت موقفاً معادياً للرومان وتصدت لتيار المسيحية ، فإن الممالك الثلاث قامت على أنقاضها قد تبنت نفس السياسة ، إلا أن الرومان لم يفقدوا الأمل فى إمكان التعامل مع تلك الممالك . وخاصة بعد أن فقدت المنطقة العازلة - التى أقامها الرومان فى عهد دقلديانوس - صلاحيتها، ولم تعد محققة للغرض الذى انشئت من أجله ، نتيجة استئناف النوبيين الإغارات على المعاقل الرومانية فى جنوب مصر، واستيلائهم سنة ٤٢٩م على الواحة الخارجة ، ومعاونتهم للعناصر المصرية ضد الرومان . ومع كل ذلك لم يعد الرومان وسيلة لاحتواء النوبيين ، إما بالاعتراف بمعتقداتهم الدينية والسماح لهم بالوصول إلى فيله لإقامة شعائرهم الدينية فيها ، أو بمنح بعض

---

(٢٤) قال المقريزى نقلاً عن عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى؛ أن قرية القصر هى أول بلاد النوبة (وهى على خمسة أميال جنوبى أسوان، وبينها وبين جزيرة بلاق (فيلة) - آخر حصن للمسلمين بمصر - ميل واحد . (الخطط ، جـ١ ص١٩٠).

(٢٥) نجراش أو بجراس أو باخوراس أو مريس، وهى فرس الحالية بالقرب من الشلال الثانى على نحو عشر مراحل من أسوان. (المقريزى ؛ الخطط، جـ١ ص ١٩٢، مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ٤٣ ، عبد المجيد عابدين : نفس المرجع ، ص ٢٥) .

(٢٦) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ١٣٤٦هـ ، جـ١ص ٤١ .

(٢٧) صورة الأرض ، ص ٥٦ .

(٢٨) أبو صالح الأرمنى : تاريخه ، ص ١٢٥ .

زعمائهم الإقطاعات فى مصر، ابتغاء مرضاتهم، وتفادى مخاطرهم، وضمان وقف غاراتهم، وتأمين الحدود من جهتهم، وتنشيط الحركة التجارية عبر أراضيهم إلى وسط إفريقية ، مع التركيز على إغرائهم لاعتناق المسيحية [٢٩] .

أسفرت الجهود الرومانية عن تقبل البعض للمسيحية، وخاصة فى المدن والقرى الكبيرة، وأصبح هؤلاء بمثابة عناصر موالية . لذلك شجعهم الرومان لاستكمال نشر المسيحية ، وحرضوهم على مقاتلة الوثنيين من أبناء بلدتهم ، لإجبارهم علي اعتناق المسيحية بالقوة[٣٠] ، وتحويل معابدهم إلى كنائس ، بالإضافة إلى ما أنشأوه فى كثير من المدن كدنقلة وابريم وفرس وغيرها من المدن الممتدة فيما بين الشلال الأول إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً . حتى قيل أنه بلغ من كثرتها ، أن صار فى مملكة علوة وحدها أربعمائة كنيسة[٣١] . وتنافست كنيستا الإسكندرية والقسطنطينية على نشر المسيحية ، ونجحت كنيسة الإسكندرية فى اكتساب ملك نباتا سنة ٥٤٣م ، وملك علوة سنة ٥٨٧ م إذ اعتنقا المسيحية على مذهب كنيسة الإسكندرية اليعقوبى[٣٢] . أما ملك مقرة فقد اعتنقها سنة ٥٦٩م على مذهب القسطنطينية الملكانى ، وهذا يعنى أن المذهب اليعقوبى كان أكثر انتشارا[٣٣] .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن أثر المسيحية اقتصر فى معظمه على المدن والقرى الكبيرة، وأن ذلك الأثر لم يكن كبيراً، لأن معظم من اعتنقها من النوبيين ظلوا على تمسكهم بالعادات والتقاليد الوثنية ، كما كان معظم النوبيين وقت الفتح الإسلامى لمصر ، لايزالون على وثنيتهم[٣٤] .

---

(٢٩) مصطفى مسعد : نفس المرجع ، ص ٣٦ - ٣٩ .

(٣٠) Budge, Op. Cit. P. 293.

(٣١) أبو صالح الأرمنى : تاريخه، ص ١٢٠ .

(٣٢) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥، ص٧٧ ، المسعودى؛ التنبيه والإشراف، ليدن ١٨٩٤، ص ١٥١ ، المقريزى ؛ الخطط ، جـ١ ص ١٩٣ .

(٣٣) مصطفى مسعد : نفس المرجع ، ص ٥٥ -٦٥ .

(٣٤) اليعقوبى: كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ، ص٣٣٦، الاصطخرى؛ المسالك والممالك؛ القاهرة ١٩٦١، ص٣٢، وأبو الفدا ؛ المختصر فى أخبار البشر، بيروت ، جـ١ ص ٩٦ . ابن الوردى؛ تتمة المختصر (بيروت ١٩٧٠) جـ١ ص ١٣٥ .

وتجدر الإشارة إلى اندماج مملكتى نباتا ومقرة المتجاورتين فى مملكة واحدة عرفت باسم مملكة مقرة أو مملكة النوبة ، وشملت المنطقة من الشلال الأول شمالاً ، إلى حدود مملكة علوة جنوباً [٣٥] ، حيث جزيرة ساى ومدينة كورتى[٣٦] ، واتخذت مدينة دنقلة عاصمة لها[٣٧] . ولا شك أن حدوث هذا الاندماج رغم الاختلاف المذهبى بينهما يدل على عدم تأثير المسيحية على أهل النوبة ، أو أنه يمثل تفوقاً للمذهب اليعقوبى فيها[٣٨] . بسبب تلاشى المذهب الملكانى شيئا فشيئاً، وخاصة بعد الفتح الإسلامى لمصر ، وزوال النفوذ البيزنطى تبعاً لذلك .

وقد قسمت هذه المملكة إدارياً إلى ثلاثة عشر إقليماً ، ويلقب حاكم كل منها بالملك[٣٩] . ويخضع هؤلاء الحكام أو ملوك الأقاليم لكبير الملوك فى دنقلة. ومن ألقابه ملك النوبة أو ملك الملوك ، وعرفه العرب باسم عظيم النوبة[٤٠] ، وحكمه نافذ في رعيته ويده مطلقة فيهم، ومن حقه أن يسترق من شاء منهم ، وله أن يتصرف فى أموالهم[٤١] .

ويعتبر حاكم إقليم مريس - المجاور لحدود مصر - من أهم ولاة الأقاليم ، وكان يعرف بصاحب الجبل ، ويقع عليه عبء حماية الحدود الشمالية ، والدفاع عنها ضد أى غزو خارجى[٤٢] . ولذلك كان يتم اختياره من بين من يتصفون

---

(٣٥) المقريزى : الخطط، جـ١ ص٢٠٠ . Trimingham. Op. Cit. P. 59 .

(٣٦) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٠٨ .

(٣٧) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ليبزج ١٩٢٨، ٢٦٨ ، المقريزى؛ نفس المصدر ، جـ١ ص ١٩٢، (ودنقلة مدينة عظيمة ببلاد النوبة ، وهي منزل ملكهم). القزوينى؛ آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٩، ص٣٩ (وهى غير دنقلة الحالية ، التى تقع إلى الشمال منها بنحو مائة ميل) سعيد عبد الفتاح عاشور ؛ مصر في عصر المماليك البحرية، القاهرة ١٩٥٩، ص ٧٦، حسن محمود ؛ نفس المرجع، ص ٣٠٨ .

(٣٨) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٦٩ ، القزوينى ؛ آثار البلاد ، ص ٣٩، ابن الفقيه ؛ كتاب البلدان، ص ٧٧، المسعودي؛ التنبيه والإشراف ، ص٥١ .

(٣٩) المقريزي : نفس المصدر ، جـ١ ص٢٠٠ .

(٤٠) المقريزي : نفس المصدر والصفحة .

(٤١) المسعودي : مروج الذهب، جـ١١ ص ٢٤٧ ، القزوينى ؛ نفس المصدر، ص ٢٥ .

(٤٢) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، ٣٠٨ .

بالحزم والشدة والبأس ، وكان مقره مدينة نجراش (فرس الحالية)، وكان دائم التنقل إلى المدن الأخرى التابعة لإقليمه لتفقد أحوالها أو إقامة التحصينات العسكرية لحماية منطقته ، وتأمين الحدود الشمالية للدولة(٤٣) .

ومما لا شك فيه أن بلاد النوبة ارتبطت بمصر بروابط قوية منذ ربط النيل بينهما . وكان لتلك الروابط آثارها البارزة فى كثير من النواحى التجارية والدينية والحضارية وإذا كانت العلاقات قد اتخذت فى كثير من الأحيان مظهراً عدائياً، تمثل فى الإغارات على حدود مصر الجنوبية، فإن ذلك فى حد ذاته يمثل دليل رغبة مؤكدة للإتصال، وتمسك بتحقيق استمرار الروابط، ويوضح ذلك مدى حاجة النوبة لمصر ، تسعى إليها ولو عن طريق الإغارات ، عندما تحتم ظروف مصر الداخلية توقف تلك الإتصالات . وهذه هى طبيعة الدول المتجاورة، لا تقف الحدود عقبة فى سبيل استمرار العلاقات بينهما ، وخاصة إذا كانت إحداها أرقى حضارياً ، فإن توقف إشعاعها الحضارى لأى سبب من الأسباب، يكون دافعاً للدول المجاورة – التى افتقدت ذلك المد الحضارى – إلى السعى لاستمرار الاتصال بأى وسيلة ، ولو كانت ذات مظهر عدائى كالاغارات المتكررة . وكان ذلك هو موقف النوبة مع مصر إلى حين الفتح الإسلامى لمصر .

أما عن العلاقات بين الجزيرة العربية وبلاد النوبة ، فهى تدخل فى إطار العلاقات العربية الافريقية . فقد ارتبطت المناطق الواقعة على شاطئى البحر الأحمر بعلاقات قديمة ، ولم يكن هذا البحر حائلاً أمام الاتصال بين جزيرة العرب وساحل إفريقية الشرقى. فقد تمرس العرب ، وخاصة فى جنوب الجزيرة، فكانوا على درجة كبيرة من الخبرة البحرية ، بحكم نشأتهم فى الموانى الممتدة على طول سواحل تلك البلاد ، وتحكمهم فى طرق تجارة الشرق العالمية، ومساهمتهم فى حركة التبادل التجارى بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور . وعرفت سفن الممالك القديمة كسبأ وحمير وحضرموت طريقها عبر البحر الأحمر إلى الشاطئ الإفريقى ، حاملة السلع المحلية وغيرها من سلع الشرق لمبادلتها بأنواع التجارة الإفريقية كالعاج والرقيق وزيت النخيل وغيرها(٤٤) .

(٤٣) حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٨١ ، مصطفى مسعد ؛ نفس المرجع ، ص ٧٣ – ٨٥.
(٤٤) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .

توطدت العلاقات العربية بسكان شرق إفريقية ، وأنشأ تجار العرب المحطات والمراكز التجارية على طول الساحل الافريقى المقابل ، لتكون مناطق ارتكاز تصل إليها سلعهم الواردة والصادرة . وتبدأ قوافلهم من هذه المراكز ، حاملة ما جاءوا به من بضائع ، ويتوغلون بها إلى أسواق التجارة الافريقية فى قلب القارة ، حيث كان لهم وكلاؤهم التجاريين فى مناطق الأسواق الداخلية التى كانوا يقصدونها ومنه ما كان على النيل[٤٥] .

أدى هذا النشاط التجارى إلى زيادة إقبال العناصر العربية على الوصول إلى المناطق الممتدة على طول الساحل الإفريقى الشرقى ، وإلى ما يلى سفالة الزنج جنوباً وقد بأت حركة الهجرة من الجزيرة العربية إلى تلك المناطق بأعداد كبيرة من اليمنيين إلى تلك المناطق، وخاصة بعد خراب سد مأرب ، وتوغلت جموع منهم تجاه وادى النيل غرباً . واستقرت جماعات منهم فى بعض مناطق حوض النيل والحبشة[٤٦] .

وإلى جانب طوائف التجار والمهاجرين ، يشير ابن خلدون إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون ، ووصلت جموعهم إلى بعض مناطق النوبة والسودان، واخترقت قلب القارة إلى شمالها فى بلاد المغرب وأستقرت مجموعات منهم فى المناطق التى وصلت إليها[٤٧] . ولهذا قرر ابن خلدون أن أصل البربر من اليمن ، وأنهم من أبناء النعمان بن حمير بن سبأ[٤٨] . كما يدعى ملوك غانه ومالى الانتساب إلى أصول عربية ، فى حين يعلن ملوك برنو أنهم من نسل سيف بن ذى يزن أى أنهم يمنيون[٤٩] .

وإذا كانت بعض تلك الروايات تدخل فى عداد الأساطير ، إلا أنه من الثابت حدوث تلك العلاقات بين الجزيرة العربية وكثير من المناطق الإفريقية منذ زمن بعيد . مما كان له أكبر الأثر فى انتقال العادات والتقاليد وتبادلها على مر

(٤٥) مصطفى محمد مسعد : نفس المرجع ، ص ١٠٧ .
(٤٦) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ١١ - ١٢ .
(٤٧) ابن خلدون : العبر ، جـ١ ص ١٧٦، جـ٦ ص ١٩٩ .
(٤٨) العبر ، جـ٣ ص ٩٣ ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، جـ١ ص٨٢.
(٤٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، نشر دار الكتب المصرية ، جـ٨ ص ١١٧ .

العصور، ومن ناحية أخرى ، فقد كان الوافدون العرب نواة لغيرهم وركيزة لهم، مما شجع الكثيرين على التعامل مع تلك المناطق أو الهجرة إليها.

ومن المعروف أن العرب استخدموا المسالك الإفريقية المقابلة ، ثم أضافوا إليها - بعد فتح مصر - أكثر من مسلك تجاه الغرب والجنوب ، فبعد أن تدفقت جموع الفاتحين إلى مصر ، إندفعت للإنتشار فى المناطق التى تم فتحها ، واختلطوا بعد استكمال الفتح بالسكان الأصليين . وقد كان الموقف آنذاك يتطلب العمل على تأمين ما تم من فتوحات ، إذ أنه بعد الفتح الإسلامى لبلاد الشام ، انسحبت قوات الروم (البيزنطيين) إلى مصر باعتبارها الملجأ الطبيعى بعد فقد الشام. وكان على المسلمين فى نفس الوقت أن يستثمروا انتصاراتهم، بتعقب الفارين والوصول بالفتوحات غرباً إلى مصر ، ولذلك سارع عمرو بن العاص بجيشه إليها. ويشير الواقدى إلى استنجاد المقوقس بملك النوبة ، إلا أن الملك المذكور لم يتمكن من إرسال المطلوب لوقوع خلاف بينه وبين ملك البجاة[٥٠] . وقيل بل توجه كل من ملكى النوبة والبجة على رأس جيش كبير للمشاركة فى فك الحصار الإسلامى عن البهنسا[٥١] .

فلما تم فتح مصر، نصت معاهدة الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس فيما يتعلق بالمصريين ، بالأ «يساكنهم النوبة» ، ونصت فى نفس الوقت، على أن من يدخل فى الصلح من «الروم والنوبة فله مثل مالهم، وعليه مثل ماعليهم، ومن أبي واختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا ... وعلى النوبة الذين استجابوا ، أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرسا، على ألا يغزوا أو يمنعوا من تجارة صادرة أو واردة[٥٢] .

---

(٥٠) الواقدى : فتوح مصر والاسكندرية ، ليدن ١٨٢٥ ، ص ٥٧ ، ٦٠ ، ٧٧ - ٧٨ .

(٥١) Budge, The Egyptian Sudan, Vol. II, P. 184, Burckhardt, Travels in Nubia, London, 1819, p. 528.

(٥٢) ابن كثير : البداية والنهاية، طبعة السعادة ، جـ٧ ص ٩٨، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، طبعة دار الكتب ، جـ١ ص ٢٤ - ٢٥، وقارن الطبرى : تاريخه، ليدن ١٨٩٣، القسم الأول ص ٢٥٨٨ - ٢٥٨٩، ابن خلدون : تاريخه ، بيروت ١٩٦٦، المجلد الثانى ص ٩٧١ .

وهكذا أجرى المسلمون من دخل فى صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر، من تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم، إلا من اختار الذهاب منهم، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه[٥٣] . كما تعهد المسلمون بحماية مصر وأهلها من الاغارات ، ومنها إغارات أهل النوبة[٥٤] ، ذلك أن النوبيين كانوا ينظرون إلى مصر - ذات الخيرات - على أنها غنيمة لهم ، مثلما كانت لآبائهم وأجدادهم من قبل، ولذلك فلم يكن فى الإمكان أن يتوقف النوبيون عن الإغارة على مناطق مصر الجنوبية[٥٥]. ولهذا كان العمل من أجل فتح تلك البلاد، لوقف الإغارات وتأمين الحدود، وتيسير وصول الدعوة الإسلامية إليها، وضمان انتظام الحركة التجارية الصادرة من مصر والواردة عبر أراضى النوبة ، حيث كانت السفن تحمل المقادير الكبيرة من الذهب والعاج وغيرهما عبر تلك الأراضى[٥٦].

ونتيجة للإغارات التى شنها النوبيون على صعيد مصر، وما ترتب على ذلك من تأثير الحركة التجارية، استأذن عمر بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب لتوجيه الحملات إلى بلاد النوبة لوقف الاعتداءات النوبية وتأمين الحدود ، وفتح الطرق التجارية النهرية والبرية عبر تلك البلاد. بالإضافة إلى تحقيق وصول الدعوة الإسلامية إلى أهالى النوبة[٥٧] .

قال البلاذرى: «لما فتح المسلمون مصر، بعث عمرو بن العاص إلى القرى التى حولها الخيل ليطأهم، فبعث عقبة بن نافع الفهرى - وكان نافع أخا العاص لأمه - فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقي المسلمون بالنوبة قتالاً شديداً . لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة ، فسموا رماة الحدق[٥٨] .

(٥٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٣٤٩ هـ ، جـ٢ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
(٥٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٤٩، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، ٢٤٩ .
(٥٥) بتلر : نفس المرجع ، ص ٣١٦ ، مصطفى مسعد ؛ نفس المرجع ، ص١١١ .
(٥٦) بتلر : نفس المرجع . ص٨٣ .
(٥٧) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ص ٢٩ ، جـ٣ ص ٣٨ - ٣٩ .
(٥٨) البلاذرى : فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، ١٩٥٦ ، ق ١ ص ٢٨٠ ، ابن خرداذبة ؛ المسالك والممالك ، ليدن ١٨٩٩، ص ٩٢ ، وقارن ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر ، ١٩٦١، ص٢٢٨، ابن الفرات ؛ تاريخ ابن الفرات، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ تيمور ، جـ١٣ ، ص ٣٠ب ، حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ، ص٢٤ ، محمد التونجى ؛ عقبة بن نافع، بنغازى ١٩٧٥ ص , ١٧٠

وذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٠هـ: «أن المسلمين لما فتحوا مصر غزوا نوبة مصر ، فقفل المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق من جودة الرمى ، فسموا : رماة الحدق[٥٩] .

وقال المسعودى : «وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر ، كتب إليه بمحاربة النوبة ، فغزاهم المسلمون فوجدوهم يرمون الحدق، وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم حتى صرف عن مصر[٦٠] .

وقال ابن عبد الحكم: «وبعث عمرو بن العاص نافع بن عبد القيس الفهرى ، وكان أخا العاص بن وائل لأمه، فدخلت خيولهم أرض النوبة صوائف كصوائف الروم، فلم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر[٦١] ».

وذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٠هـ ، : أنه «لما فتحت مصر غزوا النوبة، فرجع المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم، فسموهم رماة الحدق[٦٢] .

أما المقريزى ، فيقول ، أن: «أول ما تقرر هذا البقط فى إمارة عمرو بن العاص ، لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين ، وقيل سنة إحدى وعشرين ، فى عشرين ألفاً . فمكث بها زماناً ، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه[٦٣] .

وهكذا ، وبعد استعراض النصوص الخاصة بحملة النوبة الأولى ، يتضح لنا أنها ليست كافية لتوضيح تصور كامل عنها. فقد أغفلت كل ما يتعلق بإعداد الحملة وحجمها، وخط سيرها، وما إذا كانت برية ونهرية ، أم برية فقط، ومدى توغلها فى عمق البلاد ، وموقع المعركة، كما اختلفت المصادر حول تحديد

(٥٩) تاريخ الرسل والملوك ، ق١ ص ٢٥٩٣ .

(٦٠) مروج الذهب، جـ١ ص ٢٤٦-٢٤٧ ، الحميري : الروض المعطار ، بيروت ١٩٧٥، ص٢٣٧ .

(٦١) فتوح مصر، ص ٢٢٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ١٣٢٧ هـ ، جـ ١ ص ٦٢ .

(٦٢) الكامل فى التاريخ ، جـ٢ ص ٣٩٧ ، (قال القلقشندى : «لما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر ، غزاهم».) صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب ، جـ٥ ص ٢٧٦ .

(٦٣) الخطط ، جـ ١ ص ٢٠٠ .

شـخـصـيـة قـائد الحـملة. خلطت بعض المصـادر بين هذه الحـملة وبين حـملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ / ٦٥٢م . إذ جعل المقريزى تقرير البقط فى الحملة الأولى، أى على عهد عمرو بن العاص، وفى خلافة عمر بن الخطاب(٦٤) .

وفيما يتعلق بمحاولة توضيح بعض تلك النقاط، فإنه على ضوء طبيعة المرحلة وسياسة الفاتحين خلالها ، وحجم القوة العسكرية فى مصر وقتذاك ، وضرورة المحافظة عليها وعدم إضعافها بتشتيتها فى جبهات متعددة ، فإنه يمكن القول بأن المحاولات الأولى لفتح النوبة أو المغرب، وإن استهدفت تحقيق الهدف الأساسى من الفتوحات، من إتاحة الفرصة لتعامل الإسلام مباشرة مع شعوب تلك المناطق ، ووصول الدعوة إليهم. إلا أن ذلك كان مرتبطاً بمدى ما يمكن إعداده من قوة قادرة على الفتح واستكماله .

فقد كان على القوات الإسلامية فى مصر تثبيت الوجود الإسلامى فيها، ودفع المخاطر التى تتهددها ، وتأمين حدودها الجنوبية والغربية. غير أن تلك القوات لم تكن من الكثرة بحيث يمكن تخصيص أعداد كبيرة منها لتوجيهها إلى المناطق الجنوبية والغربية. وهذا ينفى ما ذكره المقريزى من أن الحملة الأولى على النوبة كانت تتكون من عشرين ألفاً(٦٥) ، وإنما كانت تتكون من عدد محدود من الفرسان(٦٦) . يؤيد ذلك ما ذكرته المصادر من أن أولى الحملات التى قادها عمرو بن العاص لفتح برقة ، وهى فى حدود الفترة التى وجهت فيها حملة النوبة الأولى ، كانت من الفرسان(٦٧) . وهذا يعنى أنها كانت قليلة العدد، رغم إحتمالات المخاطر من جهة البيزنطيين فى الجبهة الغربية . وعلى ذلك فإن تلك الحملة وغيرها فى كل من الجبهتين لم تكن فى قوة كافية بحيث يمكنها تثبيت ما تحققه من فتوحات، وضمان استمرار تبعية ما تفتحه بترتيب الحاميات

(٦٤) الخطط ، نفس الجزء والصفحة .

(٦٥) الخطط ، نفس الجزء والصفحة .

(٦٦) انظر ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ق١ ص ٢٨٠ .

(٦٧) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، طبعة كولان وبروفنسال، ص ٨، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، الطبعة الأولى ١٩٦٦، جـ٢ ص ١٤٢ ، سعد زغلول عبد الحميد؛ تاريخ المغرب العربى ١٩٧٩، جـ١ ص١٣١.

الكافية والدائمة فيها، إذ أن صغر حجم الحملات حتم عودتها إلى قواعدها بعد كل حملة بمجرد القيام بما أعدت له. ودون ترك حاميات فى المناطق التى تم فتحها، مما يدل على أن الحملات الأولى لم تكن سوى حملات استطلاعية محدودة العدد، تتكون كل منها من مجموعة من الفرسان.

وهكذا ، يمكن القول بأن حملة النوبة سنة ٢٠ أو ٢١ هـ (٦٤١ - ٦٤٢م) كانت كذلك محدودة العدد ، ولذلك لم تستهدف الفتح الكامل والدائم بقدر ما كانت للاستطلاع والاستكشاف وتأمين الحدود والتمهيد لنشر الاسلام والتعرف على طبيعة البلاد ومسالكها وتكوين تصور كامل عن قوتها، مما يساعد على تنظيم وإعداد عمليات الفتح على ضوئها، عندما تتوفر القوة الكافية التى يمكن تخصيصها لتحقيق ذلك .

وإذا كانت المصادر لم تنص على خط سير الحملة، وبيان مدى توغلها ، أو تحديد موقع المعركة، فإنه يمكن القول بأن الحملة كانت برية لكونها من الفرسان، وأنها أستهدفت المواقع القريبة من حدود مصر الجنوبية فيما يلى أسوان وما حولها، حيث كانت الإغارات النوبية تنطلق منها. وعلى ذلك لم تكن المعركة تبعد كثيراً من حدود مصر. يؤيد ذلك ما ذكره الطبرى ، من أن الغزوة كانت لنوبة مصر(٦٨) ، أى منطقة النوبة القريبة من مصر ، مما سهل للحملة مهمة الانسحاب والعودة بعد أن أصيب بعض أفرادها بجراحات وحدق مفقرءة، لتضع بين يدى عمرو بن العاص تقريراً عن صورة الموقف ، وأسباب إخفاق الغزوة التي ترجع إلى قلة عدد الفرسان، مع كثرة عدد النوبيين وشدة مقاومتهم، ومهاراتهم فى الرمى بالسهام .

لم تكن المعركة معركة التحام بين القوتين ، ليظهر المسلمون براعتهم فى القتال بالسيوف ، ولكن لعدم خبرة النوبيين بالفروسية، فقد عملوا على أن تكون المعركة بالأسلوب الذى يجيدونه ، مما جعل من المتعذر أن تكون المعركة معركة فروسية بالسيف، فظهرت براعة النوبيين فى الرمى بالسهام، وقدرتهم على إصابة الهدف ، إذ كانوا يصوبون سهامهم إلى عيون مقاتلى المسلمين، فيصيبونها

(٦٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ق١ ص ٢٥٩٣ .

في دقة تامة. فكانت تلك الحملة بمثابة أول إتصال بين الفاتحين وشمال السودان.

ويمدنا البلاذرى برواية أسندها إلى من رواها عن واحد ممن شارك فى تلك المعركة قال: «شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب ، فلم أر قوماً أحد فى حرب منهم لقد رايت أحدهم يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمى منك ؟ فربما عبث الفتى منا فقال: فى مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمى بالنبل، فما يكاد يرى من نبلهم فى الأرض شىء . فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم. رمونا حتى ذهبت الأعين، فعدت مائة وخمسون عيناً مفقوءة. فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح ، إن سلبهم لقليل ، وإن نكايتهم لشديدة ، فلم يصالحهم عمرو ، ولم يزل يكالبهم حتى نزع[٦٩] .

أما فيما يتعلق بما ذكره المقريزى من أن تقرير البقط على النوبة كان نتيجة لتلك الحملة[٧٠] . فإن المصادر الأقدم ، لم تمدنا بما يؤيد ذلك، بل على العكس فكلها تشير إلى اضطرار الحملة إلى الانسحاب والعودة لشدة مقاومة النوبيين[٧١] ، وهو موقف لا يمكن القول بأنه من الممكن أن يتقرر البقط نتيجة له، اللهم إذا كان المقصود ماورد عن النوبيين فى معاهدة الصلح التى عقدها عمرو بن العاص مع المقوقس عند فتح مصر [٧٢] . إلاّ أن المقريزى ينص على أن تقرير البقط كان نتيجة للحملة الأولى على بلاد النوبة .

ومن ناحية أخرى فإن استمرار عمرو بن العاص فى إرسال فرسان المسلمين إلى النوبة صوائف كصوائف الروم[٧٣] ، ورفضه مصالحة النوبيين إلى أن صرف

---

(٦٩) فتوح البلدان ، ق ١ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٧٠) الخطط ، جـ١ ص ٢٠٠ ، حسن إبراهيم حسن؛ إنتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، ص ١٣٩.

(٧١) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٨٠ ، الطبرى؛ تاريخه ، ق١ ص ٢٥٩٣، ابن الأثير ؛ الكامل فى التاريخ، جـ٢ ص ٣٩٧ .

(٧٢) الطبرى : نفس المصدر، ق١ ص ٢٥٨٨ - ٢٥٨٩، ابن كثير؛ البداية والنهاية، جـ٧ ص٩٨.

(٧٣) البلاذرى : نفس المصدر والصفحة ، ابن عبد الحكم؛ فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٨، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص ٦٢ .

عن مصر[٧٤] ، فإن فى ذلك دليل على استمرار الغزوات صوائف طيلة ولاية عمرو بن العاص وإلى أن كانت حملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م.

ويستوقفنا أخيرا فيما يتعلق بهذه الحملة، تحديد شخصية قائدها، إذ تضاربت المصادر حول شخصيات ثلاث، عبدالله بن سعد بن أبى سرح [٧٥] أو عقبة بن نافع[٧٦]، أو والده نافع بن عبد القيس الفهرى[٧٧].

ففيما يتعلق بعبدالله بن سعد، وهو ما ذكره المقريزى قائداً للحملة، فمن الثابت أن المقريزى قد خلط بين هذه الحملة وبين حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ . وإذا ثبت إشتراك عبدالله بن سعد فى حملة النوبة الأولى، فمن المرجح أنه كان واحداً من أفرادها وليس قائداً لها.

أما عقبة بن نافع، فقد أشارت المصادر إلى إسناد قيادة حملات أخرى إليه منذ بداية المحاولات الأولى لفتح المغرب سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٣م [٧٨]. ولما كانت المصادر قد حددت فى نفس الوقت مولد عقبة فى السنة العاشرة للهجرة، أى قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بعام تقريبا [٧٩]، فإنه يكون فى العاشرة أو الحادية عشر من عمره أثناء حملة النوبة الأولى على أكثر تقدير، أى أنه لم يكن فى سن يسمح بإسناد قيادة الحملة إليه، وخاصة أنها كانت موجهة لمناطق تكاد تكون مسالكها وطبيعتها مجهولة بالنسبة للفاتحين، وإن إقتصرت مهمتها خلال تلك المرحلة على إستطلاع، إلا أن ذلك لا يمنع من مصاحبة عقبة لأبيه الذى كان قائداً للحملة، وهذا ما ذكره ابن عبد الحكم، إذ نص صراحة على أن

---

(٧٤) البلاذرى : نفس المصدر ص ٢٨١، المسعودى ؛ مروج الذهب، جـ١ ص ٢٤٧، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص٢٢٨ .

(٧٥) المقريزى : نفس المصدر ، جـ١ ص ٢٠٠، عبد المجيد عابدين؛ تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ٣٥ .

(٧٦) البلاذرى : نفس المصدر، ق١ ص ٢٨٠، ابن خرداذبة المسالك؛ والممالك ، ص ٩٢.

(٧٧) ابن عبد الحكم؛ فتوح مصر ، ص ٢٢٨ .

(٧٨) انظر، السيد عبد العزيز سالم ؛ المغرب الكبير ، جـ٢ ص ١٤٢ ، ١٩١ ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، جـ١ ص ١٣١ ، ١٧٦ .

(٧٩) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ١ ص١٩، ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة، القاهرة ١٢٨٠ - ١٢٨٦ هـ، جـ٣ ص ٤٢٠ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، جـ٢ ص ١٩١- ١٩٢ ، سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع ، جـ١ ص ١٣٦ ، ١٧٦ .

الحملة كانت بقيادة نافع بن عبد القيس [٨٠]، وقد نسبت المصادر ذلك إلى عقبة، لما أشتهر به بعد ذلك باعتباره من كبار قادة الفتوحات فى بلاد المغرب، فخلطت المصادر فى هذه الحملة بين الصبى الصغير عقبة وبين والده، ونسبت قيادة تلك الحملة وغيرها من الحملات المبكرة إليه.

أما عن حملة عبدالله بن سعد على النوبة، فتجمع المصادر على أنها كانت سنة ٣١ هـ/ ٦٥٢م [٨١]. إلا أن بعضها لم يشر إلى الحملة الأولى، وأعتبر أن حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١ هـ، هى أولى الحملات التى وجهها المسلمون إلى بلاد النوبة، قال الذهبى والنويرى وابن الفرات وابن ايبك وغيرهم: أن "أول ما غزيت النوبة سنة إحدى وثلاثين للهجرة النبوية " [٨٢].

ولاشك أنه فيما سبق توضيحه ما يكفى لتأكيد أن حملة ابن سعد لم تكن أولى الحملات على النوبة، وأن بداية محاولات فتحها كانت سنة ٢٠ أو ٢١هـ/ ٦٤١ أو ٦٤٢م أى بعد فتح مصر مباشرة.

ونظراً لأن المصادر لم تمدنا بمعلومات عن حملات أخرى فيما بين الحمله الأولى وحملة ابن سعد، أى لفترة تزيد عن عشر سنوات، فقد يتبادر إلى الأذهان أن الحملات قد توقفت خلال تلك الفترة، وقد يؤيد ذلك ما ذكره القلقشندى – نقلا عن الروض المعطار – من " أن عمرو بن العاص رضى الله عنه قصد قتال

---

(٨٠) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٨ .

(٨١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص ٢٥٢، ٢٥٣ ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة، ابن الفرات: تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٠ ب، ابن ايبك: كنز الدرر، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ، جـ ٨ ص ٢٠١، النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، وقارن، خليفة بن خياط، (حيث جعل حملة ابن سعد سنة ثلاث وثلاثين إلى الحبشة، قال: وفيها غزا ابن سرح الحبشة، فأصيبت عين معاوية بن حديج"). تاريخ خليفة ابن خياط تحقيق سهيل زكار ١٩٦٧، جـ ١ ص ,١٧٨

(٨٢) تاريخ الإسلام، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ، جـ ٢٩ ص ١٢٨، نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، تاريخ ابن الفرات، جـ ١٣ لوحة ٣٠ ب، كنز الدرر، جـ٨ ص ٢٠١ – ٢٠٢، وانظر ياقوت: معجم البلدان، مادتى دمقلة والنوبة، اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ ٢ ص ١٤٣، الدمشقى: نخبة الدهر، ,٢٦٩

النوبة، فرآهم يرمون الحدق بالنبل، فكف عنهم، وقرر عليهم إتاوة من الرقيق فى كل سنة (٨٣).

وإذا كان الكف عن حرب النوبة قد ورد صريحا فيما أورده القلقشندى، إلا أن ما جاء فى هذه الرواية من أخطاء، كجعل الحملة الأولى بقيادة عمرو بن العاص، وأن من نتائجها تقرير إتاوة سنوية من الرقيق تقدمها النوبة، لما يجعل من الحكمة عدم الأخذ بها، اللهم إذا كان المقصود حملة عبدالله بن سعد التى لم تكن فى عهد عمرو.

ومما يزيد الشك فى رواية القلقشندى، ما أورده فى صفحة سابقة، جاعلا الحملة بقيادة عمرو بن العاص أيضاً، إذ ذكر أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر قام بغزو النوبة، وأورد القلقشندى نصاً نقله أيضاً عن الروض المعطار، جاء فيه فرآهم يرمون الحدق بالنبل، فكف عنهم، وقرر عليهم إتاوة فى كل سنة (٨٤). وقد يكون تكرار النص على الكف عن حربهم، تأكيد لهذا الخبر، إلا أنه بالرجوع للروض المعطار يتضح إختلاف ما أورده القلقشندى عما ذكره صاحب الروض المعطار، حيث النص فيه كما يلى:

ولما افتتحت مصر، أمر عمر رضى الله عنه أن تغزى النوبة، فوجدهم المسلمون يرمون الحدق، فذهبوا إلى المصالحة، فأبى عمرو بن العاص ﵁ من مصالحتهم حتى صرف عن مصر ووليها عبدالله بن سعد بن أبى سرح سنة إحدى وثلاثين (٨٥).

وهكذا يتضح أن صاحب الروض المعطار لم ينص على توقف الحملات أو المصالحة أو التوصل إلى تقرير شىء على النوبة فى عهد ولاية عمرو بن العاص على مصر.

وأيا ما كان الأمر، فإنه إعتمادا على غير تلك النصوص، نستطيع أن نقرر عدم توقف الغزوات فيما بين الحملة الأولى وبين حملة عبدالله بن سعد.

(٨٣) صبح الأعشى: جـ ٥ ص ٢٧٨.

(٨٤) صبح الأعشى : جـ ٥ ص ٢٧٦ .

(٨٥) الحميرى : الروض المعطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت مادة دمقلة ص ٢٣٧ .

ففى رواية البلاذرى بسنده عن شيخ من حمير، ما يدل على إستمرار الحملات، إذ قال الشيخ: "شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب" (٨٦).

كما تشير نصوص أخرى إلى عدم مصالحة عمرو بن العاص للنوبة، وأن كتائب الفرسان إستمرت فى الوصول إلى النوبة بعد الحملة الأولى، صوائف كصوائف الروم ولم يزال الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر، وأمر عبدالله بن سعد، فصالحهم (٨٧).

وهكذا يتأكد أن حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١ هـ / ٦٥٢م، لم تكن أولى الحملات التى وجهها الفاتحون إلى النوبة، وإن الحملة الأولى كانت سنة ٢٠ أو ٢١ هـ/ ٦٤١ - ٦٤٢ م، وأن كتائب فرسان المسلمين لم تتوقف عن الوصول إليها، وأنها إستمرت حتى بعد عزل عمرو وولاية ابن سعد، الذى بدأت ولايته على مصر سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٦م (٨٨). ومن المرجح أنه حدث خلال السنوات الست التالية لولايته، ما كان سبباً فى قيامه بحملته التى أشارت إليها المصادر، وحددت توقيتها فى عام ٣١ هـ / ٦٥٢ م. أما عن القول بأنها أولى الحملات التى أرسلت إلى النوبة، فإنه يمكن اعتبارها كذلك، إذا كان المقصود من حيث العدد والعدة والتوغل فى عمق البلاد إلى دنقلة، وما نتج عنها من إتفاق جرى العمل به بعد ذلك.

وأيا ما كان الأمر، فلم يكن والى مصر مطلق اليد فى التصرف فى أمر الفتوحات غربا أو جنوباً، وإنما كان ذلك يتم تنفيذاً لسياسة مرسومة تتفق مع تطورات الحوادث وطبيعة المرحلة، وبعد موافقة الخليفة ، وقد أشارت بعض المصادر إلى استئذان عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب لاعداد وتوجيه الحملات، ولم يقتصر ذلك على ما يتعلق بالنوبة (٨٩)، وإنما كان الأمر كذلك بالنسبة للحملات التى وجهت إلى بلاد المغرب (٩٠). كما كانت الحملات

(٨٦) فتوح البلدان ، ق ١ ص ٢٨٠ .

(٨٧) البلاذرى : نفس المصدر ، ق١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٢٨ ، المسعودى مروج الذهب ، جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٨٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١ حوادث سنة ٢٥ هـ ، وجعلها ابن الأثير سنة ٢٦ هـ . أنظر ، الكامل فى التاريخ . حوادث سنة ٢٦ هـ .

(٨٩) انظر، المسعودى: مروج الذهب، جـ ١ ص ٢٤٦ .

الأولى فى الجبهتين عباره عن سرايا استطلاعية للإستكشاف، محافظة على وحدة القوات الإسلامية فى مصر ومنعا من تفرقها وتشتتها فى تلك القفار الشاسعة.

فلما كان عهد خلافة عثمان بن عفان، واستقرت الفتوحات الإسلامية، وزاد عدد المسلمين بإقبال أهالى البلدان المفتوحة على إعتناق الإسلام. وبالنسبة لبلاد النوبة، فيبدو أن السرايا الإستطلاعية قد أدت مهمتها، وتوفرت المعلومات عن تلك البقاع. ونتيجة لذلك ولكثرة الإغارات النوبية على صعيد مصر، وما قام النوبيون خلالها من سلب ونهب وتخريب (٩١)، فقد توفرت الأسباب الموجبة لإعداد حملة كبيرة لوضع حد لتلك الأعمال.

ففى سنة ٣١ هـ/ ٦٥٢م توجه عبدالله بن سعد على رأس حملة أحكم إعدادها، إذا كانت تتكون من خمسة آلاف فارس (٩٢)، مزودين بالمؤن والسلاح وآلات الحصار، واتخذ طريقه عبر أراضى النوبة متوغلاً إلى مدينة دنقلة (٩٣). عاصمة مملكة النوبة الشمالية مقرة.

ولتلافى الوقوع فى مصيدة سهام النوبيين، فقد قام عبدالله بن سعد بفرض الحصار على العاصمة النوبية ، واستخدم المنجنيق فى قصفها ، فخربت قذائفه كثيراً من الدور ومنها كنيسة المدينة. وعندئذ فوجىء ملك النوبة قليدوروث بهذا الأسلوب الحربى الذى لم تعهده النوبة من قبل (٩٤) ، وأسقط فى يده ، واضطر إلى الإسراع فى طلب الصلح ، حتى لا تؤخذ بلاده عنوة، «وخرج إلى عبد الله

(٩٠) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٦٦، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٠، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١ ص ٨، أبو العرب: طبقات علماء افريقية، بيروت، ص ١٦، سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، جـ ١ ص ١٤٢، - ١٤٣، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٩١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٩٢) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، ابن الفرات تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٣ م.

(٩٣) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ ٢٩ ص ١٢٨، النويرى: نفس المصدر والصفحة، ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة.

Holt : The Nilotic Sudan (in the Cambridge Eistory of Islam, Vol., II, P. 328.

(٩٤) المقريزى: الخطط، جـ ١ ص ٢٠٠ .

وأبدى ضعفاً ومسكنة وتواضعاً. فتلقاه عبد الله ورفعه وقربه ، ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة وستين رأساً فى كل سنة ، ووعده عبد الله بحبوب يهديها إليه لما شكا له قلة الطعام ببلده(٩٥) .

قال ابن عبد الحكم ومن نقل عنه، أنه «أصيب يومئذ عين معاوية بن حديج وأبى شمر ابرهة (الصباح) وحيويل بن ناشرة، فيومئذ سموا رماة الحدق ، فهادنهم عبد الله بن سعد إذ لم يطقهم ، وقال الشاعر :

لم ترعينى مثل يوم دمقلة والخيل تعدو والدروع مثقلة(٩٦) .

غير أن إصابة عيون المقاتلين ، وتسمية النوبيين برماة الحدق، إنما كان فى الحملة الأولى ، حيث فوجىء المسلمون وقتذاك ببراعة النوبيين المتناهية فى إصابة الهدف بالسهام من بعيد ، لذلك لم يتمكن المسلمون آنذاك من الالتحام بهم لمقاتلتهم بالسيوف. أمّا فى هذه المعركة، فإن الحصار الذى فرضه المسلمون على العاصمة ، واستخدام المنجنيق فى ضربها، فوت الفرصة على النوبيين فى استخدام السهام، لبعد المسلمين عن مرماها، ولهذا عجزوا عن مدافعة المسلمين، وأيقنوا بالهلاك ، وخرج ملكهم خاضعاً طالباً الصلح . وهو أمر لا يحدث ، إذا كان النوبيون قد تمكنوا من استخدام سهامهم فى هذه الحملة.

يؤيد ذلك ما قاله كل من البلاذرى وابن خرداذبة والطبرى والمسعودى وابن الأثير، من أن إصابة عيون المقاتلين فى الحملة الأولى ، ولم يشر أى من هؤلاء إلى تكرار ذلك فى حملة عبد الله بن سعد المشار إليها(٩٧) .

وهكذا ، فقد تحقق النصر للمسلمين فى هذه المعركة ، بعد أن تهاوت عزائم النوبيين وعجزوا عن الدفاع عن مدينتهم ، ولهذا أسرع ملكهم إلى طلب الصلح

(٩٥) المقريزى : نفس المصدر والصفحة.

(٩٦) فتوح مصر، ص ٢٥٢ - ٢٥٣، الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ ٢٩ ص ١٢٨، النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، ابن الفرات: تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٠ أ، ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة.

(٩٧) فتوح البلدان، ق ١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١، المسالك والممالك، ص ٩٢، تاريخ الرسل والملوك، ق ١ ص ٢٥٩٣، مروج الذهب، جـ ١ ص ٢٤٧، الكامل فى التاريخ، جـ ٢ ص ٣٩٧.

قبل أن تفتح مدينته عنوة ، أما استجابة ابن سعد له ، فتنفيذا لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله﴾[٩٨] .

قال البلاذرى : إن النوبيين سألوا ابن سعد «الصلح والموادعة فأجابهم[٩٩] ». وقال: «حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام، قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن أبى لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال: ليس بيننا وبين الأساود[١٠٠] عهد ولا ميثاق ، إنما هدنة بيننا وبينهم[١٠١] .

وقال ابن عبد الحكم ومن نقل عنه: «إنما هي هدنة أمان[١٠٢] » ، على ألا نقاتلهم ولا يقاتلوننا، «وأن يعطونا رقيقاً ونعطيهم بقدر ذلك طعاماً[١٠٣] ».

أما فيما يتعلق بنص كتاب عبد الله بن سعد لملك النوبة ، فقد أورد ابن عبد الحكم بعضاً منه، قال: «ويقال فيما ذكر بعض المشائيخ المتقدمين ، إنه نظر فى بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن ينحرق ، فإذا هو يحفظ منه : إنا عاهدناكم وعاقدناكم أن توفونا فى كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأساً . وتدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذا ندخل بلادكم. على أنكم إن قتلتم من المسلمين قتيلاً، فقد برئت منكم الهدنة . وعلى إن آويتم للمسلمين عبداً ، فقد برأت منكم الهدنة. وعليكم رد أباق[١٠٤] المسلمين، ومن لجأ إليكم من أهل الذمة[١٠٥] ».

---

(٩٨) سورة الأنفال، آيه ٨ .

(٩٩) فتوح البلدان، ق ١ ص ٢٨٠، وانظر، ياقوت : معجم البلدان، مادة دمقلة.

(١٠٠) الأساود، هم النوبة (ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ٢٥٢).

(١٠١) فتوح البلدان، ق١ ص ٢٨١ .

(١٠٢) فتوح مصر، ص ٢٥٣، ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة، النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٩ ورقة ٢٦٠ م، ابن الفرات : تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٠ ب.

(١٠٣) البلاذرى: نفس المصدر والصفحة، وانظر ابن عبد الحكم: نفس المصدر والصفحة، الطبرى: نفس المصدر، ق ١ ص ٢٥٩٣، ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة، ابن الأثير: نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٩٧، النويرى: نفس المصدر والصفحة، ابن الفرات: نفس المصدر واللوحة.

(١٠٤) الآبق: هو العبد البالغ الهارب.

(١٠٥) فتوح مصر، ص ٢٥٤ .

أما النص الكامل لكتاب عبد الله بن سعد ، فقد أورده المقريزى فى خططه وإن كان قد أغفل ذكر مصدره ، ونصه بعد البسملة كالآتى :

عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ، عهد على الكبير والصغير من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة، أن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى ﷺ ، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم ، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو طرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته . وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم . تدفعوا ذلك إلى والى أسوان. وليس على مسلم دفع عدولكم ولا منعه عنكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً ، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك .

كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى وثلاثين[١٠٦] .

---

(١٠٦) الخطط، جـ ١ ص ٢٠٠ .

قال الطبرى : «قال على ، قال الوليد بن لهيعة: و أمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من الولاة والأمراء[١٠٧] .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أنه ليس فيما لدينا من نصوص ما يدل على توقيع ملك النوبة على هذا الكتاب. غير أن التزام النوبيين بالوفاء بما ورد فيه يؤكد القبول بما تضمنه .

ويتضح من النص الكامل للكتاب ، أنه :

■ أمان لمملكة النوبة الشمالية (مقرة) ، هدنة بين المسلمين وبين تلك المملكة فقط، إلى حد أرض علوة (المملكة الجنوبية) ، أى أنه لم يتضمن مملكة علوة.

■ ضمان لحرية دخول المسلمين والنوبيين كل إلى بلد الآخر غير مقيمين . وأن يحفظ النوبيون من يصل إلى بلادهم من مسلم أو معاهد حتى يخرج .

■ عدم إيواء مسلم محارب للمسلمين ، أو الفارين من عبيد المسلمين .

■ القيام بحفظ المسجد الذى أقامه المسلمون بدنقلة ، والتعهد بنظافته وإنارته، وعدم التعرض بسوء لمن يقصده مصلياً كان أو مجاوراً .

■ عدم إلتزام المسلمين بحماية النوبيين ، أو تقديم أية مساعدة لهم ضد أعدائهم.

■ التعهد بتسليم ٣٦٠ رأساً من الرقيق سنوياً .

■ يلتزم المسلمون بعدم محاربة النوبيين ماداموا ملتزمين بدورهم بالوفاء بما ورد بشأنهم فى الكتاب المذكور .

ولا شك أن ما قرره عبد الله بن سعد يتفق مع طبيعة وظروف بلاد النوبة ، ويؤدى فى نفس الوقت إلى تحقيق الأهداف الأساسية للفتوحات، من حيث اتصال الدعاة بأهل البلاد، والتمهيد لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية بينهم. بالإضافة إلى وقف الإغارات النوبية على صعيد مصر وتأمين حدود مصر الجنوبية ، وتنشيط الحركة التجارية .

(١٠٧) تاريخ الرسل والملوك، ق ١ ص ٢٥٩٣، ابن الأثير: نفس المصدر والصفحة.

أما النص المتعلق بالرقيق ، فمن المحتمل أن يكون القصد منه التأكد من استمرار التزام النوبيين بتنفيذ بقية ما نص عليه عهد الأمان، والوفاء بما تعهدوا به ، خاصة وأن المصادر لم تشر إلى قيام المسلمين بترتيب نائب أو حاميات إسلامية فى النوبة .

ومما يذكر أن هذا الرقيق الذى نُص عليه، هو وحده الذى اصطلح عليه بالبقط (١٠٨) دون بقية ما نص عليه العهد. وربما كانت لفظة (البقط) مصرية قديمة بمعنى عبد، وأطلقتها المصادر العربية على ما تقدمه النوبة من رقيق(١٠٩). أما إذا كانت عربية، فهى - كما يقول المقريزى - تعنى فرقة من الشئ أو قطعة منه، وهى هنا بمعنى «بعض ما فى أيدى النوبة»(١١٠) .

فالبقط إذن، «ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم(١١١) » طبقاً لما قرر(١١٢) . وقد فرض بنفس القدر فى جبهة المغرب على أهل ودان وجرمة(١١٣) ، إلاّ أنه لم يطلق عليه هناك نفس الإسم.

وقد جعل ابن خلدون البقط جزية (١١٤) . وقال غيره بأنه ليس بجزية(١١٥) ولا خراج(١١٦) ، وقال ابن الفرات بأنه ضريبة (١١٧) . وقيل بل هو هدية(١١٨)

---

(١٠٨) المسعودى: مروج الذهب، جـ ١ ص ٢٤٧ .

(١٠٩) بيكر : مادة (بقط) بدائرة المعارف الإسلامية.

(١١٠) الخطط، جـ ١ ص ١٩٩ .

(١١١) المقريزى: نفس المصدر ، ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠١ .

(١١٢) النويرى: نفس المصدر، جـ ٢٩ ورقة ٢٥٩ ب، ابن الفرات : تاريخه، جـ ١٣ لوحة ٣٠ ب .

(١١٣) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، جـ١ ص ١٨٠، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، جـ ٢ ص ١٩٤ .

(١١٤) تاريخ ابن خلدون، جـ ٥ ص ٩٢١، بيكر: مادة (بقط) بدائرة المعارف الإسلامية.

(١١٥) البلاذرى: فتوح البلدان ق١ ص ٢٨٠ .

(١١٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٩٢.

(١١٧) تاريخ ابن الفرات، نفس اللوحة، النويرى : نفس المصدر والورقة.

(١١٨) البلاذرى: نفس المصدر والصفحة، الطبرى : نفس المصدر والصفحة، ابن خرد اذبة: نفس المصدر والصفحة، ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة.

أو عطاء يقدمه النوبيون ، ويؤدى المسلمون فى مقابله طعاماً(١١٩) . غير أن نص العهد الذى أورده المقريزى ، لم يرد فيه شرط عن التزام المسلمين بتقديم شىء من غلال أو خلافه، غير أن هدية الغلال، إنما كانت بعد أن قرر ابن سعد الصلح مع ملك النوبة ؛ على نحو ماورد فى الكتاب . فلما شكا الملك قلة الطعام ببلده، وعده ابن سعد بحبوب يهديها إليه (١٢٠) ، وبعث له ما وعده به من حبوب قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً، قال المقريزى: «ثم تطاول الرسم على ذلك ، فصار رسماً يأخذونه عند دفع البقط فى كل سنة(١٢١) ». ولم يتوقف المسلمون عن إرسال هديتهم طالما استمر النوبيون فى المحافظة على تنفيذ ما التزموا به، بما فى ذلك البقط .

ورغم تحديد كتاب ابن سعد للبقط بثلاثمائة وستين رأساً، وأن العدد كان كذلك فيما فرض فى جبهة المغرب، إلاّ أن بعض الروايات ذكرت أرقاماً تختلف عن ذلك. ففى رواية البلاذرى بسنده إلى يزيد بن أبى حبيب ، قال : أنهم ثلاثمائة رأس فقط(١٢٢) ، وقيل بل صالحهم على أربعمائة رأس(١٢٣) . لوالى مصر منها أربعين(١٢٤) .

أما المسعودى ، فقد جعلهم ثلاثمائة وخمس وستين رأساً ، أى بزيادة خمسة ،

(١١٩) البلاذرى: نفس المصدر، ص ٢٨٠، ٢٨١، ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص ٦٥٣، الطبرى: نفس المصدر والصفحة، ابن خرد اذبة: نفس المصدر والصفحة، ياقوت: مادة دمقلة، نفس المصدر والصفحة. ابن خرد اذبة : نفس المصدر والصفحة. ياقوت : مادة دمقلة، ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة، النويرى : نفس المصدر والورقة، بيكر: مادة بقط بدائرة المعارف الإسلامية Quatremére : Memoires Géographiques et Ilistoriques sur 1' Egypte, et sur quelques contrees voisins, I8II Vol., II, P. 42, Mac Michael : A History of the Arabs in the Sudan, 1922, Vol. I, P. 158.

(١٢٠) المقريزى: الخطط، جـ ١ ص ٢٠٠ .

(١٢١) الخطط، نفس الجزء والصفحة.

(١٢٢) البلاذرى: نفس المصدر، ق ١ ص ٢٨٠، ابن خرداذبة: نفس المصدر والصفحة.

(١٢٣) ياقوت: معجم البلدان، مادة نوبة، النويرى : نفس المصدر والورقة، ابن الفرات : نفس المصدر والورقة.

(١٢٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص ٢٥٤، ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة، النويرى: نفس المصدر والورقة.

وقال : «وأراه رسماً على عدد أيام السنة[١٢٥] . وأن هذا ما يخص بيت مال المسلمين ، تنفيذاً لشرط الهدنة . وزاد على ذلك عدداً آخر خارج عن الشرط ، عبارة عن أربعين رأساً لأمير مصر، وعشرين لنائبه فى أسوان، وخمسة للقاضى الذى يحضر مع أمير أسوان لاستلام البقط ، واثنى عشر رأساً لاثنى عشر شاهداً عدولاً يحضرون الاستلام. قال المسعودى : وهذا «على حسب ما جرى به الرسم فى صدر الإسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة». وكان يتم تسليم البقط فى موضع يعرف بالقصر ، على ستة أميال جنوبى أسوان»[١٢٦] .

وقد حدد العهد وصف ونوعية ما تقدمه النوبة من رقيق ، إذ يجب أن يكون من أوسط رقيقهم، «غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم[١٢٧] ».

قال ابن عبد الحكم : «فزعم بعض المشايخ أن منها سبعة عشر مرضعاً [١٢٨] .

والرقيق أو البقط الذى تقدمه النوبة، هو «ما يأخذون من رقيق أعدائهم[١٢٩]». مما يسبيه ملكهم «المجاور للمسلمين من غيرهم من بلاد النوبة[١٣٠] ». قال البلاذرى: «فاذا لم يجدوا منه شيئا، عادوا على أولادهم، فأعطوا منهم فيه بهذه العدة[١٣١] ».

وقال ابن عبد الحكم: «قال ابن لهيعة: ولا بأس أن يشترى رقيقهم منهم ومن غيرهم[١٣٢] ».

---

(١٢٥) مروج الذهب، جـ ١ ص ٢٤٧ .
(١٢٦) مروج الذهب ، جـ ١ ص ٢٤٧، المقريزى : الخطط، جـ ١ ص ، ٢٠١
(١٢٧) المقريزى : نفس المصدر، ص ٢٠٠ .
(١٢٨) فتوح مصر ، ص ٢٥٤ .
(١٢٩) البلاذرى: نفس المصدر، ص ، ٢٨١
(١٣٠) المسعودى: نفس، المصدر، والصفحة.
(١٣١) فتوح البلدان، نفس الصفحة.
(١٣٢) فتوح مصر، ص ٢٥٣ ، وانظر، البلاذرى: نفس المصدر والصفحة، النويرى: نفس المصدر جـ ٢٩ ورقة ٢٦٠ أ، ابن الفرات : نفس المصدر واللوحة.

ولا شك أن أخذ الرقيق أو شراءه فى الإسلام إنما يهدف إلى تعريفهم بالإسلام – فالدعوة للإسلام هى الهدف الرئيسى للفتوحات – وتربية هؤلاء على العادات والتقاليد الإسلامية ، وتعليمهم اللغة العربية. فإذا ما تحقق ذلك تم عتقهم (١٣٣) ، فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وتلك كانت وسيلة من وسائل توثيق العلاقات بين المسلمين والنوبة .

وهكذا فقد وضع عبد الله بن سعد الأسس للعلاقات المختلفة بين المسلمين والنوبة، وتم تنظيم تلك العلاقات بطريقة تضمن تحقيق الاتصال السلمى بين البلدين ، وتأمين الحدود ووقف الإغارات . مما كان له أكبر الأثر فى تسهيل وصول الدعوة وانتشار الإسلام فى بلاد النوبة سلمياً ، وما البقط إلا دليل على استمرار وفاء النوبيين بما تعهدوا به .

---

(١٣٣) أنظر، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، جـ ١ ص ١٣٢ - ١٣٣ .

المصـــادر والمـراجـع

■ أولاً : المصادر :

ابن الأثير ، عزالدين أبو الحسن على (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) .

● أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٠ - ١٢٨٦ هـ .

● الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٣٤٩ هـ.

الأصطخرى ، أبو القاسم إبراهيم (ت ٣٤٦ / ٩٥٧م).

● المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ .

ابن أيبك الدوادارى ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م)

● كنز الدرر وجامع الغرر ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ.

البلاذرى ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) .

● فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٥٦ .

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ ١٤٦٩ م) .

● النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٥ .

الحميرى ؛ محمد بن عبد المنعم .

● الروض المعطار فى خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ .

ابن حوقل، أبو القاسم محمد البغدادى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م).

● صور الأرض، ليدن ١٩٣٨ .

ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م) .

● المسالك والممالك ، ليدن ١٨٩٩ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) .

● العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٥٨ .

خليفة بن خياط العصفرى (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) .

● تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق سهيل زكار ، ١٩٦٧ .

الدمشقى ، محمد بن أبى طالب الانصارى (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٨م) .

● نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٨ .

الذهبى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٦٩ تاريخ.

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

● حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ١٣٢٧ .

أبو صالح الأرمنى (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨م) .

● تاريخ أبى صالح الأرمنى ، ١٨٩٤ .

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ٩٢٢/م) .

● تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٨٩٣ .

ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) .

● فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ١٩٦١ .

ابن عذارى ، أبو العباس أحمد المراكشى .

● البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ليدن ١٩٤٨ - ١٩٥١ .

أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم (ت ٧٣٣ هـ/ ٩٤٤ م) .

● طبقات علماء إفريقية ، طبع بيروت .

أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل بن على (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢م).

● المختصر فى أخبار البشر ، طبع بيروت .

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م) .

● تاريخ الدول والملوك ، مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٣١٩٧ تاريخ تيمور .

ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) .

● مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ .

القزوينى ، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) .

● آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٩ .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م).

● صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ .

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .

● البداية والنهاية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) .

● التنبيه والإشراف ، ليدن ١٨٩٨ م).

● مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ١٢٤٦ هـ .

المقريزى ، أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م).

● المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والإثار ، بولاق ١٢٧٠ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) .

● نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

الواقدى، محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م) .

● فتوح مصر والاسكندرية ، ليدن ١٨٢٥ .

ابن الوردى، زين الدين عمر بن المظفر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) .

● تتمة المختصر ، بيروت ١٩٧٠ .

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩ م) .

● معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ .

اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧ م) .

● كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ م .

● تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨ هـ .

■ ثانياً : المراجع العربية :

بتلز ، الفرد . ج .:

● فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة، ١٩٤٩ .

بيكر :

● مادة (بقط) فى دائرة المعارف الإسلامية .

حسن إبراهيم حسن (الدكتور) :

● انتشار الإسلام فى القاهرة الافريقية ، ١٩٦٤ .

حسن أحمد محمود (الدكتور)

● الإسلام والثقافة العربية فى افريقية ، القاهرة ١٩٦٣ .

دائرة المعارف الإسلامية .

■ **الترجمة العربية :**

دريوتون وفانديه :

● مصر ، ترجمة عباس بيومى ، ١٩٥٠ .

سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) .

● تاريخ المغرب العربى ، الاسكندرية ١٩٧٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) .

● مصر فى عصر المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) .

● المغرب الكبير ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦ .

عبد المجيد عابدين (الدكتور) .

● تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ١٩٥٣ .

محمد التونجى

● عقبة بن نافع ، بنغازى ١٩٧٥ .

محمد عوض محمد (الدكتور)

● السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، ١٩٥١ .

● الشعوب والسلالات الافريقية ، ١٩٦٥ .

● نهر النيل ، الطبعة الأولى .

مصطفى محمد مسعد (الدكتور) .

● الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ .

■ المراجع الاجنبية :

Arkell.

A History of the Sudan to A.D. 1821, London, 1955 .

Becker,

Art. "Bakt" in ENC. of Islam, 1913.

Budge,

The Egyptian Sudan, Its History and Monuments, London, 1907.

Burckhardt,

Travels in Nubia, London, 1819.

Bury,

History of the later Roman Empire, London, 1889.

Holt:

The Nilotic Sudan (Combridge History of Islam, 1970, Vol. 2.

MacMichael,

A History of the Arabs in the Sudan, 1922.

Paul,

A History of the Beja Tribes of the Sudan, Camb. 1954.

Quatremére,

Mémoires Géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques Contres Voisins, 1811.

Shinnie,

The Fall of Meröe, Kush, Vol. III, (Sudan Antiquities Service Occasional Papers) 1955.

Trimingham,

Islam in the Sudan, London, 1949.



جامعة القاهرة – معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٨٩ – ١٣٣

حملة فاشوده

أضواء جديدة على الحملة (أسبابها ونتائجها)

د. شوقى عطا الله الجمل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالمعهد

فى يوليو ١٨٩٨ وصلت قوة فرنسية على رأسها القائد الفرنسى مارشان (Jean Baptiste Marchand) [١] إلى مدينة فاشوده السودانية واستقرت بها ورفعت العلم الفرنسى على مركز الحكومة المصرية القديم بها – هذا فى الوقت الذى كان فيه القائد البريطانى كتشنر (Herbert Kitechener) على رأس الجيش المصرى الزاحف لمحاربة المهديين فى السودان [٢] .

وقد كثر الحديث عن الحملة الفرنسية على فاشوده – أهدافها ودوافعها، وعن الأزمة التى حدثت بين انجلترا وفرنسا بسببها، وكادت تؤدى إلى حرب بين قوى الدولتين ، وعن النتائج التى أسفر عنها هذا الحادث .

---

(١) ولد جيان مارشان فى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٣ وتدرج فى الجيش الفرنسى، فقد عُين فى سنة ١٨٨٧ كمساعد ملازم ، وقد اشترك فى عدة معارك فى غرب افريقيا ، وقد ذاعت شهرته فى سنة ١٨٩٨ بسبب حملة فاشوده هذه ، ورقى فى عام ١٩٠٢ اى رتبة الكولونيل ، واشترك فى حروب الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، وفى عام ١٩١٧ رقى لرتبة الجنرال وأحيل للمعاش فى عام ١٩١٩ وتوفى فى ١٤ يناير ١٩٢٤

انظر : على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ١٨٨٠ – ١٩٠٦ (١٩٥٨) ص٢٥٠

(٢) كتشنر (١٨٥٠ – ١٩١٦) ضابط بريطانى ، التحق بالخدمة في الجيش المصرى الجديد الذى أعيد تكوينه بعد الثورة العرابية ، واختير ضابطاً للمخابرات فى دنقلة أثناء محاصرة المهديين لغوردون فى الخرطوم وأصبح سرداراً للجيش المصرى ، وقاد الجيش المصرى فى حملات استرجاع السودان (١٨٩٦ – ١٨٩٨) واشترك فى حرب البوير (١٩٠٠ – ١٩٠٢) ولعب دورا فى الحرب العالمية الأولى وفى رحلة للمفاوضات مع روسيا غرقت السفينة المقلة له – للمزيد من التفاصيل يرجع إلى .Morehead : The White Nile (N.Y. 1960)

والحقيقة أن ما كُتب عن فاشودة حتى الآن على ما اعتقد - لم يخرج عن نطاق النظرة السريعة على الحادث ومدلولاته - لكن الوثائق الفرنسية بالذات والتى بدأت وزارة الخارجية الفرنسية منذ عام ١٩٣٦ تفرج عن بعضها القت بعض الضوء على هذه الحملة وأهدافها .

وقد نشر رينوفان (Pierre Renouvin) دراسة عن هذه الحملة فى ضوء ما نُشر من وثائق جديدة[٣] .

على أننى أعتقد أن الصورة الكاملة لهذه الحادثة ودوافعها الحقيقية لا تتضح إلا إذا اتسع مجال البحث والدراسة ليشمل موقف الدول المختلفة المتصارعة فى ذلك الوقت على النفوذ والسياده على حوض النيل أو على الأقل على المناطق الهامة الحساسة التى تتحكم فى أقطاره، وفى مقدمة هذه الدول انجلترا، وفرنسا ، والمانيا ، وبلجيكا - هذا بالإضافة إلى موقف إثيوبيا فى هذا الصراع.

كذلك لابد من دراسة النتائج القريبة والبعيدة التى ترتبت على هذه الحملة الفرنسية على فاشوده .

وفى هذا البحث محاولة لإلقاء المزيد من الضوء على موقف كل من الدول السابق ذكرها ، وأطماعها فى المنطقة فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه هذه المواجهة الإنجليزية الفرنسية، وكذلك محاولة لتتبع أثر الحادث فى تنسيق وتشكيل العلاقات الدولية لفترة طويلة بعد الحادث نفسه ، كذلك أثار الحادث العميقة على الحركة الوطنية فى مصر - كما عبّر عنها الزعيم المصرى مصطفى كامل - وهو أمر هام فى توجيه دفة الحركة الوطنية فى مصر وقلما تهتم الأبحاث بإبرازه .

ويجب أن يوضع فى الإعتبار أن ما نشرته وزارة الخارجية الفرنسية من وثائق

---

(٣) بيير رينوفان استاذ التاريخ الحديث بالسوربون وعضو المجمع العلمى الفرنسى انظر:
Renovin Pierre: Les Origines de L'expedition de Fachoda (Revue Historique- October- December 1984).

وانظر تعليق د. محمد مصطفى صفوت : أصول حملة فاشوده تأليف رينوفان (المجلة التاريخية المصرية - مايو ١٩٥٠) ص ٢١٩ وما بعدها .

عن هذا الموضوع حتي الآن - لا يُمثل كل الوثائق المتعلقة به ، والمعتقد أن هناك مجموعة هامة من هذه الوثائق لم يكشف عنها النقاب بعد، ولم يسمح للباحثين بالإطلاع عليها .

ونبدأ بالإشارة إلى **موقع فاشوده** - التى أختيرت بالذات لتكون المسرح الذى مثلث عليه الفصول النهائية فى هذه المسرحية، وإن لم تكن فى حقيقة الأمر - كما أعتقد - إلا مجرد رمز ونقطة ارتكاز لأطماع أوسع.

تقع فاشوده على النيل الأبيض إلى الجنوب قليلاً من خط عرض ١٠ْ شمال خط الاستواء على بعد ٤٦٩ ميلاً تقريباً من الخرطوم وهى المركز الرئيسى لقبائل الشلك(٤) .

وتتميز فاشوده بموقعها الاستراتيجى فهى تبعد قليلاً إلى الشمال عن نقطة التقاء نهر السوباط بالنيل الأبيض على بعد ستين ميلاً إلى الشمال من التقاء النيل الأبيض مع السوباط ، كما أنها عند نقطة التقاء الطرق المتوجهة من غرب القارة إلي إثيوبيا (الحبشة) وساحل البحر الأحمر الافريقى ومن الجنوب صوب الشمال (٥) .

أضف إلى هذا أنها كانت البقعة الوحيدة الصالحة للإقامة في أثناء أشهر الصيف حيث المطر والفيضان، كذلك هى فى فصل الجفاف نقطة التقاء طرق القوافل من جنوبى كردفان ، كما أنها تسيطر على أية حملة نهرية آتية من الحبشة(٦) .

وكانت الإدارة المصرية قد أمتدت فى عام ١٨٢١ فى عهد محمد على إلى كل من سناروكردفان وقد عُين سليمان بك الخربوطلى لفترة قائم مقاما فى الأبيض لإدارة شئون كردفان من هذا الموقع - لكن النفوذ المصرى لم يمتد تماماً لأعالى النيل الأبيض وتستقر الأمور للإدارة المصرية هناك إلاّ فيما بعد(٧) .

---

(٤) انظر الخريطة شكل ١ - المرفقة بالبحث .

(٥) Giffen, N.B.: Fashoda the incident and its Diplomatic Setting (Chicago 1930) P. 32.

(٦) Theobold, A.B.: A History of the Anglo-Egyptian Soudan (1881-1899) (London 1951) PP. 239 - 240.

على أن كردفان أُضيفت ادارتها بعد ذلك إلى خورشيد باشا فى عام ١٨٣٢ الذى أصبح حكمداراً عاماً للأقاليم السودانية كلها التى مدت مصر نفوذها إليها واستمر كذلك حتى عام ١٨٣٨- وفى هذا العام الأخير خلفه فى هذه الإدارة أحمد باشا أبو ودان الذى استمرت إدارته للأقاليم السودانية من ١٨٣٨ إلى ١٨٤٣[٨] . على أن الأضواء الحقيقية سلطت على بلاد الشلك هذه بعد رحلات البكباشى المصرى سليم قبطان فى النيل الأبيض . وكانت الرحلة الأولى قد غادرت الخرطوم فى ١٦ نوفمبر ١٨٣٩ (٩ رمضان ١٢٥٥هـ) ووصلت فى ١٦ ديسمبر ١٨٣٩ (٩ شوال ١٢٥٥هـ) إلى قرب التقاء السوباط بالنيل الأبيض . وقد أعطانا سليم قبطان فى تقريره عن هذه الرحلة بيانات دقيقة عن الشلك وأحوالهم وعاداتهم وتقاليدهم وأماكن إستقرارهم[٩] .

على أن هذه الرحلة الكشفية اعقبتها رحلة ثانية قام بها البكباشى سليم قبطان أيضاً فى عامى ١٨٤٠ ، ١٨٤١ رافقه فيها مهندس فرنسى هو المسيو دارنو (D'Arnaud) .

ولعل تقرير هذا المهندس الفرنسى الذي أرسله بعد عودته إلى القاهرة فى يناير ١٨٤٢ إلى المسيو جومار (Jomard) عضو المجمع العلمى بباريس والذى نشر فى عام ١٨٤٣ يكتسب أهمية خاصة[١٠] .

فقد كان هذا التقرير ، والبحث الذى نشره دارنو تحت أنظار السلطات

---

(٧) انظر فى المحفوظات المصرية خطاب سليمان بك الخربوطلى للمعية بخصوص هذه الجهات التى وضعت تحت إدارته :
وارد المعية - محفظة ٢٠ معية تركى - رقم ٣٢٩ - مؤرخ ٢٤ مارس ١٨٢٦ .

(٨) لمزيد من التفاصيل يُرجع إلى : شوقى الجمل : سودان وادى النيل جـ٢ (١٩٦٩) ص ٤٧ وما بعدها .

(٩) انظر - سليم قبطان : الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض) (تعريب محمد مسعود - القاهرة ١٩٢٢) .

(١٠) D'Arnoud: Documents et observations sur le cours du Bahr El Abiad ou du Fleuve Blanc (Paris 1843).

الفرنسية التى قررت فيما بعد فى عام ١٨٩٨ ارسال حملة مارشان إلى فاشوده[١١] .

هذا وكان قنصل فرنسا فى مصر مسيو كوشيليه (Couchelet) قد أرسل لحكومته بعد عودة دارنو إلى القاهرة ما يشير إلى أهمية هذه المناطق التى زارها مسيو ارنو فى رحلته مع البكباشى سليم قبطان [١٢] .

ولاشك فى أن هذه التقارير كلها جذبت أنظار رجال السياسة فى فرنسا فى وقت كان الصراع فيه بينها وبين انجلترا على النفوذ فى مصر وملحقاتها على أشده – وإذا كان بونابرت حين فكر فى ضرب بريطانيا باستيلائه على مصر لم يفعل أكثر من ازاحة التراب عن مشروعات فرنسية قديمة وتقارير تتعلق بمصر فإن الأمور هنا لا تختلف كثيراً عن ذلك .

ونشير هنا إلى أن المهندس الفرنسى دارنو قد رافق أيضاً الحملة الثالثة التى قام بها البكباشى سليم قبطان فى النيل الأبيض التى غادرت الخرطوم فى ٢٧ نوفمبر ١٨٤١ على عشر سفن عليها أربعمائة رجل من السودانيين وقد اهتم بعد هذه الحملة بإكمال الخريطة التفصيلية التى كان قد بدأ رسمها للمناطق التى زارها مع سليم قبطان فى حملته الثانية[١٣] .

على أن حادثة فاشوده كما يطيب لبعض المؤرخين أن يُطلقوا عليها – ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما تم بعد ذلك من الكشف عن منابع النيل الاستوائية بالذات مما فجر الصراع الاستعمارى على السيطرة على هذه المناطق الحيوية التى ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أهميتها فى التحكم فى حياة ورخاء سكان وادى النيل كله ، فقد وضعت هذه الكشوف النقط على الحروف فيما يتعلق بالظواهر المتعلقة

(١١) D'Arnaud: Seconde Voyage à la Rechurche des Sources du Fleuve Blanc. (Bulletin de la societé de Geographie ser. 11 Tome XIX-1843).

(١٢) محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٢ – ١٨٨٥ (القاهرة ١٩٤٧) ص ١٣١

(١٣) انظر فريدريك بنولا : مصر والجغرافيا (تعريب أحمد زكى القاهرة ١٣١٠هـ) ص ٢٦ . وللتفاصيل الكاملة عن هذه الرحلات يرجع إلى : نسيم مقار (دكتور) : البكباشى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (القاهرة ١٩٦٠).

بمياه النيل ومصادر تلك الظواهر التى ظلت تحير العقول منذ عهد الفراعنة وحتى العصر الحديث .

وقد تم هذا الكشف عن منابع النيل الإستوائية وضمها للإدارة المصرية فى السودان فى عهد الخديوى إسماعيل .

ومنذ عام ١٨٦٥ كانت الإدارة المصرية قد مدت نفوذها الفعلى إلى فاشوده واتخذتها عاصمة للمديرية التى سُميت بهذا الاسم ، وأقيمت بها نقطة عسكرية وبنيت فيها بعض المبانى الحكومية للإدارة ، وأصبحت لها أهمية خاصة بسبب موقعها فى ملتقى الطرق المؤدية إلى جنوب السودان - فهى مفتاح الطريق المؤدى لمنطقة البحيرات الإستوائية[١٤] .

وبعد ذلك اتجهت الأنظار لمد النفوذ إلى الجنوب ، وقد كلف بهذا الأمر من قبل الإدارة المصرية صموئيل بيكر فى عام ١٨٦٩ وبقى فى هذا العمل مدة أربع سنوات وخلفه كمدير للمديرية الاستوائية غوردون الذى قضى بها من عام ١٨٧٤ إلى ١٨٧٦ ونجح فى إكمال العمل الذى كلف به من قبل صموئيل بيكر ، فاستطاع مد نفوذ الإدارة المصرية لمنطقة البحيرات الإستوائية . ولعل من أهم ما تم فى هذا المجال ما قام به شايى لونج (Chaillé Long) الذى الحق بالقوة المرسلة مع غوردون فى المديرية الإستوائيه ، والدور الذى كلف به شايى لونج من قبل الخديوى إسماعيل له أهميته الخاصة فيما يرتبط بموضوعنا هذا الخاص بصراع الدول الاستعمارية على النفوذ فى المناطق المرتبطة والمحيطة بالمنابع الإستوائية التى التى تتحكم فى المياه التى تقوم عليها الحياة البشرية والحيوانية والنباتية لسكان حوض النيل قاطبة .

فقد ذكر شايى لونج نفسه «أنه قبل مغادرته القاهرة استدعاه الخديوى

(١٤) انظر الأوامر الصادرة فى هذا الشأن : دفتر ٥٧٣ صادر المعية (تركى) من ٢١٧ رقم ٥٦ فى ٤ صفر ١٢٨٦ المكاتبة الصادرة من الجناب العالى إلى ناظر الداخلية بخصوص بعثة النيل الأبيض.

وكذلك دفتر ١٩٣٤ أوامر كريمة - أمر رقم ٣١ ص ٥ فى ٢٨ شعبان ١٢٨٦ من الخديوى إلى الحكام ونظار الأقسام ، ومشايخ وعمد الأهالى بجهاتهم والعربان بالجهات الداخلية بالبحر الأبض باقاليم السودان ، بشأن هدف البعثة المصرية فى النيل الأبيض والأقاليم الاستوائية فى نشر التقدم والمدنية .

إسماعيل وأخبره أنه قد وقع عليه الاختيار كرئيس أركان حرب للجنرال غوردون لعدة أسباب من أهمها حماية مصالح الحكومة المصرية» . وذكر له « إن الإنجليز على وشك أن يُرسلوا حملة بقيادة الرحالة ستانلى (Stanley) بدعوى تقديم المعونة للدكتور لفنجستون (Levingstone) بينما الهدف الحقيقى لهم هو رفع العلم البريطانى على أوغندة ، ولذا فعلى شايى لونج بعد أن يذهب إلى غوندكرو- ألا يضيع الوقت بل يتجه فى الحال إلى أوغندة ليعقد مع ملكها محالفة تربطه بالإدارة المصرية فى السودان وذلك ليسبق الحملة الإنجليزية المزمع إرسالها»(١٥).

ويشير شايى لونج إلى وصوله إلى عاصمة أوغنده ومقابلته للملك امتيسة وعقده معاهدة مع الملك قَبل بمقتضاها وضع مملكته تحت حماية مصر وإن هذه المعاهدة أرسلت إلى الخديوى إسماعيل الذى قام بإبلاغ الدول بمقتضى هذه المعاهدة أن مصر ضمت إليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فكتوريا والبرت(١٦).

وأشير إلى أن نية الحكومة المصرية اتجهت إلى فتح الطريق من ساحل افريقيا الشرقى على المحيط الهندى إلى أوغنده والمديرية الإستوائية باعتبار أن هذا افضل بكثير من طريق النيل بعوائقه المتعددة، ولهذا الغرض أرسلت حملة على رأسها مكيلوب باشا (Mekillop Pasha) - لكن هذه الحملة اضطرت للأنسحاب بعد وضع أيديها على الموانى الهامة اللازمة لتحقيق هدفها ، وذلك

---

(١٥) Chaillé Long: My Life in Four Continents (1912) V.I.P. 64.

شايى لونج ضابط أمريكى دخل خدمة الجيش المصرى سنة ١٨٧٠ وعين رئيساً لاركان حرب الجنرال غوردون فى مديرية خط الاستواء وهو من الأجانب القلائل الذين دافعوا عن حقوق مصر المغتصبة وذلك فى كتبه :

(a) Chaillé Long : Les trois Prophetes, le Mahdi, Gordon, Arabi (1886).

(b) : L'Egypte et ses Provinces Perdues (1892).

(c) : My life in four Continents 2 Vols (1912).

وقد ذكر غوردون نفسه لشايى لونج - أن الجنرال ستانتون Stanton قنصل بريطانيا العام - اعترض على اختيار الخديوى لشايى لونج ليصحب غوردون فى مهمته - وذكر أنه يفضل أن يعين شخصاً انجليزياً فى هذه المهمة .

(١٦) Chaillé Long: L' Egypte et ses Provinces Perdues (1892) P. 12 & P. 26.

لضغط انجلترا على الخديوى ليأمر بإنسحاب الحملة ، هذا وإن كانت انجلترا قد عقدت فى سبتمبر ١٨٧٧ معاهدة مع مصر أعترفت فيها بسلطان مصر على كل البلاد المطلة على ساحل البحر الأحمر الافريقى حتى رأس حافون [١٧] .

وننتقل الآن لإلقاء نظرة على أوضاع الدول الأوربية المتصارعة على حوض النيل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر :

موقف انجلترا وفرنسا من مصر:

كانت حملة بونابرت على مصر فى عام ١٧٩٨ فى وقت كان الصراع فيه بين فرنسا الثورة وبين الدول الأوربية بنظامها القديم - وعلى رأسها انجلترا - بمثابة ناقوس الخطر الذى ينذر الانجليز بما يمكن أن يتهدد مصالحهم الحيوية إذا سيطرت على الطريق الاستراتيجى القصير المؤدى للهند - جوهرة الامبراطورية البريطانية فى ذلك الوقت - دولة معادية .

ولذا ألقت انجلترا بثقلها كله فى الحملات المعادية لفرنسا ، وكان لها الدور الرئيسى فى إجبار الفرنسيين على الجلاء عن مصر فى عام ١٨٠١ .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت السيطرة على مصر جزءً من أهداف السياسة البريطانية ، وظهر صراع الدولتين انجلترا وفرنسا وتدخلهما فى شئون مصر واضحاً فى موقف كل من الدولتين من الحكام المصريين ومن المشروعات الحساسة التى بدأت تنشأ فى مصر كمشروع السكك الحديدية ، ومشروع قناة السويس [١٨] .

ولعل السياسة البريطانية تجاه مصر تبلورت على الخصوص بعد أفتتاح قناة السويس للملاحة فى عام ١٨٦٩ ، وأتاحت ظروف مصر المالية فى عهد إسماعيل فرصة لتدخل الدول الأوربية ، وذلك التدخل ظهر بأوضح ما يكون فى ضغطها

---

(١٧) إسماعيل سرهنك باشا : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ٢ ، ونص المعاهدة موجود فى المحفوظات التاريخية المصرية - القسم الاجنبى دوسيه رقم F.O. (73/2) .

(١٨) لايسمح مجال هذا البحث لتفصيل موقف كل من الدولتين من الحكام المصريين أو من هذه المشروعات ولمن يريد تفاصيل أكثر يرجع إلى : عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، عصر إسماعيل جـ١ ، جـ٢ (نشرتها مكتبة النهضة المصرية) .

على الباب العالى ليصدر فى ٢٦ يونية ١٨٧٩ إرادة بخلع إسماعيل وتنصيب توفيق باشا خديوياً لمصر[١٩] .

وما يثير الإنتباه فى هذا الشأن أن الباب العالى لم يسبق أن عزل والياً من أسرة محمد على ، وحتى الفرمان الذى أصدره الباب العالى سنة ١٨٤٠ وبإيعاز من الدول الأوربية أيضاً - بقى عديم الأثر ، ولم يحفل به محمد على - لكن الوضع اختلف هذه المرة . ولعل ذلك يرجع إلى أن محمد على كان مطمئناً إلى قوة مصر الحربية - أما اسماعيل فقد كانت البرقية التى أرسلها إليه السلطان تنبئه بخلعه كافية لسقوطه عن العرش وذلك لأنه لم تكن فى البلاد قوة حربية يُعتد بها ويمكنه الإعتماد عليها، كما أن ضباط الجيش والقوة الشعبية التى كان يمكن أن تُظاهر إسماعيل كانت تنقم على سياسته التى أفضت إلى التدخل الاجنبى فى شئون البلاد .

على أن الظروف الدولية خدمت بريطانيا بالذات فاستطاعت أن تحقق أطماعها ، فانفردت بالأمر واحتلت مصر فى عام ١٨٨٢ - ولعل هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية ، وخروج المانيا من هذه الحرب فائزة وإعلانها قيام الإتحاد الألمانى فى بهو المرايا بقصر فرساى بفرنسا - كان من الأسباب التى ساعدت على قيام بريطانيا بهذا العمل منفردة .

والوثائق التى نُشرت فى الكتاب الأصفر الفرنسى عن الاتصالات المختلفة التى حدثت بين إنجلترا وفرنسا في هذه الفترة - تكشف النقاب عن الظروف والملابسات التى إنتهت بانسحاب فرنسا من الميدان، وترك انجلترا لتتخذ الإجراء الذى اتخذته بمفردها - كما تكشف عن تطور العلاقات بين الدولتين بعد ذلك الذى كاد يؤدى للإصطدام بين قوتيهما فى فاشوده[٢٠] .

---

(١٩) للتفاصيل عن الدور الذى لعبته الدول الاجنبية فى هذا المجال انظر : سليم نقاش: مصر للمصريين (١٨٨٤) جـ٤ ص ٩٠.

(٢٠) انظر الوثائق الفرنسية المنشورة فى الكتاب الأصفر والمتعلقة بسياسة فرنسا تجاه مصر فى السنوات ٨١ ، ٨٢، ٨٣، Livre Jaune, Documents Diplomatiques, Affaries D'Egypte 1881, 1882, 1883.

وكذلك Blunt, W.: Secret History of the English Occupation (1964).

وقد ترجم إلى العربية بعنوان «التاريخ السرى للإحتلال البريطانى لمصر» .

فما حدث فى فاشوده فى الحقيقة ما هو - كما يتضح من تتبع الأحداث السابقة واللاحقة ماهو إلا حلقة من حلقات هذا الصراع ومرحلة من مراحله . والغريب فى الأمر أن الدولتين - انجلترا وفرنسا - كانتا حتى اللحظة التى انفردت انجلترا فيها بالعمل - تعملان سوياً فيما يتعلق بمصر .

يظهر ذلك فى الرقابة الثنائية ، والمظاهرة البحرية الأولى التى وقعت فى أكتوبر سنة ١٨٨١[٢١] .

كما يظهر فى تقديم مذكرة ٧ يناير ١٨٨٢ التى قدمها المعتمد البريطانى إدوارد ماليت (Edward Malet) ، والمعتمد الفرنسى سنكفكس (Scienkiewicz) إلى الخديوى توفيق تُعلنان فيها تأييدها له فى موقفه لإقرار الأمن والنظام، وكان ذلك بمناسبة مطالبة المصريين بإنشاء مجلس للنواب وصدور الأمر الخديوى بإجتماع مجلس النواب وتبع ذلك مجىء الاسطولين الانجليزى والفرنسى إلى مياه الاسكندرية ، وتقديم قنصلى الدولتين مذكرة إلى محمود سامى البارودى رئيس الوزراء المصرى فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ بطلب إبعاد عرابى وزملائه - وقد فسرت الدولتان هذا الأمر بأنه ليس تدخلا فى شئون مصر وإنما الأمر لا يعدو حرصهما علي حفظ الحالة الحاضرة كما هى (Statuquo) . وقد رفض مجلس الوزراء المصرى مطالب الدولتين واعتبر ذلك تدخلاً فى شئون البلاد الداخلية بينما قبلها الخديوى مما أدى لإستقالة وزارة البارودى فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجاً على ذلك [٢٢] .

هكذا كان موقف الدولتين من مصر ، فانجلترا لم تجد فى ذلك الوقت مانعاً من إشراك فرنسا فى العمل معها لتتخذ منها مخلب قط، وحتى لا تظهر أهدافها الحقيقية فى ذلك الوقت إذا قامت بعمل منفرد.

---

(٢١) حدثت هذه المظاهرة البحرية بسبب إرسال تركيا وفداً لمصر فى أكتوبر ١٨٨١ من غير اعلانها ذلك لانجلترا وفرنسا فأعتبرت الدولتان ذلك تدخلا فى شئون مصر فارسلت البارجة الإنجليزية انفنسيبل Lnvincible والفرنسية ألما Alma لمياه الاسكندرية فى أكتوبر ١٨٨١ اظهاراً لنفوذ الدولتين فى البلاد .

(٢٢) الكتاب الأصفر سنة ١٨٨١ وثيقة رقم ٤٢ وسنة ١٨٨٢ وثيقة رقم ١٣٩.

ولعل موافقة انجلترا على الاقتراح الفرنسى بدعوة الدول الأوربية الكبرى لعقد مؤتمر فى الأسيتانة للنظر فى أحوال مصر، واشتراكها فى هذا المؤتمر الذى عُقد فى السفارة الإيطالية فى الأسيتانة فى ٢٣ يونية ١٨٨٢ رغم رفض تركيا فكرة هذا المؤتمر - قصد به التمويه .

وكان حضور انجلترا للمؤتمر بمثابة ذر للرماد فى العيون فقد كانت تعد العدة لضرب الاسكندرية واحتلال مصر رغم توقيعها على الميثاق الذى كانت قد عرضته فرنسا والذى يقضى بالأ تعمل أية دولة على احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا تعمل للحصول على إمتياز خاص بها أو برعاياها دون سائر رعايا الحكومات الأخرى[٢٣] .

ولا شك فى أن الدبلوماسية الفرنسية قد فشلت فى إدراك نوايا الانجليز الحقيقية ، ولذا أصيب الفرنسيون بخيبة أمل بالغة حين أقدمت انجلترا على احتلال مصر منفردة، وبدأت تتصرف بحرية فى شئون مصر والسودان والمناطق الهامة الأخرى التى كان النفوذ المصرى قد أمتد إليها .

على أن انجلترا باستعمارها لمصر ، وبأطماعها التى انكشفت للعيان فى أملاك مصر سواء فى السودان أو الواقعة على ساحل البحر الأحمر الافريقى أو فى أعالى النيل وعند منابعه الأستوائية الهامة - فتحت فى الحقيقة الباب على مصراعيه للدول الأخرى الطامعة فى هذه المناطق كلها ذات الموقع الاستراتيجى الهام - إذ وضح لهذه القوى المتصارعة (انجلترا ، وفرنسا ، وايطاليا ، والمانيا ، وبلجيكا - بل ومن الدول الافريقية ذاتها - إثيوبيا) أن مبدأ عدم المساس بالدولة العثمانية وأملاكها لم يُصبح فى الحقيقة سارى المفعول ، وان الباب مفتوح على مصراعيه للدول الطامعة فى أملاك الدولة العثمانية لتسرع إلى وضع أيديها على المناطق التى تهمها من أقاليم هذه الدولة المتهالكة. ولعل الصراع الرهيب على أملاك مصر الواقعة على ساحل البحر الأحمر بل وفى الأقاليم النيلية ذاتها منذ عام ١٨٨٤ والذى انتهى بوضع الدول الاستعمارية أيديها على هذه المناطق الهامة منتهزة أوضاع مصر ذاتها، والثورة التى إندلعت فى السودان وعجز مصر

(٢٣) الوثائق الفرنسية - الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة رقم ١٥٠.

عن إخمادها مما انتهى بسقوط الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ - يُعطى صورة واضحة لهذه السياسة التى بدأت تبرز فى ذلك الوقت سياسة الأرض التى لا مالك لها والتى يباح لأى دولة . أن تمد يدها إليها - خاصة أن مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ قد أضفى الشرعية القانونية على مثل هذه التصرفات طالما إتبعت الدولة المستعمرة الشروط التى اشترطها المؤتمر الخاصة بوجود قوات للدولة فى المنطقة التى تدعى مد نفوذها إليها وأن تعلن ذلك للدول الأخرى حتى لا تتضارب مصالح هذه الدول الأوربية .

وأشير إلى أن انجلترا فى وسط هذه الاحداث اهتمت بالمحافظة على ميناء سواكن بالذات فحالت دون استيلاء الثوار المهديين عليه ، كما اختارت من أملاك مصر على البحر الأحمر المناطق المقابلة لعدن وكونت منها ما سمى «بالصومال البريطانى» [٢٤] .

هذا وفيما يتعلق بفرنسا كانت قد مدت نفوذها فى شمال افريقيا إلى الجزائر وتونس وتطلعت إلى مد نفوذها للمغرب - وقد نجحت أخيراً فى تحقيق ذلك فى عام ١٩١٢ بعد أن سوت أمورها مع الدول الأخرى الطامعة فى المغرب . وفى غرب القارة نجحت فرنسا فى مد نفوذها إلى ما أطلق عليه اسم «افريقيا الغربية الفرنسية (السنغال ، وموريتانيا، والسودان الفرنسى ، وغينيا الفرنسية، وساحل العاج ، وفولتا العليا ، وداهومى ، والنيجر) وهى مناطق تبلغ مساحتها نحو سدس مساحة القارة الإجمالية[٢٥] .

كما مدت فرنسا نفوذها إلى ما سُمى بأفريقيا الإستوائية الفرنسية (تشاد ، ووسط افريقيا ، والكنغو برازافيل ، والجابون) أما فى شرق القارة فإنهم لم ينجحوا فى تثبيت أقدامهم إلا فى المنطقة التى عُرفت باسم (الصومال الفرنسى) بالإضافة إلى جزيرة مدغشقر التى احتلتها فرنسا فترة من الزمن حتى استقلت فى عام ١٩٥٨ باسم جمهورية مالاجاش[٢٦] .

(٢٤) Lewis, T.M. : The Modern History of Somaliland (London 1965) P 45.

(٢٥) لمزيد من التفاصيل انظر :

Guernier, E.: L' Afrique Occidental Francaise (Paris 1942)

(٢٦) Coupland, R.: East Africa and its invaders (1938) P. 420.

ولعل من أهداف حملة فاشوده كما سيتضح لنا بعد - محاولة الفرنسيين الربط بين مستعمراتهم فى غرب القارة ومستعمراتهم فى شرق القاهرة وتحقيق ما نادى به بعض السياسيين الفرنسيين من ضرورة إيجاد خط مواصلات آمن يمتد من (دكار) فى غرب افريقيا إلى (جيبوتى) فى شرقها على أن تكون البلاد الواقعة حول هذا الخط تحت النفوذ الفرنسى.

وهذه الفكرةالفرنسية كانت تصطدم بالطبع بمخطط بعض المستعمرين البريطانيين وفى مقدمتهم سيسل جون رودس (Cecil John Rhodes) الذين نادوا من جانبهم بخط مواصلات آمن يمتد من الرأس (كيبتون) فى أقصى جنوب القارة إلى القاهرة وتكون البلاد الواقعة حول هذا الخط تحت النفوذ البريطانى[٢٨] .

أما الأيطاليون : فبمعاونة الإنجليز استطاعوا أن يمدوا نفوذهم من منطقة عصب إلى مصوع (١٨٨٢) واحتلوا بيلول ، وبسطوا سلطانهم على المنطقة الممتدة من رأس نصار (جنوب سواكن) إلى أوبوك التى كانت فرنسا تعتبرها منطقة نفوذ لها ، وفى مارس ١٨٩٠ صدر مرسوم إيطالى ينظم أمر هذه الممتلكات الإيطالية على البحر الأحمر والتى سميت فى المرسوم باسم أرتريا [٢٩] .

وأسال هذا النصر لعاب الايطاليين فتطلعوا إلى الحبشة ، ولتحقيق هذا الحلم اتجهوا لإحتلال ساحل الصومال الجنوبى لتطويق الحبشة من الجنوب والشمال - وباتفاقهم مع انجلترا فى عام ١٨٩١ استطاعوا رسم حدود منطقة نفوذهم الجنوبية ، وقد سمحت انجلترا لإيطاليا بوضع يدها على موانى براوة

---

(٢٧) نادى بذلك هانوتو Hanotaux الذى تولى زمام الخارجية الفرنسية سنتى ١٨٩٤-١٨٩٥ .

(٢٨) للتفاصيل الكاملة لخطة رودس واطماعه انظر : Lockhart, J.G. & Woodhoue, C.M., : Cecil Rhodes, The clossus of South Africa (N.Y. 1965).

(٢٩) وقعت إيطاليا فى ٢ مايو ١٨٨٩ مع منليك امبراطور الحبشة معاهدة اوتشيالى Uccialli وادى الاختلاف على تفسير المادة (١٧) من هذه المعاهدة لنشوب الحرب بين الطرفين التى انتهت بمعركة عدوه .

ولمزيد من التفاصيل يرجع إلى Langer, W.: Diplomacy of Imperialism (N.Y) 1951 P 109.

ومقديشيو وهى الموانى التى أرغمت المصريين أثناء حملة ماكيلوب باشا على إخلائها ، وحاولت إيطاليا بعد ذلك أن تضرب ضربتها المنتظرة علي الحبشة ، ولكن هزيمتها فى موقعة عدوة المشهورة في عام ١٨٩٦ وضعت حداً لكل هذه الاحلام الاستعمارية .

وفيما يتعلق بالمانيا : فقد بدأت علاقتها بافريقيا متأخرة فحتى عام ١٨٨٤ . وهو العام الذي عقد فيه مؤتمر برلين الشهير والذى اسفر عن اتفاق الدول الأوربية المجتمعة على قوانين محددة تلتزم بها فى فى استعمارها فى افريقيا - لم يكن لألمانيا رسمياً أى نشاط استعمارى فى افريقيا .

وقد اسفر نشاطهم بعد ذلك عن تكوين مستعمرات لهم فى منطقتي الكمرون وتوجو وجنوب غرب افريقيا (٣٠) .

أما فى شرق افريقيا وهذا ما يهمنا بالذات فيما يتعلق ببحثنا هذا - فالأمر يتعلق بنشاط الجمعية الألمانية للاستعمار التى أسسها بعض المستعمرين الألمان والذين برز منهم بالذات دكتور كارل بيترز (Dr. Carl Peters).

وقد أسفر نشاط بيترز وزملائه فى أواخر عام ١٨٨٤ وأوائل ١٨٨٥ إلى إدعائهم الحصول على معاهدات ليتنازل للشركة بموجبها شيوخ عدد من القبائل فى شرق القارة عن بعض المناطق التى كان السلطان برغش سلطان زنجبار يعتبرها خاضعة له. وانتهى الأمر باتفاق الدول الاستعمارية (انجلترا والمانيا وفرنسا) على تشكيل لجنة ثلاثية من مندوبى هذه الدول لبحث المشكلة وانتهت هذه المسرحية بوصول اللجنة إلي إتفاق تقاسمت انجلترا وألمانيا بموجبه النفوذ في هذه المناطق من أملاك السلطان - وضغطت الدولتان (انجلترا والمانيا) على السلطان وهددتاه فاضطر صاغراً للموافقة على ما اتفقت عليه الدولتان .

ويهمنا الحدود التي انتهى إليها الإتفاق فقد اقتسمت الدولتان الأراضى الواقعة خلف الشريط الساحلى من أملاك السلطان والممتدة بين نهري روفوما

(٣٠) للتفاصيل يرجع إلى : Erich, Eycke: Bismarek & the German Empire (London 1950).

(Rovouma) وتانا (Tana) ، وكانت المنطقة الشمالية من نصيب بريطانيا والجنوبية من نصيب المانيا ، وساندت انجلترا - المانيا - بناءً على هذه الاتفاقية للحصول على امتيازات فى جمارك دار السلام . كما استطاعت الدولتان فى أول يوليو عام ١٨٩٠ للوصول لإتفاق نهائى آخر يختص بالحدود الغربية لمنطقة نفوذ كل منهما - كما وافقت بريطانيا على أن تضغط على سلطان زنجبار ليتنازل لألمانيا عن ممتلكاته الساحلية المؤجرة للشركة الألمانية في مقابل تعريض مناسب وهكذا قامت ما عرف باسم مستعمرة شرق افريقيا الألمانية(٣١) .

ويلاحظ أن انجلترا حرصت على أن تستبعد الألمان عن أقاليم النيل العليا فقد كان ما يقلق انجلترا من الألمان فى شرق افريقيا ووسطها هو الخطر من وجودهم قرب منابع النيل أو من محاولتهم عرقلة الخطة البريطانية التى أشرنا إليها سابقاً والتى ترمى إلى ربط المناطق الألمانية التى وضعت بريطانيا أيديها عليها فى جنوب افريقيا بممتلكاتها فى وسط افريقيا ومصر .

أما بلجيكا : فترتبط علاقتها بهذه المنطقة بوجودها في حوض الكونغو وبموافقة الدول المجتمعة في مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ على تكوين دولة الكونغو الحرة (Congo Free State) وعلى إدارة هيئة الكونغو الأعلى التى يرأسها الملك ليوبولد لهذه المنطقة الهامة فى افريقية (٣٢) .

وتبع هذا عدة اتفاقات عقدت لتحديد حدود دولة الكونغو مع جاراتها - ففى ٢٩ ابريل ١٨٨٧ عقد بين ملك بلجيكا ليوبولد الثانى وبين فرنسا إتفاق حُددت بمقتضاه الحدود بين دولة الكونغو الحرة والكونغو الفرنسى ، على أن تكون الحدود عند نهر الأوبانجى (Wobanghi) وخط عرض ٤ ْ ، وفى الإقليم الشرقى فى المنطقة بين بحيرة تنجانيقا وشلالات ستانلى كان العرب بزعامة حميد بن محمد المرجبى (تبوتيب) قد توغلوا من الساحل الشرقى إلى أعالى الكونغو

---

(٣١) انظر تحديد مستعمرات كل من الدولتين :

Hertslet, E.: The Map of Africa by Treaty V.III P. 899 (London1941).

(٣٢) Johnston, H.H. : A History of the Colonization of Africa by Alien Races (Cambridge 1913) P. 343.

وكونوا دولة عربية إتخذوا مركزاً لها فى كاسونجو (Kasongo) – وقد أضطرت الدولة الجديدة – دولة الكونغو الحرة سنة ١٨٨٧ إلى الاعتراف بسلطة العرب فى هذه الجهات الى أن استطاعت القضاء على هذه الدولة العربية وضمها إلى سلطانهم، وبذا امتدت حدود دولة الكونغو الحرة شرقاً – كما لم تقف أطماع ليوبولد عند هذا الحد فحين ظهر أن اقليم كاتنجا غنى بالنحاس أسرع ليوبولد لعقد إتفاقات مع زعماء القبائل فى هذه الجهات للحصول على إمتيازات فى هذا الإقليم وحدث سباق بين الانجليز والبلجيك الذين كانوا يسعون لنفس الهدف (٣٣) .

على أن اطماع الملك ليوبولد لم تقف عند هذا الحد فقد كان يطمع فى مد نفوذ دولة الكونغو الحرة شرقاً إلى بحر الغزال ، بل كما سنشرح بعد – سافر إلى لندن وباريس فى عام ١٨٩٥ فى محاولة للمفاوضة على مد نفوذه على أكبر مساحة ممكنة من وادى النيل ولو بصفة إيجار – لكن هذه المفاوضات لم تصل إلى النتيجة المرجوة لوقوف فرنسا فى وجه اطماع هذا الملك (٣٤) .

مديرية خط الاستواء وأوغنده :

من أهم المناطق التى اتجهت إليها أطماع الدول الإستعمارية منابع النيل الأستوائية ويرجع ذلك لإدراك تلك الدول أهمية هذه المناطق فهى التي تتحكم فى جميع دول حوض النيل .

وكانت مديرية خط الإستواء المصرية عندما قامت الثورة المهدية فى السودان تحت حكم أمين باشا (ادوارد شنيتزر Edward Schnitzer) وقد عزلته الثورة عن الوادى شمالاً، وعن بقية أجزاء السودان ، وأصبحت مصر عاجزة عن إرسال تعزيزات له ، واضطر أمين باشا لأن يسحب حامياته من المناطق الواقعة شمال الرجاف ، وتركز فى المناطق الجنوبية من المديرية ، وكما ظهر إن المديرية

(٣٣) Hinde Sidney Langford: The fall of the Congo Arabs (London 1897) PP. 17-22.

(٣٤) على إبراهيم عبده (دكتور) : أزمة فاشوده ١٨٩٨ (المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ص ١٣١ وما بعدها .

وأمكانياتها كانت كافية لسد حاجات الحامية المصرية بها - وظل أمين باشا كذلك حتى أرسل ستانلى (Stanley) لسحبه من المديرية [٣٥] .

وقصة سحب أمين باشا من المديرية الإستوائية أو ما سمته المراجع الأوربية (بعثة إنقاذ أمين باشا) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالصراع على النفوذ فى هذه المناطق الحساسة التى تتحكم كما قلنا فى الحياة فى حوض النيل كله .

وقد ساهم في تدبير حملة استانلى هذه كل من السير وليم ماكينون (William Mackinon) رئيس الجمعية البريطانية لشرق افريقيا، وليوبولد الثانى (Leopold II) ملك بلجيكا ، وشاركت مصر بجزء كبير من تكاليف هذه الحملة .

وعندما قابل ستانلى أمين باشا قرب شاطىء بحيرة البرت فى مايو ١٨٨٨ - عرض عليه أن يبقى فى المنطقة كمدير تابع لدولة الكونغو ، أو يذهب إلى الشمال الغربى لساحل بحيرة فكتوريا ويكون فى خدمة الجمعية البريطانية لشرق أفريقيا أو ينسحب مع الحملة هو ومن معه من الضباط والعساكر إلى مصر[٣٦].

ويذكر الكاتب فالى (Valey) أن حادث خطف أمين باشا كان القصد منه هو محو أثار السيادة المصرية على هذه المنطقة التى تُعتبر الوحيدة التى اخفقت فيها جماعة المهدى إذ أن وجود حاكم فيها مؤيد لحقوق الخديوى كان يقف سداً فى طريق انجلترا إلى الجنوب ، فكان من الواجب التخلص من هذا الرجل المضايق ، فبعثة ستانلى كانت تُخفى أمراً سياسياً كان معداً من وقت طويل .. والدليل على ذلك إنه لما رفض أمين باشا مغادرة البلاد لم ير ستانلى بداً من استخدام القوة معه ، وفى ١٠ ابريل عام ١٨٨٩ خطفه مع ٥١ ضابطاً وجندياً وموظفاً ، ١٢٦ من خدمه وبعد بضعة أشهر رفع العلم البريطانى على قلعة وادلاى[٣٧] .

---

(٣٥) Slatin, R.C.: Fire & Sword in the Sudan 1879 - 1895 (Translated by F.R. Wingate - London 1896) T.II P. 611.

(٣٦) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها (١٨٦٩ - ١٨٨٩) القاهرة ١٩٣٧ جـ٣ ص ١٨٢ .

(٣٧) Valey, Et.: Les Rivaleté france Anglaise en Egypte (1876-1904) PP. 165-166.

على أن أمين باشا بعد وصوله إلى شرق أفريقيا لم يكمل رحلته إلى مصر أو إلى أوربا لكنه دخل فى خدمة الحكومة الألمانية فى شرق افريقيا وعاد لمنطقة البحيرات الإستوائية لينشىء منطقة نفوذ المانية هناك - لكن قتله تُجار الرقيق فى ٢٣ أكتوبر ١٨٩٢ .

على أن انسحاب أمين باشا من مديرية خط الإستواء ترك المديرية وكذلك باقى الأجزاء التى انسحب منها المصريون - أرضاً لا صاحب لها (Res Nullius) فى نظر الدول الاستعمارية وفتح باب الصراع على مصراعيه بين المانيا وانجلترا وبلجيكا وفرنسا - على النفوذ في هذه الجهات .

على أن استانلى بعد عودته من مهمته فى هضبة البحيرات الإستوائية - تقابل مع الملك ليوبولد ، ثم سافر إلى الندن وتباحث مع سولزبرى (Salisbury) ووليم ماكينون واسفرت هذه المباحثات عن عقد المعاهدة التي عُرفت باسم «معاهدة ماكينون» فى ٢٤ مايون ١٨٩٠ بين دولة الكونغو الشركة البريطانية لشرق افريقيا ، وفيها أقرت الشركة البريطانية سيادة الكونغو على المنطقة الواقعة غرب الخط الممتد من الركن الجنوبى لبحيرة البرت شمالاً حتي لادو ، وذلك في مقابل الإعتراف بسيادة الشركة البريطانية على منطقة يبلغ عرضها خمسة أميال وتمتد من الشاطىء الجنوبى لبحيرة إدوارد إلى الطرف الشمالى لبحيرة تنجانيقا (٣٨) .

على أن هذه الاتفاقية الإنجليزية الكونغولية (البلجيكية) لاقت معارضة عنيفة من قبل المانيا ، وفرنسا وقد عقدت انجلترا فى ١٢ مايو ١٨٩٤ مع الملك ليوبولد إتفاقية أخرى وقعت فى بروكسل بموجبها أجّرت بريطانيا إلى الملك ليوبولد المنطقة الواقعة غرب بحيرة البرت ، وتتبع خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو حتى خط ٢٥° شرق جرينتش وتبلغ هذه المنطقة نقطة تقع شمال فاشوده - وذلك فى مقابل أن تؤجر دولة الكونغو الحرة لبريطانيا ممراً من الأرض بعرض ٢٥ كيلو متراً ويمتد من أقصى شمال بحيرة تنجانيقا إلى أقصى جنوب بحيرة إدوارد.

ولا شك فى أن هذا الإجراء الذى اتخذته انجلترا فى مايو ١٨٩٤ بموافقتها على تأجير المنطقة التى عُرفت باسم (حاجز لادو) لدولة الكنغو الحرة لا يعد أن

(٣٨) على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل (١٨٨٠ - ١٩٠٦) ص١٤٨.

يكون - كما عبّر عن ذلك هانوتو وزير خارجية فرنسا - اعتداءً على حقوق مصر، وحقوق تركيا ، ويخالف ما نص عليه فرمان تقليد عباس حلمى الثانى فى منصب الخديوية فى مارس ١٨٩٢ فقد جاء به «إنه لا يجوز لأى سبب ووسيلة ترك قطعة أرض من الأراضى المصرية للغير مطلقاً»(٣٩) .

على أن معارضة فرنسا لهذه المعاهدة ترتب عليها أن قوات الملك ليوبولد لم تعمل شيئاً لإحتلال المناطق الواقعة فى بحر الغزال ، شمال خط عرض ٣٠ْ واكتفت باحتلال بعض المراكز الهامة مثل الرجاف ، لادو ، دوفيل وادلاى(٤٠) .

وحين انتهت أزمة فاشوده وجدت انجلترا أن الفرصة سانحة لنقض معاهدة سنة ١٨٩٤ مع بلجيكا - مما يدل على أن هذه الاتفاقية كانت إجراء اقتضته ظروف الصراع مع فرنسا - وكاد الأمر يؤدى إلى أزمة شبيهة بأزمة فاشوده لكن وصل الطرفان فى النهاية إلى اتفاق وقع فى ٩ مايو ١٩٠٦ سويت بمقتضاه الحدود بين السودان ودولة الكونغو(٤١) .

على أننا نشير إلى أن شركة شرق افريقيا البريطانية التى كانت تمارس نشاطها فى هذه المناطق بشرق افريقيا ، وقرب منابع النيل الاستوائية كانت قد نجحت فى إرسال الكابتن لوجارد (Frederick Lugard) لعقد معاهدة مع الملك موانجا (Mwanga) ملك أوغنده تدخل بموجبها بلاده تحت الحماية البريطانية - وأعلنت انجلترا رسمياً حمايتها على أوغنده فى ١٨ يونية ١٨٩٤ ، ثم لم تلبث أن مدت نفوذها إلى أنيورو ، كما رفعت العلم البريطانى على وادلاى والمرفلاى من املاك مصر السابقة فى المديرية الاستوائية .

---

(٣٩) انظر نص الفرمان فى مجموعة الفرمانات الشاهانية

(٤٠) Hertslet, E.: The Map of Africa by Treaty (London 1909) PP. 579-580.

ملاحظة : ندد هانوتو وزير خارجية فرنسا في مجلس النواب الفرنسى بهذه الاتفاقية وذكر أنها تتعارض مع قرارات مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ كما تتعارض مع حقوق مصر فى أعالى النيل .

(٤١) Langer, William: The Diplomacy of Imperialism (1890 - 1902) N.Y. 1951 P. 573.

(٤٢) Slatin: Op. Cit. 511.

أما عن الحبشة : فقد ارتبطت بالأحداث المتصلة بحوض النيل والصراع الإستعمارى عليه وذلك بحكم موقعها وحدودها مع السودان التى كانت دائماً موضع خلاف وبحكم وجود منابع النيل الحبشية بها ولكونها الطريق الطبيعى من شرق القارة للمناطق المتنازع عليها .

على أن الحبشة كانت لها أطماع فى حوض النيل ، وقد وصلت هذه الأطماع فى فترة من الفترات إلى أنها إدعت إن حدودها تشمل كل الضفة اليمنى للنيل بين خطى عرض ١٤° ، ٥° شمال خط الإستواء أى من جنوب الخرطوم حتى لادو تقريباً .

وكان دور الحبشة فى هذا الصراع أحياناً مباشراً وفى أحيان أخرى كانت وسيلة حاولت هذه أو تلك من الدول المتصارعة إستغلالها . فقد حاولت كل من انجلترا وفرنسا الإتفاق معها لتسهيل وصولها إلى مناطق حوض النيل الواقعة فى ظهيرها .

والمعروف أن انجلترا كانت قد عقدت مع يوحنا ملك الحبشة فى يونية ١٨٨٤ معاهدة تعهد بموجبها أن يُسهل للجيش المصرى مهمة الإنسحاب من كسلا وأمكن فعلاً بفضل تعاون الأحباش إنسحاب حاميات القلابات وأنديب، وسنهيت وغيرها ووضع الأحباش أيديهم على مقاطعة بوغوص فى مقابل ذلك كما كانت تقضى بذلك المعاهدة بينما استولى الدراويش على الأقاليم الباقية (٤٢) .

وقد انتهزت فرنسا الظروف التى ترتبت على الخلاف بين منليك امبراطور الحبشة وبين الإيطاليين المؤيدين من الإنجليز على تفسير معاهدة أُتشيالى التى عُقدت بين الطرفين فى ٢ مايو ١٨٨٩ للتقرب للحبشة - فأوفدت فرنسا فى ديسمبر ١٨٨٦ لاجارد (Lagurde) حاكم الصومال الفرنسى إلى أديس أبابا بهدف بعث الحياة من جديد فى معاهدة الصداقة التى كانت قد عقدت بين البلدين فى عام ١٨٤٣ وكذلك للتمهيد لحملتين كانت فرنسا تعد لهما للوصول من الشرق إلى النيل(٤٣) .

---

(٤٣) Langer : Op Cit. P. 541.

ملاحظة : كانت إحدى هذه البعثات برئاسة مسيو كلوشيت (Clochette) والأخرى برئاسة مسيو بونفالو (Bonvalot) .

وقد انتهز منليك فرصة التفكير فى هذه الحملات الفرنسية لتحقيق أطماعه فى حوض النيل فأعد جيشاً ضخماً بحجة تقديم العون للفرنسيين ، واستطاعت مجموعة من القوة الحبشية الوصول إلى النيل فى ٢٢ يولية سنة ١٨٩٨ أى قبل وصول مارشان بما يقرب من عشرين يوماً - ولم تكن هذه هى آخر محاولات الأحباش لمد حدودهم الغربية إلى النيل - فقد أتاحت الفوضى التى لازمت هذا الصراع العنيف بين الدول الأوربية على النفوذ فى المناطق الحيوية من حوض النيل - فرصة ذهبية للأحباش لتحقيق أطماعهم فى مد نفوذهم حتى النيل الأبيض بل وجنوباً صوب البحيرات الإستوائية مستندين إلى إدعاءات بأن هذه المناطق كانت داخلة ضمن مملكة إثيوبيا القديمة .

هذا ونشير إلى أن منليك قد حاول - أثناء هذا النشاط بين القوى الاستعمارية المختلفة فى حوض النيل - أن يتقرب أو على الأقل يُهادن الدراويش وذلك لكى يتفرغ لمواجهة القوى الأخرى ، ولذا أحسن معاملة المسلمين فى بلاده وإن كانت سياسة الخليفة التوسعية وإصراره على ضرورة إعتناق الجميع للمهدية والإعتراف بخلافة المهدى حالت دون الوصول إلى إتفاق رسمى كامل (٤٤).

وكان طبيعياً الاتقف انجلترا مكتوفة الأيدى فقد كانت تدرك تماماً خطورة الوصول لإتفاق بين الفرنسيين والأحباش أو بين الأحباش والدراويش ، خاصة أن اخبار النشاط الفرنسي فى الحبشة كانت معروفة وقد تناولتها الصحف الإنجليزية بالتحليل والتعليق ، ولهذا قررت انجلترا فى عام ١٨٩٧ ارسال بعثة للحبشة أُختير لها مستر رينل رود (Rennel Rodd) أحد مساعدى اللورد كرومر فى مصر .

وحُددت أهداف بعثة رود فيما يلى : (٤٥)

١- الحصول على معلومات وافية عن الأحوال الداخلية فى الحبشة .

(٤٤) Churchill, W.S.: The river War, An account of the reconquest of the Sudan (London 1933) P. 75-88.

وكذلك محمد سعيد القرال : المهدية والحبشية .

(٤٥) Sir, J. Renell Rodd: Social and Diplomatic memories (1894 - 1901) London 1923) PP. 112-114.

(٤٦) Langer: Op. Cit. P. 540.

٢- إقناع الأمبراطور منليك بأطماع الدراويش فى الحبشة وإنه من الواجب عدم السماح بوصول أية أسلحة لهم عن طريق الحبشة ، وضمان عدم حدوث أى تحالف بين الأحباش والدراويش .

٣- محاولة تسوية الحدود بين الحبشة والصومال البريطانى .

٤- إذا أمكن الوصول لإتفاق بشأن الحدود الجنوبية والغربية للحبشة والمرتبطة بأطماع الحبشة فى الوصول إلى ضفاف النيل الأبيض والمنابع الإستوائية للنيل .

٥- إضعاف مركز الفرنسيين فى الحبشة .

٦- الحصول على إتفاقيات بخصوص معاملة البضائع الانجليزية الواردة للحبشة على قدم المساواة مع البضائع الواردة من البلاد الأوربية الأخرى .

وقد نجحت بعثة رودد فى الحصول على وعد من الإمبراطور الإثيوبى بعدم السماح بوصول آية شحنات من الأسلحة للدراويش عن طريق الحبشة، وكذلك فى الوصول إلى اتفاق عقد فى ١٤ مايو سنة ١٨٩٧ بخصوص تعيين الحدود الشرقية بين الحبشة والصومال البريطانى، وفى الحصول على بعض الوعود تتعلق بمعاملة البضائع البريطانية على قدم المساواة مع البضائع الواردة من البلاد الأوربية الأخرى.

لكن وهذا ما يهمنا فى موضوع بحثنا هذا - لم يمكن الوصول لحل لمشكلة الحدود

يذكر بير رنوفان (Pierre Renouvin) فى دراسته الهامة السابق الإشارة إليها والتى نشرت فى عام ١٩٤٨ أن تفكير فرنسا فى إرسال حملة إلى سودان وادى النيل يرجع إلى عام ١٨٩٣ حين كان دلكاسيه (Delcasse) وكيلا لوزارة المستعمرات الفرنسية، فطلب من مونتيل (Monteil) قيادة بعثة من غرب أفريقية إلى سودان وادى إلنيل ورفع العلم الفرنسى على فاشوده ، على أن يقابل هذه المحاولة بمحاولة أخرى من الحبشة - لكن حالت بعض الظروف دون تحقيق هذه المحاولات فى ذلك الوقت (٤٧).

(٤٧) Renouvin, Pierre: Op. Cit.

فلما تولى هانوتو وزارة الخارجية الفرنسية أوقف مشروع بعثة مونتيل، وحاول أن يتفاوض مع انجلترا للوصول إلى إتفان بشأن أعالى النيل - لكن عدم نجاح هذه المفاوضات أدى إلى العودة لفكرة إرسال بعثة فرنسية من غرب أفريقيا للوصول إلى أعالى النيل فتقرر فى ٢٥ أكتوبر ١٨٩٤ تنفيذ هذه الفكرة وعهد إلى فيكتور لوتارد (Victor Liotard) برئاسة البعثة الجديدة وقد عينته فرنسا مندوبا للاوبانجى العليا على أمل أن يمد نشاطه من هذه الجهات إلى النيل - لكن لم تكمل هذه البعثة مهمتها فى الوصول إلى أعالى النيل خاصة أن الحكومة الفرنسية لم تبد إهتماماً جدياً بتدعيم مركز البعثة ليمكنها تحقيق هذا الهدف.

ويرجع رينوفان تردد الحكومة الفرنسية فى إتمام مشروعها هذا إلى تصريح السير إداورد جراى (Edward Gray) المشهور فى البرلمان البريطانى والذى أبلغت الحكومة الإنجليزية فرنسا تمسكها بما جاء به حين أشيع خبر هذه البعثة (٤٨).

لكن يرى رينوفان أن وزارة المستعمرات الفرنسية عادت للتفكير فى هذا المشروع مرة أخرى بعد أن إستقرت الأوضاع بين فرنسا ومملكة الكونغو وتوقيعهما إتفاقاً بهذا الشأن.

وفى ضوء هذه الأحداث كما يقول رينو فإن - غادر مارشان فرنسا فى مايو ١٨٩٦ فى بعثته المشهورة ويذكر إن الهدف من البعثة لم يكن إحتلال السودان المصرى أو جزء منه وضمه إلى فرنسا - لكن الغرض النهائى كان إرغام انجلترا على بحث موضوع الجلاء عن مصر ، وفى هذا الإطار لم يبد هانوتو نفسه أى إعتراض على قيام بعثة مارشان.

ولاشك فى أن هذا البحث الذى يقدمه بيررينوفان يلقى أضواء كثيرة على حملة فاشوده وأسبابها ودوافعها - لكن لعل أول الملاحظات عليه إنه باعتبار أن عام ١٨٩٣ بداية التفكير فى هذه المجالات لا يعبر أهمية للأحداث المتعددة

(٤٨) اعلن ادوارد جراى - عندما سئل هل حقيقة هناك حملة فرنسية فى طريقها من غرب افريقية بهدف الوصول إلى وادى النيل واحتلال بعض النقاط على ذلك النهر فذكر إنه لا يعتقد صدق هذه الشائعات وأن الحكومة الفرنسية يجب أن تعلم جيداً أن مثل هذا العمل ستعتبره انجلترا عملاً عدائيا موجهًا ضدها.

السابقة لهذا التاريخ، ولظروف الصراع الدولى على حوض النيل التى أشرنا لها والتى كان لفرنسا دور هام فيها.

فلاشك فى أنه على الأقل منذ احتلت انجلترا مصر فى عام ١٨٨٢ وانفردت بهذا العمل وتدخلت بعد ذلك فى شئون السودان وفى تطورات الإدارات فيه بعد ذلك - أخذت فرنسا تفكر بجد فى وسيلة ترغم بها غريمتها فى ذلك الوقت على تحديد ميعاد لتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر.

رحلة مارشان :

لعله من غير المجدى أن نتتبع مارشان خطوة خطوة فى رحلته منذ غادر فرنسا فى مايو ١٨٩٦ . وقد بلغ برازافيل فى الكونغو الفرنسى فى نوفمبر من نفس العام وصعدت البعثة فى نهر الأوبانجى ثم نقل مارشان بعثته واسطولها الصغير من الأبانجى إلى النيل ليتبع الطريق النهرى من مركز تامبورا (Tamboura) . وأضطر مارشان لإجتياز المستنقعات الشاسعة فى منطقة بحر الغزال وسار فى النهر حتى النيل الأبيض ووصل فاشوده فى الساعة الخامسة من مساء يوم الأحد الموافق ١٠ يوليه ١٨٩٨ ورفع العلم الفرنسى على أنقاض القلعة المصرية القديمة بها وكانت البعثة مكونة من تسعة ضباط أوربيين ومائة وعشرين جندياً سنغاليا - وقد نجحت فى طريقها، أن تؤسس عدة محطات وأن تعقد معاهدات لصالح فرنسا مع شيوخ القبائل فى الجهات التى مرت بها (٤٩).

(٤٩) لمن يريد تفاصيل كاملة عن أحداث الرحلة يوماً بيوم يرجع إلى:

Dr. J. Emily : Mission Marchand (Librarie Hechette Paris 1913) PP 130 - 155

ملاحظة : عثر كاتب هذا البحث على وثيقة أصلية بخط مارشان (خطاب) مورخة فى فاشوده ٢ أكتوبر ١٨٩٨ يعرض فيها مارشان على الكولونيل جاكسون الذى تركه كتشنر على رأس القوة المرابطة فى فاشودة استعداد طبيب الحملة الفرنسية المختص بأمراض المناطق الحارة لمعالجة المرض من جنود وضباط كتشنر - وذلك بمناسبة مرض ضابط مصرى من ضباط الحامية وقد نشر الباحث الوثيقة وعلق عليها فى مجلة الدراسات الأفريقية المجلد ١ عام ١٩٧٢ . والوثيقة الأصلية محفوظة بمكتبة معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة.

Shawky El Gamal : An unpublished Document in the History of the Anglo-French competition for the Domination in Upper Nile (African Studies review Vol. I - 1972.

وكان مارشان يتوقع عند وصوله إلى فاشوده أن يجد فى إنتظاره البعثة الفرنسية الزاحفة مع الأحباش من الشرق، ولذا أرسل أحد معاونيه باراتية (Paratier) على باخرة لتقصى أخبار هذه البعثة، وقد علم بارتيه أن البعثة المذكورة قد وصلت فعلاً فى ٣٢ يونيه ١٨٩٨ إلى ملتقى النيل الأبيض والسوباط لكنها لما لم تعثر على أثر الحملة الآتية من الغرب عادت أدراجها.

وقد وصلت إلى أسماع الخليفة فى أم درمان أنباء عن وجود غزاة أجانب جاءوا من الغرب واحتلوا فاشوده فأرسل بعض اتباعه على ظهر سفينتين للقضاء على هؤلاء الغزاة - وقد قامت بين الفرنسيين والدراويش معركة اضطرت السفينتان على أثرها إلى الإنسحاب والعودة إلى أم درمان.

فى هذه الأثناء كانت انجلترا قد قررت فى ١٢ مارس ١٨٩٦ إرسال حملة بقيادة سردار الجيش المصرى السير هربرت كتشنر - لإحتلال دنقلة وقد نجح الجيش، المصرى فى إجبار قوات الدراويش على إخلاء دنقلة واحتلها الجيش الزاحف فى ٢٣ سبتمبر ١٨٩٦، وبعد تنظيم الإدارة فى مديرية دنقلة - عاد كتشنر إلى القاهرة فى ١٣ أكتوبر ١٨٩٦ ومنها سافر إلى انجلترا (٥٠).

وبعد عودة كتشنر استعد للزحف جنوباً. وقد توالت انتصارات الجيش المصرى بعد ذلك فسقطت شندى فى أيدى الجيش الزاحف فى ٢٦ مارس ١٨٩٨، كما سقطت العطبرة فى ١٨ أبريل ١٨٩٨ وفى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ وقعت معركة أم درمان واندحر فيها جيش الخليفة (٥١).

وبعد ذلك صدرت التعليمات لكتشنر بمتابعة السير فى النيل الأبيض لإحتلال فاشوده وكانت هذه التعليمات تقضى بأنه عند وصوله إلى فاشوده - إذا وجد بها القوة الفرنسية التى يشاع وصولها من المستعمرات الفرنسية بغرب القارة بقيادة

(٥٠) لمن يريد تفاصيل كاملة عن العوامل التى أدت لتقرير سياسة الإسترداد هذه وعن الحملات التى أنتهت بالاستيلاء على دنقلة يرجع إلى: شوقى الجمل: سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر (١٩٨٠) جـ ٢ ص ١٤٠ - ١٥٨.

(٥١) عن مهم تفاصيل معركة أم درمان يرجع إلى: عصمت حسن زلفو : كررى - تحليل عسكرى لمعركة أم درمان (الخرطوم ١٩٣٧).

مارشان فعليه أن يخبر القائد الفرنسى بأن وجود هذه القوة الفرنسية فى فاشوده بل وفى أى جزء من وادى النيل كله يعد تعدياً على حقوق مصر والحكومة الإنجليزية وأن يعترض على رفع الراية الفرنسية على أملاك سمو الخديوى.

خرج كتشنر من أم درمان فى ١٠ سبتمبر ١٨٩٨ ومعه ونجت وأسطول من خمس سفن مسلحة وكتيبتين سودانيتين وبطارية مدفع وأربعة مدافع مكسيم، وكان قد تيقن من وجود الفرنسيين فى فاشوده حين وقعت سفينتا الدراويش العائدتان من المعركة مع الفرنسيين فى قبضة الإنجليز الذين كانوا قد استولوا على أم درمان فعلموا منهم بخبر وجود هؤلاء الأجانب فى فاشوده (٥٢).

وصل كتشنر إلى الرنك فى ١٥ سبتمبر وفى ١٨ سبتمبر ١٨٩٨ كان على مسافة بضعة أميال من فاشوده.

وكتب كتشنر إلى مارشان يخبره بإنتصاره فى أم درمان وبقرب حضوره إلى فاشوده وقد وصله رد مارشان فى اليوم التالى وفيه "يهنئ السردار بانتصاره على الدراويش ويحيطه علماً بأنه بناءً على أوامر حكومته قد أحتل بحر الغزال إلى مشروع الرق وإلى ملتقى بحر الجبل ثم بلاد الشلك على يسار النيل الأبيض إلى فاشوده وأنه دخل فاشوده فى يوم ١٠ يولية ومعه ٩ ضباط فرنسيين، ١٢٠ جندياً سنغالياً وثلاث قوارب من الصلب وعشر قوارب صغيرة وأنه رفع العلم المثلث على فاشوده" (٥٣).

وفى ١٩ سبتمبر وصل كتشنر إلى فاشوده وجاء مارشان لسفينته لمقابلته ، وإجتمع كتشنر ومعه الكولونيل ونجت بالماجورمارشان ومعه الكابتن جرمان (Germain) حول المائدة فى سفينة السردار.

وقد أبلغ كتشنر مارشان تقديره للرحلة الشاقة المضنية التى قام بها هو وبعثته لكن لديه تعليمات لإبلاغه بأن وجود الفرنسيين فى فاشوده وفى وادى

(٥٢) Giffen, n,B. : Fashoda, The inscident and its Deplomatic Setting (1930) P. 8

(٥٣) Mission Marchand: Op Cit. PP. 180 191

النيل يعتبر تعديا على حقوق كل من مصر وبريطانيا ولذلك بناءً على التعليمات الصادرة إليه فإنه يحتج أشد الإحتجاج على إحتلال الفرنسيين لفاشوده وعلى رفع العلم الفرنسى على ممتلكات صاحب السمو الخديوى (٥٤).

وبعد مناقشة حامية قبل مارشان رفع الراية المصرية على مسافة ٧٠٠ ياردة من الراية الفرنسية على أن ينتظر أوامر حكومته إذ أنه كضابط يستحيل عليه الخروج من ذلك المكان الذى أُمِر بإحتلاله إلا بأوامرها (٥٥).

وترك كتشنر فى فاشوده الكولونيل جاكسون ومنحه لقب الحاكم العسكرى والمدنى لمنطقة فاشوده مع فرقة من الجنود عسكرت فى المعسكر الذى أقيم بجوار المعسكر الفرنسى، وغادر كتشنر فاشوده واتجه إلى السوباط وأقام نقطة مراقبة عند ملتقى السوباط بالنيل رفع عليها العلم المصرى وبذا أغلق طريق اتصال الفرنسيين فى فاشوده بالأحباش كما أغلق طريق إتصالهم بالداخل (٥٦).

وقد أرسل اللورد سالسبورى الوزير البريطانى كتاباً للحكومة الفرنسية يؤكد فيه أن وادى النيل كله لا يزال ملكاً لمصر وأن كل إعتداء على هذه الحقوق من جانب المهدى قد إنتهى بعد هزيمة الدراويش فى أم درمان وأن إخلاء فاشوده (أى جلاء الفرنسيين عنها) ليس فيه إمتهان لكرامة لأن الحكومات الفرنسية

---

(٥٤) Theobold, A.B.: The Mahdiya, A History of the Anglo Egyptian Sudan (1881 - 1899) (London 1951) P 241.

(٥٥) لمن يريد تفاصيل هذه الأحداث يرجع إلى:

Mission Marchand: Op Cit. Chapitre X1 (L'arrive Du Sidar Kitchencr) PP 177 - 189.

(٥٦) فى الوثيقة التى نشرها كاتب هذا البحث والتى هى رسالة من مارشان إلى جاكسون مؤرخة ٢ أكتوبر ١٨٩٨ (أى بعد اثنى عشر يوما ومن وصول كتشنر إلى فاشوده) يبدى مارشان انزعاجه لتأخر وصول الامدادات والمؤن التى كان يتوقع وصولها وأشار إلى أنه يخشى أن يكون قد أصاب رجال حملة المعونة هذه ما أصاب رومولوجيسى (Romulo Gessi) من مرض بمنطقة بحر الغزال ذلك المرض الذى اضطره للعودة لمصر حيث وصل السويس فى ٢٨ مارس ١٨٨١ ونقل للمستشفى الفرنسى بالسويس حيث مات بعد يومين من وصوله - يرجع للوثيقة المشار إليها والسابق الإشارة إليها.

المتعاقبه قد أعلنت بجلاء أن هذه الأراضى المتنازع عليها إنما هى ملك لمصر (٥٧).

وقد اضطر مارشان للسفر إلى القاهرة - دون أخذ إذن من حكومته بذلك حيث يكون إتصاله مع حكومته وتلقى تعليماتها أسهل وأسرع تاركاً القيادة فى غيابه للكابتن جرمان (٥٨).

ولعله من المفيد أن نحاول معرفة موقف الرأى العام فى كل من انجلترا وفرنسا من هذه الأحداث.

ففى انجلترا كانت الصحف الإنجليزية فى هذه الفترة تتبع بإهتمام بالغ أخبار الأحداث الحربية الواردة من مراسلى هذه الصحف المرافقين لحملة كتشنر ، وكانت أخبار النصر الذى أحرزته القوات الزاحفة فى موقعة أم درمان قد هزت مشاعر البريطانيين الذين كانوا لا يزالون يتذكرون ما حدث لغوردون وما تبع ذلك من أحداث - لكن أحداث فاشوده اصابت الشعور العام فى بريطانيا بصدمة وقد عبر عن ذلك تشرشل بقولة" إن الشعب الإنجليزى وجه بأن دولة صديقة بدون أية إثارة لها قد حاولت أن تسلبه ثمرة انتصاراته وأدرك الآن إنه بينما هو يكرس نفسه لأعمال حربية عظيمة فى وضح النهار وأمام العالم كله ويجهز مشروعاً قد وطد العزم عليه - كانت هناك عمليات مضللة تجرى فى الخفاء فى وسط أفريقية لغرض دنئ هو حرمانه من نتيجة أعماله، ولقد صمم على أن يقف ضد هذا السلوك" (٥٩).

وتكاد تجمع الصحف البريطانية رغم إختلاف نزعاتها على أن تصرف فرنسا

---

(٥٧) لعل الإشارة هنا لتصريحات هانوتو الذى شغل منصب وزير خارجية فرنسا وصرح بذلك فى أكثر من مناسبة خاصة أثناء المباحثات بين الحكومتين الفرنسية والإنجليزية بخصوص مستعمراتهما فى غرب افريقيا انظر - Hanotaux; Fachoda (Paris 1908) P.P. 144 Giffen, N.B. OP. Cit. P. 11 145

(٥٨) Churchill, Winston : The River war (London 1899) PP. 311 - 312

(٥٩) British Documents on the Origins of the world war I (1898 - 1914) (London 1927) Document No. 203

يعتبر عملاً عدائياً ضد انجلترا وأنه يجب أن تقف الحكومة البريطانية بحزم فى وجه هذا العمل.

وقد أبلغت الحكومة البريطانية سفيرها فى باريس السير إدموند مونسن (Edmond Monson) ليبلغ الحكومة الفرنسية أن الحكومة البريطانية تعتبر أن كل المناطق التى كانت تابعة للخليفة قد انتقلت بحق الفتح - إلى الحكومتين الإنجليزية والمصرية، وأن بريطانيا غير مستعدة للبحث مع الفرنسيين فى أى مطالب لهم قبل إستدعاء مارشان من فاشوده (٦٠).

أما فى فرنسا فقد كانت الصحف الفرنسية مشغولة ببعض القضايا الداخلية وفى مقدمتها قضية الفريد دريفوس (A. Dreyfas) الضابط الفرنسى الذى كان قد أدين بتهمة الخيانة العظمى وظهر بعد مدة طويلة من صدور حكم الإدانة أنه برئ وأن الوثائق التى أدين على أساسها مزورة وقد شغل الرأى العام الفرنسى لفترة طويلة بهذه القضية إلى أن برئ الضابط المتهم فى عام ١٩٠٦ بعد إثنى عشر عاما من إدانته (٦١).

هذا بالإضافة إلى أن دلكاسة (Delcasse) وزير خارجية فرنسا كان يرغب فى مفاوضة الإنجليز للوصول إلى إتفاق معهم - رغم إصرار انجلترا على ضرورة جلاء الفرنسيين عن فاشوده قبل الدخول فى أية محادثات (٦٢).

أما فيما يتعلق بوجهة نظر المصريين والحكومة المصرية بخصوص حادث فاشوده فإننا نجد أن الحكومة المصرية كما عبر عن ذلك وزير الخارجية المصرية - كانت تعتبر أن إضطرارها للإنسحاب من السودان تحت ظروف طارئة لا يعنى بحال ما أن مصر قد تخلت عن حقوقها فيه (٦٣).

---

(٦٠) نفس المرجع السابق .

(٦١) لمعرفة تفاصيل هذه القضية يرجع إلى:

Langer, E.: Op. Cit. P. 554.

(٦٢) صرح وزير خارجية فرنسا أثناء مباحثاته مع السفير البريطانى فى باريس بخصوص أزمة فاشودة إن فرنسا تفضل صداقة انجلترا عن صداقة روسيا - أرجع للوثائق البريطانية السابق الإشارة إليها.

(٦٣) محمد صبرى (دكتور) : الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر (١٩٤٨) ص ٢٨٣ .

وفى نفس الوقت كان الوطنيون المصريون يعلقون الآمال على أن الصراع الفرنسى الإنجليزى، وصمود الفرنسيين فى وجه الإنجليز قد يتيح فرصة ذهبية لبحث قضية جلاء انجلترا عن وادى النيل أو على الأقل الإرتباط بميعاد محدد لهذا الجلاء (٦٤).

أما رجال القانون ورجال السياسة فيهما فقد اختلفت وجهة نظرهم فإن الإتجاه العام كان أن انجلترا باحتلالها لمصر، وضمها أجزاء كانت تابعة لمصر، وتنازلها عن بعض هذه الأجزاء لدولة أخرى صديقة أو حليفة لها كإيطاليا، واتجاهها للإتفاق مع بلجيكا على تأجير مناطق لها داخلة ضمن نطاق حوض النيل بالإضافة إلى إشتراكها فى الخطة التى وضعت لسحب آخر مظهر من مظاهر السيادة المصرية فى المديرية الإستوائية - كل هذه التصرفات تضعف موقفها أمام الدول الأخرى القادمة إلى هذه المناطق واحتجاجها بأن فى هذا اعتداء على حقوق مصر، وأن إخلاء مصر لهذه الجهات لا يجعلها مشاعاً أو أرضاً لا صاحب لها.

هذا على أن الحكومة الفرنسية لم تجد فى النهاية بداً من الخضوع لإرادة إنجلترا فقد رأت الا تتورط فى حرب معها بخصوص مسألة فاشوده - خاصة أنها كانت تدرك حرج موقف قواتها فى فاشوده فأبرق وزير الخارجية الفرنسية - الذى أزعجه تصرف مارشان وتركه جنوده فى فاشوده ومجيئه إلى القاهرة بدون إذن من حكومته - إلى مرشان فأمره بأن يعود فوراً إلى فاشوده ليرتب أمر إنسحاب قواته عن طريق الحبشة. وقد أرسل سالسبورى فى نوفمبر ١٨٩٨ إلى مونسون (E. Monson) السفير البريطانى فى فرنسا البرقية التالية (٦٥).

The French ambassador informed me to day that the decision had been taken by his government to withdraw Marchand's party from Fashoda and to Send him back there to carry out that decision and that orders to that effect had been sent to Cairo".

---

(٦٤) أوراق مصطفى كامل - الخطب (نشر مركز وثائق مصر المعاصر ١٩٨٤) ص ٢٥٣ .

(٦٥) انظر الوثيقة فى Gooche and Temperley : Op.

على أننا يمكن أن نستنتج **الأسباب** التى دفعت الحكومة الفرنسية فى النهاية لإتخاذ هذا القرار بالإنسحاب.

١- لم يبق لدى الحكومة الفرنسية أى شك فى أن إنجلترا لن تتزحزح عن موقفها وأنها لن تقبل أية اقتراحات فرنسية للدخول فى مفاوضات طالما أن مارشان وجنوده لازالوا فى فاشوده.

٢- كانت الحكومة الفرنسية تدرك سوء حالة حملتها فى فاشوده بعد أن قطع كتشنر كل وسائل الإتصال بينها وبين الداخل فأصبحت الحامية الفرنسية محاصرة، وقد أبلغ مارشان حكومته بأن ما معه من مؤونه فى تناقص مستمر وأنه بحاجة ماسة لتعزيزات ولمزيد من المؤونة لسد حاجة جنوده.

٣- ولعل روسيا التى كانت فى ذلك الوقت حليفة لفرنسا - قد نصحت فرنسا بألا تصل فى نزاعها مع انجلترا بخصوص فاشوده إلى حد الحرب - وقد أيقن الفرنسيون بلاشك أن مساندة الروس لهم فى هذه الظروف لا تتعدى التأييد الكلامى.

٤- كانت ظروف فرنسا نفسها وعلاقاتها مع الدول الأخرى تملى عليها التفكير بعمق فى النتائج التى قد يسفر عنها وصولها فى الخصومة مع انجلترا إلى أبعد من ذلك .

٥- بدأ كثير من الساسة الفرنسيين - ومنهم وزير الخارجية الفرنسى نفسه دلكاسيه (Delcassé) يدركون أن انجلترا ليست العدو والمنافس الحقيقى لفرنسا وأن التقارب بين انجلترا وفرنسا يتيح فرصة لوقوف الدولتين فى وجه المانيا وغيرها من الدول التى تمثل الخطر الحقيقى لمصالح الدولتين ولعل هذا الإداراك بين رجال السياسة فى الدولتين هو الذى أدى فى النهاية كما سنشير إلى الإتفاق بينهما فى عام ١٩٠٤ .

وقد أعقب إنسحاب الفرنسيين من فاشوده عدة تسويات دولية هامة - لاشك فى أنها مرتبطة بهذه الأحداث المتعلقة بالصراع فى حوض النيل.

وسنشير إلى **هذه التسويات** بسرعة حسب ترتيبها التاريخى:

أولاً: اتفاقية سنة ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا بشأن إدارة السودان [٦٦]:

تمت هذه الإتفاقية فى ١٩ يناير ١٨٩٩ وقد وقعها عن الحكومة المصرية وزير خارجية مصر بطرس غالى وعن الحكومة البريطانية اللورد كرومر.

ولاشك فى أن الحكومة البريطانية أدركت بعد أحداث فاشوده أهمية إضفاء الصيغة القانونية على وضعها فى السودان بالذات فعقدت مع مصر هذه الإتفاقية التى وضع بنودها كرومر ورجاله القانونيون، واستند الإنجليز فى مشاركتهم فى حكم السودان على الإشتراك فى العمليات العسكرية وفى التبعات المادية، ولا يتسع المجال لتفنيد هذه الأسانيد ولا للتعرض بتفصيل لهذا النظام الذى وضع لإدارة السودان والذى بموجبه أصبح الأمر كله بيد (الحاكم العام) الذى كان بريطانيا.

ثانياً: الإتفاق الانجليزى الفرنسى لتعيين الحدود بين السودان وأفريقية الإستوائية الفرنسية فى (٢١ مارس ١٨٩٩).

إتاح الإتفاق الذى وقعته انجلترا مع مصر فى ١٩ يناير ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان - الفرصة لتسوية حدود السودان الغربية مع أفريقية الإستوائية الفرنسية.

ولا يسمح المجال هنا للخوض فى تطور العلاقات بين انجلترا وفرنسا وفى اتجاهات الدبلوماسيين فى كل من انجلترا، وفرنسا نحو التقارب بينهما. لكن يكفى أن نشير إلى أنه كان يوجد فريق قوى من الدبلوماسيين الفرنسيين وعلى الجانب الآخر فريق من رجال السياسة الإنجليز يؤمن بأن مصالح الدولتين غير متعارضة وأن أوجه الخلاف بينهما ليس من الصعب حلها - وأن الازمة المرتبطة بحادثة فاشوده أزمة طارئة يمكن تجاوزها بيسر [٦٧].

---

(٦٦) للوقوف على نصوص الإتفاقية وللمزيد من التفاصيل عنها يرجع إلى :
شوقى الجمل: سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر جـ ٣ (١٩٨٠) ص ١٧٦ وما بعدها.
والسودان من ١٣ فبراير ١٨٤٠ إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣ (القاهرة ١٩٥٣) جمهورية مصر العربية رئاسة مجلس الوزراء.

(٦٧) Veley, Et. : Op. Cit. P.P. 188 - 189

وعلى ضوء هذا بدأت المباحثات بين الطرفين فى فبراير لتسوية حدود السودان الغربية مع أفريقية الإستوائية الفرنسية ووصل مندوبو الدولتين إلى إتفاق وقع فى ٢١ مارس ١٨٩٩ يقضى بتخطيط الحدود على أساس خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو (٦٨).

ثالثاً: الإتفاق بين بريطانيا والحبشة (١٩٠٢) لتسوية الحدود السودانية الحبشية :

لعبت اثيوبيا كما ذكرنا سابقا دوراً هاما أثناء أحداث فاشوده وقد حاولت كل من الدولتين المتنازعتين فرنسا وانجلترا استقطاب الحبشة إلى جانبها ولذا أرسلت كل منهما بعثة إلى الحبشة للإتفاق معها فى هذا الشأن، وانتهزت الحبشة هذه الفرصة لتحقيق بعض أطماعها فى منطقة الحدود المعلقة بينها وبين السودان من مدة.

وقد إستطاعت الدبلوماسية البريطانية أن تستغل الأطماع الفرنسية التى كشفت عنها الأحداث المتتالية، ومنها حادثة فاشوده - فى أن تصل إلى إتفاق مع الحبشة وقع فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ عينت بموجبه الحدود بين السودان والحبشة، وقد اتفق على تخطيط هذه الحدود بحيث يقع النيل الأبيض والأجزاء السفلى من العطبرة والنيل الأزرق والسوباط داخل حدود السودان، كما اتفق على ألا تقوم الحبشة بتشييد أعمال على النيل الأزرق وبحيرة تانا والسوباط تؤثر فى المياه المتدفقة من هذه المجارى المائية إلى النيل إلا بعد الإتفاق مع حكومة السودان (٦٩).

رابعاً: الإتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا (١٩٠٤):

رأينا كيف إتخذ الصراع بين انجلترا وفرنسا صوراً متعددة منذ نهاية القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر ، وكانت مصر محوراً رئيسياً فى هذا الصراع الذى تمثل فى حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨، وقد لعبت

(٦٨) Hertslet, E.: The Map of Africa by Treaty V. 3 P.P. 796-797

(٦٩) Hertslet, E. : Op. Cit. P. 33

انجلترا كما ذكرنا سابقاً - دوراً هاماً فى إجلاء الفرنسيين عن مصر، وكانت السياسة الإنجليزية تجاه مصر فى أثناء حكم محمد على وعباس، وسعيد، وإسماعيل كلها نابعة من إدراكها لأهمية مصر فى صراعها مع فرنسا - وظهر الصراع بين الدولتين على أشده فى مسألة حفر قناة السويس التى ظفرت به شركة فرنسية وفى أثناء الأزمة المالية فى عهد إسماعيل التى إنتهت بتدخل الدولتين فى شئون مصر - إذ لم تستطع أى منهما أن تنفرد بالنفوذ - لكن انتهت هذه الصفحة من الصراع باحتلال انجلترا لمصر فى عام ١٨٨٢ وتدخلها فى شئون السودان ومناطق النفوذ المصرى الأخرى على ساحل البحر الأحمر وفى المديرية الإستوائية - كما بينا سابقاً.

وكانت انجلترا تتذرع بأن إحتلالها لمصر أمر مؤقت وترفض أى اتجاه لتقسيم أملاك الدولة العثمانية بين الدول الطامعة فيها ، وكانت فرنسا تحرج موقف إنجلترا بأن تطالبها بأن تحدد موعداً معيناً لجلائها عن مصر دون جدوى.

ولغل من أهداف حملة فاشوده فى عام ١٨٩٨ إحراج انجلترا وإثارة وضعها فى مصر والسودان.

ويعتبر كثيرون من المؤرخين أن هذه كانت الذروة التى وصلت إليها المواجهة بين الدولتين.

لكن الظروف الدولية تحكمت فى تغيير إتجاه العلاقات بين الدولتين مما أدى للتقارب بينهما والإتفاق أخيراً فى عام ١٩٠٤ ذلك الإتفاق الذى حدد مصير العلاقات بين الدولتين من ذلك الوقت وحتى الحرب العالمية الأولى وفى الفترة بين الحربين العالميتين وخلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

ولعل فى مقدمة الأسباب التى أدت لهذا التقارب الإنجليزى الفرنسى.[٧٠]

١ - يقام الإتحاد الألمانى فى ١٨ يناير ١٨٧١ وإعلان قيام الرايخ الألمانى بعد هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ذلك الإعلان الذى تم فى بهو المرايا

(٧٠) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث يرجع إلى:
فنشر، هـ. أ. ل : تاريخ أوربا المعاصر والحديث (ترجمة محمد نجيب هاشم) (القاهرة ١٩٧٧).

بقصر فرساى بفرنسا ، وكان من نتيجة هذه الحرب السالفة الذكر أن وضعت المانيا يدها على الالزاس واللورين.

٢- سياسة بسمارك التى فرضت العزلة على فرنسا، ثم اتجاهه بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤ / ١٨٨٥ لبناء امبراطورية ألمانية فى أفريقيا.

٣- لتخرج من العزلة المفروضة عليها اتجهت فرنسا فى عام ١٨٩٣ إلى عقد معاهدة تحالف مع روسيا.

٤- عقدت بريطانيا فى عام ١٩٠٢ معاهدة تحالف مع اليابان التى ظهرت كدولة قوية إستطاعت أن تنهض بسرعة لتجارى الدول الأخرى، وقد حققت انتصارات باهرة على الصين، ووقفت فى وجه أطماع روسيا التوسعية فى شرق آسيا ، وقد اتاحت هذه المعاهدة التى نصت على تبادل المساعدة العسكرية فى حالة مهاجمة دولة أوربية أخرى لأى من الدولتين - الفرصة لانجلترا لسحب بعض قواتها البحرية من مياه الشرق الأدنى لمواجهة المنافسة البحرية الالمانية فى بحر الشمال.

٥- موقف المانيا السافر المعادى لإنجلترا فى حروب البوير (١٨٩٥ - ١٩٠٢) ومساندتها لبول كروجر (Paul Kroger) ومعارضتها لأطماع بريطانيا فى ضم مستعمرات البوير [٧١] مما دفع ساسة بريطانيا لإدراك أن الخطر الحقيقى لمطامع انجلترا الإستعمارية يكمن لا فى فرنسا بل فى ألمانيا الفتية التى ظهرت قوتها البحرية بحيث أصبحت تهدد سيادة بريطانيا البحرية فى البحار والمحيطات الهامة.

٦- إدراك عدد كبير من كبار الساسة الإنجليز والفرنسيين أهمية التقارب بين الدولتين، فكرومر فى مصر كان يدرك دقة موقف إنجلترا فى مصر وكان يستحث حكومته للوصول إلى إتفاق مع فرنسا بشأن مصالحها فى المغرب (مراكش) بعد موافقة الفرنسيين على أن تقع مصر فى دائرة النفوذ البريطانى.

---

(٧١) للتفاصيل انظر :

Kruger, Paul : The Memoirs of Paul Kruger 2. Vols (London 1902).

وقد ذكرنا أن عدداً من الساة الفرنسيين فى مقدمتهم دلماسية (Deleassé) ووزير المستعمرات الفرنسى وبول كامبو (P. Cambon) السفير الفرنسى فى انجلترا إدركوا أهمية إزالة أسباب الجفاء بين فرنسا وانجلترا وقد ساهم هؤلاء كما شرحنا من قبل - فى تسوية مشكلة فاشوده فقد أدركوا أن هذه المشكلة لا يجب أن تؤدى إلى تأزم الأمر بين الدولتين لدرجة تهدد بقيام حرب بينهما.

وقد اقترح كرومر بعد تسوية مسألة فاشوده وإنسحاب الفرنسيين منها تغيير إسم فاشوده الذى أصبح يمثل فى نظر بعض الفرنسيين رمزا لإذلال فرنسا للعداوة بين الدولتين وقد غير الإسم فعلاً فى المكاتبات الرسمية السودانية وفى خرائط مصلحة المساحة إلى إسم (كودوك) ومازال كذلك إلى اليوم.

لقد مهدت كل هذه الأسباب لوصول الفرنسيين والانجليز بعد مناقشات طويلة إلى إتفاق وقع فى ٨ أبريل ١٩٠٤ ووضع حداً للصراع بينهما وتعهدت فيه فرنسا بترك يد انجلترا فى مصر فى مقابل ترك انجلترا يد فرنسا حرة فى المغرب (مراكش)

خاتمة

فى ضوء هذه الأحداث المرتبطة بحملة فاشوده التى عرضها البحث يمكن أن نصل إلى النتائج الآتية:

١- حملة فاشودة ما هى إلا حلقة فى سلسلة طويلة للصراع البريطانى الفرنسى. والتفكير فى هذه الحملة يرجع لا كما ذكر الأستاذ بيررينوفان إلى عام ١٨٩٣ فحسب - لكن لعله يرجع إلى قبل ذلك بكثير - لكن الظروف الدولية والعلاقات بين الدولتين وظروف مصر والسودان بالذات هى التى ساهمت فى تقرير أمر تحرك هذه الحملة من الغرب حتى تصل إلى النيل.

٢- كان من المقرر أن تتحرك حملات فرنسية أخرى من الشرق لتلتقى مع هذه الحملة الآتية من الغرب لكن لم يتيسر التقاء هذه الحملات وتعاونها فى تحقيق هدفها.

٣- اختبار فاشوده بالذات كمسرح تمثل عليه هذه التمثيلية كان موضع الكثير من التكهنات وقد أرجع البعض الأمر إلى موقعها، وقد أشار البعض إلى أنها مجرد موقع لا يختلف عن غيره من المواقع على النيل يحقق نفس الهدف - والبعض شبه ذلك باختيار الألمان فيما بعد فى ١٩١١ ميناء أغادير المغربى لمظاهرتهم الحربية ضد فرنسا وحلفائها ولتحريك، قضية الوضع فى المغرب (مراكش) دون سبب ظاهر لهذا الإختيار الألمانى.

٤- لعبت الحبشة دوراً هاماً فى هذه الأحداث وحاولت كل من الدولتين المتصارعتين الحيلولة دون إتفاق غريمتها مع الحبشة لتقديم التسهيلات لتحقيق أهدافها.

٥- الاهداف التى كانت ترمى إليها فرنسا من حملتها على فاشودة متعددة لكنها كلها مرتبطة بعلاقاتها مع انجلترا فى مصر والسودان.

٦- أثار هذا الحادث مبدأ قانونيا هاماً يتعلق بوضع السودان بالذات ووضع المناطق التى كانت تحت النفوذ المصرى فى أعالى النيل وعلى ساحل البحر الأحمر الأفريقى وهل تعتبر أرضا لا صاحب لها (Res Nuillus) أم أن حق مصر فيها يعتبر قائما حتى بعد قيام الثورة المهدية فى السودان.

٧- الحقيقة أن انجلترا استندت إلى حق مصر فى السودان الذى تعتبره قائما رغم الثورة المهدية وأن أى إعتداء على هذه البلاد التى كانت تحت النفوذ المصرى إعتداء على حقوق مصر.

لكن كان يلزم أن تطبق إنجلترا نفس المبدأ على باقى أملاك مصر والتى وضعت هى يدها عليها والتى كونت فيها مستعمراتها فى (الصومال البريطانى) وفى المناطق التى ضمتها لمستعمرتها فى أوغنده فى أعالى النيل.

كما أنها خالفت هذا المبدأ فى الواقع فى إتفاقية الحكم الثنائى ١٨٩٩ التى فرضتها على الحكومة المصرية، بل وفى إتفاقها مع الدول الأخرى كبلچيكا مثلاً فيما يتعلق بالتنازل لها أو تأجير أماكن من بحر الغزال أو غيره لهذه الدول.

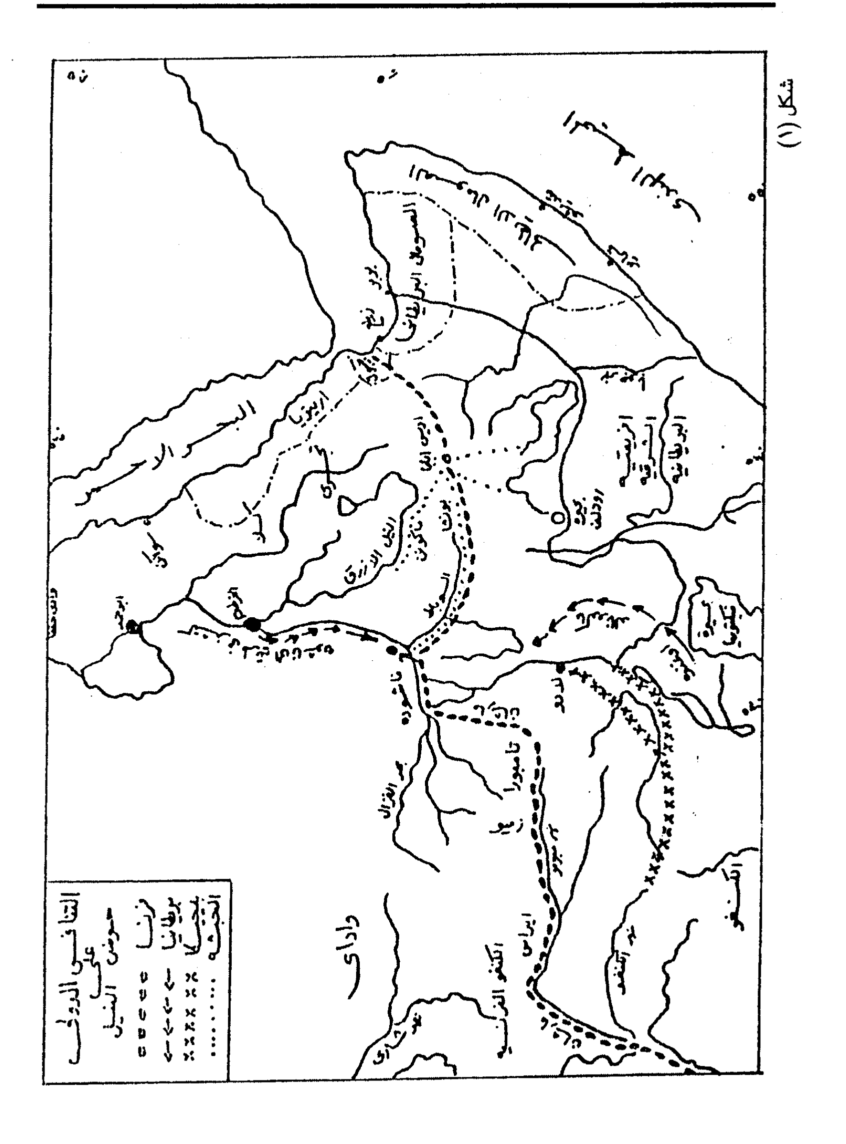
وكذلك فى موافقتها على إنتزاع ايطاليا للمناطق التى كونت منها مستعمراتها فى إريتريا والصومال الإيطالى وغير ذلك من التصرفات التى تتنافى مع مبدأ سيادة مصر تذرعت به للوقوف فى وجه الإطماع الفرنسية، لكن كما نعلم لا تجد السياسة الإستعمارية صعوبة فى أن تحلل لنفسها ما تحرمه على غيرها.

٨- أصيب الوطنيون المصريون بخيبة أمل لخضوع فرنسا للضغوط البريطانية وجلائهم عن فاشوده - فقد كان هذا دافعاً قوياً للمصريين لأن يدركوا أنهم يجب الأ يتطلعوا لدولة أخرى فى كفاحهم الوطنى فى سبيل نيل حريتهم، خاصة أن هذه لم تكن المرة الأولى التى إستسلمت فيها فرنسا للضغوط البريطانية، فقد أشارت الصحف المصرية إلى تخلى فرنسا عن محمد على فى أزمته مع انجلترا فى عام ١٨٤٠ والى تركها إنجلترا تنفذ مخططها بإحتلال مصر ١٨٨٢، وها هى اليوم تخضع للضغوط البريطانية فتسحب قواتها من فاشوده دون أن تحصل على أى تحديد من انجلترا لتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر - وقد عبّر عن ذلك الزعيم مصطفى كامل فى خطبه كما أشرنا من قبل.

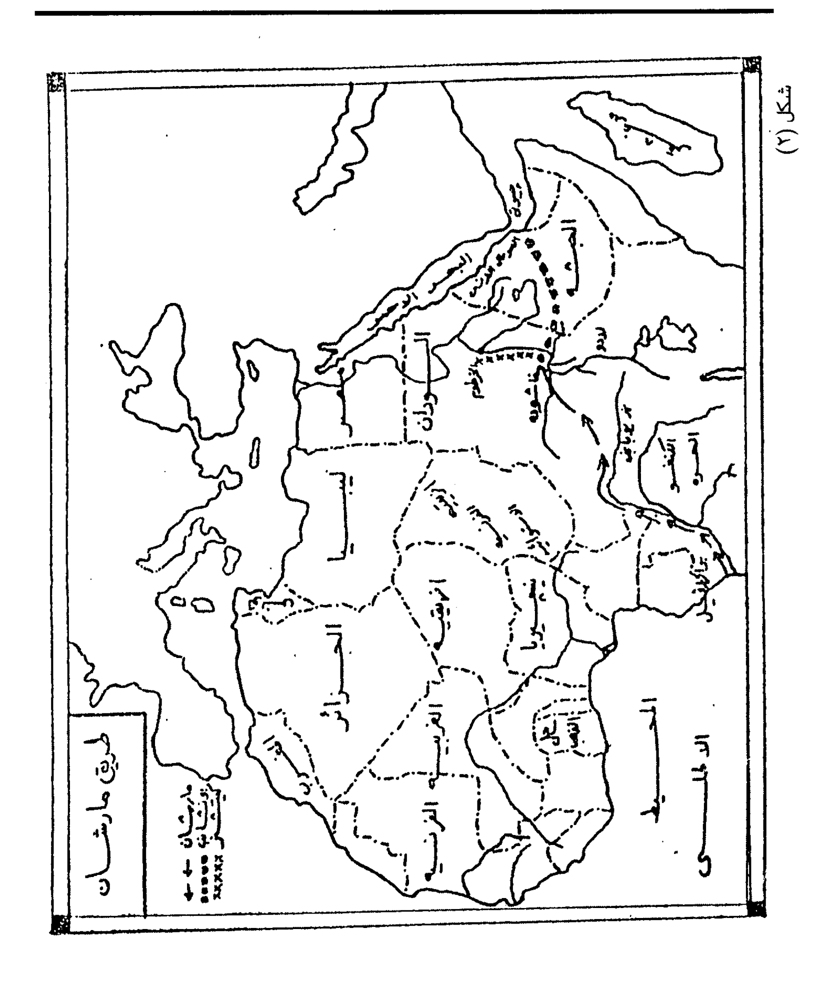
٩- كانت النهاية التى انتهت إليها حادثة فاشودة فاتحة لتسويات متعددة متعلقة بالحدود بين السودان والبلاد المجاورة له فى الشرق والجنوب والغرب.

١٠ - رغم أن حادثة فاشوده فى الأصل كانت نتيجة الصراع بين انجلترا وفرنسا لكنها ساهمت بطريق مباشر أو غير مباشر فى تصفية الجو بين الدولتين مما أدى للإتفاق الودى بينهما فى عام ١٩٠٤ .

١١- لعل من أهم ما يمكن أن نختم به هذا البحث هو أن الوثائق الفرنسية بالذات المتعلقة بهذه الأحداث لم يكشف النقاب عنها كلها ولم توضع كلها إلى الأن تحت تصرف الباحثين - فلعل المزيد من الأضواء يمكن أن يلقى على هذا الحادث وما يتصل به فيما يتعلق بالعلاقات الإنجليزية الفرنسية. ولعل بعض الآراء التى نرددها اليوم عن الأحداث المتعلقة بالعلاقات الانجليزية الفرنسية التى أثارها موضوع فاشوده يتناولها بعض التعديل أو التغيير حين يكشف النقاب عن المزيد من الوثائق المتعلقة بهذه الأحداث سواء بنشرها فى الكتاب الأصفر الفرنسى أو إزالة الحظر على إطلاع الباحثين عليها وإستخدامها.


التنافس الدولى على حوض النيل
فرنسا
بريطانيا
بلجيكا
الحبشة
البحر الأحمر
النيل الأزرق
وادى

شكل (١)



شكل (٢)

مكتبة البحث

أولاً مصادر أصلية:

(أ) دار الوثائق المصرية

١- وارد المعية - محفظة ٢٠ معية تركى - رقم ٣٢٩ فى ٤ مارس ١٨٢٦ م.

٢- دفتر ١٩٤٨ أوامر عربى ص ٣٠ فى ١٧ ذى القعدة ١٢٩٠ هـ .

٣- دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى ص ٥٦ فى ٩ محرم سنة ١٢٨٢ هـ.

٤ - دفتر ٥٧٣ صادر المعية تركى ص ٢١٧ رقم ٥٦ فى ٤ سفر ١٢٨٦ هـ.

٥ - دفتر ١٩٣٤ أوامر كريمة أمر رقم ٣١ ص ٥ فى ٢٨ شعبان ١٢٨٦ هـ .

(ب) وثائق منشورة :

١- شوقى الجمل : الوثائق التاريخية المتعلقة بسياسة مصر فى البحر الأحمر ونشرته الجمعية التاريخيه المصرية (١٩٠٩).

٢- أوراق مصطفى كامل - الخطب (نشر مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر ١٩٨٤).

٣- سليم قبطان: الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض) تعريب محمد مسعود (القاهرة ١٩٢٢).

(جـ) وثائق ويوميات باللغات الأجنبية:

1- Liver Jaune: Documents Diplomatiques; Affaires d' Egypte 1882 - 1883.

2- British Documents on the origins of world war . I (1898 - 1914) London 1927.

3- Dr. J. Emily: Mission Marchand (Paris 1913).

4- Kruger; Paul: The memoris of Paul Kruger 2 Vols. (London 1902).

5- Rodd, Sir J. Rennell: Social and Diplomatie memories 3 vols (1884 - 1901, London 1923).

6- Hertslet, E.: The Map of Africa by Treaty. vols. II & III (London 1941).

ثانياً - مراجع عربية أو معربة :

١- اسماعيل سرهنك باشا : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ (١٣٢٤ هـ).

٢- جلال يحيى: التنافس الدولى فى شرق أفريقيا (١٩٥٩).

٣- رجب حراز : إرتريا الحديثة (١٩٧٤).

٤- سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان (القاهرة ١٩٥٢).

٥ - سليم نقاش : مصر للمصريين جـ ٤ (١٨٨٤).

٦- شوقى الجمل : سودان وادى النيل جـ ١ (١٩٦٩).

٧- : سودان وادى النيل جـ ٣ (١٩٨٠).

٨- : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (١٩٨٠)

٩- عبدالرحمن الرافعى : عصر محمد على (١٩٥١).

١٠- : عصر اسماعيل جـ ١ (١٩٤٨).

١١- : عصر اسماعيل جـ ٢ (١٩٣٢).

١٢ - على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل (١٨٨٠ - ١٩٠٦)، (١٩٨٥).

١٣- عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها (القاهرة ١٩٣٧)

١٤- فرد ريك بنولا : مصر والجغرافيا (تعريب أحمد زكى ١٣١٠ هـ)

١٥- فشر، هـ أ. ل : تاريخ أوربا الحديث (ترجمة محمد نجيب هاشم ١٩٧٧).

١٦ - محمد سعيد القدال : المهدية والحبشة (الخرطوم ١٩٧٣).

١٧- محمد صفى الدين : أفريقيا بين الدول الأوربية (١٩٥٣).

١٨ - محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ .

١٩ - : مصر والسودان - تاريخ وحدة وادى النيل ١٨٢٠ - ١٨٩٩ (١٩٥٧).

٢٠- نسيم مقار: البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (١٩٦٠).

ثالثاً مراجع أجنبية:

1- Blunt, W.: Secret History of the English Occupation . (London 1907).

2- Churchill, W.: The River war;. An account of the Reconquest of the Sudan, (London 1933).

3- Coupland, R. :East Africa and its invaders (London 1938).

4- Erich, Eyoke: Bismarck and the German Empire. (London 1950).

6- Guernier, E.: L'Afrique occidental Francaise. (Paris 1942).

7- Hanotaux, Gabriel : Fachoda . (Paris 1909).

8- Hanotaux, Gabriel, Et Martineau Alfred : Historie des colonies Francaise. Tome IV (Paris 1951).

9- Hargreaves, John: Pralude to the partition of West Africa. (London 1962).

10- Hinde, Sidney langfard; The fall of the Congo Arabs (London 1897).

11- Jackson, H.C.: Blackivory and white, the Story of Elzubier Pacha Slaver and Sultan as told by himself. (Oxford 1913).

12- Johnston, H.H. : A History of the Colonization of Africa by Alien Races. (Cambridge 1913).

13- Langer, W.: The Diplomacy of Imperialism (1890-1902) (N.Y. 1951).

14- Lewis, T.M.: The Modern History of Somaliland . (London 1965).

15- Lucas, Sir Charles: The Partition and Colonization of Africa. (Oxford 1922).

16- Oliver Roland and Mathew Gerves: History of East Africa. (Oxford 1966).

17- Slatin, R.C.: Fire and sword in the Sudan 1879-1895 (Translated by F.R. Wingate - London 1896) T.II

18- Theoboid, A.B.: A History of the Anglo-Egyptian Soudan. (1881-1899).

19- Valey Et.: Le Rivaleté France - Anglaise en Egypte. (1876 - 1904).

رابعاً : أبحاث منشورة في دوريات علمية :

(أ) باللغة العربية :

١- على إبراهيم عبده : أزمة فاشوده ١٨٩٨ .

(المجلة التاريخية المصرية - المجلد السادس) .

٢- محمد مصطفى صفوت : أصول حملة فاشوده

(المحلة التاريخية المصرية مايو ١٩٥٠) .

(ب) باللغة الفرنسية :

1- D'Arnaud: Seconde Voyage à la Recherche des sources du Fleuve Blanc.

(Bulletin de la Societe de geographie Ser. II Tome XIV - 184 3).

2- Renouvin, Pierre: Le Orignies de L'expedition de Fachoda

(Revue Historique October - Decembre 1948).

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ١٣٥ - ١٤٠

النيل فى رسوم الدولة الفاطمية فى مصر

أ. د. عبد المنعم ماجد

لقد كرم الحديث النبوى الشريف النيل ، فأعتبره نهراً مؤمناً له نهر باطنى مثله فى الجنة ، سخره الله لأهل مصر ، ليفيض على أرضها ويسقى حلائها . كذلك أصبح النيل عند الجغرافيين المسلمين أسماً لكل نهر فى أفريقيا ، إذا لم يكن يتصور وجود غيره ، وأن روافده تمتد إلى كل ناحية فيها ، حتى أن الرحالة المشهور ابن بطوطة سمى نهر النيجر نيل مصر .

فكانت مصر فى أقوال المؤرخ المصرى المقريزى ترتبط أرتباطاً وثيقاً بالنيل طوال تاريخها وتنتظر فيضه فى كل عام ، ويكون ذلك فى الصيف إذ لم تعهد قط زيادة فى النيل فى الشتاء ، وأن هذه الزيادة تكون على التدريج من أمطار كثيرة متوالية تسقط بلاد الحبشة ، فى نواحى الجنوب ومع أنه أبتداء يكون لونه أخضر ولكنه بوقوع المطر يكون لونه محمراً ، لما يخالطه من الطين ، الذى تجرفه السيول ، وهو وأن كان عكراً إلا أن هذا الطين ينقى الماء ويروقه ، حتى أن الناس قد تغطى فى النيل للأبراء من المرضى ، وللقبط عيد يعرف بعيد الغطاس ، وحينئذ تتحول أرض مصر بسبب زيادة النهر إلى بحار ، ولا يتوصل إلى بعض القرى إلا فى المراكب أو من على الجور وليس فى أنهار الدنيا نهر ، غير نيل مصر، سمى بالبحر لكبره واستبحاره فإذا تكامل فيضه تروى كل ناحية من نواحى مصر بالتعاون مع غيرها ، حسب قوانين كل ناحية ، فيكون الزرع ويعم الخير أرض مصر .

حقاً أن الاحتفال بفيض النيل ، وهو ما أطلق عليه وفاء النيل ، قد أخذ مظاهر متعددة على مدى تاريخ مصر الطويل . فقد أعتبر النيل إليها كبيراً أو رمزاً لا له كبير ، وقيل أن المصريين كانوا يعمدون إلى دمية أو جارية بكر ، من أجمل فتيات مصر ، لتلقى فى النيل ، بعد أن يلبسونها أفضل الحلل والثياب

تقرباً لهذا إلاله، لزيادة جريان المياة ، وهى الحكاية التى أشتهرت بعروس النيل ، كلما جاء العرب أكتفوا فى أحتفالهم بفيض النيل برمى بطاقة أو ورقة بردية ، كتبت فيها بعض الصيغ الدينية ، حتى تغمر مصر المياه السمراء ، وأن زكر المؤرخون أنه فى عيد الشهيد كان القبط يلتقون فى النيل تابوتاً من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى ، حيث يزعمون أن النيل بمصر لا يزيد فى كل سنة إلا بهذا .

ولكن بأستحضار مراحل الأحتفال بوفاء النيل فى أيام الفاطميين ، وهى الاحتفالات التى قامت فى مصر فى القرن الرابع والسادس والخامس من الهجرة، العاشر والحادى عشر والثانى عشر الميلادى كأكبر دولة ظهرت فى مصر منذ أيام الفراعنة ، فإن هذه الاحتفالات قد أخذت مظهراً مختلفاً لا نظير له من قبل ، يستمر عدة أيام ، هدفه المشاركة الواسعة بين الدولة والشعب ، لوفاء النيل ، وما يترتب عليه من خير مصر ورفاهيتها ، وذلك على أساس من التقاليد المصرية السابقة ، فكان الاحتفال الفاطمى بفيض النيل هو الأساس الذى بنى عليه الأيوبيين والمماليك من بعدهم فمنذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر ، فإن الأحتفال بوفاء النيل دخل لأول مرة فى رسوم الدولة ، التي تتبع بدقة فى الأعياد الرسمية لها ، يقول المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى أن المعز لدين الله أول خليفة فاطمى فى مصر ، هو الذى أسس جميع رسوم الخلافة فكان الاحتفال بوفاء النيل فى رسوم الدولة يدخل بأحتفالين ، ضمن ستة أحتفالات ، يطلق علية : المواكب العظام ، أو الركوبات ويشمل كل واحد منها على هذه المراسم ، وهى : أول العام الهجرى وأول رمضان الجمع الثلاث فى شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والأضحى ، ثم موضوع الاحتفال بوفاء النيل وها: زلوب تحليق المقياس ، وركوب فتح الخليخ .

فعن الأول فى موكبى الأحتفال بوفاء النيل وهو ركوب تخليق المقياس ، فأن الخليفة الفاطمى كان يركب فية بهيئة المواكب العظيمة وسط ابتهاج شعب مصر الزائد ، ليعطر المقياس المسمى الحكومة .

وليس القاء عروس فى النيل ، أو رمى ورقة بردية فيه ، وإذا التخليق من فعل

خلق ، وهو الخلوق ، حقاً لقد تعددت مقاييس النيل فى مصر من أيام الفراعنة ، ولا سيماً فى الصعيد وحتى فى بداية الفتح العربى فقد بنى عمرو بن العاص مقياسا للنيل بأسوان إلا أن المقياس غاية الموكب الخلافى الفاطمى هو مقياس الروضة، لوقوعة فى جزيرة الروضة بمصر، وهو عبارة عن عمود مثمن من الرخام الأبيض تحيط به فضية، يدخلها ماء النيل وقت الفيضان، مقسمة إلى عشرين ذراعاً، ذراع مقسمة إلى أربعة وعشرين قسما متساوية، تعرف بالاصابع، ماعدا الاثنا عشر ذراعاً الأولى، فإنها مقسمة إلى ثمانية وعشرين قسما، وقد بنى هذا المقياس فى عهد الخليفة العباس المتوكل سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١، بحيث أصبح معلما هاما من معالم النيل، لا يزال باقيا بهيئته إلى الآن، فعرف بالمقياس الكبير أو الجديد. ومنذ بنائه والاشراف عليه مكنول إلى أسرة عبدالله بن أبى الرداد (ت ٢٦٦ هـ / ٨٧٩)، الذى يعرف بالعلم؟ أما قبل ذلك فإن القبط كانت تشرف على مقاييس النيل.

وقبل مجئ الفاطميين، جرى حكام مصر على أنه إذا بدأ الفيضان ينادى على إرتفاع النيل يوميا، إلا أن حكمة الفاطميين قضت بمنع هذا النداء العلنى، لما يحدثه من اضطراب وقلق بين الشعب، خوفا من تقصير النيل وعدم وفائه، ووقوع الغلاء فى أسعار المأكولات والبضائع فكانت الدولة الفاطمية تكتم أمر الفيضان عن الشعب إلى أن يتم ستة عشر ذراعا، وهو المستوى الذى يعتبر كافيا لارواء أرضى مصر، وعندئذ يركب الخليفة إلى المقياس ليعطره احتفالا بوفاء النيل. حقا بأن البشارة بوفاء النيل قد تخرج قبل ذلك من قوص بأرض الصعيد، إلا أنه لا تعرف النيل الوفى بهذا المقياس إلا بعد ثلاثة أيام ونحوها.

فكان موكب الخليفة الفاطمى وتخليق المقياس وتعطيره يخرج بمظاهره الفخمة من ميدان بين القصرين الكبير والصغير، الذى يتسع لعشرة ألاف شخص من موظفى الدولة والقصر والجند، وقد منحهم الخليفة الخلع الفاخرة، وهى ملابس بيضاء إذا البياضى رمز الدولة وغيرها، والالات الملوكية التى شرفهم بها، فإذا خرج الخليفة إليهم من قائمة الذهب بالقصر الكبيرة واتجه إلى فرسة ضرب رجل بالبوق المشهور بإسم العربية، الذى له صوت عجيب، وهو بوق معوج الرأس، مصنوع من الذهب، فتضرب بقية البوقات بشدة.

حينئذ يبدأ الموكب تحركه بحسب رسوم دقيقة، فتأتى فى المقدمة عساكر

الامـاثل، وأمراء الجيش الذين منهم أرباب القصب، أى الذين يحملون العصا فى اليـد، وأرباب الأطواق أى الذين مـضـيـعون الطوق حـول أعناقـهم علـى الطريقـة الفـرعونيـة، ثم رجـال القصـر من الأسـتـاذين وحـاملو أعـلام الخـلافـة من رايات وألوية وبنود، وجميعها بيضـاء هى الأخرى، مطرزة بكتابات قـرآنيـة، على رؤسها أهلة من الذهب، ثم يأتى حامل دواة الخليفة وهى ثمنيـة، تعـتبـر أعـجـوبة من أعاجيب الزمن، مصنوعة من خالص الذهب، ثم حامل السيف الخاص الذى هو سيف النبى، الذى تنتهى إليه الأسرة الفاطمية عن طريق فاطمة، أو حتى سيف بلقيس، وقد رصع بالذهب والجواهر.

بعد هؤلاء يأتى الخليفة على فرسه وقد لبس بدلة كاملة، بطراز من الذهب مع رسوم وذيل (مرشح) مجاوم، مذايل، وعلى رأسه عمامة إسلامية (منديل)، أطلق عليها التاج الشريف، شدت بطريقة خاصة هى شدة الوقار، وبيده قضيب الملك، وهو عود طوله شبـر ونصف مـرصع بالدرر وملبس بالذهب، وقد ظهـر بجـوازه حامل المظلة، التى تعتبر من شارات الدولة الفـاطميـة الهـامـة، وتشبـه الخيمة، ومرصعة بالأحجار الثمينة، وهو يبالغ فى الا يزول عن الخليفة ظلها، ثم يأتى حرسه الخاص من أرباب السلاح الصغير، وعشرة رجال يحملون عشرة سيوف يقال لها سيوف الدم، برسم ضرب الأعناق.

ثم يأتى موكب الوزير فى هيئة عظيمة، وسط حرسه وحاملى رايات، وخلفه طبول الموكب وصفافيره، ثم طوائف رجال الأسطول والجيش فى أعداد كبيرة.

فكان الموكب الكبير يخرج من القاهرة من باب النصر أحد أبوابها الهامة، ثم يتجه إلى شوارع مصر، وهى الفسطاط، وسط ابتهاج الشعب الزائد وتهليل الناس، وفى خلال ذلك يكون والى شرطة القاهرة ذاهبا عائدا فى جماعة من الفرسان، ليفسح الطريق أمام الموكب.

فإذا وصل الخليفة إلى منظرة دار الملك وهى إستراحة - الواقعة على النيل، قرب المقياس، فإنه يركب منها بعد أن يستريح قليلا، ومعه الوزير وبعض كبار رجال الحاشية فى العشارى الخاص الذهبى، وهى سفينة نيلية، ليحملهم إلى المقياس.

فإذا دخلوا المقياس صلى هو والوزير ركعتين، كل منهما بمفرده، ثم يضع

الخليفة بيده الزعفران والمسك فى إناء خاص، يناوله إلى موظف كبير، الذى يناوله بدوره لابن أبى الرداد - الموظف القائم بأمور المقياس - فيلقى هذا الأخير بنفسه فى فسقية المقياس ويتعلق بالعمود برجليه وبيده اليسرى، ويخلقه، أى يعطره بيده اليمنى. وفى أثناء ذلك يتناوب قراء الحضرة قراءة القرآن، فإذا فرغ ابن أبى الرداد من عمله، خرج الحاضرون من فورهم، وعلى رأسهم الخليفة إلى العشارى، الذى يعود بهم إلى المنظرة. فيكون فى النيل فى ذلك اليوم الف مركب، مشحونة بالناس للتفرج واظهار الفرحة، فإذا وصل الخليفة إلى المنظرة عاد بموكبه الذى كان ينتظره إلى القصر.

أما الموكب الثانى، فى الإحتفال بوفاء النيل، فإنه يكون فى اليوم الثالث أو الرابع من يوم التخليق، يعرف بإسم ركوب فتح الخليج، الذى يقع فى غرب القاهرة، والمسمى من قبل خليج أمير المؤمنين، وإن عرف فى العصر الفاطمى بالخليج الحاكى، أو حتى بخليج اللؤلؤة أيضاً، وهو خليج قديم حفر من أيام الفراعنة ، يصل ما بين القاهرة وخليج السويس فكان موكب يوم الخليج على مثال ما تقدم من المواكب العظام الستة، وإن تزيا فيه الخليفة بزى خاص، يعرف بالبدنة من الحرير المخطط (مرقوم)، مصنوع بصباعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة، كما يتميز فى هذا الموكب تشريف رجال الدين، الذين ينضمون للموكب عند باب الجامع الطولونى.

ويبدو أن هذا الركوب هو ابهج الركوبان وابهاها، فقد كان ينصب للخليفة على صافة الخليج خيمة عظيمة تشبه القصر المستديرة، وتزيد مساحتها على فدانين فى التدوير، فيقام فيها سرير الملك، ويوضع عليه مرتبة عظيمة ليجلس عليها. كما يوضع للوزير كرسى، أما كبار رجال الدولة فيقفون صفين من سرير الملك الى باب الخيمة.

فكان الإحتفال يبدأ بالاستماع إلى القرآن الكريم من قراء الحضرة فإذا فرغوا ألقى شعراء الدولة قصائدهم العصماء، وهم جماعة كثيرة لها رواتب ثابتة، نجد من بينهم شعراء من كل مذهب، مما يدل على عدم تعصب الخلافة الفاطمية نحو المذاهب الأخرى، فكان الحاضرون ينقدون لكل شاعر ما يقول، ويحسنون ما حسن، وتوهنون ما وهى.

فإذا انقضى هذا الحفل فى السرادق غادره الخليفة ومعه الوزير إلى منظرة قريبة، يقال لها السكره، يطل على الخليج وقد هيئت بالفرش الضخمة فى ذلك اليوم، بينما يبقى وجوه الدولة فى خيام عديده مختلفة الأشكال والألوان على قدر مراتبهم، فيطل من المنظرة أستاذ من أساتذة القصر الكبار ليتقل أمر الخليفة بفتح الخليج، الذى ينهدم أمام الحاضرين تحت ضربات المعادل، فتضرب من البرين الطبول والابواق التى زيد فيها أرليون بوفا، فاذا انساب الماء فى الخليج دخلت العشاريات الملكية - وهى السفن النيلية - تهادى فيه، وهى مزينة بأحلى زينة، وهى من مختلف الألوان منها الذهبى والفضى والأصفر والأخضر، وحتى عشارى مصنوع فى صقلية التى كانت من أملاك الدولة الفاطمية فى مصر، فترسو فى حوض خاص على بر المنظرة التى فيها الخليفة، فكان كسر هذا الخليج هو الرمز لكسر بقية خلجان مصر جميعها، وكسر الاسداد، ليفيض النيل على بضائع أرض مصر، إذ كانت هذه الاسداد تسد ابتداء النيل بالتراب والخشب على أفواه المشارب المائية.

بعد ذلك، يقدم طعام خفيف للحاضرين يحضره صاحب المائدة الملكية بنفسه فى موكب يتكون من مائه رجل، ومعهم الطعام محمولا فى صوان "طيافير" كبيرة مذهبة، وهى مغطاة بالطرح النفية وريح المسك والتوابل تفوح منها، فيوزع الطعام على الوزير وأولاده، والقاضى والشهود ورجال الدولة على قدر مراتبهم، وكانت تقدم لهم تماثيل لعلها من الحلوى - على موائد مصنوعة من أشكال مختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات.

فإذا إنتهى الإحتفال صلى الخليفة صلاة العصر، ولبس ثيابا جديدة غير التى كانت عليه فى أول النهار، وغير المظلة لتكون مناسبة للون ثيابه، فيركب إلى قصره على الرسم المعتاد فى المواكب العظام.

أن الإحتفالات الفاطمية الرسمية بوفاء النيل، هى جديدة فى تقاليد مصر، كانت سببا فى تسيد قيم وعادات راقية فى نفوس المصريين، حفرت فى وجدانهم أعمق الأثر مما أعاد للحضارة المصرية رونقها ورائحتها، فهذا النسق الفاطمى فى الإحتفال بالنيل لم ويسبق إليه من قبل.

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ١٤١ - ١٦٠

جهود محمد على العلمية وخلفائه من بعده للكشف عن منابع النيل

د. عبد العظيم ابراهيم

- من أهم الأحداث البارزة فى تاريخ السودان رحلة محمد على باشا والى مصر للسودان فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٨٣٨ حتى تتاح له الفرصة أن يرى بنفسه الأوضاع فى السودان التى خضعت له ويحاول أن يضع الحلول السريعة للمشاكل القائمة (١) وكانت أولى خطوات الإدارة المصرية للإستفادة بمياه الفيضان أن قامت الإدارة خزانا بأقليم "التاكة" (٢).

- وأثناء زيارة محمد على للسودان أمر بإرسال الحملات الكشفية لمنابع النيل لتنشيط وتشجيع التجارة الداخلية والخارجية وفتح أقاليم السودان أما التيارات الحضارية (٣).

- وجاء فى أحد التقارير الرسمية والذى أوضح اهتمام والى مصر بشطر الوادى الجنوبى والنهوض بشعبه نحو المدفعية الحديثة ومكافحته للعادات السيئة كالإتجار فى الرقيق التى درجوا عليها ويذكر التقرير "رغبة منه" أى محمد على فى استكشاف المنابع وتحقيق ما كتبته كتب الجغرافيا ليكون عمله تذكارا وهدية للاخلاف - أمر باعداد الآلات والأيدى اللازمة لكسر الشلالات أمام المحروسة والمديريات وإرسالها - كما أوفد لهذه الغاية ستين جنديا من البحرية وثلاثة قباطين من الملمين بفن الرسم وزاد عليهم كاتبا قديراً لتقارير "حرثا لجى" وخصص لركوبهم ثلاثة من أفخر الذهبيات ثم قام أثرهم

---

(١) د. مكى شبيكه : السودان عبرا القرون ، ص ١١٢ (عن دفتر شورى المعاونة الملكية) وثيقة رقم ٢١ بتاريخ ٢١ محرم سنة ١٢٥٥ هـ الموافق ١٦ ابريل ١٨٣٩ م .

(٢) دفتر رقم ٧٥٩ ديوان خديوى تركى : ترقيمة المكاتبة رقم ٦٠ بتاريخ ٢٩ جمادى الأخرة سنة ١٢٥٤هـ / الموافق ٢٦ ديسمبر ١٨٣٩م (دار الوثائق القومية بالقلعة).

(٣) Gray, Richard: A History of the Southern Sudan "1839 - 1899" p.

(خير الدين) أمين المعدن فى ٢٧ جمادى الاخرة سنة ١٢٥٤ هـ مصطحبا معهم الالات الصناعية (٤).

- كما أن محمد على عمل فى نفس الوقت على ربط أجزاء السودان بعضها البعض لدفع عجلة التطور فأنفذ خطته بتسيير حملات كشفية فى النيل الأبيض بقصد التوصل إلى منابع النيل وضم أراض ذات امكانيات اقتصادية فى الثروة المعدنية عليها تعود بالنفع على اقتصاديات البلاد (٥).

وتعتبر رحلة "قبطان باشا" فى النيل الأبيض عاملا هاما فى جمع المعلومات التى توصل اليها العلماء والكشاف بعد ذلك بل هى الأساس الذى اعتمد عليه فى كشف الغموض الذى أحاط بمسألة منابع النيل (٦).

وترك بصامته خالدة ومعروفة باسم مصر فى سجل الرواد فى كشف الأقاليم المجهولة والنائية من قارة افريقيا وكيفية الوصول إليها فيما بعد ومعرفة سر منابع ذلك النهر وروافده فى الوقت الذى لم يستطع أحد من الرحالة الرواد الأوروبيين من قبل الوصول إلى ما توصل إليه ابن مصر "سليم قبطان" (٧).

وفى الواقع أن ما قام به محمد على فى السودان عملا من أعمال الإصلاح والتجديد (٨) فقد شهدت الوثائق والكتابات المعاصرة بأن عمليات الكشف كانت علمية وإنسانية بحتة لا تتجاوز الكشف عن منابع النيل وعادات وتقاليد

(٤) محفظة رقم ١٢٣ ملف متفرقات ؛ دوسيه بدون تاريخ ، رجب / شوال سنة ١٢٥٤ هـ الموافق ٢٠ سبتمبر / ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٨ م (دار الوثائق القرمية بالقلعة) (جرنال رحلة محمد على إلى السودان) .

(٥) د. مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل «مصر والسودان فى القرن التاسع عشر ص٣١٤).

(٦) د. فردريك بنولا : مصر والجغرافيا «خلاصة تاريخية عن الأعمال الجغرافية التى انجزتها العائلة المحمدية العلوية بالديار المصرية» ترجمة أحمد زكى ص٢٤ (دار الوثائق القومية بالقلعة) .

(٧) د. نسيم مقار : البكباشى المصرى سليم فيطان والكشف عن منابع النيل ، ص٣٠ .

(٨) د. أنجلو ساماركو: رحلة محمد على إلى السودان ، تعريب طه فوزى ، ص٩ (دار الوثائق القومية بالقلعة) .

الشعوب التى تقطن ضفتيه والعمل على تمدين تلك الشعوب وفتح أقاليم السودان للحضارة والمدنية (٩).

- ومن المستقر عليه أن محمد على كانت تحدوه الرغبة فى كشف هذه البقاع النائية وما تحتويها فإنه كان يطمع فى تخليد فخره واعلاء ذكره بتيسير السبل وتذليل الصعاب أمام الباحثين عن حقيقة القارة الأفريقية، وكان يجارى معاصريه من الأمم الراقية والمتقدمة فى الإجتهاد فى توسيع نطاق المعارف الجغرافية لانهم كانوا مولعين بهذا الأمر الذى خير الأفئدة مشغوفين بما تصل إليه النتائج - لكل هذه الأسباب التى كانت أكبر مؤثر فى ابراز عزمه من القوة إلى الفعل وبرهانا على أنه كان يجب نشر لواء الحضارة والعلم فى تلك الأقطار وأنه كان دائماً يشجع العلماء من الأجانب وغيرهم من الإرساليات التبشيرية بمرافقة الحملات التى كان يبعثها إلى هذه الأقاليم بقصد البحث والاستكشاف (١٠).

ولم يكن الدافع إذن هو الرغبة فى الحصول على المال فى حد ذاته ولكن التغلغل فى قلب افريقيا والوصول إلى منابع النيل وسعيه الجاد فى سبيل تقدم المعلومات الجغرافية والعمل على تمدين تلك الشعوب البربرية. ومما لاشك فيه أن هذه البعثات ستؤدى خدمة جليلة للعلم، وقد بدأ الرحالة الفرنسى «تيبو» الذى شارك فى الرحلة الأولى المرسلة إلى النيل الأبيض، يوميات رحلته بأن سمو والى مصر قد فكر عن أن يعيد فى إرسال بعثة الى النيل الأبيض وأن مسألة إنهاض تلك الشعوب المتوحشة التى تسكن قلب افريقيا وإجابة رغبات أوربا التى تنتظر قرارا منه بالغاء تجارة الرقيق والنخاسة - كل هذه الأفكار كانت تملأ فكر محمد على باشا وتشغل باله لان يجد حلا لمسألة مكافحة تجارة الرقيق والتى فكر فيها من سنوات عديدة (١١).

إلا أن السنوات الأخيرة من حكم محمد على تميزت بالانتكاس، ولم تكن حاجة

---

(٩) د. نسيم مقار : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(١٠) د. فردريك بنولا : المرجع السابق ، ترجمة أحمد زكى ، ص ص ١٢ - ١٣ .

(١١) د. أنجلوا ساماركو: المرجع السابق ، تعريب طه فوزى ، ص ص ٥ - ٦ .

لموارد جديدة أو تصميم لإحراز تقدم مؤكد، فقد كان لتحطيم أسطوله فى موقعه "نافارين" والنفقات الباهظة التى انفقت على الحملات العسكرية فى الشام فى الثلاثينيات أثرها الخطير فى أن معين الموارد المالية المصرية - كما أن معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ قد أجبرته على التخلى عن أملاكه فى آسيا - كما كان لكبر سنه وما اعتراه من ضعف أثره فى عدم استطاعته الحفاظ على قوة اندفاعه وما تميز به من قبل للمبادرة، والتى كانت تعضد وتؤازر برامجه العلمية ومشاريعه الإصلاحية فى أقاليم السودان.

لذا فأن آمال محمد على فى التوسع فى إرسال وتجريد البعثات واستمرار التوغل فى أعماق أفريقيا واحكام السيطرة على تلك المناطق لم تتحقق ازاء ظهور االتأثير والنشاط الأوربى فى السودان الجنوبى سريعا، خاصة أن الروايات التى نقلت عن "تيبو، آرنود، فيرن" الذين صاحبوا "سليم قبطان" فى حملته الكشفية قد أظهرت اهتماما كبيراً فى أوربا - كما أن "جومارو" عالم الأثار المصرية الشهير وعضو الجمعية الجغرافية فى باريس نشر ترجمة لمذكرات "قبطان" وراسل بعض الأوربيين فى "السودان" ونشر رسائلهم فى جمعية "يوليتان" ببرلين بالاضافة لما نشره الاستاذ الجغرافى "كارل رينو" الألمانى سنة ١٨٨٤ من لمحات عن حدود منابع النيل ضمنها النتائج التى توصل إليها كل من "أرفور وفيرن".

- وبالرغم أن محمد على لم يستطع إرسال بعثات كبيرة أخرى إلى النيل الأبيض، فإن حاكم السودان كان يرسل من الخرطوم سنويا من أربع إلى سبع مراكب وكانت تعود محملة بالعاج من القبائل التى تعيش فى تلك المناطق وعلى ضفتى النيل الأبيض وكانت الأرباح التى تعود عليهم ليست كافية لمواجهة أعباء الإدارة فى السودان وما تقوم به من إصلاحات، إلا أنها كانت تزيد من إهتمام القلة من التجار الأجانب فى الخرطوم والذين وجدوا أنفسهم خاضعين لسيطرة حاكم السودان وهذا يتعارض مع أنشطتهم فى تلك الجهات [١٢].

(١٢) Gray, R.: Op Cit, PP. 19-21 .

وقد حذا اسماعيل باشا حذو والده محمد على فقد كرس جهده فى سبيل النهوض بمستقبل السودان الحضارى فى إطار وحدة سياسية واحدة تجمع بين شطرى الوادى إلى أقصى امتداد مقتنعا بمنهاج والده الذى قام بعد تفكك الامبراطورية أثر تسوية سنة ١٨٤٠ / ١٨٤١ أن عظمة مصر الحقيقية فى بداية توسعها فى السودان - وكان نوبار باشا وزير خارجيته ومن المقربين إليه أول من حبذ هذه الفكر على أن تكون مهمة مصر الكبرى وغاياتها الأولى نشر الحضارة فى أفريقيا.

وكان طبيعيا بعد تقلده زمام الأمور فى البلاد أن يواصل فتوحات والده محمد على فى السودان وأن يتجه إلى مد نفوذ الإدارة المصرية إلى حدود السودان الطبيعية فى الشرق والغرب ثم فى الجنوب صوب منابع النيل، وركزا اسماعيل جهوده فى السودان نحو تحقيق الأهداف الأتية :

١- مواصلة الكشف عما كان مجهولا إلى ذلك الوقت من حوض النيل ومنابعه.

٢- التوسع فى أطراف الأقليم الذى اصطلح على تسميته السودان والذى يشمل حوض النيل بأكمله والجهات الشرقية التى تنحصر بين البحر الأحمر والمحيط الهندى وكذلك الجهات الغربية التى تضم اقليمى كردفان ودار فور (١٣).

خاصة وقد ظهرت مشكلة نتيجة لنجاح حملات الكشف التى قام بها "سليم قبطان" فى النيل الأبيض حيث أنها اتاحت الفرصة للمغامرين من التجار للملاحة فيه وتوافد الأوروبيين وغيرهم لمدينة الخرطوم بحجة قيامهم بصيد الفيلة وجمع العاج إلا أنهم تطاولوا وامتدت أيديهم لصيد الرقيق كسلعة رابحة (١٤). فنزحوا للإقامة فى مناطق أعالى النيل حتى (غند كرو) وانشائهم الموقع الحصينة لإقامة وكلاء دائمين لهم بها مع حاميات من العساكر وأطلق على هذه المواقع اسم "الزرائب" والتى يتم فيها تبادل التجارة من العاج والرقيق (١٥).

(١٣) د. محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ، ص ١٧ .
والياس الأيوبي : تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل ، المجلد الثانى ، ص ٧٣ .
(١٤) Shukry , M.F.: The Khedive Ismail and slavery in the Sudan , P. 91.
(١٥) د. محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، ص ١٦٨ .

ونشط هؤلاء التجار فى إنشاء الزرائب والمحطات واتخاذها قواعد انطلاق لحملات مسلحة لاقتناص الرقيق تحت حماية الامتيازات الاجنبية التى تستمتع بها دولهم فى مصر فكانوا يرفعون أعلام دولهم على المراكب والمحطات حتى يحولوا دون تدخل رجال الحكومة المصرية فى السودان على ما يقومون به من أعمال والحد من نشاطهم(١٦).

كما أن إقليم دارفور الذى لم يكن قد تم السيطرة عليه من جانب الإدارة المصرية واخضاعه والذى يعد مستودعاً ومركزاً هاماً من مصادر الرقيق(١٧).

مما دفع الخديوى اسماعيل لاتخاذ كافة الوسائل والإجراءات التى تكفل القضاء نهائيا على تجارة الرقيق بعد أن تعالت صيحات المناهضين والمنادين بتحرير الأرقاء فى أنحاء العالم - فأصدر أوامره إلى حكمدار السودان (موسى حمدى باشا) سنة ١٨٦٣ م بمنع الاتجار فى الرقيق فى السودان واستجابة منه لهذا الأمر فرض ضريبة "الويركو" (١٨). على كل بحارًا أو عامل ممن يعملون على المراكب التى تجوب النيل الأبيض - ولضرورة إحكام السيطرة والرقابة على المراكب القادمة من بحر الغزال وبحر الجبل ونهر السوباط أنشئت مدينة فى موقع استراتيجى عند ملتقى هذه الخطوط الملاحية الثلاث مزودة بحاميات مسلحة قوية فأتخذت (فاشوده) عاصمة لمديرية النيل الأبيض - وتمكن "موسى حمدى" تبعا لهذه الرقابة الصارمة من ضبط سبعين مركبا محملة بالارقاء بين (كاكا) و (فاشوده) فأطلق سراح هؤلاء الأسرى من العبيد وأعادهم إلى قراهم واعتقل التجار المصاحبون لهذه الشحنات، ولم يسمح بالأفراج عنهم إلا بعد أن أخذ عليهم العهود والضمانات بأنهم لن يعودوا إلى ممارسة أعمال النخاسة (١٩).

(١٦) الشاطر بصيل عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر ، ص ١٥٧ .

(١٧) د. شوقى عطا الله الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ .

(١٨) الويركو : رسوم تفرض لقاء السماح بالملاحظة فى النيل الأبيض بقصد التجارة المشروعة .

(١٩) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، الجزء الأول ، ص ١٣٧ .

ولما علم الخديوى بهذه الواقعة أرسل يستفسر من القائم مقام موسى حمدى ويأمره بالدقة فى تطبيق اجراءات ممنوعية تجارة الرقيق حسب نصوص الأوامر الصادرة إليه من قبل فى شأن حظر هذه التجارة ويحذره من استمرارها فى مناطق النيل الأبيض - وطلب اسماعيل من حكمدار السودان تقصى الحقائق والافادة عما إذا كان من بين هؤلاء التجار المقبوض عليهم أجانب أم أن جميعهم من رعايا الحكومة المحلية (٢٠) كما طلب الخديوى من محافظ ضبطية مصر بناء على التحريرات الواردة من الصداره رجوعا إلى الأوامر الصادرة من (ديوان الخديوى) إعطاء تذاكر أو خطابات العتق للجوارى والإماء. الموجودين ضمن الضبطية وأعادتهم إلى بلادهم على أن ترسل صورا من هذه الخطابات ويفاد عن الأسباب التى بنى على أساسها تسليم خطابات العتق (٢١).

وأظهر الخديوى اسماعيل رغبة قوية فى التعاون مع الحكومة الإنجليزية فى إتخاذ أية إجراءات للقضاء على تلك التجارة فى مناطق أعالى النيل الأبيض وتبادل الرسائل مع جناب القنصل الانجليزى فى مصر لاطلاعه على سير الأمور وما توصلت إليه حملات الحكومة المصرية المكثفة لمطاردة قوافل الرقيق فى السودان (٢٢).

ثم ما لبثت الإدارة المصرية فى السودان بمواصلة عمليات المسح الشاملة الشاملة لتطهير مناطق النيل الأبيض من عناصر تجارة الرقيق (٢٣).

كما سعت الحكومة لدى الباب لضم مينائى "سواكن ومصوع" متى تتمكن من السيطرة على المنافذ الرئيسية لتصدير رقيق مناطق أعالى النيل الأبيض وكانت

(٢٠) دفتر ٥٣٠ معية تركى صفحة ٢٥ : ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٧٩ هـ/ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٨٦٢ م (دار الوثائق القومية) .

(٢١) دفتر ٥٣٠ معية تركى صفحة ٢٤: ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٦ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر سنة ١٢٧٩ هـ/ الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٨٦٢م (دار الوثائق القومية) .

(٢٢؛ دفتر ٥٣١ معية تركى ، جـ٢ ، ص٤١ (صادر افادات دواوين وأقاليم) ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١١ بتاريخ ١٦ محرم سنة ١٢٨٠ هـ / الموافق ٢ يوليو سنة ١٨٦٣م (دار الوثائق القومية) .

(٢٣) الشاطر بصيلى عبد الجليل : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

سواكن ومصوع قد دخلتا من قبل ضمن أملاك السودان المصرى فى عهد محمد على [٢٤] لانه رأى ضرورة ضمها للإدارة المصرية لانها المنفذ للسودان على البحر الأحمر وخاصة لاقليم "التاكة" واستئجرها من السلطان مقابل أن يؤدى للخزانة ايجارا شهريا قدره ٢٥,٠٠٠ ألف جنيه وبذلك دخلتا فى ظل الحكم المصرى فى ذلك الوقت [٢٥] منذ أن تأسست مديرية التاكة ولتخفيف الصعوبات الإدارية التى كان يواجهها حكام التاكة وحكمدار السودان [٢٦].

والجدير بالذكر أنه حينما ضمت سواكن ومصوع للإدارة المصرية فى عهد محمد على بعث إبراهيم باشا أثناء تواجده بالسودان تهنئة لوالده بهذه المناسبة وأعلن هذا النبأ السار على من حوله[٢٧] لما لها من قيمة استراتيجية وتجارية فى نظر محمد على بالإضافة إلى موقعها بالنسبة للسودان [٢٨] .

ولكن بعد تسوية ١٨٤٠ بين محمد على والسلطان وتدخل الدول الأوربية فى هذه التسوية عادت كل من (مصوع وسواكن) لما كانت عليه من قبل - ولكن ما لبثت إدارة المينائيين أن عادت فى سنة ١٨٤٨ م مرة أخرى إلى (ايالة جدة) - وتقدم إسماعيل باشا بعد ذلك بمبررات معقولة إلى كل من الدولة العثمانية والدول الأوربية فى طلب ضم مينائى . «سواكن ومصوع» من جديد لمصر بحجة أنه إذا كانت الدول الأوربية جادة فعلاً فى التعاون مع الحكومة المصرية للقضاء على تجارة الرقيق فى السودان فليس أمامها محيص من وضع هذين الثغرين تحت إدارة تستطيع معالجة المسألة بحزم - ولم تتراجع الحكومة الانجليزية إزاء هذه المبررات وتستجيب لمطالب الخديوى - فى الوقت الذى تقدم فيه للدولة العثمانية بنوع آخر من المبررات المعقولة ، فقد أوضح للسلطان مطامع وأهداف

---

(٢٤) د. مكى شبيكة : السودان فى قرن ، ص ص ٨٠ - ٨١ .

(٢٥) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، جـ١ ص ١١٢ .

(٢٦) Hill, R.: Egypt in the Sudan, (1820/1881), P 84.

(٢٧) دفتر ١٤ معية تركى : ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٦٨ بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٣٨هـ/ الموافق ٣ سبتمبرسنة ١٨٢٢ م (دار الوثائق القومية) .

(٢٨) دفتر ٤٠ معية تركى : ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٨٨ بتاريخ ١٥ محرم سنة ١٢٤٥ هـ الموافق ١٧ يوليو سنة ١٨٢٩م (دار الوثائق القومية) .

الدول الأوربيـة فى تلك السـواحل، فهناك مـحاولات مسـتـمـرة للاتفـاق بين نواب القناصل وبين المشايخ المحليين لاستقطابهم بعيداً عن نفوذ الإدارة المصرية والحل الأمثل لتفادى هذه المحاولات هو إحالة المينائين لمصر ، ومصر أقدر على التصدى لما تزمع عليه الدول الأوربيـة من مشـروعـات استعمارية بالإضـافـة إلى أن مصـر تستطيع المحافظة على استقرار الأمن فى هذه الجهات كما أن مصـر مستعدة لأن تؤدى لخزانة السلطان ما تجبيه جمارك هـذين الثغرين بل وأكثر (٢٩) .

وقوبلت مساعى مصـر لدى السلطان لضم المينائين بالنجاح وحصل الخديوى إسمـاعيل على فـرمـان سلطانى سنة ١٨٦٥ باحالة قـائمقـاتى سواكن ومصـوع إلى مصـر وجعلها فى فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الخاص بانتقال سند الولاية المصـرية وملحقاتها إلى أكبر أولاده . ومن هذا إلى أكبر أبنائه وهكذا (٣٠) .

إزاء هـذه الخطوات الفـعـالة التى اتخـذتهـا الحكومـة المصـرية لمحـاصـرة تجـار الرقيق وذلك باحكام قبضتها على موارد ومنافذ تصدير الرقيق - لم يجد هؤلاء النخاسـين بدأ من الانسحاب إلى الداخل نحو الجنوب حول (غندكرو) ونحـو بحـر الجبل وبحر الغزال ونهر السوباط كما لجأ فريق منهم إلى دارفور(٣١) وكانت أوربا بأسـرها تنظر إلى مـا يمارسه تجار النخاسة ومـا يصـاحب تلك التجـارة من قـهـر وقـسوة بعدم اهتـمـام - بالإضـافـة إلى ذلك أن ممثلى حكومـة الولايات المتحـدة الأمريكيـة فى العاصمـة السودانية والاقاليم المحيطة بها كانوا من المحرضين على شيوع النخاسة فى الوقت الذى كان فيـه الرئيس الأمريكى «المستر لنكولن» يدفع بالآلاف من القـوات العـسكرية الأمـريكيـة إلى الولايات الجنوبيـة لـلإشـراف على تنفيذ المشروع الذى أصدره لتحرير العبيد والذى بدأ تطبيقه اعتبـاراً من الأول من يناير سنة ١٨٦٣م (٣٢) .

ولما كانت الجهات التى انسحب إليها تجار الرقيق خارجة عن سلطان الحكومة

(٢٩) د . شوقى عطا الله الجمل) : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٣٠) Sabry, M.: Le Empire Egyptien Sous Ismail, P. 389 .

(٣١) د . مكى شبيكة : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٣٢) بيبركرابيتس : إسماعيل المفترى عليه ، ترجمة فؤاد صروف ، ص ٧٧ .

فى السودان مما ساعد هؤلاء التجار على ازدياد بأسهم واستمرار نشاطهم فى أقاليم النيل العليا[٣٣] رأت الحكومة أنه ليس أمامها لحل هذه المشكلة سوى السيطرة على هذه المناطق وضمها وبدأت فى تكثيف جهودها لضم منطقة بحر الغزال والمناطق المحيطة بها [٣٤] .

ومما زاد من اهتمام الحكومة ما نقله الرحالة والمستكشفون من أخبار سيئة عن أحوال اقليم بحر الغزال والمناطق المجاورة له - من أجل ذلك أمر بتجريد الحملات إليها لتأكيد سيطرة الحكومة فى تلك الاقاليم[٣٥] .

وعليه وقع اختيار (الخديوى) للسير صموئيل بيكر ليتولى مهمة القضاء على تجارة الرقيق ومطاردة المشتغلين بها فى جنوب السودان وأن يحل مكانها التجارة المشروعة وأن يعمل على راحة الأهالى ورفع مستواهم الثقافى والاقتصادى ودرء الخطر الذى يهدد كيان الحكم المصرى فى أعالى النيل [٣٦] .

وقد انتقد البعض اختيار الخديوى لرجل أجنبى لتنفيذ هذه المهمة [٣٧] لكن رغبة من الخديوى فى الاستفادة من «بيكر» شخصياً باعتباره من رواد الكشوف الجغرافية الذين وصلوا إلى منابع النيل سنة ١٨٦٣ وتعرفوا على احوال تلك الجهات ودرسوا حياة شعوبها [٣٨].

كما أن الخديوى كان يرمى من وراء هذا الاختيار أن يرى العالم الخارجى وفى مقدمته انجلترا صدق مصر فى مكافحة تجارة الرقيق وأراد أيضاً إنحيازها لجانبه وتأييد الرأى العام الانجليزى حتى يأمن شرها ومؤامراتها لأنها كانت تتزعم حركة مناهضة تجارة الرقيق فى ذلك الوقت [٣٩] .

(٣٣) الشاطر بصيلى عبد الجليل : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

(٣٤) د. محمد صبرى : المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣٥) Duncan, J.S.R. : The Sudan, Arecord of Achievement, P. 12

(٣٦) دفتر رقم ١٩٣٤ ص ٥ / بيورلدى عالى خديوى ، بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ / الموافق ١٢ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م (دار الوثائق القومية) .

(٣٧) د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص ١٦٨ .

(٣٨) د. جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، ص ٣١ .

(٣٩) د. شوقى عطا الله الجمل : للمرجع السابق ، جـ٢ ، ص ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

لكل هذه المبررات رأى الخديوى أن يحقق رضاء بريطانيا ويزيل جدار الشك باختيار بريطانى مثل «صموئيل بيكر» كقائد لعملية ضم مناطق أعالى النيل الأبيض للممتلكات المصرية ومد النفوذ المصرى إليها (٤٠).

وقد جاء فى نصوص فرمان التكليف «للسير صموئيل بيكر » وتعيينه قائداً للحملة :

نحن خديوى مصر : نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل التى تقطن فى حوض النيل ونظراً لأن النواحى المذكورة ليست بها حكومة ولا قوانين ولا أمن ونظراً إلى نشر التجارة المشروعة في تلك البلاد يكون خطوة فى سبيل تمدينها مستقبلاً ولابد أن يؤدى إلى فتح بحيرات افريقيا الوسطى الاستوائية العظيمة للملاحة التجارية وإلى انشاء حكومة دائمة .

- فقد أمرنا بما هو آت: -

١- تؤلف حملة لاخضاع البلاد الواقعة جنوبى (غندكرو) للحكم المصرى .

٢- إبطال النخاسة .

٣- إحلال تجارة نظامية بدلاً منها .

٤- أن تفتح البحيرات الاستوائية فى وجه الملاحة البحرية بالإضافة إلى إنشاء سلسلة من المحطات العسكرية ومستودعات تجارية فى افريقيا الوسطى وتعتبر (غندكرو) قاعدة للأعمال الحربية .

- وكذلك خوله الخديوى السلطة على جميع البلاد المتعلقة بحوض النيل جنوبى غندكرو(٤١) .

واستطاع بيكر خلال حملته التقدم من غندكرو جنوباً وإقامة نقط على بحر

(٤٠) د. جميل عبيد : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤١) بييركرابتيس : المرجع السابق ، ترجمة فؤاد صروف ، ص ص ٧٠ - ٧٢ .

Baker, S: Ismailia , Vol. I, PP 6-7 .

Budge, E.A. Wallis: The Egyptian Soudan, Vol. II, P. 227.

الجبل وضم مملكة (بتيورو) المتاخمة لبحيرة (الوارت) بعد معركة حامية ضد ملكها (كاياريجا) - ثم أقام حصن (كاتيكو) ليحكم من خلاله بقوة وجوده وفقاً لظروف المملكة الصغيرة التى فتحها وكان نصفها (يشمل وادى النيل) والتى لم تكتشف بعد - ولكنها ظلت مهادنة مدة بقاء (بيكر) فيها - وكان قد وفد على (بيكر) رسل من قبل الملك (امتيس) ملك (اوغندة) المجاورة لمملكة (نبيورد) والواقعة شمالى بحيرة فكتوريا وغربها وعرضوا ولاء ملكهم لمصر ، وتبادل (صموئيل بيكر) الرسائل والهدايا مع الملك (أمتيس) وبفضل ولاء (أمتيس) لمصر فتح الطريق بين أعالى النيل وزنجبار على شاطىء المحيط الهندى (٤٢).

وما لبث (صموئيل بيكر) أن طلب من الخديوى أنهاء عقده لأنه لا يستطيع تجديد العقد من جديد واقترح على إسماعيل باشا أن يخلفه أبن أخيه (صوليان بيكر) فى قيادة الحملة بعد أن اكتسب خبرة واسعة بحكم عمله معى فترة طويلة.

غير أن الخديوى كان حريصاً أشد الحرص فيمن يخلف (صموئيل بيكر) لعظم شأن تلك المهمة ومعللاً ذلك بأنه يأمل فى إنشاء امبراطورية عظيمة فى افريقيا وبالقضاء على تجارة الرقيق فيها ويجعل الراية المصرية تخفق على البحيرات التى تجوب عباب البحيرات الاستوائية - ويعزى إلى (بيكر) الفضل فى حمل الخديوى إسماعيل على التفكير الجاد وفقاً للقواعد التى خلدت شهرة (سيسل رووس) على صفحات التاريخ .

ولا أدل على ذلك من رسائل (صموئيل بيكر) لإسماعيل ففى رسالة بعث من (ماستدى) فى ١٠ مايو سنة ١٨٧٢ وقد تصدرها بهذه الديباجة :

« الدرجة ٣١ ٢٥ من خطوط الطول شرقاً »

« الدرجة ١ ٤٥ من خطوط العرض شمالاً » .

«ومتوسط درجة الحرارة ١٥ بمقياس رومور والارتفاع فوق سطح البحر ٤١٩٤ قدماً انجليزية»

(٤٢) Budge, E.A., Wallis, Ibid, Vol. II 228.

- عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ص ١٢٠ - ١٢١ .

عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ، جـ١ ، ٧٧ .

«والمسافة من بحيرة البرت نيانزا الكبرى عشرون ميلاً - أى مسيرة يوم إلى الغرب والمسافة من الاسماعيلية براً ٣٤٩» - ثم يضمن (بيكر) رسالته للخديوى بالصعوبات التى واجهها والنتائج التى أفضت إليها الحملة في تلك المرحلة قائلاً وأرجو أن تكونوا ياصاحب السمو مرتاحين للعمل الذى قد انجزته فقد كانت العقبات التى اعترضتنى مما يكاد يتعذر التغلب عليه، ولكن الحمد لله قد ذللتها فزال أثر تجارة العبيد من البلاد وأصبح الأهالى يثقون بحكومة سموكم . وسأضع الراية المصرية قبل عودتى في مكان يقع على بعد درجة على الأقل جنوبى خط الاستواء بحيث تمتد حدود مصر جنوباً ٣٢ جنوب الاسكندرية «وذيل رسالته بقوله» ولقد دخل ملك «أوجندة» فى دين الإسلام وبنى جامعا وسأشرع أنا فى بناء مدرسة فى الحال وكان ملك (أوجندة) وثنياً وقد كان وقع هذا الخبر على فؤاد ومسامع الخديوى بأن أحيا ما لديه من آمال جديدة وذلك أن الإسلام قد تغلب وانتصر على الوثنية فى تلك الجهات النائية وأن العلم والرقى يسير قدماً نحو محو الأمية ، وهذا مبلغ ما كان يتمناه الخديوى فى أن تفتح افريقيا الوسطى للعلم والتجارة المشروعة والحضارة (٤٣) .

وقبل مغادرته مصر عائداً إلى بلاده بعد المهمة التى قامت من أجلها حملته والتى توصلت إلي نتائج حاسمة منحه الخديوى النيشان العثمانى من الطبقة الثانية مكافأة له على ما قام به من خدمات (٤٤) .

وخلفه للاستمرار فى الوعد الذى قطعه الخديوى على نفسه (شارل جورج غوردون) وبعد أن أصدر الخديوى مرسوم التكليف تلقى من صديقه «غوردون» أنه يقره على مشروعات امتداد التوسع المصرى إلى البحيرات الكبرى فى وسط افريقيا واتفقا على قيام «غوردون» بتنفيذ التوسعات التي أملاها الخديوى عليه بإنشاء سلسلة من المحطات العسكرية على النيل الأبيض ابتداء من (غندكرو) حتى منابع النيل فى (أوغندة) مع ضم (أوغندة) للممتلكات المصرية مع اطلاق

(٤٣) بيركراميتس : المرجع السابق ، ترجمة فؤاد صروف ، ص ص ٩٦ - ٩٩ ،
Moorehead, Alan: The White Nile, PP 160-161.

(٤٤) عمر طوسون : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

البواخر التى كان (الكولونيل بيكر) قد أعدها لحملته للملاحة فى بحيرتى (البرت تيانزا) و(فيكتوريا) بالإضافة إلى قيام (غوردون) بمكافحة تجارة الرقيق والنخاسة والقضاء عليها فى أوكارها فى مديرية خط الاستواء وهذا هو أهم بنود الاتفاق .

وكان من بين من وقع اختيار (غوردون) لمصاحبة حملته عدداً من الباحثين من علماء الطبيعة والنباتات وأصول الأجناس وطبقات الأرض والذين استهوتهم الرحلة عبر القارة الافريقية سعياً وراء اكتشافات أملا فى فتح آفاق جديدة للعلم بالإضافة إلى بعض الاتراك والمصريين ومن السودانيين أنفسهم ومنهم ضباط ورجال للحملة (٤٥) .

وبالفعل بدأ «غوردون» فى تنظيم المديرية الاستوائية بعد وصول إليها ، فشرع فى تحقيق أهداف مصر بنشر المواقع والمحطات المدنية والعسكرية لتوفير الأمن وتحقيق ونشر الاشعاع الحضارى - فانشأ محطة «السوباط» التى تعد أهم ما قامت به الحكومة فى سبيل توطين الأهالى فى تلك المنطقة - وعملت على تدريبهم على وسائل الزراعة لإنتاج المحاصيل للتغلب على المجاعات التى كانت تهددهم .

كذلك تولت المحطة الثانية التى اقامها «غوردون» وهى محطة «شابية» مهمة تعليم الأهالى اسلوب وطريقة زراعة محصول الذرة فى الأراضى المحيطة بهذه المحطة (٤٦) .

وبذلك كانت اقامة تلك المحطات بمثابة مراكز تعليمية ثقافية للأهالى ، كما كانت بالإضافة إلى ذلك دافعاً وحافزا لإغراء الأهالى على الاستقرار والتوطن وتقبل الأساليب الحضارية وتطبيقها فى حياتهم اليومية - واستمر «غوردون» فى إقامة المحطات فأنشأ سلسلة من المحطات هى (يوردو - والرجاف - وفيلى كالابورى ، لاتوكا ، مكراكا ، برن، كرى بوجى) كما نقل عاصمة المديرية الاستوائية

---

(٤٥) Moorkhedd, Alan, Op Cit, PP. 171-173 .

(٤٦) Allen, B.M. : Gordan and the Sudan, P 22.

من (غندكرو) إلى (لادو) لمتعها بمناخ صحى وبخصوبة تربتها وتوافر الاخشاب اللازمة لأغراض الحملة من الغابات المحيطة بالعاصمة الجديدة (٤٧) .

وقد شهد أرنست لينان «بمدى التقدم الذى بلغته تلك المحطات والمناطق المجاورة لها حيث تعلم الأهالى أساليب زراعة المحاصيل والتى لم يكونوا على دراية بزراعتها من قبل ، مثل البامية والملوخية والبصل والطماطم والفلفل واللفت ، كما أشار «ليثان» إلى المجهودات التى يبذلها رجال المحطات فى سبيل ارشاد وتوعية الأهالى وأسرهم على الاستقرار واشتغالهم بزراعة الأراضى والمحاصيل التى تعود عليهم بأجل المنافع مما ساعد على التبادل وانتقال الحضارة من محطة إلى المناطق المجاورة (٤٨) .

وبدأت تسود حالة من الاستقرار على امتداد النيل الأبيض إلى ما بعد مساقط «فولا» حتى «غندكرو» وعبر السدود «النباتية» وصحراء الخرطوم إلى الحدود المصرية وفى شرق النيل إلى البحر الأحمر وغربه «دارفور».

وكان لإقامة المراكز والمحطات ان نشطت حركة التجارة على طول الطرق وعمل الحكام والمديرون على راحة الأهالى دون تجدد المعارك بين جنود الحكومة والأهالى (٤٩) .

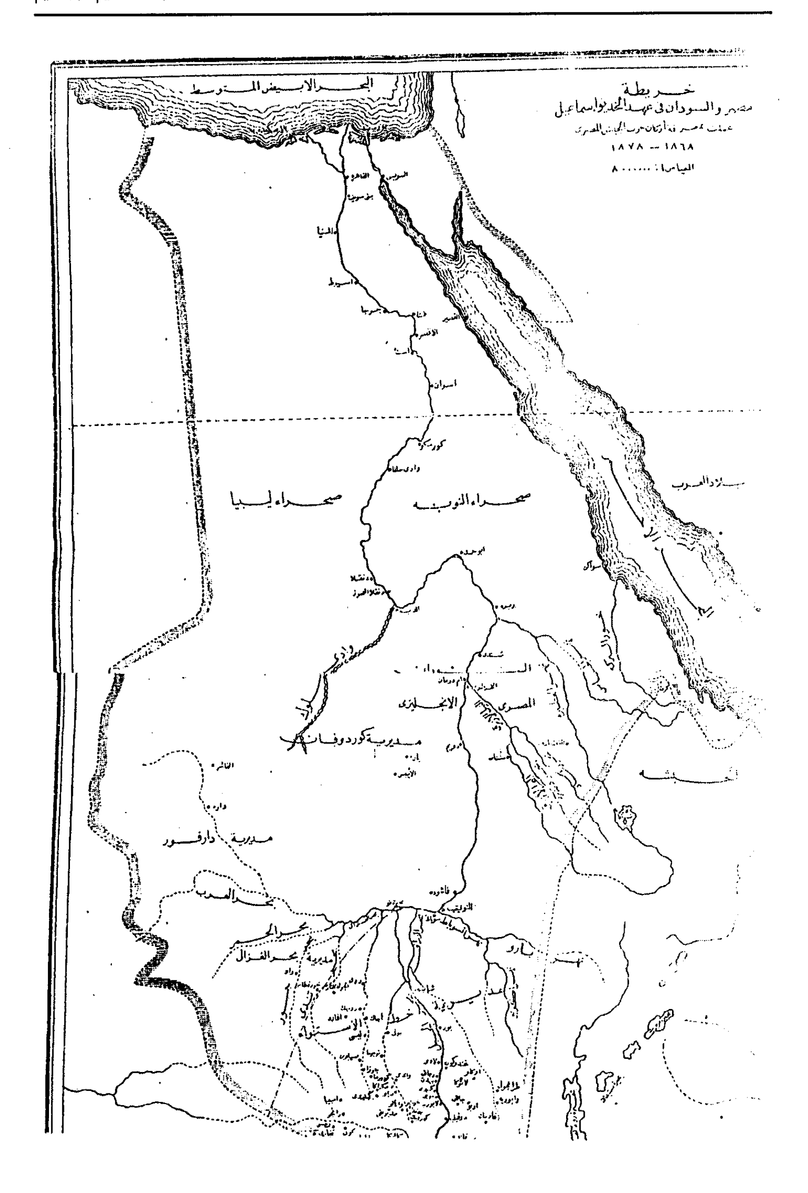
من هذا البحث يتبين البون الشاسع بين ما قامت به مصر من جهود وما بذلته من تضحيات لاقتحام ميدان الكشف الجغرافى بقصد خدمة العلم والإنسانية والكشوف التى قام بها الرحالة الأوربيون وكتاباتهم التى تحض على الاستعمار والاستغلال .

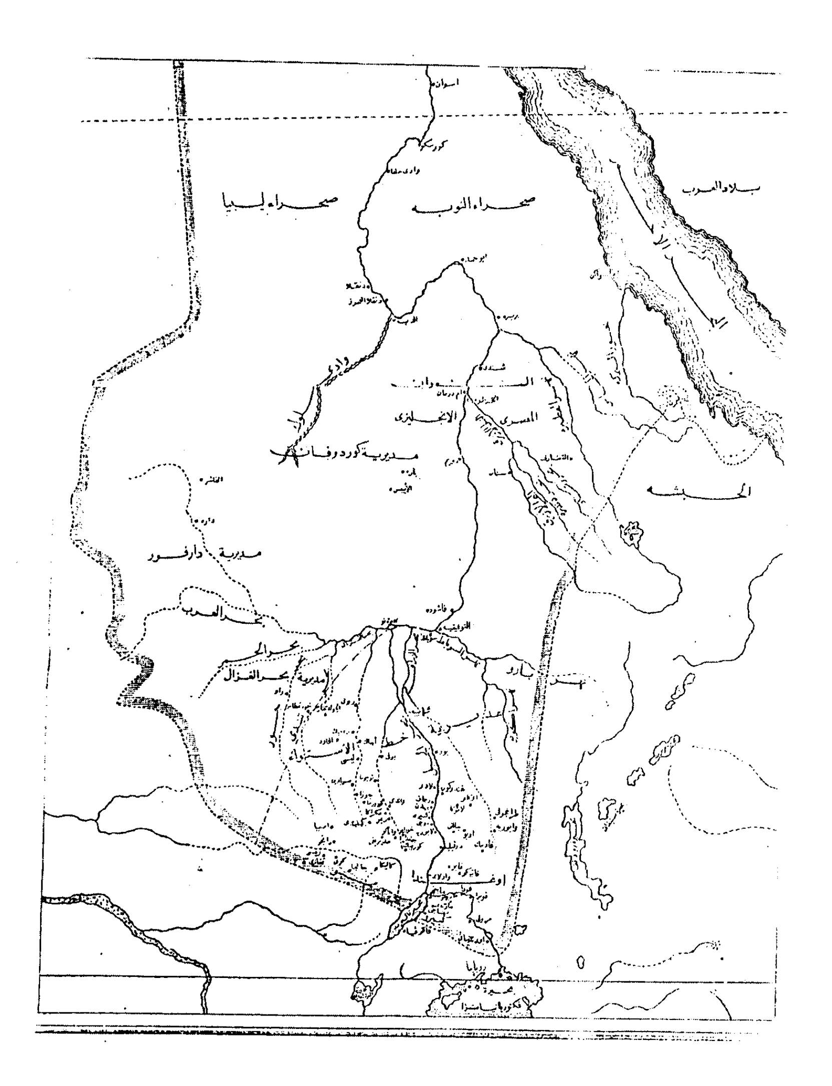
---

(٤٧) ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، جـ٢ ، ٢٩ ،
Gesi, R.: Seven years in the Sudan, P 88.

(٤٨) د. جميل عبيد: المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٤٩) Moorehead, Alan, Op Cit, PP. 180 - 181 .


خريطة
مصر والسودان في عهد الخديو اسماعيل
عملت بمصر في أركان حرب الجيش المصري
١٨٦٨ — ١٨٧٨
البحر الابيض المتوسط
صحراء ليبيا
صحراء النوبة
مديرية كردوفان
مديرية دارفور
بحر الغزال
الحبشة


اسوان
صحراء ليبيا
صحراء النوبه
بلاد العرب
الانجليزى
المصرى
مديرية كوردوفان
الحبشه
مديرية دارفور
بحر العرب
مديرية بحر الغزال
اوغندا
بحيرة فكتوريا

مصادر ومراجع البحث العربية والافرنجية

أولاً: ثبت المصادر الأصلية

من قسم المحفوظات التاريخية بدار الوثائق القومية بالقلعة ومترجمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية وموجودة فى الدفاتر والمحافظ الآتية :

(أ) وثائق أصلية:

١- دفاتر الأوامر : تحتوى على الأوامر الصادرة الى الجهات بعضها بالعربى والبعض الاخر بالتركى.

٢- دفاتر عابدين : (وارد تلغرافات) بها صور التلغرافات الواردة للمعية السنية.

٣- دفاتر عابدين: (صادر تلغرافات) بها صور التلغرافات المرسلة من المعية.

٤- محافظ سايره : جمعت فيها أشياء مختلفة من الأقاليم السودانية.

٥- محافظ السودان: احدى عشرة محفظة جمع فيها ما أمكن جمعه من السودان منذ شملته الإدارة المصرية وهو مأخوذ من الدفاتر والسجلات المختلفة.

٦- مجموعة الفرمانات: تحتوى على الفرمانات التركية الصادرة لولاة مصر الشاهانية.

٧- وثائق: جرنال رحلة محمد على للسودان.

٨- الخرائط : تبين خط سير الحملات الكشفية لحوض النيل - وأخرى توضح أقصى ما وصلت إليه جدد الامبراطورية المصرية من إشباع وعهد الخديوى .

ثانياً: المراجع العربية والمعربة

١- ابراهيم فوزى: السودان بين يدى غوردون وكتشيز جزءان (القاهرة ١٣١٩ هـ).

٢- الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٥٥).

٣- الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ سودان وادى النيل الجزء الثانى (القاهرة ١٩٧٢).

٤- الياس الايوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا ١٨٦٣ / ١٨٧٩ جزءان (القاهرة ١٩٢٣).

٥- أنجلو ساماركو : رحلة محمد على السودان - عربة من الإيطالية طه فوزى (القاهرة).

٦- بيركرا بيتس : إسماعيل المفترى عليه - ترجمة فؤاد صروف (القاهرة ١٩٣٧).

٧- جميل عبيد : مديرية خط الإستواء المصرية (القاهر ١٩٦٨).

٨- د. شوقى عطا الله الجمل: تاريخ سودان وادى النيل - حضارته وعلاقاته بمصر منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر جزءان (القاهرة ١٩٦٩).

٩- عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل - الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٢).

١٠ - عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء المصرية من فتحها الى ضياعها من "١٨٦٩ - ١٨٨٩" ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٢٧).

١١- د. فرد ريك بنولا: مصر والجغرافيا - ترجمة أحمد تركى (القاهرة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م).

١٢ - د. مصر صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٤٨).

١٣- د. محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ / ١٨٨٥م (القاهرة ١٩٤٧).

١٤ - د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون (القاهرة ١٩٦٤)

١٥ - د. مكى شبيكة : السودان فى قرن (١٨١٩ / ١٩١٩) القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م).

١٦- د. مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل مصر والسودان فى القرن التاسع عشر (بيروت ١٩٦٥).

١٧- د. نسيم مقار: البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (القاهرة ١٩٦٠).

ثالثاً : المراجع الافرنجية :

1- Auen, B.H. : Gordon and the Sudan (1931) .

2- Baker, S.W.: Ismailia, Anarrative of Expedition, 2 vds (London 1974).

3- Badge, E.A.: Wallis: The Egyptian Sudan, its History and Monuments, 2 vds London 1907).

4- Dunoan D.S.R.: The Sudan, Arecard of Achievement (1952).

5- Gessi, Romalo: Seven years in the Sudan (London 1892).

6- Gray, R.: A History of the Southern Sudan "1839/1899". (Oxford University 1961).

7- Hiu, R.: Egypt in the Sudan, "1820 - 1881" (London , 1963).

8- Moorehead2 Alan: The wite Nile (London, 1963).

9- Sabry, N. Le Empire Egyptian sous Ismail, (Paris, 1933).

10- Shukry, M.F.: The Khedive Ismail and Slovery in the Sudan (Cairo, 1937).

جامعة القـاهـرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ١٦١ - ١٨١

المطامع البلجيكية فى منابع النيل
١٨٨١ - ١٨٩٩

د. فوزى درويش

شهدت منطقة تقسيم مياه النيل والكونغو فى الفترة (١٨٨١ - ١٨٩٩) احداثا متشابكة ولم ينفصل تاريخ منابع النيل عن تاريخ منابع الكونغو. ولقد يتبادر إلي الذهن أن عملاقى المنافسة على هذه المنطقة هى انجلترا وفرنسا فحسب إلا ان البلجيك بزعامة الملك ليوبولد الثانى لعبوا دورا بارزا فى ذلك الصراع وكانت للبلجيكيين مطامع ثابتة فى منابع النيل بل كان جنوب السودان بكامله يدخل ضمن مخططاتهم. فحارب الملك ليوبولد رجال الثور المهدية عند منابع النيل استرضاء لبريطانيا التى منحته حق استئجار مناطق من وادى النيل الأعلى بمقتضى معاهدة مايو ١٨٩٤ وجعلت من وجوده عقبه أمام تغلل الفرنسيين نحو منابع النيل ثم بعد استرداد السودان قلبت له ظهر المجن واخذت تتحلل رويدا رويدا من تعهداتها له وتعمل علي تقليص وجوده، ثم عملت فرنسا على الا يتزايد نفوذ البلجيك عما حصلوا عليه كنقط ارتكاز فى جيب لادو على النيل وحرمته من السيطر علي منطقة بحر الغزال لينفسح لها الطريق نحو منابع النيل وذلك عن طريق معاهدة ١٤ أغسطس ١٨٩٤ .

ويشتمل بحثنا هذا على سبعة نقاط رئيسية هى :

اولا : مقدمة توضح كيف تواجد الملك ليوبولد ورجاله من حكام دولة الكونغو الحرة فى الكونغو ثم منابع النيل.

ثانيا: مطامع البلجيك فى منابع النيل.

ثالثا : الحملات التى وجهها الملك ليوبولد إلي المنطق.

رابعـاً : قيام الملك بمحاربة رجال الثور المهدية.

خامساً : ابرام المعاهدة البريطانية البلجيكية فى مايو ١٨٩٤ .

سادساً: الضغط الفرنسى على الملك ليوبولد حتي لا يمتد نفوذه إلى منطقة بحر الغزال، وإبرام معاهدة ١٤ أغسطس ١٨٩٤ فى هذا الشأن.

سابعاً: الموقف البلجيكى أثناء أزمة فاشوده وبعدها.

مقدمــة :

أولا: كيف وصل البلجيكيون إلى المنطقة:

تحولت ظاهرة اقتسام الدول الأورُبية للقارة الافريقية إلى ظاهرة التهافت الإستعمارى بصورة مفاجئة لم تستغرق أكثر من عقدين من الزمن وفى تفسير ذلك نقول أن الأوضاع بالنسبة للقارة الأفريقية مرت بفترة ثبات (١٨١٥ - ١٨٨٠) وذلك فيما يتعلق بقيام الاوربُيين باقتطاع أجزاء من القارة هذا اذا اغفلنا طرفيها الشمالى والجنوبى.

غير أن هذا الثبات النسبى انهار بعد عام ١٨٨٠ بصور مفاجئة للغاية وفى هذا الصدد نود أن نشير إلى العناصر التى سببت هذا الثبات الناتج من التوازن بين القوى الكبرى فى الفترة المذكورة ثم كيف كان غياب عناصر التوازن سبباً فى هذا التهافت المفاجئ وكانت عناصر التوازن تتمثل فى الآتى:

(أ) تقلد بريطانيا دور الزعامة البحرية خلال تلك الفترة ولم يكن ينافسها أى أسطول بحرى.

(ب) عدم إهتمام الدول الكبرى باستئثار بريطانيا وفرنسا بالقارة الأفريقية خلال تلك الفترة.

(جـ) وجود صيغة للتعايش البريطانى الفرنسى بصفة مؤقتة وهذه الفترة امتدت من ١٨٤٥ - ١٨٧٥ .

فبالنسبة للزعامة البحرية البريطانية التى كانت تسمى (Empire Unofficial) فانها كانت - أى الزعامة بديلا عن الاحتلال الفعلى للأراضى التى وقعت تحت النفوذ البريطانى لما كانت تعتقده بريطانيا بأن الإحتلال يكلفها مصاريف ادارية من الممكن أن تتحاشاها.

أما بالنسبة لعدم اكتراث الدول كثيرا باستثناء انجلترا وفرنسا فينهض شاهدا على ذلك ما قاله الوزير البريطانى لدى لشبونة السير روبرت موريير عام ١٨٧٧ أن هناك أربع ملاك كبار فى افريقيا هم البرتغال ومصر وزنجبار ونحن "دون ذكر فرنسا التى لم يكن لها آنذاك من ممتلكات سوى الجزائر وبعض المواقع الأخرى غير ذات الأهمية.

وأما بالنسبة لصيغة التعايش المؤقة (Modus Vivendi) فى فترة ما قبل اختلال التوازن فان جيزوت رئيس وزراء فرنسا كان يتبنى سياسة الوفاق البريطانى الفرنسى مما حال دون تحفز ضباط البحرية الفرنسية نحو التوسع الإستعمارى تعويضا عن ضياع الهند ، مما ساعد بالتالى على بقاء عناصر التوازن المشار إليها.

ولكن حرب ١٨٧٠ بين فرنسا والمانيا ايقظت البرجوازية الفرنسية التى طالما نادت بانتصار حقوق الإنسان وسيادة مبادئ المساواة اذا اكتشفت هذه البرجوازية أن القوة يمكن أن تسود على الحق فلم تقبل فرنسا بهزيمتها ووجدت فى فرض حضارتها فيما وراء البحار متنفسا لهزيمتها ريثما يأتى وقت الانتقام. وكان هذا هو السبب الذى دعا البرلمان الفرنسى للتصويت بالموافق على الإعتمادات التى خصصت للتوسع الإستعمارى الفرنسى. ومالت الكفة نحو أهداف رجال البحرية الفرنسية [١].

وقد أشرنا إلى أن بريطانيا اتخذت لنفسها مبدأ التفوق فى النفوذ (Paramountcy) من ١٨٧٥ - ١٨٧٨ دون الإحتلال الفعلى إلا أنه بحلول عام ١٨٨٢ كان هذا العنصر من عناصر الموازنة قد اعتراه الخلل وأصبح مجموع سفن الاسطولين الفرنسى والألمانى يضارع ما لدى بريطانيا منها، ثم فى غضون المدة ١٨٨٤ - ١٨٨٥ صارت فرنسا بمفردها تضارع بريطانيا فى بناء وحيازة السفن الحربية.

وظل الأمر مستقرا حتى نهاية ١٨٨٢ فلم تحدث قلاقل تتعلق بضم اجزاء من أفريقيا المدارية إلا فى أربعة مناطق على وجه التحديد هى:

مدغشقر وظهير السنغال حيث لم ينازع فرنسا أى منازع هناك كما أن سياسة جوريجيرى كانت تعارض سياسة ضم الأراضى وعلى الساحل الغربى كانت المنافسة البريطانية الفرنسية مفاجئة وحادة لكنها كانت على نطاق ضيق فقد عمدت بريطانيا إلى استعمار كل من جامبيا وساحل الذهب وسيراليون لكنها كانت بمثابة جيوب صغيرة فى هذا الخضم الواسع من منطقة النفوذ الفرنسية ولم تتمكن بريطانيا أن تتوسع سوى فى نيجيريا [٢].

---

(١) Brunschwig, H. L'avenenment de l'Afrique Noire du XIX a nos P. 172 .

غير أن التوازن قد انهار انهيارا كاملا بدخول المانيا على وجه التحديد حلبة التنافس الافريقى وبدأت سياسة التقارب مع فرنسا عام ١٨٧٤ الأمر الذى أنهى اسلوب ماسمى بالحوار الثنائى بين بريطانيا وفرنسا دون سواهما وبذلك دخل عنصر ثالث هو المانيا سوف يكون له أثار بعيد المدى على التنافس فى القارة ككل وعلى تمكين الملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك من إنشاء وحيازة دولة الكونغو الحرة لحسابه ومن خلال التقارب الالمانى الفرنسى تمت الدعوة لمؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ من جانب بسمارك.

لقد كان عداء بسمارك لانجلترا فى الفترة من ١٨٨٤ - ١٨٨٥ نتيجة مباشرة للعمل الاستفزازى الذى قامت به بريطانيا بالوقوف فى وجه طلب بسمارك المتواضع للحصول على مجال لنفوذه فى منطقة جنوب غرب افريقيا. وفى نفس الوقت حدث تطور فى سياسة بسمارك سواء بالنسبة لاقليم جنوب غرب افريقيا أو أى مكان أخر فى القارة .. هذا التطور تمثل فى محاولته إحراج بريطانيا بوضع قواعد للضم المباشر للأراضى ليحرم بريطانيا من سياستها التى تستعيض عن الاحتلال المباشر بحيازة مناطق للنفوذ.

لذلك أتى رد فعل بسمارك بمهاجمة بريطانيا فى ابرز نقاط ضعفها وهو ضرب بالمعاهدة البريطانية - البرتغالية لعام ١٨٨٤ حول مصب نهر الكونغو فى أم رأسها ولم يكن سعى بسمارك إلا لتحطيم اسطورة الامبراطورية "غير الرسمى" البريطانية عن طريق عقد اتفاقية دولية (هى مؤتمر برلين فيما بعد) بهدف تكريس الإحتلال الفعلى.

وكانت البرتغال تدعى سيادتها على الكونغو على أسس تاريخية استنادا إلى أن المستكشف البرتغالى دييجو كام (Diego Cam) كان أول من استكشف الكونغو منذ ٤٠٠ سنة وساندتهم بريطانيا أول الأمر بإعتبار أن البرتغال دولة صغرى تقع ضمن سيطر بريطانيا [٣].

(٢) Wallbank, W.: Contemporary Africa P. 32.

(٣) Hobley , L. : Opening Africa, P. 41.

وكانت فرنسا تعارض دوما ادعاءات البرتغاليين فى الكونغو لكن الصراع تفجر بين فرنسا وبين مشروعات بلجيكا ممثله فى "لجنة دراسات أعالى الكونغو" التى انشأها الملك ليوبولد الثانى لتكون صيغة خاصة له فى حقيقة الأمر ولكن ما لبست أن توصلت فرنسا إلى صيغة للتعايش بينها وبينه فى أكتوبر ١٨٨١ .

عادت بريطانيا تحت الضغط الداخلى تعارض المعاهدة البريطانى البرتغالية (١٨٨٤) فلم يصدق عليها مجلس العموم وفى نفس الوقت انبرت المانيا هى الاخرى لمعارضة المعاهدة وكان الدافع لهذه المعارضة عدم موافقة المانيا على أن يخضع ساحل له مثل هذه الأهمية لسيطرة البرتغال الأمر الذى دعا المستشار الألمانى فى ١٨ ، ١٩ أبريل ١٨٨٤ لتوجيه الدعوة إلى كل من حكومة لشبونة ولندن وفرنسا لكى تنضم اليه لتذليل هذه الصعوبات عن طريق اتفاقية عامة.

هكذا تلاقت وجهتا النظر الألمانية الفرنسية بالنسبة لمناهضة المعاهدة - البرتغالية - البريطانية بالنسبة للكونغو فألمانيا كانت تقصد احراج بريطانيا وإرغامها على الإحتلال الفعلى للأرض وفرنسا كانت تنقم على بريطانيا اخراجها من مصر واحتلالها منفردة وعلى هذا لم يهدأ لها بال حتى تتغلغل إلى منابع النيل لمضايقة انجلترا. والمهم أن مؤتمر برلين انعقد لكى يسفر عن وضع الشرعية الدولية لدولة الكونغو الحرة التى أنشأها الملك ليوبولد بمباركة بسمارك حتى كان بسمارك يود لو سيطر على منطقة وسط افريقيا دولة ضعيفة مثل بلجيكا، وعمد الملك ليوبولد الى توقيع معاهدة "شفعة" مع فرنسا عام ١٨٩٤ تتضمن تنازله عن كافة أراضيه التى استولى عليها فى الكونغو لفرنسا فى حالة التخلى عن مشروعه وكانت فرنسا تشك فى إمكانية نجاح مشروع ليوبولد ومن ثم تشترى منه هذا الحق. بقيت بريطانيا التى وجدت نفسها منعزلة فسلمت لملك البلجيك بالاستيلاء على الكونغو وسيطرته الكاملة عليها وبذلك ترسخت اقدام الملك ليوبولد فى حوض الكونغو وجاء مؤتمر برلين ليضفى الشرعية على هذا الوضع

ثانياً: مطامع البلجيك فى منابع النيل

كان الملك ليوبولد بعد أن توطدت أقدامه فى وسط القارة وإكتساب الشرعية من جانب الدول المشارك فى مؤتمر برلين يضع لنفسه استراتيجية محددة تمتد على ثلاثة مراحل زمنية تمثلت فيما يلى:

١- ابادة العرب (عرب الكونغو الذين كان لهم دولة مستقرة وصلت إلى أعماق الكونغو) وإزاحتهم عن طريقه.

٢- غزو السودان الجنوبى (تأمينا لوضعه فى منابع الكونغو).

٣- تحويل ثروات حوض الكونغو وسكانه إلى مقاطعة خاصة به (٤).

وترجع أهمية القضاء على قوة العرب بالنسبة للبلجيك إلى تحقيق هدف مزدوج من حيث اضفاء شهرة على الملك ليوبولد كرجل ذى نوازع انسانية يتجاوز بها سمعة الفارس البلجيكى جود فروادى بويون بطل الحرب الصليبية بالإضافة إلى أن ذلك سيمكنه من السيطرة على أسواق العاج التى كانت يمتلكها عرب الكونغو. أما أطماع الملك ليوبولد - وهى صلب بحثنا هذا فإن الحملة التى قادها الرحالة المستكشف ستانلى (رجل الملك ليوبولد) لانقاذ أمين باشا مدير المديرية الإستوائية التابعة لحكم الخديوى قد ايقظت لدى الملك البلجيكى أحلامه القديمة فعمد إلى تغيير مسارها لكى تمر فى الكونغو بدلا مما كان مقدار أن تأخذ الطريق التقليدى من المحيط الهندى، ويرجع اهتمام الملك بهذه المناطق من منابع النيل الى عام ١٨٥٢ غداة اتمام مراسم زواجه حيث صعد إلى النيل ورأى القاهرة ومعابد الكرنك والأقصر علاوة على أنه بعد إنقضاء تسع سنوات من ذلك التاريخ عاد إلى مصر واندفع متبعا نهر النيل حتى وأدى حلفاء، ولقد كانت أعمال قناة السويس فى تلك الآونة وصداقته الحميمة مع ديلسبس والشعور بالعظمة وشغفه بالآثار كل ذلك ترك بصمات واضحة على تفكيره بصورة عميقة (٥)

ويصف ووترز (Wauters) مخططات الملك ليوبولد فى مقالة له بعنوان "Belgique coloniale" فى مارس ١٨٩٧ "بأن أفضل السبل لحل مشكلة مصر المعقدة هى إيجاد حل لوادى النيل باعتباره أرضا دولية مباحة ... وأن يهجر الفرنسيون وادى النيل الأوسط الذين استقروا فيه منذ زمن قصير، لذا يقتضى تحييد هذا النهر الأفريقى وأن يفتح للجميع ليوضع فى نهاية المطاف تحت

(٤) Morel E.D.: Red Rubber, The Story of Rubber-Slave. on the Congo. P. 28.

(٥) Cornevin. R. : Historire de Congo le P. 140.

حراسة وحماية قوة افريقية ثالثة، وأن المرء لن يجد قوة مؤهلة لهذا الدور كتلك التى خياها الجميع فى مؤتمر برلين باعتبارها حامية حمى العمل الحضارى - الا وهى دولة الكونغو المستقلة" (٦) اذن فقد أصبح حل النزاع بين فرنسا وبريطانيا بشأن مصر بتحييد النيل وجعل تحت سيطرة قوة ثالثة هى دولة الكونغو الحرة والمستقلة وبإشراف الملك ليوبولد بطبيعة الحال أمراً وارداً.

ثالثاً: حملات الملك ليوبولد فى منابع النيل:

يجدر الإشارة إلى أن البلجيكيين كانوا لتحقيق اطماعهم فى مديريتى خط الإستواء وبحر الغزال قد تجاوزوا الحدود التى رسمتها اتفاقية مؤتمر برلين ١٨٨٥ ثم عمدوا إلى ابرام معاهدة مع فرنسا فى ١٩ أبريل ١٨٨٧ وأرسلوا حملة بقيادة فان كيركهوفن - ملز (Van Kerck- Hoven Mils) مؤلفة من ٥٠٠ رجل تمركزت فى ليوبولد فيل (كينشاسا الحالية) وتم تجهيز ٥٠٠٠ صندوق من الشحنات تحتوى على عدد من السفن القابلة للحل والتجميع وكانت هذه الحملة أقوى تم إعدادها فى الكونغو ووصلت نهر أويلى فى منتصف عام ١٨٩١ . وقام كهركهوفن بتشييد مركز أمادى (Amadi) ومحطة نيانجارا (Niangara) عند تلاقى فرع النهر جادا بنهر اويلى ثم أقام مركزا بلبجيكيا أخر عند بيتيما (Bittima) واثر وفاة كيركهوفن فجأة فى ١٧ أغسطس ١٨٩٢ قام مبليز شريكه فى قيادة الحملة بالإندفاع حتى واد لاى على النيل وذلك فى سبتمبر ١٨٩١ وبعد أن صعد ميلز فى النيل حتى دوفيليه (Doufilé) اتخذ طريق للعودة وشيد عدة مراكز جديدة فى كل من جاندا وفردا جى (Faradje) ودنجو (Doungu) (٧).

رابعاً: الملك ليوبولد و محاولة الثورة المهدية

وتمشيا مع سياسة دولة الكونغو الحرة أو بمعنى أصح سياسة ملك البلچيك الرامية لبسط النفوذ البلچيكى على منطقة منابع النيل فقد وقع على عاتقه مهمة مقاومة رجال الثورة المهدية ومنع استفحال نفوذها ودحرها ومن قام بتجريد عدة حملات عسكرية لتحقيق هذا الهدف. وكانت حملة دى لانج (Delange) من أشهر

(٦) Wauters A.G.: Historire Politique du Congo-Belge. P. 152 .

(٧) Cornevin, R.: Ibid. P. 143 .

هذه الحملات من حيث أنها حرمت رجال الثورة المهدية من عمقها الاستراتيجى صوب الجنوب وكان دى لانج قد خلف ميلز فى نهاية عام ١٨٨١ وشرع الكابتن دى لانج فى القيام بحملة منظمة نحو النيل الأعلى. وانطلاقا من دنجو اقام عدة مراكز على نهر النيل هى الرجاف وكيرى (Kiri) ولابوريه، وفورت ليوبولد الثانى، ودوفلييه إلى أن ظهرت مصاعب اثارتها القوات المصرية فى تلك المناطق سببها أن رجال المهدية الذين كانوا قد تمت مطاردتهم من الأراضى المحاصرة فى لاد وقد عادوا مرة أخرى عن طريق النيل الأمر الذى أرغم قوات دولة الكونغو الحرة على الإنسحاب مرة أخرى إلى دنجو وفى نفس الوقت كانت جماعات عمر صالح متزعمة جماعات المهدية تقوم بالاغارة على لادو متجهة ناحية نهر اويلى (أحد فروع الكونغو الأعلى) لذلك عمد دى لانج إلى التحصن فى قلعة موندو، واشتبك مع دراويش المهدية فى ١٨ مارس ١٨٩٤ فى معركة طاحنة أمكن له فيها صدهم عن وجهتهم بعد أن كبدهم خسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات (٨).

أن دور البلجيك لم يقتصر فقط على تحطيم رجال المهدية فى هذه الموقعة اذ بعد بضعة أسابيع قليلة شرعت فصيلة أخرى بقيادة الضابط البلچيكى بونفاليت ديفوس (Bonvallet Devos) فى بناء مركز عند طيوره (Tamboura) على نهر مبومو (إحدى فروع نهر الكونغو) بالقرب من منابع النيل، لكن قبائل الازاندى شديدة المراس بقيادة شيخهم بيلى هددت المركز، فلجأ دى لانج إلى إعداد فصيلتين مسلحتين لشن غارتين على سلطنتى رونزى (Ronzi) وبيلى (Billi) لكن هاتين الفصيلتين لم تتمكنا من صد رجال الثورة المهدية التى أخذت فى التمركز فى إحدى الزرائب الموجودة فى منطقة أكا (Akka) ودخل البلجيكيون فى معركة رهيبة مع رجال المهدية فى ديسمبر لاذ بعدها رجال المهدية بالفرار تاركين أعالى نهر أويلى متجهين مرة أخرى نحو لادو والرجاف على النيل فى الوقت الذى استسلم فيه رونزى للبلجيك هذا الجهد اذن من ناحية الملك ليوبولد لدحر المهدية كان يدخل فى مخططه للاستيلاء على أعالى النيل فى الوقت الذى كانت فيه مصر قد انسحبت من السودان بايعاز من حكومة بريطانيا للتركيز على الدفاع عن مصر شمالى وادى حلفا (٩).

(٨) Cornevin, R.: Ibid. P. 144.

(٩) Ingham, K.: Europe and Africa, P. 199.

خامساً المعاهدة البريطانية البلجيكية (بشأن الكونغو) ١١ مايو ١٨٩٤

بعد أن تخلص الملك ليوبولد من عرب الكونغو واباد دولتهم فقد كان يخشى أن يلتحم عرب الكونغو مع عرب الثورة المهدية ويكون هذا الالتحام بديلا عن دولته التى أقامها فى الكونغو وبعد أن تخلص من هذا الحزام الذى يشكل عقبة أمام طموحاته للتوسع باتجاه منابع النيل ركز اهتماماته على كيفية الوصول إلى هذه المنابع بهدف تصريف منتجات الكونغو عن طريق وادى النيل رأسيا حسبما يتكشف لنا بعد قليل.

ولكن كان على الملك ليوبولد أن يسلك سلوكا دبلوماسيا قوامه ضرورة الحصول على موافقة القوتين الاعظم اللتين كانت أسبق منه فى مضمار التنافس على المنطقة الواقعة فى أعالى النيل وتعنى بهما انجلترا وفرنسا ففى الفترة الواقعة بين ١٨٨٦ - ١٨٩١ كانت توسعات الملك ليوبولد هى المحرك الرئيسى للتهافت الإستعمارى على الطرف الشمالى من منطقة وسط القارة أى فى الحوض الغربى لأعالى النيل حتى طغت بدورها على المسألة المصرية (Egyptian Question) التى سببت النزاع بين بريطانيا وفرنسا بل تجاوزت تلك المسألة فى سيطرتها على الفكر الإستعمارى الفرنسى ذلك الإهتمام الزائد بمنطقة بحيرة تشاد(١٠).

وسعا ليوبولد لمحاولة لإضفاء الشرعية على مكاسبة عن طريق ابرام اتفاقية التأجير المشهورة مع بريطانيا فى ١٢ مايو ١٨٩٤ هذه الإتفاقية التى أجرت بريطانيا بمقتضاها أجزاء من أعالى النيل للملك ليوبولد وذلك بهدف جعل نفوذه هناك بمثابة منطقة عازلة فى وجه تغلغل النفوذ الفرنسى نحو أعالى النيل وحقيقة الأمر أن ذلك كان يتفق مع مصالح بريطانيا التى كانت قد أخلت السودان من الحكم المصرى وذلك ريثما يتم لها الإستيلاء على مناطق من أوغندا الأمر الذى حدث بالفعل كما سنرى عما قليل.

وعلى الرغم من أن المعاهدة المذكورة تتحدث عن "التأجير" إلا أن الملك ليوبولد لم يكن ينوى على الإطلاق التخلى عن هذه الأراضى من منابع النيل ولقد أثار

(١٠) Anderson G.N.: The European Partition of Africa PP. 33-34

توقيع هذه المعاهدة ردود فعل كثيرة فقد رأى فيها الرأى العام الفرنسى تباهيا مصطنعا مثيرا لمشاعره نحو حقوق بريطانيا وادعاءاتها فى أعالى النيل كما كان من نتائجها أن اعادت فرنسا النظر فى سياستها الإستعمارية فى هذه المناطق تغييرا جذريا.

على أية حال فإن المعاهدة كانت تتألف من ست مواد، تنص المادة الثانية منها على أن تؤجر بريطانيا إلى الملك البلچيكى ودولة الكونغو الحرة مناطق تقع غرب بحيرة البرت وتتبع خط تقسيم المياه بين حوض النيل والكونغو حتى خط طول ٢٥ درجة شرق جرينتش وتبلغ هذه المناطق فى امتدادها نقطة تقع شمالى فاشوده، كذلك نصت المادة الثالثة من المعاهدة على أن تهيئ دولة الكونغو الحرة لبريطانيا العظمى لكى تحتل أو تدير بالشروط والمدة التى يجرى تحديدها سرا من الأرض بعرض ٢٥ كيلو مترا يمتد من الميناء الواقع شمالى بحيرة تنجانيقا والذى يقع هو نفسه فى هذا الممر حتى نقطة تقع فى أقصى جنوب بحيرة البرت ادوارد. ومدة هذا الإيجار هو نفس مدة ايجاره المناطق الواقعة غربى خط ٣٠ درجة شرقى جرينتش [١١].

ومن المدهش أن ألمانيا كانت هى الأخرى تطمع فى مد سلطانها على منابع النيل وأن تقيم لنفسها حزاما، يمتد من الشاطئ الأفريقى الشرقى المطل على المحيط الهندى وينتهى فى الجانب الغربى المطل على المحيط الأطلسى بيد أنها لم تكن فى وضع يسمح لها بالمبادأة بالعداء لانجلترا لانها كانت تظن أن بريطانيا سوف تعاونها فى تثبيت أقدامها فى القارة الأفريقية لقاء المساعدة الدبلوماسية التى قدمتها المانيا لها فى مسألة احتلالها لمصر [١٢] لذلك فإن المادة الثالثة من المعاهدة التى تسمح بتأجير الممر الواقع بين بحيرة البرت ادوارد وبحيرة تنجانيقا استرعت نظر المانيا لأن هذا الممر يقف حائلا دون امتداد الحزام الألمانى من الساحل الشرقى إلى الساحل الغربى كما سبق أن أشرنا.

---

(١١) د. على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية في أعالى النيل ص ١٧٢ .

(١٢) الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى الطبعة الأولى ص ٢٣٦ .

وتجدر الإشارة إلى أنه طبقا لاحكام المعاهدة تكون بريطانيا قد اعطت ليوبولد الثانى مدى حياته منطقة لادو (غربى النيل وبحر الجبل شرقى خط طول ٣٠ درجة وتبدأ جنوبا من بحيرة البرت فى منابع النيل الأولى حتى فاشوده شمالا. ومن ناحية ثانية أعطت المعاهدة الملك ليوبولد الثانى وخلفاءه من بعده المنطقة الواقعة بين خطى طول ٢٥ درجة و ٢٥ درجة على أن تحد شمالا بخط عرض ١٠ درجة (أى متجاوزة بحر الغزال بقليل) (١٣).

ومن الطريف أن نذكر فى هذا المقام أنه لما عرضت المعاهدة على البرلمان البريطانى فى ٢١ مايو ١٨٩٤ للتصديق عليها كانت أخبارها قد تسربت قبل ذلك إلى باريس فحدثت مناقشات عاصفة فى مجلس النواب الفرنسى تعارض المعاهدة معارضة عنيفة وفى تلك الأثناء كان هانوتو وزير الخارجية الفرنسى فى بروكسل يعلن أن فرنسا لا تستطيع السماح بضياع حقوق تركيا ومصر التى تضمنها فرمان عام ١٨٩٢ بتولى الخديو الجديد أعباء منصبه وهو فرمان وافقت عليه كل دول أوربا (١٤).

سادساً : الضغط الفرنسى على البلجيكيين :

يهمنا أن نشير إلى أن انجلترا بعد أن تمكنت من الاستيلاء على أوغندا وصارت على مرمى حجر من منابع النيل بدأت تتخلى رويداً رويداً عن حليفها التكتيكى - أى الملك ليوبولد وهى التى كانت قد منحته حق التأجير فى مناطق من منابع النيل بمقتضى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ - الأمر الذى أضعف موقف الملك ليوبولد فى مواجهة فرنسا مما أسفر عن توقيع معاهدة ١٤ اغسطس ١٨٩٤ بين فرنسا ودولة الكونغو الحرة تحرم هذه الأخيرة من الحقوق والمزايا التى تضمنتها معاهدة مايو ١٨٩٤ مع بريطانيا .

ورضخ الملك ليوبولد للتهديدات الفرنسية حين شعر أن بريطانيا لم تعد بنفس التحمس لمساندته ودارت مفاوضات بين فرنسا والبلجيكيين وانتهت بتعهد دولة الكونغو الحرة بألا تحتل أرضاً فى شمال لادو . كذلك تقرر أنه ابتداء من

(١٣) الشاطر بصيلى عبد الجليل : نفس المرجع ص ١١٨ .

(١٤) د. علي إبراهيم عبده : المرجع السابق ص ١٧٣ .

نقطة ندوروما حيث ينبع نهر مبومو (احد فروع الكونغو الأعلى) يكون لدولة الكونغو الحرة حق بسط نفوذها لغاية خط عرض خمسة درجة ونصف على النيل، وعلى النيل لغاية لادو[١٥] وعلى هذا النحو أصبحت دولة الكونغو الحرة تملك جميع الضفة الشمالية من نهر مبومو فى شمال خط الموازاة ٤ درجة في حين تمتلك وابتداء من ندوروما جميع البلاد لغاية خط العرض خمسة ونصف درجة بيد أن بعض المواد الخاصة بحدود حوض الكونغو الشرقى كانت تسمح بالتوسع البلجيكى فى تلك الناحية إلى ما وراء الخط الفاصل بين حوض النيل وحوض الكونغو .

وهكذا تخلى البلجيكيون مؤقتاً عن فكرة احتلال منطقة بحر الغزال بكاملها ليفتحوا الباب على مصراعيه أمام الفرنسيين للتوغل فى أعالى النيل وتكون فرنسا من جهة أخرى قد تركت لهم بمقتضى معاهدة ١٤ اغسطس ١٨٩٤ الاستمرارية فى استئجار منطقة لادو على النيل معترفة بأحقيتهم (ممثلين فى دولة الكونغو الحرة) فى توسيع حدودهم على حساب الأراضى المصرية وهو الحق الذى انكرته فرنسا على بريطانيا فقد كانت فرنسا تقول دوماً أن هذه الأراضى ملك السلطان التركى ومن ثم فهى أراضى مصرية . والعجيب أن البريطانيين لم يبدوا أى اعتراض على هذه المعاهدة المبرمة بين فرنسا والملك ليوبولد وكانت حجتهم فى ذلك على لسان روزبيرى وزير خارجيتهم آنذاك أن بريطانيا ليس بوسعها إرغام ملك البلجيك على أن يحتل المنطقة المؤجرة له من قبل بريطانيا وأن التمسك بهذا التأجير أمر يرجع له هو في مواجهته بريطانيا ولكن خطط الملك ليوبولد فى التقدم نحو السودان قد منيت بالفشل وعاد التنافس مرة أخرى بين الدول الكبرى التى حجمت دوره فى الوقت المناسب .

سابعاً : الموقف البلجيكى أثناء أزمة فاشوده :

١ - أثناء الأزمة :

لقد تم الغاء مادتين من مواد معاهدة التأجير ١٢ مايو ١٨٩٤ المبرمة بين بلجيكا وبريطانيا . إحدى هاتين المادتين تم إلغاؤها تحت الضغط الفرنسى على

(١٥) دكتور محمد صبرى : الأمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٥٥ .

دولة الكونغو الحرة وهى المادة القاضية بتأجير منطقة بحر الغزال من جانب بريطانيا وأما المادة الأخرى فقد الغيت تحت الضغط الألمانى الذى تمثل فى توالى مذكرات الاحتجاج من برلين على ملك البلجيك إلى أن خولت له وزارة الخارجية البريطانية أن يطلب عدم اعمال أحكام المادة الثالثة (موضوع الاعتراض الألمانى) وتم ذلك بمقتضى تصريح نصه كالآتى :

«نظراً للإلتماس المقدم من صاحب الجلالة ملك البلجيك وملك دولة الكونغو الحرة بأن توافق حكومة جلالة ملك بريطانيا على سحب المادة الثالثة من معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ يوافق الموقعان أدناه والموكلان من حكومتيهما على سحب هذه المادة »

حرر فى بروكسل من نسختين فى ٢٢ يونيو ١٨٩٤ .

توقيـــع

F.R. Plunkett & Edmond Vaetvelde

(١٦) دكتور محمد صبرى : الإبمراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ص ١٥٥ .

وفى يناير ١٨٩٥ تولى رئاسة الوزارة الفرنسية فيليكس فور وكان هذا صديقاً حميماً للملك ليوبولد وقام ليوبولد برحلة إلى باريس وتبادل معه الرأى للشروع فى إعداد حملة بلجيكية كبرى تسير إلى وادى النيل وتحتل حاجز لادو (Lado Enclave). ذلك الجزء الذى لم يستبعد من الإيجارة نتيجة الإتفاق الفرنسى الكونغولى فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ .

وكان هناك اتفاق بين كل من فرنسا ودول الكونغو الحرة على أن تتعاون هذه الحملة مع بعثة مارشان .

وكان الملك ليوبولد من الفطنة بحيث أدرك ابعاد الصراع بين انجلترا وفرنسا وعلم دوافع ارسال بعثة مارشان فأراد أن يجعل من نفسه وسيطاً للتوفيق بين فرنسا وبريطانيا وسافر لهذا الغرض إلى لندن فى أكتوبر ١٨٩٥ وتداول مع اللورد سالسبورى طالباً منه حمل خديوى مصر على التنازل عن كافة الأراضى الواقعة جنوب الخرطوم حتى بحيرة فكتوريا ويقوم بتأجيرها للملك ليوبولد ولما لم تلق هذه المطالب استحساناً قفل راجعاً من لندن. ومع ذلك وفى لهجة تتسم بالتهديد إعتماداً على اتفاقه مع فرنسا - اقترح الملك تسوية الخلافات بين بريطانيا وفرنسا وذلك بأن تحدد الأولى تاريخاً محدد تجلو فيه عن مصر وأن يتنازل الخديو للملك ليوبولد عن الأراضى الواقعة جنوب الخرطوم وأن يكون لبريطانيا فى مقابل ذلك حرية التوسع فى الصين على أن تعود هذه الأراضى لمصر فى حالة انهيار الدولة العثمانية .

حقيقة الأمر أن سالسبورى دهش لهذه الأفكار معلقاً بأنه لا يتصور أن يكون الملك قد قصد ما قاله فعلاً وفى يناير ١٨٩٦ عاد الملك للمرة الثالثة ليؤكد من جديد اقتراحه الأول وإن كان قد عدل فيه بأنه سوف يسلم الأراضى السودانية عندما يتم اخضاعها لبريطانيا لكى تجند منها بعض الكتائب لإحتلال إرمينيا(١٧).

لقد كان الفرنسيون حتى قبل معاهدة التأجير (١٢ مايو ١٨٩٤) يبيتون خطة لسبق البلجيكيين إلى أعالى النيل والوصول إلى فاشوده ورفع العلم الفرنسى

---

(١٧) دكتور مكي شبكة : السودان عبر القرون - الطبعة الثانية ص ١٨٩ .

عليها انطلاقاً من حوض نهر الأوبانجى (فى الكونغو الفرنسى) بإعتبار أن فاشوده تسيطر على مجرى النيل الأبيض وعلى ملتقى رافدية وهما بحر الغزال بُحر السوباط ولم يمنح قيام هذه الحملة سوى معارضة البلجيكيين الذين كانوا يعملون على التوغل فى هذه المنطقة ذاتها وهددوا بإستخدام القوة لوقف الزحف الفرنسى ، الأمر الذى دعا ديلكاس وزير المستعمرات إلي إصدار تعليماته بوقف الحملة فى ١٣ يوليو ١٨٩٤ ثم أسفر الوضع بعد ذلك عن توقيع الإتفاقية الفرنسية الكونغولية فى ١٩ أغسطس ١٨٩٤ كما سبق أن أشرنا .

غير أن الفرنسيين لم يتخلوا نهائياً عن محاولة الوصول إلى النيل طالما بقى البريطانيون فى مصر فبعثت فرنسا بحملة جديدة بقيادة ليوتارد . ففرنسا تريد التوغل فى حوض النيل وبريطانيا تريد وقف النفوذ الفرنسى عند حوض الكونغو خصوصاً بعدما راجت الإشاعات عن نشاط القائد البريطانى كولفيل فى أوغندا واعتزامه الزحف للوصول إلى يحوض النيل الأوسط بعد أن تمكن من رفع العلم البريطانى على وادلاى وتسلمه رسمياً إدارة محمية أوغندا منذ مايو ١٨٩٤ .

وفى ٢٤ فبراير ١٨٩٦ صدرت التعليمات لكل من مارشان وليوتارد ليقود أولهما الحملة المتجهة للنيل ورفع العلم الفرنسى على فاشوده أما الثانى فلكى يعمل بصفته حاكماً على الأوبانجى الأعلى .

هذا النشاط المزدوج من جانب الفرنسيين فى الأوبانجى وبحر الغزال ، وفى أوغندا من جانب البريطانيين لم يلبث أن حرك مطامع ملك البلجيك الذى كان يود احتلال حاجز لادو احتلالاً فعلياً (ذلك الحاجز الذى استأجره بمقتضى معاهدة التأجير فى ١٢ مايو ١٨٩٤) ولم تكن فرنسا تعترف لدولة الكونغو الا باستئجار هذا الحاجز فقط . وهكذا تربصت الدول الثلاث بعضها البعض وأضحى واضحاً أن الاحتكام سوف يكون للقوة المسلحة إذا تعذر الحل الدبلوماسى .

وكانت بريطانيا مشغول فى عملية استرداد السودان وعقب انتهاء حملة دنقلة ذهب كتشنر إلى لندن فى مايو ١٨٩٧ للحصول على موافقة حكومته لاستئناف عملية جنوبى دنقلة والوصول إلى فاشوده قبل وصول مارشان إليها . ولما حصل

كتشنر على الموافقة اللازمة غادر القاهرة فى ٨ يوليو ١٨٩٧ لتولى قيادة العمليات صوب الجنوب .

لم يكن ملك البلجيك بعيداً عن ظروف معركة عدوة التى لقى فيها الدراويش الهزيمة ولم يكن بعيداً عن ظروف استرداد السودان ، فقد كان النشاط البلجيكى يجرى على قدم وساق لتحقيق احلام الملك الرامية إلى ربط الكونغو باثيوبيا وبالتالى بالبحر الأحمر ، فقد حاول الاستيلاء على اريتريا وحاول الاستيلاء على منطقة نفوذ ايطاليا التى تشمل اثيوبيا وادارة هذه الممتلكات من جانب شركة الكونغو للإستعمار والاستثمار ولكن مفاوضات الملك فشلت فى هذا السبيل بالرغم من إتمام صياغة الإتفاق فى هذا الشأن عام ١٨٩٦ .

ولما تقدم كتشنر صوب فاشوده فى ١١ سبتمبر ١٨٩٨ وجد أن مارشان قد سبقه إلى احتلالها منذ ١٢ يوليو ١٨٩٨ ورفع عليها العلم الفرنسى وفى ٢٢ سبتمبر رفع العلم المصرى على بقعة تبعد ٢٠٠ ياردة عن العلم الفرنسي من ناحية الشمال وبدأت الأزمة بين انجلترا وفرنسا ، واعتقد الفرنسيون أنهم باحتلالهم لهذا الموقع يتسنى زعزعة مركزالبلجيكيين من ناحية وازعاج الانجليز لحملهم على الجلاء عن مصر بتهديدهم بقطع امدادات المياه من منابعه (١٨) .

وحانت لحظة لقاء كتشنر ومارشان ، فقد علم مارشان أن هناك باخرة ضخمة قادمة وعلى ظهرها بعض القوات المصرية وكانت قوات السردار الذي بعث برسالة إلى مارشال تتضمن القول بأنه تم الاجهاز تماماً على قوات المهدى وصدور القرار باحتلال فاشودة وبعد تأدية التحية العسكرية بين مارشان وكتشنر أبلغ مارشان نظيرها البريطانى أنه طبقاً للأوامر الصادرة إليه فإنه لن يغادر المكان تحت أى عذر من الأعذار ورد عليه كتشنر بقوله «اننى لا انتظر غير ذلك من شخص شجاع مثلك أننى فقط كنت أود اختبارك وان اجابتك زادت من ارتفاع مكانتك التى كنت أحتفظ بها لك «اننى مثلك تماماً اعتقد أن من المناسب أن نترك المسألة لحكومتنا لحلها، وحتى يتم ذلك فلنعتبر انفسنا كحلفاء وأصدقاء(١٩) وبعد مشاورات سياسية بين انجلترا وفرنسا اتطرت فرنسا إلى اخلاء فاشوده والانسحاب منها فى مارس ١٨٩٩ .

(١٨) د. على إبراهيم عبده : المرجع السابق ص ٦١ .

(١٩) Castellani; Marchand. L'African P. 292 .

وبصرف النظر عن الظروف التى أدت إلى تقهقر فرنسا فإنه يعنينا هنا الموقف البلجيكى أثناء الأزمة وبعدها .

٢- الموقف البلجيكى بعد الأزمة :

لقد ورد فى تقرير كرومر لسنة ١٩٠١ مايلى : «أن حدود السودان الجنوبية لم تقرر بصفة نهائية ، وأن غندكرو كانت تعتبر الحد الشمالى الأقصى لأوغندا ومنجلا الحد الجنوبى للسودان على الضفة الشرقية للنيل . وبمقتضى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ بين انجلترا والكونغو تنازلت انجلترا مع احتفاظها بحقوق مصر فى حوض أعالى النيل - لحكومة الكونغو لمدة معينة عن القسم الأكبر من بحر الغزال وعن قطعة أرض صغيرة على ضفة النيل الغربية وسط الأراضى المصرية تسمى حاجز لادو (Lado Enclave) واعترفت لها بمنطقة نفوذ فيها، ولم يقم البلجيكيون بأى احتلال فعلى فى هذه المنطقة ولكنهم بادروا إلى احتلال لادو حوالى سنة ١٨٩٨ عقب حادث فاشودة فإذن لهم الانجليز بالبقاء بشرط الا يعتدوا على بحر الغزال وكانت منطقة لادو تمتد على مساحة ١٥٠٠٠ ميل مربع (٥١٠٠٠ كيلو متر) وكان سكانها يبلغون ٢٥٠٠٠٠»[٢٠] .

ومهما يكن من أمر فان البلجيكيين كانت تمتد اطماعهم إلى حوض أعالى النيل فى مديرية خط الأستواء ومديرية بحر الغزال وقد تجاوزوا الحدود التى رسمها لهم مؤتمر برلين ٨٤ / ١٨٨٥ ، ولكن بريطانيا كانت قد جعلت منهم حارساً مؤقتاً على باب بحر الغزال ضد المطامع الفرنسية ثم واقفت لهم بالمرصاد بعد أن استتب لها الأمر بعد استرداد السودان وبعد انتصارها السياسى فى حادثة فاشوده وجلاء الفرنسيين وخصوصاً بعد اتفاق التسوية النهائية بين بريطانيا وفرنسا الذى ابرم فى ٢١ مارس ١٨٩٩ والذى يمثل تحديد مناطق النفوذ بين الدولتين فى منطقة وسط افريقيا .

ويلاحظ من جهة أخرى أن حاجز لادو قد وقف سداً منيعاً ضد أطماع الملك ليوبولد حيث أن فرنسا بمقتضى اتفاق ٢١ مارس ١٨٩٩ كانت قد تخلت عن

(٢٠) د. محمد صبرى : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ص ٣٥٠ .

منطقة بحر الغزال وعلى هذا قرر الملك الاندفاع من جهة بحر الغزال عن طريق بعثات استكشافية هذه المرة طالما أن اتفاقه مع انجلترا فى ١٢ مايو ١٨٩٤ لم يزل قائماً .

وواقع الأمر أنه بعد واقعة فاشوده ادرك العالم أن بريطانيا التى خرجت منتصرة على الثورة المهدية سوف لا تسمح بأن ينافسها أى منافس اجنبى فى أعالى النيل ، ولذلك دخلت بريطانيا فى مفاوضات مضنية مع البلجيك لتغيير أو الغاء عقد ايجاره لادو مقابل التنازل النهائى عن بعض الأراضى التى تقع إلى الغرب من أعالى النيل وتمتد حتى خط الموازاة ٥ درجة شمالا(٢١) ولجأ الملك إلى كسب الوقت ريثما يدرس أهمية هذه الصفقة الجديدة ولذلك عمد إلى إرسال مزيد من البعثات الكشفية إلى بحر الغزال امتدت إلى ما يقرب من خط عرض ٩ درجة شمالاً ، وطالت المفاوضات إلى أن هددت بريطانيا باستخدام القوة المسلحة مالم تسحب دولة الكونغو مراكزها من بحر الغزال حتى أن بريطانيا انتهت إلى الرجوع عن عرضها المشار إليه انفاً فى نهاية الأمر . وكان من هذه البعثات التى اقلقت بريطانيا بعثة القومندان البلجيكى رويو (Royaux) إلى مناجم حفرة النحاس ولكن الحامية الإنجليزية السودانية تصدت له وسدت عليه الطريق وتقهقرت البعثة إلى الخلف .

وكان الملك ليوبولد قد شرع منذ إتفاقية ١١ مايو ١٨٩٤ لتثبيت اقدامه على الأراضى التى منحت طبقاً لهذه الاتفاقية وذلك منح امتيازات لشركات الاستغلال فى تلك المناطق باعتبارها أرضاً لا مالك لها بل أنه اعطى امتيازات لبعض الشركات تصل مدة امتيازها إلى خمسين عاماً حتى فى منطقة حاجز لادو رغم أنها كانت ممنوحة له طيلة حياته (٢٢) وكان من بين هذه الشركات شركة بلجيكية - انجليزية مشتركة اسمها (Anglo-Belgian Africa Company) وشركة بريطانية اسمها : (British Tropical Africa Co.) .

---

(٢١) Le Baron Beyens, La Question Africaine PP. 40-41 .

(٢٢) وثائق الخارجية البريطانية : FFO. 110 - 727 .

واقع الأمر أن الملك كان له هدفان فى الوصول إلى منابع النيل أحدهما دينى صليبى وآخر اقتصادى فبالنسبة للهدف الأول فقد ورد فى تقرير اللورد كرومر الجــزء الأول ص ٤٦٤ تحت عنوان (Modern Egypt) أن غوردن منذ عام ١٨٨٤ وأثناء وجوده فى أعالى النيل قد كتب إلى الملك ليوبولد الثانى فى صدد موضوع إرسال حملة «مضادة للإسلام» تسير فى النيل الأبيض باتجاه الخرطوم(٢٣) ومن المعلوم أن العرب كانوا قد وطدوا اقدامهم على الساحل الشرقى الافريقى منذ القرن العاشر الميلادى ، ثم طردهم البرتغاليون من هناك . وكان البرتغاليون يبحثون عن الملك المسيحى فى الحبشة المحاط فى ظنهم بالمسلمين من كل جانب. وفى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر طرد العرب من أئمة مسقط هؤلاء البرتغاليين ووطدوا اقدامهم فى زنجبار باعتبارها مركزاً لامبراطورية عربية إسلامية جديدة . واندفع العرب حتى طاورة ووصلوا إل أوجيجى على بحيرة تنجانيقا عام ١٨٤٠ وامتد نفوذهم إلى منابع النيل والكونغو حتى أواسطه لذلك قرر الملك ليوبولد أن يهاجم المسلمين مباشرة بأن يسحق العرب تماماً فى الكونغو من ناحية كما كان من مخططاته الرئيسية أن تحل قواته محل قوات الثورة المهدية فى أعالى النيل (٢٤) .

أما عن الهدف الثان وهو الاقتصادى فتكشف الوثائق عن حقيقة أن الملك كان يبتغى أن تؤول ملكية جيب لادو إلى بلجيكا بعد وفاته فقد استشف السير فيبس المبعوث الدبلوماسى البريطانى فى بروسكل - أثناء مقابلته للبارون(Phipps) فإن ايتفيلد (Van Eetrelde) رغبة الملك ليوبولد فى ضمان وسائل نقل نيلية لمنتجات دولة الكونغو الحرة وعدم اعتراض الملك على أن تدفع السفن الكونغولية الي تمر فى نهر النيل الضرائب المستحقة لكن انجلترا كانت ترى أن تستأجر دولة الكونغو هذه الخدمات من الحكومة السودانية كما تكشف الوثائق نفسها عن حقيقة أن المخابرات البريطانية حذرت فى تقاريرها من أنه إذا جرى التنازل عن

(٢٣) Daye, P.: L'Empire Colonial Belge P. 39 .

(٢٤) Daye, P.: Ibid. P. 39 .

جيب لادو بصفة دائمة فإن دولة الكونغو سوف تصبح دولة مشاطئة لنهر النيل مع ما يترتب على ذلك من مخاطر . كما أن مندوب الملك أوضح رغبة مليكه فى إقامة خط سكك حديدية (Faculté de construire un chemin defer de Nil) [٢٥] . يسير محازاة النيل .

كذلك تكشف ذات الوثيقة عن أن الملك كان يهدف إلى إنشاء خط حديدى يمتد شمالاً حتى مشرع الرق .

(٢٥) من السيرفيبس إلى الخارجية البريطانية بتاريخ ١٩٠١/٤/٢٧ .



جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ١٨٣ - ١٩٢

العلاقات الدولية وأثرها على السياسة البريطانية تجاه مصر والسودان (١٨٨٢م) - (١٨٩٦م)

أ. د. محمد عبد الرحمن برج

يتناول هذا البحث تطوير العلاقة بين بريطانيا وألمانيا منذ الإحتلال البريطانى على مصر سنة ١٨٨٢ حتى ١٨٩٦ حين طلب الأمبراطور الألمانى من انجلترا مساعدة ايطاليا بعد هزيمتها فى (عدوه) وخوف ألمانيا والنمسا أنه مالم تقدم مساعدة عاجلة لايطاليا فأنها سوف تنسحب من التحالف الثلاثى الموقع بينهما وبين كل من هاتين الدولتين (١٨٨٢) وكانت نتيجة ذلك - ضمن عوامل أخرى - قرار انجلترا تجريده ونقلة للتخفيف من الضغط الذى تعرضت له ايطاليا فى شرق أفريقية .

إذا كانت بريطانيا قد ثبتت أقدامها فى مصر بعد احتلالها للأراضى المصرية فأن السنوات التى أعقبت هذا الاحتلال وخاصة سنتى ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ كانت من أصعب السنوات التى واجهتها فى سياستها الخارجية . ففى الوقت الذى ظنت فيه بريطانيا أنها بسيطرتها على مصر وقناة السويس قد أصبحت سيدة البحر المتوسط فى جزئه الشرقى أخذت تتهدد بعزلة دولية فادتها ألمانيا فى ذلك الحين فى الوقت الذى كانت بريطانية فى حاجة إلى المساعدة الألمانية للوقوف معها فى المسالة المصرية ولتسوية أمور مصر الدولية .

كانت ألمانيا تبحث عن مستعمرات لها فى أفريقيا وقوى مركزها بتحالف الاباطرة الثلاث (ألمانيا - روسيا - النمسا) الموقع فى ١٨ يونيو ١٨٨١[1] ثم أتبعتة بتحالف ثلاثى وقع بينهما (ألمانيا) والنمسا وايطاليا فى ١٠ يونيو ١٨٨٢ .

وتردت العلاقة بين انجلترا وألمانيا أمام تصدى الانجليز للتوسع الألمانى فى جنوب غرب أفريقيا .

وفى الوقت الذى ترددت فيه العلاقة بين ألمانيا وانجلترا تحسنت العلاقة الأولى مع فرنسا مع مجيئ الجمهوريين إلى الحكم وبعد موت السياسى الفرنسى (چامبتا) الذى كان ينادى بالانتقام من ألمانيا لهزيمتها فرنسا فى حرب السبعينية. وجاء (جول فرى) إلى الحكم بسياسة مخالفة تماماً إذا رأى أن أسترجاع الالزاس واللورين من ألمانيا يحتاج لفترات طويلة ونادى بسياسة مخالفة لسياسة چامبتا[٢] .

وظهر التعاون الفرنسى الالمانى فى المسالة المصرية . كانت المسالة المصرية سلاحاً استعملته فرنسا وألمانيا فى يديهما للضغط على انجلترا كى تعدل من سياستها الاستعمارية فى المناطق الأخرى وظهر تعاونهما فى مشكلة الكونغو فقد أثارتهما تلك المعاهدة التى عقدت بين الانجليز والبرتغاليين فى ٢٦ فبراير ١٨٨٤ تحدد المناطق البرتغالية فى الكونغو . وإزاء الضغط الفرنسى الالمانى ألقت المعاهدة البرتغالية الأنجليزية فى ٢٦ يونيو ١٨٨٤ بعد أن أعترفت أنجلترا بسيادة ألمانيا عند (انجراسكوينا) قبلها بأيام قلائل . وعندما حاولت حكومة رأس الرجاء الصالح الحاقة جنوب غرب أفريقيا أحتج (بسمارك) فتنازلت انجلترا أيضاً عن ذلك .

وفى الوقت الذى أصبح فيه الموقف المالى فى مصر بناء على مقترحات فرنسا - تحت اشراف دولى وذلك حين وقعت اتفاقية لندن فى مارس ١٨٨٥ بشأن السماح لمصر بقرض مالى بضمان دولى وأدخلت تعديلات كثيرة فى البرنامج المقترح بشأن تخفيض جزء من الدخل للمصروفات الإدارية - كان هناك الصراع بشأن أفريقيا بين كل من انجلترا من جانب فرنسا وألمانيا من جانب آخر . جعلت المانيا على جنوب غرب أفريقيا . توجو ، الكاميرون وجعلت فرنسا على الكونغو الفرنسية وبعض المناطق على الساحل غينيا وهكذا . وفى مؤتمر ١٨٨٥ لم تستطيع إنجلترا أن تجعل الأستعمار فى أفريقيا قصراً عليها أى أن تطبق مبدأ مونر بالنسبة لأفريقيا فتجعل التصرف فى هذه القارة وقفاً عليها .[٣]

ثم كان الموقف المتأزم فى السودان كانت الخرطوم قد سقطت فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ وقتل غردون وأعجزت هذه الأخبار الحكومة البريطانية وكتب جلارستون فى مذكراته يقول أنه يوم أسوء الأيام .[٤]

وطرحت الثقة بحكومة جلارستون ولم ينفذها إلا أكثرية قليلة (١٤ صوتاً) من مشروع قرار فى مجلس العموم بلوم الحكومة[٥] وقررت الحكومة البريطانية إخلاء السودان خاصة أمام تهديد حدود الأمبراطورية الإنجليزية فى الهند إزاء خلاف على الحدود بين الروس والأفغان الذى أمكن تسويته فى النهاية بواسطة لجنة أفغانية للحدود وتوقيع أتفاق نهائى فى سان بطرسبرج .[٦]

مع مجئ حكومة المحافظين فى يونيو ١٨٨٥ برئاسة لورد سولسبرى بدأت السياسة الانجليزية تنحو منحى آخر . بدأ سولسبرى التقارب مع ألمانيا والتفكير فى الخروج من مصر برغم أن حزبه موافق على ضمها إلا أنه كان يريد الخروج بشرط أن يتدعم النفوذ الأنجليزى بدرجة لا يجعل من مصر فريسة لأطماع الدول الأخرى . فكانت بعثة درليدولف كمبعوث غير عادى ووزير مفوض ليتفاوض مع باب العالى حول مصر . وكانت التعليمات التى أعطيت له أن الهدف الرئيسى من بعثتك أن تضمن لهذا البلد (انجلترا) النفوذ الضرورى لضمان مصالحها الامبراطورية وهذا لا يتأتى إلا بحكومة مصرية قوية وكفئة قادرة على ألا يتدخل أحد فى شئونها . وفى رسالة أخرى من سويسرا إلى ولف بتاريخ ١٣ أغسطس ١٨٨٥ قال له أن ما أحب أن تعمل له هو الجلاء لكن بتحفظات معينه ... لكننى أعارض القم أو الإدارة الدولية .[٧]

والمعروف أنه تم الأتفاق على إيفاد كل من السلطان وانجلترا مندوباً عنهما للخديوى فى مصر للتفاوض بشأن التنظيمات لإعادة تنظيم الجيش المصرى والإدارة المدنية ولم يستكمل عمل ولف فى القاهرة بسبب تغير الوزارة البريطانية ومجئ جلادستون إلى السلطة مرة أخرى فى فبراير ١٨٨٦ .

ومع مجئ سولسبرى إلى السلطة فى يونيو من نفس العام بدأت بعثة ولف الثانية فى القسطنطينية التى أنتهت بأتفاق القسطنطنين فى ٢٢ مايو من العام

التالى (١٨٨٧) وتقرر بموجبها جلاء انجلترا عن مصر فى مدى ثلاث سنوات مالم يحدث أضطراب داخلى أو خارجى يؤجل هذا الجلاء .

وقد قيل فى حق هذا الأتفاق أنه أكسب الاحتلال البريطانى فى مصر الصيغة القانونية التى كان يريدها الانجليز (لتنظيم) مركزهم فى هذه البلاد . وأنه أعطاهم الحق القانونى فى العودة إلى احتلال البلاد فى الظروف التى قد يرون هم أنفسهم أنها مناسبة لاتخاذ هذا الاجراء وفى صالحهم . وتصدت كل من فرنسا وروسيا لمعارضة الاتفاق على أساس هذين الأعتبارين . وعلى ذلك فقد رفض سلطان - تحت تأثير هذه المعارضة - التصديق على الاتفاق الذى يكون لذلك قد ولد ميتاً وعندئذ غادر درمندولف الاستانة ١٥ يوليو ١٨٨٧ .[٨]

وكان على أنجلترا أمام موقف فرنسا إزاء إتفاق القسطنطينية أن تحسنت علاقتها بدول التحالف الثلاثى (إيطاليا - ألمانيا - النمسا) .

كان على يولسبرى أن يحسن علاقتها بألمانيا لكى يكبح جماح الدول الجائعة (فرنسا وروسيا) كما كان يسميها .

وفى أول يوليو ١٨٩٠ وقعت معاهد بين ألمانيا وانجلترا وأعترفت ألمانيا بحق أنفراد انجلترا بالحماية على جزيرتى بمبه وزنجبار وسلمت ألمانيا بأمتداد خط الحدود الفاصل بين منطقتى النفوذ البريطانية والألمانية إلى بحيرة فكتوريا وعبر هذه البحيرة إلى حدود ولاية الكونغو البلچيكية . كما تنازلت ألمانيا عن بعض دعواها فى منطقة توزيع المياة بين بحيرة نياسا وتنجانيقا وتعهدت انجلترا أن تستخدم نفوذها لتسهيل التوصيل إلى اتفاق ودى بين زنجبار وألمانيا بحيث يتنازل السلطان لألمانيا عن الشريط الساحلى التى كانت الشركة الأفريقية الألمانية تتولى إدارته . وتنازلت انجلترا عن جزيرة هليجولاند Heligoland فى بحر الشمال وساعد على تحسن العلاقة بين الدولتين موت بسمارك وسعى خلفائة إلى كسب ود إنجلترا .

فى ذلك الوقت كانت إيطاليا تمضى فى توسيعها فى الشرق أفريقيا ولم يكن سولسبرى أوبارنج (كرونر) يرون اشتراك إيطاليا فى إعادة فتح السودان لأن الإيطاليين إذا وضعوا يدهم لن ينسحبوا . وعبر بارنج (كرومر) عن ذلك بقولة أنه

لا يشك فى نواب إيطاليا المخلصة ولا فى كريسبى (رئيس وزراء إيطاليا) ولكنه لا يريد أن يراهم فى السودان . أننى لا أتردد أن الدراويش يمتلكون كسلاء الخرطوم . لكننى لا أقبل رؤية الأيطاليين فى السودان لأن الدراويش من السهل للحكومة صاحب الجلالة اختيار الوقت للتصدى لهم لكن مع الايطاليين الأمر مختلف .(٩)

وبعد سقوط وزارة كريسبى فى ٣١ يناير ١٨٩١ ومجئ وزارة (دى رودينى) De Roudini تم التوصل لاتفاق بين انجلترا وإيطاليا وأعترفت فيه انجلترا بأثيوبيا كمنطقة نفوذ إيطاليا بحقوق انجلترا فى أعالى النيل وسمحت المادة الثانية من بروتوكول ١٥ أبريل ١٨٩١ لأيطاليا بأحتلال كسلاً وهو ما تم فى ١٣ يوليو ١٨٩٤.(١٠)

وبعد شهر من انتصار الايطاليين على المهديين فى كسلا أى فى أغسطس ١٨٩٤ بدأ الاستعداد الايطالى لاحتلال (عروة) ولكن الضائقة المالية التى كانت تعانيها إيطاليا أنذاك كانت تهدد الإيطاليين بعدم امكان ذلك فضلاً عن معارضة اليساريين المتطرفين لسياسة كريسبى الداخلية والخارجية . وأستطاع (منلك) أمبراطور الحبشة بمساعدة قليلة من روسيا وفرنسا أن يتحدى الايطاليين ويهزمهم فى موقعتى (امبالاجى) و (عروة (الأولى فى ٧ ديسمبر ١٨٩٥ والثانية فى أول مارس ١٨٩٦ ، وليس هناك من شك فى أن هزيمة عدوة أصابت النفوذ الايطالى فى شرق أفريقية بضربة قاضية ، لأنها لم تؤد إلى وقف التوسع الأيطالى فى هذه الأرجاء من أفريقية فى المدة الباقية من القرن التاسع عشر بل شجعت المهديين على مهاجمة كسلا ومحاصرتها(١١). وواجه كريسبى متاعب داخلية فى ميلان روما على أثر ذلك ونتج عن ذلك خوف النمسا وألمانيا أنه مالم تقدم مساعدة عاجلة لايطاليا فقد تهجرها إيطاليا وتترك التحالف . ومن ثم طلب الأمبراطور الألمانى من إنجلترا مساعدة إيطاليا قبل أن تطلب هى المساعدة .(١٢)

كانت الحكومة البريطانية فى سماحها للايطاليين باحتلال كسلا بموجب بروتوكول أبريل ١٨٩١ تهدف إلى وضع حد لنشاط الدراويش المتزايد فى

السودان الشرقى ولكن هذا الاحتلال لم يضع حداً للأخطار التى كانت تخشاها انجلترا من ناحية المهديين فى السودان الشرقى بل على العكس من ذلك أستفحل خطر الدراويش حتى صاروا يهددون بطرد الطليان من كسلا ذاتها(١٣) . وراجعت اشاعة اتفاق بين التعايش ومنليك الثانى يكون دور المهديين فيه الهجوم على الكسلا ، ومع ذلك فالثابت أنه لم تكن هناك (محالفة) ولكن نوع من (التفاهم) بين منليك والتعايشى .(١٤)

إزاء ذلك أستجاب سولسبرى وأكد فى ٤ مارس ١٨٩٦ للسفير الألمانى فى لندن نوايا انجلترا الطيبة ورغبته فى أن يكون على علاقة طيبة مع دول التحالف.

وكان لورد يولسبرى قد سأل لورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر عما إذا كان القيام بمظاهر عسكرية فى الجهة المجاورة لوادى حلفا يعيد فى تحويل نشاط الدراويش عن كسلا إلا أن كرومر لم يوافق على القيام بمجرد مظاهرة ، لان الزحف الذى يأتى فى دائرة الأنسحاب يزيد من سمعة الدراويش خصوصاً إذا جاء الانسحاب بعد أن يكون قد وقع فى أثره أصطدام .

وفى خطاب خاص بعث به سولسبرى إلى كرومر فى ١٣ مارس ذكر أن الرغبة فى مساعدة الطليان فى كسلا وعدم أعطاء أية فرصة للدراويش للحصول على نصر باهر هو الذى أوحى للحكومة بإتخاذ قرار إرسال حملة ونقله.

ولما كان سولسبرى يتوقع معارضة فرنسية لهذه الحملة فقد أبرق إلى السفير فى باريس (دوفرين) أن يبلغ فرنسا أن إرسال هذه الحملة جاء من الحكومة المصرية وهو مالم يكن صحيحاً بالمرة .

وأعد سولسبرى خطابا دوريا فى ١٥ مارس ١٨٩٦ أرسله إلى سفراء فرنسا والنمسا وروسيا وإيطاليا فى لندن يبلغهم الأسباب التى دعت لتقرير حملة لنقلة وبإيجاز من فرنسا عارض الباب العالى أمر الحملة وهو ما أجابت عليه الحكومة البريطانية بأن الغرض من الحملة الدفاع الداخلى عن مصر الذى واجب الجيش المصرى القيام به حسب أحكام الفرمانات العثمانية .(١٦)

أما ألمانيا فكانت سعيدة بأثر تلك الحملة ذلك أن انهيار إيطاليا عند عدوة وسعيها لدى أنجلترا لمساعدة الطليان فى شرق أفريقية عن طريق تجريده ونقله أمر أستخدامته ألمانيا للضغط على إيطاليا كى تجدد تحالفها معها لمدة رابعة .(١٧)

الهوامش

١ - يستبعد بعض الباحثين أن يطلق عليه تحالف ويفضل أستخدام كلمة وفاق لأن الدول الثلاث لم تعد بعضها بأى تأييد مسلح ولكن بمجرد حياد مشوب بالود فى حالة ما إذا وجد أحد الأعضاء السامين المتعاقدين فى حالة حرب مع دولة عظمى رابعة . وهكذا تعهدت روسيا فى حالة حرب فرنسية ألمانية أن تقف على الحياد حتى إذا كانت ألمانيا هى التى بدأت بالهجوم وبنفس الطريقة ستبقى ألمانيا والمجر محايدتان فى حالة حرب روسية أنجليزية وتبقى ألمانيا والنمسا والمجر محايدتان فى حالة حرب روسية أنجليزية .

أنظر : بيير رونفان : تاريخ العلاقات الدولية - القرن التاسع عشر ١٨١٥ - ١٩١٤ ترجمة د. جلال يحيى - الناشر دار المعارف ١٩٨٠ .

٢ - Langer : European alliances and ollianments (N. Y. 1939) P. 292

٣- Langer : OP. adt. P. 307

٤ - Morley Gohn : The life of williom Edward Glodstone (London 1906) Vol. 2, PP. 359.

فضلاً عن Lowe : Salisbury and the Mediterranea (London 1965

٥ - محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن ١٩ ١٨٢٠ - ١٨٩٠ - دار المعارف ١٩٦٣ الطبعة الثالثة ص ٣٥٣ .

٦ - المرجع السابق ص ٣٥٥ .

٧ - محمد برج : دارسة فى التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر من ١٥١ - الجهاز المركرى للكتب الجامعية والمدرسية ١٩٧٧ وكذلك Marlow : Cromer in Egypt (london 1970) P. 109

٨ - محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٣٢ .

٩ - Sheibeika : Pritish Policy in the Sudon (Landon 1952)

١٠ - Sheibeika : OP. Cit P. 331

رجب حراز : التوسع الإيطالى فى شرق أفريقية : مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٠ ص ٣٣٩ .

١١ - حراز : المرجع السابق ص ٤٥٠ .

١٢ - برج : دراسة فى التاريخ الأوروبى الحديث والمعاصر ص ٢٠١ .

١٣ - شكرى : مصر والسودان ص ٥٠١ .

١٤ - Sheibeika : OP. Cit P. 352

فضلاً عن حراز : ص ٤٥٩ .

١٥ - حراز ص ٤٦٢ وشكرى ص ٤٥١ .

١٦ - شكرى : المرجع السابق ص ٤٥٣ .

١٧ - برج : المرجع السابق ص ٢٠١ .

مراجـــع البحـث

١ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية

F. O. Political Correspondence

Turkey F. O. 78 - 1156 - 78 - 2855

٢ - صورة للوثائق الموجودة فى دار المحفوظات الفرنسية

Quai d Orsay: Correspon ences politiques

Turquie (1863-1869)

Egypt (1863 - 1869)

Liwrws faunes : Documenis diplomatiques 1886 - 1887

Blue Books : Parliamentary papers relating to the offairs of Egypt 1882 - 1885 .

مراجع عربية :

١ - السيد محمد رجب حراز : التوسع الإيطالى فى شرق أفريقية / مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٠ .

٢ - محمد عبد الرحمن برج : دراسة فى التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر أنجلترا وشرق البحر المتوسط ١٨٧٦ - ١٨٩٦

٣ - محمد عبد الرحمن برج : حياة قناة السويس رسالة ماجستير غير منشورة.

٤ - محمذ عبد الرحمن برج : البحر الأحمر والسياسة الدولية بحث فى ندوة البحر الأحمر ١٩٧٩ .

٥ -محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان : تاريخ وحدة وادى النيل السياسية ١٨٢٠ - ١٨٩٩ - دار المعارف - المطبعة الثالثة ١٩٦٣ .

٦ - رونوفان (بيير) : تاريخ العلاقات العامة الدولية بحث ترجمة جلال يحيى .

٧ - مراجع أجنبية :

1- Langer : European alliances and olianments (N. Y. 1939) .

2- Lee : Cyprus convention (Harvard 1934) .

3- Lowe : Salisbury and the Mediterranean (London 1965) .

4- Marlow (john) Cromer in Egypt (London 1970) .

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ١٩٣ - ٢١٥

المفهوم الإجتماعي عند الإخوان الجمهوريين في السودان

دكتور زكي البحيري
كلية التربية - جامعة المنصورة

المدخل

إن مقاومة المستعمر الإنجليزى للسودان قد بدأت منذ وطأت أقدامه أرض السودان ، عند القيام بما سُمّى استرداد السودان بقيادته وتخطيطه ، وبأموال مصر ورجالها وقد حدث ذلك على الرغم من أن الحكومة التى تمخضت عن الحكومة المهدية لم تحقق ما كان مرجو منها ، فإن كمية من المؤثرات الداخلية كالعصبية والتخلف والخارجية مثل الأطماع الخارجية من دول أكثر تطوراً قد أدت إلى النتيجة الحتمية لنظام لم يأخذ فى الاعتبار تطور الزمن .

وحكم السودان من خلال معاهدة ثنائية عقدت عام ١٨٩٩ ، وأدير السودان حيث سيرت مصالحه لفائدة بريطانيا وغرامة مصر وكدح الشعب السودانى ، ولقد ازداد نشاط المقاومة والحركة الوطنية فى السودان ، بعد الحرب العالمية الأولى بفعل الظروف المحلية الناتجة عن سياسة الاحتلال وتخلف البلاد ، والأفكار العالمية عن التحرر وحق تقرير المصير وقيام ثورة ١٩١٩ فى مصر وهبوب آثارها على السودان . فتكونت جمعيات سرية وعلنية تقاوم الإنجليز ، بل وحدث بعد مقتل السردار مواجهة مباشرة بين جنود سودانيين تابعين للجيش المصرى ، وبين الإنجليز حيث سقطت أعدادًا كبيرة من صفوف الجيش البريطانى تحت وقع طلقات هؤلاء السودانيين فى يوم ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤ .

وهنا صمم الإنجليز ليس فقط على محاكمة الضباط السودانيين الذين قادوا المقاومة وإنما أيضاً طرد الجيش المصرى نهائياً من السودان خلال ٢٤ ساعة

وكمحت بعد ذلك الأفواه ، وحوكم الوطنيين وظل الأمر على هذا الحال حتى حدث خلل فى إقتصاد وميزانية السودان خلال الأزمة الإقتصادية العالمية وقامت الحكومة السودانية (البريطانية) بتقليص حجم النفقات وتخفيض مرتبات الموظفين والعمال والخريجين وهنا ثار وتظاهر - ولأول مرة منذ ١٩٢٤ - طلاب وخريجو كلية نموردون ، وحاولت الحكومة تهدئة الأحوال ، ومنذ هذا الوقت بدا فى الأفق تيار وطنى اتسع نطاقه بمرور الوقت والتف حوله الخريجين ، مما أدى فى النهاية إلى قيام مؤتمر الخريجين فى السودان ١٩٣٨ ، معبراً عن طموحات الخريجين وبعض طموحات الشعب السودانى ذاته .

وقد ظهرت فى الجو السياسى العالمى والداخلى فى السودان ظروف ساعدت على تقدم الخريجين ومؤتمرهم للقيام بدور فعال فى شئون بلادهم خصوصاً خلال الحرب العالمية الثانية فقد تقدم المؤتمر فى ٣ / ٤ / ١٩٤٢ بمذكرة إلى حاكم عام السودان معبرة عن آمال زعماء المؤتمر من القوى الوطنية ، وتضمنت المذكرة فضلاً عن المطالبة بالتحرر الوطنى من الحكم الثنائى ، مطالب اقتصادية عبرت عن طموحات مقدمها ومنها عدم تجديد عقد مشروع الجزيرة ، وسودنة الإدارة، وحاولت الإدارة أن تتجاهل الخريجين لكن دون جدوى فقد أصبح لهم دور فعلى (1).

ولم تستمر القوى الوطنية الملتفة حول المؤتمر فى تكاتفها وتوحدها بفعل عوامل التكوين الطبقى والعصبى والطائفى للمنتمين لجماعات الخريجين ، فانشق عن المؤتمر عدة أحزاب .

وكانت الأحزاب الناشئة فى السودان والمنشقة على المؤتمر تدور فى إطار الطائفية ، فقد كون الأزهرى وجماعته حزب الأشقاء تحت رعاية الميرغنية ، وكون المهديون حزب الأمة ، عبر الأول عن طموحاته فى إنهاء الإحتلال بالإتحاد مع مصر تحت تاج الملك، وعبر الثانى عن أهدافه فى سودان مستقل تحت رعاية الإنجليز. وبهذا توجه كل حزب إلى أولياء نعمته .

ولما اتضح أمام قطاعات واسعة من الشعب السودانى فشل هذه الأحزاب التقليدية فى تحقيق الآمال التى عقدتها الجماهير عليها وأثبتت الأيام إفلاسها فى إنجاز المهام الوطنية فى التحرر والديمقراطية والتنمية المادية والإجتماعية ، ظهرت تشكيلات حزبية واتجاهات سياسية أخرى اتسمت بوضوح الاتجاهات الأيديولوچية التى تدرجت من اليمين إلى اليسار وحاولت هذه الإتجاهات التوجه إلى القطاعات الشعبية المنتجة التى تبرمت من الصراع الحزبى الحاد وتطلعت إلى سبل أخرى تقيل البلاد من عثراتها وتخلصها من الإحتلال والآثار المترتبة عليه والمشاكل الإقتصادية والفوارق الطبقية التى ظهرت خاصة خلال الحرب العالمية الثانية(٢).

ومما ساعد على ظهور الإتجاهات السياسية الأيديولوچية أيضاً أن الأحزاب السياسية التقليدية قد إقتصرت مهمتها على كسب التأييد الشعبى بالنفوذ الشخصى، ودفع الجماهير إلى المظاهرات وإلى صناديق الإنتخاب، ومثل هذا الأسلوب مجاف للديمقراطية ويخلق دكتاتورية لدى الزعامة السياسية لا مبرر لها، فالشعوب أصبح لا يهمها حكماً محلياً وطنياً فقط وإنما أصبح يهمها زوال الإستعمار، ولا يتوفر ذلك إلا بأن يكون لدى الإتجاهات الحزبية برامج واضحة الأهداف والفكر مستخلصة من واقع حياة الشعوب وتهدف لتحقيق الصالح العام (٣).

والإتجاهات السياسية الأيديولوچية كانت على ثلاث مستويات أولها إتجاه إسلامى يمينى ، وثانيها اتجاه شبه مادى وثالثها إتجاه يسارى . وذهب الإتجاه الإسلامى يبحث فى التراث الإسلامى باعتباره مصدر القوانين الحاكمة للشعوب الإسلامية ، آخذا من تجربة المصريين فى تكوين الإخوان المسلمين نبراساً له ، مما مهد لتكوين أول لجنة برئاسة إبراهيم المفتى وبدوى مصطفى كنائب له ، وعلى طال الله سكرتيراً ، ورغم قيام المركز العام للإخوان بمصر بإرسال عضوين للسودان التقيا بشعبة الخرطوم وفتحوا ٢٥ شعبة فى أنحاء السودان، لكن الأثر إقتصر على الخطب التى ألقوها فى المساجد فقط . وفى الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٥٣ نتج عن تداخل نشاط الإخوان مع حركة التحرر الإسلامى الشكل النهائى

للإخوان هناك. ومنذ هذا الوقت أصبحت حركة الإخوان المسلمين علنية فى السودان [٤]. والملاحظ أن فكر الإخوان سواء فى مصر أم فى السودان قد ظل فى إطار تقليدى منحياً جانباً الظروف الموضوعية والمتغيرات الجديدة .

وإلى جانب الأخوان وجدت تجمعات يمينية أخرى أقل إنتشاراً مثل تنظيم (الميثاق الإسلامى) الذى كان يهدف لإقامة دولة إسلامية ذات دستور إسلامى[٥].

وفى إتجاه اليسار كانت توجد أحزاب شيوعية جاءت منابعها من إنجلترا ومن مصر نتيجة لزيوع الأفكار الإشتراكية فى العالم وظهور الصين الشعبية ، ووجود مناهج جديدة لإدارة البلدان تعتمد على الطبقات المنتجة من العمال والفلاحين .

وإذا كانت التنظيمات الإسلامية مثلت إتجاهات تقليدية فإن إتجاهاً جديداً آخراً مثل خطوة نحو التقدم من منطلق التراث الإسلامى مع الأخذ فى الأعتبار مقتضيات التطور البشرى والأفكار المطروحة ، والظروف الموضوعية ، وهذا الإتجاه هو (حزب الإخوان الجمهوريين) الذى كان يتزعمة محمود محمد طه عام ١٩٤٥ وذلك بعد أن سيطرت الطائفية على الصراع الحزبى والمصالح الشخصية على منتخبى الأحزاب [٧].

والحق أن الطائفية هى مرض السودان العضال ، ولقد بذل محمد نجيب وصلاح سالم جهداً كبيراً قبل عقد إتفاقية السودان مع زعماء الأحزاب الإتحادية فقط لأجل توحيد إتجاههم حول حزب إتحادى واحد له موقف موحد[٨]. ونتيجة للمهاترات السياسية بعد الإستقلال خلال حكومة الأزهرى ، جاء حكم عسكرى بقيادة الفريق إبراهيم عبود معلناً إلغاء الحياة الحزبية التى مزقت الصفوف فى البلاد [٩].

وكان محمود محمد طه زعيم حزب الإخوان الجمهوريين يرى أن الطرق الدينية أقل من أن تنهض باعباء الغد ، لأن مسائل الدين فى رأية - أصبحت مبهمة على أصحاب الطرق وغيرهم ، فأصبحوا فى جاهلية معاصرة مثلها مثل الجاهلية الأولى ، وإن الأمل فى إشراق عهد جديد وصبح منير بعد تلاشى الظلام [١٠].

برنامج الحزب (١٩٤٥)

وضع الجمهوريين لهم برنامجاً فى عام ١٩٤٥ ، أعلنوا فيه أن شعارهم الحرية لنا ولسوانا ، وأن مبدأهم الأساسى يتحدد فى الجلاء التام ، وأن وسيلتهم لتحقق ذلك هو قيام (حكومة سودانية ديمقراطية) داخل حدود السودان الجغرافية القائمة عام ١٩٣٤ ، وهدفهم العمل لتحقيق الوحدة القومية ، وترقية الفرد رجلاً كان أم أمراة ومحاربة الخوف ، وتوطيد العلاقات مع البلاد الأخرى.[١١] ولقد تغيرت أهداف الحزب ومبادئه مع تطور الظروف والأحوال مع البلاد ، وصدر عن الحزب برنامج معدل عام ١٩٥١ .

وقد دعى الحزب فى برنامجه الثانى إلى أنه إذا كان الخوف قد تمكن من الناس وسيطر على قلوبهم عبر مسيرة الإنسانية الطويلة ، فإنه لا يتسنى للإنسانية أن تبلغ الكمال المقدور إلا إذا تحررت منه (الخوف) تحريراً . بل وإن الحرية هى المدخل لتحقيق الفرد السعيد الصحيح جسدياً وعقلياً ، والحرية تعنى خلاف التحرر من الخوف ، التحرر أيضاً من الفقر والتحرر من الجهل ، ولتحقيق ذلك لابد من حكومة إشتراكية ديمقراطية ، وذلك لأن الإشتراكية تحرر الإنسان من الفقر والديمقراطية تحرره من الجهل والخوف[١٢].

وجاء فى مذكرة برنامج الحزب التفسيرية أن أول خطوة لتحقيق هذه الدولة الإشتراكية الديمقراطية هو إجلاء الاستعمار بجميع مظاهره إجلاءً تاماً وأن السلاح الواجب إتباعه هو عدم التعاون مع المستعمر أول الأمر ، ثم يبلغ الشعب بعدم التعاون هذا درجة العصيان المدنى فى النهاية. فإذا تحقق ذلك العصيان أو المقاطعة أصبح بقاء الاستعمار مستحيلاً [١٣] ولا غبار على منهج الحزب الجمهورى فى أن يكون هدفه الأول هو القضاء على الإستعمار ولعل وسيلته فى العصيان المدنى قد ثبت نجاحها ، ويعتبر الجمهوريين هم أول من نادى بفكرة العصيان المدنى فى السودان الذى إستخدم عند إضراب عمال السكة الحديد فى السودان خلال الأربعينيات كما إستخدم عام ١٩٦٤ ضد النظام العسكرى الذى كان يقوده إبراهيم عبود ، كما إستخدم ضد الحكم العسكرى الثانى لجعفر نميرى عام ١٩٨٥ .

ويتضح من المذكرة التفسيرية للحزب (١٩٤٥) أنه يدعو إلى إقامة مدنية جديدة تخلف المدنية الغربية المادية الحاضرة التى أعلنت إفلاسها بلسان الحديد والنار فى هذه الحروب الطواحن (المقصود الحربين العالميتين الأولى والثانية)

والفلسفة الإجتماعية التى يراها الجمهوريون للمدنية الجديدة هى ديمقراطية إشتراكية تؤلف بين القيم الروحية وطبائع الوجود المادى تأليفاً متناسقاً مبرأ على السواء من تفريط المادية الغربية التى جعلت سعى الإنسانية موكلاً بمطالب المعدة والجسد ومن إفراط الروحانية الشرقية التى أقامت فلسفتها على التقليل من شأن المجهود البشرى بين الأحياء ، وطلائع هذه المدنية هم المسلمون ، وأنه من خلال الإسلام سوف يمكن التوفيق بين حاجة الفرد إلى الحرية الفردية المطلقة وحاجة الجماعة إلى الحالة الإجتماعية الشاملة ، وأن المدنية الجديدة التى ينشدها هى الأسره البشرية كلها على إختلاف أجناسها(١٤).

النظرية الإقتصادية الإجتماعية :

كان المبدأ الأساسى للحزب - كما جاء فى برنامجه الأول ١٩٤٥ - هو الجلاء التام ، ومع خوض الحزب المعارك وادوار مختلفة خلال الأربعينيات إتضح أن الإستقلال السياسى وجلاء الإنجليز والمصريين ليس هو الهدف والمبدأ ، وإنما هو شىء آخر. ولذلك فإنه فى التعديلين الذين أجريا على برنامج الحزب فى عام ١٩٥١ وعام ١٩٦٨ ، أصبح المبدأ الأساسى للحزب هو تحقق العدالة الإجتماعية الشاملة والحرية الفردية المطلقة ، وبينما كانت وسيلة الحزب حسب البرنامج الصادر سنتى ١٩٤٥ - ١٩٥١ هو قيام حكومة سودانية جمهورية ديمقراطية حرة فإن وسيلته قد تغيرت فى برنامجه المعدل ١٩٦٨ إلى قيام حكومة جمهورية ديمقراطية إشتراكية. (١٥) ويتضح خلال محاولات الحزب لتغيير برنامجه تطور فكرته عن البعد الإجتماعى إلى أن توصل إلى ضرورة إقامة نظام بقدر كبير من العدالة ، كما يبدأ أيضاً تأثر الحزب بالأفكار الإجتماعية الإشتراكية التى إنتشرت فى العالم كله خلال الخمسينات والستينات.

ولقد تبلور الموقف الإجتماعى لدى الحزب الجمهورى فى السودان عبر مراحله المختلفة، والسؤال الهام الذى يطرح نفسه على الفور هو: ما الشكل النهائى لهذا الموقف ؟ وكيف تحدد هذا الشكل ؟ ولنحاول الإجابة على ذلك .

لقد أضفى آدم سميت هاله من التمجيد والاطراء على النظام الرأسمالى ، ونظرية الملكية الفردية عنده تحقق التوازن بين الصالح الخاص والعام ، بل ان الصالح العام فى نظره هو مجموع المصالح الخاصة ، وفى هذا اعتبر جهاز السوق والنقود هو اليد السحرية التى تمتد إلى كل اعوجاج اقتصادى فتقومه ، ولقد ظل الفكر الإقتصادى الرأسمالى أسيراً لمبدأ الحرية الإقتصادية التى سخرت أدوات التحليل المختلفة للدفاع عن مصلحة المالكين ، وتركزت الثروة فى يد دول معينة بل وفى يد فئات وطبقات من هذه الدول ، وفى إطار الامبريالية المبنية على النظام الرأسمالى دخلت مستعمرات العالم ودوله الصغيرة فى إطار السيطرة وسوق التقسيم الدولى للعمل ، وعانت المستعمرات خلال الإحتلال العسكرى وبعده من التخلف (١٦).

وأما الاشتراكية العملية عند ماركس فقد إعتبرت أن الشرور الإقتصادية والإجتماعية ترجع فى الأساس إلى وجود الملكية الفردية ، ونادت بملكية جماعية لوحدات الإنتاج مع توزيع عادل للعائد المادى المنتج فى المجتمع .

أما الإسلام فقد أقر الملكية ، ومع ذلك فإن هذه الملكية ليست ملكية أصلية يتصرف فيها المالك على هواه ، وتختلف الملكية عن المال - حسب تفسير دكتور عبد الهادى النجار فى كتابه الإسلام والإقتصاد - فكل ما يقبل الملكية فهو مال سواء أخذ الشكل العينى أو النقدى أو المنفعة ، ويراد بإصطلاح المال ما يمكن حيازته والإنتفاع به إنتفاعاً معتاداً بينما يقصد بالملكية تمكين الإنسان شرعاً بنفسه أو نيابة عنه بالانتفاع بالعين لأن الملكية بشكلها العام والأصلى خاضعة لشروط المالك الأصلى وهو الله (١٧).

وحسب رأى عبد الهادى النجار أنه عند محاولة طرح مفهوم التنمية الإقتصادية فى الفكر الإقتصادى الإسلامى فإنه ينبغى أن نعى جيداً منذ البداية ، أن القرآن الكريم كتاب عقيدى وشريعة ، وهو يحتوى على بعض الأفكار

الإقتصادية ، ولذا فإن صياغة نظرية للإنتاج أو التنمية الإقتصادية لا تكون إلا من صنع الإنسان وبما يقتضيه ذلك من توصيلات ترتبط بالواقع الجديد للمجتمع المعاصر [١٨].

ولقد إرتبط الإسلام منذ البداية بالتجارة أكثر من إرتباطه بالزراعة والصناعة . ويبدو ذلك فى رحلتى الشتاء والصيف ثم فى رحلات السفر والتجارة التى قام بها أناس من أمثال سليمان التاجر ، وابن بطوطة ، ورحلات المسلمين إلى الصين وفى قلب أفريقيا حتى إرتبطت كلمة تاجر (داشى) فى اللغة الصينية وجلايه فى جنوب السودان بكلمة مسلم [١٩].

ومن ثم فإن الظروف الجديدة إستدعت مواقف معاصرة لها وعلى نفس مستواها وإقتضى الأمر موقفاً محدداً من قوى وعلاقات الإنتاج فى المجتمع سواء كان إنتاجاً زراعياً أم تجارياً .

ويرى الحزب الجمهورى - كما جاء فى برنامجه ١٩٥١ - أن أسلوب الإنتاج يجب أن يكون اشتراكياً بالإعتماد على النفس عن طريق المؤسسات الجماعية .

والإشتراكية - عند الجمهوريين - تعنى تنمية الموارد وعدالة توزيع الثروة وتتحقق التنمية للموارد الطبيعية بالعمل والمعرفة بالعلوم (وإستخدم الآلة المتطورة) وتعنى عدالة التوزيع ، المساواة الإقتصادية .

وتحقيق الإشتراكية - عند الجمهوريين - تقوم تفصيلاً على دعامتين إثنتين أولهما زيادة الإنتاج من مصادر الإنتاج وهى المعدن والزراعة والصناعة والحيوان، وذلك بالإستخدام الآلى المتطور وبتجويد الخبرة الإدارية والفنية ، وثانيها عدالة التوزيع وهى تعنى ، فى مرحلة الإشتراكية أن يكون هناك حد أعلى لدخول الأفراد ، وحد أدنى على أن يكون الحد الأدنى مكفولاً لجميع المواطنين بما فى ذلك الأطفال والعاجزين والمسنين ، وأن يكون هذا الحد الأدنى كافياً لعيش المواطن فى مستوى معيشة يحفظ له كرامته البشرية . أما الحد الأعلى للدخول فيشترط فيه ألا يكون أكبر من الحد الأدنى بأضعاف كثيرة حتى لا يخلق طبقة عليا تستنكف أن تتزاوج مع الطبقة ذات الدخول الدنيا ، ومن أجل زيادة الإنتاج وجب تحريم ملكية مصادر الإنتاج ، ووسائل الإنتاج ، على الفرد الواحد ،

أو الأفراد القلائل فى صورة شركة ، ولا يحل للمواطن أن يملك ملكاً فردياً إلا المنزل والأثاثات داخله والحديقة والسيارة وما إلى ذلك مما لا يتعدى استخدام مواطن إستخداما يكون على حساب مواطن آخر . والملكية الفردية حتى فى هذه الحدود الضيقة يجب ألا تكون ملكية عين للأشياء المملوكة وإنما هى ملكية إرتفاء وتظل عينها مملوكة لله ثم للجماعة بأسرها (٢٠).

ثم أنه كلما زاد الإنتاج من مصادره المختلفة إتجهت عدالة التوزيع إلى الإرتقاء وتقريب الفوارق ، وذلك برفع الحد الأدنى بغية تحقيق المساواة المطلقة ، وعند تحقيق المساواة المطلقة بفضل الله ثم بفضل وفرة الإنتاج تتحقق الإشتراكية ، ويتحقق المشاع فى الإنتاج والتوزيع . ويرى الجمهوريون أن الصوفية قد عاشوا هذه الحياة، حين تصوروا جميع الأرض وما عليها من خيرات كمائدة أنزلها الله على عباده وأمرهم أن يرتقوا منها بزاد المسافر ، وهم أمام المائدة سواء ، فلا تقع لك من ملكية فردية إلا قطعة الطعام التى تحتويها أصابعك فى رحلتها إلى فمك ، فمن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له وهذا هو القول وعمل رسول الله (ﷺ) (٢١).

وارتبط بمسألة الإشتراكية عند الجمهوريين ، قضية المساواة السياسية أى الديمقراطية ، وهى تبتغى أن يكون الناس شركاء فى السلطة ، كما هم شركاء فى خيرات الأرض ، والديمقراطية صنو الإشتراكية .. والديمقراطية ظهرت قبل الاشتراكية لأن الاشتراكية تحتاج إلى وعى جماعى أكثر مما تحتاجه الديمقراطية التى قد تقوم فى بدايتها على قلة من المثقفين . وقد أنجزت الديمقراطية الحديثة فى تطورها البشرى عدة طموحات للشعوب كالمساواة بين الناس ، وأن أصبحت الحكومات خادمة للشعوب بدلاً من أن تكون الشعوب خادمة للحكام ، وأن أصبح القانون له قوة الإحترام ، وأن أصبحت الحكومات غايتها تحقيق أهداف الأغلبية وأصبحت الإجراءات الديمقراطية والهيئات التشريعية والتنفيذية والقضائية ليست غاية فى ذاتها إنما هى وسائل لتحقيق كرامة الإنسان (٢٢) ويرتبط أيضاً بالإشتراك مسألة (المساواة الإجتماعية) أى محو الطبقات والفوارق ، وهذه هى أصعب المساويات تحقيقاً ، وتعتبر المساواة

الإقتصادية والمساواة السياسية مقدمة لها ، وهى لم تتحقق للإنسانية إلى يومنا هذا ، ولن تتحقق فى المستقبل إلا بالجهد الشاق والتربية والتعليم لتصحيح وتغيير ما هو طبيعى فى المسلك الإنسانى ، وهى بذلك أرقى إنتاج المدنية فى جميع العصور ، إذاً المدنية ما هى إلا محاولة تبعد الإنسان عن نزعاته الحيوانية الدنيئة وتقوده إلى مستوى أعلى من الخلق حيث يستبدل قانون الغابة بقانون العدل الحق والمرحمة ، فيدخل بذلك التحسين فى نوع العلاقات البشرية فيحل الرضا محل القوة والعدالة محل الإستغلال (٢٣).

ويقرب الحزب الناس من مفهوم برنامجه فى الجانب المادى فيما يختص بالزكاة فى معرض نقد زعيمه محمود محمد طه لكتاب الأستاذ خالد محمد خالد المسمى (من هنا .. نبدأ) كما جاء من جريدة الرأى العام فى ٢ / ٣ / ١٩٥١ حيث قال (الزكاة بهذا المعنى) . ليست الزكاة التى هى أصل تعبدى .. وستلغى عندما تستغنى المجموعة عنها فى التشريع الدينى المقبل ، المستمد من القرآن ، للعالم الحديث لأن النفوس الآن تستطيع أن تستيقن فى ظل النظم العادلة أن ما زاد عن حاجتها من المال ليس لها فيه حق الإكتناز .. وإنما هو حق المجموعة تصرفه إلى المحتاج إليه من الأفراد .. وفى صورة تنظيم إقتصادى إجتماعى ، يهدف إلى جعل المساواة فى الغرض مكفولة بين جميع أفراد الأمة لأن نظام الصدقات المشروع فى الإسلام .. قد أملته حاجة المجموعة الإسلامية منذ القرن السابع . فإذا تحققت العدالة والمساواة الإجتماعية تتلاش قيمة الزكاة فى الواقع العلمى (٢٤).

ويتضح موقف الحزب عند تعرضه للحديث عن بعض القضايا الحياتية كالرق، فقد جاء فى إحدى كتب منهج الحزب أن الرق كان سائداً قبل الإسلام ، ولم يكن من السهولة ولا من الحكمة إلغاء الرق على الفور ، لأن ظروف المجتمع وتكوين العمالة فيه فى هذا الوقت كانت تقتضى الإبقاء على هذا النظام مع العمل المستمر على تطويره ، حتى يخرج كل مسترق من ربقة الرق إلى حالة الحرية بدلا من الاستغالال البشع الذى يهدر كرامته (٢٥).

وحول قضية الرق يختلف الحزب مع الشيخ متولى الشعراوى حيث يرفض محمود محمد طه قبول استمرار الرق، كما جاء فى كتاب الشيخ الشعراوى، معركة التشكيك فى الإسلام، صـ ٤٣، ٤٤ أن كتاب لارق الا بحرب مشروعه .. (وحينما يؤخذ الأسير، يبقى على حياته ويؤخذ أسيرا رقيقا فى المعاملة الإسلامية التى يعامل بها، إنها ليست موجودة فى احدث النظم الإنسانية ..».

وسبب رفض الجمهوريين - كما ذكروا - قبول الرق، أنهم يعتقدون أن الإسلام فى أصوله لا فى تشريعه الماضى، يحقق الحرية والكرامة وأن الشيخ الشعراوى يتحدث عن صور من التشريع صلحت للمجتمع الماضى ، ذلك المجتمع الذى خرج لتوه من جاهلية غليظة متخلفة ... ولذلك فإن تلك الصور من التشريع ومن بينها (الرق) لا تصلح مقارنتها بما اسماه الشعراوى (احدث النظم الإنسانية) ذلك لان هذه النظم قد جاءت بعد تطور كبير للمجتمع الإنسانى خلال أربعة عشر قرنا، وصدرت قوانين دولية منها معاهدة جنيف الثالثة ١٩٤٩، التى نصت على وجوب المعاملة الإنسانية للأسرى وحيث أصبح الرق ممنوعا بل وغير مقبول على الإطلاق (٢٦).

ويحدد الحزب موقفه من المرأه حين أكد على ضرورة المساواة التامة بين الرجال والنساء ويتضح ذلك فى المسئولية الفردية أمام الله، يوم الدين حين تنصب موازين الأعمال. وأنه لما كان المجتمع (الجاهلى) غير مستعد لقبول تشريع الإسلام لحقوق المرأة فى مستوى ما يراد لها من الخير، كان لابد من فترة إنتقال يتطور فى أثنائها الرجال، والنساء ... والمجتمع .. وهكذا جاء التشريع ليجعل المرأة على النصف من الرجال فى الميراث وعلى النصف منه فى الشهادة ..، (٢٧).

ويستطرد الجمهوريون فى شرحهم بأن تعدد الزوجات ليس مرغوبا فى الإسلام فالرجل كله للمرأة كلها ويلتمس ذلك فى قوله تعالى "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة "، إن قبول مبدأ تعدد الزوجات كان راجعا إلى ظروف موضوعية كانت موجودة فى مجتمع الجاهلية والإسلام، وهو قلة عدد الرجال نتيجة الحروب مع كثرة النساء مما جعل الزواج بأكثر من واحدة يسمح لأخريات بالزواج بدلاً من أن تظل النساء بدون زواج (٢٨) .

ومن منطلق إيمان الحزب بالحرية الفردية المطلقة فإنه لا يقبل الحجاب الذى يعتبره عقوبة حكيمة على سوء التصرف فى حرية السفور ، ويرى أن الأنسب هو السفورطالما أن هناك حرية ، وأن الحرية تظل مكفولة إلى أن يسئ الإنسان التصرف فيها وهنا يجب مصادرتها (٢٩).

وينادى الحزب بأن تكون المرأة متعلمة مثقفة بامكانها أن تجارى الرجل وتشارك فى العمل مشاركة منتجة ، وتقوم بدورها فى تنشئة الأطفال ، وقضاء مهام المنزل .

ويؤكد كثير من الباحثين على أن الإسلام قد أقر كامل إنسانية المرأة وكرامتها وأهليتها للحقوق والاستقلال وكامل مسئولية المرأة كالرجل تماماً (٣٠) .

ومن الواضح أن الحزب الجمهورى قد نظر إلى تراثه ومشاكله فأراد أن يتخلص المجتمع السودانى بل العالمى من كثير من تراثه الماضى ومنه ما يتعلق بالمرأة ، فيريد لها أن تتساوى بالرجل إلا ما يتصل بها كأنثى ، وأن تكون حرة فى أختيار زيها ومظهرها وأن تختار زوجها عند الزواج ، بحيث لا تصبح دمية تحركها مصالح الناس المادية .

وعند تعرض الجمهوريين للقوانين التى تحكم حركة المجتمع فى النظرة الكونية العامة والقوانين المنظمة للأحياء والجوامد رأوا - على لسان زعيمهم أنه ليس هناك قوانين سماء وقوانين أرض ، وإنما هناك قوانين كاملة سرمدية ثابتة هى القوانين الطبيعية وهى فى حقيقتها محاكاه للقوانين الطبيعية تقترب من الكمال ، كلما إقتربت مسافة الخلاف بينهما . والقوانين الوضعية أثر من آثار العقول البشرية ، وهى فى تطور مستمر ... وتستهدف فى تطورها القانون الطبيعى كمثل أعلى . والقوانين الإسلامية ليست بدعاً وإنما هى إنعكاس لظروف الناس على الأرض.(٣١) وهنا نلاحظ قناعة لدى الجمهوريين بأثر العوامل الموضوعية على خلق النظم والقوانين ، فالأرض والسماء والكواكب والقوانين المحركة لها ولما عليها هو أصل كل إطار نظرى لدى الناس .

ويرى الجمهوريون - ضمن مايروا - أنه لكى يمرن الإنسان نفسه على أن يحيا حياة سليمه واعية ، عليه أن يقلد سيدنا محمد (ﷺ) فى منهاج حياته

تقليداً واعياً مع الثقة التامة بأنه قد أسلم نفسه إلى إرادة هادية تجعل حياته مطابقة لروح أعظم شخص وأكرم أنسان (٣٢) . وأن الواجب أن يتبع سبيل الرسول الكريم فى الصلاة والزكر والأستغفار ، وفى أداء الفروض ، وفى الإتصاف بشمائله وأخلاقه ومعاملاته مع الناس ، ورحمته ولطفة ، ونسكه وتواضعه (٣٣) .

ويرى رجال الحزب الجمهورى أن الأصل فى الإسلام التوحيد وهو ثابت ، والفروع هى الشرائع وهذه ليست ثابتة إنما تتغير بتغير الأصول بدليل أنه لم ترد نصوص حاكمة فى موقف أو قضية جديدة نتجت بتطور المجتمع ، تصدر تشريعات تتناسب مع الموقف الجديد . ويرى محمود طه أن الإنسانية فى القرن العشرين ذات نظرة مختلفة إلى الإسلام بصورته التى تنزل بها فى القرن السابع وقال أن هناك رسالة ثانية موجودة أساساً فى الإسلام وعنى بها الإسلام فى صورة جديدة وثوب جديد ينظر إلى المجتمع بعد إستيعاب كل مانتج عنه من عمل وفكر وصناعة ومال ، وما إلى ذلك (٣٤) . والواضح أن محمود طه زعيم الأخوان الجمهوريين أراد خلق توليفة إسلامية جديدة . تحقق ما يرجوه مادياً ، وتبقى على الواقع الروحى الإسلامى السائد ، فخلق بذلك موقفاً نظرياً فريداً فى نوعه مما عرضه للنقد والمحاكمة والسجن إزاء محاولة لتعديل تراث أربعة عشر قرناً من النصوص الراسخة .

ويعتبر الجمهوريون أن المدنية المادية تعنى الرأسمالية والشيوعية على حد سواء ، فيرفضوا كل منهما بشكله القائم ، ويتطور الجمهوريون مع تطور التاريخ البشرى كله ويقفون عند القرن الحالى ويقارنون بين الحضارات ويصلوا إلى أن سبب فشل المدنية المادية الآلية يرجع إلى عدم القدرة على الإجابة الشافية لسئوالين هامين أولهما ، ما هى حقيقة العلاقة بين الفرد والجماعة؟ وثانيهما ، ما هى حقيقة العلاقة بين الفرد والكون ؟ (٣٥) .

وانسجاماً مع فكر الحزب يزكر محمود طه فى كتابه رسائل ومقالات إن الشيوعية تمثل العدالة الإجتماعية وتهدر حق الفرد فى الحرية الفردية المطلقة ، فتخضعه اخضاعاً تاماً لمصلحة الجماعة ، ثم يقول والذى لا شك فيه أن

الديمقراطية لا تمثل الحرية ولا تمثل العدالة الإجتماعية .. فهى تحاول التوفيق بين حاجة الفرد إلى الحرية المطلقة وحاجة الجماعة إلى العدالة الإجتماعية فلم تبلغ فى ذلك طائلاً ، ويرى محمود طه أن التوفيق بين العدالة الإجتماعية والحرية الفردية المطلقة هى قضية العالم اليوم وأن حلها يأتى عن طريق التربية، ومن خلال حكومة عالمية توحد الإنسانية تحت قانون واحد ينظم علاقات الأفراد والجماعات على هدى العلم وعواطف الرحمة [٣٦] .

لقد واجه الجمهوريون منذ ظهور حزبهم معارضة خلال الحكم الإستعمارى وسجن زعيمهم خلال هذا العهد مرتين أولهما فى يونيو ١٩٤٦ عندما ظهر نشاط الحزب وإنتشرت منشوراته ، ثم أخرج من السجن ، والمرة الثانية فى أكتوبر ١٩٤٦ . عندما تظاهر وخطب فى دفاعه ضد الحكومة ونظامها بسبب القبض على إمرأة لأنها زاولت الختان الفرعونى[٣٧] ، وبعد الإستقلال ساد جو أكثر جدية لعرض كل الأفكار والآراء من يمينية إلى يسارية إلى وسطية ، ولكن عانى الجمهوريون ماعانوه خلال حكم جعفر نميرى ونتيجة لصدور بعض المنشورات عنهم خاصة كتاب الرسالة الثانية لمحمود محمد طه .

ويعلن الجمهوريون عما عانوه من رجال الدين ، ومن المعارضة التى تبناها رجال الأحزاب الطائفية ، والاخوان المسلمين ، حيث إستخدم هؤلاء الوعاظ والأئمة فى المساجد والقضاة الشرعيين لتحريض السلطة ضدهم وإيقاف نشاطهم بحجة المحافظة على الإسلام ، وإستقرار الأمن فى البلاد ، وتقدم الجمهوريون بشكاوى فى محاكم جنايات ضد من أسموهم بالمغرضين والمحرضين الذين يحرضون المواطنين ضد رجال الحزب . وبين الجمهوريون أن محاربة الفكرة بهذا الشكل لا يقرها دين أو قانون إنما يجب مقارعة الحجة بالحجة إذا توفر للناس سعة الأفق مع قدر الثقافة المعاصرة ، ونقد الجمهوريون أسلوب تهديد بعض الجمهوريون بالتعدى والقتل ، لأن هؤلاء المهددين مدفوعين من جانب آخرين من الطائفية والإخوان ، وهم ينكرون تهديدهم عند وقوفهم أمام المحاكم رغم أن قضاة المحاكم كانوا متعاطفين معهم [٣٨] .

وكراهية فى الطائفية فإن الجمهوريين قد عارضوها معارضة شديدة منذ قيام خزبهم لأنهم يعرفون أن هذا هو مرض السودان الأليم ، وأصدروا عدداً من الكتب والمنشورات فى معاداة الطائفية وأسلوبهم وسياستهم منها ، الطائفية ، وأحداث الجمعة (الصادرة بمناسبة التحالف المهدوى الليبى لقيام إنقلاب فى السودان فى ٢ / ٧ / ١٩٧٦ ، المعروف بإنقلاب هاشم العطا ، والذى فشل بأثر عوامل خارجية وبفعل مواقف محلية فى البلاد (٣٩) .

وقد رفعت دعوى ضد محمود طه بأنه مرتداً عن الإسلام وانعقدت فى ١٨ نوفمبر ١٩٦٨ جلسة للمحكمة الشرعية العليا لتنظر فى دعوى الردة الموجهة لرئيس الحزب الجمهورى من الشيخين الأمين داود محمد ، وحسين محمد زكى ، وقد طلب المدعيان من الحكمة إعلان ردة محمود محمد طه عن الإسلام غيابياً .

وضمن ماجاء فى إتهامات المدعيين أن محمود محمد طه لا يصلى وهذا هو إتهام الأمين داود محمد - وذكر عن الشيخ محمود أنه لا يصلى ويصرح بأنه واصل والواصل لا داعى أن يصلى . ويرد عليه محمود محمد طه فى كتاب أسماه ، بيننا وبين محكمة الردة فى يناير ١٩٦٩ بقوله ، أن ما أوردنا هو بالنص (حين يرتفع السالك إلى مرتبة الأصالة ، ويخاطب بالإستقلال عن التقليد ، ويتهيأ ليأخذ صلاته الفردية من ربه بلا واسطة ، تأسياً بالمعصوم ، فهو حينئذ لا تسقط عنه الصلاة وإنما يسقط عنه التقليد (٤٠) ، وهو يقصد أن الصلاة عمل لاتقليد وأنه عندما يرتفع الإنسان فى مدارك الإيمان يصلى بالأمر مباشرة من عند الله).

ويدعى المدعى الثانى - كما قال محمود طه - أن شيخ الجمهوريين قال "وما من نفس إلاخارجة من العذاب فى النار ، وداخلة فى الجنة حين تستوفى كتابها من النار .. والخطأ كل الخطأ ظن من ظن أن العقاب فى النار لا ينتهى إطلاقاً، فجعل بذلك الشر أصلاً من أصول الوجود وما هو بذلك ، وحين يصبح العقاب سرمديا يصبح انتقام نفس حاقدة" ويقف المدعى فى النقل عند هذا الحد ويقول أن محمود محمد طه يصف الله تعالى بالحق ، ويرد عليه محمود محمد طه فى نفس الكتاب المذكور ، بأن الرجل لم يكن أميناً فى النقل لأن النص الأصلى يقول،

والخطأ كل الخطأ ظن من ظن . أن العقاب فى النار لا ينتهى أطلاقاً ، فجعل بذلك الشر أصلاً من أصول الوجود ، وما هو بذلك ، وحين يصبح العقاب سرمديا يصبح إنتقام نفس حاقدة لا مكان فيها للحكمة وعن ذلك تعالى الله علواً كبيراً (٤١) .

وتعقيباً على موقف الإخوان المسلمين من الحزب الجمهورى أصدر - حزبهم كتب ومنشورات منها (إنتهازية الإخوان المسلمين) حيث وصفهم الجمهوريون بعد إنتخابات مجلس الشعب فى عهد جعفر نميرى ١٩٨٠ - بأنهم دخلوا الإنتخابات (بأموال مشبوهة ، وبثقل تنظيمى مريب وبمتاجرة بالدين ، وبتضليل دينى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البلاد وبإنتهازية سياسية يمكن لو قدر لها أن ترسى قواعدهم وترسخ أقدامها فى العمل السياسى ، أن تطيح بكل مكتسبات هذا الشعب من الوعى السياسى ... (٤٢) .

وإذا كان لب قضية الأخوان هى الإشتراكية ، فى الجانب الإجتماعى من خلال منهج إسلامى ، فالواقع أنه إذا كان التأميم الذى ورد فى منهجهم ليس وارداً بالنص فى القرآن ولا السنة ، رغم المناسبات التى بدأ فيها الرسول الكريم، وصحابته راغبين فى جعل المال الخاص مال عام ، فإن ما توصل إليه محمود طه وحزبه من أنه لن ينصلح حال المجتمع إلا بأن تكون الدولة العامة هى المالكة لكل شئ ، وما توصل إليه زعيم الجمهوريين لحزبه هو فى حقيقة إنعكاس لأمرين هامين ، أولهما التطور البشرى كله خاصة فى أوربا خلال القرنين الأخيرين ، وما نتج عن ذلك من مفاهيم إجتماعية كما بدأ فى ألمانيا حيث ركز مفكروها خاصة إنجلز وماركس على المفاهيم الإشتراكية ، وفى فرنسا حيث ركز مفكروها خاصة أوجست كونت ، على الإصلاح الإجتماعى ، ومجتمع العدل والمساواة وظهور دول إشتراكية حديثة من البلاد التى كانت مستعمرة كالصين ، ونموذج الصين بالذات لفت أنظار الدول المستعمرة أو المستقلة حديثاً من الاحتلال العسكرى بعد الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية الستينات ، والأمر الثانى أنه من منطلق مقت الجمهوريين للطائفية والعصبية فى السودان فقد نادوا بالحل البديل وهو نظام إشتراكى لا يعرف الإرث ، ولا الطائفية ولا العصبية بل يعرف العمل .

أما أن محمود محمد طه يشير إلى أنه يمقت النظم المادية بأكملها ويعنى بها النظامين الرأسمالى والشيوعى فهذا يعنى ثلاثة أشياء الأول أنه كره الإستعمار وإستغلاله لبلدان العالم المتخلف ومن ثم كره الرأسمالية ولكنه لم يمانع من أن يأخذ من هذا النظام الديمقراطية الحقة التى تقوم على الاختيار الواعى من شعب متعلم لا تشوبه الحركة تجهيل ، والثانى أنه النظام الشمولى الاشتراكى ، ووجد فيه مزايا لطبقات العمال والفلاحين ، فرأى أنها ستستفيد من هذا النظام ولكنه قوبل بمشكلة صدام النظم الإشتراكية مع بعض مفاهيم الدين الإسلامى ، لذلك حاول أخذ المزايا وترك العيوب . والثالث أنه حلا لكل المشكلات التى قابلتة لتحقيق صورة مجتمع متقدم دعى إلى إقامة نظام إنسانى يحمل كل نظم الإنسانية المختلفة فى نطاق الدين الإسلامى .

إن نظام الحزب ينشد الأمن والاستقرار والمحبة والعدل ، وكل ما دخل هذه النظام هو توليفة من مزايا كل النظم التى مرت بتاريخ العالم ، فالحزب يريد ديمقراطية حقة ، واشتراكية فى الانتاج والتوزيع ، وزوال للفقر والجهل والمرض ، وأخلاق قيمة فى نطاق عالمى نابع من الإسلام وطريق المحبة ، ومحمود طه هنا - فى كلامه بإسم حزبه - ليس واقعياً لأن إنسانية القرن العشرين محدودة مواقفها ، فى كتلة غربية ، اتخذت النظام الرأسمالى طريقها ولها أحلافها وعلاقاتها وكتلة شيوعية لها نظامها واحلافها ، والحركة التى تحدث الآن تحدث على مستوى العالم الثالث فى المقام الأول باعتبارها دول معتمدة ، ومتخلفة بفعل عوامل امبريالية . والحركة تتطور فى عالم تجاه النظام الذى تثبت التجربة النظرية والعلمية إمكاناته على لتحقيق أكبر قدر من الديمقراطية وعدالة التوزيع والنفوذ ، وهذا ليس فى يد دولة معتمدة كالسودان ومن منطلق أفكار حزبة الجمهورى .

إن دول عالمنا المتخلف تأثراً بواقعها ينتاب مفكريها نزعات ونظريات تحمل أحياناً طابع الواقع ، كما تحمل كثيراً من الخيال ، لأن رجالها يطمحون أكثر من طاقتهم .

ومن الأسئلة الهامة الواجب الإشارة إليها . لماذا لم تظهر مواقف الحزب الجمهورى لدى كثير من كتاب الحركة الوطنية ؟ وربما يرجع ذلك إلى أنه حزب أقلية أو إلى أن آرائه الغريبة ، أو لأن النظم الشرعية قد واجهت الحزب ورجاله أو لأن زعيم الحزب قد مس طقوس الدين الإسلامى مما قلب عليه رجال الدين فى مناطق مختلفة .

ومن الملاحظات الجديرة بالاعتبار أن أعضاء الحزب لم يكونوا على نفس مستوى زعيمهم من الفهم والبحث والاجتهاد كما وأنهم لم يكونوا على نفس شاكلته من حيث المخاطر مما أدى به إلى أن حكمت عليه حكومة جعفر نميرى بالاعدام . لكن هذا العمل ، وهو اعدام شيخ جاوز السبعين وأفنى حياته وتفكيرة فى الحفاظ على مبادئه أياً كانت ليس من أجل هدف شخصى وإنما لتطور مجتمع بأكمله قد أدى إلى إثارة كوامن التناقضات الموجودة فى حكومة نميرى ، وإلى التعاطف مع الشيخ المسن حتى بعد إعدامه إلى إن قامت الإنتفاضة الشعبية الكبرى ١٩٨٥ باسقاط الحكم العسكرى، وأعلنت الحكومة الجديدة أن هذا الشيخ المسن بريئاً.

الهوامـــش :

١ - محمد على محمد الطيب ، الحركة الوطنية فى السودان ١٩٣٦ - ١٩٦٥ ، دكتوراه غير منشورة ، آداب عين شمس ، ١٩٨٣ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٢ - زكى البحيرى ، التطور الإقتصادى والإجتماعى فى السودان ١٩٣٠ - ١٩٥٦ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٧ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

٣ - أحمد خير ، كفاح جيل ، تاريخ حركة الخريجين وتطورها فى السودان ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٥ - ١١١ .

٤ - حسن مكى محمد أحمد ، حركة الأخوان المسلمين فى السودان ١٩٤٤ - ١٩٦٩ ، دار الفكر الخرطوم ، ١٩٨٣ ، ص ١٧ - ٤٢ ، وكذلك صوت السودان ٢٧ - ٣ - ١٩٤٩ .

٥ - صلاح محى الدين ، دور الصحافة السودانية فى الحركة الوطنية فى الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٥٦ ، دكتوراه غير منشورة ، كلية الإعلام ، جامعة القاهرة ١٩٨٤ .

٦- لمزيد من التفاصيل راجع، أحمد سليمان، ومشيناها خطى، دار الفكر، الخرطوم ١٩٨٣، ص ١٥ - ٩٦ .

٧- الأخوان الجمهوريون، الإستقلال جد روحه الحرية، الطبعة الأولى الخرطوم، غرة يناير ١٩٨١، ص ٦ - ١٣ .

٨- الأهرام ١٠ - ١١ - ١٩٥٢ .

٩ - الأهرام ١ - ٣ - ١٩٥٩ .

١٠ - برنامج الحزب الجمهورى، قل هذه سبيلى، بدون تاريخ، معهد أمين عطبرة . ص٧-١١ .

١١ - برنامج الحزب، ص ١ - ٢ .

١٢ - نفس المصدر، ص٤، ١٢، ٧ - ١٠ .

١٣ - نفس المصدر، ص ٣- ٤ .

١٤ - نفس المصدر، ص ٢ - ٣ .

١٥ - محمود محمد طه، رئيس الحزب الجمهورى، يقدم أسس دستور السودان، الطبعة الثانية، مطابع سودان ايكو، الخرطوم ١٩٦٨ ، ص ٧٤ - ٨٠ .

١٦ - عبد الهادى النجار، الإسلام والإقتصاد، سلسلة عالم المعرفة، رقم (٦٣) ، ص ٥٦ - ٥٩ .

١٧ - نفس المكان .

١٨ - نفس المرجع، ص ٧١ .

١٩ - فهمى هويدى، الإسلام فى الصين، سلسلة عالم المعرفة رقم (٤٣)، ص ٢١٢ .

٢٠ - الحزب الجمهورى، الرسالة الثانية من الإسلام، مطبعة مصر - سودان ليمتد، الخرطوم ١٩٦٧، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

٢١ - نفس المصدر، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

٢٢ - نفس المصدر، ص ١٦١ - ١٦٥ .

٢٣ - نفس المصدر، ص ١٦٨ .

٢٤ - محمود محمد طه، الكتاب الأول من سلسلة، رسائل ومقاولات، الطبعة الأولى، ابريل ١٩٧٣ ، ص ١٩ - ٢٠ .

٢٥ - الحزب الجمهورى، الرسالة الثانية، ص ١٣١ - ١٣٢ .

٢٦ - الإخوان الجمهوريون، هذا هو الشيخ محمد متولى الشعراوى أم درمان ١٩٨١، ص٦-٧ .

٢٧ - الحزب الجمهورى، الرسالة الثانية، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

٢٨ - نفس المصدر، ص ١٣٥ - ١٤٠ .

٢٩ - نفس المصدر، ص١٤١ - ١٤٢ .

٣٠- عبد الهادى النجار، المرجع السابق، ص ٤٢ .

٣١ - مخمود محمد طه، رسائل ومقالات ، المصدر السابق، ص ٢١ - ٢٢ .

٣٢ - برنامج الحزب، المصدر السابق، ص ١٣ .

٣٣ - الحزب الجمهورى، طريق محمد، الخرطوم ، ١٩٦٥، ص ١٦ - ٢٣ .

٣٤ - الحزب الجمهورى ، الرسالة الثانية ، ص ٧ - ١٠ .

٣٥ - نفس المصدر، ص ١١ .

٣٦ - محمود محمد طه، رسائل ومقالات ، ص ٦ - ٩ وكذلك، محمود محمد طه، يقدم، الإسلاما، الطبعة الثانية ١٩٦٨ ص ١ - ٦ .

٣٧ - خالد الحاج عبد المحمود، دور الحزب الجمهورى فى الحركة الوطنية ١٩٤٥ - ١٩٥٦، مؤتمر الحركة الوطنية فى السودان ٨ - ١٥ يناير ١٩٨٦ . بمعهد الدراسات الأفريقية، ص ٤٤ - ٦٦ .

٣٨ - الإخوان الجمهوريون، محكمة الردة، الخرطوم، نوفمبر ١٩٨١ ، ص ٢١ - ٣٢

٣٩ - الإخوان الجمهوريون، الكائنية ١١ واحدات الجمعة ١١ ، الخرطوم، يوليو ١٩٧٦ ص٣-٥ .

٤٠ - محمود محمد طه، بيننا وبين محكمة الردة، للطبعة الثانية، يناير ١٩٦٩، ص ٥ - ٧ .

٤١ - نفس المصدر، ص ١٤ - ١٥ .

٤٢ - الإخوان الجمهوريين - انتهازية الإخوان، ص ٣ - ٤ .

المصادر والمراجع.

برامج ومنشورات الحزب حسب تواريخ صدورها .

١- الحزب الجمهورى، قل هذا سبيلى، معهد أمين عطبرة، ١٩٥١ .

٢ - الحزب الجمهورى، طريق محمد ، الخرطوم ١٩٦٥ .

٣ - محمود محمد طه، يقدم رسالة الصلاة، السفر الأول، الخرطوم يناير ١٩٦٦ .

٤- الحزب الجمهورى، الرسالة الثانية من الإسلام، مطبعة مصر - سودان ليمتد ، الخرطوم يناير ١٩٦٧ .

٥ - محمود محمد طه، يقدم الدستور الإسلامى، نعم .. ولا !!، مطابع سودان اكو، أم درمان، يناير ١٩٦٨ .

٦ - محمود محمد طه، يقدم، الإسلام، الطبعة الثانية، أم درمان ، اغسطس ١٩٦٨ .

٧ - محمد محمد طه، أسس دستور السودان، مطابع سودان أكو ، أم درومان نوفمبر ٦٨

٨ - محمود محمد طه، بيننا وبين محكمة الردة، الطبعة الثانية، شركة الطابع السودانى المحدودة. الخرطوم يناير ١٩٦٩ .

٩ - محمود محمد طه، الإسلام برسالته الأولى لا يصلح لانسانية القرن العشرين، الخرطوم يناير ١٩٦٩ .

١٠ - محمود محمد طه، الكتاب الأول من سلسلة رسائل ومقالات، الطبعة الأولى الخرطوم ١٩٧٣ .

١١ - الإخوان الجمهوريون، الطائفية أو أحداث الجمعة، الخرطوم ، ١٩٧٦ .

١٢ - الإخوان الجمهوريون، انتهازية الإخوان الجمهوريين، الخرطوم الطبعة الثانية، ,١٩٨٠

١٣ - الإخوان الجمهوريون، الإستقلال جسد وروحه الحرية، أم درمان ، يناير ١٩٨١ .

١٤ - الإخوان الجمهوريون ، هذا هو الشيخ محمد متولى الشعراوى ، أم درمان، الطبعة الأولى، سبتمبر ١٩٨١ .

١٥ - الاخوان الجمهوريون، محكمة الردة، أم درمان ، نوفمبر ١٩٨١ .

مصادر ومراجع اخرى:

١٦ - الأهرام فى ١ - ١١ - ١٩٥٢، وفى ١ - ٣ - ١٩٥٩ .

١٧ - صوت السودان فى ٢٧ - ٣ - ١٩٤٩ .

١٨ - أحمد سليمان، ومشيناها خطى، دار الفكر، الخرطوم ١٩٨٣ .

١٩ - أحمد خير، كفاح جيل، دار الشروق، القاهرة ١٩٤٨ .

٢٠ - حسن مكى، حركة الاخوان المسلمين فى السودان ١٩٤٤ - ١٩٦٩ . دار الفكر، الخرطوم ١٩٨٣ .

٢١ - زكى البحيرى، التطور الإقتصادى والإجتماعى فى السودان ١٩٣٠ - ١٩٥٦ . النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٧ .

٢٢ - صلاح محى الدين، دور الصحافة السودانية فى الحركة الواطنية ١٩٣٧ - ١٩٥٦ دكتوراه غير منشورة، كلية الاعلام ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٤ .

٢٣ - عبد الهادى النجار، الإسلام والإقتصاد، عالم المعرفة (٦٣).

٢٤ - فهمى هويدى، الإسلام فى الصين، سلسلة عالم المعرفة (٤٣).

٢٥ - محمد على محمد الطيب ، الحركة الوطنية فى السودان ١٩٣٦ - ١٩٥٦ - دكتوراه غير منشورة أداب عين شمس ، ١٩٨٣ .

جامعة القاهرة – معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٢١٧ – ٢٣٧

العلاقة الخاصة بين مصر ومديرية دنقلة السودانية
١٨٨١ - ١٨٩٩

إعداد
د. رأفت غنيمي الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وعميد كلية الآداب جامعة الزقازيق

مقدمة

إذا وصفت الصلات بين مصر والقطر السوداني بحدوده الجعرافية المعروفة بأنها ذات طبيعة خاصة في العلاقات الدولية انطلاقاً من وحدة وادي النيل الأزلية ، لدرجة يعيب القوميون العرب على مصر أنها تعطى الأولوية في أية جهود تشارك فيها مصر لتحقيق الوحدة العربية إلى وحدة وادي النيل وهي الوحدة القائمة على أسس جغرافية طبيعية والتي يظهر فيها عامل المصلحة بصورة أوضح [1] .

إذا كانت علاقات قطري وادي النيل مصر والسودان علاقات أزلية وخاصة ، فإن علاقة المديرية الشمالية من السودان (دنقلة) بمصر علاقة أخص ، حيث تعتبر أقرب أرض سودانية إلى الأرض المصرية لا يفصلهما حدود طبيعية ، كما أنها امتداد لبلادالنوبة المصرية من أسوان جنوباً .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك ارتباط سكان المديرية الشمالية بسكان جنوب مصر بأصول واحدة بحيث لا يعترف هؤلاء السكان بأية حدود سياسية تمنعهم من الألتقاء ، كما أن الإسلام دخل من جنوب مصر إلى شمال السودان عبر انتقال القبائل العربية .

---

(١) د. أنيس صايغ: الفكرة العربية في مصر ص ٦٤ .

وعندما قرر محمد على تحقيق وحدة وادى النيل كان الجزء الشمالى من السودان أول أرض سودانية يتخذها محمد على قاعدة لاستكمال وحدة وادى النيل ، وأول إقليم يتدعم فيه مبدأ وحدة وادى النيل بين مصر والسودان.

وعندما حدثت الثورة المهدية ظل إقليم دنقلة محتفظاً بولائه لمصر ولم تشتعل فيه الثورة كغيره من المديريات السودانية ، بل إن كثيراً من سكانه نزحوا إلى مصر مع القوات المصرية المتجهة شمالاً عندما تقرر إخلاء السودان عام ١٨٨٤م.

وأثناء حكم المهدية والخليفة ١٨٨٥ - ١٨٩٦م حاول الأنجليز رسم حدود بين مصر والسودان عند وادى حلفاء، ولكن سكان النوبة المصري السودانية لم يعترفوا بهذه الحدود، بل ظلوا يراسلون الحكومة المصرية من أجل إعاد وحدة وادى النيل مرة أخرى.

وعندما قررت بريطانيا استرجاع السودان عام ١٨٩٦م إن القرار البريطانى مرتبطا باسترجاع دنقلة فقط، وكان نجاح القوات المصرى البريطانى فى إسترجاع إقليم دنقلة مشجعا لاتخاذ قرار باسترجاع بقية أقاليم السودان.

وعندما فكرت الحكومتان المصرية والسودانية فى أوائل الثمانيات من القرن العشرين فى التنسيق فى النواحى الإقتصادية والإجتماعية، نصت اتفاقية التكامل المصرى السودانى على اختيار مديرية دنقلة (المديرية الشمالية السودانية) ومحافظة أسوان من حدودها مع محافظة قنا شمالا حتى الحدود المصرية السودانية بإعتبارها منطقة تنفيذ التكامل فى جميع نواحى الإنتاج ونواحى الخدمات نواة لتكامل بين جميع القطر المصرى والقطر السودانى.

ومن هنا نجد أن هناك علاقات خاصة جدا بين مصر والإقليم الشمالى بالسودان (دنقلة) فى جميع المجالات الطبيعية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية، وخاصة فى فتر التاريخ الحديث والمعاصر.

دنقلة من الثور المهدية إلى الإخلاء (١٨٨١ - ١٨٨٤)

كانت دنقلة إحدى المديريات التى إنقسم إليها السودان الذى نجح محمد على فى ضمه لمصر فى أوائل العشرينيات من القرن التاسع عشر. حيث صار عدد المديريات فى أواخر عهد محمد على سبعا هى: دنقل، بربر، الخرطوم، كردفان، سنار، فازوغلى، كسلا، [٢] كما أن دنقلة كانت أيضا من المديريات السودانية التى حظيت بإهتمام محمد على وتنميتها اقتصاديا، حيث دخلت زراعة القطن فى دلتا خور بركة، وفى حوض القاش ونهر العطبرة، ما أصلحت أراضى دنقلة[٣]. التى كثر بها زراع النخيل وكان تمر النخيل يصدر إلى خارج السودان وإلى أنحاء السودان بكميات تجارية، واستخدمت فى عملية الإصلاح للأرض وزراعة النخيل آلات للرى تم استيرادها من أوربا عن طريق ميناء سواكن.

وفى مجال التعليم حظيت دنقلة بنصيب من التعليم الحديث الذى بدأ يدخل إلى السودان فى عهد عباس باشا الأول عندما تقرر فى مايو ١٨٥٠م إنشاء مدرسة ابتدائية حديثة بالخرطوم يقبل ويقيد فيها مائتان وخمسون غلاما من بلاد دنقلة والخرطوم وسنار وتاكة وملحقاتها من أولاد مشايخها وأحفادها، وتعين ناظرا لهذه المدرسة رفاعه بك رافع الطهطاوى [٤].

كما أنه فى عهد الخديوى إسماعيل دخل التعليم الحديث بصورة أكبر فى السودان إلى جانب تنشيط التعليم الدينى، ومن ثم أنشئت خمس مدارس ابتدائية عام ١٨٦٣م بمدن الخرطوم وبربر ودنقلة وكردفان والاكة، ثم أضيف إليها فى عام ١٨٧١م مدرسة بسواكن وأخرى بمصوع [٥].

وقد تعرضت دنقلة لما تعرضت له بقية مديريات السودان من مساوئ خاصة فى عهد الخديوى إسماعيل نتيجة تسلط الأجانب على مقدرات الأمور فى كل من مصر والسودان.

---

(٢) عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على ص ١٨٦ .

(٣) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٧ .

(٤) د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق جـ ١ ص ١١٤ .

(٥) نفس المرجع ص ٣٩٠ .

ودنقلة تقع على نهر النيل فى السودان الشمالى فى إقليم صحراوى نادر المطر وتسكنه الجماعات الحامية كالنوبيين الذين اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم، كما كانت هناك مجموعة قبلية كبيرة تسكن الاقليم الشمالى للسودان هى مجموعة الجعليين التى تعتبر أكثر المجموعات العربية نفوذا وعددا وقد انتشرت فى المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى جنوب أو درمان (٦).

كما أن محمد أحمد بن عبدالله الملقب بالمهدى ولد بجزيرة "لبب" فى النيل إلى الجنوب من مدينة دنقلة بنحو ١٥ كيلو متر فى ١٢ أغسطس عام ١٨٤٤م، وهو ينتسب إلى القبائل العربية المختلطة بالدماء النوبية ويذهب البعض إلى أن أصله مصرى، وأن موطن إسلامه فى مديرية أسوان (٧). وعلى أية حال فإن انتماء إلى قبائل الكنوز النوبيين له أهمية خاصة فى حياته، حيث أن الكنوز ينتمون إلى آل البيت، ويعيشون فى منطقة النوبة المصرية السودانية، وكان لنسب محمد أحمد المهدى أثر كبير فى نجاح دعوته وتأليف القلوب حوله (٨).

نجح محمد أحمد بن عبدالله فى جذب بعض السودانيين منذ أعلى فى يونيو ١٨٨١م من مقر إقامه بجزيرة "أبا" في النيل الأبيض جنوب الخرطوم دعوته الدينية باعتباره المهدى المنتظر، كما نجح فى صدامه مع قوات حكمدار الخرطوم فيما عرف بموقعه آبا فى اغسطس ١٨٨١ م التى تعتبر أول أحداث الثورة المهدية.

كما نجح محمد أحمد فى ٩ ديسمبر ١٨٨١م فى هزيمة قوات حكومية أخرى بقيادة راشد بك مدير فاشودة، وأوقع هزيمة أخرى بقوات الحكومة فى جبل قدير فى مايو ١٨٨٢م ان يقودها يوسف باشا الشلالى مدير سنار. وكان لهذه الإنتصارات أثرها فى زيادة سطوة محمد أحمد وصدقه الأهالى.

وفى عام ١٨٨٣ م أرسلت حكمدارية الخرطوم جيشاً قوامه عشرة آلاف جندى بقيادة الضابط الإنجليزى "ويليام هيكس" لمحاربة المهدى فى كردفان، ولكن هذا

(٦) د. رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ص ١١٥ .

(٨) د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ص ٤٠٣ .

الجيش لقى هزيمة ساحقة فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣م فيما عرف بموقعة شيكان، وأصبح المهدى بعد هذا الإنتصار مسيطرا على السودان الغربى دون أى منازع.

ولهذا نجد "رودلف سلاتين" Slatin مدير دارفور يكتب لمدير دنقلة: لما تحقق لنا أن حملة هيكس قتلت ووجدنا عدم القوة التى نصادم بها ولا طريقة للخلاص مطلقا بل جماعة المهدى هم المنصورين فاخترنا خلاص الناس الذين بذمتنا من الضرر، ولذلك فالاتحاد مع الضباط أجرينا تسليم دارفور. أما مدير الفاشر فقد حوصرا أربعة أيام وفى اليوم الخامس عجز عن الحرابة (القتال)، بالكلية وصار دخول الدراويش بالاستحكام قهرا عنه(٩).

كما أن مديرية بحر الغزال تعرضت لحصار المهديين وكان مديرها لبتون بك الانجليزى منذ عام ١٨٨٠م استسلم للمهديين عندما سمع بكارثة هيكس، وكان تسليمه فى أبريل ١٨٨٤م. وانتشرت الثورة فى السودان الشرقى بزعامة عثمان دقنة، وصمد دكتور "شنيتزر" أو أمين باشا مدير خط الإستواء لضغط المهديين حتى عام ١٨٨٩م حيث ظل يحكم المديرية باسم الحكومة الخديوية حتى أجبرته السلطات البريطانية فى ذلك العام على الجلاء عن المديرية وتركها نهبا للأطماع الإستعمارية (١٠).

انتشرت الثورة المهدية إذن فى معظم أنحاء السودان ولم تصل شرارة الثورة إلى مديرية دنقلة، حتى قررت الحكومة البريطانية فرض سياسة إخلاء السودان من المصريين عسكريين ومدنيين عقب كارثة هيكس بدون حدود معينة، ونتيجة لذلك قررت الحكومة الخديوية أن تجلو الحاميات من دارفور وبحر الغزال وخط الإستواء فتنسحب جميعها إلى الخرطوم لتقوية الحامية الموجودة بالعاصمة، وأن تبقى فى سنار الحامية الموجودة بها لضمان وصول الأمدادات إلى الخرطوم، وأن يعاد فتح الطريق بين سواكن وبربر (١١).

---

(٩) دار الوثائق القومية : وثائق السودان، وثائق مصطفى ياور باشا مدير دنقلة ١٢ - ١٧ .

(١٠) د. رأفت الشيخ : مصر والسودان .... ص ١٨٤ .

(١١) Theobald, A.B : The Mahdvia ... P. 69 - 70.

دنقلة من الاخلاء إلى الاسترجاع
١٨٨٤ - ١٨٩٦ م

على الرغم من أن الثورة المهدية انتشرت فى معظم جهات ومديريات السودان فإن مديرية دنقلة ظلت على ولائها للحكومة الخديوية، وكان مصطفى ياور باشا مديرا لدنقلة عندما حدثت كارثة هيكس فى نوفمبر ١٨٨٣م، وعندما صدر قرار الحكومة البريطانية فى ١٣ ديسمبر من نفس العام بإبلاغ الحكومة المصرية بإخلاء السودان.

وكان محمد شريف رئيسا للوزارة المصرية فرفض فكرة الإخلاء، حيث كان واضحا أنه وسواء الشعب المصرى يرون فى التخلى عن السودان فخاً ينصبه البريطانين ليجعلوا احتلالهم لمصر ذاتها أبديا [١٢]. ولذلك قدم شريف باشا استقالته للخديوى فى ٧ يناير ١٨٨٤ قائلا إذا تركنا نحن السودان فالسودان لا يتركنا، ولكن الخديوى توفيق وافق على فكرة الإخلاء ومن ثم كلف الأرمنى نوبار باشا بتشكيل الوزارة الذى قبل تشكيلها فى ٨ يناير على أساس قبوله لسياسة إجلاء مصر عن السودان. ولكن من يتولى عملية الإخلاء؟ إنه غوردون[١٣].

ولكن مدير دنقلة مصطفى ياور باشا كان له رأى آخر فى عملية الإخلاء ويريد تأييد الحكومة الخديوية حتى يمكن إنهاء ثورة المهدى، فقد كتب إلى القاهرة فى ١٢ أبريل عام ١٨٨٤م يقول: أهالى جبل الداير الذى بالبعد من بندر كردفان بمسافة يوم خرجوا على محمد أحمد وكسروا جماعة المرسولة إلى الجبل دفعتين، وأخيرا هو ومن معه توجهوا على الجبل وللآن ما ظهر حقيقة ما صار فى أمرهم، كذا أهالى جبل نقلى منعوا دخول جماعة المذكور إلى الجبل.

وأضاف مصطفى ياور .. وأمر هذا المتمهدى ليس شئ عند الله مع الأتكال عليه، وأهون ما يكون مع الثبات وتفويض الأمر إلى الله ولو بسبع آلاف حربى يرسلوا إلى هنا من طريق حلفا ومن هنا - دنقلة - يتوجهوا إلى كردفان من الطريق الواسع الخالى عن الغيب والشجر ..

(١٢) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٣٨ .

(١٣) - Theohald, A.B.: Ibid, P. 75.

وزاد مصطفى ياور الأمر قائلا .. وأنى أقول بعزة الله تعالى إذا تدبرت الحكومة ووافقت هذا مع ما يتبادر لها من التوجيهات والأفكار السياسية وما يلزم من الاستعداد والقوة استرهابا للعدو، ولابد من الحصول عليه ووضع يد الحكومة على أنحاء السودان كما كان، وما ذلك على الله بعزيز".

ويتضح من رسالة مصطفى ياور باشا مدير دنقلة أنه غير موافق على إخلاء السودان، وأن دنقلة ذاتها بعيدة عن الثورة والثوار، بل إنها يمكن أن تكون عمقا استراتيجيا لبقية أنحاء السودان وخاصة دار فور وكردفان، بل وأيضا يمكن تأييد الخارجين على محمد أحمد المهدى أو الراغبين فى الخروج عليه بقوة عسكرية حكومية لا تتجاوز – فى رأيه – سبعة آلاف جندى.

وحاول مدير دنقلة تأييد رأيه هذا بقوله ... أن المشاع هنا أن بعض أهالى جهة بحرى يقصد مصر – تخيلوا بالاقرار له (أى تأييد المهدى) حتى وكل من يحضر إليهم من السودان يسألوه ويقولوا له الرجل ما قرب إلينا وهلم جرا بمثل هذه، فإن لم تتهيأ الحكومة بماء نطفئ هذه النيران لابد أهوية أهل الشقاوة تساعد من إيقادها زيادة، إذ لا يلزم انكسار بعض جيوش الحكومة التأخر والسكوت[١٤].

وفى رسالة أخرى من مصطفى ياور باشا مدير دنقلة بتاريخ ٨ يونيو عام ١٨٨٤ إلى المعية السنية بالقاهرة يطلب تعزيزات عسكرية لتدعيم قوة دنقلة تحسباً لأى خروج من بعض الأهالى بتحريض من المهديين أو محاولة غزو المديرية من جانب المهديين. وكان مما قاله فى هذا السياق: أنه كما لا يخفى ضعف قوتنا العسكرية بهذه المديرية. ومع ما هو حاصل بكافة جهات السودان من قيام أهاليها وخروجهم عن طاعة الحكومة ومحاربتهم لعساكرها وتغلبهم على غالب جهات السودان، كانت جهات – مديريتنا – دنقلة – غامرة بالأمن والأطمئنان بواسطة حسن تدابير حضرة مديرها مصطفى باشا ياور والتى أجراها.

وتضيف رسالة مدير دنقلة تطلب إمددا عسكريا لمواجهة أية تحسبات من

(١٤) وثائق عابدين : وثائق السودان : وثائق مصطفى ياور باشا ، من مدير دنقلة إلى سعادة خيري باشا . رقم ١٢ .

الثوار خاصة إذا وضع فى الحسبان ما حصل فى الخرطوم "من محاصرتها بالعدو وتغلبه على كافة جهات، وما حصل فى بربر وقيام كافة أهالى قراها ونواحيها على المديرية ... وبحضور القوة العسكرية المطلوبة نتحصل على إستمرار السلم بجهات دنقلة، بل إننا يمكننا فتح السودان من بربر لغاية الخرطوم (١٥).

وفى ٥ يوليو ١٨٨٤ م بعث عدد من مشايخ وأعيان وضباط مديرية دنقلة بعريضة إلى المعية السنية بقصر عابدين يطلبون فيها مضاعفة قوات المديرية تحت أمره مصطفى ياور باشا لحفظ السلم، وكان مما جاء بهذه العريضة التى اختتمت بعدد كبير من التوقيعات والأختام والمؤرخة فى ١٥ شعبان ١٣٠١ هـ ... ولقد عرض منا مرارا للمعية ولدواوين الحكومة السنية بطلب القوة التى بها نتحصل على إستمرار السلم بجهات المديرية، على أنابها يمكننا فتح الجهات السودانية من بربر لغاية الخرطوم (١٦).

ويتضح من هذه البرقية وبعدها العريضة أن الأمور فى دنقلة آمنة ولكن يخشى أن تمتد إليها الثورة، ومما يؤكد سلامة الموقف فى دنقلة أن طلب مدد عسكرى يجعل ممكنا إعادة فتح المنطقة الممتدة من بربر حتى الخرطوم وهذه ثقة تطمئن على بقاء دنقلة على ولائها للحكومة الخديوية، بل وولاء سكان المديرية - كما جاء فى العريضة - لمصر.

وقد جاءت عريضة أهالى دنقلة ردا على برقية بعث بها رئيس مجلس النظار بمصر - نوبار باشا - إلى مدير دنقلة فى ٢٥ يونيو ١٨٨٤م جاء فيها .. والمهم للحضرة الخديوية ولحكومته هو حفظ دنقلة وجعلها فى قبضة الحكومة أطول زمن ممكن لكم، وفى هذا الزمن يصير تسفير الأهالى الملكية (أى المدنيين)، وإذا رأيتم عدم موافقة إرسال المستخدمين الملكية أهل لا يمكنكم إرسال الذين ليسوا

---

(١٥) وثائق عابدين ، وثائق مصطفى ياور ... برقية من مدير دنقلا للمعية السنية في ٨ يونيو ١٨٨٤ م .

(١٦) نفس المصدر : عريضة من عدد من المشايخ والضباط فى مديرية دنقلة ١٥ شعبان ١٣٠١هـ .

من الديانة الإسلامية الذين يخشى عليهم أكثر من غيرهم ... وأن عدم إرسال النجدات إلى دنقلة أمر حتمى (١٧).

وقد أكد نوبار باشا رئيس مجلس النظار بمصر ما سبق أن ذكرته برقيته السابقة فى ٢٥ يونيه فى برقية جديدة إلى مدير دنقلة جاء فيها .. وصلنا تلغرافكم بخصوص طلب النجدات، وكما أخبرناكم سابقا هذه ليس بالإمكان، ولذلك اعملوا ما ترونه الأحسن مناسبة للصالح العمومى (١٨).

ثم بعث نوبار باشا برقية أخرى فى ٤ يوليو ١٨٨٤م إلى مصطفى ياور باشا يؤكد موقف الحكومة الخديوية بإخلاء كل أنحاء السودان بما فيها دنقلة، ولذلك قال: ونرى جليا أنه الأحسن فى الأحوال الحاضرة أن تسرعوا حالا بالتنقيل إلى بحرى وتفيدونا عند الابتداء فى هذا التنقل .. ويكن من الضرورى قبل القيام أن تهلكوا جميع المهمات الحربية الغير ممكن نقلها معكم .. (١٩).

ولم يكن موقف نوبار باشا هذا يتفق مع طبيعة الظروف فى دنقلة بقدر إتفاقه مع السياسة البريطانية بضرورة إخلاء كل السودان من المصريين مدنيين وعسكريين ولذلك بعث مدير دنقلة تلغرافا لنوبار باشا يعترض على إخلاء دنقلة، وكان مما جاء بهذا التلغراف ... قد أرتعد فرايصى مما نابنى عند تشريفى بأمر مجلس النظار تلغرافيا بتاريخ ٥ يوليه، ولما كنت آمل أن لا تسمح الحكومة التخلى عن هذه المديرية وكثيراً ما أعلنته بطرق شتى فى محرراتى المعروضة بأن تكون هذه المديرية - دنقلة - فى اليد لأنها كالعنان للراكب بالنسبة لقطر مصر...

وأضاف مصطفى يارو فى برقيته لنوبار باشا ، أن تسمحوا بجزء من العسكرية بإرسالها إلى هناك للتسامح والتطيب للخواطر رفعاً للتوهم ... ولقد كل حيلى وعيل صبرى من أن أكابد بعد الآن ، ولقد عزمت تنفيذ مطلوبكم مع تسليم

(١٧) نفس المصدر : تلغراف من رئيس مجلس النظار بمصر إلي حضرة مدير دنقلا ٢٥ يونيو ١٨٨٤م.

(١٨) نفس المصدر ، صورة تلغراف مطبوع من المالية بتاريخ ٢٩ يونية ١٨٨٤ إلى مدير دنقلة .

(١٩) نفس المصدر ، صورة تلغراف مطبوع من المالية بتاريخ ٤ يوليو ١٨٨٤ م إلى سعادة مدير دنقلة .

الأمر لله سبحانه وتعالى بعد أن آل أحوال هذه الجهة للتوطيد والأستتباب، وأقول بالله السلام على قطر مصر بعد تخلى الحكومة عن دنقلا [٢٠] .

وهكذا كان الموقف فى دنقلة كما صوره مديرها وأهميتها لمصر ، وأن أمن مصر من الجنوب مرتبط بأمن دنقلة ، ولكن حكومة نوبار باشا والخديوى محمد توفيق ينفذان السياسة البريطانية بإخلاء كل مديريات السودان سواء تلك التى انتشرت بها الثورة المهدية أو تلك التى بقيت على انتمائها لمصر كدنقلة .

ولكن أهالى دنقلة لم ييأسوا ، فبعثوا برقيات إلي كل من مصر وبريطانيا بأنهم عرضوا سابقاً ويعرضون أحوالهم للمعية السنية ورئيس مجلس النظار ولبريطانيا العظمى ... ولازلنا منتشرين حول المحطة منتظرين الرد ... ولا نعلم أسباب صرف النظر عنا ، فإذا كان هو نظراً لاستقلال المقرر على المديرية من المال ويقال أنه لا يكفى المصاريف فلازلنا قابلين لأرسال القوة (العسكرية المطلوبة) وراضين بدفع مبلغ خمسمائة غرش من كل ساقية ضريبة كاملة ، ولا تكلف المسيرى بشئ.

وأضاف أهالى دنقلة فى برقياتهم ... أننا رعية الحكومة (الخديوية) وبعد لها فينا بلغنا كما الأمنية والرأفة، والآن لا نرغب أن يستولى خلافها علينا وسلب راحتنا كما حصل بالجهات الأخرى، ونحن المساعدين لها (أى الحكومة) على استرعانا بأموالنا وأنفسنا ... ونحن راجين أن تعاملنا بما يجب عليها والرجاء الأسعاف لما نحن فيه بأرسال القوة المطلوبة [٢١] .

ولكن هذه الصرخات لم تجد آذاناً صاغية ، ومن ثم ذهبت أدراج الرياح أمام سياسة الأخلاء البريطانية ، ومن ثم أخذ مدير دنقلة يجلى المدنيين من المصريين المقيمين بالمديرية ويبعث بهم إلى مصر عن طريق النيل ومدينة حلفا.

---

(٢٠) نفس المصدر تلغراف مرسل من بلدة الدبة بتاريخ ٧ يوليو ١٨٨٤ م إلى رئيس مجلس النظار بمصر .

(٢١) المصدر السابق تلغراف من ملوك وعمد وعلماء ومشايخ وأهالى مديرية دنقلة - ١٣ يوليو ١٨٨٤ م.

ونتيجة لذلك بعث الخديوى محمد توفيق إلى مصطفى يارو مدير دنقلة برقية جاء فيها : حيث أن إخلاص طويتكم لنا ولجانب حكومتنا قد برهنتم بما أتيتموه من حسن سيرتكم وانتظام إدارتكم ، وقد اكتسبتم ممنونيتنا ، فمن أقصى مطلوبنا أن تستديموا على ما أنتم عليه ...... وسيصلكم عن قريب جناب اللورد ولسلى أحد كبار رجال عسكرية دولة بريطانيا الفخيمة (قائد قوات الاحتلال البريطانى لمصر)... وعند وصوله تقابلوه بكمال الالتفات والرعاية (٢٢) .

وتبع ذلك تلغرافات من المعية السنية إلى مصطفى ياور باشا فى ٦ نوفمبر ١٨٨٤م جاء فيها على لسان الخديوى محمد توفيق ... لزيادة تشويقكم واهتمامكم في تأدية وأجبات مأموريتكم على الوجه الأتم كما هو مأمولنا في صداقتكم ، قد استحسنا الأحسان على سعادتكم بالنيشان العالى الهمايونى إيكنجى مجيدى ، وسيرسل سريعاً عن يد جناب اللورد ولسلى...

وجاء فى أحد هذه التلغرافات على لسان الخديوى محمد توفيق أيضاً ... عرض لدينا ما أجريتموه من قبول النيشان الذى سلمه إليكم جناب اللورد ولسلى بالكيفية القابلين عنها صادف لدينا موقع الأستحسان ، كما أن النيشان السابق توجيهه إليكم من لدنا فهو نيشان عثمانى فهو الرتبة الثانية (٢٣) .

وليس لنا من تعليق على موقف الخديوى ، الذى استحسن موقف مصطفى يارو باشا مدير دنقلة بسبب توقفه عن المطالبة ببقاء دنقلة مع مصر ، وبسبب استقباله الودى مع قائد قوات الأحتلال البريطانى وقائد حملة إنقاذ غوردون المحاصر فى الخرطوم الجنرال ولسلى .

وحتى بعد سقوط الخرطوم فى يد المهديين فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ م ظل أهالى دنقلة على ولائهم لمصر ، وقد أكد ذلك يوسف شهدى باشا من حلفا حين ذكر أن ثلاثة أشخاص وفدوا إليه بحلفا من أهالى مديرية دنقلة أكدوا أن أهالى دنقلة راغبين فى السلم ومتمسكين بالحكومة الخديوية ... وأنه أحضر خطاب تاريخه

---

(٢٢) المصدر السابق ... إدارة سنية في تلغراف من المعية السنية إلى حضرة مدير دنقلة ٢٦ أكتوبر ١٨٨٤ م.

(٢٣) المصدر السابق : إرادة سنية تلغرافات بتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٨٤ م إلى مدير دنقلة .

٢٢ رمضان من كبرا أهالى مديرية دنقلة المسمى ملك محمد حمد المقيم بكرمة ... أن أهالى مديرية دنقلة منتظرين رجوع الحكومة وعساكرها لاستتباب الأمن والراحة فى بلادهم لغاية ما أورى أنهم متعهدين بتقديم كلما يلزم لترحيل العساكر، ويدعو لوى نعمتنا الخديوى بدوام ملكه (٢٤) .

وحتى عندما استولى المهديون على مديرية دنقلة حاولوا الأنطلاق منها لغزو مصر كوصية محمد أحمد المهدى ، وبالفعل سارت قوة الغزو بقيادة عبد الرحمن النجومى ، واتخذت من مدينة دنقلة مركزاً لانطلاق قوة الغزو ، وبالفعل تحركت القوة في ٣ مايو ١٨٨٩ م والتقت بقوج مصرية بريطانية علي رأسها «جرينفل باشا» سردار الجيش المصرى فى قرية «توشكى» بتاريخ ٣ أغسطس من نفس العام ، كانت نتيجة الصدام فى غير صالح المهديين ، نوتوقف بعدها التفكير فى غزو مصر (٢٥) .

وظل موقف دنقلة تحت حكم الخليفة عبد الله التعايشى الذى خلف المهدى في حكم السودان من يونية ١٨٨٥ م حتى قررت الحكومة البريطانية عام ١٨٩٦ م استرجاع مديرية دنقلة ، ومما يلاحظ أن تقارير المخابرات الحربية المصرية سجلت رغبات أهالى دنقلة وغيرها من المدن السودانية فى عودة الحكومة الخديوية إلى المديرية مرة أخرى .

وطوال هذه الفترة وخاصة بعد هزيمة المهديين فى توشكى (أغسطس ١٨٨٩ م) سجلت تقارير المخابرات الحربية المصرية توقع المهديين تقدم القوات المصرية لأسترجاع السودان ، وهذا تقرير من بربر يقول إن هناك اعتقاد عام فى بربر بأن هناك تقدم لقوات مصرية من حلفا باتجاه دنقلة سيحدث أو على وشك الحدوث ، وأن الأمير يونس قائد قوات المهديين فى شمال السودان كلف بمقاومة مثل هذا التقدم حتى النصر أو الاستشهاد (٢٦) .

(٢٤) المصدر السابق : تلغراف من سعادة يوسف شهدى باشا بحلفا بتاريخ ٥ يولية ١٨٨٦ م.

(٢٥) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٤٥ .

(٢٦) - Intelligence Report, Egypt, No. 30. September, 1894. Summary of News contained in Cairo, Frontier and Suakin Intelligence Diaries, by F.R. Wingate, Miralai, Director of Military Instelligence.

دنقلة من الاسترجاع لاتفاقية الحكم الثنائى
١٨٩٦ - ١٨٩٩ م

قررت الحكومة البريطانية فجأة عام ١٨٩٦ م استرجاع دنقلة ، وقد أثار هذا القرار الأرتياب عند المصريين والسودانيين على حد سواء ، فرغم أن الفكرة فى حد ذاتها وجدت تجاوباً عند أهالى دنقلة وأهل مصر كما سجلته تقارير المخابرات الحربية المصرية فى السنوات التى سبقت هذا القرار ، إلا أن تحقيقها على يد البريطانيين لم يكن يطمئن أهالى القطرين فى وجود قوات احتلال بريطانى (٢٧) .

وقد أبرقت الحكومة البريطانية إلى قنصلها فى مصر (إيفلن بارنج) بتاريخ ١٢ مارس ١٨٩٦ م بالاستعداد وبالتعاون مع القائد الأعلى لقوات الأحتلال البريطانى فى مصر وسردار الجيش المصرى جنرال «جرينفل» للزحف إلى دنقلة واحتلالها والتوقف هناك لحين صدور تعليمات أخرى .

وعندما اجتمعت الوزارة البريطانية فى ١٦ مارس لدراسة «بارنج» بالاستفسار عن أهداف الحملة ، توصلت إلى قرار بأن الحملة على دنقلة تهدف لتحقيق هدفين الأول إبعاد المهديين عن مراكز الإيطاليين بشرق السودان ، والثانى إستعادة بعض أقاليم مصر المفقودة (٢٨) .

وعندما اعترض الباب العالى ، واعترض الخديوى عباس حلمى على قرار الحكومة البريطانية باسترجاع دنقلة فى ١٢ مارس ١٨٩٦ م ، جاد تفسير الحكومة البريطانية بأن الغرض من حملة دنقلة هو الدفاع عن مصر ضد القبائل السودانية الثائرة على سلطة الحكومة المصرية ، ويقوم بعمليات الدفاع هذا الجيش المصرى لمصلحة مصر، وعلى هذا فإن الحكومة البريطانية تأمل أن تسفر حملة دنقلة عن استعادة سلطة الخديوى على تلك الأقاليم التى خلعت طاعة خديوى مصر وسلطان تركيا (٢٩) .

(٢٧) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٤٥ .

(٢٨) Sheheika, M.: British Policy in the Sudan, P. 362. -

(٢٩) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

وقد أصدرت الحكومة البريطانية تعليمات إلى «هربرت كتشنر» قائد الحملة على دنقلة بأن يكون الزحف تدريجياً ومصحوباً بمد خط للسكك الحديدية ، وأوضحت التعليمات كذلك أن الحكومة البريطانية لن ترسل قوات بريطانية إضافة للمشاركة فى هذه الحملة ، فى هذه المرحلة المبكرة من الحملة حتى لا تزيد النفقات .

وكانت قوة الحدود المصرية تقيم فى حلفا ولها نقطة أمامية فى قرية «سرس» وبين حلفا وسرس يوجد بقايا الخط الحديدى الذى استعمله الجنرال ولسلى. وكان على الجنرال كتشنر أن يمد هذا الخط جنوباً ، وفى سبيل ذلك عليه أن يقوم باحتلال بلدة عكاشة التى تقع على بعد ٧٥ ميلاً جنوبى حلفا ، وقد أصدر كتشنر أمراً إلى هنتر «قائد قوات الحدود باحتلال عكاشة فتم ذلك فى ٣٠ مارس ١٨٩٦ م، ومن ثم بدىء فى مد الخط الحديدى من «سرس» جنوباً وبدأت القوات تتجمع فى حلفا قادمة من القاهرة ومن سواكن .

وصل كتشنر إلى حلفا فى أبريل عام ١٨٩٦ م ثم تحرك إلى عكاشة في أول مايو، وقد حدث اشتباك بين المهدى وجيش الزحف فى اليوم السادس من شهر يونيو انتهى بانتصار الجيش الزاحف فيما عرف بموقعة «فركة» ومن ثم تهيأت العوامل المساعدة للزحف على دنقلة ، وتقدم الجيش نحو دنقلة ودخلها بعد أن انسحب منها المهديون .

وبإحتلال دنقلة انتهت مهمة الحملة ، ووجد كتشنر أنه لا يمكن الزحف جنوب دنقلة بدون تعليمات من حكومته التى حاول إقناعها بوجهة نظهره التى كان منها مالاقته حملته على دنقلة من سهولة فى تحركاتها وعملياتها وانتصار فى معاركها مع قلة فى النفقات .

وقد وافق رئيس الوزارة البريطانية سالسبورى على طلب كتشنر وأصدر أمره بالزحف جنوباً بعد دنقلة ، فعاد كتشنر ووصل إلى مقر قيادته فى دنقلة وبدأ استعداداته للزحف منها ، حيث تم الاستيلاء على بربر فى أغسطس ١٨٩٧ م ، والمتمة والعطبرة ، ثم أم درمان فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨م التى أنهت موقعتها دولة المهدية وأصبح السودان بعد ذلك خاضعاً لقرار بريطانى كأن اتفاقيه - فرضت على مصر نظام الحكم الثنائى فى ١٩ يناير عام ١٨٩٩م .

وقد نصت المادة الأولى من الاتفاقية على أن : تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة إلى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

أولاً : الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ عام ١٨٨٢ م .

ثانياً : الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد .

ثالثاً : الأراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً(٣٠) .

ونلاحظ أن هذه المادة حرصت على تعيين الحدود الشمالية للسودان مع مصر بخط يمر على مسافة أميال قليلة شمال بلدة وادى حلفا ، وهذا يعنى التأكيد على سياسة بريطانيا للفصل بين شطرى وادى النيل بوضع حدود مصطنعة بينهما لم تكن موجودة من قبل، كما أدخلت هذه المادة كلا من سواكن حلفا – واللتين ظلتا تحت الإدارة المصرية أثناء سيطرة دولة المهدية على السودان – فى الادارة الجديدة رغم أن بريطانيا لم تشترك بقواتها فى إعادة فتحهما .

(٣٠) رئاسة مجلس الوزراء : السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣ م . ص٦ .

خاتمــة

كانت العلاقات الخاصة جداً بين مديرية دنقلة ومصر عبر سنوات التاريخ والتى ناقشناها فى صفحات هذا البحث دليلاً للمسئولين فى كل من مصر والسودان خلال السبعينات والثمانينات من القرن العشرين للتفكير فى جعل مديرية دنقلة أو المديرية الشمالية فى السودان تتكامل اقتصادياً مع مديرية أسوان التى تعبر أكثر خصوصية فى علاقتها مع المديرية الشمالية بالسودان .

فهناك السكان فى جنوب مصر وشمال السودان الذين يعيشون دون اعتراف بالحدود السياسية بين القطرين كالعبابدة والبشاريين ، الذين يعيشون حياة الرعى ، حياة التنقل وعدم الاستقرار وإن اعتمدوا على المطر فى زراعة بدائية عمادها «الدخن» بينما تزيد أهمية الابل عند هذه القبائل .

وهناك من السكان أيضاً الذين يعيشون فى جنوب مصر وشمال السودان النوبيون الذين امتدت مساحة إقامتهم فيما بين أسوان والدبة، والذين ينقسمون إلى خمس مجموعات رئيسية ثلاث منها فى السودان وهم الدناقلة فيما بين الدبة وكرمة أى فى المنطقة السهلية المتسعة نسبياً فى إقليم النوبة ، ويليهم شمالاً «المحسى» والسكوت» فى منطقتى الجندل الثانى والثالث . وفى مصر كانت توجد مجموعتا «الفدجة» والكنوز» .

وبعد بناء السد العالى فى أسوان غمرت مياه بحيرته أراضى المجموعتين الأخيرتين فى مصر والسودان ، وهجر أهل النوبة المصرية إلى كوم أمبو - محافظة أسوان - على حين تم تهجير أهل النوبة السودانية إلى «خشم القربة» على نهر العطبرة وكلاهما أقيم له المشروعات الزراعية لبدء حياة جديدة فى مواطن جديدة [٣١] .

واستكمالاً لكل ذلك فقد تضمن الاطار للتكامل المصرى السودانى منذ أعلن فى فبراير عام ١٩٧٤ م على تحديد المرتكزات الفكرية والنظرية لمنهاج العمل السياسى والتكامل الاقتصادى فيما يلى :

(٣١) د. محمد عبد الغنى سعودى و د. شوقى الجمل وآخرون: التكامل المصري السودانى ص٥٣ .

١- حقائق الوضع التاريخى والجغرافى والبشرى فى كل من مصر والسودان خاصة والذى جعل من البلدين وحدة حضارية منذ آلاف السنين .

٢- السودان ومصر يشكلان جزءاً من حركة الوحدة العربية الشاملة وحركة الوحدة الأفريقية وحركة التعاون بين بلدان العالم الثالث .

٣- مصر والسودان يمثلان قلب الأمة العربية ، كما يمثلان نصف الأمة العربية بشراً وأرضاً، ويتصلان بالبحر الأحمر والبحر المتوسط والمدخل الشمالى والشرقى لأفريقيا .

٤- السودان ومصر يمثلان حلقة الربط العضوى بين افريقيا والأقطار العربية : مصر تمثل الباب الشمالى للقارة الأفريقية ، ويمثل السودان العمق العربى الأفريقى فى القرن الأفريقى وفى شرق أفريقيا .

٥- مصر والسودان يمثلان ساحة من أهم ساحات التكامل الاقتصادى العربى والتنمية العربية والسوق العربية المشتركة .

٦- السودان ومصر يملكان من الخبرات والموارد البشرية والموارد الطبيعية ما يجعلهما حجر الزاوية فى التغلب على أزمة الغذاء العالمى وفى التكامل مع البلدان ذات الامكانيات البترولية .

٧- السودان ومصر يمثلان رصيدا بشرياً وطبيعياً فى معركة المواجهات العالمية ، وفى المعركة ضد الصهيونية ، وضد الأنظمة العنصرية فى افريقيا .

٨- التكامل بين مصر والسودان مرحلة من مراحل العمل لتحقيق وحدة وادى النيل فى حدود الأمكانيات الحاضرة .

٩- التكامل فى أى جزء من أجزاء العالم العربى قوة مضافة للأمة العربية طالما أنه يقوم فى إطار التنسيق للتكامل الأقتصادى العربى العام .

١٠- كل تكامل فى المجالات الاقتصادية لابد أن يستهدف فى النهاية التنمية الاجتماعية وحجر الزاوية فيه احترام وتأكيد ذاتية الإنسان فى مصر والسودان (٣٢) .

---

(٣٢) الجذور التاريخية والواقع المعاصر لتجربة التكامل : د. محمد عمر بشير . مجلة السياسة الدولية - العدد ٥١ يناير ١٩٧٨ .

وجاء النص على إنشاء منطقة تكاملية مصرية سودانية فى الإطار أو الهيكل التنظيمى للتكامل المصرى السودانى بين جمهورية مصر العربية وجمهورية السودان الديمقراطية دليلاً على خصوصية العلاقة بين المديرية الشمالية بالسودان وبين مصر وخاصة جنوبها ، ومن ثم فإن النص على قيام المنطقة المتكاملة على الحدود المشتركة بين البلدين تشمل كلا من المديرية الشمالية ومحافظة أسوان لتصبح نموذجاً يحتذى به فيما بعد فى أى مناطق أخرى .

حيث تم إنجاز الكثير من الاجراءات لتشجيع التجارة فى منطقة التكامل ، وإصدار تصاريح المرور المفتوحة المتعددة المرات ، وإصدار تصاريح العمل المؤقتة بمعرفة السلطات المحلية على حانبى الحدود ، وتخفيض أجور السفر النهرية داخل المنطقة بنسبة ٢٠٪ ، وإعفاء هيئة النقل النهرى من فوائد رأس المال المتفق عليه لتمكين الهيئة من تحقيق عائد يمكن به تحسين الخدمات ، ثم سد نواحى القصور التى تؤثر على نشاط هيئة وادى النيل للملاحة النهرية ، وتوفير جميع احتياجات وحدات النقل النهرى ... هذا إلى جانب التفكير فى مشروعات إنتاجية وخدمية أخرى (٣٣) .

وفى نفس الإطار ، فقد تم الإتفاق علي مشروع الدراسات المقدمة من برنامج التنمية للأمم المتحدة والخاص بإمكانية استغلال بحيرة السد العالى اقتصادياً وتشكيل مجموعة عمل مشتركة للإتفاق على التفاصيل النهائية للمشروع توطئة لمناقشتها وإقرارها مع برنامج التنمية التابع لهيئة الأمم المتحدة .، وتشكيل مجموعة عمل فنية سودانية للاطلاع على ما تم فى المرحلة الأولى من المشروع فى البحيرة ، ودراسة التفاصيل المقدمة لبرنامج التنمية التابع لهيئة الأمم المتحدة من الحكومة المصرية (٣٤) .

هكذا كانت العلاقات الخاصة بين مديرية شمال السودان (أو مديرية دنقلة كما كانت تسمى) وبين مصر وخاصة جنوبها فى النواحى الطبيعية والبشرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بل والروحية أيضاً عبر التاريخ وحتى الوقت

---

(٣٣) د. محمد عبد الغنى سعودى ، د. شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٩٢ ، ١٩٣ .
(٣٤) نفس المرجع ص ١٩٦ .

الحاضر ، كانت هذه العلاقات الخاصة دافعاً للدراسة والبحث لتأكيد العلاقات الأزلية بين مصر والسودان عامة .

وإذا كان هناك تفكير فى الوقت الحاضر لدى حكومة السودان برئاسة السيد الصادق المهدى بتعديل ميثاق التكامل المصرى السودانى وتغيير الأسم إلى ميثاق الأخاء المصرى السودانى فإن المعنى واحد والمبنى أيضاً واحد حيث يشمل الإخاء قوة فى العلاقات بين القطرين الشقيقين فى جميع المجالات .

أهـــم المصـــادر

أولاً : الوثائق :

(أ) **عربية** : ١- وثائق مصطفى ياور باشا مدير دنقلة - وثائق عابدين أرقام من ٧ إلى ٣٥ . سجلات من ١٢ إلى ١٤ .

٢- وثائق السودان : ١، ٢، ٣. وثائق عابدين .

٣- رئاسة مجلس الوزراء : السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣م . القاهرة ١٩٥٣ م .

(ب) **أفرنجية :**

- Intelligence Renort, Egypt, 1 - 59. From 1892 - 1898. (Abril, 1892-13th February to 23rd May 1898).

دار الوثائق القومية بالخرطوم .

ثانياً : المراجع :

١- د. أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر القاهرة ١٩٧٠ م

٢- د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم بمصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق ٧ أجزاء القاهرة ١٩٤٢

٣- الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ سودان وادى النيل القاهرة ١٩٥٥

٤- د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية القاهرة ١٩٦٣

٥- د. رأفت غنيمى الشيخ : مصر والسودان فى العلاقات الدولية القاهرة ١٩٧٩

٦- د. رأفت غنيمى الشيخ : تاريخ العرب الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٨٦

٧- عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على القاهرة ١٩٣٠

٨- عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال القاهرة ١٩٤٢

٩- د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٥٧

١٠ د. محمد عبد الغنى سعودى، د. شوقى الجمل : التكامل المصرى السودانى - منشورات المجلس الأعلى للشباب والرياضة - جهاز الشباب - القاهرة د. ت.

١١- د. محمد عمر بشير : الجذور التاريخية والواقع المعاصر لتجربة التكامل مجلة السياسة الدولية العدد ١٥ يناير ١٩٧٨ م .

١٢ - - Shebeika, M.: British Policy in the Sudan, 1882 - 1902, London 1952 .

- Theobald, A.B.: The Mahdyia, a history of the Anglo- Eygptian Suadn (1881 - 1899), London, 1951.

جامعة القاهرة – معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٢٣٩ – ٢٦٢

أهمية سواكن الاستراتيجية فى القرن التاسع عشر

سعد بدير الحلوانى
كلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر

مقدمة

ضربت سواكن فى باطن التاريخ قرونا عديدة [١] تزدهر وتنشط فتتكالب الأمم المختلفة للسيطرة عليها – نظرا لاهميتها الاستراتيجية على خطوط المواصلات العالمية (البحرية) – ثم تعود تحت ظروف مختلفة فتندثر ويخمل ذكرها تبعا لمتغيرات اقتصادية وظهور موانى أخرى تسلبها تلك الأهمية وما أن تتحسن هذه الظروف حتى يبزغ نجمها من جديد فتنشط الحركة التجارية فى مينائها لتشارك فى حركة التجارة الدولية بما وهبها الله من مميزات طبيعية .

ويبدو أن إسم سواكن نفسه يعود إلى عهد سيدنا سليمان عليه السلام [٢] – حيث تشير الأساطير [٣] إلى أن ملك الحبشة أرسل مجموعة من الجوارى كهدية إلى سليمان بن داود وعندما مرت بسواكن واطئها السواكنيين وعلم بذلك سيدنا سليمان فأمر بردهن إليها فاندمجن وذريتهن فى أهل الجزيرة، كما أمر باتخاذ سواكن سجنا للمجرمين.

---

(١) لم يستدل على تاريخ تأسيس سواكن ، ولعله يرجع إلي العهد الفرعونى رغم أن الروايات الحديثة تحزو تأسيسها إلى عرب الجنوب ، وعلي الأخص الحضارمه ، وقد اشترك فى تعميرها عناصر عديدة بالإضافة إلى البجة ، ولذلك وصفت بأنها مدينة عربية أكثر منها بجاوية انظر محمد عوض – الشعوب والسلالات الفريقية – الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ – ص ٢٥٤ .

(٢) كانت مملكة سليمان عليه السلام – فى القرن العاشر قبل الميلاد.

(٣) محمد ضرار – تاريخ سواكن والبحر الأحمر – الطبعة الأولى – الدار السودانية للكتب – الخرطوم ١٩٨١ – ص ٢٤ .

وتشير أسطورة أخرى (٤) : إلى أن الجوارى طلبها ملك الفرس من الحبشة فلما مرت بسواكن بقت ليلة فيها، وتبين بعد وصولها انهن جميعا حوامل، وعندما سألن عن الفاعل قلن: سواه جن إذ يقال إن سواكن كان يسكنها الجان - ومنها اشتقت كلمة سواكن.

وتتعدد الروايات فى أصل التسمية فقد قيل: أن إسمها اشتق من اللغة الهندية ومنعناها المدينة البيضاء، وتعنى كذلك مدينة الأمان أو بر السلامة لانها كانت أول ميناء فى ذلك الوقت تصل إليه السفن من الشرق الأقصى (٥).

ولكن الرواية التى يطمئن إليها - نظرا لما فيها من تبرير معقول - ما يؤكده أحد الباحثين (٦) من أن استخدم موقع سواكن أقدم من النشاط البحرى والتجارى الذى مارسه اليونانيون والبطالمة فى العهد البطلمى، ويرى ذلك أن تسميتها تدل على أنها من أصل مصرى قديم وهو - شواحن - ويعنى ذلك فى رأيه أنها كانت محطة شوا التى تعتبر اقليما نيليا من صميم الحبشة، وأن تحول كلمة - خن - إلى كم - كان نتيجة حتمية للظروف المتعلقة بخلو ابجدية اللغات البجاويه من حرف (الخاء).

والحقيقة التى يجب أن لا تغفل هى الظروف الطبيعية لميناء سواكن الذى يتميز بخليج طبيعى لحماية السفن من الانواء والعواصف، وتلائم أعماقه رسو السفن، ودورانها واستقبالها وجعلها فى أعلى الإستخدام من فترات بعيدة.

ولذلك يذكرانه كانت لسواكن شهرة طائلة حيث أن سفن الملك سليمان بن داوود عليه السلام - كانت تسير إلى ترشيش مع عبد حورام، وتأتى مرة كل ثلاث سنوات إلى سواكن حاملة ذهبا وفضة وعاجا وقرودا وطواويس كما جاء فى التوراه مما جعلها مركزا هاما تلتقى فيه التجارة بين الشرق الأقصى والأدنى (٧).

---

(٤) محمد ضرار - أمير الشرق «عثمان دقنه» - الطبعة الأولى - الدار السودانية للكتب - ص١٦ .

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٦) صلاح الدين الشامي - المواني السودانية - مكتبة مصر - القاهرة ١٩٦١ ص٩٩ وما بعدها .

(٧) محمد ضرار - سواكن والبحر الأحمر - مرجع سابق - ص ٢٥ .

ويمكن فى عجالة سريعة القاء الضوء على بعض المدن الهامة فى محافظة سواكن لتكتمل الصورة عن الدور الذى قدر لسواكن أن تلعبه خلال تلك الفترة التى يتناولها البحث.

سواكن: عاصمة المحافظة وتقع على البحر الأحمر على نحو ٧٢٠ ميلا من السويس و ٢٨٥ ميلا من مصوع، و ٢٠٠ ميلا من جدة، وهى عبارة عن جزيرة محيطها ميل ونصف ميل، ووبندر أمامها يسمى القيف على مسافة بينها تقدر بـ ٤٠ مترا، وهواء سواكن حار فى الصيف ورطب فى الشتاء، ويطل عليها من بعيد جبال سنكات واركويت التى تعلو ٤٠٠ قدم عن سطح البحر، ويربطها بداخلية السودان أكثر من طريق أهمها طريق بربر، وبذلك كان على سواكن أن تربط السودان بالحجاز، والهند ومصر فى علاقات تجارية متبادلة.

محمد قول:

على نحو ١٣٠ ميلا شمالى سواكن، وعلى مقربة منها ملاحة شهيرة تعرف براوية.

مأمورية عقيق:

على نحو ٨٥ ميلا من سواكن وهى تمتد جنوبا إلى نهاية حدودها مع محافظة مصوع.

مأمورية طوكو:

على بعد ٥٦ ميلا من سواكن ومينائها يسمى التركينات، وبين التركينات وطوكو تقع آبار البيت التى اشتهرت إبان الثورة المهدية لكثرة المعارك عندها [٨] كما تعتبر تربتها من أخصب الأراضى الزراعية.

أركويت:

وقد اتخذها حكام السودان مصيفا لهم نظرا لطقسها الجميل وحدائقها الغناء وجبالها الشاهقة [٩].

---

(٨) نعوم شقير – جغرافية تاريخ السودان – دار الثقافة – بيروت ١٩٦٧ ص ١٢١ وما بعدها .

(٩) محمد ضرار – تاريخ سواكن والبحر الأحمر – مرجع سبق ذكره – ص ١٦٩ .

ونظرا لأهمية سواكن بوقوعها على خطوط الملاحة العالية فقد كان لجهات مختلفة - أجنبية - أطماع فيها، وخاصة البرتغال والذى كان اسطولها يعاود المرة بعد الاخرى للإستيلاء على هذا الثغر الهام ثم يعود من حيث أتى عند ظهور السفن المملوكية، وإستمر الصراع المملوكى البرتغالى فى المنطقة حتى ظهور العثمانيين الذين حملوا على عاتقهم مدافعة المد النصرانى فرشتى صورة، ولم يضع حدا لهذا العبث البرتغالى فى سواحل البحر الأحمر الا نزول العثمانيين إلى ميدان هذا البحر ففى عام ١٥٥٤م تمت المواجهة الحاسمة بين العثمانيين والبرتغاليين فى المسافة بين مصوع وسواكن، واستطاع سنان (١٠) باشا هزيمة الأسطول البرتغالى الذى كان يقوده دون جوان دى كاسترو، واستطاع تصفية المواقع البرتغالية على إمتداد البحر الأحمر، وبنوا بها القلاع (١١).

وقد دانت سواكن من هذا التاريخ للحكم العثمانى، حيث جعلت بالاضافة إلى مصوع ولاية عثمانية، والحقوها بايالة جدة، واطلق عليها"ولاية الحبش" (١٢) وقد ترك العثمانيون السلطة الإدارية فى سواكن بين الوطنيين فلم يكن للمحافظ التركى تحصيل الرسوم الجمركية، كما كانت أسواقها التجارية تحت سلطة قبيلة الارتيقة (١٣) الذين كانوا يتحصلون على الزكاة من حصة الجمرك وأموال الأهالى ويدفعون منها لمندوب ملك الفنج نحو ألف ريال تركى سنويا (١٤).

مع ذلك فان دراسة الفترة التالية من تاريخ سواكن والتى تمتد من أوائل القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى تظهر تفاوتا واضحا بين

(١٠) أصله إيطالى التحق بخدمة السلطان العثمانى سليم الأول بعد أن اعتنق الإسلام .

(١١) عثمان صالح سبى - تاريخ اريتريا - دار الكنوز الأدبية - بيروت ١٩٨٤ ص ١١٠ .

(١٢) شوقى الجمل - تاريخ سودان وادى النيل وحضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور الى الوقت الحاضر - جـ٢ - مكتبة الأنجلو - ١٩٦٩ ص ١٥ .

(١٣) من أشهر القبائل التى سكنت طوكو المحبون لأرضها ، وهم فرع من آل أبى قشر الذى يسكنون بأسقل حضرموت من ذرية الإمام محمد بن الحنفية ، واشتغل أفرادها بالتجارة بين موانى البحر الأحمر وبين مصوع وسواكن خاصة ، واستقر بهم المقام أخيراً فى سواكن: انظر محمد ضرار - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - مرجع سبق ذكره - ص ٢١ ومابعدها .

(١٤) المرجع السابق - ص ٥٢ .

الشهرة وعدمها فتارة نجدها ميناءا مشهورا ومزدهرا صيته كمنفذ للتجارة السودانية ثم يعود فتخبوا شهرتها وتفقد قيمتها وتتدهور إلى حد خطير - وتلك سمة خاصة واضحة لموانى البحر الأحمر وحساسيتها للهزات الملاحية أكثر من غيرها من موانى العالم.

وربما كان ذلك من واقع الأحداث فى المنطقة بسبب القوى السيطرة على الساحل السودانى، والتيارات السياسية والإقتصادية فى البحر الأحمر.

والواقع أن سواكن تحملت اكثر من غيرها عبء التطورات والظروف التى تتحكم فى البحر الأحمر ويستطيع الباحث لتلك الفترة بالذات ان يلمس سببين هامين عملا على تدهور هذا الميناء الهام :

السبب الأول : كشف طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الرابع عشر ومنافسته لطرق التجارة بين الشرق والغرب .

والسبب الثانى : راجع الى ضعف الوجود المصرى على خط الساحل وفى البحر الأحمر .

وعلى كل فإن اتفاق الفنج والعثمانيين ساعد على تنظيم الادوار فى القرن السادس عشر فبينما كان الفنج يتكفلون بتجميع السلع والمنتجات وتوجيهها فتمر القوافل فى رعايتها عبر الطريق من سنار الى كسلا ، ثم الى سواكن فى انتظام وسلام . فقد كان العثمانيون من جهة أخرى يشرفون بدورهم على تسويقها وشحنها والتبادل عليها .

كان لذلك التعاون الايجابى أثر فعال فى ارتفاع حجم التجارة وازدهارها فى البحر الأحمر عامة وسواكن خاصة [(١٥)] . وقفزت بذلك سواكن الى مكان الصدارة لموانى الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر .

ومما يؤسف له بالنسبة لسواكن تكالب عدة عوامل - ليس المجال متسعا لسردها - أدت فى النهاية الى تدهور الحالة التجارية فيها خلال القرن السابع عشر وانه لولا الطلب المتزايد على تجارة الرقيق فى انحاء العالم العربى لتعرضت سواكن لتدهور أشد وأعنف .

---

(١٥) صلاح الدين الشامى - مرجع سابق - ص ١٢٠ .

ويعنى ذلك أنها باتت ميناءاً لخدمة تجارة الرقيق .

هذا بالاضافة الى بعض حجاج بيت الله الحرام الذين ما زالوا يستخدمون هذا الميناء .

واستمرارا لحالة التدهور والذبذبة تلك فقد ادى ضعف ملوك الفنج وعدم سيطرتهم على طرق تسيير القوافل من ناحية ، وتراخى قبضة العثمانيين على البحر الاحمر - من جهة أخرى - الى المزيد من التدهور خلال القرن الثامن عشر الميلادى .

وقد سجل حالة التدهور تلك بعض الرحالة من الهواة والمستكشفين الذين زاروا الساحل السودانى فى فجر القرن التاسع عشر الميلادى . فقد جاء فلانشيا الى سواكن من جهة البحر بينما جاء بوركهارت من جهة اليابس السودانى ، وربما نلمس من خلال وصف الاخير لهذا المرفأ من الناحية البحرية كونه ملائما لحماية السفن من العواصف والأنواء ، ومع ذلك فانه يقرر أن أهم عيوبها هو وعورة الطريق اليها من عرض البحر (١٦) .

وخلاصة القول أن مدينة سواكن بلغت أدنى مستوى لها - من حيث الأهمية - فى مستهل القرن التاسع عشر ولم يتبق لها سوى مجالين متقطعين الأول : يتمثل فى ورود بعض القوافل اليها من الداخل لتلبية الاحتياجات المتزايدة على العبيد .

الثانى : مرور قوافل الحجاج وتدفقها فى مواعيدها المنتظمة سنويا فى طريقها الى جدة ، وقد كانت سواكن المنفذ لكل الحجاج الذين يعيشون جنوب نطاق الصحراء الكبرى .

وبنزول البحث الى مضمار القرن التاسع عشر - حيث فيه لب الموضوع - تاركا خلفه عصورا وقرونا متقلبة يلمس الباحث على ميناء ومدينة وجهة سواكن كلها البداية المتواضعة ثم الازدهار والشهرة اتبعهما خمود وتدهور الأهمية ، وهذا لا ينطبق على سواكن وحدها بل يمكن الحكم به على العصر العثمانى كله ، ويمكن تعميمه على كل المدن والأمم والممالك ..

«سنة الله فى خلقه ولن نجد لسنة الله تبديلا"»

---

(١٦) المرجع السابق - ص ١٢٩ .

سواكن والقرن التاسع عشر

قدر لسواكن فى منتصف القرن التاسع عشر أن يرتفع صيتها بعد هذا الركود الذى لاحظناه فى مستهله وبعد دخول السودان تحت سلطة مصر فى بداية القرن نفسه والتى كانت تهدف من ذلك تحقيق اهداف اقتصادية واستراتيجية حققت الثانى وأخفقت جهودها المضنية فى تحقيق الأول .

مساعى محمد على لضم سواكن و مصوع :

وكان على مصر لتحقيق هذين الهدفين السابقين أن تتجه بثقلها نحو سواحل البحر الاحمر وخاصة سواكن ومصوع بعد التسرب الأوربى الى المنطقة واستيلاء بريطانيا على ثغر عدن سنة ١٨٣٧ م ، وقد خشيت الادارة المصرية من اتخاذ بريطانيا لهذا الثغر كرأس جسر يمتد منه هذا الاخطبوط الانجليزى الى بقية سواحل البحر الأحمر .

مما يؤكد ذلك ما كتبه وزير الخارجية البريطانية فى ٦ ديسمبر سنة ١٨٤٧ م الى اللورد كولى "وصلنى كتابك المؤرخ فى ٣ نوفمبر وكذلك ترجمة الخطاب الذى يطلب فيه محمد على حق الاشراف على مينائى سواكن ومصوع انه على الرغم من موافقة الباب العالى . يعتبر هذا العمل اعتداءا على الحبشة وهى بلد تحاول بريطانيا ان ترتبط معه بعلاقات تجارية" (١٧) .

يبدو واضحا من هذا الحديث رغبة بريطانيا التى كانت ترنو ببصرها تجاه هذين الميناءين وهذا هو السبب الاول الذى دفع بمحمد على لطلب الحاق مصوع وسواكن الى الادارة المصرية بدلا من تبعيتهما لإيالة جدة تحت السيادة العثمانية(١٨) .

---

(١٧) محمد صبرى – الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر – مطبعة مصر – ١٩٤٨ – ص ١٦٢ .

(١٨) سبق لسواكن ومصوع أن التحقتا بالإدارة المصرية فى عام ١٨١١ م عندما اخذت مصر تتدخل لإعادة النظام فى بلاد العرب حيث كانتا حينئذ تحت اسم (ولاية الجيش العثمانى). أنظر : شوقي الجمل – تاريخ سودان وادى النيل – مرجع سبق ذكره جـ٢ ص ١٩٦ .

والسبب الثانى : منع الاعتداءات الحبشية التى كانت تحدث بين الحين والاخر وتسبب قلقلة النظام على الحدود السودانية ، ويضاف الى هذين السببين الخارجيين سبب ثالث (داخلى) وهو هجرة بعض السوادنيين من مناطقهم الزراعية والتجائهم الى شرق السودان[١٩] - فى مصوع وسواكن - اذ كان الكثيرون من عربان مديرية التاكا - التابعة لحكمدارية السودان المصرية - يفرون الى المنطقة الواقعة بين سواكن ومصوع - التابعتين لإيالة جدة - هربا من الضرائب والتكاليف الحكومية الاخرى [٢٠] .

هذه هى الأسباب التى ذكرت فى معرض الحديث عن دوافع محمد على فى طلب سواكن ومصوع من الدولة العثمانية، ولكن غفل الكتاب عن أسباب هامة أخرى - بالنسبة لسواكن خاصة - نجملها فيما يأتى:

المعروف عن أرض السودان تعمق داخلياته التى تصل إلى مئات الأميال، وهذه اليابسة تحتاج دون شك الى منفذ بحرى، وكان هذا المنفذ المناسب هو ميناء سواكن الذى يتمتع بتلك المميزات - التى أسلفناها.

وثمة سبب آخر: هو السيطرة على منفذ تجارة الرقيق فى وقت كان محمد على فى أشد الحاجة فيه إلى تجنيد الرقيق السودانى [٢١]، وقد كانت سواكن - كما سبق القول - أهم منفذ لتسرب الرقيق من السودان.

ومما يلفت الأنظار أن الفرمان العثمانى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١م لم يذكر

(١٩) جلال يحيى - مرجع سبق ذكره - ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٢٠) مكى شبيكه - السودان عبر القرون - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٦ - ص ١١٩ .

(٢١) من المعروف أن تجربة تجنيد السودانيين قد فشلت فشلاً ذريعاً ، وهناك تعليلات لهذا الفشل كان أحدها : عدم ملائمة المناخ المصرى لهؤلاء الجدد انظر : السيد نصر - الدور الحضارى للجيش المصرى فى القرن التاسع عشر - مكتبة مدبولى - القاهرة - ١٩٨٢ - ص ٣١ وفى الحقيقة فإن الطريقة الوحشية التى كان يجلب بها هؤلاء السودانيين كانت السبب الأول فى فشل تجنيدهم إذ كانوا ينزعون بالقوة من مجتمعهم ومن قلب عائلاتهم فكانت تسوء حالتهم وتتفشى فيهم الأمراض خاصة الإكتئاب .

انظر : شوقى الجمل - تاريخ سودان وادي النيل - جـ٢ - مرجع سبق ذكره ص ٣٩ ، ٤٠ .

فيه شئ عن السودان الشرقى ونقصد فى ذلك سواكن ومصوع، وسبب هذا الاغفال أن هذا الجزء لم يكن ضمن نطاق الولاية المصرية، كما أنه حتى وقت صدور الفرمان ولعدة سنوات ظل تابعا للولاية أو باشوية جدة، ولم يستطع محمد على الا فى أواخر عهده نيل حكم سواكن ومصوع مدة حياته فقط (٢٢). ففى ١٩ رمضان ١٢٦٢ هـ ١٢ سبتمبر ١٨٤٦م احيلت ادارة جمركى مصوع وسواكن اليه فاحال امر إدارتيهما إلى مديرية التاكا.

ولم تنتقل السيادة على هذه الجهات إلى مصر إنما أعطيت لها حق ادارة الجمركين وهذه كانت هى كل شئ لان المتحكم فى الجمرك كان يجمع بين يديه السلطتين المادية والحربية التى تسيطر على الميناء والمنطقة المحيطة به.

أما فى عهد عباس فإن الإدارة المصرية لم تتمسك بذنيك المينائين واعيدتا مرة ثانية لباشوية جدة فى عام ١٨٤٩م فرجعت الحالة لما كانت عليه (٢٣) .

ويبدو لنا بجلاء أن عباس آثر عدم الاحتكاك بالأحباش أو بقناصل الدول الاستعمارية الذين كانوا يتحينون الفرصة للتدخل فى شئون المنطقة تحت أية ظروف تلوح له فى الأفق وليس كما يذكر أحد الباحثين(٢٤) : أن عباس قد ترك سواكن ومصوع لأنهما يمثلان عبئاً على مصر ويكلفانها من الجهد والأموال بالإضافة إلى أن مصر لا تستفيد منهما شيئاً ، ومعللاً ذلك بوقوعهما بعيداً عن المركزين فى القاهرة والخرطوم .

وهذا التعليل ليس مقنعاً أبداً نظراً لأن سواكن - كما سيتضح لنا من البقاع الغنية جداً بمواردها الطبيعية من ملاحات ، وأراضى خصبة للغاية ، وصالحة للزراعة السهلة وموقعاً تجارياً هاماً بميناء موهوب قريب بحرياً من مصر فليس

(٢٢) محمد فؤاد شكرى - مصر والسيادة على السودان - الوضع التاريخى للمسألة - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٤٦ - ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢٣) شوقي الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٤ - ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢٤) السيد / رجب حراز - التوسع الإيطالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال - مطبعة جامعة القاهرة - القاهرة - ١٩٦٠ - ص ١٧ .

العيب فى فقر تلك المنطقة - كما يذكر - إنما العيب فيمن لا يحسن استغلالها ، وهذا يضاف إلى ما قدمناه من إيثار عباس عدم الاحتكاك بالحبشة والانجليز فترك إدارة الميناءين .

ومن هذا المنطلق نجد أن إسماعيل باشا - ١٨٦٣ - ١٨٧٩م(٢٥) - قد جلب على نفسه بطموحاته وآماله التى لا تنتهى - عداء اللدودين الأحباش والانجليز .

مساعى إسماعيل لضم سواكن ومصوع إلى الممتلكات المصرية :

ظل قائمقاميتى سواكن ومصوع تحت الإدارج الحجازية حتى عهد إسماعيل الذى انتهج سياسة مختلفة عن أسلافه محققاً آمالاً واسعة ، ولكنها فى إعتقادى آمال جوفاء خالية من النتائج المرجوه لأن من أحسن الأهداف لابد و أن يحسن النتائج ، والحقيقة التى لا مراء فيها أنه أحسن الأولى وأخطأته الثانية .

فإسماعيل عندما أخذ يرنو ببصره تجاه سواكن ومصوع لم يكن هدفه مقصر على كليهما فقط وإنما كان ذلك ضمن خطة مصرية بناها ليصل من سواحل

(٢٥) ولد إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على بمصر فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، وتربى فى المدرسة التى انشأها جده محمد على باشا بالقصر العالي ، ورحل إلى باريس حيث التحق فيها بمدرسة أركان حرب وهو ابن السادسة عشر ، وعاد إلى مصر بعد إتمامه دراسته فيها .

وقد ظل إسماعيل فترة فى الأستانة حيث عين عضواً بمجلس احكام الدولة العلية ، وعندما تولى سعيد اريكة الحكم فى مصر استقدم إسماعيل وجعله على رياسة أحكام مصر ، ولم يكن ولياً للعهد فى ذلك الوقت ولم تؤول إليها الولاية إلا بعد وفاة أخيه أحمد ، وقد تكرس إسماعيل فى كثير من المهات حيث كان سعيد باشا يرسله في مأموريات خاصة إلى البابا ونابليون الثالث ، وإلى الباب العالي بالأستانة وغير ذلك ، وفى سنة ١٨٦١ . نشبت فتنة بالسودان فبعث سعيد به على رأس أربعة عشر ألف مقاتل لقمعها . ونجح فى ذلك إسماعيل وتولى حكم مصر بعد موت عمه سعيد في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣. انظر : محمد حسين هيكل - تراجم مصرية وعربية - مطبعة مصر ص ٤٩ ، ٥٠ .

ويذكر بيبركرابيتس وصفه لإسماعيل أنه لم يكن قوى البنية ، وكان قصير القامة ، عريض المنكبين ، غير جذاب المنظر وتشبه ملامحه ملامح سكان أوروبا الجنوبية ، وفى وصف آخر يقول أن وجهه كان هادئاً وصوته يعبر عن شخصية تتسم بحسن الخلق .

(انظر: إسماعيل المفترى عليه - ترجمة فؤاد صروف - دار النشر الحديث - القاهرة ١٩٣٣ - ص ٣٤) .

البحر الأحمر إلى المحيط الهندى ، ومنه إلى وسط القاهرة الأفريقية فالبحيرات الاستوائية ، وقد عرفت هذه السياسة بسياسة مصر الافريقية (٢٦) .

ومع كل فإنه مالبث أن تولى أمر مصر (٢٧) حتى شمر عن ساعد الجد نحو الإصلاح الشامل وتوسيع رقعة ممتلكاته أما لأهداف اقتصادية أو سياسية أو إدارية بحتة ، وقد كان يهدف فى مساعيه لنيل سواكن وملحقاتها على وجه الخصوص إلى الفوز بكل هذه الأهداف مجتمعه .

وقد أخذت هذه المساعى الصورة الجدية فى أواخر عام ١٨٦٤ م / ١٢٨١ هـ عندما أرسل إسماعيل باشا إلى معتمده بالآستانه - السيد / محمد كامل - القبوكتخندا خطابا يوضح فيه أنه سبق الحاق ميناءى سواكن ومصوع بمديرية التاكا - السودانية - إلا أنه فى مدة حكم عباس باشا أعيدتا لإحالة جدة ، وبسبب ضرورة إعادتهما إلى مديرية التاكا من عدة وجوه فقد بادرنا بطلب ذلك للأسباب الآتية (٢٨) : وقد عدد إسماعيل الأسباب التى دفعه لطلب ضمهما نوجزها قبل تنفيذها :

١- فرار العربان المقيمين بمنطقة التاكا هرباً من الأموال الأميرية إلى سواكن ، ومصوع ، كما أن العربان التابعين للمنائين يفرون الى المناطق الخالية الواقعه بين سواكن ومصوع ، وبين أراضى التاكا فلا هؤلاء يدفعون ما عليهم لمصر ولا هؤلاء يؤدون ما عليهم لباشوية الحجاز .

وهذا السبب حقيقة واقعة ولكن السئول عنها هو ذلك النظام الضرائبى الذى وضع فى السودان والذى كان كفيلا بتذمر الاهالى وفرارهم من إقليم التاكا

---

(٢٦) السيد رجب حراز - مرجع سبق ذكره .

(٢٧) صدر لإسماعيل فرمان بتوليته على مصر فى أوائل شعبان ١٢٧٩ هـ / ٢٢ يناير ١٨٦٣م، وقد جاء فى هذا الفرمان ما نصه « لما كان محمد سعيد باشا قد توفى فى ٢٨ رجب ١٢٧٩ ... فقد عهدنا بحكومة مصر وملحقاتها إلي إسماعيل باشا بنفس الشروط التى تضمنها الفرمان الصادر إلي محمد علي باشا...) .
(انظر محمد فؤاد شكرى - مرجع سابق - ص ١٠١ ، ١٠٢).

(٢٨) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - ترجمة الوثيقة التركيه رقم ٥٩ - صفحة ٢٢٨ من أفندينا إلى معتمده فى الأستانه - فى ٢٧ رجب ١٢٨١ هـ .

والسوادن الشرقى عموما ، بل ومما زاد العبىء على الاهالى ان كثيرين من رجال الاداره المصريه - كبارا كانوا ام صغارا - كانوا يستولون على نصيب معين لانفسهم من الضرائب بعد تحصلها وكانت الحكومة ترسل التجريدات - الحلات العسكرية - لجميع هذه الضرائب (٢٩) .

٢ - إن وجود هؤلاء الفارين دون سيطرة ادارية يفتح المجال لجهات أجنبية كالجيش لاتخاذهم اداة للافساد والتحرش بالمصريين ، ولكن اذا جمعت تلك البقاع تحت ادارة واحدة فانه يسهل السيطرة عليها .

٣ - القضاء على تجارة الرقيق وخطف الأجانب لهم بصورة وحشية مع اشاعة بعض اصحاب المقاصد السيئه إن الفاعل هم الاتراك .

وثمة سبب آخر يلمح بين سطور رسالة اخرى الا وهو مقاومة نشاط القسس وعربدتهم فى تلك البقاع عند إحكام السيطرة عليها (٣٠) . ولكنى اشك فى صدق النيه مع هذا السبب الذى يعرضه اسماعيل لاننا نجده بعد ذلك وفى ابريل سنة ١٨٧٧ م يصدر اوامره لعماله فى السودان باتخاذ جميع التدابير اللازمه للارسالية الكاثوليكيه المرسله الى الخرطوم من الرعاية التامه والاحترام الكامل ومساعدتها كذلك فى تأدية مأموريتهم (٣١) .

ويبدو أن اسماعيل تحجج بحجج مختلفة لكل من الدولة العثمانية ، والدول الأوروبية ليوافق الطرف الأول ، وليضمن مساعدة الجانب الثانى فى طلبه أو على الأقل يكون هناك عدم ممانعة . كانت حججه للدولة العثمانية تتضمن تخوفاته من أطماع ومشروعات الدول الأوروبية فى تلك السواحل ، فهناك باستمرار محاولات للاتفاق بين نواب القناصل أو القناصل ، وبين المشايخ ، فالحل السليم فى نظره لتفادى هذه المحاولات هو ضم المينائين الى الادارة

(٢٩) محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان - تاريخ وحدة وادى يالنيل السياسية فى القرن التاسع عشر مرجع سبق ذكره - ص ٧٨ .

(٣٠) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - ترجمة الكاتبة التركية رقم ٩٦ - صفحة ١٧ - من أفندينا إلى معتمده فى الأستانه - فى ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ .

(٣١) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ معية عربى - قيد وارد الافادات - رقم ٣٠ - صفحة ٣٨ - فى ١٤ ربيع الثانى سنهة ١٢٩٤ هـ .

المصرية - أما بالنسبه لحجحه للدول الأوروبيـة فتتلخص فى أن الدول الأوروبية اذا ارادت ان تقضى على تجارة الرقيق فالحل الوحيد لا يحقق الاشراف عليها لبعدها وعدم إحكام السيطرة عليها [٣٢] .

لا شك أن تلك الأسباب المتقدمة والتى تظهر على السطح فى الرسائل كان بعضها جوهرياً والبعض الآخر لم تكن الحاجة إليه بدرجة ماسة تجعل إسماعيل باشا يضحى بكثير من الأموال والهدايا ومجهودا تمضنية فى سبيل نيل هذين الميناءين ، ولكن الدافع كان أهم من ذلك بكثير يمكن توضيحه فى النقاط التالية:

١- ما أسلفناه من أن الأراضى السودانية - مترامية الأطراف كانت تقتصد إلى منفذ بحرى من خلاله يتم الاستيراد والتصدير وعن طريقه يتم تبادل السلع بين مصر والسودان ، وتسهيل مرور الجيوش المصرية من والى البقاع السودانية ، وكانت سواكن بموقعها ومميزاتها الطبيعية هى بمثابة ذلك المنفذ وذلك لقرب وسهولة اتصالها بميناء السويس [٣٣] ، وذلك نظرا لطول المسافة ووعورة الطرق البرية التى تربط بين الشمال والجنوب .

وبالفعل نجد ان الادارة المصرية دأبت بعد ذلك على صب كل الصادرات والواردات السودانيه عن طريق سواكن [٣٤] .

٢ - اتخاذ المنطقتين كرأس جسر للتوسع فى المنطقة ، ولذا بعد ان استقرت الاحوال فيهما اخذ المد المصرى فى الاستيلاء على زيلع ، وهرر ، وبربره حتى وصل الى رأس حافون ، مما يؤكد على تبييت النيه مسبقا .

(٣٢) شوقى الجمل - تاريخ سودان وادى النيل حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور الى الوقت الحاضر - الجزء الثانى - مرجع سبق ذكره - ص ١٩٦ - ١٩٧ ، وانظر : صلاح الدين الشامى - مرجع سبق ذكره - ص ١٣٤ .

(٣٣) يقع ميناء السويس على بعد بحرى قره ٧٢٠ ميلاً من ميناء سواكن ، وكانت البواخر تقطع هذه المسافة فى زمن قدره أربعة أو خمسة أيام .

(٣٤) دار الوثائق القومية - محافظ أبحاث السودان - محفظة ١٧ - دفتر رقم ٤ - فى ٢٣ ذى الحجة ١٢٨٢ هـ . وانظر : دفتر ٥٥٨ معينه تركى - ترجمة الوثيقة التركية رقم١٧ ص ٥٩ - من إدارة سنية إلى حكمدار السودان فى ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ هـ .

٣ - استغلال الرواج التجارى فى سواكن وتنمية ملاحاتها الغنية التى تأتيها السفن من بقاع بعيدة وخاصة السفن الهنديه .

٤ - لم يكن اسماعيل يشكو من فرار عربان التاكا الى سواكن فحسب ، ولكن الشكوى كانت من فرار الموظفين المصريين المتزمرين من عملهم فى السودان . وأحد هذه الامثله حدث عندما طلب ثلاثة من كبار الموظفين فى السودان العودة الى مصر وقد رفض طلبهم بحجة أنهم غير منفيين أو مبعدين(٣٥). نجد أن أحدهم وهو محمد حسيب بك مدير بربر- يهرب الى سواكن ، وتستمر مراسلاته مع أعيان الخرطوم والتى خش منها حكمدار السودان بث بذور الشقاق بين الموظفين والاهالى والعمل على فرارهم هم الاخرون الى سواكن(٣٦).

وقد وعد اسماعيل بأن يدفع لخزينة جدة سنويا ما كان يجبى من المينائين هما وملحقاتهما (٣٧) ، واستخدم اسماعيل لتحقيق مأرده وسائله الخاصه - كما سيتضح لنا - وهو الخبير بدهاليز السياسه العثمانية (٣٨) ، فعمل على استمالة الصدر الأعظم ، وبالفعل أرسل له بخطاب شكر على جهوده لتأييد مصر بضم المينائين اليها بعد أن تقرر عرض طالبهما على مجلس الوزراء العثمانى ، وضرورة بذل الجهود لتعديل الشروط المقترحه وتسويتها على احسن وجه ممكن(٣٩) .

---

(٣٥) أحمد سيد أحمد - مرجع سبق ذكره - ص ٨٤ .

(٣٦) المرجع السابق - ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣٧) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٩ صفحة ٢٢٨ - من أفندينا إلى معتمده فى الأستانه - فى ١٧ رجب سنة ١٢٨١ هـ .

(٣٨) على إسماعيل باشا فى مطلع شبابه بمجلس أحكام الدولة العلية وكان عضواً بارزاً فيه ، واستطاع أن يتفهم دهاليز السياسة العثمانية من خلال اقامته وعمله في استانبول - وكان يعلم كذلك ما للرشوة من أثر فى وزراء الباب العالى فإذا هو سخا بيده استطاع أن يحصل على مأربه أنظر محمد حسين هيكل - مرجع سبق ذكره - ص ٤٩، ٥١ .

(٣٩) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - رقم ٥١ - صفحة ٢٣٨ - من أفندينا إلى الباب العالى (مقام الصدارة - فى ١٧ رمضان سنة ١٢٨١ هـ .

ويذكر البعض [٤٠] : أن الحكومة العثمانية أرسلت لباشوية جدة تطلب رأيها فى هذا الشأن ، وفى الحقيقه هذا أمر يدعو للدهشة والغرابة إذ أن سؤالا يفرض نفسه . كيف تستشار إيالة جدة فى أمر هى خصم فيه وبالتالى فإنها إذا استشيرت فى ذلك فإنها ستضع العقبات فى طريق هذه الرغبة المصرية لأن جدة كانت تستفيد كثيراً من هذين المينائين خاصة ميناء سواكن -بعثورنا على الرسالة التى بعث بها والى جدة إلى مقام الصدارة فى الاستانه تأكدت الشكوك نحو ذلك.

فالحاصل أن الدولة العثمانية ارسلت الى جدة تستفسر عن قيمة دخل مصوع وسواكن حتى يتسنى لها حساب الويركو المفروض تأديته من الخزينة المصريه بعد الحاق سواكن ومصوع الى مصر ولا يغيب علينا أن الاستفسار عن بعض النقاط شئ[٤١] والمشوره شئ آخر . فما كان من والى جدة - بعد أن شعر بحقيقة ما جرى من إسماعيل - إلا أن ابدى إعتراضاته - من وجهة إخلاصه للدولة العثمانية - كما يذكر - ونورد هنا نص من الوثيقة التى تبرهن على ذلك[٤٢] : وهى من والى جده إلى مقام الصدارة ... ويغلب على ظنى أن استعلام المقام العالى عن دخل مصوع وسواكن المذكورتين ناشىء عن طلب الوالى الرفيع الشأن المشار إليه - يقصد إسماعيل باشا - من السلطنة السنية ضم المينائين المذكورين إلى الحكومة المصرية فإن كان ظنى فى محله فإننى بناء على ما يوجيه إلى إخلاص اجترىء على أن ابين فيما يلى الخسارة التى تصيب دوائر الرسوم الواقفة فى جدة ، واليمين كم تصيب الخزينة الجليلة وأخذ يعدد ويحذر من الخسارة التى ستلحق بكل من مينائى جدة، واليمن عند الحاق المينائين بمصر،

---

(٤٠) شوقى الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - مرجع سبق ذكره - ص ٤٧ - وانظر أحمد صالح عمر - الحكم المصرى فى مصوع - رسالة ماجستير - ١٩٨٤ - ص ٣٧ .

(٤١) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - رقم ٥١ - صفحة ٢٣٨ - من أفندينا إلى الباب العالى (مقام الصدارةج) - في ١٧ رمضان سنة ١٢٨١ هـ .

(٤٢) دار الوثائق القومية : محفظة ١٤٢ عابدين - الوثيقة التركية رقم ٦٥ - من والى جده إلى مقام الصدارة - فى ٨ ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ .

وخاصة أن الأخيرة تعد لمد خطوط السكك الحديدية بين مصر والخرطوم لتصل إلى سواكن ومصوع حينئذ تنتقل دخول الجمارك كلها إليهما .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقدم أن إسماعيل باشا كان قد حصل على فرمان عثمانى بالموافقة على إنشاء خطوط السكك الحديدية وإمتدادها من مصر إلى الخرطوم ثم من الخرطوم إلى سواكن ومصوع بواسطة القومبانية العزيزية المصرية (٤٣) .

وعلى الرغم من عرض هذه الاعتراضات الحجازية على مجلس الوزراء فلم يكن لها تأثير إلا مسألة جانبية أدت فى النهاية إلى صدور الفرمان بضم المينائين مقيداً بثلاث سنوات حتى يتسنى النظر فيما يحدثه امتداد السكك الحديدية - المزمع إنشاؤها - من أثار سلبية على ميناء جدة وبعد هذه السنوات الثلاث يتقرر قيمة الويركو من جديد (٤٤) .

وإذا دققنا النظر فى هذا التخوف المزعوم لظهر بجلاء بعده عن الواقع إذ أن أنشاء السكك الحديدية من مصر إلى الخرطوم يحتاج وحده إلى تكاليف تزيد كثيراً عن مال الشركة المكلفة بإنشاءه وهى القومبانية العزيزية فما بالنا بباقى الخط الذى يصل بعد ذلك من الخرطوم إلى سواكن ومصوع وهى مسافة شاسعة تحتاج ربما إلى ثلاثين أو أربعين سنة ، كما يذكر إسماعيل فى رسالته إلى معتمده فى الأستانة (٤٥) ويضيف أنه وحتى لو فرض جدلاً وتم إمداد ذلك الخط إلى سواكن أو مصوع أن تنقل بضائعها عبر السكك الحديدية بأسعار باهظة فى مسافات شاسعة ، وقد تبقى على تلك البواخر أربعة أيام هى كل المدة اللازمة لوصولها إلى السويس بالإضافة إلى أن وابورات الشركتين المؤسستين فى الهند -

---

(٤٣) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - الوظيفة التركية رقم ٢٠٣ - من أفندينا إلي الصدر الأعظم (فؤاد باشا) - فى ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨١ هـ .

(٤٤) دار الوثائق القومية : محفظة ١٤٢ عابدين - الوثيقة التركية رقم ٦٠ - إلى عتبات الحضرة الخديوية - فى ١٧ ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ .

(٤٥) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٠٢ - صفحة ٢٨٣ - من أفندينا لمعتمده فى الأستانه - فى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ .

المساجيرى ، أورينتال - تأتي إلي السويس رأساً من غير أن تعرج علي جدة ، ولذا فليس هناك ضرر وارد على ميناء جده من جراء الحاق ميناءى سواكن (٤٦).

وبناء على ذلك الدفوع فقد الح إسماعيل لمعتمده ، بضرورة السعى جاهداً لنيل هذين الميناءين دون تحديد زمنى .

ولم يكتفى إسماعيل بمساعيه - تلك فى الأستانه ، بل يذكر أنه تابع اتصالاته مع باشوية جدة حتى يحففهن حدة اعتراضها ، وكانت هذه الخطوة تبعاً لإشارة معتمدة بالأستانه(٤٧) .

ويذكر كذلك فى هذا الصدد أن إسماعيل باشا أرسل - على جودة بك - المندوب المصرى بجدة - لاقناع شريف بك ، ووالى المدينة للموافقة على ضم الميناءين إلى مصر ، منتهزاً فرصة امداده مكة بخمسة آلاف اردب من الحنطة(٤٨) ، ولوح بما يمكن أن تجنيه الاعتراضات الحجازية من أثر سئ على العلاقات بين الولايتين .

ويبدو أن مساعى إسماعيل التى تراوحت بين الترغيب والترهيب قد جاءت بالثمرة المرجوة ، فما لبث والى الحجاز أن وافق على رغباته فأرسل له إسماعيل باشا خطاب شكر على شهامته ومواقفه الجليلة تجاه مصر (٤٩) ، وكذلك تمت

---

(٤٦) هذا بالإضافة إلى أن سواكن ، ومصوع ليستا هما وجده فى ساحل واحد بل هما متصلان براً بمصر وملحقان بالسودان بينما جده فى أرض الحجاز بساحل آخر ، وكذلك فإن البضائع التى يراد تصريفها في الحجاز تحمل وتنقل على السفن من الهند وخليج البصرة وسواحل اليمن ، ويؤتى بها رأساً إلى جده والتى يراد تصريفها في مصر من تلك الجهات تأتى إلى مرفا السويس ، أو إلى سواكن ، ومصوع من غير حاجته إلى مرورها بميناء جدة ، انظر دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين تركى - ترجمة المكاتبه التركية رقم ١٠٢ - ص ٢٨٣ - من أفندينا (إسماعيل باشا) إلى المعتمد بالأستانة - فى ٢٨ ذى القعده ١٢٨١ هـ .

(٤٧) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - ترجمة المكاتبه التركية بدون رقم - صفحة ٢٤١ من افندينا إلى معتمده فى الأستانة - فى ٢٥ شعبان سنة ١٢٨١ هـ .

(٤٨) شوقى الجمل - سياسة مصر في البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - مرجع سبق ذكره ص ٤٧ .

(٤٩) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - بدون رقم - صفحة ١٧٤ - من أفندينا إلى والى الحجاز - فى ٧ ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ .

موافقة أمير مكة - المكرمة - فبادر إسماعيل باشا بشكره طالبا منه النصحية فيما ينبغى اتباعه[٥٠] .

محصلة مساعى إسماعيل باشا :

كللت مساعى إسماعيل لدى السلطنة العلية بالنجاح عندما أصدر السلطان - عبد العزيز بن محمود الثانى - فى ١٥ ذى الحجة لسنة ١٢٨١ هـ/١٢ ابريل ١٨٦٥م فرماناً بإحالة ميناءى سواكن ومصوع إلى الإدارة المصرية ، على أن يؤدى إيرادهما إلى خزينة جدة فيورد ٢٥٠٠ كيس سنوياً[٥١] للخزينة المذكورة ، بالإضافة إلى خمسة آلاف هى إيراد الجمرك والملاحات حسب إيرادها فى سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م .

ومع ما تقدم من مساعى مضنية فقد اشترط الفرمان المذكور - أن تكون تلك الإحالة مدة حياة إسماعيل باشا فقط فلا تتعداه إلى ورثته أى أنها تكون مقصوره على ذاته .

كما نوه أيضا إلى ضرورة تعديل الويركو المطلوب لإيالة جدة مرة كل ثلاث سنوات وذلك إذا جرى نقص فى أيراد الحجاز وزيادة فى إيراد الجهات المذكورة، فجبرا للنقص تجرى علاوة لباشوية جدة تبعاً لهذا النقص . على أن يجرى التسليم والتسلم اعتبارًا من سنة ١٢٨١ هـ ، ويتم ترتيب أقساط البدل المذكور[٥٢].

كما اضطر الخديوى إسماعيل كذلك إلى انفاق مبلغ ضخم فى الأستانة للحصول على فرمان آخر سنة ١٨٧٣ الذي وطد الوراثة فى بكر الأبناء على نحو ماصدر به فرمان ١٨٦٦ م والذى آعطى لإسماعيل بعض ما كان يتوخاه من الدولة العثمانية .

---

(٥٠) دار الوثائق القومية : دفتر ٢١ عابدين - بدون رقم - صفحة ١٧٤ - من افندينا إلى أمير مكة المكرمة - فى ذى القدعة سنة ١٢٨١ هـ .

(٥١) الكيس كان يقدر بخمس جنيهات ذهب مجيدى .

(٥٢) دار الوثائق القومية : ديوان جلالة الملك - مجموعة الفرمانات الشهبانية الصادر بالتركية - س/٦/٨/٩ .

وقد أضاف هذا المبلغ الجديد عبأ ثقيلاً آخر على الخزينة المصرية والتى اثقلتها الديون السابقة فاضطر إسماعيل إلى القروض فاستدان بقرض جديد لم يوفى هو الآخر بما صرفه من أموال وهبات (٥٣) .

تسلم الإدارة المصرية لمحافظة سواكن :

أسرعت الإدارة المصرية باتخاذ التدابير اللازمة لتسليم مينائى سواكن ومصوع من باشوية جدة فور صدور فرمان الإحالة والذى صدر فى ذى الحجة ١٢٨١ هـ / مايو ١٨٦٥ م .

وقد تم استلام سواكن مباشرة كما سنرى بينما تأخر استلام مصوع نظراً لقيام الثورة التى نشبت بمديرية التاكا .

وتعين جعفر باشا صادق حكمداراً لكل من مديرية التاكا ، ومحافظتى مصوع وسواكن(٥٤) بينما صدر أمر إلى جعفر باشا مظهر - وكيل حكمدارية السودان - بالقيام إلى جدة لتسلم الميناءين المذكورين(٥٥) ، كما صدر لوالى جدة خطاب بهذا المعنى ، وأرسل مع جعفر باشا المنوط به أمر التسليم (٥٦) .

وما أن تسلمت مصر ميناء سواكن حتى بادرت بتجميع كل الصادرات والواردات السودانية من محصولات زراعية ومعدات وكذلك أصبح الطريق الوحيد لمرور الجنود من والى السودان حتى نشوب الثورة المهدية فى ١٨٨١م وما تبعها من قلاقل جيث تضائلت بعدها أهمية سواكن، وانتقلت من على مسرح التاريخ إلى كتبه .

---

(٥٣) محمد حسين هيكل - مرجع سبق ذكره - ٦١ .

(٥٤) دار الوثائق القومية : دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى - صفحة ٥٦ - أمر إلى جعفر باشا صادق - رئيس مجلس الاستئناف القبلى سابقاً الذى نصب حكمدار على التاكا ، ومصوع ، وسواكن - فى ٩ محرم سنة ١٢٨٢ هـ .

(٥٥) دار الوثائق القومية : دفتر ٥٥٣ معية تركى - ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٥٣ - ص ٦٢ - من شريف باشا إلى مدير قنا فى ٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ .

(٥٦) شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ٦١ .

سواكن واتخاذها منفى للمغضوب عليهم :

أشتهرت سواكن منذ أقدم العصور باتخاذها سجناً للمذنبين والمجرمين ، وأقدم ما وصل من تفصيلات فى هذا المضار هو ما تعرض له البحث سابقاً من اتخاذ سليمان بن داود عليه السلام لسواكن منفاً للمجرمين وما اشارت إليه الأساطير من قصة السواكنيين مع الجوارى المرسلة إليه من ملك الحبشة .

كما اتخذت مملكة الفنج (١٥٠٤ - ١٨٢٤م) مدينة سواكن منفى لمن يكون مغضوباً عليه ويراد إبعاده وإقصاءه عن عاصمة ملكهم - سنار - من ملوك مملكتهم ووزرائهم . وأول من نفى إليها هو أشهر ملوكهم شهامة وشجاعة الملك بادى أو شلوخ . كما نفى إليها أيضاً من ملوك الفنج الملك إسماعيل الذى كان ضعيف الإرادة دينا ، ولكن وزراء الفنج قرروا التخلص منه فعزلوه وأرسلوه إلى سواكن حيث توفى بها ، ودفن بجوار الأول - أبو شلوخ(٥٧) .

وفى الغصر الحديث وبالتحديد أثر تسوية (١٨٤٠ - ١٨٤١م) والتى تبعتها المؤمرات والمكايد فى القاهرة والأستانة ، واضطر معها عباس إلي اتخاذ كافة الوسائل لاحباطها، كان من هذه الوسائل أن عمد عباس إلى نفى وتشريد من تشكك فى إخلاصهم وولائهم له إلى السودان وهؤلاء هم الذين خشى من اعراء الباب العالى لهم بالمال والوعود ، ولا سيما أن أقوى خصومة من أفراد أسرته ، وكبار موظفى العهد السابق قد نزحوا إلى الأستانه حيث لقوا كل ترحيب من الباب العالى (٥٨) .

ويحاول بعض المؤرخين (٥٩): أن ينفى عن الإدارة المصرية تهمة إتخاذ سواكن كمنفى للمجرمين والمذنبين . وحقيقة لم تكن قط تهم ، وإنما هى حقيقة ثابتة بالأدلة والبراهين .

---

(٥٧) محمد ضرار - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - مرجع سبق ذكره - ص ١١٠ .

(٥٨) محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان - مرجع سبق ذكره - ص ٧٤ .

(٥٩) المرجع السابق - نفس الصفحة ، أحمد سيد أحمد - مرجع سبق ذكره - ص ٨٣ وما بعدها .

ولا يميل الباحث المحايد لمثل تلك الإتجاهات لبعض الكتاب والتى تتسم بالدفاع عن هؤلاء الحكام الذين يعتبرون أجانب عن مصر - اتراكا وألبانا كانوا أم مماليك وأوربيين بعد ذلك ، والذين لم يكن يهمهم أو يشغلهم فى النهاية سوى ماذا حققوا لأنفسهم ولنعرتهم الشخصية والأسرية والأسرية الضيقة ! وقد يكون عند كتاب هذه الاتجاهات مبرراً وحجة تدفعهم لهذا الموقف وهى أن هؤلاء الحكام عملوا فى تسيير حركة الإدارة اسم مصر، وهذه الحجة مرفوضة لسببين بديهيين :·

الأول : آن هذا مناقض تماماً للتاريخ المحايد للأحداث ، والثانى : أن هؤلاء الحكام لم يكونوا أبداً مصريين ، ولا تظهر انتماآتهم لمصر وإنما وجه هذا الإنماء إلى مشارب ومآرب شخصية لهم ولعائلاتهم وحسبنا فى ذلك دليل واحد - وقد تقدم تفصيله - ما صرفه اسماعيل من الخزانة المصرية الخاوية على فرمان توريث كرسيه لصلبه.

وقبل تقديم البرهان على صدق ما نقول تجدر الإشارة إلى أن الإدارة المصرية اتخذت السودان بالفعل وعلى وجه العموم ، وسواكن على وجه الخصوص منفاً للمجرمين والمغضوب عليهم من الموظفين المغربيين بل ولغيرهم أيضاً من الأجانب.

فقد أصدر الخديوى إسماعيل باشا أمره فى شوال سنة ١٢٨٣ هـ بأن يرسل إلى سواكن المجرمين المعتاد إبعادهم لما يقترفونه من جرائم السرقة وغيرها. ليقوموا بما يسند إليهم من أشغال هناك وتضمن الأمر كذلك أن تخصص أماكن لسكنى هؤلاء المجرمين ، وأن توضع القيود فى أرجلهم حيث يعملون فى البناء وغيره[٦٠] . كما عينت الإدارة المصرية بلوكاً مخصوصاً للمنفيين يقوم على شئونهم وضبطهم حسبما تصدر الأوامر [٦١] .

---

(٦٠) دار الوثائق القومية : دفتر ٥٦٠ معية تركى - نمرة ١ - صفحة ٤٩ - قسم ثان - من المعية إلى محافظ سواكن - فى ٥ شعبان سنة ١٢٨٣ هـ .

(٦١) دار الوثائق القومية : دفتر صور موازين حكمدارية شرق السوذان والسواحل - مصدر سبق ذكره .

وهناك عدة أمثلة للتدليل على ما قررناه آنفاً وبنص والوثائق أو ملخصاتها من عشرات الأمثلة التى عثر عليها :

١- «أرسلت محافظة الأسكندرية شخص يسمى يوسف صديق إلى سواكن منفياً بناء على النطق العالى نظراً لتداخله فيما لا يعنيه ، وفى بعض مسائل بوليتيكية (سياسية) وأنه لكونه يعرف الكتابه فيجرى الحاقه بوظيفة مستقلة تلق بحاله ، ومن وقتها تعين بوظيفة كاتب إدارة سواكن(٦٢) .

٢- «صدر من مجلس البحرية رقم ٥ شهر ٥ عن ٦ محموم فيها على شخص يسمى السيد مدين من عساكر الجهادية بأحد الوابورات بإرساله ليمان سواكن مدة سنة وبعدها يلحق بالعساكر الجهادية المقيمين بذلك الطرف نظراً لتعوده على السرقة والسكر، ومد يده للسؤال من عامة الأهالى (٦٣) .

٣- فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٩٢هـ أرسل عبد الله أفندى - الذى كان وكيلاً لمحافظة مصوع إلى سواكن ليسجن هناك فى محل مخصوص(٦٤) كما منع من الاختلاط أو اتصال أحد به(٦٥) .

٤- خطاب من المعية إلى وكيل محافظة سواكن فيه : «مرسول لطرفكم شخصى يسمى سليمان أفندى الأعرج تعلقت الإدار السنية بنفيه إلى سواكن ينبغى استلامه واقامته بسواكن منفياً بحيث تصير الملاحظة ...... فى عدم تمكنه من التوجه لجهة أخرى(٦٦) .

(٦٢) دار الوثائق القومية : دفتر ١٨٧١ - معية عربى - نمر ١٣ - صفحة ٤٨ - المكاتبة الصادرة من المعية السنية إلى مدير عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر فى ١٥ ذى الحجة ١٢٩٠ هـ .

(٦٣) دار الوثائق القومية : دفتر ٦ معية عربى - وثيقة رقم ٢٨ - صفحة ٦٨ - من الداخلية إلى المعية السنية - فى ١١ محرم سنة ١٢٩٢ هـ .

(٦٤) اتهم عبد الله افندى هذا بالخيانة نظراً لمراسلته ملك الحبشة ، وضبطت عنده أوراق تثبت ذلك .

(٦٥) دار الوثائق القومية : دفتر ٢٧ عابدين - صادر تلغرافات - التلغراف العربى - شفرة رقم ٢٠٩- صفحة ٣٣- من خيري باشا إلى محافظ سواكن- فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٩٤ هـ.

(٦٦) دار الوثائق القومية : دفتر ٢٢ معية عربى - المكاتبة الصادرة من المعية السنية إلى وكيل المحافظ بسواكن رقم بدون - صفحة ٨ - فى غاية محرم سنة ١٢٩٤ هـ .

٥- «الشخص المدعو رحمة مؤمن الذى أصله من مقاديم دارفور سابقاً وتقدم إرساله من حكمدارية السودان إلى سواكن ، وبمقتضى أمرنا كان تحرر من معيتنا للمحافظة طرفكم عن أبقاه بها فحيث أن المقصود هو لأجل وضعه فى الحديد وتشغيله بليمان سواكن مدة حياته لمناسبة تجارية على العصيان والمخالفة وعدم الانقياد للحكومة..(٦٧) ».

ومن مشاهير الرجال الذين نفوا إلى سواكن «على باشا الروبى» الذى كان مصاحباً لعرابى - الزعيم المصرى - ففى يوليو ١٨٨٢ م القى الروبى خطبته فى الجمعية العمومية تناول فيها الخديوى محمد توفيق بالطعن والقدح . وفى قتال العربيين والانجليز كان مرابطاً بجيشه عند بحيرة مريوط ، وهو الوحيد الذي رفض أن يقر بخطأه أثناء محاكمته فحكم عليه بالسجن عشرين عاماً يقضيها فى مصوع ، ورفض دفاع أحد من المحامين الإنجليز عنه فنفى إلى مصوع وبعد عامين نقل إلى سواكن حيث كان محل إجلال السواكنيين حتى كف بصره ومات هناك سنة ١٨٩١م(٦٨) .

ونفى إلى سواكن كذلك السيد قنديل(٦٩) الذى اتهم بتواطئه مع العرابيين ضد الإنجليز ، وأتهم بالإهمال يوم المذبحة التى حدثت يوم ١٨٨٢/٦/١١ ميلادية فى الإسكندرية فأدانته الأحكام العرفية بسبعة سنوات يقضيها فى سواكن(٧٠) .

ومن غير المصريين الذين نفوا إلى السودان كان ميرزا على وميرزا حسين اللذان تزعما فرقة الملاحدة بايران ، وسموا انفسهم بالبهائيين أو البابيين . ومما يؤسف له حقاً أن الحكومة المصرية قد استخدمتهم كمدرسين بمدرسة الخرطوم(٧١) .

---

(٦٧) دار الوثائق القومية دفتر ١٠ أوامر عربى - الأمر الكريم الصادر إلى محافظة سواكن - زقم ١٦٢ - صفحة ٨٥ - فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ .

(٦٨) محمد ضرار - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - مرجع سبق ذكره - ص ١١٢ .

(٦٩) كان السيد قنديل مأموراً لبوليس مدينة الاسكندرية ، والحقيقة التى ذكرها الرافضى أنه لم يهمل يوم المذبحة ولكنه تغيب عن وظيفته ولم يبرح منزله لأسباب مرضية .

(٧٠) المرجع السابق ص ١١٣ .

(٧١) دار الوثائق القومية : دفتر ٤٨ عابدين - وارد تلغرافات - التلغراف العربى الشفرة - رقم ١٦٥ - من غوردون باشا إلى سعادة خيرى باشا - فى ١٢ شوال سنة ١٢٩٤ هـ .

ويبدو أن رفاعة الطهطاوى كان محقاً فيما ذهب إليه وما شكى منه من نفيه إلى السودان بحجة استخدامه لإنشاء مدرسة فى الخرطوم ، والدليل على صدق دعواه فعلاً أنه ظل هناك طيلة سنوات ثلاث دون أن يقدم أو يؤخر .

وقد كان المذنبون فى سواكن يمارسون بعض الأعمال التى يجيدونها أو يكتسبونها من خلال إقامتهم فيها فمثلاً نجد أمراً فى سنة ١٢٨٨هـ بتعليم أربعين شخصاً من المذنبين بسواكن عمل اللغمجية(٧٢) على أن يرسل منهم عشرون فردا إلى مصوع ويبقى بها العشرون الآخرون (٧٣) ، وما قدمناه فى المثال رقم ١ من تشغيل أحد المتقين كاتب إدارة لسواكن وذلك لإجادة الكتابة وغير ذلك.

---

(٧٢) دار الوثائق القومية : دفتر ١٥٣٥ وارد جهادية تركى - جـ ٣ صورة المكاتبة الواردة من محافظة سواكن إلى ديوان الجهادية - نمرة ١٩ - صفحة - ٤٨ - بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٨٨ هـ .

(٧٣) لغم كلمة تركية بمعنى نفق تحت الأرض ، وقد كان أوجاق اللغمجية فى الدولة العثمانية لا يتسلمون مرتبات بل يمنحون اقطاعات عسكرية من الأراضى - انظر : عبد العزيز الشناوى - مرجع سبق ذكره - ص ٥٥٠ .

جامعة القاهرة – معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٢٦٣ – ٢٩٨

دور شركة شرق أفريقيا البريطانية فى التمهيد لاستعمار أوغندة

د. محيى الدين محمد مصيلحى
أستاذ بكلية التربية – جامعة القاهرة

موضوع دور شركة شرق أفريقيا البريطانية فى التمهيد لاستعمار أوغندة من الموضوعات التى ما تزال بحاجة إلى دراسة علمية تاريخية موضوعية جادة، رغم أن كثيراً من المؤرخين قد تناولوا هذا الدور ضمن أبحاث كثيرة عن تاريخ الاستعمار البريطانى فى أوغندة ذلك أن جلهم قد انساقوا وراء كتابات الرحالة والمبشرين الانجليز وأنصار الشركة التى تحوى مادة دعائية كبيرة ومغالطات تاريخية قصد منها تمجيد دور الشركة وتبرير نشاطها فى أوغندة، ولم تخلو الوثائق البريطانية سواء أوراق جمعية التبشير الكنسية Church Missionary Society أو ملفات وزارة الخارجية البريطانية من ترديد هذه المغالطات، وقد أوقف بعض الباحثين المحدثين من أمثال مارجرى برهام ود. أ. لو، وانجهام M. Perham, D.A. Low & Ingham أنفسهم من أجل الدفاع عن نشاط الشركة، ومساعدة مناخ الخلافات الدينية الذى ساد فى بوجندة فى فترة دخول الشركة إلى أوغندة وعدم استقرار الأوضاع الداخلية فيها وضعف السلطة المركزية للكاباكا على صبغ هذه المرحلة التاريخية بروح التعصب وخلط الحقائق .

وتغفل معظم كتابات الباحثين وثائق الجانب المعارض لنشاط الشركة وهى وثائق سجلها المسؤلين البريطانيين مثل ماكدونالد Macdonald[1] وبعض الأجهزة الصحفية الانجليزية مثل Church Times ، وبالإضافة إلى كتابات المبشرين الكاثوليك الفرنسيين فى أوغندة ووثائقهم والتى يحتفظ دار المحفوظات الأوغندية فى عنتيبه Entebbe ببعضها، وتحوى هذه الوثائق مادة على قدر كبير من الأهمية للمؤرخ للخروج بمنظور تاريخى موضوعى عن هذه الفترة ، وعلى

هذا فإن إعادة تناول الموضوع من خلال مثل هذا المنظور يحتاج من المؤرخ أن يتحسس طريقه وسط اتجاهات متعارضة ، ومن أجل إعادة تقيمها . وتحاول هذه الورقة المقدمة إعادة كتابة ومراجعة تاريخ هذه الفترة اعتماداً على ما توفر للباحث من مصادر .

والمعروف أن شركة شرق أفريقيا البريطانية قد تأسست فى مايو ١٨٨٧ على يد وليم ماكينون(٢) بعد أن حصلت من برغش سلطان زنجبار على امتياز إدارة المنطقة الواقعة بين كيبينى Kipini شمالاً ونهر الأومبا Umba جنوباً ، والتى أصبحت منطقة نفوذ بريطانية بموجب اتفاقية التقسيم الإنجليزية الألمانية لعام ١٨٨٦ لمناطق النفوذ فى شرق أفريقيا (٣) ، وحصلت هذه الشركة على براءة ملكية فى الثالث من سبتمبر ١٨٨٨(٤) .

وتقتضى المعالجة التاريخية لهذا الموضوع التعرف على ظروف بوجندة قبيل دخول الشركة اليها، والخلافات الدينية التى ميزت النشاط التبشيرى فيها، كما تتطلب فهماً لمبررات تدخل الشركة فى المنطقة الإنسانية والإقتصادية والامبريالية والدينية، والسياسة البريطانية تجاه بوجندة خلال هذه الفترة التاريخية، ويحتاج تقييم دور الشركة فى التمهيد لاستعمار أوغندة والتعرف على انجازاتها إبان فترة ادارتها للمنطقة وسيتعرض البحث لهذه النواحى المختلفة.

أحوال بوجندة قبيل دخول الشركة إليها وقدوم المبشرين الأوربيين:

يتفق المؤرخون على أن التأريخ لأوغندة قد بدأ منذ دخول المستكشفين الأوربيين إلى المنطقة منذ الستينيات من القرن التاسع عشر، والذين توجت أعمالهم باستكشاف بحيرتى البرت وفيكتوريا ونهر السمليكى فى الفترة ما بين ١٨٥٨ و ١٨٧٧ (٥) ورغم إنعدام وسائل التسجيل فى الفترة السابقة على الستينيات فإن الثابت أن عدة ممالك أفريقية قامت فى هذه المنطقة الداخلية مثل بوجندة وبنيورو وانكولى والتورو، وأن مملكة بوجندة كانت أقوى هذه الممالك وأكثرها تحضرا واستقرارا. وكانت تربط هذه الممالك علاقات صداقة وتجارة مع سلاطين زنجبار، وكان للتجار العرب المسلمين مراكز تجارية فى مملكة البوجندة، وأن الهدايا كان يتم تبادلها بين حكام هذه الممالك وحكام زنجبار (٦)

ويبدو أن العلاقات بين الجانبين كانت من القوة بحيث ذكرت بعض الكتابات أن ممالك الداخل كانت خاضعة لنفوذ سلطان زنجبار، وهو أمر لم تثبت صحته تاريخها، وأن السلطان كان يساعد ملك بوجندة فى التوسع على حساب القبائل المجاورة وفى تدريب الجيش (٧). وخبر العرب الطريق بين الساحل والداخل، وأعانوا برتون وسبيك المستكشفين البريطانيين على إستشكاف بحيرة فيكتوريا، وكان لهم اسهاماتهم فى نشر الاسلام بين قبائل الداخل (٨). واتخذ ملوك البوجندا من بعض العرب مستشارين لهم، وبلغ تأثرهم بهم حتى أنهم اتبعوا التقويم الهجرى ولبسوا الملابس العربية، واعتنق بعضهم الإسلام (٩). وتمتعت مملكة البوجندة بنظام حكم مركزى مستقر متقدم قبل وصول الأوربيين إليها.

وفى أعقاب نشاط الكشف الجغرافى الأوروبى فى الداخل بدأت الاقتراحات تنهمر على جمعية التبشير الكنسية C.M.S. لارسال مبشرين بروتستانت إلى مملكة البوجندة، وكان أول من طالب بمد النشاط التبشيرى إلى بوجندة هو المستكشف البريطانى سبيك فى عام ١٨٦٣ بعد عودته إلى بريطانيا من شرق أفريقيا واستكشافه بحيرة فيكتوريا. ،لم تأخذ جمعية التبشير الكنسية بإقتراح سبيك لأنها فضلت حسب ما جاء فى تقريرها التركيز على النشاط التبشرى فى ساحل شرق أفريقيا ولأنها كانت تخشى المخاطرة بأرواح المبشرين فى الداخل(١٠). وأيد صامويل بيكر المستكشف البريطانى الذى استكشف بحيرة البرت فى عام ١٨٦٤ هذا المطلب دون جدوى. وأعاد ستانلى المستكشف البريطانى عرض الاقتراح على جمعية التبشير الكنيسة بعد زيارته لملك بوجندة موتيسا Mutesa فى عام ١٨٧٤، واستجابت الجمعية لهذا الاقتراح، وبررت الجمعية استجابتها لاقتراح ستانلى بأنه قدمه مصحوبا بخطاب موجه من ملك البوجندة موتيسا إلى ملكة بريطانيا يطلب فيه إرسال المبشرين إليه لتعليم شعبه المسيحية لأنه وجد "أن الإسلام لا يفى بمطالب شعبه"، وعلى هذا أرسلت الجمعية أول بعثة تبشيرية بروتستانتية لها فى يونيو ١٨٧٧ برئاسة الاسقف الكسندر ماكاى Macay ، ومع أن الحكومة البريطانية أيدت طلب موتيسا الخاص بارسال الإرسالية التبشيرية فإنها تنصلت من مسئولياتها عن نشاطهم فى مملكته، وأكدت له أنهم ليسوا وكلاء لها(١١) لتظل يديها نظيفة من أى عمل قد يتورطون فيه فى الداخل.

على أنه يلاحظ أن موتيسا رغم ارساله بطلب مبشرين انجليز من الحكومة البريطانية لم يعلن تحلله من إسلامه، كما يلفت النظر أن وقتا طويلا قد مضى على طلبه قبل أن تستجيب جمعية التبشير الكنسية له، وهو وقت يقارب السنتين، وعلى هذا فإن عوامل أخرى غير دينية قد أدت إلى إرسال المبشرين الانجليز إلى بوجندة فى هذه الفترة ورأت جمعية التبشير الكنيسة أن تتخذ من طلب موتيسا مبررا لإرسال مبشريها. وقد ذكرت أسباب كثيرة لأرسال المبشرين الانجليز إلى بوجندة، ومن هذه الأسباب زيادة النشاط التوسعى المصرى خلال هذه الفترة فى المديرية الاستوائية وامتداد هذا النشاط إلى البنيورو والبوجندة، وخوف موتيسا من هذا النشاط، الأمر الذى دفعه إلى طلب الأسلحة من ستانلى ويبدو أن ستانلى قد أقنعه بأن كسب صداقة بريطانيا كفيل بحمايته من آثار النشاط التوسعى المصرى، وأن طلب المبشرين الانجليز لتعليم بلاده الديانة المسيحية يحقق له هذه الغاية، ويذكر المؤرخون أن بريطانيا كانت تنظر بعين القلق إلى هذا النشاط الذى أمتد إلى سواحل بلاد الصومال، وأنها عملت بالتالى على تعويقه، وأن الرغبة البريطانية التقت مع رغبة موتيسا فى الحد من هذا النشاط، ومن ثم رأت إرسال المبشرين إلى بلاده لا بهدف تعليم المسيحية فحسب وانما لمراقبة النشاط المصرى ومساعدة موتيسا على التصدى له، هذا فضلا عن أن قنصل بريطانيا فى زنجبار جون كيرك Kirk قد شجع بطريقة غير مباشرة سلطان زنجبار على إرسال السلاح لموتيسا لوقف النشاط التوسعى المصرى (١٢).

ومع التسليم بفاعلية هذا العامل كمبرر لإرسال المبشرين الانجليز فإنه من الواضح أن الباحثين قد ضخموا من وصف القلق البريطانى وقلق موتيسا من هذا النشاط لأن هذا النشاط لم يصب نجاحا يذكر فى البوجندة، ومنيت القوات المصرية بخسائر غير ضئيلة فى حروبها مع الباجندة، هذا فضلا عن أن بريطانيا تمكنت من تطويق هذا النشاط من خلال حثها لجوردون على سحب قواته المصرية من المديرية الإستوائية، كما دخل موتيسا وخليفته موانجا مع أمين باشا الذى خلف جوردون فى منصبه كحاكم للمديرية الإستوائية فى معاهدة صداقة (١٣).

ولاشك أن وصول المبشرين الانجليز إلى البوجندة كان مبعثه زيادة التنافس الإستعمارى فى وسط أفريقيا بعد أن تمكن ليوبولد الثانى من تأسيس دولة الكونغو الحرة فى أعقاب انعقاد المؤتمر الدولى فى بروكسل الخاص بالكونغو فى عام ١٨٧٦ ، وزادت خطوات فرنسا للسيطرة على منابع النيل الاستوائية ووسط وجنوب السودان لإنشاء حزام فرنسى من شرق القارة الى غربها ، وقد اضطرت هذه الظروف بريطانيا الى الاقدام على إرسال مبشريها الى بوجندة لايجاد موطأ قدم لها فيها ، وحمايتها من الوقوع فى يد دول أوربية أخرى ، لادراكها لأهمية موقعها كباب خلفى لمصر ، والتى كانت تسعى للسيطرة عليها ، ولامكاناتها التجارية الكبيرة كمصدر لتجارتى العاج والملح . واستدعت هذه الظروف انتهاجها وجها إمبرياليا صريحا ، وتخليها عما كان يعرف بسياسة الحفاظ على أملاك سلطان زنجبار [١٤].

ولم يجد موتيسا فى وصول المبشرين الانجليزا ما يصبوا اليه من الحصول على السلاح ، وبدأ يضيق ذرعا بهم لأنهم عملوا على التدخل فى أمور مملكته ، وعلى تحصين مقارهم التبشيرية ، وزاد تذمره من وجودهم وصول المبشرين الكاثوليك الفرنسين الى بلاده فى أوائل عام ١٨٧٩ ، وكان وصولهم يمثل رد فعل من جانب فرنسا لوصول المبشرين البروتستانت الانجليز .

وتكشف تفاصيل المكاتبات التى دارت بين لافيجيرى أسقف الجزائر والبابا بيوس التاسع بشأن ارسال المبشرين الكاثوليك الى البوجندة من أن الهدف معه من هذا القرار كان سياسيا بحتاً ، اذ جاء فى مبروات تقديم الاقتراح بشأن ارسالهم أن هذه الخطوة من شأنها أن تساعد على كسب أرض رحيبة للكاثوليك الفرنسيين فى الداخل ، وأن الفرصة السانحة الان قد تضيع الى الأبد اذا لم تغتم [١٥] . وتسكت المصادر الانجليزية عن ظروف دخول البعثة التبشيرية الفرنسية برئاسة الأب لورديل Lourdel فى الوقت الذى تحاول إيجاد المبررات لوجود المبشرين البروتستانت فى بوجندة بهدف اضفاء عدم الشرعية على نشاطهم فى بوجندة . ومنذ البداية توترت العلاقات بين البعثتين التبشيريتين بسبب التنافس بينهما وتعارض أهدافهما .

وقسم النشاط ألتبشيرى مملكة بوجندة الى فرق ثلاث : الكاثوليك والبروتستانت والمسلمين . وانعكس هذا الإنقسام على أحوال بوجندة الداخلية ، وذلك أن العرب المسلمين اتخذوا من المبشرين موقفا عدائيا بسبب تحريضهم للرقيق على الهروب ، ولأنهم خشوا من السيطرة التدريجية للأوربيين على موارد التجارة المشروعة فى الداخل وحرمانهم منها، ومن ثم عملوا على أثارة موتيسا ضد المبشرين (١٦)، وعلاوة على هذا لاحظ موتيسا عدم انسجام العلاقات بين الكاثوليك والبروتستانت واندلاع القتال بينهما، وعلى هذا قامت سياسته على أساس ضرب الفرق الدينية ببعضها لاضعافها وسهولة السيطرة عليها، وساعد على استياء موتيسا من النشاط التبشيرى أنه وجد أن أفراد شعبه الذين تحولوا إلى المسيحية أصبحوا موالين لمبشريهم أكثر من ولائهم له، هذا فى الوقت الذى عمت فيه ظاهرة الإرتداد عن الأديان بين الباجندا لعدم تأصل تعاليمها فى نفوسهم وكان موتيسا نفسه خير دليل على هذه الظاهرة بعد ارتداده عن الإسلام واعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكى. وحاول موتيسا طرد المبشرين من بلاده، وأنزل المذابح ببعض المسلمين من الباجندا لرفضهم أكل اللحوم التى ذبحت فى مقره الملكى بطريقة غير اسلامية (١٧). وتوفى موتيسا فى عام ١٨٨٤ ليخلفه موانجا على عرش البوجندة.

الظروف الداخلية التى دفعت الشركة للتدخل فى البوجندة:

توفرت لشركة شرق أفريقيا البريطانية ظروف داخلية دفعت بها إلى التدخل فى المنطقة، ففى الداخل أعقب تولى موانجا العرش اضطرابات دينية شديد زاد من حدتها قلة خبرته وصغر سنه الذى لم يكن يتجاوز الثامنة عشر، ووجد موانجا أن المسيحية أوجدت فرقاء متنازعين فى مملكته، والبت عليه شعبه (١٨)، ومن ثم أظهر العداء لكل نشاط تبشيرى وأمر بإغلاق حدود مملكته من جهة الشرق، وحرم دخول الأوربيين اليها . وفى يناير ١٨٨٥ أعدم ثلاثة من البروتستانت من الباجندا بحجة مخالفة أوامره، وفى أكتوبر من نفس العام حاول الأسقف البروتستانتى هانتجتون Hannington دخول البوجندا من جهة الشرق فأمر بقتله(١٩) واتهم البروتستانت الكاثوليك بتحريض موانجا ضدهم، وحملوهم

مسئولية هذا الحادث. كما أرجع رئيس البعثة التبشيرية الإنجليزية الاسقف ماكاى مقتله إلى إحتلال الألمان لأوسجارا وعداء القبائل لهم. (٢٠) وفى يونيو ١٨٨٦ أعدم نحو ٤٥ مسيحيا من أتباع الفريقين المسيحيين. وامتدت يد الإرهاب إلى المسلمين أنفسهم، ولقى الكثير منهم مصرعه على يد موانجا. ويحمل بعض المؤرخين موانجا تبعة هذه الاضطرابات، ويصفونه بالخلل العقلى، والحقيقة أن المنافسات الشديدة بين الفرق الدينية جعلته يضيق بهم ذرعا.

ولعبت الظروف الصحية والاقتصادية دورها فى زيادة سوء الأحوال وعدم الاستقرار فى البوجندة، نتيجة انتشار مرض الطاعون فى السنوات الأولى من حكم موانجا فى حاضرة مملكته نابولا جالا Nabulagala، وأضطر الملك إلى نقل عاصمته إلى منجو Mengo، بيد أن هذه العاصمة الجديدة تعرضت للحريق مرتين فيما بين ١٨٨٦ ، ١٨٨٧، وغرقت سفنه التجارية فى بحيرة فيكتوريا، وفشلت حملاته ضد ملك البنيسورو كابريجا Kabrega (٢١). وأزم من الموقف الداخلى أن سرت شائعات فى مملكته مفادها أن عددا من زعمائه من كبار السن يدبرون للاطاحة به، كما راجت أخبار عن اعتزامه التخلص من المبشرين الأوروبيين والتجار المسلمين الموجودين فى مملكته (٢٢)، ويبدو أن هذه الأخبار الأخيرة قد خرجت من مصادر قصره الملكى، وتحفزت الفرق الدينية الإسلامية والمسيحية كلها ضد موانجا، خاصة وأنه حاول فى سبتمبر عام ١٨٨٨ تنفيذ خطة للخلاص منها، وكانت هذه الخطة تقضى بنقلهم إلى جزيرة مهجورة فى بحيرة فيكتوريا وتركهم يموتون جوعا. ورفضت الفرق الدينية ركوب السفن، واتحدث معا وأطاحت بموانجا الذى هرب خارج البلاد. وكان اتفاق المسلمين والمسيحيين يعتبر بمثابة زواج مصلحة مؤقت، مالبث أن انفصم عراه، بعد أن قسم الفرقاء الوظائف بينهم، واستحوذ المسيحيون على نصيب الأسد منها، وحقد المسلمون عليهم بسبب ذلك، وتوترت العلاقات بين الجانبين (٢٣). وتمتلئ كتابات المبشرين خلال هذه الفترة باتهامات للمسلمين تفيد بأنهم كانوا وراء حادثة الاطاحة بموانجا، وأنهم أى المسيحيين دعوا للاشتراك فيها، فاضطروا إلى ذلك لحماية أنفسهم من خطر محقق، وتهدف هذه الاتهامات الى تبرئة ساحة المسيحيين من مسئولية تعميق الاضطرابات الداخلية، كما تظهر اتهامات

أخرى ضد سلطان زنجبار حول تورطه مع الجانب المسلم فى بوجندة فى خطة الاطاحة بموانجا، وتتخذ هذه الاتهامات من وصول التاجر العربى المسلم سليمان بن زاهر إلى البوجندة فى أوائل عام ١٨٨٧، واتصال بالعرب المسلمين ومساعدتهم بناء على تعليمات من السلطان للفريق المسلم خلال أحداث عامى ١٨٨٨، ١٨٨٩ مبررا لهذه الاتهامات [٢٤] والتى لا تستند على دعامات مادية، خاصة وأن علاقات سلطان زنجبار مع حكام البوجند اتسمت بالصداقة التقليدية حرصا على استمرار نمو التجارة بين البلدين، كما كان السلطان يدرك أنه لن يستطيع ترجيح كفة العناصر المسلمة على كفة المبشرين لعلمه أنهم يستندون إلى قوة دولهم.

وسيطر المسلمون على العرش فى البوجندة من خلال تنصيب كيواوا Kewawa خلفا لموانجا والذى كان مسلما، ومن خلال هجومهم المسلح على المسيحيين من بروتستات وكاثوليك فى نهاية أكتوبر ١٨٨٨، واضطر المسيحيون إلى الفرار إلى الانكولى Ankole، وأستمرت سيطرتهم على البلاد نحو عام كامل ، وفى أكتوبر ١٨٨٩ تحالف المسيحيون معا وشنوا هجوما مشتركا على المسلمين من مواقعهم فى الانكولى. وأعادوا موانجا إلى العرش، وقسموا الوظائف فى المملكة بينهم بالتساوى [٢٥] وتتواتر فى كتابات المعاصرين المسيحيين أخبار عن لجوء المسلمين إلى سلطان زنجبار، وعن ارسال السلطان أسلحة اليهم، وعن نجاح المسيحيين فى اغراق سفن الأسلحة العربية فى بحيرة فيكتوريا، مما سهل للمسيحيين النصر على المسلمين [٢٦]. ولا تتوفر لدينا الدلائل لنفى أو إثبات صحة هذه الأخبار، غير أنه من الثابت أن المسيحيين وخاصة البروتستات قد حصلوا على السلاح عن طريق قناصلهم فى سلحل شرق أفريقيا وزنجبار، ومن ثم تمكنوا من الإنتصار على المسلمين بفضل هذا السلاح [٢٧]. ورغم انتصار المسيحيين على المسلمين فإن المسلمين ظلوا يمارسون حرب العصابات ضدهم [٢٨] بعد أن لجأوا إلى ملك البنيورو كابريجا Kabrega، والذى رحب بهم لعدائه لملك البوجندا موانجا. ولم يؤد النصر على المسلمين إلى هدوء الجبهة الداخلية فى البوجندة، وعلى العكس من ذلك بدأ التنافس الحقيقى بين الكاثوليك والبروتستانت للسيطرة على البلاد.

وثمة ملاحظات لنا على آثار النشاط التبشيري المسيحي فى البوجندة:

أولا : أن العامل السياسى حرك هذا النشاط الذى تجرد من صفته الدينية الحقيقية منذ البداية، ونقل هذا النشاط البوجندة من الاستقرار الى الفوضى، وأسدل عليها جوا من المنازعات والحروب الطائفية، وكدس السلاح فى أيدى المبشرين الذين تحولت مقارهم إلى قلاع مسلحة.

ثانيا: أن ملك البوجندة قد أضحى احتفاظه بالعرش معتمدا على تأييد المبشرين له، وضعفت سلطته المركزية، وأصاب الوهن ولاء شعبه له. وفشل فى السيطرة على الموقف الداخلى، وفى طرد المبشرين من أراضيه.

ثالثا: أضعف هذا النشاط من قبضة المسلمين وسلطتهم فى البوجندة، وأدى إلى طرد كثير منهم خارج البوجندة، ووهنت العلاقات بين سلطان زنجبار وملك البوجندة بسبب توتر الموقف الداخلى، وأثر هذا سلبا على التجارة بين الساحل والداخل.

رابعا: تحولت أراضى بعض جارات البوجندة إلى مراكز لشن الحروب الطائفية على الفرق الدينية فى البوجندة، وتمثل هذا فى إستخدام الانكولى من جانب المسيحيين لشن الهجوم على المسلمين، وفى استخدام البنيورو من جانب المسلمين للهجوم على المسيحيين فى البوجندة.

خامسا: لفت النزاع بين الطوائف الدينية انظار الدول الأوربية اليها، وزاد من تنافسهم للسيطرة عليها، ودفع بشركة شرق أفريقيا البريطانية لتسرع الخطى لبسط سيطرتها على المنطقة متعللة بحماية المبشرين واعادة الاستقرار والنظام إلى البوجندة.

الظروف الخارجية التى دفعت الشركة إلي التدخل فى البوجندة:

وإذا كانت الشركة قد وجدت فى اضطراب الموقف الداخلى فى البوجندة، وما أدعته من خطر على حياة المبشرين مبررا لتدخلها فى البوجندة، فإنها وجدت فى زيادة التنافس الاستعمارى على منابع النيل الاستوائية فى الثمانينات من القرن التاسع نواقيس خطر تحركها للسيطرة على المنطقة، لضمان ضمها إلى التاج

البريطانى من خلال ارتباطات مباشرة مع ملك البوجندة. واذا كان العامل الامبريالى والاستراتيجى يحركها لكسب أراض شاسعة خصبة ذات أهمية حيوية لتحكمها فى منابع النيل الاستوائية، فإنها كانت كشركة خاصة ترى فى السيطرة على الداخل وسيلة لتنمية نشاطها التجارى وتحقيق الربح لمساهميها (٢٩)، ومن ثم فإنها رأت خطرا فى النشاط الإستعمارى الألمانى الذى ظهر بطريقة سافرة فى شرق أفريقيا باعلانه تأسيس محمية شرق أفريقيا الألمانية فى فبراير ١٨٨٥، وفى تكالبه نحو الداخل فى عام ١٨٨٨ متخذا من انقاذ أمين باشا، (٣٠) وقواته الذين انقطعت أخبارهم عن العالم بعد اندلاع الثورة المهدية فى السودان ومحاصرة الدراويش للقوات المصرية فى المديرية الإستوائية ستارا لضم أوغندة إلى التاج الألمانى، وكان السبيل ميسرا للألمان للاتصال بالبوجندة عبر الطريق الجنوبى الذى يمر عبر بوجمايو إلى تابورة، لأن الطريق الشمالى كان خطرا بسبب تهديدات قبائل الماساى المحاربة (٣١). وأدركت الشركة أن ترك التدخل فى البوجندة للحكومة البريطانية سيترتب عليه نتائج وخيمة لأن الحكومة البريطانية رغم ادراكها لأهمية المنطقة، فإنها كانت ترفض التورط بشكل مباشر فى مغامرات استعمارية قد لا تؤتى أكلها. وقد تؤدى إلى توتر علاقاتها مع دول أوروبية أخرى وتحملها نفقات عسكرية ادارية لا طائل لها فى وقت كانت الامبراطورية البريطانية تعانى من مشكلات عديدة مثل صداماتها على الحدود الافغانية فى منطقة بنجدة مع القوات الروسية، وتورطها فى إحداث الثورة المهدية فى السودان، وموقفها الصعب فى مصر لتعرضها للضغط الفرنسى الذى كان يطالبها بسرعة الانسحاب من مصر. وعلى هذا فإنها لم تكن تريد أن تفتح جبهات جديدة مع ألمانيا التى هددت بسحب تأييدها لها فى موقفها فى مصر اذا عوقت مشروعاتها الإستعمارية. (٣٢) وعلى هذا فضلت بريطانيا أن يتحرك رأس المال الخاص للاضطلاع بمهمة السيطرة على الداخل، وأكتفت الحكومة البريطانية بالعمل الدبلوماسى وعقد المعاهدات لضمان مجالات نفوذ لها. ولم تعترض على نشاط الألمان الاستعمارى فى شرق أفريقيا أو غربها طالما أن هذا النشاط لا يؤثر فى حرية التجارة، وفى وضع بريطانيا المتميز فى منطقة الساحل الشرقى (٣٣). وعقدت مع ألمانيا اتفاقية تقسيم لمناطق النفوذ بينهما فى شرق

أفريقيا فى عام ١٨٨٦ . وقسمت الاتفاقية المنطقة الواقعة بين نهر روفاما Ruvuma جنوبا إلى نهر تانا شمالا إلي منطقتى نفوذ بين الدولتين على أن تعتبر المنطقة التى تقع شمال نهر أومبا Umba منطقة نفوذ بريطانية، والمنطقة الواقعة جنوب هذا النهر منطقة نفوذ ألمانية. على أن الاتفاقية لم تحدد الحدود الغربية لمناطق نفوذ الدولتين. ومن ثم أصبح مصير منابع النيل والمنطقة الاستوائية مجهولا، وأشتد التكالب الإستعمارى الأوروبى عليها، وأشتدت الانتقادات للاتفاقية من جانب أنصار التوسع الامبريالى وعلى رأسهم اللورد لوجارد والذى لعب فيما بعد دورا بارزا فى إحتلال الشركة لأوغندة، والقنصل البريطانى فى زنجبار كيرك لأن الاتفاقية جعلت الطريق الجنوبى الموصل إلى بوجندة فى يد الألمان(٣٤).

وتواكبت حملة الانتقادات ضد تلكؤ بريطانيا لاتمام ضم المنطقة الداخلية مع اضطرابات الأحداث المحلية التى أثارتها البعثات التبشيرية فى البوجندة، ومع التحركات الفرنسية والبلچيكية من جهة الغرب للسيطرة على منطقة منابع النيل. وكان البلچيك يرون فى ضم هذه المنطقة امتداداً طبيعياً لنفوذهم فى الكنغو، وكان الفرنسيون يريدون السيطرة عليها لتعويق النشاط الانجليزى والبلچيكى فى وسط أفريقيا، وظهرت فى هذه الاونة اقتراحات من جانب بعض الرأسماليين البريطانيين لتأسيس شركة السودان الملكية لاحتلال منابع النيل، غير أنها لم تنفذ بسبب اضطرابات السودان ابان الثورة المهدية، وتشكيل شركة شرق أفريقيا البريطانية، ووقوع هذه المنابع ضمن نطاق حدود نشاطها (٣٥).

ونتيجة عدم التحديد الذى ميز مجالى النفوذ البريطانى والألمانى فى شرق أفريقيا غربا تكالب الطرفان الانجليزى والألمانى على التوسع نحو الغرب للسيطرة على بوجندة. ففى فبراير ١٨٨٨ سيرت شركة شرق أفريقيا البريطانية حملة بقيادة هنرى مورتون ستانلى من أجل أنقاذ أمين باشا حاكم المديرية الإستوائية بعد أن تواتر الأخبار عن وقوعه أسيرا فى أيدى الدراويش، وكان هدف الحملة الأساسى هو الاستفادة من وضع أمين باشا لصالح بريطانيا فى منطقة البحيرات الإستوائية. وفى الوقت نفسه نظم كارل بيترز Peters رئيس

شركة شرق افريقيا الألمانية حملة إلى أعالى النيل لنفس الغوض. ووصل ستانلى إلى أمين باشا قبل بيترز، وأجبرت قوات ستانلى أمين باشا على الإنسحاب إلى الساحل، ولم يتمكن ستانلى من ضم المنطقة بسبب المرض والانهاك الذى حاق بقواته. أما بيترز فقد وصل متأخرا ووجد أن أمين قد انسحب إلى الساحل، فأتصل به، وأعلن بيترز أن سيمنح للألمان هذه المنطقة (٣٦)، غير أنه قتل بعد خروجه من بوجمايو على يد أحد العرب فى أواخر أكتوبر ١٨٩٢، وكان بيترز يريد قطع صلة البريطانيين بالداخل ومد النفوذ الألمانى إلى أعالى النيل، وازاء زيادة الخلافات بين الدولتين حول هذه المنطقة عقدت المفاوضات بين الدولتين فى أواخر عام ١٨٨٩، ونتج عنها عقد اتفاقية زنجبار هليجولاند بينهما فى يوليو ١٨٩٠، وبموجبها تنازلت ألمانيا عن أطماعها فى منطقة البحيرات الإستوائية مقابل تنازل بريطانيا عن جزيرة هليجولاند فى بحر الشمال (٣٧).

ورغم أن منطقة منابع النيل الإستوائية قد أصبحت منطقة نفوذ بريطانية بموجب الاتفاقية الانجليزية الألمانية الأخيرة، فإن بريطانيا ظلت تخشى أطماع الدول الأوربية فيها، وعلى هذا ناقش العكسريون البريطانيون فكرة غزو بريطانيا لهذه المنطقة فى عام ١٨٩٠ وترددت الحكومة البريطانية فى تنفيذ هذه الفكرة بسبب إرتفاع تكاليف حكم هذه المنطقة التى تبعد عن الساحل بنحو ٥٠٠ ميل وانعدام المواصلات من الساحل الى الداخل (٣٨).

وبينما كانت بريطانيا وألمانيا تتفاوضان بشأن هذه المنطقة اتجه بيترز الألمانى غربا إلى بوجندة بعد لقائه مع أمين باشا فى منطقة الساحل، وتمكن من مقابلة موانجا ملك البوجندة وعرض عليه معاهدة حماية معه ووافق موانجا على ذلك فى ٢٧ فبراير ١٨٩٠، ويتضح من نصوص هذه المعاهدة أن موانجا قد وافق بموجبها على السماح للألمان خاصة والأوربيين عامة بدخول بلاده والتجارة والاقامة فيها (٣٩)، ولم تتضمن المعاهدة بنودا تتعلق بالحد من تجارة الرقيق أو السلاح أو تجريد المبشرين من سلاحهم أو حرماتهم من التدخل من تقديم النصيحة لملك بوجندة موانجا. (٤٠) وقد أثارت هذه المعاهدة غضب البروتستانت، واتهموا الكاثوليك بتحريض موانجا على ذلك، والذى كان قد اعتنق المسيحية

وانضم إلى الفريق الكاثوليكى، وذلك بغرض احراجهم والاضرار بأوضاعهم. على أن نظرة على الموقف الداخلى فى البوجندة تكشف عن أن موانجا كان يخشى من عودة المسلمين إلى شن الحرب ضده، وكان لا يثق فى قدرة المسيحيين على الوقوف ضدهم، خاصة وأنه كان يدرك عمق الخلافات بين الفريقين الكاثوليكى والبروتستانتى، ومن ثم كان فى حاجة إلى تأييد خارجى من جانب قوة أوروبية، واقترح الأب الكاثوليكى لورديل Lourdel رئيس البعثة التبشيرية الفرنسية على موانجا فكرة طلب الحماية فى أوائل عام ١٨٩٠ من ممثل شركة شرق أفريقيا البريطانية جاكسون Jackson ، واستجاب موانجا لهذه الفكرة، وأرسل بهذا الطلب اليه - غير أن جاكسون تلكأ فى الرد عليه، وحين جاء الرد اشترط جاكسون فيه أن يقبل موانجا رفع العلم البريطانى على أراضيه، وقبول مندوب للشركة فى مملكته تكون نفقاته على حسابه، ولم يأخذ جاكسون طلب موانجا مأخذ الجد، وإنما اكتفى بإسال علم وخطاب إليه، ولم يكن هذا ليرضى موانجا الذى شعر بتخاذل البريطانيين فى مساندته، ومع هذا فإنه بعث اليه يعلن قبول طلباته ويدعوه للحضور بسرعة إلى بلاده من أجل اتمام عقد معاهدة الحماية معه (٤١).

وتذكر مصادر الشركة أن الخطاب لم يصل إلى جاكسون فى حينه، وأنه وقع فى يد بيترز الذى اخفاه حتى أتم معاهدته مع موانجا، ثم أرسل الخطاب إلى جاكسون الذى علم بأخبار المعاهدة الألمانية بعد فوات الأوان فأسرع نحو البوجندة على أمل عقد المعاهدة مع موانجا، غير أن جاكسون الذى وصل فى أبريل ١٨٩٠ وجد رفضا من جانب موانجا لعقد معاهدة معه لأنه لم يقبل التحلل من معاهدته مع بيترز، خاصة وأن البنود التى عرضها جاكسون على موانجا كانت أقل قبولا لدى موانجا من بنود معاهدة الحماية مع بيترز، وعاد جاكسون ادراجه بعد أن ترك الكابتن جدج Gedge على رأس قوة عسكرية صغيرة فى البوجندة، وأوصاه بالتعاون مع البروتستانت. وأثارت جمعية الكنيسة التبشيرية حملة صحفية كبيرة ضد نوايا الألمان فى إحتلال بوجندة (٤٢).

وتثير هذه الأحداث عددا من التساؤلات حول الأسباب التى دفعت الأب لورديل رئيس البعثة الكاثوليكية إلى عدم الإشارة على الملك موانجا بطلب

الحماية من فرنسا أو ألمانيا، وحول الدوافع التى جعلته يشير عليه بطلب هذه الحماية من شركة شرق أفريقيا البريطانية رغم ما كان سائدا من توتر فى العلاقات بين المبشرين الكاثوليك الفرنسيين والبروتستانت الانجليز، ويتطلب تلكؤ جاكسون فى الإستجابة إلى طلب الحماية تبريرا مقنعا اذ كان متوقعا أن يسرع جاكسون إلى تلبية هذا الطلب، خاصة وأن شركة شرق أفريقيا البريطانية كانت قد أرسلت فى أوائل عام ١٨٨٨ المستكشف البريطانى ستانلى إلى المنطقة لضمها إلى حلبة التاج البريطانى تحت سنار انقاذ أمين باشا.

ويساعدنا تتبع الأحداث خلال هذه الفترة على التوصل إلى تفسيرات لهذه التساؤلات، اذ أن الفرنسيين كان يشغلهم صراعهم ضد الألمان فى القارة الأوربية، وكانوا يدركون أن تحركهم نحو احتلال منطقة منابع النيل الاستوائية قد يعرضهم لمواجهة عسكرية مع الإنجليز، حتى فى حالة نجاحهم فى إتمام سيطرتهم عليها فلن يكون وضعهم فيها مستقرا بسبب وقوعها بين منطقة النفوذ البريطانى فى الشرق ومنطقة النفوذ البلجيكى فى الغرب ومنطقة النفوذ الألمانى فى الجنوب، وتحاصرهم من الشمال القوات الإنجليزية فى السودان، وأدرك المبشرون الفرنسيون هذه الحقيقة، وأيقنوا أن فرنسا لن تتحرك لضم المنطقة، ومن ثم كان جل اهتمامهم موجها إلى حماية أوضاعهم فى البوجندة، ولذا أشاروا على موانجا أولا بطلب الحماية من شركة شرق أفريقيا البريطانية مفضلين حماية بريطانية على الحماية الألمانية لأن الألمان وهم بروتستانت أكثر تعصبا من الانجليز، وكانوا يدركون أن وضعهم فى ظل سيطرة بريطانية سيكون أفضل من وضعهم فى ظل سيطرة ألمانية بسبب تأزم العلاقات الفرنسية الألمانية، وشعور العداء التقليدى بين الشعبين. أما ولم يستجب جاكسون إلى طلب موانجا لفرض الحماية عليه، فإن الأب لورديل أضطر إلى الإشارة على موانجا بطلب الحماية من شركة شرق أفريقيا الألمانية لحاجة موانجا إلى قوة خارجية تؤيده وتساعده على الاحتفاظ بعرشه.

أما تلكوء جاكسون فى الإستجابة لطلب إعلان الحماية على البوجندة فيرجع إلى أنه لم يأخذ طلب موانجا مأخذ الجد، خاصة وأن موانجا كان قد سبق له أن حاول طرد المبشرين من بلاده، وقتل الأسقف البروتستانتى هاتنجتون وأعدم

عددا كبيرا آخر من المسيحيين، بيد أن جاكسون كان يمكن أن يتخذ من هذا الطلب مبررا لفرض الحماية ولكنه كان يعلم أن خطوة كهذه تحتاج إلى موافقة مجلس إدارة الشركة لأنها تتطلب أرصدة مالية كبيرة لتمويل حملة عسكرية إلى الداخل لاتمام هذه الخطوة، وعلاوة على هذا كان جاكسون مكلفا بتأسيس عدد من المراكز الإدارية فى غرب شرق أفريقيا البريطانية "كينيا". ولاشك أن جاكسون لم يكن يتوقع أن يسرع بيترز إلى الداخل بعد لقائه بأمين باشا ويعقد معاهدة حماية مع موانجا، وعلى هذا لم يكن غريبا أن تخرج الشركة عن تلكؤها وتسرع فى إرسال جاكسون لعقد المعاهدة، غير أن الأمر كان قد إنتهى، ومن ثم رفض موانجا عقد معاهدة معه. ورغم أن الوقائع تسجل للكاثوليك موقفهم الطيب من طلب الحماية فإن البروتستانت أصروا على إتهامهم بتحريض موانجا على عقد المعاهدة مع بيترز، وذلك بهدف أن تظل العلاقات متوترة إلى الحد الذى يجبر الشركة البريطانية على التدخل لفك الاشتباك بين الأطراف المتنازعة، ويؤيد اصرارهم على إشاعة الاضطراب فى البلاد تهديداتهم لموانجا باثارة الفوضى فيها وترك البلاد اذا لم ينبذ معاهدته مع بيترز ويتم المعاهدة مع جاكسون (٤٣).

قد دفعت أحداث بوجندة الداخلية وظروف المنافسة الإستعمارية عليها سولسبورى رئيس وزراء بريطانيا إلى الضغط على الشركة من أجل إرسال حملة عسكرية لاحتلالها اذا لزم الأمر، غير أنه لم يستطع تحت ضغط الخزانة البريطانية أن يعد بمساعدة الشركة مالياً للقيام بهذه المهمة، وإكتفت الحكومة البريطانية بالعمل الدبلوماسى فكسبت "أوغندة" كمنطقة نفوذ بريطانيا بموجب معاهدتها مع ألمانيا فى يوليو ١٨٩٠، ومن ثم أصبحت معاهدة بيترز مع موانجا مجرد حبر على ورق، وتركت المهمة العسكرية وعملية الإحتلال للشركة البريطانية ومن هنا كان إرسال لوجارد(٤٤) الضابط الانجليزى من قبل الشركة إلى البوجندة على رأس حملة عسكرية إلى بوجندة لاتمام هذه المهمة فى أغسطس ١٨٩٠ . ومع هذا فقد كلفت الحكومة الألمانية أمين باشا للقيام بحملة إلى أوغندة وتأسيس المحطات الإدارية، وكان أمين يأمل فى أن يتمكن من دخول أوغندة التى كان اضطراب الأمور فيها قد بلغ حدا كبيرا، من خلال صداقته القديمة لموانجا، وكان يدرك قلة امكانات الشركة العسكرية (٤٥).

جهود لوجارد فى أوغندة:

وصل لوجارد إلى بوجندة فى أواخر ديسمبر ١٨٩٠ على رأس حملة عسكرية صغيرة، وكانت التعليمات التى صدرت له من إدارة الشركة تخوله عقد معاهدة، حماية مع موانجا بعد أن فشل جاكسون فى هذه المهمة، وطلبت التعليمات منه أن يعمل على منع استيراد الأسلحة والذخيرة إلى بوجندة ليحول دون زيادة الاضطرابات، وأن يحاول اشعار موانجا بقوة الشركة، وأن يعمل على منعه من عقد معاهدات مع شركات أو دول أخرى غير بريطانيا، وحرصت الشركة فى تعليماتها على التنبيه عليه بأن يعمل على اتخاذ موقف محايد بين الكاثوليك والبروتستانت، وعلى كفالة حرية التبشير المسيحى فى البلاد، بيد أنها نصحته بتعزيز مركز الفريق البروتستانتى بإعتباره الجانب الأضعف (٤٦) والتعاون معه اذا لزم الأمر لتحقيق أهداف الشركة من هذه الحملة. كما أشارت التعليمات بضرورة عدم خرق بنود البراءة الملكية للشركة، وأن تكون تصرفاته فى بوجندة متطابقة مع بنودها، وطلبت من لوجارد أن تكون الشركة القوة التى تدعم عرش ملك البوجندة بدلا من الإرساليات التبشيرية. ورغم أن التعليمات التى صدرت إليه طلبت منه أن يكون محايدا فإن الحيادية كانت هدفا بعيد المنال بسبب العلاقة العضوية بين الشركة والمبشرين الانجليز، وطلب مساندته لهم فى حالة الضرورة (٤٧).

وعرض لوجارد على موانجا توقيع معاهدة الحماية، ورفض موانجا، والغريب أن لوجارد يعترف بأنه لجأ الى الكاثوليك لاقناع الملك بتوقيع المعاهدة، وأن بييربراد أحد الكاثوليك البارزين ساعده فى إقناع موانجا بذلك (٤٨)، وتم توقيع معاهدة الحماية بينه وبين لوجارد فى ٢٦ ديسمبر ١٨٩٠، غير أن الكاثوليك عارضوا فى مسألة نزع سلاح المبشرين، ولم يخفف دور الكاثوليك فى هذه المعاهدة من عداء البروتستانت لهم. وبالتوقيع على المعاهدة رفع علم الشركة على بوجندة، وأصبح علم الشركة رمزا للبروتستانتية وصليب الكاثوليك رمزا للفريق الدينى المعارض. وقد نصت المعاهدة على تشاور ملك البوجندة مع الشركة فى الأمور الداخلية، وعلى عدم جواز منح الأرض أو المناصب لأوربيين

أخرين دون موافقة وكيل الشركة. ويرى ماكد رموت أن هذه المعاهدة وجهت أساسا ضد الكاثوليك لأنها قصدت فصل الدين عن السياسة ومنع المبشرين من إسداء النصيحة إلى موانجا، وحلول الشركة مكانهم فى هذه المهمة[٤٩]، ووصفها موانجا رغم اضطراره إلى توقيعها خاصة بعد أن علم أن الألمان لم يعد فى وسعهم حمايته بعد معاهدة يوليو ١٨٩٠ الانجليزية الألمانية بأنها نزلت به إلى "منزلة العبيد" وذلك على حد ما جاء فى كتابات لوجارد نفسه[٥٠]. ومع أنه عقد المعاهدة، فإنه كان من الضرورى دعم سلطة الشركة العسكرية لتنفيذها.

وأسس لوجارد مركزاً إداريا للشركة وقلعة عسكرية فى كمبالا بالقرب من عاصمة موانجا "منجو"، وفى أبريل ١٨٩١ ترك البوجندة إلى الغرب تاركا مهام الإدارة فى يد الكابتن ويليامز Williams الذى وصل من الساحل فى يناير ١٨٩١ ومعه ٧٥ جنديا مدربا، وقد ذكرت أسباب عديدة لهذه الرحلة نحو الغرب، من هذه الأسباب أنه شعر بضآلة قواته وعدم كفايتها لحفظ الأمن والاستقرار فى البلاد ، ومن ثم فإنه أراد أن يتصل بقوات أمين باشا فى كافالى Kavali التى كانت تحت قيادة سليم بك لمحاولة إدخالها فى خدمته والاستفادة بقوتهم فى دعم مركز الشركة، على أن بعض الباحثين يدحض هذا المبرر الذى ساقه للقيام برحلته نحو الغرب، ويذكر أنه كان لديه نحو ٣٠٠ جندى سودانى مدرب، وكان فى حوزته كميات لا بأس بها من السلاح، بجانب أنه كان يتمتع بتأييد الجانب البروتستانتى الذى كان بحوزته كميات أكبر من الأسلحة [٥١]. وكان بإمكانه أن يسيطر على الموقف الداخلى بهذه الإمكانات لو لم يكن قد بيت نية الحرب على الكاثوليك وحسم الموقف لصالح الشركة والبروتستانت.

وعلى هذا فإنه لا يوجد خلاف حول أهداف لوجارد من الحصول على مزيد من الدعم العسكرى بخروجه نحو الغرب، هذا بالإضافة إلى أنه أراد أن يستكشف الامكانات التجارية للمناطق الغربية، والوصول إلى المصادر الحقيقية للعاج والسيطرة عليها، وشن هجوم على المسلمين الذين يتمركزون فى البنيورو وحول حدودها حتى يأمن جانبهم، وتأمين الحدود الغربية للبوجندة من خلال إخضاع مناطق الغرب [٥٢].

ويسوق لوجارد سببا آخر لحملته نحو الغرب، وهو سبب يتصل بضالة قوة الشركة العسكرية وحاجتها لقوة لا تقل عن ٥٠٠ جندى لحفظ الأمن واستهانة الحكومة البريطانية بقدرتها فى حسم الموقف فى الداخل فيذكر أنه قبيل رحيله إلى الغرب وصل خطابان من الساحل الشرقى من القنصل البريطانى العام فى زنجبار جيرالد بورتال Portal إلى المبشرين البروتستانت، وقد تجاهل الخطابان ذكر الشركة، وطلب من الأسقف الانجليزى ضرورة التدخل فى حالة وقوع نزاع بين الفريقين المسيحيين (٥٣) وكان محتوى الخطابين مناقضا للمعاهدة التى عقدتها الشركة مع موانجا والتى تمنع المبشرين من التدخل فى الشئون السياسية أو العسكرية وقصر دورهم على النواحى الدينية، ويبدو أن هذين الخطابين قد حفزا لوجارد على ضرورة تعزيز قوة الشركة العسكرية لزيادة قدرتها الرادعة، وإن كان هيرث الاسقف الكاثوليكى قد وعد لوجارد بالتعاون معه ورحب بحماية الشركة للمنطقة (٥٤).

وبدأ لوجارد رحلته إلى الغرب بشن هجوم على تجمعات المسلمين على حدود البوجندة واستعان فى ذلك بقوة من المسيحيين من بروتستانت وكاثوليك، وتمكن من الانتصار عليهم، غير أن المسيحيين رفضوا التقدم إلى البنيورو والاشتراك فى القتال ضد كابريجا عدو البوجندة، وتقدم لوجارد الى بودو Buddu فى جنوب غرب البوجندة ودخل إلى التورو Toro وأعاد تنصيبه ملكا عليها، وكان كابريجا ملك البنيورو قد عزله من منصبه وطرده خارج التورو أثناء إغارته عليها من أجل توسيع سيطرته (٥٥). وعقد معاهدة حماية معه فى أغسطس ١٨٩١ نصت على أن كل العاج الذى يجمع فى التورو يكون ملكًا للشركة، لأن لوجارد أراد أن يحقق أرباحا للشركة تساعدها على مواجهة نفقاتها الإدارية فى الداخل وبنى قلعة عسكرية على حدود التورو مع البنيورو لحمايتها من هجمات كابريجا. ودخل لوجارد إلى الانكولى Ankole وعقد معاهدة مع حاكمها نتارى Ntare الذى كان صديق لملك الباجندة، ونصت هذه المعاهدة على مد حماية الشركة على أنكولى، وتعهد نتارى بمنع تجارة الرقيق والذخيرة القادمة من كراجوى عبر انكولى إلى المنطقة الألمانية فى الجنوب أو إلى كابريجا حاكم البنيورو ومسلمى الباجندا المهزومين فى الشمال (٥٦).

ودخل لوجارد إلى المديرية الإستوائية فى سبتمبر ١٨٩١ حيث اتصل بسليم بك وأقنعه بالدخول فى خدمة الشركة، وبنى قلعة عسكرية أخرى فى منطقة ضيقة من الأرض بين بحيرتى الملح وادواود وأطلق عليها إسم فورت جورج، وبلغ تعداد جنود سليم بك نحو ثلاثمائة جندى حسب تقرير أش Ashe ونحو ستمائة جندى (٥٧) حسب تقرير ماكدونالد الضابط البريطانى الذى كلفته الحكومة البريطانية بالتحقيق فى الحوادث التى وقعت فى البوجندة بعد عودة لوجارد إليها من رحلته فى الغرب، وتقدم لوجارد إلى البنيورو وهزم جيشا كبيرا تابعا لها، وشيد سبع قلاع عسكرية على حدودها، ووضع جزءا من الحامية السودانية فى هذه القلاع بهدف إخضاع البنيورو، وعاد لوجارد إلى كمبالا فى ديسمبر ١٨٩١ بعد أن فتح طريقا إلى الغرب، وضمن للشركة سيطرتها على تجارتى الملح والعاج فيه، ودعم القوة العسكرية التى تحت تصرفه (٥٨). واستقطع أراض من البنيورو لحساب بوجندة.

وفى البوجندة وجد لوجارد فى إنتظاره تعليمات من إدارة الشركة تطلب منه الانسحاب إلى الساحل لعدم مقدرتها على تحمل نفقات الإدارة فى الداخل ورفض الحكومة البريطانية مساعدة الشركة ماليا، وذكرت التعليمات أن انسحاب الشركة سيكون مجرد إجراء مؤقت إلى حين أن تدبر الشركة أمورها المالية، وطلبت من لوجارد مد معاهدته مع موانجا، وإن أمكن فعليه أن يترك متطوعا ليعمل كوكيل للشركة فى كمبالا على أن يلتزم موانجا بنفقات إقامته وراتبه. كما جاء فى التعليمات أن المبشرين الانجليز يمكن أن يغادروا إلى الساحل مع لوجارد إن ارادوا (٥٩). ولاشك أن هذه التعليمات كانت كافية لإثارة لوجارد لأنه كان معناها ضياع الجهد الذى بذله فى البوجندة ومنطقة الغرب، كما كان انسحاب المبشرين إن تم يضعف من موقف الانجليز فى هذه المنطقة ويدعم من موقف الجانب الكاثوليكى، وكان من شأنه أن يساعد على عودة هجمات المسلمين والبنيورو على البوجندة.

والواقع أن الشركة بإصدارها هذه التعليمات كانت تجهل الموقف فى الداخل، وكانت تجهل إنجازات لوجارد فى الغرب، واتسم قرارها بقصر النظر وتلقائية

القرار وعشوائية التخطيط، واللامسئولية. ولم يكن هذا التصرف غريباً على الشركة التى وصفتها تقارير وزارة الخارجية البريطانية بأنها أقل الشركات الإستعمارية الملكية البريطانية تنظيما، وكانت قلة خبرة مديريها هو الذى أدى بها إلى إصدار مثل هذه التعليمات وقد يكون للشركة عذرها لأنها تورطت فى نفقات التنافس الإستعمارى مع الألمان، واقامة المحطات الادارية والقلاع، وتحملت نفقات باهظة فى عمليات النقل الى الداخل اذ كانت تكاليف نقل الطن الواحد من الساحل إلى الداخل تبلغ نحو ٢٥٠ جنيها، هذا فى الوقت الذى كانت فيه منتجاتها التصديرية ضئيلة وكانت ملزمة بدفع إيجار سنوى كبير عن المناطق الساحلية التى حصلت عليها من سلطان زنجبار (٦٠).

أدت هذه الظروف إلى حفز لوجارد على حسم الموقف لصالح الشركة فى البوجندة ووضع الحكومة البريطانية أمام الأمر الواقع، وصمم على عدم تنفيذ أوامر الشركة بالإنسحاب وأيده الفريق البروتستانتى، وانهالت البرقيات على وزارة الخارجية البريطانية وجمعية التبشير الكنسية تطالب بعدم انسحاب الشركة، وتحذر من مخاطر ذلك على حياة المبشرين فى الداخل، ومن مخاطر نشوب حرب أهلية طاحنة نتيجة ذلك، وفى السابع من يناير ١٨٩٢ وصل إلى لوجارد خبر يفيد بأن الشركة قررت الاستمرار فى مهامها الإدارية حتى ٣١ ديسمبر ١٨٩٢ بعد أن أكتتب أنصار جمعية التبشير الكنسية بمبلغ خمسة عشر ألفا جنيه وساهم أنصار الشركة بمبلغ ٢٥ ألف جنيه أخرى (٦١).

وتذكر المصادر أن لوجارد وجد الموقف متوترا بين الكاثوليك والبروتستانت لدى عودته من الغرب، وأن هذا التوتر كان بسبب النزاع حول توزيع الوظائف الهامة فى البوجندة، وإتهام البروتستانت الكاثوليك بالسيطرة عليها. ويؤكد ستلهومان Stulhman الضابط الألمانى ومساعد أمين باشا أنه سمع لدى وصوله على مشارف البوجندة بأن الأحوال متدهورة فيها، وأن الفريق الفرنسى قد دبر مؤامرة لقتل أرنست جدج Gedge مساعد لوجارد أثناء عودته من شاطئ البحيرة إلى العاصمة منجو، والقضاء على النفوذ البريطانى (٦٢) ويبدو أن هذه الشائعات قد حفزت البروتستانت على تعجل حسم الموقف لصالحهم قبل أن تضطر

الشركة للإنسحاب، خاصة وأن الفرصة كانت مواتية لهم بعد عودة لوجارد بمزيد من القوة العسكرية السودانية من الغرب وزاد من التوتر والإشاعات وصول مزيد من الكاثوليك الفرنسيين إلى البلاد، مما عمق من خوف البروتستانت منهم، ووقعت فى الفترة ما بين العاشر من يناير ١٨٩٢ والعشرين من نفس الشهر اضطرابات بين الجانبين ظهر فيها أنها كانت مفتعلة من جانب البروتستانت، وانتهت هذه الاضطرابات باطلاق أحد الكاثوليك الرصاص على أحد البروتستانت وقتله. وقام موانجا بالتحقيق فى الأمر وذكر أن الكاثوليكى اضطر إلى هذا دفاعا عن النفس وردا على إعتداء البروتستانتى عليه، ورفض توقيع العقوبة عليه، وأصر لوجارد على ضرورة إعدام الكاثوليكى، واتخذ من هذا الحادث مبررا لبدء الحرب ضد الكاثوليك وموانجا لأن الأخير رفض تسليم القاتل إليه، وأعتبر هذا التصرف اهانه شخصية له. وفى ٢٢ يناير ١٨٩٢ وجه لوجارد انذار إلى الأسقف الكاثوليكى بأنه اذا لم يسلم (٦٣) القاتل فسوف تقع كارثة فى البلاد.

وقد ظهر من التحقيق الذى أجراه ماكدونالد أن لوجارد وزع فى الثالث والعشرين من يناير البنادق على البروتستانت وأنه وبعد أن أقدم على هذا التصرف لم يستطع أن يسيطر على تصرفاتهم وأنهم بدأوا الهجوم على الكاثوليك وأحرقوا مقارهم التبشيرية وقتلوا الكثيرين منهم فى السادس والعشرين من يناير ١٨٩٢ بمساعدة لوجارد وقواته العسكرية وتعرض موانجا للهجوم أيضا ولم يستطع الكاثوليك الصمود أمام قوة سلاح الشركة المتقدمة، وهربوا مع موانجا إلى جزيرة بلنججوى Bulingegwe فى جنوب بحيرة فيكتوريا(٦٤). ويتضح من تطور الأحداث أن تصرفات لوجارد كانت استفزازية، وأن الفريق البروتستانتى قد بدأ الحرب وأن تنصل هذا الفريق من مسئولية بدئها مدعيا أن الكاثوليك قد بدأوا الحرب وقتل زميلهم البروتستانتى. ورغم الصفة الدينية التى يصف بها بعض المؤرخين هذه الحرب فإنها كانت حربا سياسية فى جوهرها قصد بها إتمام الغزو. وكان النصر حليف لوجارد لأنه تمكن من خلال نجاحه فى الاحتفاظ بصداقة أمين باشا من أن تصل إليه إمدادات السلاح عن الطريق الجنوبى عبر شرق افريقيا الألمانية (٦٥).

ويدافع انجهام عن ضرورة انتصار البروتستانت على الكاثوليك ومساندة لوجارد لهم فيذكر أنه لم يكن من الممكن أن يكون للشركة موطأ قدم فى أوغندة فى حالة انتصار الكاثوليك على البروتستانت (٦٦) ومن ثم يريد أن يضفى شرعية على أعمال راح ضحيتها مئات من الباجندة والمبشرين وخرجت البلاد بسببها. ومن الغريب أن يتجه بعض الباحثين إلى وضع مسئولية الحرب على الكابتن ويليامز، ويستندون فى هذا إلى أنه أصر على الا يضار وضع البروتستانت من ناحية توزيع الوظائف بعد عودة موانجا إلى العرش بمساعدة الفريقين المسيحيين وأنه رفض تحول موانجا إلى البروتستانتية حين طلب منه موانجا ذلك فى السابع من ديسمبر ١٨٩٠ قبل عودة لوجارد من الغرب، وأنه إذا كان قد قبل ذلك لتدعيم موقف البروتستانت، ولخشى الكاثوليك الإقدام على التورط فى الحرب ضد البروتستانت (٦٧) غير أن محاولات تبرئة لوجارد من المسؤولية على حساب ويليامز أمر مرفوض ، خاصة وأن الأسباب التى يسوقونها لإتهامه واهية ضعيفة.

وأعقب انتصار لوجارد على موانجا والكاثوليك نجاح الفريق المنتصر البروتستانتى فى أن يملى شروطه على الجانب المهزوم ، ومن ثم أعيد توزيع الوظائف بمعرفة لوجارد ، وحصل البروتستانت على نصيب الأسد منها ، كما تم تقسيم أقاليم البوجندا بين الفرق الدينية الثلاثة الكاثوليك والبروتستانت والمسلمين ، فمنح البروتستانت نحو ثلثى مساحة البوجندا ، وقسم الثلث الباقى على الكاثوليك والمسلمين ، فحصل الكاثوليك على إقليم بودو Buddu ورغم اتساع هذه المنطقة فإنها كانت أقل من أن تستوعب الباجندا الكاثوليك (٦٨) ، واقترح الكابتن ويليامز أن يمنح الكاثوليك جزر سيسى Sese أيضاً بسبب ضآلة نصيب الكاثوليك من الأرض ، ورفض البروتستانت لما للجزر من أهمية استراتيجية . ومنح المسلمون ثلاث مقاطعات صغيرة هى بوتامبالا Butambala وجومبا Gomba وبوسوجو Bsuggu ، وتم اختيار هذه المناطق بدقة لتكون فاصلاً بين المناطق البروتستاتينة والكاثوليكية . وعقدت معاهدة بين المسلمين ولوجارد فى مايو ١٨٩٢ تتضمن هذه التسويات (٦٩) وتعهد المسلمون بمراعات حرية الأديان والغاء تجارة الرقيق. وتحول موانجا إلى البروتستاتينية بعد عودته إلى البلاد فى أعقاب التسوية .

وأثارت هذه التسوية عدم رضا الجانبين الكاثوليكى والإسلامى ، ورغم عدم رضا الكاثوليك فإنهم لم يلجأوا إلى أعمال العنف ، أما الجانب المسلم فقد تآمر مع الجنود السودانيين من أجل الثورة ضد سلطة الشركة ، فيما بعد (٧٠) وأعقب هذه التسوية عقد معاهدة بين الشركة وموانجا فى ١١ أبريل ١٨٩٢ اعترف فيها موانجا مجدداً بسلطة الشركة .

وقد أدت تسويات لوجارد إلى زيادة توتر العلاقات بين الفرق الدينية بسبب تقسيمات الأرض غير العادلة ، وظلت هذه المسألة تؤرق الإدارة البريطانية بعد انتهاء إدارة الشركة بالإضافة إلى مشكلة تهدئة مسلمى الباجندة، ورغم العنف الذى لجأ إليه لوجارد فإنه أكد تفوق النفوذ البريطانى فى أوغندة، ونجح فى جعل المسيحية دين أغلبية الباجندا ، ومهد السبيل لإنتشار المسيحية غربا خاصة وأن عدداً كبيراً من الكاثوليك قد فر تجاه الغرب أثناء الحروب الدينية فى أواخر يناير ١٨٩٢ ، وتأسس مجلس وطنى كنسى على يد البروتستانت (٧١). وأدت تسويات لوجارد إلى تقسيم البوجندة إلى مناطق كاثوليكية فى الغرب ومناطق بروتستانتينية فى الشرق. وتبع هذا اهتزاز النظام الإجتماعى التقلدى القائم على أساس الروابط القبلية، بسبب هجرة الباجندا إلى مناطق التبشير التابعين لها ، ومع هذا فإن هذا التقسيم لم يكن رسمياً، وبالتالى وجد مسيحيون ينتمون إلى الطائفتين الدينيتين فى منطقة واحدة (٧٢) .

وأدت جهود لوجارد الى وضع اللبنات الأولى لعدد من المراكز الإدارية والعسكرية خارج البوجندة وداخلها ، وساعدت هذه المراكز على جعل بوجندة حيث الإدارة المركزية أكثر أهلية من غيرها للسيطرة على الأقاليم التى تكونت منها أوغندة فيما بعد ونجح لوجارد فى فتح خط مواصلات بين البوجندة وبحيرة البرت (٧٣) ، وفى الحد تدريجياً من تجارة الرقيق ، كما كشف عن إمكانات تجارة العاج الواسعة ، ونبه الأذهان إلى ضرورة إحكام السيطرة على طرق التجارة إلى الداخل ووضع لوجارد أسس نظام الحكم غير المباشر فى أوغندة ، والذى يقوم على أساس الحكم من خلال استخدام الزعامات الوطنية من أجل خفض نفقات الإدارة وتقليص مسؤوليات الحكم فى الداخل . كما مهد

لوجارد بوضعه نواة الإدارة المنظمة للحد من نطاق الحروب القبلية (٧٤) . وكسب لوجارد مساحات شاسعة نحو الغرب للشركة وللتاج البريطانى . وكانت الحدود التى وصل إليها لوجارد فى الغرب هى العامل الأساسى فى تحديد خط الحدود بين الكونغو وأوغندة فى الإتفاقية الإنجليزية البلجيكية لعام ١٨٩٤ .

ورغم انجازات لوجارد فإنه ترك للإدارة البريطانية عدة مصاعب فيما بعد، منها أن الأنكولى صارت ملجأ للباجندا المسيحيين الفارين لعدم إنشاء مركز إدارى فيها حتى عام ١٨٩٥ ، ولأن كثيراً من الكاثوليك قد فروا إليها فى أثناء حرب يناير ١٨٩٢ (٧٥) أما الباسوجا فظلت تعانى من حالة التمزق والحروب الداخلية بسبب عدم وجود زعامات كبيرة تستند إليها الشركة أو الإدارة البريطانية لفرض هيبتها ، وظلت الباسوجا تدفع الجزية لملك البوجندة ، غير أن زعماءها لجأوا إلى أساليب قاسية فى جمع الضرائب الباهظة من السكان دون أن تستطيع الشركة منعهم (٧٦) . وبالنسبة للبنيورو فتحت الشركة بحروبها ضدها الباب على مصراعيه لإستقطاع أجزاء منها لصالح البوجندة ، وساعدت على خلق مناخ من العداء التقليدى بينها وبين الباجندا ، ولعب اختلاف الدين دوراً كبيراً فى زيادة هذا العداء بسبب مسيحية الباجندا وإسلام الكثير من البنيورو . وأدت الحروب ضد البنيورو إلى تخريب مساحات شاسعة منها، وانتشار المجاعات فيها . ولا شك أن أعمال لوجارد قد صحبها الكثير من أعمال العنف والدمار، وسقط فيها الكثير من الكاثوليك ، ودمر مقر البعثة الكاثوليكية ، وطالبت الحكومة الفرنسية تعويضات كبيرة لرعاياها بلغت ٢٠٤,٤٥٠ فرنك(٧٧). وأثارت أعماله انتقاد الكثيرين ، وتصدى للدفاع عنه أنصار جمعية التبشير الكنسية C.M.S. وانصار الأمبريالية وجمعية مكافحة تجارة الرقيق فى بريطانيا ، ويبدو أن الحملة ضد لوجارد كانت من العنف بحيث اضطر فى يونيو ١٨٩٢ إلى مغادرة البوجندة إلى بريطانيا للدفاع عن نفسه وللمطالبة بالإحتفاظ بأوغندة وكلف الحكومة البريطانية الكابتن ماكدونالد بالتحقيق فى أحداث الحرب الدينية التى جرت الويلات على البوجندة . وتركت بوجندة والمناطق التى تليها غرباً تحت إمرة الضابط ويليامز .

الحماية البريطانية على أوغندة :

وصل لوجارد إلى بريطانيا فى أكتوبر ١٨٩٢ ، وكان كل همه موجهاً للدفاع عن التهم التى وجهت إليه، ولتعبئة الرأى العام من أجل الاحتفاظ بأوغندة ، وتزعم حملة دعائية كبيرة فى الجرائد اليومية وعلى منصات الخطابة ، وآزره فى هذا الإتجاه رئيس أساقفة كانتربورى نفسه إذ طالب بمساعدة الشركة حتى تستطيع البقاء (٧٨) .

وكانت حكومة سولسبورى تؤيد التوسع الاستعمارى ، ومن ثم أرسلت فى أواخر عهدها الكابتن ماكدونالد لمسح الخط الحديدى بين الساحل والداخل ، وأرسل ماكدونالد تقريره فى اغسطس ١٨٩٢ ، وقدر أن هذا الخط يبلغ طوله نحو ٧٠٠ ميل وإن إنشاءه سيستغرق أربع سنوات وأن تكاليفه ستصل إلى ٢,٢٤٠,٠٠٠ جنيه . غير أن وزارة سولسبورى كانت قد استقالت قبل وصول لوجارد ، وتولت وزارة الأحرار الحكم برئاسة جلادستون ، وكان حزب الأحرار يعارض التوسع الأمبريالى ، ويرى أنه يمثل عبئاً على بريطانيا ، وكانت بالتالى مهمة لوجارد صعبة للغاية ، غير أن روزبرى ROSBERY وزير الخارجية كان من مؤيدى الفريق الاستعمارى ، وكان مقتنعاً بضرورة البقاء فى أوغندا واتخاذ إجراء حاسم سريع (٧٩) وأعد مذكرة جريئة تدعو إلى ضم البلاد حتى بحيرة البرت لغرض إعادة فتح السودان عن طريق أعالى النيل . ودعا روزبرى إلى أن يكون النيل منطقة حرة من منبعه إلى مصبه ، وألا تسيطر عليه دول أوروبية أخرى كفرنسا أو بلجيكا . وأشار روزبرى إلى مذكرة ونجت ضابط المخابرات بالجيش المصرى آنذاك، وأكد فيها الآثار السيئة للإنسحاب من مصر ، وحث بشدة على استرداد السودان (٨٠) .

وقد شهد الربع الأخير من عام ١٨٩٢ والربع الأول من عام ١٨٩٣ أضخم حملة دعائية كنسية نظمتها جمعية التبشير الكنسية . وقد أثارت هذه الجمعية مسألة الإلتزام الإدبى للبريطانيين فى أوغندة ، ووضع البروتستانت «غير الآمن» فيها ، واستقبل روزبرى وزير الخارجية وفداً من قبل الجمعية ، وشرح الوفد مخاطر الإنسحاب من المنطقة ، وانقسمت الوزارة البريطانية حول أوغندة .

وأخيراً وافق هاركورت وزير الخزانة البريطاني حفاظاً على تماسك مجلس الوزراء على أن تتحمل الحكومة البريطانية تكاليف الإحتلال حتى ٣١ مارس ١٨٩٣ (٨١) كي تتمكن من الحصول على بيانات كافية عن الموضوع، وكانت الوزارة قد بدأت تميل إلى الإحتفاظ بأوغندة للإنتفاع بموقعها الجغرافي واستغلال امكاناتها التجارية ، وحماية أرواح المبشرين فيها، ولإرتباطها بأمن مصر والسودان . وظهرت أمام مجلس الوزراء عدة اقتراحات منها اقتراح بورتال بإدارة أوغندة من زنجبار لتقليل نفقات الإدارة(٨٢) . كما اقترح ليوبولد ملك بلجيكا بأن يقوم بإدارة أوغندة تحت إشراف بريطانيا ، وعرض رودس مؤسس شركة جنوب أفريقيا البريطانية أن يستحوذ على أوغندة من شركة شرق أفريقيا البريطانية نظير منحة مالية قدرها ٢٠ ألف جنيه سنوياً ، غير أن هذه الاقتراحات لم ترق للحكومة البريطانية (٨٣) وقررت الوزارة البريطانية في السابع من نوفمبر ١٨٩٢ إرسال مندوب بريطاني إلى أوغندة لكتابة تقرير عن الأحوال فيها ، والتحقيق في حوادث العنف التي وقعت فيها إبان الحرب الدينية التي لعب فيها لوجارد دوراً بارزاً في يناير ١٨٩٢ .

والقى لوجارد محاضراته في انجلترا واسكتلندا مدافعاً عن نفسه، وعن ضرورة الإحتفاظ بأوغندة ، وكتب في الصحف البريطانية ، خاصة جريدة التايمز ، وحاضر في الجمعيات الجغرافية وغرف التجارة واجتماعات الجمعيات الدينية البروتستانتينية ويبدو أنه كسب للعامل الإمبريالي الكثير من التأييد ، وحاول تبرير تصرفاته في أوغنده ، غير أن جريدة Church times وجريدة Daily News وجريدة Manchester Guardian شنت عليه حملة عنيفة ساعد في زيادتها تدخل الحكومة الفرنسية لدى الحكومة البريطانية من أجل تهدئة الأحوال في أوغندة ، وإنقاذ رعاياها وتعويضهم عن الأضرار التي لحقت بهم (٨٤) . ولم تستطع وزارة الخارجية البريطانية تبرئة لوجارد رسمياً ، خاصة وأنها كانت قد أرسلت الضابط البريطاني ماكدونالد لتحقيق في الموقف ، وجاء تقرير ماكدونالد في غير صالح لوجارد ، مدعماً بالأدلة ، كما اتضح منه أنه اتخذ قرار الحرب مسبقاً قبل وصوله إلى البوجندة من الغرب ، وأنه افتعل الحرب مستغلاً حادثة صغيرة عادية (٨٥) . وعلى أساس الحقائق التي ظهرت من تقرير

ماكدونالد قبلت الحكومة البريطانية تعويض الضحايا الفرنسيين ، كما منعت لوجارد من العودة مرة أخرى إلى أوغندة .

وحاولت وزارة الخارجية البريطانية اقناع الشركة بأن تستمر فى إحتلال المنطقة لفترة ما ، بإعانة من الحكومة ، ومع هذا كانت الشركة غير راغبة فى أن تبقى فترة أقل من ثلاث سنوات ، وطالبت بإعانة قدرها خمسون ألف جنيه . وعلى هذا اختارت الوزارة جيرالد بورتال قنصلها العام فى زنجبار لزيارة أوغندة وتقديم توصياته بشأنها ، وكان بورتال بجانب منصبه الدبلوماسى أحد أعضاء مجلس إدارة الشركة ، وكانت الحكومة البريطانية تعلم هذه الحقيقة ، ومن ثم كان متوقعاً أن يأتى تقريره فى صالح ضم أوغندة للتاج البريطانى .

وصل بورتال فى مارس ١٨٩٣ إلى بوجندة ، ووجد الطوائف الدينية ما تزال تترصد لبعضها ، وعلت أصوات الشكوى من الأسقف الكاثوليكى هيرث Hirth من أعمال العنف وسوء المعاملة من جانب الكاثوليك ، كما شكا الأسقف البروتستانتى تكر Tucker من أعمال النهب والسلب التى تقوم بها القوات السودانية على طول خط حدود تورو ، واعترف كابتن ويليامز بضرورة منح الكاثوليك فريداً من الأرض والسماح لهم بالرجوع إلى العاصمة منجو Mengo، غير أن بورتال قد لاحظ أن الأسقفين الكاثوليكى والبروتستانتى متفقان على ضرورة عدم انسحاب البريطانيين مع أوغندة ، لأن الإنسحاب سيؤدى إلى نتائج وخيمة ، وربما إلى حرب أهلية أكثر إبادة (٨٦) . وعلى أساس هذا الإتفاق بين الجانبين قام بورتال فى أول إبريل ١٨٩٣ بإنزال علم الشركة ورفع العلم البريطانى ، وإنهاء مسؤولية الشركة فى البلاد .

وفى الثانى والعشرين من أبريل ١٨٩٣ أمكن من خلال بورتال تسوية مسألة الأرض مؤقتاً بين الكاثوليك والبروتستانت ، ومنح الكاثوليك جزر سيسى إلى جانب منطقة بودو Buddu التى حصلوا عليها من قبل. وفى ٢٩ مايو ١٨٩٣ عقد بورتال معاهدة مؤقتة مع موانجا نيابة عن حكومة بريطانية ،وقضت هذه المعاهدة بقبوله الحماية البريطانية ، وبتنازله عن حق عقد المعاهدات مع الدول الأوروبية أو الدخول فى حروب معها ، وبتخويله حق الإشراف على الميزانية وجمع

الضرائب إلى بريطانيا (٨٧) وتعتبر هذه المعاهدة بمثابة فرض سيطرة كاملة على بوجندة ، والغريب أنها كانت تمنح بريطانيا حق التدخل فى شؤون البوجندة ، دون أن تفرض عليها التزامات محددة بإدارتها ، ولم تكن هذه المعاهدة لترضى موانجا ، ولكنه اضطر إلى توقيعها أمام قوة بريطانيا .

أرسل بورتال تقريره من زنجبار فى نوفمبر ١٨٩٣ ، وجاء تقريره فى صالح ضم المنطقة مؤكداً على أهميتها التجارية والاستراتيجية ، مطالباً بسرعة إتمام الخط الحديدى بين ومباسا وبحيرة فيكتوريا من أجل سهولة المواصلات ودفع التجارة ووقف الحروب الأهلية ، وإدخال المدنية ، غير أن بورتال أشار فى تقريره إلى ضرورة قصر الإدارة البريطانية على بوجندة وحدها دون جاراتها الغربيات ، وذلك إقلالاً للنفقات ، ومن ثم فقد أوصى بسحب الحاميات السودانية من منطقة الحدود بين التوروالبنيورو (٨٨) . بيد أن بورتال لم يكن صائب الرأى بالنسبة لهذه المسألة الأخيرة لإرتباط أمن البوجندة بالأحوال العامة فى مناطق الغرب – هذا فضلاً عن تحكم هذه المناطق فى جزء من منابع النيل كبحيرة البرت (٨٩) ، علاوة على أهميتها التجارية . ومن ثم لم يأخذ كولفيل Colvile الذى تسلم إدارة المحمية رسمياً فى مايو ١٨٩٤ بهذه التوصية ، وإنما عمل على زيادة قبضة الإدارة البريطانية غرباً . وعلى أساس تقرير بورتال بالإضافة إلى اعتبارات امبريالية أخرى قررت الحكومة البريطانية رسمياً فى ١٨ يونيو ١٨٩٤ إعلان الحماية البريطانية رسمياً على بوجندة ، وشهدت السنوات التالية مد هذه الحماية على مناطق الغرب، وبدأت المفاوضات بين الحكومة والشركة لتعويضها عن أعمالها فى بوجندة .

نتائج البحث : وقد خرج هذا البحث بعدد من النتائج أهمها :

١- أن بريطانيا كانت تهتم بمنطقة أوغندة وأعالى النيل قبل تأسيس شركة شرق افريقيا البريطانية ، وكان أهتمامها بهذه المنطقة سبباً دفعها إلى منح الشركة براءة ملكية ، وكان الاهتمام البريطانى بهذه المنطقة نابعاً من اهتمامها بالإستيلاء على مصر بعد افتتاح قناة السيس، ومن أطماعها للوصول إلى وسط أفريقيا والكونغو وضمان حرية الملاحة فى الأنهار الدولية لخدمة

التجارة المشروعة ومقاومة تجارة الرقيق ، ولعبت الجهود الكشفية وأعمال التبشير المسيحى دوراً كبيراً فى لفت الأنظار إلى إمكانات هذه المنطقة وعمقت الإهتمام البريطاني بها .

٢- إن بريطانيا أيدت النشاط التبشيرى رسمياً، ولم يكن إيفاد المبشرين البروتستانت إلى البوجندة مجرد استجابة لرغبة موتيسا Mutesa ملك بوجندة، وإنما ارتكزت بريطانيا على هذا السبب لترسل مبشريها لغرض سياسى أكثر منه دينى ، وهو مراقبة الأحداث عن كثب لضمان عدم وقوع المنطقة فى يد دولة أوروبية أخرى .

٣- أدى اشتداد التنافس الدولى على شرق ووسط افريقيا فى الثمانينات إلى خروج فكرة الشركة إلى حيز التنفيذ بعد أن تأسست رسمياً فى مايو ١٨٨٧ ، وإلى اضطلاع بريطانيا بالدور الدبلوماسى لحسم تنافسها مع الألمان بشأن هذه المناطق ونجحت فى هذا الدور بعقدها معاهدة يوليو ١٨٩٠ التى ضمت أعالى النيل كمناطق نفوذ بريطانية . وتركت الحكومة البريطانية للشركة مسؤولية التوغل نحو الداخل ووضع لبنات الإدارة فيها ، وحاولت أن يبدو نشاطها منفصلاً عن نشاط الشركة حتى تظل أيديها نظيفة من أية تجاوزات قد تقدم عليها الشركة فى الداخل ، على أساس أنها تمارس نشاطاً خاصاً غير رسمى .

٤- لم يكن تحرك الشركة نحو الداخل نابعاً من عامل امبريالى فقط لكسب مساحات شاسعة للتاج البريطانى ، وإنما حركت الرغبة فى الربح والسيطرة على موارد التجارة المشروعة فيها وحرمان العرب المسلمين من نشاطها ، وكانت وسائل الشركة للسيطرة تتمثل فى دعم النشاط التبشيرى البروتستانتى وإثارة الإضطرابات فى الداخل ليكون تكأة ، للتدخل ، وفى محاولات سبق الألمان إلى الداخل وعقد معاهدات حماية مع ملوك البوجندة .

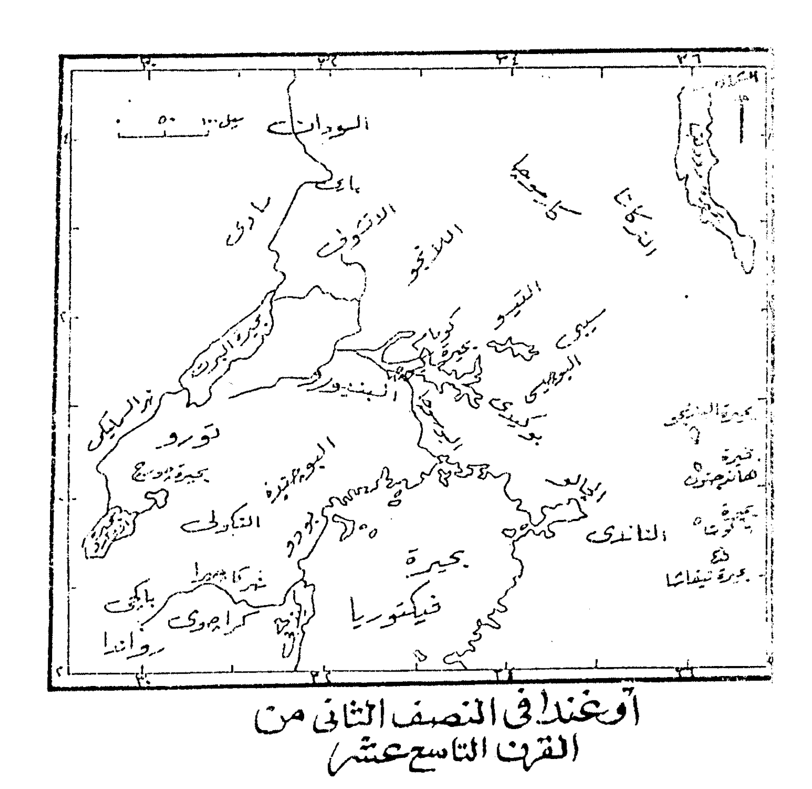
٥- أن الشركة انفقت الكثير من الأموال ، بيد أن جلها قد ضاع نتيجة تكاليف النقل العالية ، ولم تنفق الشركة مبالغ تذكر على إدارة البوجندة لأن حامياتها كانت ضئيلة العدد، وكانت تعتمد على تأييد البروتستانت لها ، وكما أنها لم

تبن إلا مركزاً إدارياً وحربياً واحداً فى البوجندة هو قلعة كمبالا ، غير أن انجازاتها الإدارية فى مناطق الغرب كانت أكبر نسبياً وذلك بسبب اضطراب الأحوال فيها وتنظيماتها السياسية القبلية الأقل استقراراً من تنظيمات البوجندة وفشلت الشركة فى تحقيق مسألة حرية الأديان ، أو تحقيق الحيادية بين الطوائف الدينية .

٦- أن الشركة نقلت البوجندة من حالة الاستقرار والنظام إلى حالة الفوضى والحروب الأهلية بتشجيعها البروتستانت على الكاثوليك والمسلمين ، وعمقت بذور الخلاف بين الطوائف الدينية من خلال تقسيماتها غير العادلة للأرض والوظائف . وبالنسبة للغرب كسبت للإمبراطورية البريطانية أراض شاسعة ذات أهمية تجارية كبيرة فرضت عليها الحماية تدريجياً فى عهد الإدارة البريطانية ووضعت أسس نظام الإدارة غير المباشرة فى بوجندة .

٧- أن فظائع لوجارد فى أوغندة ثابتة من خلال التقارير البريطانية وكتابات المبشرين الكاثوليك، وقرار الحرب قرار مسبق لحسم الموقف فى صالح البروتستانت ساعد على الإسراع به قرار الشركة بالإنسحاب فى أواخر ١٨٩١ .

٨- كان التلاحم تاماً بين إدارة الشركة وقناصل بريطانيا فى زنجبار كيرك وبورتال . وكان الاثنان عضوين فى مجلس إدارتها ، ونجحت الشركة فى أن يكون بورتال القنصل البريطانى وأحد مديريها هو المكلف بتقديم التوصيات حول أوغندة وصاحب قرار الضم وإعلان الحماية البريطانية على أوغندة .



أوغندا فى النصف الثانى من
القرن التاسع عشر

هوامش البحث :

(١) كلف ماكدونالد من الحكومة البريطانية بالتحقيق فى المذابح التى وقعت ضد الكاثوليك فى بوجندة ، فى يناير ١٨٩٢ ، وجاء تقريره مديناً للشركة بوجه عام وللوجارد مديرها فى البوجندة بوجه خاص .

(٢) ماكينون اسكتلندى المولد اشتغل ابتداء من عام ١٨٤٧ بالتجارة فى الهند ، وربح أموالاً طائلة أسس بها شركة الملاحة التجارية للهند البريطانية فى عام ١٨٦٢ . وفى عام ١٨٧٢ أسس خط ملاحة منتظم بين عدن وزنجبار وخط تلغرافى فى زنجبار .

(انظر : محيى الدين محمد مصيلحى ، الاستعمار الأوربى فى كينيا وتطور نظام الحكم فيها - رسالة ماجستير جامعة القاهرة ١٩٧٤ ، معهد الدراسات والبحوث الافريقية ، ص ١٣).

(٣) عقدت هذه الاتفاقية بين المانيا وبريطانيا في أعقاب زيادة التنافس الاستعمارى بين الدولتين فى شرق أفريقيا ، والذي كان من نتيجة تأسيس محمية شرق أفريقيا الألمانية فى فبراير ١٨٨٥ .

(٤) للإطلاع على نص البراءة الملكية لشركة شرق أفريقيا البريطانية ، انظر :

Hertslet, E., The Map of Africa by Treaty, Vol. I, PP. 345 - 350.

(٥) للإطلاع على تفاصيل أعمال الكشف الجغرافى فى هذه المنطقة ، أنظر : 1. Burton, R., the Lake Regions of Central Africa, 2 Vols. London 1860.

2. Stanley, H.M. In Darkest, Africa, (2-Vols London 1890).

وشوقى عطا الله الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها - القاهرة ١٩٨٠ - ص ص ٨٩ - ٩٠ .

(٦) Apter, A.E., The Political Kingdom of Uganda, London, 1960, P. 66.

(٧) Gukiina, P., M., Uganda, a case study in African Political development, London 1972, PP. 42 - 43 .

(٨) يرجع بعض المؤرخين دخول الإسلام الى بوجندة إلى الأربعينات من القرن التاسع عشر، ويذكرون أن هذا قد تم على يد التاجر العربى أحمد بن إبراهيم غير أنه من الراجح أن الإسلام قد انتشر فى الداخل فى فترة سابقة على هذا التاريخ - حول دخول الإسلام إلى بوجندة ، انظر .

(٩) Sir John Gray: Ahmed Bin Ibrahim, The First Arab to Reach Buganda, Uganda Journal, Vol. 2., 1947.

(١٠) Ingham, K, A Modern History of Uganda, London, 1967, PP. 30-31.

(١١) Lugard, F.D., The Rise of Our East African Empire, London, 1893, Vol. 2 PP. 3-4.

وعهدى محمد محمود رسمي : الحركة الوطنية فى أوغندة ١٨١٤ - ١٩٦٢، رسالة ماجستير غير منشورة معهد البحوث والدراسات الافريقية - جامعة القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٦.

(١٢) John Gray, Sir John Kirk & Mutesa, uganda Journal, Vol. 15, 1951, PP. 7-12.

(١٣) Mutesa to Gordan 24 Mach & April 3rd 1876, in D.A. Low, The Mind of Buganda PP. 5-6 & Sir John Gray, Anglo-German Relations in Uganda 1890-1892, JAH, Vol. I, II, 1960. P. 290.

(١٤) Robinson & others, Africa & The viotorians, London, 1961, PP. 42-50.

(١٥) Kittler, G & Lonn, D, The White Fathers, N.Y. 1957, PP. 106-109, & Oliver, R, The Missionary Factor in East Africa, London, 1952, PP. 118-119.

(١٦) Ingham, K., The Haking of Uganda, London, 1958, PP. 29-37.

(١٧) Ashe, A.R., Chronicles of Uganda, PP. 63-65 & Ingram, H, Uganda, a crisis of a Nationhood, London, 1960, PP. 77-78.

(١٨) Beetham, T.A. Christianity & The New Africa, N.Y. 1967. PP. 16-17.

(١٩) Father Lourdel, Les Missions Catholiques, Paris 1896, PP. 313 - 316.

(٢٠) F.O 403/96 Endosure No. 10, P. 5. Mutchinson to Salisbury Jou 5 th, 1886.

(٢١) Semaliln, E., A Hqotory of Buganda, From the Foundation of the Kingdom to 1900, London, 1971, PP. 195 - 196.

(٢٢) جرجس عريان : التنافس بين البعثات التبشيرية وأثره على أستعمار أوغندة ١٨٧٤ - ١٨٩٦ - رسالة ماجيستير - معهد الدراسات والبحوث الأفريقية - جامعة القاهرة - ١٩٧٥ - ص ٧٢ - ٧٤ .

(٢٣) Oilver, it & Mathev, G., A Ilistory of East Africa, Vol. I, P. - 402.

(٢٤) Ibid, PP. 402 - 403 .

(٢٥) Ibid, PP. 404.

(٢٦) Semakuln , K., Op. Cit., P. 213.

(٢٧) Ibid, P. 215.

(٢٨) Ashe, A. R., The Twe Kings of Ugenda, PP. 271 - 272.

(٢٩) لمزيد من التفاصيل حول شركة شرق أفريقيا البريطانية ، أنظر :

Me, Bermott. Imperial British East Afriea Company or IBEA, London, 1893.

(٣٠) على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل - القاهرة ١٩٥٨ ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ومحيى الدين محمد مصيلحى : الأستعمار الأوربى فى كينيا وتطور نظام الحكم فيها (١٩٢٣ - ١٩٥٢) - رسالة ماچيستير معهد الدراسات والبحوث الأفريقية - جامعة القاهرة ١٩٧٤ ص ٢٨٠ .

(٣١) Hartwig, G, W, the victoria Eyanza As a Trade Route in The 19th. Century, J. A. H., Vol. XI, 4, 1970, PP. 543 - 545 .

(٣٢) محيى الدين محمد مصيلحى - رسالة ماچيستير سابقة - ص ٢١ .

(٣٣) F.O. 503/93 No. 64 Granville to Kirk, May, 10, 885.

(٣٤) Perhem, M. & Bull, M. The Dairies of Lord Lugard, London, 1959, Vol. II, PP. 24 - 26.

(٣٥) جرجس عريان - رسالة ماچيستير سابقة ص ٩٠ - ٩١ .

(٣٦) محمد عبد المنعم يونس : أوغندة ، ر. ب . ت : ص ٣١ - ٣٢ .

(٣٧) Hertslet, E., TheMap of Africs by Treaty, Vol. 3, PP. 899 - 906 .

(٣٨) عهدى محمد محمود رسمى : رسالة ماچيستير سابقة ، ص ١٦ .

(٣٩) John Gray, Auglo, German, Op. Cit. PP. 296 - 297 .

(٤٠) Samakula, K., Op. Cit. PP. 222 - 223 .

(٤١) Morning Post, 16, 1890 .

(٤٢) Ashe, A. R., Chronicles of Uganda, P. 145, & Intelligeneer Jan, 1891, PP. 34-35.

(٤٣) كان لوجارد ضابطا بالهند سافر إلى أفريقيا والتحق بشركة البحوث الأفريقية وأهتم بمحاربة تجارة الرقيق ، وكان يهتم بفتح أراضى جديدة وحماية المبشرين ثم التحق بشركة شرق أفريقيا البريطانية بعد تأسيسها ، وأرسل إلى أوغندة على رأس حملة فى عام ١٨٩٠ .

(٤٤) John Gray, Anglo-Germou, Op. Cit., PP. 283 - 284.

(٤٥) Semakula, K., Op. Cit., P. 225&

محمد عبد المنعم يونس ، أوغندة ص ٥٢ .

(٤٦) Pilkington Latter of Dee 7, 1891, in intellingencer, June 1892, P. 418.

(٤٧) Stuhimann Frans, Mit Emin Pasha ins Herz Von Afrika (Berlin 1894) PP. 163-164 .

(٤٨) Me, Dermctt, Op. Cit. P. 159.

(٤٩) Lugard, F., Op. Cit. Vol. 2. P. 26.

(٥٠) Semakula, K., Op. Cit. PP. 227 - 228.

(٥١) Ingham, K., The Making of Liodern Uganda P. 44.

(٥٢) Lugard, F., Op. Cit. Vol. 2. P. 110.

(٥٣) Gale, H. P., Ugonda & the Will Nill Pethere, London, 1959, P. 60.

(٥٤) Inghem K., A. History of Bast Africe, H. Y., 1967, PP. 156 - 157 .

(٥٥) Oliver, R. & Wathew, G., Op. Cit. Vol. I. P. 421 - 422.

(٥٦) Ashe, A. R., Chronicles Of Ugande, P. 118. & Waedonald Report, Entebbe Was Inward 1893, PP. 10 - 12 .

(٥٧) Ingham, K., A History, Op. Cit. P. 157.

(٥٨) Ibid, PP. 150 - 159 .

(٥٩) Oliver, R. & Mathew, G., Op. Cit., Vol. I, PP. 409 - 411.

(٦٠) محيى الدين محمد مصيلحى - رسالة ماجيستير سابقة - ص ٣٤ .

(٦١) Stulhm F., Op. Cit, PP. 147 - 248.

(٦٢) Lugard, P., Op. Cit, Vol. 2, PP. 169 - 170 & London Times, Janurary 23rd 1892.

(٦٣) Meadouald Neport, PP. 21 - 22.

(٦٤) Lugard, ?????? Op. Cit. Cit. Vol. 2 P. 122.

(٦٥) Ingeam The Making, Op. Cit., P. 48.

(٦٦) Ingham, K., The Making, Op. Cit. P. 158.

(٦٧) Bouniol, J., The White Fathers & Their Missions, PP. 199 - 200.

(٦٨) Sam............ Op. Cit. PP. 234 - 236.

(٦٩) Ashe, A. R., wonioles. Op. Cit. PP. 459 - 465 .

(٧٠) Tuoker, B., P., Uganda & East Afriee., P. 307 .

(٧١) Semakula, K., Op. Cit. PP. 230 - 232 .

(٧٢) Inghem. N., A History of East Africa, PP. 156 - 157 .

(٧٣) Olivom, N. & Mathow. G. Op. Cit. Vol I, PP. 430 - 431 .

(٧٤) Hgansi Of Ankole, Uganda Journal, No. 20 PP. 134 - 135 .

(٧٥) Oliver, R, & Mathew, G. Op. Cit., Vol. I, P. 429 .

(٧٦) Maedcnald Nepart P. 39 .

(٧٧) للأطلاع على تفاصيل الحملة من أجل الأحتفاظ بأوغندة ، أنظر :

Low, D.A., British Public Opinion & the Uganda Question Oct. Dec. 1892, Uganda Journal 1811 / 54.

(٧٨) Gardiner, A. G., The Life of Sir William Hercourt, London, 1923, Vol. 2, PP. 192 - 193.

(٧٩) Ibid, PP. 192 - 197.

(٨٠) Inghem, K., A History of Bast Africa, P. 161.

(٨١) Ibid, P. 163 .

(٨٢) محمد عبد المنعم يونس ، أوغندة ص ٦٢ .

(٨٣) Stock, B., History of The C.M.S. Vol. 3, P. 442.

(٨٤) Meadonald Report, P. 6.

(٨٥) Semakula, K., Op. Cit. PP. 233 - 235 .

(٨٦) Entebbe MSS Inward 1893, Tucher to Portal March 30, 1893, & Hirth to Portal April 27, 1893.

(٨٧) Ingham, K., The Making Op. Cit. P. 53.

(٨٨) Oliver, R. & Methew, G. Op. Cit., Vol. I, PP. 423 - 424.

(٨٩) Entebbe MSS, Inward 1893, Letters of Major R. Owen on April ,23 & May 24, 1893 .

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٢٩٩ - ٣٢٦

أحوال العمالة الأفريقية فى المشروعات الأوربية فى شرق أفريقيا الألمانية

د. محيى الدين محمد مصيلحى
أستاذ التاريخ الحديث بكلية التربية جامعة القاهرة

موضوع العمالة الأفريقية فى شرق أفريقيا الألمانية من الموضوعات التى تتعلق بالتاريخ الأقتصادى الأفريقى ، والتى لم تنل حظها الكافى من الدراسة المتعمقة ، ورغم أن نفراً من الباحثين قد تناول تجربة الأستعمار الألمانى فيها ، فأن معالجاتهم لموضوع العمالة الأفريقية جاءت عامة وعاجلة ، ونظراً لأن تناولهم لها جاء من خلال علاقتها بموضوع أكثر عمومية ، وهو تطورها الاقتصادى خلال فترة الإدارة الألمانية ، ومن ثم جاءت معظم معالجات موضوع العمالة الأفريقية مقتضبة تفتقر إلى المنظور التحليلى وتحاول هذه الورقة دراسة هذا الموضوع من خلال منهج تقيمى موضوعى بهدف توضيح سماته وتطورة وانعكاساته على القطاعين الأفريقى والأوربى خلال فترة الإدارة الألمانية .

الجذور التاريخية لمشكلات العمالة فى شرق أفريقيا الألمانية :

منذ تأسيس محمية شرق أفريقيا الألمانية وارتبطت سياسة الإدارة تجاه العمالة الأفريقية بسياستها الاقتصادية التى نهضت على أساس استغلال موارد المحمية ، وتنظيم هيكلها الإنتاجى على أسس رأسمالية من خلال التركيز على زراعة المحاصيل النقدية لزيادة صادرتها [١] . ورغم أن الإدارة الألمانية رفضت إقرار سياسة استيطان أوروبية رسمية فى المحمية فأنها لم تمانع فى استيطان عدد قليل من الألمان فيها ، وجعلت من الاستيطان الأوروبى فيها مسألة تجريبية[٢]. واستحوذت الشركات الألمانية التى تكونت فى بداية عهد الإدارة

الألمانية على مساحات كبيرة تركز معظمها فى الشمال الشرقى من البلاد ، خاصة على سفوح جبلى كلينجارو وميرو وفى وادى نهر روفيجى ، ونقل الأفريقيون من بعض أراضيهم إلى مناطق أقل خصوبة وصلاحية وتم اختيار هذه المناطق بدقة إذ حرصت الإدارة على أن تكون مبعثرة ومتناثرة بين مناطق الاستيطان الأوربى ، حتى يمكن أستخدام سكانها الأفريقيين كاحتياطى عمالة للمناطق الأستيطانية (٣) . وركز المستوطنون على المحاصيل النقدية كزراعة البن والقطن والسيسال والمطاط ، ومع أن المناطق التى تمت زراعتها من جانب المستوطنين كانت ضئيلة المساحة فأنها كانت بحاجة إلى كثير من الأيدى العاملة الرخيصة الأفريقية ، وزاد من طلب العمالة الأفريقية أن الإدارة الألمانية عملت على مد الخطوط الحديدية وبناء الجسور ومد الطرق البرية وتوسيع الموانى ، وتأسيس المدن الجديدة فى الداخل وإقامة المراكز الإدارية ووضع الحاميات العسكرية ، ونقل البضائع التى تحملها القوافل من الداخل إلى الساحل عبر الطريق الجنوبى، وعلاوة على هذا أقدمت الإدارة الألمانية على تجربة تأسيس المزارع الجماعية الأفريقية لأنتاج المحاصيل النقدية (٤) . ووضعت هذه المزارع فى يد الزعماء الأفريقيين ، وخولتهم سلطة جمع العمالة إجبارياً للعمل فيها ، لأن السياسة الألمانية كان تهدف إلى جمع أكبر قدر من العوائد النقدية من المحمية سواء جاءت هذه من مزارع ألمانية أو أفريقية ، وكان عماد السياسة الألمانية هو العمالة الأفريقية الرخيصة لخفض تكلفة الانتاج وتحقيق الربح .

ولم يكن العمل لقاء الأجر جديداً على الأفريقيين فى شرق أفريقيا الألمانية لأن كثيرين منهم كانوا قد عملوا فى زراعة الأرض فى المزارع العربية فى الساحل، وزاد خروجهم للعمل بعد إلغاء تجارة الرقيق نهائياً فى عام ١٨٧٣ فى شرق أفريقيا ، كما عمل الأفريقيون كحاملين فى قوافل التجارة العربية والسواحلية التى كانت تتجه إلى الداخل من أجل الحصول على العاج والملح والرقيق ، وذاع صيت الأنياموزى Nyamwezi فى هذه الحرفة ، وكان متوسط ما يخرج منهم فى هذه القوافل سنوياً يتراوح بين ٣٠ - ٤٠ ألف حمال . وخرج الأفريقيون فى صحبة الحملات الكشفية الجغرافية والتبشيرية الأوروبية ، واحترف كثير منهم حرفة خدم المنازل لدى العرب فى منطقة الساحل (٥) .

وأعتادوا مبادلة العمل بالغذاء والكساء لأن كثيرين منهم كانوا يقومون بالزراعة فى مزارع الأرساليات التبشيرية فى الداخل فى الستينيات من القرن التاسع عشر ، وفى أراضى الزعماء الذين كانوا يمرون عبر أراضيهم أثناء مرور قوافلهم ، وأتجة كثير من أفريقى الجنوب كالنجونى والنجوندى إلى مناجم الذهب والماس فى جنوب أفريقيا (٦) . وكان نظام الأجر الشهرى أو الأجر الشامل مقابل رحلة القافلة بأكملها معروفاً لديهم ، وكان متوسط الأجر الشهرى كما تقدره بعض المصادر يتراوح بين ١٢ - ٢٤ روبية فى أوائل السبعينيات من القرن الماضى (٧) . ويبدو أن طول تمرس الأفريقيين على العمل فى القوافل والمزارع الساحلية قد أدى إلى نمو وعيهم العمالى ، ومن ثم عرفت لديهم ظاهرة الاضرابات الجماعية طلباً لزيادة الأجر أو احتجاجاً على ظروفة (٨). كما احتل العمل أهمية أقتصادية كبيرة لأنه لم يكن يسمح للشباب بالزواج إلا بعد حمل كمية من العاج من الداخل إلى الساحل (٩) .

واعتقد المستوطنون الألمان أن الاستيلاء على الأراضى الافريقية الخصبة ومنع تجارة الرقيق وضيق مجالات الكسب أمام الأفريقيين المقيمين بالقرب من مناطق الاستيطان الأوربى سيحولهم إلى عمالة رخيصة لمزارعهم ، غير أن عدداً قليلاً من الافريقين هم الذين اتجهوا إليها رغم تعودهم على الخروج للعمل من قبل . وعزف الأفريقيون عن العمل لدى الألمان لأن طبيعة العمل فى زراعة المحاصيل الجديدة لم يألفوه من قبل (١٠) . ولقلة الأجر الذى كان أحياناً أقل من مستوى الأجر فى القوافل فى السبعينيات ، وهذا بالاضافة إلى غطرسة وتعالى الألمان على الأفريقيين ومعاملتهم لهم باعتبارهم فى مرتبة دنيا من سلم التطور البشرى أو "حيوانات ناطقة" ، واتباعهم أساليب العقاب البدنى القاسية كالجلد والحبس. ولا شك أن المواجهات الدموية التى أندلعت بين الألمان والأفريقيين فى أوائل عهد الإدارة الألمانية وخاصة فى منطقة الساحل أثناء ثورة بوشيرى Bushiri قد زرعت الكراهية فى قلوب الأفريقيين إزاء الألمان ، كما زاد من عزوف الأفريقيين عن العمل لدى الألمان إن الإدارة الألمانية أحاطت المناطق الاستيطانية بتحصينات عسكرية إستعداداً لمواجهة أى رد فعل أفريقى .

ومع أن الأراضى التى نقل إليها الأفريقيون كانت أقل خصوبة من الأراضى الأوروبية ، فإن حظها من المطر كان كافياً ، وكان فى إمكان هؤلاء الأفريقيين زراعتها وتحقيق إكتفائهم الذاتى دون اللجوء للعمل لدى الألمان ، وخاصة أن المزارع الأوروبية كانت تزرع المحاصيل النقدية ، وكانت فى حاجة إلى محاصيل الغذاء لعمالها ، ووجد الأفريقيون المقيمون فى مناطق الاستيطان فى زراعة هذه المحاصيل وسيلة جيدة لتحقيق الربح، كما ساعد مد خطى حديد الشمال والوسط مما ساعد الأفريقيين على نقل محاصيلهم الغذائية إلى الساحل وتسويقها (١١) . وعلى العكس مما توقعه المستوطنون الألمان فإن بعض الأفريقيين القريبين من المناطق الأستيطان قد نجحوا فى توسيع دائرة نشاطهم الزراعى ، وتحولوا إلى طبقة برجوازية ريفية أفريقية وظفت لديها عدداً من الأفريقيين من المناطق المجاورة ، ومثلوا بالتالى منافسة حقيقية لأصحاب العمال الألمان .

وحاول المستوطنون الألمان أن يجعلوا العمالة الأندونيسية والصينية فى أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر لمجابهة النقص فى العمالة ، وغير أن هذه التجربة منيت بالفشل (١٢) . لأسباب منها ارتفاع أجر هذه العمالة وقلة إنتاجيتها ، وارتفاع تكاليف نقلها من البلد الأم ، وعدم إمكانية الضغط عليها لتدخل حكوماتها لصالحها هذا فضلاً عن أن حجم المشروعات الاستيطانية الألمانية خلال السنوات الأولى من فترة الإدارة الألمانية كان محدوداً ، ولم يكن يتحمل عمالة عالية التكلفة ، كما فشلت تجربة أخرى لجلب العمالة من أقطار أفريقية مجاورة كموزمبيق لأسباب مماثلة ، هذا فضلاً عن عدم الوثوق فى وفود إمدادات عمالة منتظمة من الخارج ، واتضح للمستوطنين ضرورة توفير العمالة الرخيصة من داخل شرق أفريقيا الألمانية نفسها ، واستصدار تشريعات الهدف منها دفع الأفريقيين للعمل فى المشروعات الاستطانية الأروبية سواء المقيمين حول مناطق الأستيطان أو فى المناطق الهامشية البعيدة عنها ، وحرص المستوطنون على عدم خلق قوة عمالة دائمة تجنباً للأجر المرتفع وتكاليف إعاشتها ورعايتها الصحية ، ومن ثم اتجهت النية إلى الاستفادة من أساليب العمالة التى كانت سائدة قبل العهد الاستعمارى ، والتى تقوم على العمالة العرضية قصيرة المدى منخفضة الأجر ، غير أن هذه السياسة كانت تتطلب

امدادات عمالة منتظمة ، وكان انتظام هذه الأمدادات عمالية من المناطق الهامشية أو المحلية رهناً بعدم كفاية الأراضى أو المراعى القبلية ، وبعدم كفاية الأنتاج الزراعى الأفريقى ، وبتحطم القوة الأقتصادية للقبائل ، وعلى هذا ركز المستوطنون على تحقيق هدفين أساسيين لحل مشكلة النقص فى العمالة .

الهدف الأول :

دعم امدادات العمالة المحلية بإمدادات من المناطق الهامشية البعيدة ، وركز المستوطنون على جلب العمالة من هضبة أوسمبارا الغربية لقربها النسبى من مناطق الاستيطان ولفقر قبائلها وقلة مراعيها إلى جانب مناطق المحمية الأخرى كالمنطقة الجنوبية .

الهدف الثانى :

كسر القوة الاقتصادية للقبائل الأفريقية من خلال زيادة الاستيلاء على الأراضى الخصبة وزيادة الاستيطان ، ومن خلال زيادة مطالبهم النقدية والضغط على الإدارة الألمانية لأصدار تشريعات تجبر الأفريقيين على العمل فى مشروعاتهم .

الإجراءات الألمانية لتوفير العمالة الأفريقية :

وتمثلت هذه الاجراءات فى فرض ضريبة الكوخ منذ عام ١٨٩١ ، غير أنها سرعان ما الغيت بسبب مقاومة القبائل ، ثم مالبثت أن أعيد فرضها فى نوفمبر ١٨٩٧ . وتبعها فرض ضريبة الرأس على كل فرد يبلغ من العمر ستة عشر عاماً(١٣). على نحو ما كان متبعاً فى جنوب أفريقيا والمستعمرات البريطانية الأخرى مثل كينيا وروديسيا الجنوبية . وكانت قيمة ضريبة الكوخ ثلاثة روبيات ، أما ضريبة الرأس فكانت تتراوح بين روبية واحدة وثلاث روبيات ، وسمحت الإدارة الألمانية للسكان الوطنيين بدفع الضريبة المفروضة عيناً فى شكل قطن أو ماشية ، وكان الأفريقيون الذين يعجزون عن دفعها مكلفين بالعمل فى المشروعات الحكومية أو الخاصة للوفاء بقيمتها ، ورغم أن هذه الضرائب لم تفرض فى كافة أنحاء شرق أفريقيا الألمانية لأن المناطق كثيرة ظلت لا تمتد إليها يد الإدارة

الألمانية طيلة سنوات كثيرة من حكمها للبلاد ، فأنها كانت حافزاً للأفريقيين للخروج إلى العمل، خاصة وأن الإدارة اتبعت فى جمعها وسائل القسوة الشديدة(١٤) . ولم يحقق نظام الضريبة نجاحاً كبيراً فى دفع أعداد كافية إلى أسواق العمل الأروبية، لأن قيمة الضرائب لم تكن كبيرة ، وكان يمكن تدبيرها من مصادر بديلة كبيع العاج أو المحاصيل الزراعية أو الماشية ، ومن ثم استمرت ظاهرة النقص فى العمالة (١٥) ، كما صحب جمع الضرائب أضطرابات كبيرة فى منطقة النجونى فى الجنوب عامى ١٨٩٧ - ١٨٩٩ ، وقتل نحو ألف أفريقى فى عام ١٩٠٠ بسبب مقاومة دفعها (١٥) ، وكثفت الإدارة الألمانية إجراءاتها فكلفت الزعماء والشيوخ Jumbos ورؤساء العسكر Askaris بجمعها وخصصت لهم نسبة تتراوح بين ٥ - ١٠٪ من عوائد الضرائب التى يتم جمعها لتشجيعهم على التحصيل وإجبار الأفريقيين على الخروج للعمل (١٦) . وأدعى الألمان أن الهدف من هذه الضرائب تعليمى لأخراج الأفريقيين عن دائرة الكسل ودفعهم إلى إطاعة أوامر الحكومة(١٧). وبالإضافة إلى هذا فرضت الإدارة ضرائب أخرى لزيادة أعباء الأفريقيين كضرائب الدفن والميراث وعبور الطرق ، كما صادرت الأراضى الأفريقية ولم تعترف بملكيتهم لها ، وإنما بحق شغلها فقط ، وذلك بالنسبة للأفريقيين الذين لم يتمكنوا من إثبات ملكيتهم لها (١٨) . ولزيادة المطالب النقدية للأفريقيين فرضت السلطات الألمانية تعريفة جمركية عالية على البضائع المستوردة التى يحتاجها الأفريقيون ، وعلى صادراتهم بينما أعفت المستوطنين من ذلك ، وكان هدف هذه الأجراءات هو الضغط على الأفريقيين لدفعهم إلى أسواق العمل الأروبية (١٩) .

وهروباً من الضرائب وخشية أن يجبروا على العمل لدى المستوطنين الألمان للوفاء بها حاول الأفريقيون أن يتجنبوا مراكز التجمع السكانى الكثيف ، ولجأوا إلى السكن فى بقع متناثرة حتى لا تمتد يد الإدارة إليهم ، كما حاولت عدة عائلات أفريقية للعيش معاً حتى لا تدفع كل منها ضريبة كوخ منفصلة .

ورفضت الإدارة الألمانية انتهاج سياسة إجبار الأفريقيين المقيمين فى المناطق الهامشية على العمل ، وذلك خشية أن تتسبب مثل هذه السياسة فى إثارة

رد فعل عنيف من جانبهم مع عدم وجود قوات عسكرية كافية لها فى هذه المناطق ، واكتفت باتباع أسلوب الحث غير المباشر من خلال الضرائب لدفعهم على العمل . أما بالنسبة للمناطق الاستيطانية ومدن الساحل فقد أتبعت سياسة الأجبار وذلك لأن قبضة الإدارة فيها كانت قوية ، كما كانت الإدارة نفسها فى حاجة إلى عمالة كبيرة للمشروعات العامة ومن ثم فقد بدأت تجربة إنشاء أسواق العمل فى دار السلام وتانجا وغيرها ، حيث يجمع الزعماء الأفريقيون العمال فى مكان ملائم يستطيع أصحاب العمل الحضور إليه وتحرير عقود العمل معهم ، وكان أصحاب العمل الأوربيون يبلغون مأمورى المقاطعات حاجتهم إلى العمال ، ويرسل هؤلاء المأمورون إلى الزعماء بتعليماتهم لجمع الأعداد المطلوبة ، ويتكلف أصحاب العمل روبية واحدة سنوياً من كل عامل يتم جمعه ، وقد لقى هذا النظام معارضة من الرأى العام الألمانى (٢٠) ، لما صحبه من أساليب القسوة فى الجمع ، ولم يكن وكلاء جمع العمالة من الأفريقيين فقط ، وإنما كان عدد منهم من السواحليين والعرب ، وحاول أصحاب العمل تأسيس منظمة لجمع العمالة الأفريقية الرخيصة تفى احتياجتهم سنوياً ، على غرار المنظمات المماثلة فى المستعمرات الاستيطانية الأخرى ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح بسبب قلة رأس المال والخلافات والتنافس بين أصحاب الأعمال وأدى هذا الفشل إلى زيادة التنافس للحصول على العمالة الأفريقية وظهور سوق سوداء فيها ، وإلى زيادة وكلاء جمع العمالة الذين يرسلونهم إلى الداخل حتى وصل عددهم إلى ألفى وكيل فى تابورا وحدها فى عام ١٩١٣ (٢١) .

ونزولاً على رغبة الرأى العام الألمانى فقد تم إلغاء نظام جمع العمالة على يد الحاكم الألمانى جوتزن Gotzen فى عام ١٩٠٤ ، وكان من بين أسباب إلغاء هذا النظام المعارضة الأفريقية العنيفة التى اندلعت ضده ، وكانت المواجهة الألمانية المسلحة لهذه المعارضة سبباً فى أندلاع ثورة الماجى ماجى فى العام التالى (٢٢) . واستحدث نظام الكيباندى Kipande أو بطاقة العمل بدلاً منه فى عام ١٩٠٧ . وهو نظام يشبه نظام العمالة الإجبارية لأنه أصبح لكل أفريقى بالغ بطاقة عمل صالحة للإستعمال مدة أربعة أشهر ، ويشمل الكيبادى ثلاثين يوم عمل ويجرى

تسجيل كل يوم عمل عليه بمعرفة صاحب العمل ، ويعفى كل من يثبت استكماله لمدة الكيباندى من العمل فى المشروعات الحكومية العامة ، ويلزم كل من لا يستكمل بطاقة عمله بقضاء المدة الباقية فى المشروعات العامة ، ونظراً لأن أجر العامل فى الأعمال الحكومية كان يقل عن الأجر فى المزارع الأوربية ، بالإضافة إلى شدة قسوة المعاملة فى هذه المشروعات عن المعاملة فى المزارع ، فقد أضطر الأفريقيون إلى إستكمال مدة بطاقة عملهم (٢٣) . وأتاح النظام الكيباندى فرصة كبيرة للمستوطنين الأوربيين للتلاعب والخداع ، لأن كثيرين منهم كانوا يرفضون توقيع بطاقة العمل بحجة إهمال العمال الأفريقيين فى عملهم أو عدم الأداء الجيد وذلك من أجل إطالة مدة بقائهم فى العمل دون أن يترتب على ذلك منحهم أجراً أكبر عن المدة التى تزيد عن الثلاثين يوماً ، وساعدت طبيعة التشريع على ذلك بنصها على جواز صلاحية الكيباندى مدة أربعة أشهر ، وقد سمح الحاكم الألمانى ريتشنبرج Rechenberg بالعمل بنظام الكيباندى ، لأنه أتاح أيضاً إمكانية الاستفادة بالعاملين الهاربين من استكمال مدتهم بإجبارهم على العمل فى المشروعات العامة ، وعلى هذا كان الكيباندى سلاحاً ناجحاً فى يد كل من المستوطنين الأوربيين ومسؤولى الإدارة الألمانية ، وكانت الميزة الوحيدة لنظام الكيباندى بالنسبة للأفريقيين أنهم كانوا يستطيعون اختيار أصحاب أعمالهم وتحديد المناطق التى يعملون بها ، ولا شك أن نظام الكيباندى كان ينطوى على الكثير من الظلم لأن أجر الكيباندى كان يتراوح بين ٩ - ٢٠ روبية ، وكان هذا يعنى أن الأفريقى يمكن أن يعمل مدة أربعة أشهر ليحصل على هذا المبلغ الضئيل. وبجانب نظام الكيباندى أتبع أصحاب العمل نظام تكليف العمال بمهمات محددة يطلب منهم أدائها بصفة يومية أو شهرية ، وكان هذا النظام يتيح للعمال العمل دون التعرض للاشراف الصارم من جانب مشرفى العمل ، غير أن حجم المهمات كان كبيراً وفوق طاقتهم ومن ثَمّ فشل هذا النظام ، كما فشل أصحاب العمل فى تشغيل العمال ساعات محددة يومياً بسبب الحاجة إلى عدد كبير من المشرفين العماليين (٢٤) .

وقد اعترفت الإدارة الألمانية باتباعها سياسة العمالة الاجبارية فى المشروعات العامة فى دار السلام وليشيتو Leshuto وروفيچى Ruifji ومورجورو Morogoro ولندى Lindi (٢٥) . وغيرها ، وعللت هذا بأن هذه العمالة ضرورية لإنجاز أعمال حيوية لإقتصاد المحمية وتطويرها ، وأنها اضطرت إلى ذلك أمام تراخى الأفريقيين وعزوفهم عن العمل . واستخدمت القوات العسكرية لحمل الأفريقيين جبراً على العمل فى هذه المشروعات ، كما حدث مع قبائل الشاجا .

ولجمع العمالة الأفريقية نبهت الإدارة على أصحاب المزارع والمشروعات الأوربية بموجب المرسوم الذى صدر فى أواخر عام ١٨٩٦ ، والذى عدل بمرسوم ثان صدر فى نوفبر ١٨٩٧ ، بضرورة الارتباط بين الطرفين بعقود مكتوبة إذا كانت مدة التعاقد تزيد على ثلاثين يوماً ، على أن يحدد نوع العمل ، ومدة التعاقد وقيمة الأجر ، وطريقة الدفع وأسلوب سفر العمال ، وكان هذا العقد رغم ما يظهر فيه من حماية لحقوق العامل لمدة تتراوح بين ستة وتسعة أشهر (٢٦) ولا يجوز التحلل منه ، أو عدم استكماله ، ونص العقد على أن الهروب من العمل جريمة يعاقب عليها بالسجن والغرامة المالية الكبيرة ، وحفل المرسوم بالعقوبات الأخرى التى تعاقب عليها العمال ، فى الوقت الذى خلا العقد من تحديد لساعات العمل أو من بند ينص على تعويض العمال عن إصابة عمله أو فى حالات الوفاة ، كما لم يحدد نوعية السكن أو الوجبات الغذائية ، ترك هذه المسائل للإتفاق بين صاحب العمل والعامل ،

وعلى الرغم من أن سياسة الإدارة الألمانية كانت تنهض على أساس تشجيع أستغلال موارد المحمية سواء اضطلع بهذا الاستغلال أوروبيون أو أفريقيون ، فأنها حرصت على أن تحد من منافسة الأفريقيين من أصحاب المزارع للمستوطنين الأوربيين إيماناً منها بأن دفع صغار الأفريقيين للعمل فى المزارع الأوربية قد يأتى بنتائج أفضل عما لو سمح لهم الاستمرار فى تنمية مزارعهم لأن الأوربيين أقدر على الاستغلال والإنتاج الواسع من خلال طرق زراعية متقدمة ، ومن ثم فإنها حرصت على أن تكون أراضى الأفريقيين فى مناطق بعيدة عن السكك الحديدية وأقل صلاحية من الناحية الأيكولوچية لظروف

الزراعـة (٢٧) . وأدى هذا خفض حجم ونوعية الإنتاج المحصولى الأفريقى ، وصعوبة وارتفاع تكاليف نقله إلى الساحل للتصدير ، وحققت هذه السياسة نجاحاً محدوداً فى الشمال الشرقى للمحمية حيث تتركز المزارع الأوربية ، واضطرت قلة من أصحاب المزارع الأفريقية الصغيرة إلى العمل لدى الأوربيين ، وهجر مزارعهم .

وتحت ضغط المستوطنين الأوربيين أضطرت الإدارة الألمانية فى شرق أفريقياً إلى منع الأفريقيين من زراعة بعض المحاصيل النقدية من أجل الحد من قدرتهم الأقتصادية لدفعهم إلى أسواق العمل . كما حدث فى وادى نهر بنجانى Pangani غير أن هذه السياسة أبطل العمل بها بسبب ما أثارته من احتجاج الأفريقيين ، وحاول المستوطنون الألمان من جانبهم تعويق التجارب الزراعية التى قام بها الشاجا لزارعة البن والأنباموزى لزارعة السيسال والمطاط .

وأقدمت الإدارة الألمانية على نقل بعض الأفريقيين من مناطقهم القبلية إلى المناطق الاستيطانية ومدن الساحل ليكونوا قريبين من أسواق العمل فيما بين عامى ١٩٠٠ - ١٩٠٢ ، كما حدث فى فترة إدارة جوتزن Gotzen الذى كان حاكماً عاماً على المحمية فى الفترة ما بين عامى ١٩٠١ - ١٩٠٦ حين نقل بعض الأنباموزى والسوكوما إلى الساحل وفرض عليهم العمل الإجبارى فى المزارع الأوربية مدة لا تقل عن تسعين يوماً فى السنة ، وفشلت هذه التجربة لأن معظم الأفريقيين الذين نقلوا هربوا إلى كينيا حيث كانت ظروف العمل أفضل وأعلى أجراً (٢٨) . وقامت الإدارة الألمانية بإرسال الثوار الأفريقيين الذين تم أسرهم فى المواجهات الدموية بينها وبين القبائل الأفريقية خلال ثورتى بوشيرى بين صالح التى اندلعت فى أواخر الثمانينات وثورة الماجى ماجى التى أندلعت فى عام ١٩٠٥ إلى المزارع الأوربية والمشروعات العامة وأجبرتهم على العمل بها بعد مصادرة أراضيهم ومنعهم من دخولها ، غير أن عدد هؤلاء كان أقل من أن يسد حجم الطلب على العمالة .

ولإضعاف القوة الا قتصادية للقبائل الافريقية منحت الإدارة الألمانية مزيداً من الأراضى للمستوطنين وبلغ حجم ما أستولى عليه المستوطنون من الأراضى

بطريق البيع أو الإيجار حتى عام ١٩١٢ - ٤٥٢,١٢٤ هكتار أو نحو ٦٠٪ من الأراضى الصالحة للزراعة فى المحمية كلها وبالاستيلاء على هذه الأراضى لصالح الأوربيين طرد الأفريقيون منها وتحولوا إلى قوة عمالة للمشروعات الأوربية (٢٩) ، ومد المستوطنون الأوربيون نطاق استيطانهم إلى غرب أوسمبارا ، وعملوا على إنشاء المزارع المختلطة التى تجمع بين إنتاج المحاصيل النقدية والمحاصيل الغذائية للقضاء على المنافسة الأفريقية فى مجال إنتاج محاصيل الغذاء . (٣٠) وزادت عمليات الاستيلاء على الأراضى فى هذه المنطقة مما أضطر الإدارة الألمانية إلى إغلاقها أمام الاستيطان الأبيض عام ١٩١٢ .

وطبقت الإدارة الألمانية سياسة القسوة البالغة والأجبار فى المزارع الجماعية الحكومية وخاصة فى مزارع القطن فى مناطق أو ماتومبى Matumbi ونهر روفيجى ودار السلام وتعرض الأفريقيون لمتاعب جسمانية ومنعوا من زراعة المحاصيل الغذائية كالأرز والذرة والشعير ، وحاول الأفريقيون الهروب من العمل فى المزارع ودفع ضرائب الكوخ بسبب سؤ ظروف العمل (٣١) خاصة وأن الإدارة الألمانية حاولت إجبار النساء إلى الإشتراك فى العمل فى هذه المزارع الجماعية مما لا يتفق مع التقاليد الأفريقية (٣٢) وألحق بهذه المزارع جبراً الأفريقيون الذين لا يعملون فى المزارع الخاصة ، وفرض عليهم العمل بها مدة ٢٤ يوماً فى السنة .

وبجانب هذه الاجراءات التى أتخذتها الإدارة الألمانية لعبت الظروف الطبيعية دورها فى دفع الأفريقيين إلى أسواق العمل الأوربية ، وتمثلت هذه الظروف فى سلسلة الكوارث التى أصابت البلاد فى التسعينات من القرن الماضى ، والتى بدأت بأنتشار طاعون الماشية فى عام ١٨٩١ الذى قتل نحو ٩٠ - ٩٥ ٪ من الماشية ، وادى إلى معاناة قبائل كثيرة رعوية من المجاعة كالمساى . وأضطر كثير منهم إلى بيع أطفالهم للحصول على الطعام ، وإلى أكل عظام الحيوانات النافقة ولحومها (٣٣) . وفى الفترة مابين ١٨٩٤ و ١٨٩٨ غزت أسراب الجراد البلاد ، وتعرضت بعض المناطق كمنطقة قبائل البوندى Bondei إلى دمار محصولها، وأجبر البوندى على العمل فى تانجا وهجر مزارعهم القديمة، وحل الجفاف بالبلاد خلال هذه الفترة ومات كثير من الأفريقيين بحثاً عن الطعام(٣٤).

وزاد من دفع الأفريقيين على العمل لدى الأوربيين عدم مقدرة القبائل الرعوية على الحصول على حاجتهم من الغذاء من خلال أساليب الأغارات التقليدية القديمة بعد فرض النظام وأستتباب الأمن نسبياً نتيجة الإدارة الألمانية ، وأضطرت هذه القبائل إلى الخروج للعمل للحصول على أحتياجاتها المعيشية .

ولنا ملاحظات حول الاجراءات الألمانية لتوفير العمالة الأفريقية :

اولا : حققت هذه الأجراءات نجاحاً ملحوظاً فى ميدان جمع العمالة إذ وصل عمال المزارع الأوربية إلى ٢٠ ألف فى عام ١٩٠٦وارتفع إلى ٨٩٢ ، ٩١ عامل فى عام ١٩١٢ ، وكان من بينهم ٢١١ ,٦١ عامل تركزوا فى خمسة مراكز فى شمال شرقى المحمية ، كما ارتفع العدد الكلى للعمالة فى جميع القطاعات الأوربية والمشروعات العامة من ٧٠ ألف عامل فى عام ١٩٠٩ إلى ١٧٢ ألف عامل فى عام ١٩١٢ - ١٩١٣ [٣٥] .

ثانيا : ارتبطت الزيادة فى العمالة الأفريقية بزيادة النشاط فى جمع الضرائب وخاصة من عام ١٩٠٨ ، إذ زادت حصيلة ضرائب الكوخ على سبيل المثال من ٩٦,٢٤٨ جنيهاً فى عام ١٩٠٦ إلى ٢٥٤,٨٠٩ جنيهاً فى عام ١٩١٢ ، وكانت الزيادة فى تحصيل الضرائب مرجعها إمتداد نشاط جامعى الضرائب إلى المناطق الهامشية .

ثالثا : كانت معظم العمالة الوافدة من مناطق هامشية حتى عام ١٩٠٨ من غرب أوسمبارا غير أنه بعد التاريخ لوحظ وفود العمالة من الجنوب ، ومن مناطق أخرى رعوية ، وبدأ جامعو الثمار يتركون الغابات ويتجهون إلى أسواق العمل بعد زيادة المطالب الاقتصادية للقبائل ، وكانت نسبة العمالة المحلية أى العمالة التى تخرج للعمل من بين الأفريقيين المقيمين بالقرب من مناطق الاستيطان ضئيلة للغاية بالنسبة للعمالة الوافدة من مناطق الهامشية وذلك لأن الاجراءات الألمانية لم تفلح إلى حد كبير فى القضاء على الأستقلال الاقتصادى لهذه القبائل ، وتغير الوضع فى فترة الحرب العالمية الأولى ، لأن التجنيد فى الجيش كان البديل للعمل فى المشروعات

الأوربية، ومن ثم زاد وفود العمالة المحلية إلى المزارع الأوربية للعمل هروباً من الجندية [٣٦] .

رابعاً : رغم الزيادة فى العمالة الأفريقية فإن المشروعات الأوربية ظلت تعانى من نفس العمالة بسبب زيادة حجم المشروعات مع زيادة الأستيطان ، وموسمية العمالة التى كانت عادة مايزيد حجمها فى موسم الجفاف وتقل فى موسم المطر وموسم الحصاد [٣٧] ، وزيادة القدرة الاقتصادية لدى بعض القبائل كالأنيامويزى والسكوما وعدم حاجتهم للعمل لانخفاض عائده ، هذا إلى جانب أن العمالة الأفريقية أفتقرت إلى المهارة ، ومن ثم كان لابد من الاعتماد على العامل الكمى لتعويض النقص فى العمل النوعى [٣٨] ، وساعد على انخفاض مهارة العمالة أن معظمها كان يتألف من الشباب من حديث السن الذين لم يسبق لهم الزواج الذين دفعتهم ظروفهم الاقتصادية وطموحاتهم الاجتماعية إلى أسواق العمل الأوربية .

خامساً : إن الإجراءات الألمانية رغم تعددها فإنها خلت من صفة التشريع ، إذ لم تصدر خلال الفترة الألمانية مراسيم تنظيم عقود العمل أو شروطه أو مستويات الأجر ، كما لم تقنن الإدارة سياسة العمالة الإجبارية إلا فى المشروعات الحكومية العامة ، وتركت مسألة جمع العمالة للمشروعات الخاصة لجهود المستوطنين وتعاونهم مع موظفى الإدارة أو الزعامات الأفريقية الموالية ، ولم تصدر قوانين كقوانين العبور أو الزيارة أو تصاريح الإقامة والتى عرفتها المستعمرات الأستيطانية البريطانية كجنوب أفريقيا أو روديسيا الجنوبية أو كينيا ، كما لم تتخذ المناطق التى نقل إليها الأفريقيون نتيجة استيلاء الأوربيين على أراضيهم صفة المعازل الرسمية ، وكان السبب فى عدم التقنين لسياسة العمالة فى الفترة الألمانية قصر عهدها ، وصراعاتها المتعددة الدموية والتى بلغت أحد عشر مواجهة مع الأفريقيين ، وعدم إقرارها لسياسة استيطان أوربية رسمية طيلة عهدها . وظلت سياسة توفير العمالة تعتمد على أسلوب الحث غير المباشر وعلى الضغط الإقتصادى والسياسى على القبائل .

سادساً : أدت الإجراءات الألمانية إلى خلق عمالة أفريقية غلب عليها الطابع الريفى ، وذلك لارتباط معظم الطلب على العمالة بالمزارع الأوربية ، وقد ظل هذا الطابع الريفى يسيطر على العمالة فى شرق أفريقيا الألمانية "تنجانيقا" حتى الخمسينيات من القرن الحالى ، بسبب السمة الزراعية لاقتصاديات المستعمرة ، ولم تؤد إجراءات العمالة إلى خلق بروليتاريا إفريقية دائمة لأن العمالة ارتبطت بعقود قصيرة الأمد أو بنظام الكيباندى هروباً من ارتفاع الأجر وتكاليف الإعاشة اللازمة لقوة عمالة دائمة ، وأدى الطابع العرضى للعمالة إلى عدم أنتظام الإمدادات وإلى انخفاض المهارات بسبب تغيير العمالة المستمر ، وعاقت عرضية العمالة ظهور حركة عمالية واعية طيلة الفترة الألمانية ، كما أدت الإجراءات الألمانية مع أنخفاض الأجر إلى تحول بعض القبائل التى كانت فى حاجة إلى العمل إلى الاتجاه إلى المستعمرات الاستيطانية البريطانية المجاورة للحصول على أجر أعلى وظروف أفضل ، غير أن حجم الهجرة الخارجية للعمالة كان محدوداً للغاية .

أحوال العمالة الأفريقية فى المشروعات الأوربية :

عانت العمالة الإفريقية فى المشروعات الأوربية من سوء الأحوال ذلك أن النقص في العمالة الأفريقية والطلب المتزايد عليها أدى إلى حدوث التنافس بين أصحاب الأعمال عليها ، وساعد على هذا النقص عدم وجود هيئة رسمية توفر العمالة المطلوبة للمشروعات الأوربية ، وأنعكس هذا النقص فى ظهور سوق سوداء للعمالة وظهور وسطاء أفريقيين وعرب وسواحليين لجمع العمالة ، وأغرى هؤلاء الوسطاء بالمال من أجل زيادة أمداداتهم بالعمالة واستخدام الوسطاء أساليب القسوة والتخويف مع الأفريقيين لدفعهم إلى أسواق العمالة ، وعرض أصحاب المشروعات أجوراً عالية نسبياً للحصول على العمالة وشروطاً أفضل لعقود العمل ، وذلك من أجل أقناع الأفريقيين بالدخول فى الخدمة ، ووقع الكثير من الأفريقيين ضحية لخداع الوسطاء وأصحاب المشروعات ، إذا اكتشف الكثيرون منهم أن طبيعة العمل وشروط عقود العمل وأجورها مخالفة لما اتفقوا

عليه ولم يستطيع الأفريقيون التحلل من عقود عملهم التى كانت تعقد بينهم عادة وبين أصحاب المشروعات دون وجود موظف حكومى فى الفترة المبكرة من عهد الإدارة الألمانية ، ولم يكن الأفريقيون يستطيعون قراءة بنود عقودهم لجلهلم باللغة الألمانية . وبالاضافة إلى حالات الخداع والتحايل من جانب أصحاب العمل عانى الأفريقيون من طرقهم الملتوية العديدة لإطالة مدة عقود عملهم ، كرفض تسجيل بعض أيام العمل على بطاقات عملهم ، أو حجز جزء من أجرهم حتى يتم أنجاز العمل بشكل مرض ، أو رفض منحهم أجورهم حتى يتم توقيعهم على عقود عمل جديدة ، أو رفض إخلاء سبيلهم حتى يتم تدبير بدائل لهم . ولم يكن الأفريقيون يستطيعون طلب إنهاء خدمتهم ، ومن ثم لجأوا عادة إلى الهرب من العمل أو التغيب عنه (٣٩) . وكانت قوانين الإدارة الألمانية تجعل من الهرب جريمة يعاقب عليها بالحبس والغرامة والعقاب الجسدى ، وتصدت قوات البوليس للعمالة الهاربة وأعادت كثيراً منها وأجبرتها على إستكمال مدة عقودها، وأضطرت بعضها إلى العمل فى المشروعات العامة التى كانت أقسى ظروفاً وذلك وفاءاً لتعاقداتها ، كما كان الزعماء يجبرون الأفريقيين على العمل فى مزارعهم الخاصة مجاناً إلى جانب العمل فى المزارع الجماعية الحكومية ، كما حدث فى مزارع القطن الجماعية فى منطقة بحيرة فيكتوريا (٤٠) ، وأقر الحاكم العام الألمانى سكنى Schnee هذا النظام فى عام ١٩١٣ .

والغريب أنه رغم التنافس بين أصحاب المشروعات على الحصول على العمالة فأنهم أصروا على خفض أجرها ، بدعوى أن رفع الأجر يصيب الأفريقيين بالغرور ويدفعهم إلى قلة الإنتاجية ، ولا توفر لدينا أرقام دقيقة عن قيمة الأجور خلال الفترة الألمانية ، لأنها كانت تختلف من منطقة إلى أخرى ، ومن فصل إلى آخر ، كما كان معدلها يتباين أيضاً بالنسبة للعمالة الوافدة من مناطق هامشية والعمالة المحلية ، غير أن أجر العمالة الوافدة كان أعلى من أجر العمالة المحلية بوجه عام ، لأن العمالة المحلية التى كانت تقبل على العمل كانت تعانى عادة من ظروف اقتصادية صعبة ، ومن ثم كان يسهل استغلال ، بينما كانت العمالة الوافدة تحتاج إلى إغراءات فى الأجر لدفعها إلى أسواق العمل وتحمل عناء

الرحلة الشاقة ، وتوضح الأرقام المتناثرة التى لدينا عن معدلات الأجور تأثرها بالعوامل السياسية والإقتصادية ، لأن الأجور كانت تميل إلى الأنخفاض مع الزيادة وفود العمالة نتيجة زيادة ضغط جمع الضرائب ، وخوفاً من التجنيد فى الجيش الألمانى فى فترة الحرب العالمية الأولى .

وتشير أرقام أجور العمالة الوافدة فى تانجا إلى تذبذبات نسبية فى معدلها ففى عام ١٩٠١ كان معدل الأجر للعامل الوافد شهرياً يتراوح بين ١٦ - ٣/١ ١٧ شلناً بينما هبط هذا المعدل إلى ٣/١ ٩ شلناً فى عام ١٩٠٣ ثم عاد إلى الأرتفاع إلى نحو ١٦ شلناً فى عام ١٩١٢ ، بينما تراوح معدل الأجر للعمالة المحلية خلال عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ بين عشرة شلنات كما تراوح معدل أجر العمالة الوافدة فى لوشوتو Leshuto بين ١٦ و ٢٠ شلنا بينما كان معدل أجر العمالة المحلية يتراوح بين ثمانية شلنات وثلاثة عشر شلنا (٤١) . ويتضح من هذه الأرقام قلة عائد العمل وعدم جدواه الإقتصادية - خاصة إذا أخذنا فى الأعتبار أن الأفريقى كان يلجأ إلى أنفاق جزء كبير منه على دعم الوجبات الغذائية التى تقدم له ، وعلى شراء بعض البضائع الأوربية التى يتوق إلى العودة بها إلى أسرته ، كما كان يخصم من هذا الأجر الغرامات التى تفرض عليه نتيجة الإهمال أو الهرب من العمل ، ويلاحظ أن معدل هذه الأجور ظلت فى نفس مستوى أجور العمل فى القوافل التجارية فى السبعينات من القرن التاسع عشر ، رغم ارتفاع المطالب الاقتصادية للأفريقيين .

وكرد فعل من جانب العمال فقد لوحظ وجود حالات كثيرة يسجل فيها العمال الأفريقيون فى عقود عملهم أسماء مزورة حتى يسهل لهم الهرب من العمل ، وكان كثير منهم يرفضون العمل أيام الآحاد ، ويصرون على تلقى الوجبات الغذائية المقررة بطريقة منتظمة ، كما وجدت حالات فردية من تحدى العمال لأصحاب العمل وعدم إطاعة أوامرهم رغم تعرضهم للعقاب البدنى ، كما أوقع العمال بالملاحظين الأفريقيين ، واعتدوا عليهم بالضرب لتعاونهم مع الإدارة ضدهم ، وأنتشرت ظاهرة الهروب الفردى والجماعى من العمل (٤٢) . ومع هذا فإن التاريخ الاستعمارى لم يسجل خلال الفترة الألمانية لجوء العمال الأفريقيين

إلى الأضرابات الجماعية أو المساومات العمالية أحتجاجاً على ظروف العمل وطلباً لرفع الأجر ، كما لم تظهر قيادات عمالية أفريقية بسبب صرامة النظام الألمانى العسكرى ، وعرضية العمالة ، وأساليب الرقابة الشديدة من جانب أصحاب العمل على عمالهم من خلال إيجاد أصابع موالية لهم بينهم .

وأشتدت كراهية العمال الأفريقيين للمزارع الأوربية ، وخاصة مزارع السيسال بسبب صعوبة ظروف العمل . وكان العمل فى السكك الحديدية وخدمة المنازل من أحسن القطاعات التى يفضل الأفريقيون العمل بها لأرتفاع الأجر ويسر ظروف العمل بهما .

وقد كثر الحديث خلال الفترة الألمانية عن ضرورة تعلم العمل ، وعن ضرورة أتباع القسوة مع العمالة لحمل الأفريقيين المتبربرين على أحترام سادتهم وأطاعة أوامرهم وأنتشرت ظاهرة توقيع عقوبة الجلد على العمال سواء من جانب أصحاب العمل أو المسئولين الحكوميين وكان متوسط كل عقوبة خمسين جلدة يجرى تنفيذها على مدى أسبوعين وتشير التقارير الرسمية إلى أن السلطات الحكومية قد قامت بجلد ٦٤,٦٥٢ افريقيا فيما بين عامى ١٩٠١ و ١٩١٣ ، ولا يوجد حصر للعقوبات البدنية الكبيرة التى كان يوقعها أصحاب العمل على عمالهم دون علم الإدارة الألمانية ، وزاد من حجم هذه العقوبات وصول عدد كبير من الأفريكانز إلى شرق أفريقيا الألمانية فى أعقاب حرب البوير ، ونقل الأفريكانرز وسائل العقاب البدنى العنصرية التى كانت مطبقة فى جنوب أفريقيا إلى البلاد ، وقد أدانت محكمة دار السلام ٢٧ أوروبياً بتهمة القسوة الشديدة ضد الأفريقيين فى مدى ثلاثين شهراً (٤٣) . ووصف مدرس أفريقى فى دار السلام العمل فى مد الخط الحديدى بأنه نوع من الرق والعمل الذى لا يتقاضى عليه العمال أجوراً أو يحصلون بسببه على مأوى أو غذاء (٤٤) .

ولجأ العمال الأفريقيون إلى سرقة أمتعة أصحاب المشروعات وتدمير الآلات أو إخفائها أنتقاماً منهم ، كما لجأوا إلى إقتلاع المحاصيل وأحراقها كما حدث أبان ثورة الماجى ماجى حين اقتلع الثوار جذور القطن احتجاجاً على ظروف العمل القاسية .

وعانى العمال الأفريقيون من سوء الإسكان والظروف الصحية ، إذ كانت مساكنهم أكواخاً من الطين والقش ، وكانت سيئة التهوية ، ومتراصة تفوح منها الروائح الكريهة لإحاطتها بالقاذورات وأكوام القمامة وأسراب الذباب ، وخلت هذه الأكواخ من دورات المياه ، ومن ثم كانت المناطق الخالية حولها مجالاً لقضاء الحاجة ، وأنتشرت بين العمال أمراض الإسهال والدوسنتاريا والتيفود والسل والأنفلونزا ، وعانت مناطق العمل من الأمراض السرية وسوء التغذية لأنخفاض مستوى الوجبات الغذائية . ولاتذكر التقارير الألمانية شيئاً عن وجود عيادات صحية ملحقة بأماكن العمل ، ومن ثم كثرت حالات الوفيات بين العمال ، ولم يكن هناك فى عقود العمل ما ينص على تعويض العامل فى حالات مرضه أو وفاته [٤٥] . وفى بعض الأعمال الخاصة كان أصحاب العمل لا يلتزمون بتوفير السكن أو الغذاء لعمالهم ومن ثم أنتشرت ظاهرة التسول لعدم توفر المأوى .

وأدى سوء الأوضاع ومشقة الرحلة من المناطق القبلية إلى مناطق العمل ومخاطرها إلى عزوف الكثير من الأفريقيين عن الإقبال على العمل ، وخاصة أن العمال كانوا يتعرضون لخطر الحيوانات المفترسة وقطاع الطرق أثناء الرحلة ، وكان الأفريقيون يضطرون إلى توقيع عقود جائرة للحصول على تذاكر سفر بالخطوط الحديدية إل أماكن العمل ، وغالباً ما كان التعاقد يتم جماعياً . كما نجم عن سوء الأحوال أن ترك كثير من الأفريين المحليين أعمالهم فى مزارع الأوربيين وحاولوا التركيز على زراعة أراضيهم كما فعلت قبائل البوندى .

ويبدو أن أنتشار ظاهرة القسوة وسوء الإستغلال قد جعلت الإدارة الألمانية تقدم على إصلاح مساوئ سياسة العمالة ، وخاصة بعد عام ١٩٠٧ أى بعد إنتهاء ثورة الماجى الماجى ، فأصدرت عدداً من التعليمات التى تجبر أصحاب العمل على تحرير عقودهم أمام موظفين حكوميين ، ومنعت الزعماء والمشايخ من جمع العمالة للمشروعات الخاصة ، ورغم هذه المظاهر الإصلاحية فإنها لم تكن كافية، كما لم تخرج إلى حيز التنفيذ بسبب قلة الجهاز الإشرافى الحكومى ، وعلاقات التعاطف والمصالح العضوية بين المستوطنين الألمان والموظفين الحكوميين [٤٦] .

ولنا ملاحظات حول أوضاع العمالة الأفريقية :

أولاً : أن العمالة كانت أفضل ظروفاً فى شرق أفريقيا الألمانية عنها فى المستعمرات الاستيطانية الأخرى لأن مناطقها القبلية كانت أحسن حالاً من ناحية الخصوبة والظروف الطبيعية والمساحة عن المعازل الأفريقية فى المستعمرات الاستيطانية وذلك بسبب قلة الكثافة السكانية وقلة حجم الاستيطان الأوربى .

ثانياً : أن العمالة الأفريقية لم تكن إجبارية بالنسبة للأفريقيين الوافدين من مناطق هامشية ، ومن ثم كان الخروج للعمل نتيجة دوافع تلقائية حركتها الظروف الأقتصادية والطموح الإجتماعى ، وبالنسبة للأفريقيين المقيمين فى مناطق الاستيطان ، أو بالقرب منها فقد كان يعفى منهم من العمالة الإجبارية أصحاب المزارع الخاصة .

ثالثاً : أن أكبر مراكز التجمع العمالى كانت فى مزارع السيسال الأوربية بسبب الربحية العالية لهذا المحصول والتى كانت تصل إلى نحو ٤٠٠ مارك للطن الواحد فى عام ١٩١٢ ، وكانت هذه المزارع تحتاج إلى عمالة دائمة ، ومن ثم بزغت فى هذه المزارع فيما بعد البواكير الأولى فى الثلاثينات من القرن الحالى للتنظيمات العمالية (٤٧) .

الآثار العامة لسياسة العمالة الأفريقية فى شرق أفريقيا الألمانية :

حلت العمالة الأفريقية محل العمالة الأسيوية فى منطقة الساحل ، وصحب زيادة العمالة الأفريقية عدد من الأثار ، أذ أدى خروج الأفريقيين للعمل إلى أهمال الأراضى الأفريقية ، وتوتر العلاقات العائلية والقبلية وكثرة الطلاق وقلة المواليد وأنخفاض الكثافة السكانية ، وذلك نتيجة بعد الأزواج عن زوجاتهم بسبب العمل فى المزارع الأوربية ، ورغم أن مدة العقود كانت وفيرة فأن العمال أضطروا كثيراً إلى توقيع عقود جديدة لزيادة مدخراتهم بسبب ضألة عائدة العمل ، وضغط أصحاب العمل عليهم لحاجة مشروعاتهم إلى العمالة ، وفضلاً عن أنتشار ظاهرة الطلاق أدى الخروج للعمل إلى دخول الزوجات الأفريقيات فى علاقات جنسية غير مشروعة مع الشباب فى المناطق القبلية ، وأنتشرت

الأمراض التناسلية واستنزفت القرى من كثير من رجالها القادرين على العمل . وعانت بعض المناطق الأفريقية أكثر من غيرها بسبب العمل فى المشروعات الأوربية ، إذ نقص تعداد الأنباموزيزى من ١٢ ألف نسمة إلى خمسة آلاف نسمة فى ظرف عشرين عاماً بسبب العمل (٤٨) . وبالأضافة إلى هذا صدرت المزارع الأوربية الكثير من الأمراض إلى المناطق القبلية كالزهرى والديدان المعوية ، وقد ثبت أن نحو ٣/١ العمال الذين أسروا فى ثورة الماجى ماجى والذين أرسلوا إلى الشمال الشرقى للعمل فى المزارع وخاصة فى وادى نهر روفيجى ودار السلام قد أصيبوا بالطفيليات نتيجة اختلاطهم بالعمال هناك ونقلوا هذه الأمراض بالتالى إلى قبائلهم وتغيرت تركيبة المجتمعات الأفريقية التى خرج رجالها للعمل ، فأصبح عدد النساء والشيوخ والأطفال يفوق عدد الرجال القادرين على العمل وتدهورت اقتصاديات هذه المجتماعات لصالح المناطق الاستيطانية المستوردة للعمالة ، ولم تكن الخسارة التى حلت بالاقتصاد الأفريقى تعادل المكسب النقدى الذى حصل عليه الأفريقيون العائدون من مناطق العمل ، كما كان حجم هذا المكسب لا يبرر مشقة العمل ومخاطر الرحلة أو تحمل قسوة المعاملة من جانب المستوطنين .

وأدى طرد الأفريقيون من أفضل مناطقهم وتكديسهم فى مناطق قريبة من مراكز الاستيطان أقل خصوبة وأسوأ مناخاً إلى أنهاك الأراضى التى نقلوا إليها بسبب الاستغلال الزراعى المستمر لها ، وعدم منحها فترات للراحة ،.وأنعكست هذا على سوء مستوى المحاصيل الأفريقية وقلة حجمها ، كما قلت أراضى المرعى الصالحة نتيجة هجرها ، وزحفت الرمال على الأراضى الصالحة ، وزحفت عليها الحيوانات المفترسة والخنازير البرية ، وأصيبت الأراضى المهجورة بذبابة تسى تسى ، ونفقت أعداد كبيرة من الماشية (٤٩) . وأمام نقص الأراضى أضطر الأفريقيون إلى اللجؤ إلى أراضى الأرساليات والألتحاق بخدمتها بعد أن قل إنتاج الغذاء (٥٠) . وبصفة عامة تحول الأفريقيون إلى مستوردين للغذاء بعد أن كانوا منتجين له .

وصحب خروج العمالة إلى مناطق العمل الأوربية زيادة نطاق التبشير المسيحى بصفة عامة بين الأفريقيين وأعتناق بعضهم الإسلام نتيجة أتصالهم بالسواحليين والعرب فى الساحل ، وأدى الخروج للعمل إلى ظهور العلاقات الرأسمالية وزيادة تبادل النقود واختفاء نظام الزواج القديم القائم على العمل لدى آباء الفتيات للوفاء بمهور بناتهم ، وظهر نظام المهور النقدى أوفى شكل هدايا من الماشية ، وصحب هذا التغير تأكيد سلطة الزوج على أبنائه لأنه فى ظل نظام الزواج القديم لم يكن للأب سلطة عليهم وأنما كانت السلطة فى يد والد العروس (٥١) .

وترتب على ارتباط الخروج للعمل بتكثيف الحملات من أجل دفع الضرائب أن حاول الأفريقيون فى المناطق الهامشية تحاشى مراكز التجمع السكانى الكبير هروباً من وكلاء جامعى الضرائب ، وبدلاً من أى يؤدى الحكم الألمانى إلى نمو مراكز الاستقرار الأفريقى فقد نجم عنه بعثرة هذه المراكز وتقليص حجمها ، وزاد تجوال القبائل الرعوية حتى لا تمتد أيدى الإدارة إليهم ، ومع هذا فإن التفتت السكانى قد أدى إلى أختفاء الحروب القبلية التى كانت سائدة قبل العهد الاستعمارى ، وهدم القلاع العسكرية . وتأثرت الهضبة الغربية بتحركات العمالة الأفريقية أكثر من غيرها ، بسبب خروج أعداد كبيرة من سكانها إلى سوق العمل وأمتداد الاستيطان الأوربى إلى جزء منها وظهور المزارع الأوربيه المختلطة ، وفشل العديد من المزارع الأفريقية التى تنتج المحاصيل الغذائية أمام المنافسة الأوربية ، وفى المناطق المكتظة بالسكان كان الخروج للعمل مفيداً لأنه لم يترتب على الهجرة للعمل إهمال للأراضى الأفريقية وإنما ظلت أحوالهم الزراعية مزدهرة كما حدث فى المنطقة الأيناكيوسا Nyakuysa بينما أدت الهجرة للعمل إلى دمار اقتصاديات قبائل أخرى مثل النجونى (٥٢) .

وصحب الخروج للعمل وظهور المزارع الأوربية التى تقوم على زراعة المحاصيل النقدية إلى عزوف عدد من الأفريقيين عن العمل فى المناطق الغربية من الاستيطان ، وظهور المزارع الأفريقية المتوسطة التى تقوم على إنتاج الغذاء والتى وظفت العمالة لديها ، وأهتمت هذه المزارع بإنتاج المحاصيل الغذائية التى

تحتاجها المزارع الأوربية ، وأهملت حاجتها من المحاصيل الأساسية الضرورية لها، وأصبح اقتصاد هذه ، المزارع الأفريقية يعمل فى خدمة أقتصاد المزارع الأوربية ، ومع هذا أثار نجاح هؤلاء الأفريقيين الذين تحولوا إلى طبقة برجوازية صغيرة عداء الأوربيين وحاولوا القضاء على منافستهم ، وأدى تعاون بعض الزعامات الأفريقية مع المستوطنين الأوربيين من أجل جمع العمالة إلى ظهور مشروعات زراعية مشتركة أفريقية أوربية كان دور الزعماء الأفريقيين فيها تدبير القوة العاملة المجانية من بين الأفريقيين ، وأعتبر الزعماء أن من حقهم الحصول على العمل المجانى من جانب القبائل كنوع من الاعتراف بالتعبية والولاء لهم . وأستفادت بعض القبائل من عائد عملها بشراء الأرض وزراعتها كقبائل البوهايا Buhya والسكوما، وأدى هذا إلى نمو أقتصادياتهم ، والاستغناء عن عائد العمل فى المناطق الأوربية ، والتركيز على مشروعاتهم الزراعية الخاصة، والتى قامت على أساس زراعة المحاصيل النقدية التى أدخلتها الإدارة الألمانية (٥٣) . ولم يكن تأثير بعض القبائل الأفريقية بسياسة العمل لدى الأوربيين كبيراً ، مثل قبائل الجوجو Gogo والأراكو Iraqwa الزراعية لتملكها أعداد كبيرة من الماشية ، كما لم تتأثر كثير من القبائل التى تعيش بالقرب من المناطق الغابية لأنها ظلت تعتمد على جمع الثمار وعجزت الإدارة الألمانية فى كثير من الأحوال عن إخضاعها وتحصيل الضرائب منها (٥٤) .

وصحبت عمليات جمع العمالة عمليات إعتداء واغتيال من جانب الأفريقيين لجامعى العمالة من الزعماء ، وكان نظام جمع العمالة وقسوة ظروفها أحد العوامل التى أدت إلى نشوب الصراعات المسلحة بين الإدارة الألمانية والأفريقية والتى كان أهمها ثورة الماجى ماجى فيما بين ١٩٠٥ و ١٩٠٧ . وأدى عنف رد الفعل الأفريقى إلى تخلى بعض الزعماء عن مهمه جمع العمالة للألمان خشية أن يقتلوا على يد الأفريقيين كما فعل الزعيم الأفريقى كيناشى Kynashi فى عام ١٩٠٢ (٥٥) . ولم يؤد الخروج للعمل لدى الأوربيين إلى اختفاء التحاق الأفريقيين للعمل فى القوافل التجارية جلبا للعاج من الداخل ، كما أستمر الأفريقيون فى الأشتغال بنقل البضائع أو الأدوات وحملها خاصة فى جنوب المحمية التى لم تمتد إليه الخطوط الحديدية طوال عهد الإدارة الألمانية وفى مزارع السيسال

الأوربية والسكك الحديدية . وخلاصة الأمر أن سياسة العمالة الألمانية تجاه الأفريقيين كان لها تأثيراتها السلبية التى فاقت آثارها الإيجابية على أحوال القبائل الأفريقية الإجتماعية والأقتصادية والسياسية .

نتائج الدراسة :

وخلصت هذه إلى النتائج التالية :

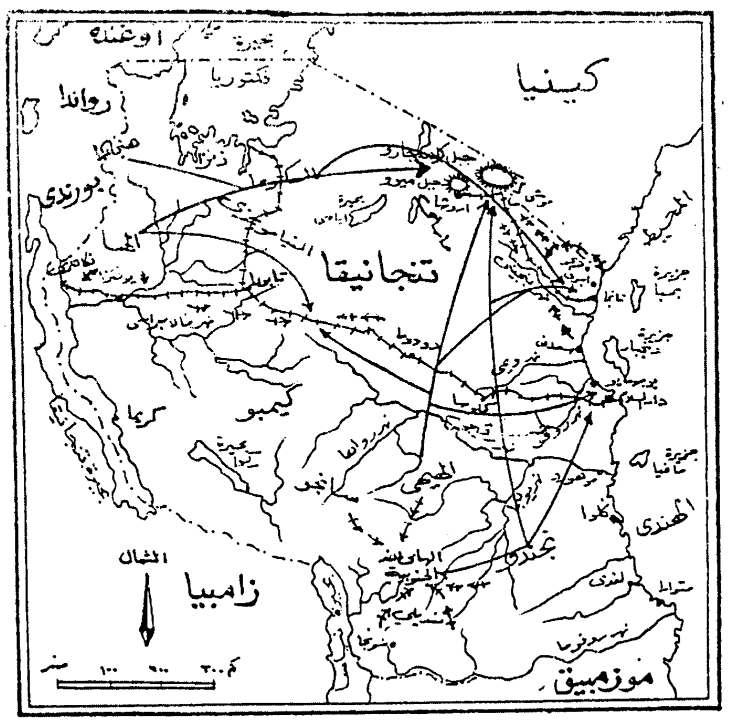
أولا : أن سياسة العمالة التى أنتهجتها الإدارة الألمانية تجاه الأفريقيين لم تكن حصيلة تخطيط منظم ، وأنما جاءت أستجابة تلقائية لمتطلبات أستغلال المحمية أقتصادياً ، ومن ثم أفتقرت هذه السياسة إلى التقنين ، وأتسمت بندرة القوانين المنظمة للعمل ، وأعتمدت أساساً على أسلوب الحث غير المباشر والضغط الأقتصادى من خلال إنتهاج سياسة ضرائبية متعددة لحث الأفريقيين على الخروج للعمل ، ورفضت الإدارة الألمانية أتباع سياسة عمالة أجبارية تجاه الأفريقيين بأستثناء العمالة اللازمة للمشروعات العامة .

ثانيا : كانت عمليات جمع العمالة الأفريقية محصلة جهود فردية من جانب المستوطنين الأوربيين بالتعاون مع مسئولى الإدارة والزعامات الأفريقية والعربية وكان دور الإدارة الألمانية مساعدة المستوطنين على أرغام الأفريقيين على الألتزام بعقود عملهم .

ثالثا : جمعت سياسة العمالة فى عهد الإدارة الألمانية بين نظام العمالة فى المستعمرات الاستيطانية الأفريقية - خاصة فيما يتصل بنظام الكيباندى وعقود العمل ، وبين نظام العمالة الذى وجد قبل العهد الاستعمارى القائم على نظام العمل فى القوافل التجارية .

رابعا : لم يكن العمل لقاء الأجر مربحاً لأن معدل الأجر ظل ثابتاً على نفس معدلاته فى السبعينات من القرن التاسع عشر طوال عهد الإدارة الألمانية ، وظهرت له سلبيات فاقت أثارة الإيجابية بالنسبة للأفريقيين ، ولم يستفد منه إلا الأوربيون الذين جنوا ثروات كبيرة من ورائه .

طرق العمالة في شرق أفريقيا الألمانية



• مدن ـــــ عمالة وافدة من مناطق بعيدة.
++ ++ ++ " " " محلية.
مرتفعات +++++++ سكك حديدية ـــ أنهار

الحواشى

(١) Walter Rodney, The Political Economy of Colonial Tanganyika, (1890 - 1930), in H. Y. Kaniki (ed)

Tanzania Under Coloniel Rale, London, 1980 , PP, 128 - 129.

(٢) Iliffe, Joh, Tanganyika Under German Rule, Cambridge, 1969 , PP. 126 - 130 .

(٣) Iliffe, Joh, Wage Labour & Urbanization in Tanzania, in Kaniki, H, Y, (ed), Op. Cit. PP. 277 - 278.

(٤) Clarke, W. E., Social Development & Public Investment in Tanzania, Toronto, 1976 , P. 28.

(٥) Gulliver, P. H., Labour Migration in Rural Economy, Kampala, 1955, P. I.

(٦) Iliffe, Jhn, in Kaniki, H, Y (ed) Op. Cit. PP. 276 - 279.

(٧) Langland Report on Labour matters in Sisal Areas, Tanga, No. I, March 29, 1936.

(٨) Burton, Richard, The Lake Regions of Central Afriva, W. Y. 1961, PP. 408 - 416, Vol. I.

(٩) F. O. 84 / 1486 / 36 Kirk to Derby Auguat 22, 1877.

(١٠) Leubusoher, C., Tanganyikn Territory under the Manaate, Oxford, 1940, P. 133.

(١١) Temu, A. J., Tanzania Societies & Colonial Invasion in Kaniki, H, Y (ed) Op. Cit. PP. 115 - 116.

(١٢) Iliffe, Joh, A Modern History of Tanganyika, London, 1979, PP. 152 - 155.

(١٣) كانت ضريبة الرأس تدفع من جانب الأفريقيين من الذكور الذين لا أكواخ لهم ، وكان يعفى منها صاحب الكوخ .

Clark, P. H, C, A Short History Of Tanzania, Arusha, 1968, P. 108.

(١٤) سعد زغلول عبد ربه : الأستعمار الألمانى فى شرق أفريقيا - رسالة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة الأسكندرية ١٩٦٨ ص ١٠٢ .

Haily, Lord, An Aprican Survey, P. 1401.

(١٥) W. O. Henderson, German East Africa, 1884 - 1918 in Oliver, R & Mathew, G. (eds) A History of East Africa, Vol. I, P. 137.

(١٦) سعد زغلول عبد ربه ، رسالة دكتوراه سابقة ، ص ١٠٢ - ١٠٣

Jahresbricht Uber die .... deutschen Schulzgehiete 1896 - 1897, P. 63.

وللأطلاع على مزيد من التفاصيل حول مسألة الضرائب ، أنظر :

L. E. Larson, A History of Ulanga District, PH. D. Thesis, University of Dar Essalam.

(١٧) Alexander Bursian, Die Hauser Und Hurrensteuer in Deutsch - Ostafrika, Jena, 1910, PP. 9 - 11.

(١٨) Temu, A. J., Op. Cit. P. 96.

(١٩) Rweyeamu, J., Underevelopment & Industriatization in Tanzania, N. Y. 1973, P. 16.

(٢٠) F. O. Historical Section, Treatment of Natives in the German Colonies No. 114, P. 60.

سعد زغلول عبد ربه ، رسالة دكتوراه سابقة ، ص ١٠٩ .

(٢١) Iliffe, John, A Modern History, Op. Cit. PP. 125 & 161.

(٢٢) عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، ثورة الماجى ماجى ، مجلة كلية الأداب ، جامعة طنطا - المجلد الثالث ١٩٨٦ / ١٤٠٦ ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢٣) Gmd No 7620, Report of the year 1912 - 1913, PP. 55 - 57 .

سعد زغلول عبد ربه ، رسالة دكتوراه سابقة ، ص ١٠٩ .

(٢٤) Iliffe, John, Tanganyika under German Rule, PP. 134 - 139.

(٢٥) T N A, iv/0/3/1 Winterfield to Methner, Feb 8, 1908.

(٢٦) سعد زغلول عبد ربه : رسالة دكتوراه ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢٧) Arrighi, G., The Political Economy Of Rhodesia, London, 1967, PP. 24 - 25.

(٢٨) Austen, R. A., Northwest Tanzania under German & Britiosh Rule, New Haven, 1968, PP. 74 - 75.

(٢٩) Rweyeamu, J., Op. Cit. PP. 16 - 17.

(٣٠) Graham, J. D., A History of the ralations between African Labour & European Capitalism in Njombe District, 1931 - 1961, P.H.D. Northwestern University, 1968, PP. 177 - 179.

(٣١) Iliffe, John, The organization of the Maji Rebellion, JAH, Vil. 8, N. 3, 1967, PP. 496 - 511.

(٣٢) عبد الله عبد الرازق إبراهيم : مقال سابق ص ٧٨ (مجلة كلية آداب طنطا) .

(٣٣) Baumann, O., Durch Masailand Zur Nilqueue, Berlin 1894, PP. 31 - 33.

(٣٤) Iliffe, John, A Modern, Op. Cit. P. 125.

(٣٥) W. O. Henderson, In Oliver, R & Mathew, G., Op. Cit. PP. 152 - 153.

(٣٦) Tanganyika Govrnment Circular Notice No. 132 of 1933.

(٣٧) Mackenzie, J. M. African Labour in Chartered Compeny Period, Rhod siana, 1970 , P. 45.

(٣٨) محيى الدين محمد مصيلحى : الإستعمار البريطانى فى روديسيا الجنوبية ١٨٨٩ - ١٩٢٣ . رسالة دكتوراه ، كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٨٢ ، ص ١٧٠ - ٢٠٦ .

(٣٩) Iliffe, ohn, A Modern Hustory, Op. Cit. PP. 156 - 160 .

(٤٠) Cerman Nast Africa : Monphy Report on Bukoba District, July, 1908.

وعبد الله الرازق إبراهيم : مقال سابق ، ص ٧٧ - ٧٨ - مجلة آداب طنطا - المجلد الثالث (١٩٨٦) .

(٤١) Iliffe John, A Modern. Op. Cit., P. 157 .

(٤٢) Rhodes House, Oxfor, German Diaries Series, (Gilman Diary of Nov. 19, 1905).

(٤٣) Iliffe, John, A Modern, PP. 149, 150, 156, & 157.

(٤٤) Iliffe, Gohn, Ibid, P. 135 .

(٤٥) Joehson, F., The Tanganyika Torritory, London, 1920,

(٤٦) Rodney, In Kariki (ed), Op. Cit. P. 135.

(٤٧) Aiaune Bolton, Uniorization & Employment Strategy, The Tanganyika Sisa Industry 1958 - 1964, in Peter, G. W. & Others (eds) African Labour History, London, 1978, P. 176.

(٤٨)

(٤٩) Iliffe, John, A Modern History, Op. Cit. PP.166-167.

(٥٠) C. O, Ekom de German Rule in North East Tanzaina, 1885 - 19, PH. D. Thesis. University of London, 1973 pp 324 - 125.

(٥١) Elias, John, A Modern History, Op. Cit. P. 300.

(٥٢) G. Oliver. P.H., Nyakyusa Labour Migration, Rodes-Living stone Journal, No. 21, 1957, pp. 32-33.

(٥٣) Walter Rodney, In Kaniki (ed). Op. Cit. pp. 138-139.

(٥٤) Codfrey. W., The Land Rights of Individuals among the Nyakyusa, Rhodes - Livingstone Journal No. I, 1938, PP. 27-28.

(٥٥) Iliffe, John, A Modern History PP. 152-153.

جامعة القاهـرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٣٢٧ - ٣٤٩

ضـــرورات الأمـــن القومـــى المصـــرى
الســد العالى وبحــيرة ناصــر
وفــرع ثالث للنيــل

د. على أمـين درغـام

أرتبط السد العالى فى ذاكرة الشعب المصرى بالكثير من المعارك . منذ التفكير فى تنفيذ المشروع خاضت مصر فى سبيل إنجازه صراع على المستوى الدولى وصل إلى حد التعرض لعدوان عسكرى (عدوان ١٩٥٦) فور تأميم قناة السويس لتوفير التمويل الكافى للمشروع ، بعد أنسحاب الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا الغربية والضغط على البنك الدولى لسحب عرض التمويل. وما تبع ذلك من تقدم الأتحاد السوفيتى لتمويل المشروع . بذا أصبح السد العالى رمز لنضال دولة نامية من دول العالم الثالث فى سبيل الأستقلال السياسى ، فى ظروف وأجواء الحرب الباردة ، بقدر ما أتاح من إمكانات هائلة فى تدعيم خطط التنمية الأقتصادية والإجتماعية . مازال السد العالى وحتى ألان يثير من القضايا الخلافية بنفس القدر الذى يسهم به فى حل أشكال توفير الموارد المائية الضرورية لأستمرار الحياة على أرض مصر ، والإسهام بجانب لا يستهان به من الطاقة الكهربائية التى تحتاجها الصناعة وقطاعات أخرى من النشاط الأقتصادى ، أولى القضايا الأخلاقية هى الآثار الجانبية الناتجة عن السد العالى وبحيرة ناصر ، لكن أهمها فى تقديرنا مايمثلة السد العالى والبحيرة من تهديد فعلى للأمن القومى المصرى . بل نذهب بعيداً إلى حد القول أنه يمثل خطر قائم على منظومة الحياة فى أرض الفراعنة .

هدف الدراسة فى الأساس هو عرض وتحليل للقضايا الجدلية التى لم تحسم بعد حول السد وبحيرة ناصر ، مركزين فى المرتبة الأولى على علاقة السد

والبحيرة بمتطلبات الأمن القومى المصرى فى مفهومة الشامل . واضعين فى الأعتبار الترابط الشديد بين العناصر المختلفة المكونة لاستراتيچية الأمن القومى المصرى ..غير متناسيين بطبيعة الحال عن الدور المؤثر والإنجاز العظيم الذى قدمه السد العالى لتلك الأستراتيچية وخاصة فى جانبها المائى والكهروهيدروليكى .

إذن ينقسم بحثنا إلى مدخل نعرض فيه للمكانة الجيواستراتيچية للسد العالى وبحيرة ناصر . وفى فصل أول نشرح ونحلل الآثار الجانبية التى تهدد كل من السد والبحيرة أيضاً مجرى النيل والسواحل الشمالية فى الحاضر والمستقبل. فى الفصل الثانى نحاول أكتشاف العلاقة بين السد العالى وبحيرة ناصر وبين أوضاع الأمن القومى المصرى . أما الفصل الثالث فيخصص لعرض اقتراح بمشروع طال الحديث عنه وهو شق مجرى جديد للنيل من الجنوب على بحيرة ناصر ماراً بالصحراء الغربية ورابطاً بين الواحات حيث ينتهى إلى منخفض القطاره فى أقصى الشمال الغربى ، موضحين أهمية هذا المشروع على تدعيم الأمن القومى المصرى بمفهومة الإستراتيچى الشامل ، خاصة فى جانبه العسكرى والمجتمعى .

جيواستراتيچية السد والبحيرة

" السد العالى جراحة جغرافية من أدق وأشق ما أجرى الإنسان على وجه الأرض ، فعلت بالنيل ما فعلت جراحة قناة السويس للعالم القديم ، ولا تقتصر آثار هذه العملية الجراحية على موضع السد وحده بل هى تمتد لتشمل النهر على طول واديه وحتى البحر " [1] .

بهذا الحديث للعلامة الدكتور جمال حمدان ، يكون مدخلنا للمكانة الجيواستراتيجية للسد العالى وبحيرة ناصر بانوراما السد والبحيرة : فمن الناحية الهندسية يعد السد بمثابة حائط صممت بلا فتحات أو عيون على العكس من خزان أسوان . حيث يتعرض مجرى النيل ويسده آى (جبل صناعى عبر الوادى) . يتركب من ركام صخرى من الجرانيت تتوسط قلبه من الداخل نواه حماء من الطين ترتبط بالقاع الصخرى للنهر بواسطة ستارة رأسية قاطعة

للمياه غير منفذه لها لأنها هى الأخرى من الطين . يبلغ حجم السد ١٦ مرة حجم الهرم الأكبر . عرضة أو سمكه يصل عند القاع إلى نحو الكيلو متر يقل عند القمة إلى حوالى ٤٠ متر مقسمة إلى نصف كيلو متر بين الضفتين ، وأكثر من ٢كم للجناح الأيمن ، وأقل من الكيلو متر للجناح الأيسر للسد . أما أرتفاع السد فيبلغ حوالى ١٩٦ متراً . غير أن الحجر لا يكون كامل أو أقصى أرتفاع للسد ، حيث يكون منسوب ١٨٢ متراً فوق سطح البحر بمثابة الحد الأعلى للتخزين ، على أن يكون منسوب ٩٧ متراً هو الحد الأقصى فوق سطح البحر . كما يشتمل السد على قناة تحويل تقع على الضفة الشرقية وتصل ما بين السد وخلفه ، بعمق ٨٠ متراً وطول نحو ٢ كيلو متر - يتوزع بين قناتين مكشوفتين : أمامية تمتد نحو كيلو متر وخلفية تمتد نحو كيلو متر ، يقع بينهما تحت جسم السد نفسه قطاع محفور فى الصخر يمتد نحو ثلث كيلو متر يشتمل على ستة أنفاق تنتهى عند مخارجها بمولدين لكل منها أى بمجموع ١٢ توربينا لتوليد الكهرباء بطاقة قصوى قدرها ١٠ مليار كيلو / وات . فى مقبل قناة التمويل ومحطة الكهرباء على الضفة الشرقية نجد مفيض توشكى . ولقد تم أمتلاء بحيرة ناصر تماماً عام ١٩٧٥ بمنسوب بلغ ١٧٥,٧ متراً وفى عام ١٩٧٧ وصل المنسوب إلى ١٧٧ متراً .

ولذا نطرح سؤال : لماذا كان اختيار الموقع الحالى للسد العالى ؟ يقول دكتور . جمال حمدان " كان خط التقسيم الجغرافى الطبيعى بين المعمور واللامعمور هو الموضع الطبيعى الجاهز والمستعد لتلقى السد العالى حيث ورث السد العالى الموقع الجغرافى والإطار الطبيعى لخزان أسوان بكامله ، بما فى ذلك البحيرة الصناعية ، ثم زاد عليه أضعافاً مضاعفة (٢) . فكان موضع شلال أسوان جنوب الخزان نحو ٧ كم هو الأنسب جغرافيا لبناء السد من جميع النواحى الفنية وأيضاً الأستراتيجية . بذلك يكون السد العالى إلى الجنوب من القاهرة بحوالى ٩٦٠ كيلو متر وبعيداً عن الساحل بنحو ١١٧٠ كيلو متر .

تحددت الطاقة المائية للسد العالى وفقاً للشكل وطبيعة الموضع الطبوغرافى . فهو صالح للتخزين من القاع على منسوب ٨٥ متراً وحتى ١٨٠ متراً وبالتالى

يتسع لنحو ١٣٠ إلى ١٥٧,٥ مليار متـر مكعب . كمـا تنقسم السعـة المائيـة إلى ثلاثة أقسـام الأولى وهى مـا يطلق عليه السعـة الميتة من القـاع على منسـوب ٨٥ مـتـرا وحـتى منسـوب ١٤٧ بأرتفـاع ٦٢ مـتـراً وتقـدر بحـوالى ٣٠ م م٣ . حـيث تخصص لأستيعاب المواد العلقة بمياه النيل وخاصة تلك الآتيـة مع الفيضـان أى مادة الطمى . ثم السعـة الحيـة فمن منسـوب ١٤٧ مترا وحتى ١٧٥ متراً بأرتفـاع ٢٨ متراً وقدرتها تتراوح بين ٧٠ إلى ٩٠م م٣ وهى صافى رصيد التخزين . أخيراً السعة الاحتياطية من منسوب ١٧٥ متراً حتى ١٨٢ متراً بأرتفاع ٧ أمتار وقدرتها مـا بين ٣٠ وإلى ٣٧,٥ م م٣ ، وهى تمثل احـتيـاطيـاً ضـد أخطار الفـيضـانات وحساب فاقد التسرب والبخر . إذن يكون صافى السعـة الفعالة والحقيقية هو ٧٠ مليـار كـحـد أدنى أى ٩٠ مليـار كـحـد أقـصى . مما يكفل تصـرفـاً سنوياً ومـضـمـونـاً لنحـو ٨٤ مليـار متـر مكعب فى السنة وبذلك ألغى السد العـالى دور خزان أسوان ووظيفته الهيدرولوچية . أبقى للخزان دوره كمنظم ثانوى لتدفق المياه وكمولد للكهرباء ، أيضاً أستبدل السد العالى التخزين السنوى أمام خزان أسوان بنظام التخزين القرنى أمام السد العالى .

تعد بحيرة ناصر أول بحيرة صناعية فى العالم من حيث المساحة والإتساع والطاقة . طولها يصل إلى ٥٠٠ كيلو متـر يقع منها ٢٥٠ كيلو متـر داخل حدود مصر و ١٥٠ كيلو متر فى حدود السودان . وتغطى البحيرة ثلاث درجات عرضية من خط ٢٤ إلى خط ٢١ جنوباً . كما تبلغ مساحة البحيرة ٥٠٠٠ كيلو متـر مربع بمتوسط عرض نحو ١٠ كيلو متر . فهى إذن بحيرة دائمة طفيفة الانحدار للغاية لا يتعدى هذا الانحدار عن خمسة سنتيمترات على امتداد طولها البالغ ٥٠٠ كيلو متر . يتم السحب من مياه البحيرة من مستوى طبقاتها السفلى قرب القاع حيث توجد الأنفاق وقناة التحول (×) على العكس مما يحدث فى البحيرات الطبيعية حيث تنساب المياه فى النهر من شرائحها العليا تلقائياً أول بأول . فى النهاية تعتبر بحيرة ناصر خزان طمى مثلما هى خزان ماء . لعل هذه للأسف هى أبرز نقاط ضعف السد العالى [٢] فلأن السد مصمت ومغلق تماماً . فيتم احتجاز كل حمولة النهر من الرواسب والطمى تلك التى كانت تقدر عند وادى حلفاً بنحو ١١٠ ملايين طن سنوياً (حوالى ١٢٤ مليوناً فى التقدير الجارى) فلم يصل إلى

القاهرة إلآن سوى ٤ ملايين طن أى نحو ٣ ٪ فقط من حمولة النهر من الرواسب والطمى تلك الحمولة الهائلة ، خاصة فى فترة الفيضان فى أشهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر ، يترسب الجزء الكبير منها على مساحة تتراوح بين ٣٥٠ إلى ٤٠٠ كيلو متر جنوب السد العالى ، أى فى داخل حدود السودان ، والبحيرة محسوبة على أساس أن السعة للجزء المخصص للطمى (ملياران) تكفى لمدة ٥٠٠ سنة ، هناك دراسات حديثة تزيد الفترة الزمنية إلى ٧٥٠ أو ٨٠٠ سنة (٤) ترتب على تلك الدراسات أن مشكلة الترسيب فى البحيرة ليس لها تأثير على كفاءة التخزين فى السد العالى ، فهناك رأى آخر يقول بأن عملية الترسيب والتراكم أمام السد العالى سوف تشكل دلتا صناعية ولكنها حقيقية تماماً . وبذا تكون الدلتا فى الشمال آخذة فى التراجع والانكماش بفعل النحت والتعرية البحرية وبالتريبح الوئيد ولكن الأكيد (٥).

حتى تكتمل أمامنا بانوراما ، جغرافية مصر جنوب مدينة أسوان يجب الحديث عن مفيض توشكى الذى يقع إلي الغرب من بحيرة ناصر بنحو ٤٥ كيلو متر ، وجنوب السد بنحو ٢٥٠ كيلو متر ، وشمال الحدود السودانية بنحو ١٠٠ كيلو متر ونكون بذلك فى منتصف المساحة تقريباً بين النيل والنهاية الجنوبية لمنخفض الواحات الخارجية وهو يشكل منخفض طبيعى بيضاوى . يعد بمثابة منطقة انتقال بين منخفض وادى النيل ومنخفض الواحات الخارجية . هناك رأى (جدلى بحت) يقول : (أن المنخفض وأيضاً الواحات الخارجية ، كان متصلاً بالنيل فى الماضى الچيولوچى أو التاريخى (٦) . يصل قاع المنخفض أى منسوب ٨٠ مترا فوق سطح البحر وجملة مساحته حوالى ١٧ ألف كيلو متر مربع وتصل سعته المائية إلى حوالى ١٢٠ مليار متر مكعب . بعد إتمام شق قناة توشكى بطول ٢٢ كيلو متر تحول المنخفض إلى مفيض ممتاز . وأصبح يمثل احتياطى آمن أو خط دفاع وقائى لبحيرة ناصر . حيث يحول إلى المنخفض الفائض الزائد عن مستوى التشغيل المقرر وهو ١٧٥ متراً . طبعاً بالإضافة إلى الفوائد العديدة للمفيض بجانب الآمن المائى ضد الفيضانات العالية وأيضاً الفيضانات المنخفضة بإعادة المياه من بحيرة توشكى إلى بحيرة ناصر حين الحاجة وإذا لزم الأمر . بهذا يكون المفيض بمثابة خزاناً تكميلياً لخزان البحيرة الرئيسى ومعامل أمان فى نفس الوقت .

الأخطار والآثار الجانبية للسد والبحيرة :

يمكن تلخيص الآثار الجانبية الناتجة عن السد العالى فى أربعة مشاكل رئيسية . المشكلة الأولى هى غياب الطمى وتأثير هذا الغياب على التربة وخصائصها النوعية . يترتب على ذلك المشكلة الثانية وهى كل سواحل الدلتا الشمالية وتراجعها فى بعض النقاط رغم أنها لا تمثل خطورة حقيقية فى المدى المنظور . المشكلة الثالثة هى التعدية النهرية أو ما يعبر عنها (بالنحر) ترجع فى الأساس إلى غياب الطمى مع زيادة كمية المياه المتدفقة فى النهر . والتعرية تنقسم إلى أفقية تهدد جوانب النهر والجسور المقامة عليها وتعرية القاع الرأسية فتعنى هبوط قاع النهر وما يصحبه من هبوط لمستواه بالإضافة إلى تهديد البخر على المدى البعيد بتآكل جذور وأساس المنشآت الهندسية المقامة على النهر مثل القناطر والكبارى ، أما الرابعة فهى تفاقم مشكلة الصرف فى الأرض الزراعية إلى حد خطير وما يترتب عليها من زيادة فى نسبة ملوحة التربة وارتفاع لمنسوب المياه الجوفية (تطبيل الأرض) نتيجة لثبات مستوى الماء فى النهر على منسوب عالى نسبياً وصل بالتربة إلى مستوى التشبع أو النشع . بطبيعة الحال كانت هذه الآثار الجانبية مأخوذة فى الاعتبار عند التخطيط للمشروع . فهى ظاهرة حتمية فى مشروع هندسى مثل حجم مشروع السد العالى وعلى هذا الأساس وضعت الدراسات لمواجهتها وعلاجها فى سبيل التقليل من أخطارها . كان من أهم الخطوات لمعالجة الآثار الجانبية للسد العالى هو إنشاء معهد علمى يحمل نفس العنوان أى (معهد الآثار الجانبية للسد العالى) لذا لم نتعرض بالتفصيل لهذه الآثار والحلول العلمية المقترحة للتغلب عليها .

ننتقل إلى الموضوع الأكثر خطورة وهو الأخطار التى تهدد جسم السد العالى ويمكن لنا تصنيفها إلى نوعين من الأخطار . النوع الأول وهو ما نطلق عليه الأخطار الطبيعية ونقصد بالتحديد الزلازل والهزات الأرضية العنيفة ، أما النوع الثانى فيتمثل فى العدوان المباشر على جسم السد العالى ومحاولة تدميره .

(أ) النوع الأول من أخطار الزلازل والهزات الأرضية :

تعرضت منطقة أسوان والسد العالى لموجة من الهزات الأرضية متفاوتة الشدة . بدأت يوم ١٣ نوفمبر ١٩٨١ بأربعة زلازل عنيفة أدت إلى تصدع عدد من المبانى وانهيار بعض المبانى القديمة . كانت الهزة الأولى مركزها البحر الأحمر فى المنطقة النشطة التى تقع وسط عرض ٢٠ درجة وتبعد فى الاتجاه الجنوبى الشرقى لأسوان بمسافة ٦٠٠ كم . كانت شدة الهزة ٥ درجات بمقياس ريختر . والهزة الثانية وقعت فى منطقة وادى الحنافيت على ساحل البحر الأحمر التى تعتبر عادة زلازل تابعة للزلزال الرئيسى ، كانت من بينهما هزتان متوسطتا القوة بقوة ٤,٦ درجة .

فى اليوم الثانى أى ١٤ نوفمبر وقعت هزة شدتها ٥ درجات ، ثم حدث الزلزال الرئيسى الذى اختلف حول تقدير شدته المختصين فى علم الزلازل حيث تراوح تقديرهم بين ٦,٢ درجة ريختر إلى ٦,٥ درجة وهى بداية الخطر كما ذكر د. مصطفى كمال حلمى وزير التعليم والبحث العملى أمام مجلس الشعب [٧] كما اختلفت الأراء حول أسباب هذه الموجة من الزلازل ، يقول د. رفعت شريف أستاذ الچيولوچيا بكلية علوم أسوان : حتى اليوم لم يثبت علمياً أن بحيرة ناصر هى سبب الزلزال ، والذى حدث هو مجرد هزات أرضية كصدى لزلازل كبيرة تحدث فى البحر الأحمر باعتباره منطقة نشطة زلزالية . والدليل على أن البحيرة ليست مسئولة عن هذه الهزات أن جميع الدول التى تقع على خط عرض ٢٠ (مركز الهزات) قد تعرضت مع أسوان فى هذه الهزات . على العكس فالمهندس أحمد قاسم يقول : أن كتلة المياه التى سوف تتجمع أمام السد والتى يبلغ عمقها أكثر من ٥٠ متر ومساحتها عند السطح حوالى ٥٠٠٠ كم٢ ، حيث يبلغ وزن الماء فى البحيرة إلى حوالى ٥٠٠ مليون طن . هذا الوزن له تأثير مباشر على قاع البحيرة ذات التركيب الچيولوچى غير متجانس ففى بعض المناطق نجده رسوبياً وفى البعض الآخر نارياً . ينزل الضغط الكامل رأساً إلى أن يصطدم بالصخور النارية ويتحول هذا الضغط إلى ضغط أفقى ينتقل بسرعة ٦٠٠ كم / ثانية إلى منطقة أسوان على هيئة موجات تضاغطية صوتية تشعر بالهزات الأرضية " .

فأى زيادة فى مستوى المياه مؤشر إلى توالد هزات أرضية حتى يستقر قاع البحيرة تماماً . ثم كان هناك شبه اتفاق على السبب الحقيقى وراء الزلازل هو (فالق كلبشة) على بعد ٧٠ كم إلى الجنوب من أسوان ، فهو فالق صخرى نشط ورغم وجود هذا الفالق منذ ٥٠ مليون سنة لم يتم أكتشافه علمياً إلا عام ١٩٦٣ أى بعد ثلاثة سنوات من العمل فى بناء السد العالى . يضيف د. الشافعى بشير (إذا كان هناك فالق فى الأرض كما هو موجود تحت بحيرة ناصر فإن البحيرة عامل أساسى وحاسم فى الزلزال . هذا الفالق ، عندما وصل التخزين فإن البحيرة عامل أساسى وحاسم فى الزلزال . هذا الفالق ، عندما وصل التخزين إلى ما وصل إليه حدث الزلزال درجة ٦,٥ ريختر . علمياً ثبت وجود فوالق أرضية عرضها أساتذة الجيولوجيا ودهش منها أساتذة الزلازل فى مصر لأنهم كانو يضعون معلوماتهم على خريطة من عام ١٩١٣ أثبتوا أن الفوالق موجودة تحت البحيرة وتحت منخفض القطارة وأظهروا أن هذه البحيرة وكذلك منخفض القطارة إذا أمتلئ ببحيرة أخرى فسوف تحدث زلازل أخرى بسبب هذه الفوالق . بالإضافة إلى أن هناك تصدعات خطيرة فى الجبال الجرانيتية حول منشآت السد نتيجة للزلازل .

إذن كيف يواجه السد العالى هذا الخطر الكبير المتمثل فى الزلازل ؟ يقول د. ويليم كامل وكيل أول وزارة الرى لشئون الخزانات والقناطر الكبرى : أولاً نهر النيل مكون من أخدود ناتج عن كسر چيولوچى فى القشرة الأرضية . وبالمثل البحر الأحمر . يقطع هذا المجرى كسورا أخرى فيها نشاط زلزالى موجود فعلاً، قيل وهذا معقول جداً أن ثقل البحيرة ليس هو السبب فى الزلازل ولكن البحيرة أطلقت هذا النشاط ، وأنتهى هذا النشاط الزلزالى ولكن الخطر قائم بسبب ضغط وزيادة الماء حتى لو لم يبنى السد العالى ، الناحية الثانية أن السد العالى مصمم لمقاومة أقصى زلزال يمكن أن يحدث مضروباً فى مرة ونصف " [٨] . أى أن جسم السد العالى يتحمل ٨ درجات على مقياس ريختر ومعدل أمان ١,٥ وذلك من ١٤ درجة هى كل المقياس . كما يضيف د. عبد الهادى راضى " أن تصميم السد العالى وكونه سد ركامى ، هو أكثر السدود أماناً لمقاومة الزلزال .

ومع ذلك أرقام التصميم التى صمم عليها السد العالى وهى ٨ ريختر لمعادل أمان ١,٥ وهذه مؤكد ١٠٠٪ معنى ٨ مضروب فى ١,٥ يعنى أن السد العالى يتحمل ١٢ ريختر" (٩) فقد تم تشكيل لجنة دولية دائمة تمثل جميع الاتجاهات ومختلف المدارس العلمية فى مجال الزلازل ، هدف اللجنة الأول هو مراجعة الموقف فى منطقة السد والبحيرة كل ثلاثة أشهر ومتابعة الأعمال التنفيذية بالنسبة للدراسات التى تجرى فى مجال الزلازل . يبقى سؤال لم يجب عليه أحد من الخبراء أو المتخصصين وهو : ما هى الاحتياطات الواجب إتخاذها فى حالة حدوث انهيار لجزء فى كل جسم السد العالى ؟ يبقى السؤال سيف مسلط فوق رأس مصر .

(ب) النوع الثانى من الأخطار : العدوان المباشر على السد العالى .

لقد طلب الرئيس جمال عبد الناصر عند تصميم السد العالى أن يكون جسم السد قادراً على تحمل انفجار القنابل النووية ، يضيف د. صلاح شاش "فى هذا الوقت طلبت رفع حماية السد العالى ضد القنابل النووية ، ويكتفى بالحماية فقط ضد القنابل العادية . وكانت وجهه النظر هى أنه عندما نضرب قنبلة نووية فى أى بلد ، فإن كل شئ يدمر . والسد العالى محمى ضد الزلازل التى تأتى من تحت الأرض وأيضاً محمى من الزلازل التى تأتى من فوق الأرض" (١٠) لكن د. جمال حمدان يطرح وجهة نظر مضادة فى هذا السياق فيقول : "إلى جانب هذا الخطر الطبيعى الباطنى أو الأرض (يقصد الزلازل) هناك خطر ضرب السد بالقنابل من الجو فى الحروب ". وليس بعيداً عنا ما جرب أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ والتهديد الصريح أو التلميح باستخدام الميزانية للأسلحة النووية التى يشك أحد فى امتلاكهم لها وبالتحديد ضد السد العالى وذلك لوقف القوات المصرية فى سيناء فى الأيام الأولى من الحرب . إذا ومهما كشفنا من حلقات الدفاع الجوى الفائق التطور حول السد ، والحديث للدكتور حمدان ، فإنه لا يستبعد الخطر تماماً " ومما له مغذاه أن الخبراء السوفييت الذين تولوا بناء السد نصحوا مصر بتفريغ بحيرة ناصر ٦٠٠ مليون متر مكعب فى اليوم لتصفيتها بسرعة فى حالة الحرب أو التهديد بها ، رغم أن هذا المعدل جدير بأن يخرب الوادى والمجرى كله شمال السد " (١١) .

ثم يضيف د. جمال حمدان "أن السد يمثل مغامرة كبرى تصل إلى حد المغامرة ، أن لم يقل البعض المقامرة . والإشارة هى بالطبع إلى احتمالاته المستقبلية الفاحصة وكل ما يجازف به من تغيير مجهول النتائج والمدى فى طبيعة النهر والوادى يتعلق بصميم الوجود الطبيعى لمصر ذاته ، إن لم يكن الوجود القومى المصرى ذاته فأولا ، هناك التهديد بالدمار الذى ستعيش مصر تحت رحمته إلى أجل غير مسمى . فبحيرة ناصر ١٢٠ مليار متر مكعب على الأقل - ككتلة مائية جبارة تستقر فى أقصى جنوب مصر وعلى أعلى ارتفاعها أى على كتفها أو رقبتها أو رأسها هى أشبه ما يكون قنبلة ذرية معلقة فوق رأسها قد تتفجر فى أى لحظة ، إذ "لو حدث ما يؤدى إلى انسياب المياه بلا رابط من البحيرة فإن التخريب الذى تحدثه فى مصر سيكون أضعاف ما أحدثته قنبلة هيروشيما . الخلاصة أن السد العالى وأن كان قد تحاش الموقع خارج حدود مصر وحقق شرط الموقع سياسياً ، فإنه لم يفلت من أخطار الأمن القومى لا طبيعياً ولا عسكرياً "(١٢) .

بعد هذا العرض يبقى أمامنا تحديد عدد من المتغيرات التى يشكل توافرها إخراج هذا من حيز الفرضية النظرية إلى مجال التنفيذ الفعلى .

المتغير الأول .

يتمثل فى اعتقادنا بالظروف الدولية المواتية التى تتيح للعدو الصهيونى أستخدام مخزونه من الأسلحة النووية ضد مصر وبالتحديد ضد السد العالى . وقد يلجأ العدو الصهيونى إلى مثل هذا العدوان فى حالة إمتلاك مصر لقدرات نووية حقيقية أو وقوعها صدام مسلح ناتج عن اختلال ميزان القوى بين العرب وإسرائيل ، وكلها احتمالات قائمة للتحقيق .

المتغير الثانى :

يتوقف على نوعية وحجم القنبلة المتاحة والقابلة للاستخدام ضد السد العالى وأيضاً كيفية التفجير (باطنى ، سطحى ، جوفى) ووسائل النقل من قاعدة الانطلاق إلى الهدف (طائرة أم صاروخ) وفى نهاية الطاقة التدميرية لهذه القنبلة المستخدمة .

المتغير الثالث :

الهدف ، هل سيكون جسم السد العالى أم قناة التحويل ومحطة التوربينات . وهذا يتوقف بطبيعة الحال على دقة التصويب المتوقفة هى الأخرى على وسيلة النقل المستخدمة . للأسف لم يتعرض خبراء الاستراتيجية العسكرية من بعد بحث ثان الحصول على دراسات منشورة تتناول مثل هذا الموضوع الخطير لذا فنحن نطرح أمام خبرائنا العسكريين هذه القضية القومية كمجال للبحث والدراسة. نخلص من العرض السابق لكل من الآثار الجانبية والأخطار التى تهدد السد العالى وبحيرة ناصر إلى جدية المخاطر التى يتعرض لها السد والبحيرة . بالإضافة إلى الآثار الجانبية الأقل خطورة فى المنظور القريب ، ولكن يجب أن تأخذ بكل جدية على المدى البعيد .

السد العالى وبحيرة ناصر فى إطار الأمن القومى :

فى المرتبة الأولى ، وتتكامل إلى حد بعيد مع الدائرة الأمنية لدول جنوب شرق أفريقيا (خاصة دول حوض نهر النيل) . لقد وضعت حقائق الموقف الجيوستراتيجى أن أمن مصر بحجمها الطبيعى ودورها القيادى فى هذه المنطقة من العالم يصبح مهدداً فى حالة انعزال ، بمعنى فرض العزلة أو حصار مصر عن امتدادها الطبيعى وعن التواصل المستمر والخلاق مع محيطها العربى والأفريقى . إذا كلما امتدت الجسور بين مصر وأطرافها العربية المحيطة : كلما تدعم الأمن القومى المصرى ، والعكس صحيح فالعمق الإستراتيجى المصرى امتد غرباً إلى ليبيا والمغرب العربى . وجنوبا إلى السودان ومنابع النيل وحتى باب المندب أمام چيبوتى واليمنيين . ولا بد له وأن يكتمل شرقاً بالأتصال الحر والدائم ببلاد المشرق العربى . دون عوائق صناعية من أى نوع - نقصد هنا إسرائيل . ولقد أكدت هذه الحقائق النتائج العسكرية لحرب أكتوبر ٧٣ حين وضعت نظرية الأمن القومى (العربى) على المحك [illegible] للتجزئة . بنفس القدر الذى زعزعت به نظرية الأمن الصهيونية والعلاقة بينهما تقوم على حتمية نفى أحدهما للأخرى .

التجربة التاريخية العميقة والطويلة التى عاشتها مصر ، أكدت على حقيقتين تشكلان طرفى المعادلة الاستراتيچية المصرية . الحقيقة الأولى هى أن خطوط الدفاع الأخيرة عن الدلتا والوادى يجب أن تكون فى أقصى الشمال الشرقى (وهو الأتجاه التاريخى والمعاصر للغزوات والتهديد العسكرى المصرى) عند خط رفع على أقل تقدير . أما الحقيقة الثانية فتتلخص فى التأمين والدفاع عن منابع النيل – أصل الحياة – فى أقصى الجنوب محور معادلة الأمن العسكرى فى الشمال الشرقى والأمن المائى فى الجنوب فكما قدم السد والبحيرة حلاً موضوعياً لأشكالين الأمن المائى ، ترتب عليه زيادة نسبة الأخطار المحتملة على الأمن القومى طبيعياً وعسكرياً فى آن واحد . لذا يجب إعادة النظر جذرياً فى أستراتيچية الأمن المصرى وفقاً للمعطيات والأوضاع المستمدة فى المنطقة . بمعنى آخر مع الأعتراف بحقائق أم ثوابت الچيوبوليتك المصرية ، آخذين فى الأعتبار المكان الچيواستراتيچى للسد والبحيرة . من هذا المنطلق يجب التعرف من جديد على متغيرات أوضاع بقية دول وادى النيل . وإدخال هذه المتغيرات كعناصر أساسية فى إعادة رسم إستراتيچية الأمن القومى المصرى . فى هذا السباق لا يمكننا إغفال العلاقة العميقة بين الأمن القومى المصرى وبين الأمن الأجتماعى على المستوى الإقليمى لدول وادى النيل . وما يشكلة أرتباط دول وادى النيل مع قوى أجنبيه طلباً للمساندة العسكرية ، الأمر الذى جعل وادى النيل إحدى ساحات الحرب الباردة فى أفريقيا ، بالإضافة لتعدد التغيرات الانقلابية والاضطرابات والدعوات الثورية بسبب عوامل داخلية وخارجية [١٣] ففى الفترة الحالية تتحرك الدول الأخرى فى وادى النيل – وهى دول غير عربية – فى ظروف مواتية تمنحها قوة نسبية فى إطار التميز العام الظاهر فى شبكة العلاقات المتبادلة ومراكز القوى بين دول الوادى . ومن معالم هذا التغير العام أشار د. عودة إلى مشكلة العلاقات المصرية السودانية . والى دور وسياسات القوتين العظميين وسياسات الدول التابعة لها أسيا وأفريقيا من خلال الاختراق والتسلل فى الوادى ، ومن خلال استخدام معونات الغذاء والسلاح وعدم الاستقرار [illegible] والاقتصادى . بالإضافة إلى فشل مشروعات الزراعة العربية فى السودان باسم العمل العربى المشترك أو باسم الإسهام المالى للدول العربية البترولية [١٤] .

يضيف د. عودة أن اتفاقية ١٩٥٩ تعنى توصل مصر والسودان إلى حل لتوزيع المياه بينهما وأيضاً صيغة أو تصور للأمن القومى لكل منهما . وبذا أصبحت الاتفاقية بمثابة المحور فى تصور السياسة المصرية [١٥] . لذا يجب اعتبار الاتفاقية وأيضاً السد العالى مجرد حلقة من سلسلة طويلة من المشروعات المترابطة فى جميع دول الوادى . كهدف للبحث عن استراتيجية مائية متكاملة لوادى النيل ككل . هذا يتطلب إطاراً سياسياً على مستوى قيادات ورئاسات هذه الدول . فى النهاية يقترح د. عودة لمواجهة تلك الأزمة المتنامية "ضرورة دعم وبناء علاقات متبادلة على مستوى ثنائى وعلى مستوى جماعى تحت مظلة منظمة الوحدة الأفريقية . ومن خلال نص الاتفاقية الأفريقية للمحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية التى أقرها مؤتمر القمة الأفريقى فى سبتمبر ١٩٦٨ . كما أن المدخل الوظيفى فى التعاون الإقليمى هو الذى يقبل التنوع ويعمل فى ذات الوقت من أجل مصلحة مشتركة متبادلة . إذن على السياسة المصرية التحول من العمل على أساس القاعدة المحورية الواحدة إلى العمل على أساس تعدد القنوات وتنوع المراكز العلنية والمتبادلة على قدم المساوة مع جميع الدول فى وادى النيل . وإن هذا التحول - كمبدأ عام - لا يمنع من إنشاء مستويات للعلاقات الثنائية ومستويات للعلاقات متعددة الأطراف فى إطار جماعة مائية نيلية " [١٦] .

المجرى الجديد للنيل

ترتيباً على المعطيات السابق عرضها ، نصل إلى مشروع "شق مجرى جديد للنيل" الذى نعتقدَ بأنه يمثل الحل الأمثل لتلافى معظم الأخطار والآثار الجانبية الناتجة عن السد العالى وبحيرة ناصر . ليس فقط على صنعيد الأمن القومى بل أيضاً - وهو الأهم - على صعيد التنمية المجتمعية الشاملة . ونقصد بالتنمية الشاملة هنا أولاً التنمية الاقتصادية لجميع قطاعات الاقتصاد الوطنى . ثانياً التنمية الإجتماعية لكل طبقات المجتمع ومختلف فئاته . ثالثاً التنمية الثقافية بمعنى الارتقاء الفكرى لكل طبقات الشعب وليس لطبقة أو فئة محظوظة فقط ... أخيراً التنمية السياسية وصولاً إلى الإدارك والوعى السياسى السليم والمشاركة السياسية الفعلية والفعالة فى إتخاذ القرار السياسى الذى يمس

مصالح ، بل وجود أغلبية الشعب ، وصولاً لجعل المجتمع أكثر ديناميكية وتجاوباً مع معطيات العصر . إذن فالتنمية الشاملة هى محصلة الجمع بين أنواع التنمية المختلفة وضرورة التكامل بينها . نعود إلى فكرة المشروع التى يمكن عرضها وفقاً للتصور التالى . شق قناة صناعية من على بحيرة ناصر جنوب السد العالى بالتحديد عند منطقة كلابسة - التى تمثل أخدود مائى داخل الصحراء الغربية ، بغرض توفر الشروط الهندسية ، على أن تصل هذه القناة (المجرى الجديد) كمرحلة أولى إلى الواحات الخارجة . ثم فى المرحلة الثانية يصل المجرى الجديد إلى الواحات الداخلة ومن ثَم إلى واحة الفرافرة . إلى أن تصب فى منخفض القطارة كمرحلة أخيرة . بدء منسوب القناة عند بحيرة ناصر فى جنوب الوادى إلى ٢٠٠ متر فوق سطح البحر حتى يصل المنسوب عند منخفض القطارة إلى الصفر وهو تقريباً نفس المنسوب فى وادى النيل من السد العالى وبحرة ناصر وحتى السواحل الشمالية لمصر على البحر المتوسط .

قد يكون المجرى الجديد المقترح بمثابة أحياء لل "بحر بلا ماء" الذى تواتر ذكره فى الروايات التاريخية والمحلية غرب النيل بالصحراء الغربية وأعتبر مجرى النيل القديم . وقد رسم كايو هذا المجرى بالفعل كخط موازى تقريباً لمجرى النيل الحالى ، يبدأ من قرب تليه كورسكو - الدر بالنوبة ثم يتجه شمالاً مارا إلى الشرق من الواحات الخارجة ثم البحرية ، ثم يستدير ليمثل مجرى الوادى الفارغ خلف وادى النطرون حيث انتهى وشيكاً فقرب صحراء غرب الدلتا ، كما أضاف إليه رانفيراً صغيراً من الجنوب الغربى يبدأ من الواحات الداخلة إلى أن التقى به قرب الواحات البحرية إلى أن المجرى القديم يكاد يلم واحات الصحراء الغربية الرئيسية وواديه (١٧) أو قد يكون أحياء لما سمى بالنيل الليبى القديم ، رغم اختلاف الچيولوچيون على التسميه واختلاف الجغرافيون على موقع النيل الليبى القديم . المؤكد علمياً الآن ، وفقاً لرأى الدكتور حمدان هو وجود وادى أو عدة أودية جافة فى الصحراء الغربية تصل بطريقة أو بأخرى بين الواحات الموجودة لها . إذا فى حالة التثبيت من هذه الفرضية ، يمكن استخدام هذه الأودية الجافة أو تبطينها لمنع تسرب المياه فى رمال الصحراء ومن ناحية أخرى تقليل تكاليف حفر المجرى الجديد فى مناطق تلك الأودية . بالإضافة أننا لن

نحتاج إلى عمليات حفر معقدة لتجاوز سلسلة من الجبال مثلاً . القناة أو المجرى الجديد المقترح لابد أن يلتف من خلف سلسلة الهضاب الغربية ويقطع الصحراء المنبسطة أمامها . والإستفادة من الفارق الكبير فى الميل بين منطقة السد والبحيرة وبين منطقة منخفض القطارة نحو ٢٠٠ متر فى سرعة تدفق المياه فى المجرى المقترح .

قبل الإضافة إلى الخطوات التنفيذية للمشروع . لابد من طرح المشاكل والعقبات التى تعترض تحويل الفكرة أو الخروج بها من التفكير النظرى المجرد إلى حيز التنفيذ العملى . تلك المشاكل يمكن إيجازها فى ثلاث : الموارد المائية المتاحة ، الآثار الناتجة عن المشروع على علاقة مصر ببقية دول حوض النيل ، الصعوبات الفنية للتنفيذ . نتناول فيما يلى باختصار العقوبات الثلاث .

(أ) الموارد المائية المتاحة .

إن حصة مصر الحالية من مياه النيل تبلغ ٥٥,٥ م م٣ فى السنة تصل إلى ٥٧,٥ م م٣ بعد الانتهاء من مشروع قناة جو نجلى ، يستخدم منها حالياً فى الزراعة نحو ٤٨ : ٥٠ م م٣ والباقى فى الأغراض الصناعية وتوليد الكهرباء والخدمات المختلفة . كما يمكن توفير نحو ٩م م٣ من مشروعات أعالى النيل (السوباط وبحر الزراف) بالإضافة إلى ٦,٢ م م٣ من مياه الصرف بعد معالجتها. أيضاً يمكن الوصول بكمية المياه المستغله من الخزان الجوفى بالوادى والدلتا حوالى ٤,٩ م م٣ . ومن تطوير مشروعات الرى يمكن تحقيق فائض قدره ٢م م٣. إذا يمكن أن يزيد الوفر من مياه النيل إلى حوالى ٢٠م م٣ وفى تقريرات أخرى حوالى ١٦,٧ م م٣ . هذا مع تثبيت نسبة الاستخدام على معدلات ٨٥ - ١٩٨٦ بطبيعة الحال ، هناك تضارب شديد فيما يتعلق بقضية الموارد المائية المتاحة ومدى كفايتها لإحتياجات مصر فى الحاضر والمستقبل ، على سبيل المثال ذكر المهندس عصام راضى وزير الزراعة المصرى أن هناك عجز فى إيراد النيل يقدر بسبعة مليارات متر مكعب هذا العام [١٨] حيث تشير تنبآت هذا العام بأن الإيراد سيكون أقل من المتوسط وسيبلغ الوارد عند أسوان حوالى ٤٨,٥ م م٣ وهو أقل من حصتنا المائية بحوالى ٧ م م٣ ، سيتم تعويض النقص فى الإيراد

المائى من المياه المخزونة أمام السد العالى ومن إعادة إستخدام مياه الصرف والمياه الجوفية وتحسين نظم الرى .

ويقدر الدكتور سعيد حافظ الموارد المائية القصوى الممكن توفيرها حتى عام ٢٠٠٠ تكون فى حدود ٧٧ م م٣ موزعة على النحو التالى : ٥٥,٥ م م٣ حصة مصر من ماء النيل والسد العالى ، ٥, م م٣ من المياه الجوفية بالدلتا ، ١٢م م٣ من مياه الصرف ، ٩ م م٣ من مشروعات أعالى النيل [١٨] . إذا يكون توفير القدر الأكبر من الموارد المائية الإضافية ملقى على عاتق مياه الصرف ومياه مشروعات أعالى النيل .

يتضح مما سبق ، عدم اتفاق خبراء الرى حول إشكالية كفاية الموارد المائية لأحتياجات مصر وهل هناك فائض حقيقى يمكن استخدامة ، أم هناك عجز أو فاقد يقدر بحوالى ٩,٨ م م٣ وفقاً لرأى د. سعيد حافظ ، ترتيباً على هذا التضارب ، يجب عمل دراسات فنية متكاملة تحدد وبدقة الموارد المائية المتاحة وأوجه الاستخدام المختلفة له ، طبقاً للاحتياجات الحاضرة والمستقبلة ، وأيضاً تحدد الفائض من هذه الموارد على المدى البعيد .

(ب) المجرى المقترح فى إطار علاقات مصر ودول حوض النيل

بادئ ذى بدء يجب أن يطرح مشروع المجرى الجديد للمناقشة والتفاوض مع بقية حوض نهر النيل . مع الأخذ فى الاعتبار العوامل التالية : إن المشروع يقع بكامله فى الأرض المصرية وهو بذلك يختلف على طول الخط مع اقتراح الرئيس السابق بمد إسرائيل بمياه النيل ، بما أسماه بترعة السلام . ومن ناحية أخرى سوف ينفذ المشروع إقتطاعا من حصة مصر المائية فلا نتوقع أن تسير دول حوض النيل صعوبات أو تقع أمامه عقبات قانونية ، فمن حق مصر أن تنقل حصتها من المياه إلى أى منطقة تختارها داخل حدودها . وكما سبق الإشارة يجب أن يمون المشروع فى إطار العلاقات الودية والتعاون والتكامل للمصالح المشتركة بين كل دول حوض وادى النيل تحت مظلة منظمة الوحدة الأفريقية .

(جـ) الصعوبات الفنية للتنفيذ

تجب الإشارة إلى ضرورة تكوين هيئة علمية على أعلى مستوى ، تضم الخبراء والمتخصصين فى جميع المجالات المتعلقة بهذا النوع من المشروعات . فالإسهام الفردى يبقى فى حيز طرح الفكرة والتنبيه إلى أهميتها وإلى خطورة ما تعالجه من قضايا ، مثل هذه القضية القومية ، أى أخطار السد العالى وبحيرة ناصر على الأمن القومى المصرى . إذ أن الدعوة مفتوحة للحوار وإبداء الرأى فى هذه الفكرة والمشروع لجميع الاساتذة والخبراء فى مختلف التخصصات . فلقد أغفلنا مناقشة الأبعاد الفنية فى تفاصيلها الدقيقة وذلك لصعوبة أن يعالج المتخصص فى العلوم السياسية موضوعاً يتسم بتعقيد فنى شديد وعلى جانب عظيم من الأهمية والخطورة فى آن واحد .

الفرع الثالث للنيل واستراتيجية التنمية

بداية يجب ربط استراتيجية مصر المائية باستراتيجية مصر التنموية ، تقليداً تحتل استراتيجية مصر الزراعية الماكنة الأولى داخل استراتيجيتها التنموية ، مما أدى إلى تراجع استراتيجية التصنيع إلى المرتبة الثانية . لذا يجب إعادة النظر فى هذه المعادلة المقلوبة داخل أستراتيجية التنمية المصرية وتصحيح الوضع باعتبار التصنيع هو القاعدة الأساسية للتنمية وليس الزراعة . نعنى بذلك أن التصنيع سوف يوفر لمصر إمكانات فنية عظيمة يمكن الاستفادة منها فى أحداث تغيرات هيكلية فى جميع قطاعات التنمية وبخاصة فى استراتيجية مصر الزراعية . فى حالة بقاء استراتيجية مصر التنموية كما هى عليه الآن إذ يكون المشروع المجرى المقترح للنيل حتمية قصوى بما يمثلة من إضافة جوهرية تعادل الوادى القديم داخل استراتيجية مصر الزراعية .

نتطرق الآن إلى الإسهامات الفعلية للفرع الثالث المقترح للنيل .

ما يقرب من الألف كيلو متر طوليا من المياه العذبة ، تخترق الصحراء على بعد يتراوح فى المتوسط بين ٥٠ , ١٠٠ كيلو متر إلى الغرب من الوادى القديم - مجرى النهر الحالى - المياه العذبة كما نعرف هى أصل الحياة والبقاء معا . إذا المعطية الأولى ، تتخصص فى خلق الحياة على ضفاف الوادى الجديد . بما يعنى

قبل كل شئ إخراج الإنسان المصرى من واديه الضيق القديم لأول مرة منذ تاريخه السحيق إلى أرض جديدة ليس كمهاجر خارج الحدود . ولا كيد عاملة أجيرة لدى الغير ... بغض النظر عما يكون هذا الغير ... يعنى ذلك استصلاح وزراعة ما يقرب من ٦ مليون فدان والاستفادة من الثروات المعدنية من اعتبار التزايد السكانى بمثابة كارثة قومية ويتحول هذا الكم الهائل إلى ثروة بشرية نعتز بها ، ونعمل جهد الطاقة إلى تمويلها إلى كيف منتج ، التقدير المبدئى أن يستوعب الوادى الجديد ولا يقل عن ١٥ مليون نسمة . أما النتائج الاقتصادية فلا حصر لها ، مثل خلق تجمعات صناعية لاستغلال الثروات الهائلة الموجودة فى الصحراء الغربية كالفوسفات والحديد : وأيضاً البترول . تصنيع المحاصيل الزراعية ، أن إضافة ما يعادل مساحة الأرض الزراعية الحالية (حوالى ٦,٥ مليون فدان) يخرجن من دائرة احتياج الحنطة وما يتبعه من تبعية لم يعطينا أحتياجاتنا من الحبوب فلا يمكننا فى هذا المجال الفصل بين الاستقلال الأقتصادى إلى جانبه الزراعى وبين الاستقلال السياسى فى معناه العام . أيضاً للمشروع نتائجه الإجتماعية ، فعلاوة على سحب الفائض البشرى من الوادى القديم وما يمثله من عبء . سوف تصبح العلاقات الإجتماعية أكثر يسر ونتخلص من التوتر العصبى الذى تعانى منه مدننا الكبرى ذات العشرة ملايين نسمة : حتى نصل إلى تركيبة "چيوديموجرافية" تقوم على توازن جديد ثنائى البعد بدلاً من الحصار المزمن فى الوادى القديم . المعطية الثانية ، وهى محور الاهتمام والعامل الأساسى وراء التفكير فى المشروع . تتخلص فى تلافى أخطار عدوان الطبيعة والبشر على السد العالى ، وهما النوعان الرئيسيان من الأخطار أى الزلزال والهزات الأرضية العنيفة بالإضافة إلى العدوان المباشر على السد بقصد تدميره . وهو ما سبق أن فصلناه . أما المعطية الثالثة فالعلاقة الجدية والوثيقة بين دواعى وضروريات الأمن القومى وبين متطلبات استراتيجية التنمية . فلقد تحدثنا كثيراً عن أنواع شتى من الأمن .. وكم كنا بعيدين عن الكلمة معنى ومفهوماً . أيضاً تحدثنا أكثر عن غزو الصحراء وبناء المجتمعات الجديدة ولم يكن لحديثنا أى مصداقية .

لنا أن نطرح بعد التصورات المبدئية لعناصر وخطورة التنفيذ :

التصور الأول - العنصر البشرى .

من المعروف أن أكثر من ٦٠ ٪ من القوى العاملة المصرية مازالت الزراعة هى مجال الإنتاج الاقتصادى الوحيد أمامها . حيث تعانى هذه النسبة من أنواع البطالة المختلفة (موسمية ، مقنعة مباشرة ، أيضاً فنيه) . إذا يمكننا بالتخطيط السليم سحب جزء كبير من الأيدى العاملة الزراعية المعطلة كى نوجهها على مدار العام إلى المشروع . بالإضافة طبعاً للأعداد الهائلة التى تتخرج فى معاهد العلم المختلفة وتنتظر كثيراً كى تجد فرصة عمل فى أحد دواوين الحكومة كما يمكن استيعاب العمالة الزائدة عن حاجيات الإنتاج فى قطاع الصناعة تلك التى توصف درعاً للأخطار السخط الإجتماعى أو على الأقل من قبيل الإحسان الإجتماعى .

بخلاف الأجيال الناشئة ، فقد ذكر مشكلة الأنفجار السكانى . أيضاً لا يغيب عن الذهن الأعداد الهائلة من العمالة المهاجرة - ومعظمها فنية مدربة - خاصة وقد قارب عصر البترول على الانتهاء ، مما يراكم من المشكلة السكانية وقصور أستيعاب هذه القوى العاملة من جديد فى إطار هذه العملية الإنتاجية . إذن سوف نجد مصادر العنصر البشرى وبوفرة فى مجالات عديدة يحددها مرة ثانية للتأكيد :

١ - العمالة الزراعية العاطلة بمختلف أنواعها .

٢ - خريجو المعاهد والجامعات والثانويات الفنية المنتظرين دور التعيين .

٣ - العمالة الشابة التى تدخل سنوياً سوق العمل .

٤ - العمالة الفائضة على دواعى الجدوى الإنتاجية الفعلية فى قطاعى الصناعة والخدمات .

٥ - العمالة المهاجرة خارج أرض الوطن والتى يطول موعد عودتها .

التصور الثانى - الإمكانات المادية .

قد نتوقف كثيراً أمام مشكلة نقص الموارد بمعنى نقص رؤوس الأموال المخصصة للإستثمار فى المشروعات التنموية المختلفة . لذا يجب البدء بتوفير التمويل المحلى بتوجيه المدخرات إلى المشروع بدلاً من المضاربة بها فى العقارات أو السوق السوداء فلابد أن يكون عنصر التمويل وطنياً فى الأساس - فى مثل هذا المشروع القومى - وقد يكون تنفيذ المشروع بمثابة علاج السلبيات الخطيرة لسياسة الانفتاح ، على الصعيدين الاقتصادى والإجتماعى والعودة إلى العمل كقيمة إجتماعية وأخلاقية . بعد أن تفشت قيم التطفل والانتهازية الاقتصادية التى صاحبت الانفتاح . أيضاً سيكون المشروع مجال استثمارى جدى أمام رؤوس الأموال العربية وبديلاً من تجميدها فى سنوات الخزانة الأمريكية بما يحمله هذا التجميد من أخطار ، وما حالت الأموال الإيرانية بعد سقوط الشاه ببعيدة عنا . هذا لا يمنع من قبول مشاركة من دول أوربا شرقها وغربها فى مثل هذا الموضوع الحضارى بكل المقاييس .

أما عن الخبرة العلمية فى نفس الوقت . فاعتقد أنها لتنقصنا فى هذا المجال، وبنظر لأحداث الماضى القريب ، بداية من حفر قناة السويس إلى تحويل مجرى نهر النيل عند بناء السد العالى حتى عملية حفر نفق الشهيد أحمد حمدى تحت القناة . أثبتت هذه التجارب أن الخبرة الفنية والكفاءة العملية متوفرة لدينا فى مشروع بهذا الحجم الذى قد يفوق بمراحل مثيله الأميركى على نهر التيناسى .

على الرغم من ذلك . فى حالة ظهور عقبات فنية - أثناء إعداد الدراسات . فلنا أن نلجأ إلى طلب المعونه التكنولوچية أينما وجدت . ولنا فى هذا المجال العديد من الأمثلة منها أخيراً المشروع الضخم الذى نفذه الاتحاد السوفيتى بدعم ومعاونة الخبرة والتمويل الغربى لإيصال غاز سيبيريا إلى الأسواق الأوربية "الغربية" ولا يمكن أن نحصر تلك الأعمال التى أنجزها الإنسان ، فلم يعد هناك حائل أو عقبة أمام التقدم التكنولوجى الحديث الذى يشهده إنعدام القرن العشرين .

التصور الثالث : مراحل التنفيذ .

عند الانتهاء من الدراسات الأولية لتحديد إمكانية تنفيذ المشروع يجب الأخذ فى الأعتبار الانطلاق من العناصر المتوفرة لدينا فى الأساس لأعمال التنفيذ . حيث يقتصر أغلبها فى المراحل الأولى على الأقل فى عمليات الحفر المكشوف ورفع مليارات الأمتار المكعبة من الرمال . كى تحتل مكانها مليارات الأمتار المكعبة العذبة المحملة بالطمى ، لتخلق تربة صالحة للزراعة فى مكوناتها لتربة الوادى القديم . بذلك نكون قد أوجدنا الحل لمشكلتين فى آن واحد . مشكلة ترسيب الطمى فى بحيرة ناصر المكون لدلتا جديدة جنوب السد فى المدى البعيد ومشكلة توفير الخصوبة لرمال الصحراء . الوصول إلى درجة عالية من التوافق بين مياه النيل ومياه الخزان الجوفى الكبير فى الصحراء الغربية وتوفير الموارد المائية التى يحتاجها الوادى الجديد . وقد سبق معالجة هذه النقطة . تطوير تكنولوجيا الطاقة الشمسية لتوفير طاقة محلية ورخيصة لاستخدامها فى عمليات الرى الآلية والصناعات الزراعية وأيضاً الصناعات التحويلية . ثم فتح الطريق من جديد أمام تنمية الثروة السمكية الحبيسة فى بحيرة ناصر أمام السد العالى . فى النهاية لنا أن نتخيل مراحل المشروع وهى تنفذ وفقاً للخطوات السابق الإشارة إليها وحتى الوصول إلى حافة منخفض القطارة وقد أقيمت محطات توليد الكهرباء من مساقط المياه . وما يتبع ذلك من تحول المنخفض إلى بحيرة صناعية من المياه العذبة تلافياً للتفجيرات النووية ... النظيفة لشق قناة من البحر المتوسط إلى المنخفض . فى النهاية يجب علينا تخيل الإضافات الضخمة التى سوف يسهم بها مشروع الفرع الثالث للنيل فى مختلف المجالات والحلول التى قدمها للكثير من المشاكل على صعيد الأمن القومى وعلى صعيد الاستراتيجية النووية . وأيضاً باعتباره بمثابة خلق هدف قومى جديد ، نحن فى أشد الحاجة إليه ، تجند له كل الجهود والطاقات ويلتف من حوله الجميع .

الخلاصـــة :

يمكننا تلخيص موضوع البحث بالكيفية التالية . أن فكرة مشروع شق مجرى جديد أو فرع ثالث للنيل تقدم لنا حل للمعادلة الصعبة المتمثلة فى التناقض بين طرفيها وإعادة التوازن بينها . فالطرف الأول للمعادلة هو الضرورة الحيوية فى الإبقاء على السد العالى لكونه يمثل وبحق شرط الأمن الهيدرولوچى وأيضاً بحيرة ناصر وصفها أهم خزان للمياه فى مصر . والطرف الثانى من المعادلة هو خطورة إبعاد التهديد الذى يمثله السد والبحيرة على نظرية الأمن القومى المصرى ، وبالإضافة إلى توفير الإمكانات لتدعيم الأستراتيچية التنموية المصرية من الآن وحتى مشارف القرن الحادى والعشرون .

هوامش ومراجع البحث :

(١) د. جمال حمدان ، شخصية مصر - دراسات فى عبقرية المكان . المجلد الأول ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨١ - ص ٩٧٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٦٨ .

(❖) تعتبر قناة التحويل أضعف الأماكن فى جسم السد ومكمن الخطورة فيه .

(٣) د. جمال حمدان المرجع السابق ٩٧٧ .

(٤) قدم هذه الرسالة د. صلاح شلش مدير نعهد الأثار الجانبية للسد العالى .

(٥) د. جمال حمدان ، المرجع السابق ص ٩٨٥ .

(٦) د. جمال حمدان ، المرجع السابق ص ٩٧٥ : ٩٧٦ .

(٧) جريدة الأهرام - ٢٤ نوفمبر ١٩٨١ .

(٨) مجلة المصور - العدد ٣١٢٣ فى ١٧ أغسطس ١٩٨٤ ص ٧٦ .

(٩) نفس المرجع ص ٧٧ .

(١٠) د. جمال حمدان المرجع السابق ١٠١٦ .

(١١) د، على فتحى نقلا عن د. جمال حمدان المرجع السابق ص ١٠١٢ .

(١٢) د. جمال حمدان المرجع السابق ١٠١٥ : ١٠١٦ .

(١٣) (١٤) (١٥) د. عبد الملك عودة مجلة المصور العدد ٣١٧٨ -٦ سبتمبر ١٩٨٥ ص ١٤-١٥ .

(١٦) د. جمال حمدان - الجزء الأول من شخصية مصر ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(١٧) د. سعيد حافظ ، نهر النيل الماضى والحاضر والمستقبل . دار المستقبل العربى القاهرة ١٩٨٥ ص ٧٤ ك ٨٢ .

(١٨) حديث مع مهندس عصام راضى وزير الرى - مجلة روزاليوسف العدد ٣٠٦١ فى ٩ فبراير سنة ١٩٨٧ .

(١٩) مجلة الأهرام الأقتصادى الأعداد ٦٤٩ ، ٦٥١ ، ٦٥٦ .

(٢٠) محمد حمدى المناوى - نهر النيل فى المكتبة العربية ، الدار القومى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ص ٧٣ ومابعدها .

(٢١) كامل زهيرى . النيل فى خطر - وثائق تنشر لأول مرة ، العربى للنشر والتوزيه القاهرة بدون تاريخ .

(٢٢) المؤتمر الدولى الرابع لدول حوض النيل . مجلة السياسة الدولية ، العدد ٦٨ ص ١٤٧ : ١٥٠ .



جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٣٥١ - ٣٨٣

حوض نهر النيل
دراسة قانونية

د. عبد الرحمن اسماعيل الصالحي
أستاذ العلوم السياسية المساعد
جامعة الزقازيق

مقدمة

إن نهراً عظيما قديما قدم التاريخ كنهر النيل يضم فى حوضه تسع دول أفريقية هى مصر والسودان واثيوبيا وكينيا وأوغندا وتنزانيا وزائير ورواندا وبوروندى. ومن ثم يتخذ صفة النهر الدولى مثله مثل أنهار أخرى فى العالم تحدد العلاقات بين الدول المشتركة فيه مجموعة من القواعد والأعراف القانونية استقرت على مر السنين وإرتقت لتواكب المتغيرات الدولية وصيغت فى إطار اتفاقيات لتتلائم ومصالح كل دولة وأوضاع كل نهر . ومن ثم فإنه يمكن القول أن الانهر الدولية ليست ظواهر جغرافية فحسب بل وظواهر قانونية أيضاً، وإن كانت الإستفادة من هذه الأنهار تتباين من دولة لأخرى فإن نهر النيل لكونه نهرا من هذه الانهار تتجاذبه مصالح متباينة لعل أوضح صورها ارتباط مصر والسودان بالنهر أكثر من باقى الدول الأخرى لاعتمادها على مياه النهر اعتمادا كاملا بينما الدول الأخرى تعتمد فى معظمها على مياه الأمطار الغزيرة. إلا أنه مع المتغيرات المستمرة والدائبة سواء فى زيادة السكان أو تغير نمط الحياة والبحث عن مصادر للطاقة والأخذ بأسباب الحضارة والنمو إن لم تكن التنمية وهى الغالبة، أصبح النهر يمثل أهمية لكل دولة ومن ثم فإن إمكان حدوث منازعات بين الدول لتباين المصالح أمر غير مستبعد ومهما قيل إن قواعد القانون الدولى والإتفاقات الدولية لا تدع مجالا للخلاف إلا أن المنازعات السياسية خاصة فى دول العالم الثالث قد تؤثر سلبيا على مدى الإستفادة

والإستغلال الأمثل بل والاحتياجات الضرورية لدول النهر، ومن ثم فإنه لا سبيل إلا بوجوب تعاون جاد ومتميز لاستغلال مياه النهر مع عدالة توزيعها خاصة وأنه يمثل طاقات قد تدفع بدولة إلى مجالات تنمية حقيقية شاملة.

وبالتالى فإن التعاون المقنن والمنسق بين دول حوض النيل بات ضرورة ملحة للنهوض بهذه الدول اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا.

الفصـل الأول
النيـل بـين أنهار العالـم

ا - أهمية النيل وطبيعته وعلاقته الخاصة بمصر:

إنها لخصوصية معينة تلك التى ترتبط مصر بالنيل. وإن كانت مقولة مصر هبة النيل قد ارتبطت بالمؤرخ الاغريقى «هيردوت» منذ أكثر من الفين وربعمائة سنة فقد سبقه المصريين القدماء بقولهم إن الدلتا هى هبة النيل وهدية النهر، ولعل مقولة "هيرودوت" هذه قد استوحيت من التراث المحلى السائد بين الكهنة والفلاحين (١).

وليس هناك شك أن مصر حقيقة بخصبها وغلتها إنما هى صنيعة هذا النهر فهو بحق.مانح الخير مانع الجدب، ولولاه لكانت الصحراء المصرية أو لكانت مصر صحراوية تماثل فى ذلك جارتها يسارا حيث تقع ليبيا، وتماثل السعودية حيث تقع يمينها، ولعل هذا النهر محقق الحضارة ومنشؤها فى تلك البقعة من الأرض حتى باتت من أقدم وأعظم الحضارات فى العالم، فهو بحق واهب الحياة الرغدة لمصر وللمصريين.

ولقد حرص المصرى القديم على إجلال هذا النهر فأشاد بالنيل وبما حواه بل وجعل منه إله الخير والعطاء (الإله حابى)، ولا غرابة فى ذلك فإن الحضارة التى قامت على ضفاف النيل تميزت بالقدم والاستمرار والقدرة على الجمع بين الأصالة والتجديد ومن ثم فإن اجتذاب الاهتمام حول النيل وادارة الصراع من حوله بات أمراً طبيعياً، كما يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل فإن السماء عند المصرى القديم كانت مرآة الأرض، والدين مرآة الحياة، مرتبطان معا بالنهر ذلك العنصر الحيوى فى حياة مصر من قبل توحيد الوجهين وحتى بعد بناء السد العالى (٢).

---

(١) د. جمال حمدان ، شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان ، المجلد الثانى (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨١) ص ٨٧٦ .

(٢) د. عبد العزيز كامل ، فى أرض النيل (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧١)، ص ٣ .

ولاشك أن حظوة النيل بهذا الاهتمام الذى شغل حيزا من تفكير المفكرين والباحثين والذى بدأ منذ أكثر من ستة آلاف سنة آتت بحصيلة ضخمة من الدراسات والنتائج تارة تعمد إلى الحدس والتخمين بل والخرافات، وتارة أخرى تستند إلى دلالات البحث العلمى الأصيل، ولقد ساهم مع المصريين عديد من المفكرين والكتاب والشعراء والباحثين الأجانب والعرب مستهدفين إلقاء الضوء على ذلك النهر باحثين عن الحقائق التى تصور ذلك الجريان المنتظم الرتيب وتفسيره.

ولقد مثلت حصيلة هذه الدراسات والأبحاث تراثاً علمياً ضخماً لم يحظ به أى نهر أو مجرى مائى آخر فى أنحاء العالم (٣).

ويرى الثقاة من علماء التاريخ والجغرافيا أن النيل قد رسم مجراه الحالى فى خلال سبعين مليونا من سنوات حياته، وحول الشاطئ تكون أول مجتمع إنسانى منظم، مارس كأول ممارس فنون الزراعة وفقا لتعاليم "أوزيريس" وتكون مجتمع سياسى كان مهد لأول حضارة إنسانية تميزت بالسمو فى عديد من الميادين العلمية والفنية والروحية (٤).

ولقد عمل النيل على إقامة علاقات مستديمة بين المصريين وبين سكان جنوب الوادى تمتد إلى السودان وأثيوبيا ومنطقة بحيرة فكتوريا نيانزا (٥).

ولقد ظلت حقيقة مجرى النيل ومنبعه تحيط به الأسرار وتتناوله الأساطير كما تتناول فيضانه أساطير أكثر خيالا وطرافه (٦) ولقد كانت أساطير القدماء

---

(٣) راجع د. صلاح الدين الشامى ، دراسات فى النيل (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧)، ص٣ .

وراجع كذلك : ياقوت ، معجم البلدان، الجزء الثامن ، ص ٣٦٢، الكندى، فضائل مصر المحروسة ، ص ٢٠٣ . المسعودى، مروج الذهب ، الجزء الأول، ص١٤٥، أشعار أحمد شوقى وحافظ إبراهيم .

(٤) د. حامد سلطان ، القانون الدولى العام فى وقت السلم ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٥)، ص ٥٤٢ .

(٥) وزارة الخارجية ، مصر ونهر النيل ، (القاهرة: وزارة الخارجية، ١٩٨٣) ص٥ .

(٦) - Carrington, The Tears of Isis (London: 1960)

- Davidson, D. & Alder Smith, A., The Great Pyramid, its divine Message (London: 1960).

من المصريين تسمى ذلك الجزء من أفريقيا حيث يستمد نهر النيل مياهه "بجبال القمر" وإن كان البحث عن منابع النيل وأسراره دعت علاقة المصريين بجيرانهم وروجت تجارتهم فى السودان وكينيا وأثيوبيا والصومال وأوغندا.

وكما أن مصر هبة النيل فإن علاقات مصر القديمة بأفريقيا كانت هبة النيل كذلك لمصر فلقد أسهم النيل فى ربط وصهر مصائر مصر ووسط وشرق أفريقيا على مدى أكثر من خمسة آلاف عام، ومن ثم لم تكن مصر افريقية بالموقع بل بإمداد جسور التعاون والتبادل بينها وبين دول افريقيا من خلال روابط هذا النهر الذى شكل قنطرة وجسرا ما بين شمال وجنوب وادى النيل وحوض النيل [٧].

٢- طبيعة النيل وموارده المائية:

يعد النيل ثانى أنهر العالم طولا فيمتد مجراه الطبيعى لمسافة تبلغ ٦٦٩٤ كيلو مترا، حتى يصل للبحر المتوسط، ويأتى فى الطول بعده نهر المسيسبى وروافده[٨]، وإذا اعتبرنا من منطلق جغرافى أن حوض أى نهر هو مجموع الأمطار التى تغذيه مياهها وأمطارها والتى تنحدر نحو واديه جبالها وتلالها، فإن حوض النيل بهذا الإعتبار عظيم المساحة يبلغ زهاء مليونين وتسعمائة ألف من الكيلو مترات المربعة[٩] ويعد حوض النيل من أهم أحواض أنهار أفريقية ولا يفوقه حوضا آخر فى القارة اتساعا إلا حوض الكونغو ولعل مرجع ذلك أن حوض النيل يضيق فى القسم الأوسط ويشتد ضيقه فى القسم الشمالى[١٠] وبهذه المساحة التى يغطيها حوض النيل فإنه يحتل حوالى عشر مساحة القارة الأفريقية.

---

(٧) وزارة الخارجية ، مرجع سابق ذكره، ص ٦ .

(٨) د. محمد عبد الغنى سعودى ، أفريقية : دراسة فى شخصية القارة وشخصية الأقاليم (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٣) ص ٢٥٢ .

(٩) د. محمد عوض محمد، نهر النيل (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤)، ص٢٤ .

(١٠) د. محمد عبد الغنى سعودى ، مرجع سابق ذكره ، ص ٢٥٣.

ويستجمع النيل مياهه من مصدرين رئيسيين بالإضافة إلى مصدر ثالث وإن كان قليل الإيراد بالرغم من مساحة حوضه الشاسعة وهو بحر الغزال [١١].

(أ) المنابع الإستوائية :

وهى مصادر الإيراد من هضبة البحيرات الإستوائية وتتكون من مجموعتين:

١- مجموعة بحيرات فيكتوريا واداورد والبرت وكيوجا والتى تزود النهر بمقدار ثلاثين مليون من الأمتار المكعبة من المياه سنويا. وتقع فى أقاليم دول - تنزانيا واوغندا وكينيا ورواندا وزائير وتساهم بحوالى ثلاثين بليون متر مكعب من المياه سنويا.

٢- مجموعة نهر السمليكى الذى يصب فى بحيرة البرت وأغلب المجموعة تقع فى أراضى أوغندا وزائير، ويزيد النهر بمقدار ٨,٥ بليون متر مكعب من المياه سنويا.

(ب) منابع جبال اثيوبيا (حوض الهضبة الاثيوبية):

١- نهر السوباط والذى يستمد ما يقرب من ٩٠٪ من مياهه من جبال اثيوبيا ويسهم فى مياه النيل بما يقرب ١٣,٥ بليون متر مكعب من المياه سنويا.

٢- النيل الأزرق ويعد المصدر الأساسى ويستمد مياهه من بحيرة تانا ويسهم مع موارد روافدا أخرى بمقدار ٥٤ بليون متر مكعب سنويا.

٣- نهر عطبرة وهو ينبع من جبال الحبشة بالقرب من بحيرة تانا، ويضيف كمية أخرى من المياه عند انضمامه إلى النيل الأبيض عند مدينة عطبرة تبلغ ١٢ بليون متر مكعب سنويا.

---

(١١) فى منابع النيل ومصادر الإيراد:

راجع : د. محمد عبد الغنى سعودى ، المرجع السابق ذكره، ص ص ٢٥٣ - ٢٥٨.

د. محمد عوض محمد ، مركع سابق ذكره ، ص ص ٣٦ - ١٠٨.

- وزارة الخارجية ، المرجع السابق ذكره ، ص ص ١٣ - ١٤.

- د. عبد العظيم أبو العطا ، د. مفيد شهاب ، دفع الله رضا : نهر النيل الماضى والحاضر والمستقبل، (القاهرة : دار المستقبل العربي ، ١٩٨٥) ، ص ص ٣٩، ٤٢-٤٣.

- Moorehead, Allan, The white Nile (London: 1960).

د. عزيزه مراد فهمى ، «الأنهار الدولية والوضع القانونى الدولى لنهر النيل، المجلة المصرية للقانون الدولى ، (المجلد ٣٧، ١٩٨١) ص ص ٣٤٧-٣٤٩.

٤- النيل الرئيسى (السودان ومصر) وعند التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض فى الخرطوم يعرف النهر بالنيل الرئيسى وحتى المصب فى البحر الأبيض المتوسط بطول قدره ٣٠٦٥ كيلو متر.

(جـ) بحر الغزال :

ويسهم بحوالى ١٣ بليون متر مكعب من المياه سنويا وان كان فاقد البخر فيها كبيرا جدا. وهذا البحر يصب فى نهر النيل من ناحية الغرب.

الفصـــل الثانـــى
الأنهـار الدوليـة فـى إطـار القانـون الدولـى

تمثل الأنهـار معـينا لا ينضب فى مجـال الدراسـات الإنسـانيـة فهى بالدرجة الأولى مـانحـة الخيـر والنمـاء وأسـاليب الحيـاة للإنسـان وإن نأت تارة عن هذه المقاصد بما قد تحدثه فيضاناتها من تدمير واقتلاع للحياة إلا أن الجانب الخير منها أكثر غلبة فهى مصدر الإمداد بالمياه للمخلوقات والأرض وبإمداد التربة بالخصب كما تعد من وسائل الإتصال والنقل فضلا عن أنها مثلت إلى حد كبير فى أزمنة سبقت فواصل طبيعية وحدوداً بين الدول . وتستخدم كغرض مستحدث فى توليد الطاقة حيث مناطق المساقط المائية (١٢). ولقـد نشـأت حضارات بارزة حول أحواض الأنهار . ولا تمثل الأنهار وضعا وظاهرة جغرافيا للدول فحسب بل تمثل وضعاً قانونياً أيضا خاصة إذا ما مثلت فى حالات كثيرة مشكلة دولية حيث يتقاسم النهر أكثر من دولة مستغلة إياه ما بين الملاحة واستغلال المياه فى الرى وتصبح الاتفاقات الدولية أمراً ضروريا .

ويمكن القول بشئ من التحديد أن الأنهار كظاهرة جغرافية تماثل باقى الظواهر الأخرى كالجبال والسهول والهضاب، ويهتم الباحثون بدراسة منابعها ومجاريها وانحداراتها ومظاهرها الچيمورفولوچية، ودرجات الإنحدار وتصريفها المائى.

ولعل أهمية الأنهار تفسر دخولها مجال الجغرافيا السياسية نتيجة التطورات المتلاحقة التى يشهدها العالم (١٣).

ولقد انشغلت الدول منذ بزوغ شمسها بالأنهار وحقوق الناس فى مياهها حتى ارتبط مفهوم المياه بوظائف الحكم (١٤).

---

(١٢) راجع : د. أمين محمود عبد الله ، فى أصول الجغرافيا السياسية (القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٤)، ص ص ٨٥-٨٧.

(١٣) د. محمد عبد الغنى سعودى ، «النيل: دراسة في السياسة المائية» ، الندوة الدولية للقرن الافريقى (القاهرة : معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، ٥ - ١٠ يناير ١٩٨٥)، ص١.

(١٤) تعنى كلمة «تشن» Techin فى اللغة الصينية الحكم كما تعنى تنظيم المياه . راجع د. محمد طلعت الغنيمى ، الغنيمى الوجيز فى قانون السلام (الإسكندرية: منشأة المعارف ، ١٩٧٥) ، ص ٤٩٣.

ويرتبط النهر باقليم الدولة ارتباطا متميزا من حيث أنه يمثل جزءا من هذا الاقليم، فإذا كان النهر واقعا بتمامه فى إقليم دولة واحدة فهو جزء من إقليمها وإذا كان النهر يجرى فى أكثر من إقليم أى فى أكثر من دولة فإن الجزء الواقع فى إقليم كل دولة منها يعد ملكا خاصا بها، بينما إذا كان جريان النهر بين دولتين فإن كل دولة تعتبر مالكة لذلك الجزء من النهر الذى يدخل ضمن حدودها وفى هذه الحالة فإن الخط الوسطى لمجرى النهر يعتبر حدا بين الدولتين (١٥).

من هذا التحديد يمكن القول بأن المياه التى تعد اليوم جزءا من إقليم معين لدولة ما قد تصب فى إقليم تابع لدولة أخرى ومن ثم تصبح جزءا من اقليمها وعلى ذلك يمكن النظر لمياه الأنهار على أنها متنقلة وليست ثابتة (١٦).

ولعل هذه الخصوصية للمياه تبعث على العديد من المشكلات فى إطار القانون الدولى ذلك أن الدولة لا تستطيع أن تمارس سلطانها كاملا حتى لا تنتهك التوقعات المشروعة للدولة المشتركة فى ذات النهر ولعل هذا الأمر هو المحور الذى يعمل حوله قواعد القانون الدولى فى هذا المجال (١٧).

الأنهار الدولية:

أطلق الفقه الدولى وصف "النهر الدولى" على ذلك النهر الممتد بين إقليمى دولتين أو أكثر وإن ظهر فى إطار مصطلحات القانون الدولى الحديثة مصطلح نظام المياه الدولية System of International Waters ويقصد به تلك المياه المتصلة فى خلال حوض طبيعى متى إمتد أى جزء من هذه المياه داخل دولتين أو أكثر.

ولقد بات من المستقر الرأى عليه فى مجال الفقه القانونى الدولى أن حوض النهر يجب أن يكون محددا بحيث يشمل الحوض الوحدة الجغرافية والطبيعية التى تكون مجرى مياهه وهى المحددة للمياه كما وكيفا والمتحكمة فى جريان مياهه وفى طبيعة نظامه، وبصرف النظر عن مدى قرب أو بعد هذه المياه من الحدود الدولية المرسومة وكذلك بصرف النظر عن حجمها (١٨).

ويعنى القانون الدولى بنمط معين من الأنهار وهى تلك ذات الطبيعة المزدوجة

---

(١٥) راجع د. محمود سامى جنينة ، القانون الدولى العام (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٨) ، ص ص ٢١٣ – ٢١٤.

(١٦) Berher, F.J. Rivers in intarnational Low (London: 1969) P. 5.

(١٧) د. محمد طلعت الغنيمى ، مرجع سابق ذكره ، ص ٤٩٣.

(١٨) د. حامد سلطان، مرجع سابق ذكره ، ص ٥٢٥ .

الداخلية والخارجية أى النهر الذى يخضع لسلطة أكثر من دولة ويقع على تخوم دولتين أو أكثر.

ولقد وضعت له محكمة العدل الدولية الدائمة تعريفاً محددا بأنه المجرى الصالح للملاحة الذى يصل عدة دول بالبحر ومن ثم فإن هناك شروطا ثلاث لابد من توافرها فيه وهى الصلاحية للملاحة والإتصال بالبحر واهتمام أكثر من دولة بهذا الإتصال وقد يفسر الشرط الثالث ذلك التمييز بين الانهار وتفصيليها إلى أنهار وطنية وانهار دولية، خاصة وأن المياه باتت لها أهمية اقتصادية أكثر اتساعا مما كان لها فى الماضى حيث كانت منحصرة الأهمية فى الملاحة إلى حد كبير وترتب على ذلك عقد عدة معاهدات دولية كان بعضها جماعيا (١٩).

ولما كانت مصالح الدول المشتركة فى مياه الأنهار متعددة ما بين مصالح استخدام الممر المائى وما بين مصالح ممارسة السيادة على الإقليم الذى يمر به الممر المائى وكذلك مصالح من يشرف على الممر المائى فضلا عن الاهتمامات والمصالح الاستراتيجية والعسكرية المتعلقة ببعض الممرات المائية فإن هذه المصالح الواقعة هى التى تعتبر أن النهر دوليا متى كان محل إهتمام أكثر من دولة(٢٠).

وإن ذهب بعض من الفقهاء للقول بأن معيار التفرقة بين النهر الوطنى والنهر الدولى تتمثل فى الأهمية الملاحية للنهر (٢١).

ولقد أصدر مؤتمر برشلونه الذى أنهى أعماله عام ١٩٢١ قرارات عرفت

(١٩) د. محمد طلعت الغنيمى ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٤٩٣-٤٩٤.

- O'Connell, d.p., The law state succession (Cambridge University Press, 1926), P. 616.

(٢٠) Baxter, R.R., The law of international water ways (HarvardUniversity Press: 1964) PP. 21-22.

(٢١) يرى أصحاب هذا الفكر أنه إذا كانت الملاحة فى النهر حيوية للجماعة الدولية كان النهر دولياً حتى ولو وقع بأكمله من منبعه إلى مصبه وجميع روافده فى إقليم دولة واحدة ، ويرون أن النهر لا يعد دولياً حتى ولو كان يجرى فى إقليم عدة دول متى إنعدمت أهمية الملاحة للجماعة الدولية .

راجع : د. عبد العزيز محمد سرحان، القانون الدولى العام (القاهرة دار النهضة العربية ، ١٩٧٣) ، ص ٣٠٨.

بقرارات مؤتمر طرق برشلونه حاول المؤتمر فى بروتوكوله الإضافى أن يخلع على الأنهار الوطنية صبغة النهر الدولي من حيث الملاحة فقط على سبيل التبادل بين دول البرتوكول إلا أن هذه المحاولة ولدت موؤدة (٢٢).

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتعرض لها مؤتمر دولى لشئون الأنهار الدولية فقد وردت أول اشارة إلى لفظ الأنهار الدولية فى معاهدة باريس للسلام فى ٣٠ / ٥ / ١٨١٤ بإعتبار أن هذه الأنهار يمكن أن تكون من مصادر النزاع الدولى (٢٣) خاصة بعد اتساع مجالات ونطاقات التجارة الدولية والحاجة الماسة إلى إستخدام الأنهار الصالحة للملاحة للنقل الدولى (٢٤). كما إهتم مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ بالتأكيد على حرية الملاحة فى عدد من مجارى المياه كما حدد الأصول العامة لنظم الأنهار الدولية (٢٥).

ولقد أسهم القانون الدولى المعاصر فى توضح مفهوم النهر الدولى عى أساس الاستخدامات الواقعة والمستحدثة ذات الأهمية فى الأنهار ولقد كان لمعهد القانون الدولى مساهمة فى هذا المجال اذ أعطى تفسيرا عام ١٩٦١ للمجارى المائية بمعناها الواسع فضلا عن أن قواعد هلسنكى التى وضعتها جمعية القانون الدورى فى دورتها المنعقدة فى ٢٠ / ٨ / ١٩٦٦ بهلسنكى، أوضحت معنى حوض التغذية الدولى وهو ذلك الذى يشمل منطقة جغرافية تمتد عبر إقليم دولتين أو أكثر وتتحدد بحدود، تجمع المياه بشبكة المياه سواء أكانت المياه سطحية أو جوفيه تصب فى مصب مشترك (٢٦). ومن ثم يمكن القول بأن النهر الدولى يتكون من تلك المياه التى تشكل جزءا من وحدة المجرى التى تخترق أراضى أكثر من دولة(٢٧).

(٢٢) لم يتم التصديق على البروتوكول إلا من عدد محدود جداً من الدول ومن ثم لم يقنن ما أشير إليه للنهر الوطنى . راجع المرجع السابق ذكره ص ٣٠٩.

(٢٣) Kaechen beek, G., International Rivers (London: 1920) P. 17.

(٢٤) راجع عز الدين على الخيرو ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٧ - ١١.

(٢٥) د. الشافعى محمد بشير ، القانون الدولى العام فى السلم والحرب ، الطبعة الرابعة ، (المنصورة : ١٩٧٩)، ص ٤١٨.

(٢٦) International law Associotion : Helsinki Rules on The use of the water on international Rivers (London: 1966) PP. 7-8.

ولعل وجود مصالح للجماعة الدولية فى تلك الأنهار الدولية ما يعمل على إيجاد عديد من المشكلات السياسية ومن ثم فإن وجود اتفاقيات بين الدول الواقعة فى أحواض هذه الأنهار امرابات ضروريا للحد على الأقل من هذه المشكلات ولعل أبرز هذه الاتفاقيات هى المتعلقة بتوزيع مياه النهر أو إستغلالها فى أغراض أخرى غير تنظيم الملاحة التى تعد من ابسط واسهل الاتفاقيات(٢٨).

ولعل ذلك امر ليس بالمستغرب فمع انبثاق الاستخدامات العلمية الحديثة لمياه الانهار ومن ثم قيام انشطة جديدة ومتطورة لتواكب المتطورات والمتغيرات الانسانية المتمثلة فى زيادة السكان وتطور الانشطة الصناعية والتكنولوجية وتغير نمط العادات الاجتماعية ، كان من الضرورى صياغة وتطبيق مجموعة من القواعد القانونية التى تحكم علاقات الدول المشتركة فى الانهار الدولية ، ولعل من أهم الدول فى هذا المجال الدول الأسيوية والافريقية (٢٩) .

القواعد العامة التى تحكم الانهار الدولية :

تطورت مجموعة القواعد التى تحكم العلاقة بين الدول المشتركةفى الانهار الدولية . ومن ثم استخدامات الأنهار والانتفاع بها ، فلقد كانت أراء "كلوبر Kkluber" ترى أن الدولة لها حق استغلال أراضيها بجميع الوسائل لتحقيق أهدافها مما فى ذلك تحويل مجارى الانهار دون النظر لما قد يسببه هذا الأمر من الأضرار التى تنصرف آثارها للدول الاخرى (٣٠) ، ولقد استمرت هذه الآراء سائدة وبل مشجعة لآراء مماثلة ظهرت فى صورة نظرية عرفت باسم نظرية هارمون "Harmm Dactrine" ترى أن السيادة المطلقة للدولة تسمح لها بالتصرف المطلق دون ما اعتبار لما قد يحدثه ذلك من أضرار للدول الأخرى ولقد كانت هذه

---

(٢٧) راجع كذلك في الأنهار الدولية : على ماهر، القانون الدولى (القاهرة : ١٩٢٤) ص ٢٧٩.

(٢٨) راجع د. محمد الغنى سعودى ، مرجع سابق ذكره ، ص ٣.

(٢٩) Asian - African Legal consulatire Committee, tenthe Session (Karachi: 1969), P. 25.

(٣٠) راجع فى تطور الأوضاع القانونية الدولية للأنهار الدولية :
د. عزيزه مراد فهمى ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ١٤١-١٤٧ .

الآراء تلقى هوى من الدول التى تقع فيها منابع النهر ، ولقد تعاقب الفكر مفرزا نظريات أخرى قرر بعضها أن النهر الدولى يخضع للسيادة المشتركة للدول التى يمر فى إقاليمها ، وتأسيسا على ذلك فإنه لا يجوز لدولة ان تقوم بمشروع فى النهر الدولى يمس حقوق الدول الأخرى دون موافقتها ، كما يرى الاخرون أن سيادة الدولة على مجرى النهر مقيدة بالأوضاع الطبيعية والتاريخية وباحترام حقوق كل دولة مشتركة فى النهر فى الحصول على ما كانت تحصل عليه دائما من انتفاع بمياه النهر ، وعلى أن توزع المياه بين الدول المشتركة فى النهر توزيعا عادلا (٣١)..

ولقد حظيت هذه الآراء الفقهية باهتمام المجتمع الدولى ، فقد عينت الامم المتحدة بهذه الاراء فتضمنت مذكرتها (E-ECE - 136) فى عام ١٩٥٢ مبدأ احترام حقوق الدول النهرية ، كما تضمن قانون محكمة العدل الدولية فى مادته (٣٨/ أ) مساهمة الفقهاء فى إنماء قواعد القانون الدولى باعتبار هذه الاراء الفقهية مصدرا ثانويا لتحديد قواعد القانون الدولى .

وفضلا عن أن قواعد هلسنكى السابق الاشارة اليها قد وضعت أو أسهمت الى حد كبير فى تنمية قواعد القانون الدولى المعنيه بالأنهار الدولية واستغلالها فقد وضعت تعريفاً جديداً للنهر الدولى مستبدلة تسميته المعتادة من النهر الدولى الى الحوض الدولى (International Drainage Basin وعرفته بانها مساحة من الارض تخص اكثر من دولة وتحدها من الجانبين حدود الحوض ومن ثم فانه يمكن القول أن الدولة التى يقع جزء من أراضيها فى حوض النهر هى الدولة الحوضية (٣٢) .

ولقد أسهمت الاتفاقيات الدولية إسهاما كبيرا وملحوظا فى وضع تحديد على قدر كبير من الدقة للأوضاع القانونية للأنهار الدولية .

ولعل الالتزام بموضوع البحث يحتم الاقتصار على الجانب القانونى المتعلق

---

(٣١) د. محمد حافظ غانم ، مذكرات فى القانون الدولى لعام (القاهرة : دار النهضة العربية، ٧٢ – ١٩٧٣) ، ص ٢٤٧.

(٣٢) د. عزيزه مراد فهمى ، مرجع سابق ذكره، ص ص ١٤٢–١٤٤.

بالانتفاع بمياه النهر فى غير شؤون الملاحة فضلا عن الانتفاعات المستحدثة فإن الملاحة لا تمثل الأمر الجوهرى فى نهر النيل .

ولقد عنيت الاتفاقات الدولية بإيجاد نوع من التوازن بين المصالح المتباينة للدول المشتركة فى النهر خاصة مع وجود الأغراض المستحدثة للاستغلال النهرى . والمتعلقة بتوليد القوى والطاقة ذلك ان الأمر يختلف بين دول المجرى الأعلى وبين دول المجرى الأوسط ودول المجرى الأسفل .

ولقد غقدت عدة اتفاقيات بين عدة دول مشتركة فى أنهار دولية من بينها اتفاقية مياه النيل بين مصر والسودان والتى عقدت فى عام ١٩٥٩ وكذلك اتفاقية نهر الهندوس بين الهند وباكستان فى سبتمر ١٩٦٠ واتفاقية نهر كولومبيا بين كندا والولايات المتحدة الامريكية فى يناير ١٩٦١ . وقد سبق هذه الفترة اتفاقيات دولية عديدة بين عدد من الدول لعل فى بدايتها معاهدة بين المانيا وهولندا عام ١٧٨٥ .

وفى إطار الاتفاقيات الدولية التى تعقد بين الدول الممتد النهر فى إقاليمها فإن هناك خلاف بين الفقه الدولى فى شأن تعيين الأحكام القانونية للانتفاع بمياه تلك الأنهار فى غير الملاحة خاصة مع تضارب وتباين مصالح هذه الدول .

ولعل إبراز النظريات التى حددها الفقه فى هذه المسألة هى نظرية السيادة الإقليمية المطلقة ، ونظرية الوحدة الاقليمية المطلقة ونظرية الملكية المشتركة ونظرية السيادة الاقليمية المقيدة والتكامل المقيد .

الفصل الثالث

الوضع القانونى لنهر النيل

بالرغم من تطور مجموعة القواعد التى تحكم العلاقات بين الدول المشتركة فى الأنهار الدولية وبالرغم من وجود نظريات فقهية تصلح لتحديد وتعيين الأحكام القانونية للانتفاع بمياه تلك الأنهار ، إلا أنه من المتعذر وضع القواعد فى إطار عام مشترك لتطبق على كل الانهار الدولية بحيث تنظم إستخداماتها ، ذلك أن تلك الانهار تتباين الى حد كبير ومن ثم تختلف تبعاً لذلك نوع وحجم المشكلات التى قد تنشاء عن الاطراف المشتركة فى النهر ذلك إن مشاكل النهر عبارة عن محصلة عوامل عدة ما بين الاقتصادى والسياسى والقانونى والجغرافى .

ومن ثم فإن الاتفاقات الدولية التى تصوغ مجموعة القواعد المتمشية مع ظروف الاطراف وهى الدول المشتركة فى النهر موضع الخلاف أو موضع تقنين أمور محدده هى أنسب تعبير عن المحددات والقواعد المنظمة للعلاقات بين الدول المشتركة بالنهر الدولى .

ونهر النيل بصفة خاصة تحدد أوضاعه القانونية محددات معينة ناشئة عن إن النهر ليس صالحا بأكمله للملاحة التى قد تعد من أهم استخدامات الأنهار الدولية ذلك ان الملاحة فى جزء كبير منه متعذرة بسبب كثرة الشلالات ، إلا أن ذلك لا يلغى أو يقلل من شأن باقى الاستخدامات الأخرى المتعددة والمتعلقة بالصناعة والزراعة وبصفة خاصة المتعلقة بشئون الرى (٣٣) .

ويتباين بجانب ذلك مصالح الدول المشتركة فى حوض النيل ، فبينما تعتمد مصر إعتمادا تاما إلى حد كبير على مياه النيل سواء فى اقتصادياتها وبصفة خاصة فى القطاع الزراعى نجد أن النهر لا يمثل أهمية لأوغندا أكثر من توليد الكهرباء لتوفر الأمطار ، ويشير مشروع سد أوين الذى أقيم على بحيرة فيكتوريا

---

(٣٣) راجع د. نبيل أحمد حلمى ، «مظاهر التكامل فى إتفاقيات الرى» ، مجلة السياسة الدولية (العدد ٥١، يناير ١٩٧٨) ص ٤٣.

إلى ذلك إذ أنه بالدرجة الأولى كان مشروعا لتوليد الكهرباء بينما يعنى ذلك لمصر زيادة إيراد النيل من الهضبة الإستوائية، وإن كان النهر يمثل أهمية لرى أراضى السودان إلا أن الأمر ليس مماثلا لأهمية النهر لمصر ذلك أن السودان به مساحات شاسعة يمكن أن يعتمد على مياه الأمطار (٣٤).

كما أن اهتمام أثيوبيا بالنهر قائم أيضاً على أن مصدر للقوى الكهربائية بينما مبعث اهتمام دول افريقيا الوسطى لاستخدام النهر فى الملاحة أكثر منه فى الرى ولعل مرجع هذا التباين أن كميات الأمطار تختلف من مكان إلى آخر فهى حوالى ٢٠٠٠ مم فى الخرطوم بينما يقل إلى ١٨٠٠ مم فى منطقة البحيرات العظمى فى وسط افريقيا ، وفى نفس الوقت فإن قرابة الـ٨٦٪ من مساحة مصر معدومة الأمطار وباقى المساحة فى حكم الجفاف (٣٥). بينما لا يخلو أى شهر فى هضبة البحيرات من الأمطار ، كما تبلغ كمية المطر السنوى على الساحل الغربى لبحيرة فيكتوريا (فى يوكوبا) حوالى ١٩٠٥ مم(٣٦).

ولعل هذا التباين فى كمية الأمطار يعكس أسباب ومظاهر التباين فى اهتمام الدول المشتركة فى النهر ويفسر بعض أسباب مشكلات استخدام الموارد المائية .

وليس تباين كميات الأمطار هو السبب الأول والأخير للمنازعات الخاصة بالأنهار الدولية بل أنه يعمل فى إطار تصارع المصالح المتشابكة والمتعددة والصراع على المياه الدولية له أسباب كثيرة لعل من أبرزها (٣٧) :

(أ) تعاظم إهتمام بعض الدول بمياه الأنهار الدولية نتيجة سياسات مستمدة من الشعور القومى المتزايد.

---

(٣٤) راجع د. محمد عبد الغنى سعودى ، افريقية : دراسة فى شخصية القارة ، وشخصية الأقاليم ، مرجع سابق ذكره ، ص ٢٦٣ .

(٣٥) د. نبيل أحمد حلمي ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٤٤ - ٤٥ .

- Fahamy, aziza, "Intenational Rivers Law with Special Reference to the Nile", Revue Egptianne de Droit international (Vol. 23, 1967), P. 50.

(٣٦) د. صلاح الدين الشامي ، مياه النيل دراسة موضوعية (القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٥٨) ص ٣٥ .

(٣٧) عز الدين على الخيرو ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٥٥ - ٥٧.

(ب) تهافت الدول المشتركة فى النهر الدولى للإستفادة الكاملة وبأقصى طاقات بمياه النهر دون النظر لما يعكسه هذا الإهتمام وتلك الإستفادة بآثار سلبية على الدول الأخرى.

(جـ) التقسيم الإستعمارى لعديد من الدول ومانجم عنه من خلق حدود تعسفية اضاعت مظاهر كثيرة من المعالم الطبيعية ومن ثم تحولت بعض الأنهار الوطنية إلى أنها دولية (٣٨).

(د) قصور القانون الدولى فيما يختص بمشاكل المياه الدولية وكذلك عدم وضوح المدلولات اللفظية لعديد من النصوص الأمر الذى جعل ذلك يعمل كعامل مساعد على زيادة المنازعات (٣٩).

(هـ) تباين درجات النمو الإقتصادى والإجتماعى ومعدل زيادة السكان فضلا عن الاختلاف الجغرافى بين دول الحوض تجعل من تطبيق مبدأ التوزيع العادل للمياه مصدرا للخلاف بدلا من أن تكون سندا لحل مشكلات الإستغلال.

ولهذه الأسباب مجتمعة أو متفرقة نشأت عديد من المشكلات بين دول كثيرة. ومن أجل حسم أو تقليل حدة هذه المشكلات فقد عقدت اتفاقيات دولية تعنى بمسألة تقسيم المياه التى تجرى فى الأنهار الدولية (٤٠).

(٣٨) Berber, F.J., Op. Cit., P. 37.

(٣٩) على سبيل المثال : النزاع على مياه نهر ريوجراند بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية وكذلك النزاع على مياه الهندوس بين الهند والباكستان والنزاع على مياه النيل بين مصر والسودان والنزاع حول مياه نهر الأردن بين سوريا ولبنان وبين الأردن وإسرائيل وكذلك النزاع حول مياه نهر الفرات بين تركيا وسوريا والعراق والنزاع حول مياه نهر ريوكا بين شيلى وبوليفيا .

(٤٠) عقد إتفاق عام ١٩٠٥ بين السويد والنرويج بشأن تقسيم المياه المشتركة بينهما وكذلك إتفاق بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك لتقسيم مياه نهر ريوجراندا عام ١٩٠٦ ، وكذلك اتفاق بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا لاستثمار مياه نهرى ملك وسانت مارى ، وفى عام ١٩١٤ عقد اتفاق بين ايطاليا وفرنسا بشأن استغلال مياه نهر روجا وروافده ، وفى عام ١٩٢٢ عقدت الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك اتفاقاً بخصوص تقسيم مياه نهر كولوراد وكذلك اتفاق اخر بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا عام ١٩٦١ يتعلق بتقسيم مياه نهر كولومبيا .

راجع : د. أمين محمود عبد الله ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٩٥ – ٩٦.

اتفاقيات تنظيم مياه النيل:

وإن كانت اتفاقيتى عام ١٩٢٩ ، ١٩٥٩ ، تعد من أهم الإتفاقيات الدولية التى نظمت ونسقت استعمالات مياه النيل فى الرى والزراعة بين البلدين إلا أن هناك اتفاقات سبقت ذلك بشأن مياه النيل يمكن ايجازها فى التالى [٤١]:

(أ) بروتوكول عام ١٨٩١ والموقع فى أوربا بين بريطانيا وإيطاليا فى تحديد حدود فاصلة بين أرتيريا والسودان وتتعهد فيه الحكومة الإيطالية بعدم إقامة أية أعمال على نهر العطبرة مما قد يؤثر بصورة ملموسة على كمية المياه.

(ب) الإتفاقية الموقعة بين بريطانيا واثيوبيا بأديس ابابا فى عام ١٩٠٢ وتلتزم فيها اثيوبيا بالإمتناع عن عدم اقامة أية أعمال على النيل الأزرق أو بحيرة تانا أو نهر السوباط يكون من شأنها التأثير على كميات المياه وذلك دون الاتفاق مع الحكومة البريطانية.

(جـ) معاهدة عام ١٩٠٦ المبرمة بين بريطانيا والكونغو والتزمت فيها الكونغو طبقا لأحكام المادة الثالثة بألا تسمح بإقامة أو تقيم أى أعمال على نهر السمليكى ونهر تانجو أو بالقرب منهما يكون من شأنها تقليل كمية المياه التى تصب فى بحيرة البرت وذلك دون موافقة حكومة السودان.

(د) اتفاق موقع فى ديسمبر عام ١٩٠٦ بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا للمحافظة إلى مصالح بريطانيا ومصر فى حوض النيل.

(هـ) الإتفاق الموقع فى يناير عام ١٩٢٤ بين ايطاليا وبلچيكا وينص على أن الحدود تتبع مجرى الملاحة Thelweg فى نهر كاجيرا Kagera وكان هذا الإتفاق فى إطار انتداب بلچيكا على (رواندا أورندى).

(و) الإتفاق المبرم بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا فى فبراير ١٩٢٥ فى إطار تعيين حدود افريقيا الشرقية الخاضعة للانتداب البريطانى وتم فيها تعيين مجرى الملاحة فى نهر كاجيرا.

---

(٤١) راجع فى شأن هذه الإتفاقيات :
د. حامد سلطان ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٥٤٥ - ٥٤٩ .
د. أحمد موسى ، مرجع سابق ، ص ص ٥٤ - ٦١ .

(ز) مجموعة المذكرات المتبادلة فى ديسمبر عام ١٩٢٥ بين بريطانيا وايطاليا والتى تعترف حكومة ايطاليا فيها بالحقوق المائية السابقة والمكتسبة لمصر والسودان فى كل من مياه النيلين الأبيض والأزرق، كما تتعهد بعدم إنشاء أية منشآت من شأنها تعديل كمية المياه بشكل ملحوظ فى هذه الأنهار.

ومما تجدر ملاحظته على هذه الاتفاقيات والمعاهدات المشار إليها التى تمثل اطر معينة لحقوق وواجبات بعض دول حوض النيل أن هناك ملابسات وظروف أحاطت بهذه الاتفاقيات فلقد كانت مصر محتلة بقوات بريطانية فضلا عن أجبارها القوات المصرية على الإنسحاب من السودان بالإضافة إلى أعمال السياسة البريطانية الرامية إلى فصل مصر عن السودان كما يلاحظ أن هذه الاتفاقيات موقعة من دول أوربية فى معظمها والتى كانت مستعمرة لدول حوض النيل، وإن كان القانون الدولى يعترف بسريان هذه الوثائق.

وقد أكد ذلك الإقرار ما جاء بإتفاقية فيينا عام ١٩٧٨ بشأن التوارث الدولى وذلك يعنى أن مثل هذه الاتفاقيات تظل سارية المفعول وتمثل التزاما وقيدا على الدولة الوارثة [٤٢].

كما أنه يمكن القول أن لمصر الحق فى التمسك بالأحكام الواردة لصالحها فى الإتفاقيات التى وقعتها الحكومة البريطانية نيابة عن مصر ذلك أنها كانت وقتئذ السلطة المختصة. فضلا عن أن هذه الاتفاقيات لا تشمل مبدأ استثنائى بل تؤكد حقوق مصر المكتسب تاريخيا وجغرافيا من الواقع المصرى المتمثل فى الإعتماد الكامل على مياه النيل.

اتفاقية ١٩٢٩ :

كما سبق الإشارة فإن اتفاقية عام ١٩٢٩ تعد من أهم الإتفاقيات التى وقعتها مصر ومتعلقة بمياه النيل، ذلك أنه لم تكن هناك اتفاقيات رسمية قبل ذلك التاريخ بشأن كمية المياه التى تسحبها السودان من النيل وأن كان معروفا أن أية كمية مياه تسحبها السودان يجب الا تؤثر على الإحتياجات المصرية [٤٣]، إلا أنه

(٤٢) وزارة الخارجية ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٧.

(٤٣) د. محمد عبد الغني سعودى ، «النيل : دراسة فى السياسة المائية مرجع سابق ذكره ، ص ص ١٠-١١.

ظهر اتجاه فى مطلع هذا القرن بشأن استغلال أرض الجزيرة زراعيا باستخدام مياه النيل الأزرق والنيل الأبيض، ولما كان النيل الأزرق يروى بالراحة طبقا لانحدار السطح فى أرض الجزيرة، فضلا عن أن نظام المياه فيه يتأثر بحالة الأمطار الصيفية فى الحبشة، فإن مدى التباين فى تصرفه كان كبيرا مقارنا بالنيل الأبيض (٤٤). وما أن وضع تخطيط لمشروع الجزيرة لرى مساحة ٣٠٠,٠٠٠ فدان بمياه النيل الأزرق بالراحة بإنشاء خزان سنار حتى اتجه التفكير جديا إلى أهمية تحديد أنصبة مصر والسودان من مياه النيل حتى لا تتأثر مصر بما يسحبه السودان وذلك بوضع تنظيم فنى تولته لجنة فنية تم تشكيلها عام ١٩٢٥ وقد قسمت اللجنة السنة إلى فترتين (٤٥) : الفترة المقيدة وهى الممتدة من ١٨ يناير وحتى ١٥ يوليو، والفترة الحرة، وروعى أن يكون إيراد النيل الأزرق كله من نصيب مصر خلال الفترة المقيدة، وأن يكون سحب السودان للمياه بطريق المبادلة، فبينما فى الفترة الحرة وهى الممتدة من ١٦ يوليو وحتى ١٧ يناير فقد نظمت فيها كميات مياه الرى طبقا لاحتياجات السودان ودون التأثير على مصر.

ولقد تم الإتفاق على مياه النيل بين الحكومة المصرية والبريطانية فى ٧ مايو ١٩٢٩ وذلك فى صورة خطابين متبادلين بين رئيس مجلس الوزراء المصرى والمندوب السامى البريطانى (٤٦) ، وتعد بريطانيا فى هذه الإتفاقية نائبة عن السودان وكينيا وأوغندا وتنجانيقا.

---

(٤٤) Sudnan Government "Gezira Irregation Scheme", Report of the Delegates, 1917.

(٤٥) د. صلاح الدين الشامى ، مرجع سابق ، ص ص ١١٣ - ١١٤ .

وراجع كذلك : د. شريف محمد شريف، «مياه النيل بين مصر والسودان» مجلة كلية الآداب، مجلد ٢٤ ، جزء ١ ، مايو ١٩٦٢، ص ص ١٤٠ - ١٤٤.

(٤٦) راجع : رئاسة مجلس الوزراء ، السودان من ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ ، ص ص ٥٢ - ٥٣.

- Ministry of Public work, Nile water Agreement, 1929 Cairo General Organization for Government prinity offices 1958.

- د. يونان لبيب رزق ، السودان فى المفاوضات المصرية البريطانية ، ١٩٣٠ - ١٩٣٦ (القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٤) ص ص ١٤٩ - ١٥٠.

ولقد نصت الإتفاقية بوضوح على عدم قيام أعمال رى أو توليد طاقة هيدروكهربية على النيل وفروعه أو على البحيرات التى ينبع منها سواء فى السودان أو فى البلاد الواقعة تحت الإدارة البريطانية يكون من شأنها انقاص مقدار المياه الذى يصل إلى مصر أو تعديل موعد وصوله أو تخفيض منسوبه مما يعمل على الحاق ضرر بمصر إلا بعد موافقة سابقة منها .

كما تنص الإتفاقية أيضا على حق مصر فى مراقبة مجرى نهر النيل من المنبع للمصب، كما تلقى الحكومة المصرية كل التسهيلات اللازمة للقيام بدراسة ورصد الأبحاث المائية لنهر النيل فى السودان.

ومن المسلم به أن اتفاقية عام ١٩٢٩ وضعت منهجا يستهدف تنظيم مياه النيل لصالح الشعبين المصرى والسودانى مهما قيل أن مصر أعطيت حق الاعتراض على مشروعات أعالى نهر النيل والاحتفاظ بحق إقامة سدود إلا أنه بجانب حق مصر فإن عليها التزامات تجعل من الإتفاق تنظيما للعلاقة بين الطرفين وليست من طرف واحد (٤٧).

وإن قيل أيضا أن هذه الإتفاقية كانت إتفاقية سياسية قصد بها استخدام مياه النيل من جانب بريطانيا للانتقام من السودان بسبب مقتل "لى ستاك" سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام إلا أن المؤكد أن هذه الإتفاقية جاءت منظمة لحقوق والتزامات طبيعية وتاريخية مستمدة من مبادئ مقررة عرفا وقانونا ذلك انها لم تخلق قواعد قانونية عامة بقدر اعترافها بمركز قائم منذ القدم (٤٨)

ويتفق الباحث مع ما ذهب إليه بعض المفكرين (٤٩) من أن اتفاقية عام ١٩٢٩ لم تأت إلا بتأكيد جديد لحق مصر الطبيعى والتاريخى فى مياه النيل وبإقرار مجدد من حكومة بريطانيا باسمها وباسم السودان.

---

(٤٧) راجع عز الدين علي الخيرو ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ١١٦ - ١٢١ .

(٤٨) Badr, Gamal moursi, " The Nile waters Question" Revue Egyptienne de Droit international, Vol. 15 . 1959.

(٤٩) د. أحمد موسى ، مرجع سابق ذكره ، ص ٤٩ .

وبجانب هذا فإن استعداد مصر الدائم لتعمير السودان عن طريق زيادة المقدار اللازم لاحتياجاته من مياه النيل بمالا يضير مصر كان واضحا ولقد تحقق عمليا منذ عام ١٩٥٢ حيث وافقت الحكومة المصرية على كل ما يقدم به السودان من مقترحات بشأن زيادة حصته، وفصلت الحكومة المصرية بين مياه النيل واتفاقية عام ١٨٩٩ ولقد تضمنت كل ذلك اتفاقية القاهرة فى فبراير ١٩٥٣ (٥٠) .

اتفاقيات بعد اتفاقية عام ١٩٢٩ (٥١) :

بعد توقيع اتفاق عام ١٩٢٩ عقدت بعض الاتفاقيات الدولية المرتبطة بتنظيم مياه النيل بين دول الحوض لعل أبرزها:

(أ) الإتفاق المعقود بين مصر والسودان فى عام ١٩٣٢ بخصوص إقامة خزان جبل الأولياء الذى يتسع لكمية من المياه تبلغ الثلاث مليارات والنصف من المتر المكعب.

(ب) الإتفاق الموقع بين بلچيكا وبريطانيا فى ٢٣ نوفمبر عام ١٩٣٤ باعتبار الأولى ممثلة لرواندا وبوروندى والثانية تمثل تنجانيقا ويقضى الإتفاق بأن كميات المياه التى تحول من أى من روافد النيل التى تجرى بين الاقليمين يجب أن تعاد إلى نهر كاجيرا قبل وصولها إلى الحدود المشتركة ويسمح بتحويل نصف كمية تصرف نهر كاجيرا من أجل الأغراض الصناعية وذلك خلال الفترة التى يكون تصرف النهر فيها فى حالته الدنيا.

(جـ) مجموعة المذكرات التى تم تبادلها بين مصر وبريطانيا باعتبار الثانية نائبة عن أوغندا وذلك خلال الفترة من يوليو عام ١٩٥٢ إلى يناير عام ١٩٥٣ بشأن إنشاء سد أوين Owen عند طرف بحيرة فيكتوريا وذلك لتوليد الكهرباء فى أوغندا وهذا المشروع ينشأ عنه رفع منسوب المياه فى بحيرة فيكتوريا وبالتالى

---

(٥٠) راجع فى ذلك زيادات حصة السودان عما كان مقرراً فى إتفاقية عام ١٩٢٩، د. شريف محمد شريف ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ١٥٠ - ١٥٢ .

(٥١) راجع : د. حامد سلطان ، مرجع سابق ذكره ص ص ٥٥١ - ٥٥٢.

- وزارة الخارجية ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٨٤ - ٩١ .

زيادة حصة مصر من المياه وتستفيد فى نفس الوقت أوغندا وكينيا من توليد الكهرباء.

اتفاقية ١٩٥٩ :

كانت اتفاقية عام ١٩٢٩ بمثابة مجموعة من القواعد التى نظمت فقط بعض جوانب الإستفادة بمياه النيل ولم تهتم بالاستخدامات الأخرى لمياه النيل ولم يمتد أثرها لملاحقة ومواكبة المتغيرات التى طرأت على الدول المشتركة فى النهر خاصة مصر والسودان ومدى حاجتهما الملحة لاستغلال النيل والانتفاع بموارده المائية إلى أقصى حد تسمح به ظروفهما. فقد كانت مصر فى حاجة ماسة لمزيد من الانتفاع الكامل بمياه النهر ليواكب الزيادة المطردة فى السكان والحاجة المأساة لمزيد من الأراضى المنزرعة للوفاء بالاحتياجات الغذائية للسكان خاصة مع محدودية الرقعة المنزرعة وثباتها إلى حد كبير وذلك بالإضافة إلى إمكانية الإستفادة بالطاقة الكهربية لتطوير الصناعة، وجاء التفكير فى إنشاء السد العالى بجنوب مصر للإستفادة من المياه التى تتساب سنويا إلى البحر فترة فيضان النيل خاصة وأن خزان أسوان وخزان جبل الأولياء لا يفيا بالحاجة المتزايدة من المياه (٥٢) .

وعلى الجانب الآخر فإن احتياجات السودان وكذلك باقى دول حوض النيل لم تكن واضحة بجلاء فى إتفاقية ١٩٢٩ (٥٣) وتلك الإحتياجات بالقطع متزايدة بما يتلائم والمتغيرات المستمرة ومن ثم فإن الإتفاقية باتت غير متلائمة للوفاء بالاحتياجات المائية للسودان وبما يتناسب ومشروعات اتساع الرقعة الزراعية(٥٤) واقتراح إقامة مشروعات للتخزين المستمر فى البحيرات الإستوائية فى تانسا إلا أنه عدل عن هذا الرأى لأسباب هندسية ولأسباب سياسية وهى الرغبة المصرية فى أن يكون المخزون المائى داخل حدودها حتى لا يستغل التخزين

---

(٥٢) راجع مزايا السد العالي د. نبيل أحمد حلمى ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٤٦ – ٤٧ .
Greener leslie, High Dam over Nubia (London 1962)

(٥٣) bbas, Mekki, The Sudan Question (London, 1950),

(٥٤) Abdella, L.H., The 1959 Nile water Agreenment in Sudanese - Egyptian Relaeion, Middle Eastrn Studies, Vol., 7, No. 3 October 1971, London, P. 331.

خارجها كأداة للضغط (٥٥) لذا لم يكن هناك بد من تنفيذ مشروع السد العالى كحلقة أولى من سلسلة التخزين المستمر على النيل وكذلك كانت رغبة السودان فى إنشاء خزان الروصيرصى على النيل الأزرق (٥٦) .

وإن أثيرت بعض الاعتراضات من السودان ومصر وقدمت عديد من المقترحات بشأن تقسيم مياه النيل (٥٧) لم تقبل من الطرفين وزاد من حدة الخلاف ذلك النزاع الذى أظهر على السطح فى فبراير ١٩٥٨ بشأن الحدود بين البلدين. وقد انتهى هذا الخلاف بعد إجراء مباحثات بين الجانبين أسفرت عن إبرام اتفاقية توزيع مياه النيل فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٩ (٥٨) والتى تعد اتفاقا على عمليات ضبط النهر ولقد تضمنت جوانب هامة بمثابة تنظيم شامل للإنتفاع بمياه النيل (٥٩) .

ويوجب هذه الإتفاقية فإن المتوسط السنوى لتصرف النهر عند أسوان وقدرة ٨٤ بليون متر مكعب من المياه يقسم بين مصر والسودان بحيث يكون نصيب مصر ٥٥,٥ بليون متر مكعب ونصيب السودان ١٨,٥ بليون متر مكعب سنويا(٦٠) وذلك بعد إقامة السد العالى بأسوان وفى المقابل يقيم السودان خزان الروصيرصى على النيل الأزرق كما تضمن الإتفاق عدة أمور أخرى أهمها:

---

(٥٥) د. محمد عبد الغني سعودى ، المرجع السابق ذكره، ص ١٣.

(٥٦) د. شريف محمد شريف ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٥٣.

(٥٧) راجع Baddaour Abd El-Fattah, The sudanese Egyptian Relations, 1960 p. 204.

(٥٨) راجع فى نزاع الحدود بين مصر والسودان د. بطرس بطرس غالى ، دراسات في الدبلوماسية العربية (القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٣) ، ص ص ١٨٢ - ١٩٢.

(٥٩) راجع : القرار الجمهورى الصادر فى ٦ أكتوبر عام ١٩٥٩ بشأن الإتفاق بين حكومتى جمهورية السودان والجمهورية العربية المحدة للإنتفاع الكامل بمياه النيل .

(٦٠) كان ما يستخدم من مياه وقت توقيع الإتفاق ٤٨ بليون متر مكعب سنويا لمصر تقاس عند أسوان ، ٤ بليون متر مكعب للسودان تقاس عند أسوان أيضاً. راجع فى تفاصيل الإتفاقية بالإضافة إلي القرار الجمهورى السابق الإشارة إليه : وزارة الخارجية ، مرجع سابق ذكره ص ٢٧ - ٢٩ ، ٩٩، ٩٤-١٠٤ ، د. عبد العظيم أبو العطا ، د. مفيد شهاب دفع الله رضا ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٢١٧ - ٢٢٢.

١- موافقة حكومة الجمهورية العربية المتحدة على دفع مبلغ خمسة عشر مليونا من الجنيهات المصرية للسودان كتعويض شامل عما يحدث من أضرار تلحق بالممتلكات السودانية نتيجة التخزين فى السد العالى لمنسوب ١٨٢ (مساحة)، ومع تعهد حكومة السودان بترحيل سكان حلفا وغيرهم من السودانيين الذين ستغمر أراضيهم بمياه التخزين ولقد حددت الإتفاقية موعدا لذلك قبل يوليو عام ١٩٦٣ .

٢- تتولى السودان بعد الاتفاق مع الجمهورية العربية المتحدة إنشاء مشروعات زيادة إيراد النيل بمنع الضائع من مياه الحوض فى مستنقعات بحر الجبل وبحر الزراف وبحر الغزال وترعة ونهر السوباط وفروعه وحوض النيل الأبيض على أن يكون صافى العائد من هذه المشروعات من نصيب الدولتين مناصفة فيما بينهما مع تحمل التكاليف بنفس النسبة.

ويمكن للجمهورية العربية المتحدة البدأ فى هذه المشروعات المستهدفة زيادة ايراد النيل بعد إخطار السودان التى تستفيد من هذه المشروعات وفقا لشروط تفصيلية وإجراءات تضمنها الإتفاق.

٣- وفى مجال التعاون الفنى بين الجمهوريتين اتفق على إنشاء هيئة فنية دائمة من البلدين تجتمع فى القاهرة أو الخرطوم وتتولى هذه الهيئة رسم الخطوط الرئيسية للمشروعات المستهدفة زيادة ايراد النيل والاشراف على التنفيذ ووضع نظم تشغيل الأعمال التى تقام على النيل داخل حدود السودان وخارجه بعد الاتفاق مع المختصين فى البلاد التى تقام فيها هذه المشروعات، كما تتولى الهيئة وضع نظام لما يجب أن يسير عليه استغلال المياه فى السنوات شحيحة الإيراد.

٤- وفى مواجهة الدول الأخرى الواقعة فى حوض النيل فإن الدولتين يمثلان وحدة واحدة فى مقابلة أى مطالب لهذه الدول فى مياه النيل وفى حالة الإستجابة إلى مطالب هذه الدول فى المياه فإن الكمية تخصم مناصفة من نصيب الدولتين.

ولقد عملت اتفاقية ١٩٥٩ على وضع حد للخلافات المصرية السودانية فضلا عن أنها انهت الجدل القانونى حول اتفاقية ١٩٢٩ ذلك انها اعتبرت جزءا من اتفاقية ١٩٥٩ تأسيسا على تثبيت الحقوق المكتسبة لكل من مصر والسودان. ومن ثم فإنه لا مغالاة فى القول بأنها كانت نموذجا فى مجال العلاقات الدولية بالنسبة للأنهار الدولية تضمنت عددا من المبادئ المتطورة المعنية بتنظيم حقوق الدول الواقعة على نهر مشترك (٦١) فضلا عن أنها عملت على وضع نظم للإستفادة الكاملة من مياه النيل بجانب تنمية ايراد النهر والحد من الفاقد (٦٢).

---

(٦١) د. عزيزه مراد فهمى ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٥١ .

(٦٢) قدرت كمية الفاقد من المياه بحوالي ٣٠ مليار من الأمتار المكعبة سنوياً .

راجع : د. صلاح الدين الشامي «ضبط النيل والتوسع الزراعى ، مجلة كلية الآداب ، المجلد ٢٣، الجزء الثانى (القاهرة: كلية الاداب جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٥٩)، ص١٩١.

الفصــــل الثالـــث
النظرة المستقبلية فى إطار توثيق التعاون بين دول حوض النيل

تعتبر اتفاقية ١٩٥٩ بداية لمرحلة متسعة وعميقة فى إرساء قواعد التعاون بين دول حوض النيل كلها للإستفادة الكاملة من مياهه .

وإن كانت مصر والسودان على وجه الخصوص هما أكثر دول حوض النيل استفادة من مياهه ذلك انهما تعتمدان اعتمادا كاملا على مياه النهر فى أغراض الرى وغيرها ولذلك فلا غرابة فى التركيز على التعاون المصرى السودانى، بينما باقى دول حوض النيل تعتمد فى معظمها على مياه الأمطار الغزيرة وتستفيد فى معظمها من مياه البحيرات.

إلا أنه باقامة مشروعات عملاقة بهذه الدول كالسد العالى مثلا يمكن أن تعطى أثرا سلبيا على إيراد النهرى الوارد لمصر والسودان دون وجود اتفاقيات بل وبالدرجة الأولى دون وجود مجالات للتعاون البناء، ومن هنا كان لابد من وضع خطوط واضحة لمستقبل هذا التعاون ليس لمصر والسودان فحسب وانما لينعكس أثره على دول حوض النيل قاطبة لاستغلال مياه النهر الإستغلال الأمثل والكامل.

ومن هذه الضرورة الماسة بدأت ديناميات سياسية وقانونية فى إطار ثنائى وجماعى بين دول حوض النيل بعد توثيق اتفاقية عام ١٩٥٩ لعل من أبرزها:

اولاً: على المستوى الجماعى

بدأت الهيئة الفنية الدائمة المشتركة لمياه النيل نيابة عن السودان ومصر – والمنشأة طبقا للاتفاقية ١٩٥٩ – فى عقد اجتماعات فى أكتوبر ١٩٦١ مع مندوبى دول كينيا وأوغندا وتنزانيا للتشاور فى مختلف وجهات النظر الفنية فى سبيل تعاون أكثر شمولا وتقرر فى عام ١٩٦٧ من خلال هذه اتفاقيات أن تنشأ هيئة فنية جديدة مكبرة تضم بجانب مصر والسودان كل من كينيا وأوغندا وتنزانيا ورواندا وبورندى وزائير للقيام بمسح للأرصاد الجوية النهرية لمناطق تجمع الأمطار المعترية بحيرات البرت وكيوجيا وفيكتوريا ولقد شاركت اثيوبيا فى

هذه الإجتماعات كمراقب وهدف المشروع إلى تجميع وتحليل البيانات الخاصة بالأرصاد الجوية النهرية لعمل موازنة لمياه أعالى النيل ولكى تتولى الدول المنتفعة تبعا لذلك وضع خطط لحفظ المياه وتنمية مواردها واستغلالها، ويشمل الهدف وضع أسس للتعاون المستقبلى بين حكومات حوض النيل لتنظيم استغلال مياه النيل. ولقد تضمن المشروع تنفيذ بعض المهام المحددة وهى: إقامة محطات اضافية لجمع المعلومات واقامة سبع مناطق قياسية لتجميع المياه وكذلك اجراء التصوير الجوى والمسح الأرضى (٦٣).

وفى الواقع فإن العمل فى إطار مشروع الدراسات الهيدرولوجية لحوض البحيرات الاستوائية خاصة وأنه قائم بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية يعد عملا رائد (٦٤) ذلك أنه جمع بين الفنيين من دول حوض النيل كما أن المشروع يعد بداية لمشروعات أكثر استفادة واستغلالا أمثل لمياه النيل.

أما فيما يتعلق بتشكيل هيئة حوض النيل لكى تشمل كل دول حوض النيل فإن هذا الأمر يعد مسألة سياسية أكثر منها مسألة فنية ومن ثم فإن القرار سيكون قرارا سياسيا وقد يتطلب اتخاذه وقت أكثر.

مجموعة أندوجو:

وتطلق هذه التسمية على مجموعة من دول حوض النيل والتى تتكون من مصر والسودان وزائير واوغندا وأفريقيا الوسطى والتى تعقد اجتماعات شبه دورية سنويا وقد قامت مصر برعاية الإجتماع الوزارى الثالث لدول المجموعة والذى عقد فى الفترة ٧ - ٨ أغسطس ١٩٨٥ واشتركت فيه دول المجوعة فضلا عن اشتراك تنزانيا ورواندا وبوروندى كمراقبين، ولقد اتفق فى هذا الإجتماع على بعض الإجرادات المستهدفة توثيق مجالات التعاون فى مجالات معينة كالنقل والاتصال اللاسلكية والإعلام مع بحث مدى إمكانية التعاون فى مجالات الموارد

---

(٦٣) راجع وزارة الخارجية ، مرجع سابق ، ص ص ٣١ - ٣٢.

(٦٤) الدبلوماسية المصرية والدائرة النيلية «مجلة السياسة الدولية (العدد ٧٧ ، يوليو ١٩٨٤) ، ص ٧ .

الطبيعية خاصة موارد الأنهار والبحيرات (٦٥) وقد عقدت دول المجموعة اجتماعها الرابع اعتبارا من ٧ / ٨ / ١٩٨٦ فى كنشاسا عاصمة زائير بهدف تبادل وجهات النظر فى كل المجالات ذات الإهتمام المشترك لتحقيق التقارب وتعميق مجالات التعاون على المستوى الثنائى والاقليمى وقد وضعت المجموعة موضوعات محددة لبحثها وهى المتعلقة بتعزيز مجالات الإتصال الجوية المباشرة بين الدول الأعضاء وكذلك الاتصالات اللاسلكية وأولوية التبادل التجارى (٦٦)

وبجانب هذه الإجتماعات التى باتت شبه منتظمة فإنه على المستوى العلمى نظمت السودان عددا من المؤتمرات العلمية من خلال معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية بالخرطوم كان رابعها بعنوان "دول حوض النيل . الإستمرارية والتغيير وقد عقد هذا المؤتمر فى الفترة (٢٣ – ٢٩ نوفمبر ١٩٨١) (٦٧) واستهدف المؤتمر تحقيق لقاء علمى وفكرى لعلماء وباحثين من دول حوض النيل ودول أخرى للدعوة إلى التعاون بين دول حوض النيل فى إطار مصالح متبادله مستهدفة تحقيق التنمية من خلال تعاون إقليمى (٦٨).

جهود منظمة الوحدة الأفريقية:

أسهمت المنظمة فى المحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية، فأصدرت من قبل عديدا من القرارات فى هذا الشأن من خلال مجلس وزراء المنظمة ومن مؤتمر رؤساء الدول والحكومات، فقد أصدر مجلس الوزراء قراره (CM/Res/ 118 (IV)) فى دورته العادية التاسعة بكنشاسا فى الفترة من ٤ – ١٠ سبتمبر ١٩٦٧) بعد دراسته لمشروع الاتفاقية الأفريقية للمحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية، وأوصى المجلس فى قراره بالموافقة على مشروع الإتفاقية، واستمرت الدراسة

---

(٦٥) السيد يسين (مشرف) ، التقرير الاستراتيجى العربى ١٩٨٥ (القاهرة مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام) ، ١٩٨٦ ص ٣٨٨.

(٦٦) جريدة الجمهورية ، ١٩٨٦/٨/٨ ، ص ٢ .

(٦٧) أحمد يوسف القرعى ، «المؤتمر الدولي الرابع لدول حوض النيل» مجلة السياسة الدولية (العدد ٧٧ ، يناير ١٩٨٢) ص ص ١٤٧ – ١٤٨ .

(٦٨) CM/Res/ 145 (X), CM/Res/169 (XI) .

وصدور القرارات بهذا الشأن حتى تمكن مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الأفريقية المنعقد فى الجزائر فى دورته الخامسة (١٣ - ١٦ سبتمبر ١٩٦٨) من عقد اتفاقية "المحافظة على الطبيعة والموارد الطبيعية" والتى تشير فى نصوصها إلى التشاور فى بين الدول المتقاسمة للمياه فى الإستغلال المشترك للموارد، مع حث الدول المشتركة مع الدول الأخرى فى الموارد المائية على التعاون فيما بينها.

كما أن خطة عمل لاجوس من أجل التنمية الإقتصادية لافريقيا (١٩٨٠-٢٠٠٠) وضعت عدة مقترحات بتوصيات مستندة على ما سبق أن حدده مؤتمر الأمم المتحدة للمياه من خطة تنمية وادارة موارد المياه فى مارس ١٩٧٧ وتركزت هذه التوصيات على مستويات ثلاثة: المستوى الوطنى: حيث أوصت بإنشاء لجان وطنية للمياه فى عام ١٩٨٠ ، مع المستوى دون الإقليمى حيث أوصت بتعزيز الهيئات دون الأقليمية القائمة مثل لجنة شئون أحواض الأنهار والبحيرات، وعلى المستوى الإقليمى حيث أوصت بإنشاء لجنة دولية حكومية للمياه فى الأقليم الأفريقى. كما تناولت التوصيات وضع خطط وطنية للمياه، وتعيين المشاريع المتعلقة بتوفير ايرادات المياه وإعداد تنفيذها، ومع وضع استراتيجية للتنمية فى مجال رسم الخرائط والإستشعار من البعد [٦٩]، ولقد أوصت خطة لاجوس بضرورة التزام افريقيا بإقامة المجموعة الأفريقية الإقتصادية قبل عام ٢٠٠٠ على أساس عقد معاهدة فيما بينها مع تقوية عمليات الإندماج فى القطاعات المختلفة بشكل مثالى.

ثانياً: على المستوى الثنائى:

قد يكون من نافلة القول أن نذكر أهمية قيام مشروعات فى إطار الإستفادة الكاملة والإستغلال الأمثل لمياه النيل ليواكب أهداف التنمية الإقتصادية خاصة المتعلقة بجانب استصلاح واستزراع مساحات جديدة من الأراضى. ولعل من أهم هذه المشروعات، مشروع قناة جونجلى.

---

(٦٩) راجع فى خطة لاجوس : وزارة الخارجية المصرية ، قرارات وتوصيات وبيانات - منظمة الوحدة الأفريقية ١٩٦٣ - ١٩٨٣ (القاهرة : وزارة الخارجية ١٩٨٥) ، ص ص ٧٦٤ - ٨٢٣.

مشروع قناة جونجلى:

يهدف مشروع قناة جونجلى لزيادة ايراد مياه النيل للتوسع الزراعى فى كل من جمهورية مصر العربية والسودان ويأتى ذلك بتقليل الفاقد من مياه النيل فى مستنقعات بحرى الجبل والزراف كما يعد إحدى مشروعات تقليل الفاقد من مناطق مستنقعات حوض بحر الجبل وبحر الزراف وبحر الغزال ومزرعة ونهر السوباط وفروعة ومستنقعات شاور التى تفقد منها مجتمعة ما يساوى ٤٢ مليار من الأمتار المكعبة سنويا.

ولقد بدأت دراسات استغلال مياه المستنقعات منذ بداية القرن الحالى، ولقد تقدمت الحكومة المصرية بمشروع قناة جونجلى إلى الحكومة السودانية عام ١٩٣٨ - والذى يهدف إلى التخزين فى البحيرات الإستوائية وإنشاء القناة بسعة ٥٥ مليون متر مكعب وضبط المياه للوفاء باحتياجات مصر وقت الحاجة واستمرت الدراسة والمقترحات بعد اتفاقية ١٩٥٩ تولت الهيئة الفنية دراستها للمشروع وانتهت دراسات الهيئة الخاصة بتقليل الفاقد فى بحر الجبل كمرحلة أولى للمشروع والتى تتضمن هذه المرحلة شق قناة من جونجلى على نهر الاثم سعتها ٢٠ مليون متر مكعب فى اليوم وتصب هذه القناة التى تبلغ حوالى ٣٦٠ كيلو مترا فى بدايتها عند بلدة بورمتى ومصبها عند التقاء نهر السوباط بالنيل الأبيض عند ملكال. وقد تقدمت الهيئة بمذكرتها فى هذا الشأن عام ١٩٧٤ واعتمدت الحكومتان هذا المشروع فى إطار التكامل المصرى السودانى، ولعل الآثار الإقتصادية للمشروع تكمن فى تدبير مياه اضافية تقدر بحوالى ٤,٧ مليار متر مكعب عند ملكال أو ما يعادل ٣,٨ مليار عند أسوان تقسم مناصفة بين مصر والسودان لاستغلالها فى مشروعات التنمية الزراعية (٧٠).

---

(٧٠) راجع فى مشروع قناة جونجلى : فريق أبحاث جونقلى ، ترجمة وإعداد هنرى رياض فتح الله رياض ، الحبيد على عمر ، مشروع جونقلى القدم والحديث (بيروت : دار الجبل، ١٩٨٤، ص ص ٩٣ - ٩.

- وزارة الشئون السودان، ندوة الأمانة العامة لشئون السودان بمصر حول الآثار الاقصادية والاجتماعية لمشروع قناة جونجلى (القاهرة: وزارة شئون السودان، ١٩٧٨).
- وزارة الخارجية المصرية، التكامل بين جمهورية مصر العربية وجمهورية السودان الديمقراطية ١٩٧٤ - ١٩٨٣ (القاهرة : وزارة الخارجية ، ١٩٨٣).

خاتمـــة

لاشك أن النيل بدوله المشتركة فى حوضه هو نهر دولى تحكمه قواعد وضوابط اتفق المجتمع الدولى عليها وأقرها الفقه والقانون وظهرت فى صورة اتفاقيات ومعاهدات هادفة للإستغلال الأمثل والأشمل لمياه النهر التى باتت لا تمثل معينا فقط للرى بل ولاستخدامات الصناعة فى عصر التسابق التكنولوجى والطفرات العلمية وإن كانت مصر والسودان هما أكثر دولتين يستفيدان من مياه النيل مقارنا بباقى الدول الأخرى المشتركة فى النهر إلا أن مجالات التعاون بين جميع دول حوض النيل أمر تفرضه المتغيرات الدولية والسياسية والإقتصادية سواء فى الإطار الإقليمى أو العالمى. وإن كانت العلاقات المائية بين دول الحوض مقننة بقواعد القانون - الدولى والاتفاقيات الدولية إلا أن الخلافات والمنازعات السياسية التى تطفو على السطح بين دول الحوض قد تؤثر تأثيرا سلبيا على مجالات التعاون والتنسيق وإن كان موضوع البحث قد تأى بعيدا عن التعرض لهذه المنازعات وركز بالدرجة الأولى عى مجالات التعاون فى إطار القانون الدولى فإنه يمكن القول أيضا أن مجالات التعاون ليست قاصرة على ما قرره الفقه الدولى وما جاء فى الإتفاقيات التى عقدت بين دول حوض النيل على مر سنوات طوال ناهزت التسعون عاما، بل إن مجالات التعاون والتنسيق بين هذه الدول يمكن أن تمتد إلى آفاق أوسع وأرحب ولعل المتغيرات المستمرة تقتضى إقامة علاقات بين دول حوض النيل تجمعها حول مواردها الإستراتيجية وأهمها نهر النيل، كما أنه يوضح خطة لاجوس وضع التنفيذ خاصة الجانب المعنى بالموارد الطبيعية، فإن ذلك سيخلق آفاقا جديدة لتنمية جادة تواكب الزيادة المطردة فى زيادة السكان ومن ثم المتطلبات الغذائية العاجلة وذلك بإضافة مساحات من الأراضى الزراعية الجديدة إلى الرقعة المنزرعة.

ولعل إنشاء مجموعة اقتصادية لدول حوض النيل وكذا انشاء تنظيم لحوض النيل كالتنظيمات المشابهة لأنهار النيجر والسنغال يمكن أن يعمل بمفهوم ومنطلق جديد فى إطار تحقيق ما استهدفته خطة لاجوس السابق الإشارة إليها وقد تكون تلك المجموعات نواة لتكوين سوق افريقية مشتركة قبل نهاية البعد الزمنى الأخير للخطة وهو عام ٢٠٠٠ (٧١).

(٧١) راجع الدبلوماسية المصرية والدائرة النيلية «مرجع سابق» ، ص ص ٨ -٩.

وإن كان التعاون بين دول حوض النيل للإستفادة الكاملة من مياه النيل، فإنه لابد وأن يراعى فيه ليس النصوص القانونية فحسب بل القدرة على الإلتزام والتنفيذ ومن ثم فيجب أن يراعى من البداية عند الإتفاق أن هذه الدول لا توزع أو تقسم غنائم بالتساوى بقدر ما يكون التوزيع قائما على الاحتياجات الفعلية لكل دولة وكحد أدنى دون الدخول فى التفصيلات يجب أن يراعى متوسط المطر فى الدولة ومدى اعتماد الزراعة على المطر أو الرى وكذلك مساحة الدولة وعدد السكان ومعدل التزايد فيهم (٧٢) خاصة وأن دول النيل متعددة متباينة .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن نظام مياه النيل القائم حاليا ليس بنظام تعهدى فحسب بل إنه يمثل وضعا ثابتا لحقوق السودان ومصر وأن هذه الحقوق تباشر منذ القدم وقبل أى اتفاقيات أو تأصيل للفقه الدولى فى مسائل الأنهار ولعل الارتباط المصيرى بين الدولتين أسهم إلى حد كبير فى عدم وجود مشكلات ذات حجم ظاهر وإن كان التقنين اضفى استقراراً وثباتاً للأوضاع وبما لا يدع مجال لظهور مشكلات قانونية جادة بين الدولتين فإنه على الجانب الآخر تدرك الدولتان أهمية استمرار بل واستثمار وتنمية التعاون الجاد والفعال للإستغلال الأمثل للنهر.

ومما يجدر ذكره أيضاً أن هناك قاعدة قد استقرت على مر التاريخ سجلتها شتى الاتفاقات وهى التزام الدول المطلة على النهر باحترام الحقوق المصرية فى النيل (٧٣) وكذلك باحترام حقوق الغير .

ومجمل القول بأن نهرا جمع بين شعوب تسع دول محركاً للحياه جلها وباعثها لا يمكن إلاّ أن يكون أداة تعاون خلاق لا أداة فرقة سواء صيغت وثائق التعاون وأهدافه وخططه الصياغة القانونية أم املتها وحدة التاريخ ووحدة الهدف ورابطة الحياة المتمثلة فى ذلك النهر العظيم .

---

(٧٢) راجع د. محمد عبد الغنى سعودى ، المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٧٣) د. محمد طلعت الغنيمى ، مرجع سابق ص ٥٠٨.

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٣٨٥ - ٤٠٦

أوغندا : بين الإنقسامات القبلية والإنقلابات العسكرية

د. نجوى أمين الفوال
خبيرة بالمركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية بالقاهرة

بعد مضى ما يقرب من ستة شهور على الإنقلاب العسكرى الذى أطاح بميلتون أوبوتى - للمرة الثانية - من السلطة ، أستطاع يويرى موسيفينى أن يستولى على الحكم - فى يناير ١٩٨٦ - بإنقلاب عسكرى آخر الأمر الذى يشير إلى عودة أوغندا إلى الحلقة المفرغة من الإنقلابات المضادة بعد أكثر من خمس سنوات عاشت فيها تحت ظل الحكم المدنى . وقد أوضحت هذه الأحداث أن محددات الحياة السياسية فى أوغندا قد غدت محكومة بعاملين أساسيين وهما : النزاع القلبى والقوة العسكرية . حيث تعد أوغندا من الأمثلة الصارخة فى القارة الأفريقية التى تعمقت فيها الإنتماءات القبلية للقوى السياسية الفاعلة داخل المجتمع الأوغندى ، والتى أدى الصراع فيما بينها إلى إغراق أوغندا فى حالة من الصراع الدموى المرير الذى إستمر منذ ما يقرب من ربع قرن هى عمر الأنظمة الوطنية الحاكمة بعد الإستقلال .

وتتناول هذه الدراسة بالتحليل أسباب ونتائج تصاعد الإنتماء القبلى وتفاعله مع تزايد الميل نحو إستخدام القوة فى الأنظمة التى حكمت فى أوغندا مدنية كانت أم عسكرية .

الجمهورية الأولى فى أوغندا (١٩٦٢ - ١٩٧١)

١ - العودة إلى القبلية :

على الرغم من نمو الشعور القومى بين شعوب أوغندا وقبائلها غداة الحصول على الإستقلال ، إلا أن النظام المدنى الذى تسلم السلطة سلمياً من الإستعمار

البريطانى فشل فى تنمية تلك المشاعر ، بل وعلى العكس ، فإن ممارسات ذلك النظام لسلطاته - منذ السنوات الأولى التالية للإستقلال - أدت إلى وقوع أوغندا فى حالة من "العودة إلى القبلية" ، بعد أن كان مطلب الإستقلال قد حقق الحد الأدنى من الشعور بالولاء القومى .

فمنذ السنوات الأولى للإستقلال حاول ميلتون أوبوتى تحجيم الإئتلاف القائم بين حزبه - حزب "مؤتمر الشعب الأوغندى" - وحزب "الكاباكا وحده" فى بوجندا .. وذلك بإستخدام أوبوتى للمناورات البرلمانية بمهارة عالية من أجل أن يدعم وضع حزبه ويقلل من تأييد البرلمان للكاباكا . ومن ناحية أخرى بدأ حزب مؤتمر الشعب الأوغندى فى النمو على حساب الأحزاب الأخرى بإنضمام العديد من ممثلى تلك الأحزاب فى البرلمان إلى حزب أوبوتى ، الذى كان يتحين الفرصة المناسبة للتخلص من الإئتلاف الحاكم ويسعى إلى الإنفراد بالسلطة . وقد لاحت هذه الفرصة بعد عامين من الإستقلال حينما إقترب موعد الإستفتاء على تقرير مصير ما عرف وقتها "بالمقاطعات الضائعة" ، التى إغتصبتها بوجندا من مملكة بونيورو أثناء الإحتلال البريطانى .. فوقف أوبوتى بحزم مع نتائج هذا الإستفتاء الذى قرر فيه شعب هذه المقاطعات عودتها إلى بونيورو .. وكان يهدف من وراء ذلك إلى إضعاف مركز رئيس الدولة الذى كان فى الوقت نفسه ملكاً لبوجندا وعندما رفض الكاباكا توقيع نتائج الإستفتاء ، إستخدم أوبوتى سلطاته الدستورية فى توقيعها وسلمت المقاطعات إلى بونيورو ، بعد أن أعلن أوبوتى إنهاء الإئتلاف الحاكم بين بوجندا والحكومة المركزية [1] .

وهكذا عادت الروح القبلية إلى التنظيمات والقوى السياسية الفاعلة فى أوغندا فيما عرف "بأزمة ١٩٦٤" ، وشعرت بوجندا أن إئتلافها مع الحكومة المركزية كان سلما صعد به أوبوتى إلى السلطة ، وأدى انهيار الإئتلاف إلى زيادة قوة الفواصل والحواجز التى تبعد بوجندا عن الإرتباط ببقية أجزاء أوغندا ، وتقوية النزعة الإنفصالية لديها وعودتها إلى الإنتماء القبلى بدرجة أشد من ذى قبل ، فكانت أحداث أزمة ١٩٦٤ الشرارة التى فجرت الصراع القبلى فى أوغندا على مدى ما يقرب من ربع قرن .

وعلى الرغم من أن أوبوتى قد خرج منتصراً من هذه الأزمة ، إلا أنها فى الوقت نفسه كانت تمثل بداية إنحسار قوته فى السلطة . فما أن وصل أعضاء حركة "الكاباكا وحده" إلى مقاعد المعارضة فى البرلمان حتى بدأوا فى التخطيط من أجل إسقاط نظام أوبوتى وخروجه من الحكم ، وقد وصلت محاولاتهم بالتنسيق مع بعض أعضاء حزب مؤتمر الشعب الأوغندى المنشقين على أوبوتى – إلى ذروتها خلال الأزمة الثانية التى عاصرها النظام الحاكم فى ١٩٦٦ .. حيث أتهم أحد أعضاء المعارضة فى البرلمان أوبوتى ووزير دفاعة ورئيس الأركان – عيدى أمين – بالقيام بتهريب كميات كبيرة من الذهب والعاج من الكونغو . وقرر البرلمان تشكيل لجنة للتحقيق فى هذه الإتهامات . ولكن أوبوتى إستجمع قوته وقام بتعليق العمل بالدستور وأعتقل خمسة من وزرائه ، كما أعلن عن تنحية رئيس الجمهورية (أدوارد موتيسا) عن منصبه لتضامنه مع موجهى الأتهام لتغيير رئيس الوزراء ، وتصاعدت المواجهة بين بوجندا والحكومة المركزية حينما طلب الكاباكا من الأخيرة الجلاء عن كمبالا لأنها جزء من أرض بوجندا ، فأعتبر أوبوتى هذا التصرف نوعاً من التمرد ، الأمر الذى أدى إلى "معركة القصر" فى ٢٤ مايو ١٩٦٦ وهرب الكاباكا إلى بريطانيا إلى أن مات بمنفاه . وهكذا أنتهى وضع بوجندا المتميز الذى تمتعت فيه بالحكم الذاتى ، وتم تقسيمها بعد عام إلى أربع مقاطعات فى دستور ١٩٦٧ الذى ألغى الملكية ، وأخضع الممالك الغربية للحكم المباشر من الحكومة المركزية [٢] .

وقد كان من الممكن لأوبوتى أن يحتوى إهتزاز أركان نظامه السياسى خلال الأزمة ١٩٦٦ ، إلا أن إفتقار النظام للأساس الأيديولوجى وضعف تنظيماته وهياكله السياسية ، أدى إلى جعل هذا النظام هشاً أمام أولى محاولات التدخل العسكرى فى يناير ١٩٧١ .

(أ) ظاهرة الفراغ الأيديولوجى :

كانت أوغندا عقب الحصول على الإستقلال أحوج ما تكون إلى خط أيديولوجى واضح يقود عملية التنمية بجوانبها المختلفة ، ويحتوى الإنقسامات القبلية والدينية والطبقية التى يضمها المجتمع الأوغندى خاصة مع تزايد النزعة

الإنفصالية داخل بوجندا . ولكن غياب هذا الخط الأيديولوجى للنظام الحاكم أدى إلى نمو المشاعر القبلية لدى الشعوب والقبائل المختلفة داخل أوغندا وتفاقم تأثير هذه النزعات على الإستقرار السياسى الداخلى .

وقد أختلف الكتاب الذين تناولوا النظام المدنى فى أوغندا فى تلك الفترة فى تفسير ظاهرة الفراغ الأيديولوجى ، ومدى مسئولية أوبوتى عنها ، فالبعض يرجعها إلى الظروف السياسية والإجتماعية المحيطة بأوغندا فى تلك الفترة ، والبعض الآخر يرجعها إلى نفعية القيادة السياسية وإنتهازيتها (٣) .

فالرأى الأول يقول بأن أوبوتى كان صاحب أيديولوچية منذ اليوم الأول لدخوله حلبة العمل السياسى ، حيث آمن بتطبيق نظام الحزب الواحد بأعتباره السبيل الوحيد للوصول إلى الوحدة القومية ، كما كان أوبوتى أميل إلى النموذج الثورى المركزى للتنمية الذى يعلى من شأن الاتجاه الأشتراكى . ولكن من وجهة نظر هذا الرأى فإن العداء للإشتراكية كان مستحكما فى أوغندا بدرجة منعت أوبوتى من أن يذهب إلى أبعد من الإشتراكية الشفوية، وذلك نتيجة لعدة عوامل من أهمها: الميراث الإستعمارى، وعداء الكنيسة الكاثوليكية التقليدى للإتجاه الإشتراكى، خاصة فى الجزء الشمالى الذى كان تأييده حساسا ودقيقا بالنسبة لأوبوتى باعتباره مسقط رأسه. ويرى أصحاب هذا الرأى أن أوبوتى إستغل كل الفرص التى سنحت له من أجل فرض تطبيق النمط الثورى المركزى للتنمية، حينما إستغل أزمة ١٩٦٦ فى إلغاء الملكية كما استغل محاولة إغتياله عام ١٩٦٩ فى فرض حكم الحزب الواحد بإلغائه جميع الأحزاب المعارضة .. وبعدها قدم "ميثاق رجل الشارع" الذى كان تعبيرا عن إتجاه أوغندا نحو اليسار.

أما أصحاب الرأى الآخر فيرون أن التجربة القومية المحلية كانت أكبر تأثيرا على أوبوتى من النظرية الاشتراكية .. حيث أعلن مرارا أنه رجل "براجماتى" قبل أن يكون إشتراكياً ... كما أن سلوكه السياسى خير دليل على ذلك، حيث سعى منذ البداية الى الوصول إلى السلطة ، وعندما ما تحقق له ذلك بدأ فى إقصاء القوى المزاحمة له فى الحكم . فلقد فرضت موازين القوى السياسية فى أوغندا قبل الإستقلال على أوبوتى أن يتحالف مع أعدائه - الباجندا - من أجل الوصول إلى

الحكم . وقد ظل أوبوتى فى السلطة طالما ظل قادراً على التوصل إلى محاور التوفيق بين مصالحة وبين مراكز تلك القوى ... وطالما إستفاد من قدراته البارعة فى الحسابات السياسية وإختيار اللحظة المناسبة لكل تحرك، أو بقول آخر قدراته على التكتيك السياسى(٤). ولكن عندما تمكن أوبوتى من تحقيق إنفراده بالسلطة ، خرجت التفسيرات الرسمية التى حاولت وضع التحليل الماركسى لهذه الأحداث ، وتصورها على أنها نوع من الصراع الطبقى ، وكأنها «ثورة الجماهير ضد قوى الإقطاع والقبلية ، التى كان هدفها تقسيم أوغندا بمساعدة القوى الإمبريالية الخارجية» . ولذلك فقد كان التحرك نحو اليسار وسيلة ضرورية لحل مشكلات أوغندا السياسية ، على أساس تمكين أوبوتى من بناء قاعدة صلبة فى السلطة ... حيث كانت «الوثائق الراديكالية» التي أصدرها فى السنوات الأخيرة من حكمه الأول ، وسائل من أجل السلطة .. وكانت الأيديولوچية وسيلة لكسب الشعبية ولم تكن غاية فى حد ذاتها . ومن هنا فالفراغ الإيديولوچى هو نتيجة مباشرة لنفعية القيادة السياسية فى ذلك الوقت ، وتمسكها بما فيه مصالحها حتى ولو أدى ذلك إلى إستخدامها التزييف السياسى (٥) .

ولقد أثبتت تجربة أوبوتى الثانية فى الحكم أن اتجاهاته الإشتراكية لم تكن أكثر من اتجاهات شفوية ، لم تخرج إلى حيز التطبيق الفعلى خلال التجربتين اللتين خاضهما فى السلطة .. الأمر الذى يرجح الرأى القائل بأن هذه الإتجاهات لم تكن أكثر من وسائل لتدعيم موقف النظام الحاكم فى أعقاب أزمة ١٩٦٦ .. ومن ثم يدعم القول بإنتهازية القيادة السياسية فى تلك الفترة ونفعيتها ، ويفسر فى الوقت نفسه إفتقارها إلى الشرعية ، وعجزها عن حل الصراعات القائمة أو احتوائها .

(ب) ضعف المؤسسات السياسية :

على العكس من الأحزاب السياسية التى نشأت في القارة الأفريقية فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية ، والتى تحدت شرعية النظم التقليدية ، وتبنت الفكرة القومية ، وإلتصاقها بأيديولوچية معينة، نشأت الأحزاب الأوغندية في أحضان الجماعات التقليدية ، نظراً لضعفها وإرتباطها بمناطق جغرافية معينة ...

وكان قرب الحصول على الإستقلال هو الذى دفع عجلة تكوين الأحزاب السياسية على المستوى القومى ، مثل حزب مؤتمر الشعب الأوغندى الذى نشأ عام ١٩٦٠ . ولكن إفتقار هذا الحزب إلى الأساس التنظيمى الذى يمد جذوره إلى الشعب الأوغندى جعله يفشل فى قيادة عملية الحصول على الإستقلال بمفرده، الأمر الذى دفعه إلى الإئتلاف مع حركة الكاباكا وحده «رغم إتجاهاتها الإقليمية المحافظة[٦]».

وقد أظهرت أزمة ١٩٦٦ عمق الإنشقاق الواقع داخل صفوف حزب المؤتمر الأوغندى الحاكم، حيث تضامن بعض الوزراء من الحزب مع تحرك القوى المعارضة له في البرلمان من أجل إقصاء أوبوتى عن السلطة . ورغم تخلص أوبوتى من معارضيه داخل وخارج الحزب بعد هذه الأزمة ، إلا أن الحزب الحاكم ظل يعانى من مشكلة خلق الأساس التنظيمى الآمن للوصول إلي الجماهير والحصول علي تأييدها السياسى، وبات واضحاً أن الحزب قد تشتت إلي تنظيمات حزبية محلية تملك القليل من الخبرة بالعمل المركزى ، وتعكس الخلافات القبلية والدينية داخلها. وحتى بعد إنفراد الحزب بالحكم كحزب واحد فى أكتوبر ١٩٦٩، ظل أشبه بنادى الطليعة المثقفة المنفصلة عن قاعدتها الجماهيرية ، وعجزت قياداته - التى شاب عملها الكثير من الإنحرافات السياسية - عن مجاراة ما حصل عليه الحزب من قوة سياسية فظل مجرد إئتلاف بين التنظيمات المحلية والفرعية، أكثر منه نظام قومى متكامل [٧] .

أما بالنسبة للنظام البرلماني الأوغندي ، فإنه على الرغم من أن أوغندا كانت تملك حتى عام ١٩٦٦ بناءاً تشريعياً من أقوى الأبنية البرلمانية فى شرق افريقيا وأكثرها حيوية ، إلا أن تطور الحياة السياسية بعد ذلك أفضى إلى إضمحلال دور البرلمان فيها، وإنهياره فى النهاية . فقد واجه أوبوتى ووزراؤه فى أزمة ١٩٦٦ ما وصل إلى حد التصويت على سحب الثقة من حكومته فى البرلمان ، وتعتبر هذه الواقعة قمة التطور البرلمانى فى أوغندا ، ولكنها أيضاً كانت نقطة تحول فى تاريخه ، إذ أرغم البرلمان على الموافقة على دستور ١٩٦٦ المؤقت والطائرات تحلق فوق مبناه . ثم دعم دستور ١٩٦٧ السلطة الرئاسية فوق كل مؤسسات

الدولة ومنها البرلمان ، الذى أصبح يستمد شرعيته من الرئيس ، وإقتصر عمل البرلمان على الموافقة الرخيصة لكل ماقدم إليه من قرارات، وتحولت المبادرة السياسية إلى الحزب الحاكم فخرج البرلمان من مركز السلطة . وقد مارس إهدار الحقوق البرلمانية تأثيره على فقدان النظام المدنى لشرعيته الأمر الذى هيأ الشعب الأوغندى لسقوطه(٨) .

وأمام إنسداد قنوات المشاركة السياسية ، وإنفصال الحزب الحاكم عن قواعده الجماهيرية، وإفتقار النظام السياسى للرؤية السياسية الواضحة وبرنامج العمل علي المستوي القومى ، وعجزه عن التعامل مع حقائق الواقع الأوغندى بما يحتويه من إنقسامات وتناقضات ، تدعمت الإنتماءات القبلية بدرجة أشد مما كانت عليه، وتلاشت المشاعر القومية التى كانت قد نبتت وقت الحصول على الإستقلال .. بل أن أخطر ما فى الأمر كان تخطى الروح القبلية لمرحلة السكون ، وتغذيتها لصراع إتخذ السلاح وسيلته للحسم .. وفى هذا الشأن أيضاً كان أوبوتى هو أول من أتاح للجيش التدخل لحسم النزاعات السياسية.

٢- نمو سيطرة المؤسسة العسكرية على النظام المدنى :

مثلت إستجابة أوبوتى لتمرد الجيش فى ١٩٦٤ ، بإجابته لكل مطالب المتمردين ، بداية تحول الجيش إلى «جماعة ضغط» ، ذات مصالح سياسية وإقتصادية ، إذ أصبح الجيش يكون طبقة إقتصادية ذات إمتيازات تكمن مصالحها السياسية فى المحافظة على هذا الوضع . وإذا كان أحد الكتاب قد وصف تمرد ١٩٦٤ بأنه بداية عملية تسييس الجيش(٩) » ، فإن أزمة ١٩٦٦ تعتبر بداية عملية «عسكرة السياسة» فى أوغندا ، فقد تمكن أوبوتى من أن يخضع بوجندا ووزراء المعارضة بفضل ولاء الجيش له ، وخاصة الكولونيل عيدى أمين .. واستمتع الشماليون بحقهم فى معاقبة الجنوبيين ، وامتد إستخدام أسلوب الإرهاب المباشر إلى المدنيين .. وبعد ذلك أصبح أوبوتى يخشى على وضعه ما لم يؤيده الجيش ، فظل يرشوه بتحسينات فى أحوال المعيشة وزيادة الأجور ، حتى أن أوغندا عرفت أعلى معدل للنمو العسكرى (٤٠٪) فى القارة الأفريقية ، على الرغم من صغر مساحتها كدولة (١٠) .

ويمكن القول بأن أوبوتى حينما فض التحالف القائم بينه وبين القوى التقليدية فى ١٩٦٤ ، استعاض عنه بتحالف من نوع جديد بين الطليعة الأوغندية برئاسته ، وبين العسكر . وقد تحكم أوبوتى فى الجيش بإستخدامه لتكتيك «فرق تسد» ، حيث شجع الإنقسامات القائمة في داخل الجيش ، كما وضع قوات الشرطة فى مواجهة معه . وإزاء إرتفاع أسهم الجيش فى الحياة السياسية ، بدأ أوبوتى محاولاته من أجل تحجيم دور المؤسسة العسكرية ، فبدأ فى إتخاذ القرارات الخاصة بالجيش بصورة منفردة دون أخذ رأى قائده الجنرال عيدى أمين ، ولا حتى مناقشة الأمر مع مجلس الدفاع . كذلك بدأ أوبوتى فى ترقية أهل مقاطعته من اللانجى على حساب العناصر الأخرى داخل الجيش، ومنها عناصر مقاطعة النيل الغربى التى ينتمى إليها عيدى أمين وفى سبتمبر ١٩٧٠ ، أعاد أوبوتى تنظيم الجيش بحيث لم يصبح لأمين أية سيطرة عليه فى الميدان . وانتشرت الشائعات حول عزم أوبوتى إقالة أمين أثناء تواجده فى مؤتمر الكومنولث فى سنغافورة ، فانتهز أمين فرصة غياب أوبوتى خارج البلاد وأعلن إستيلائه على السلطة، بعد أن وصلت العلاقات بين النظام المدنى والمؤسسة العسكرية إلى درجة كبيرة من التدهور والشك المتبادل. وكان أحد العوامل التى ساعدت على نجاح الانقلاب هو الإنقسام الحاد فى صفوف الجيش، والذى غذاه بإستمرار أوبوتى، فانقلب عليه، حيث أدى إنقسام الجيش على نفسه إلى منعه من التحرك لمواجهة الإنقلاب [11].

الجمهورية الثانية فى أوغندا (١٩٧١ - ١٩٧٩):

يرى بعض الكتاب أنه بالرغم من أن تاريخ ٢٥ يناير ١٩٧١ قلب نوع النظام السياسى فى أوغندا من نظام مدنى إلى آخر عسكرى ، إلا أن النظام الجديد الذى أتى به يعتبر فى كثير من جوانبه إمتداد للنظام السابق له. فمن ناحية إستمر الصراع القبلى كسمة مميزة للحياة السياسية فى أوغندا، وكل ما فعله النظام الجديد هو أنه أتى بثلاث قبائل من قبائل الأقلية إلى السلطة ، وهى الكاكوا - قبيلة عيدى أمين - واللوجبارا والمادى، بدلا من قبليتى اللانجو والاتشولى، وفى كل الأحوال ، فإن الشمال ظل يحكم البلاد منذ الإستقلال .

ومن ناحية أخرى ، أصبح الجيش يمثل مركز السلطة بسيطرته على الحكومة، ولكن هذا التغيير لا يعد تغييراً جذرياً ، فالجيش ظل عاملاً بارزاً فى السياسة فى أوغندا منذ ١٩٦٦، وكل ما حدث هو أنه بدلاً من أن يكون أداة للحكم ، أصبح هو نفسه الحاكم [١٢] .

وعلى الرغم مما يحتويه هذا الرأى من كثير من التبسيط والتجريد للأمور ، إلاّ أنه يمكن القول بأن الأسس التى قام عليها حكم عيدى أمين كانت قد وجدت التربة مهيأة لإستقبالها على يد من سبقوه فى الحكم ، الذين أتاحوا للمؤسسة العسكرية فرصة إستخدام القوة لحسم الصراعات السياسية .

وخلال السنوات الثمانى التالية للإنقلاب العسكرى ، قاد عيدى أمين نوعاً من الديكتاتورية العسكرية أدت إلى أن يطلق عليه إسم «هتلر أفريقيا» ... حيث تم إطلاق يد الجيش فى تصفية المدنيين المعارضين ، وتعليق كل الأنشطة السياسية وتم قتل أعداد لا تحصى من المدنيين أو الجنود المتمردين ، وبخاصة من بين أفراد الطبقة المثقفة فى القبائل المختلفة . واستخدم عيدى أمين الإرهاب كجزء من إستراتيجيته فى البقاء السياسى . ومنذ توليه السلطة ، إختلطت بصفة دائمة الإعتبارات القبلية مع إعتبارات توازن السلطة ، حيث إعتمد فى تقرير تحالفاته السياسية على العامل العرقى. ومنذ الأيام الأولى التالية للإنقلاب بدأت عملية تصفية الجنود من اللانجى والاتشولى ... وكلما شعر أمين بعدم الأمن ، كان الحل يكمن فى القضاء على بضعة آلاف من الجنود من تلك القبائل[١٣].

وبصفة عامة يمكن القول بأن خلال هذه السنوات من الحكم العسكرى أصبح الجيش وقادته يمثلون «الطبقة الإفريقية الجديدة» التى تملكت مقاليد الحكم وسيطرت على الحياة السياسية والاقتصادية . فأصبح رجال الجيش هم قادة الحكومة والزعماء المحليون ورجال الأعمال فى الدولة . وإنفردت المؤسسة العسكرية بالسلطة وسعت إلى الحد من المشاركة المدنية فى الحكم ، وتركزت السلطات بكل أشكالها ودرجاتها فى يد شخص واحد هو الجنرال عيدى أمين دادا، الذى أحاط نفسه بجو من تقديس الذات، مستنداً إلى مايملكه من موهبة

«الكاريزما» وهى البضاعة النادرة حقاً فى السياسة الأوغندية. ولكن إعتماد هذه الكاريزما على الجيش كجهاز للحكم ، كان يعنى الإفتقار إلى الشرعية ، نتيجة للإعتماد على وسائل القمع والإرهاب .

ولكن إستخدام العنف كان سلاحاً ذا حدين ... فإذا كان الجنود قد إستخدموه فى البداية لحماية النظام العسكرى الجديد ، إلا أنهم قد تحولوا بعد فترة وجيزة ، إلى إستخدام القمع والإرهاب لتهديد ذلك النظام والإنشقاق عليه من أجل الإستيلاء على السلطة ... وبالرغم من محاولات أمين رشوة الجيش كى يستأثر بولائه، إلا أنه تعرض خلال سبع سنوات - من يناير ١٩٧١ إلى فبراير ١٩٧٧ - لعشر محاولات لإغتياله والإنقلاب عليه (١٤). كذلك فقد بدأ الجيش فى الإنشقاق على نفسه ، بعد أن تمت له تصفية غالبية عناصر اللانجى والاتشولى ، ووقعت عدة إشتباكات مسلحة بين عناصر اللوجبارا والمادى والكاكوا، تهدف إلى تصفية بعضها البعض (١٥).

وعلى الرغم من إعلان عيدى أمين «الحرب الاقتصادية» على كل الشركات والمصالح الأجنبية ، ونقل ملكيتها فوراً إلى الأوغنديين - كحركة يهدف منها إلى كسب الشعبية للنظام العسكرى - إلاّ أن هذه الخطوة لم تكن مدروسة أو خاضعة للتخطيط المسبق ومن ثم فقد ترتب عليها تدعيم حالة التخلف الإقتصادى التى ظل عليها الإقتصاد الأوغندى منذ عهد الإستعمار. ولم ينتج عن الحرب الإقتصادية سوى ترسيخ سيطرة الجيش على البلاد، حيث أصبح له دور مزدوج فى تولى كرسى الحكم وفى إدارة الأعمال الإقتصادية ، بعد أن آلت ملكية الشركات والمصالح الأجنبية للعناصر العسكرية الأكثر ولاء لشخص عيدى أمين . وإذا أضفنا إلى ذلك تأثر القطاعات الإقتصادية بعدم الإستقرار السياسى وإنتشار إستخدام العنف والإرهاب ، لأمكن تصور حالة الإنهيار التى أصابت الإقتصاد الأوغندى ، وإستحكام حلقات الأزمة الإقتصادية التى أحاطت بأوغندا، وتزايد حدة المعاناة الإقتصادية لجماهير الشعب الأوغندى ، فى الوقت الذى أثرت فيه الطبقة العسكرية الجديدة ثراء فاحشاً (١٦) .

ويعتبر نظام حكم عيدى أمين في أوغندا نموذجاً كلاسيكياً للأنظمة العسكرية الصرفة في القارة الأفريقية ، حيث تم هدم المؤسسات السياسية التى كانت تحكم ولوصوريا - منذ الإستقلال ، وبرزت المؤسسة العسكرية كوريث لها لتحتل الفراغ الناشىء فى مركز السلطة ، ولكن نتيجة لإعتمادها على وسائل القهر والقوة كأداة للحكم ، فإنها ظلت تعانى طوال فترة بقائها في الحكم من الإفتقار إلى الشرعية . وقد إحتفظ عيدى أمين بمقعده في السلطة نتيجة إستغلاله لإنقسام القوى المعارضة له على نفسها ، وتعارض مصالحها تعارضاً حاداً جعل من الصعب عليها أن تعمل معاً، حتى وصل ضغط الحكم العسكرى عليها إلى درجة صهرت - مؤقتاً - هذه الخلافات ، وحددت هدفها المرحلى في الإطاحة بالنظام الدكتاتورى لعيدى أمين ، وذلك فى إجتماع ممثلى ٢٢ حركة سياسية معارضة له فى المنفى فى موشي بتنزانيا فى ٢٧ مارس ١٩٧٩ ، ونتج عن هذا الإجتماع تشكيل هيئة إئتلافية عليا تتولى التنسيق بين حركات المعارضة وهى «الجبهة الوطنية لتحرير أوغندا» .

وكان غزو أوغندا لحدود تنزانيا ، وما أحاط به من أحداث هو الذى فرض على الجماعات فى المنفى أن تتحد لتستغل فرصة قرار نيريرى بتعقب القوات الأوغندية الغازية إلى ما وراء الحدود. وقد واجهت القوات التنزانية جيشاً متحللاً فى أوغندا، إنخفضت قدرته على المقاومة نتيجة إنقسامه على نفسه ، ولذلك استطاعت قوات تنزانيا أن تحتل كمبالا والجنوب الغربى فى أقل من أسبوعين.، وتقيم فى المركز سلطة مدنية ، ثم تتعقب قوات أمين حتى طردتها إلى حدود السودان فى الشمال (١٧) . وفى ١٣ إبريل ١٩٧٩، أدى الرئيس الجديد يوسف لولى ووزرائه اليمين الدستورية أمام المدعى العام. نتيجة للأساس الهش الذى قام عليه التحالف بين جبهات المعارضة فإن الخلاف سرعان مادب بين السلطة التنفيذية ، ممثلة في الرئيس ، وبين المجلس الإستشارى القومى (الهيئة التشريعية)، وبدأ بينهما صراع حاد على السلطة ، إنتهى بقرار من المجلس بإقصاء يوسف لولى عن الحكم فى ٣٠ يونيو ١٩٧٩، وعين المجلس خلفاً له جودفرى بن عيسى ، الذى فشل فى فرض التسوية الملائمة لمراكز القوى فى أوغندا . ومنذ بداية ١٩٨٠ وصلت الخلافات بين بن عيسى والمجلس الإستشارى

إلى ذروتها ، حينما أقال بن عيسى رئيس الأركان - ديفيد أوجوك - أحد انصار أوبوتى فى ١٠ مايو ١٩٨٠، وأدى دخول العنصر العسكرى فى الصراع إلى المواجهة التى إنتهت بإنقلاب عسكرى قامت به اللجنة العسكرية للجبهة ، وتولت على أثره الحكم (١٨).

وقد عكس فشل الحكومتان المتعاقبتان للجبهة الوطنية ، الإنقسامات الحادة التى مزقت البنيان السياسى فى أوغندا على مدى عشرين عاماً، التى يرجع بعضها إلى أساس قبلى - تمثل فى تعبير يوسف لولى عن آمال بوجندا فى عودتها كوحدة إقليمية متكاملة والمطالبة بتمثيلها فى قوات الجيش والشرطة بحجمها وثقلها فى المجتمع الأوغندى - كما يرجع بعض هذه الإنقسامات إلى الصراعات الحزبية والمنافسة الشخصية بين زعماء الأحزاب السابقة، والتى إتخذت طابع الصراع المسلح ، بتكوين بعض القوى المتنافسة ميليشيات مسلحة وسط القبائل التى ينتمون إليها، وإستخدامها لأسلوب التصفية الجسدية لمعارضيها (١٩)، وبقول آخر ، فإن الصراعات القبلية والحزبية التى ظلت مسيطرة على الحياة السياسية فى أوغندا خلال النظامين - المدنى والعسكرى - اللذين حكما أوغندا بعد الإستقلال، إستمرت فى التفاعل حتى بعد سقوط نظام عيدى أمين ... كما إستمرت تلك الصراعات تتخذ من إستخدام القوة العسكرية وسيلتها فى حل المنازعات وفى الوصول إلى السلطة .

عودة أوبوتى إلى الحكم (١٩٨٠ - ١٩٨٥) :

فى ديسمبر ١٩٨٠ ، أجريت أول إنتخابات عامة فى تاريخ أوغندا بعد الإستقلال ، وإتسمت هذه الانتخابات بالعنف الشديد فى المنافسة الإنتخابية خاصة بين الحزبين اللذين سيطرا على المسرح السياسى منذ النضال للحصول على الإستقلال وهما «الحزب الديمقراطى» ، وحزب «مؤتمر الشعب الأوغندى» . وقد إشترك فى الإنتخابات حزبان جديدان ، هما «حركة أوغندا الوطنية» - ويتزعمها يويرى موسيفين وزير الدفاع فى الحكومة الإئتلافية التى تم تشكيلها بعد الإطاحة بعيدى أمين - و «حزب المحافظين» وهى حركة ملكية تمتد جذورها إلى حزب «الكاباكا وحده» السابق... ولكن هذا الحزب لم يحصل على أيه مقاعد

بالبرلمان ، بينما حصل حزب «حركة أوغندا الوطنية» على مقعد واحد فقط. وخرج حزب أوبوتى فائزاً بـ ٧٣ مقعداً فى البرلمان ، بينما فاز الحزب الديمقراطى بـ ٥١ مقعداً. وقد أبرزت فى هذه الإنتخابات عدة مؤشرات هامة ، فمن ناحية : أظهرت الإنتخابات أن قضية الملكية لم تعد مطروحة ، أو لم تعد تشكل عاملاً هاماً فى السياسة الأوغندية، بالرغم من أن منافسى أوبوتى قد أثاروا موضوع الأزمة الدستورية التى إنتهت بإلغاء الملكية فى ١٩٦٦ من أجل الطعن فى التاريخ الديمقراطى له ، ولكن نتائج الإنتخابات قد أكدت عدم رغبة الشعب الأوغندى فى خلق أكثر من مركز للحكم. ومن ناحية أخرى ، عبر توزيع نتائج الإنتخابات عن حقائق الإنتماء القبلى وتأثيره على الحياة السياسية إذ خسر الحزب الحاكم كثيراً من الأصوات فى باسوجا وبوجندا والمناطق الجنوبية ، بينما أحرز الحزب الديمقراطى أصواتاً معدودة فى المناطق الشمالية والغربية من أوغندا [٢٠].

ولكن أخطر المؤشرات التى دلت عليها إنتخابات ١٩٨٠ كانت تجسيدها لأزمة الثقة بين الأطراف والقوى السياسية المتصارعة فى أوغندا . فما أن أعلنت نتائجها، حتى خرجت القوى المعارضة لأوبوتى معلنة لجوء حزبه ورجاله إلى تزوير تلك النتائج . وأصدر الحزب الديمقراطى بياناً حزبياً ، رفض فيه قبول هذه النتائج مشيراً إلى سوء تنظيم الإجراءات الانتخابية وإلى تعرض مرشحيه للأرهاب فى أثنائها [٢١]. كذلك أعلن موسيفينى أن الإنتخابات لم تكن نزيهة ، وأن تلاعباً حدث أثناء عملية فرز الأصوات ، وأن الحزب الديمقراطى هو الذى كان من المفترض أن يخرج فائزاً وليس حزب مؤتمر الشعب الأوغندى . وفى أعقاب ذلك غادر موسيفينى العاصمة إلى الأحراش ، وقام بتكوين «جيش المقاومة الوطنى» الذى قاد حرباً للعصابات ضد نظام أوبوتى وجيشه النظامى[٢٢]... وهى الحرب التى وصلت به فى النهاية إلى مقعد الحكم فى أوغندا .

ويرى بعض المراقبين السياسيين أن عودة أوبوتى إلى السلطة لم تكن نتيجة لتأييد شعبى حظى به بقدر ما كانت إنعكاساً للفراغ السياسى فى أوغندا ... إذ لم يفرز مجتمع المنفى أحد الشخصيات البديلة التى يمكن أن تملأ هذا الفراغ.

فالجماعات الراديكالية فى الجبهة كانت تعانى من الضعف بسبب إنفصالها عن الجماهير وبسبب الإنشقاق الواسع داخل هذه الجماعات[٢٣].

وقد عادت السلطة إلى أوبوتى مثقلة بالمشكلات- التى كان بعضها من صنع يديه - والتى يمكن إجمالها فى حالة الشتات القومى التى صارت إليها أوغندا في ظل الحكم الوطنى ، والتى تمثلت فى إعتماد المؤسسات الحاكمة - مدنية أم عسكرية - على التأييد القبلى لها ، كما تمثلت فى رفض الباجندا التعامل مع الحكومة المركزية ... ومن ناحية أخرى ، كان هناك إنهيار النظام الإقتصادى بصورة شبه كاملة كنتيجة مباشرة لإنعدام الإستقرار السياسى وإنتشار الإرهاب والعنف ، حيث تعود الجنود الشماليون معاقبة الجنوبيين منذ أزمة ١٩٦٦ ، كما تعودوا أيضاً إستخدام إسلوب الإرهاب المباشر ضد المدنيين لمصلحتهم الشخصية والقبلية ، الأمر الذى أسفر فى النهاية عن تردى الأوضاع الإقتصادية والأمنية فى أوغندا إلى حد خطير .

وفوق كل هذه الصعاب جلس أوبوتى على مقعد الحكم للمرة الثانية يعلن عزمه على تقليص دور المؤسسة العسكرية، وعودة الجيش إلى ممارسة دوره التقليدى فى حماية البلاد من الخطر الخارجي ... كما أعلن عن تصميمه على إعادة بناء الإقتصاد الأوغندى ، متراجعاً عن بعض إتجاهاته الإشتراكية التى ظهرت فى نهاية الستينيات، وإلتزامه بسياسة أقرب إلى الإنفتاح الإقتصادى[٢٤]. الأمر الذى يدعم وجهة النظر القائلة بإفتقار أوبوتى إلى الأيديولوجية الواضحة ويعتبر دليلاً على أن إتجاهاته الإشتراكية لم تكن أكثر من نوع من المناورات السياسية ، إستهدف من ورائها تدعيم مركزه فى السلطة .

وقد ظلت سياسة أوبوتى تجاه الجيش تعتمد على نفس الأسس التى أرساها وقت أن كان فى السلطة فى الستينيات . فقد إعتمد أوبوتى على تأييد الجنود والضباط من أبناء قبيلته من اللانجى. وعلى الرغم من كون القائد العام للجيش من الأتشولى - الجنرال تينو أوكيللو الذى تزعم الإنقلاب على أوبوتى فيما بعد - إلا أن الشخصية ذات الفعالية والتى كانت مسيطرة على الجيش كان رئيس الأركان الفريق أويت - أوجوك ، الذى كان زميلاً لأوبوتى فى المنفى وينتمى إلى

قبيلة اللانجو ويدين له بالولاء الشخصى . وكان مقتل أوجوك فى حادث غامض هو الذى أثار كبار الضباط من الأتشولى ضد أوبوتى الذى أصر على تعيين أحد الضباط من اللانجى رغم وجود من هم أقدم منه من الأتشولى [٢٥] ... الأمر الذى يشير إلى إستمرار إتجاهات أوبوتى القبلية فى تكوين وسياسة الجيش .

وعلى الرغم من إستعادة أوغندا لنظامها البرلمانى وعودة الأحزاب السياسية إلى دائرة الضوء مرة أخرى ، وصدور عدد كبير من صحف المعارضة، إلا أن النظام السياسى الحاكم ظل يواجه نفس العقبات ويعانى من ذات نقاط الضعف التى كان يعانى منها فى الستينيات ، حيث ظل الإنتماء الحزبى محكوماً بالدرجة الأولى بالإنتماء القبلى ، ويتضح ذلك من خلال تحذيرات أوبوتى المتكررة - وآخرها في احتفالات حزبه بيوبيله الفضى فى مارس ١٩٨٥ - من تعصب أعضاء الحزب ضد أية قبيلة أو أى إتجاه دينى . كذلك تعرض عدد كبير من رؤساء المقاطعات من رجال الحزب الحاكم للرفض من جانب الباجندا. ففى الفترة من ١٩٨٣ حتى ١٩٨٥ تعرض ٢٧ حاكماً محلياً من الـ ٣٤ الذين تم تعيينهم فى بوجندا، للقتل من جانب الجماعات المسلحة بينما قتل مئات من أعضاء الحزب نتيجة لعمليات الإغتيال السياسى المنظمة ضدهم ، الأمر الذى يؤكد إنعدام شعبية الحزب فى هذه المناطق . ومن ناحية أخرى ، فقد تعرض أعضاء البرلمان من الحزب الديقراطى المعارض لعمليات الإعتقال ، أو المحاكمة بتهمة التحريض ضد النظام أو تمويل حركات المعارضة المسلحة . وقد وجه زعيم الحزب الديمقراطى إتهاماً إلى رئيس القضاه بالتواطؤ مع المسئولين فى الحكومة لإعتقال أعضاء الأحزاب المعارضة وسجنهم دون محاكمة [٢٦].

وفيما يتعلق بالأوضاع الأمنية فى أوغندا ، فعلى الرغم من تحسن الأوضاع مما كانت عليه خلال النظام العسكرى السابق لعيدى أمين ، إلا أن تقارير لجنة العفو الدولية التى نشرت قبيل الإنقلاب ضد أوبوتى حول حقوق الإنسان فى أوغندا ، أظهرت تعرض المدنيين فى المناطق التى يتمركز فيها رجال المقاومة المسلحة للتعذيب حتى الموت، وكشفت عن وجود بعض المقابر الجماعية لأهالى هذه المناطق [٢٧]، وقد ألقت حركات المعارضة مسئولية هذه الأعمال على الجيش

والشـرطة الذين تعـودوا على ممارسـة أعـمـال العنف ضـد المدنيين . ولم تنف الحكومـة الأوغندية وجـود تلك الأفـعـال، ولكنهـا ألقت اللوم على رجـال حـرب العـصابات الذين أتخذوا مـن السـلاح وسـيلتهم للإطاحـة بالحكومـة ، مما يدفع الجيش إلى الرد بالعنف وهو بعد غير مدرب وغير خاضع للإنضباط كلية (٢٨). وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على فشل حكومة أوبوتى فى فرض سيطرتها على قواتهـا المسلحة التى دأبت على إستخدام الأرهاب دون تفرقـة بين مدنيين أو رجال حرب العصابات .

ونتيجة لإنتشار أعمال العنف والأرهاب خاصة فى المناطق الجنوبية - حيث تمركز رجال حرب العصابات فى السنوات الأخيرة من حكم أوبوتى - فإن الإنتاج الزراعى - وهو عـماد إقتصاد أوغندا - قد أصابته أضـرار بالغة نتيـجة فـرار السكان من هذه المناطق إلى أخرى أكثـر أمناً . وقد وصف بعض المراقبين خلو مـزارع البن - المحـصـول النقـدى الأول فى أوغندا - من المزارعين الذين فـروا بحيـاتهم من الحـرب الأهليـة العنيفـة الدائرة فى هذه المناطق (٢٩) ونتـيـجـة لإضطراب الحياة الإقتصادية وتأثرها بتدهور أوضاع الأمن فى أوغندا فإن العام الأخيـر من حكم أوبوتى قد شـهد إنخـفـاضـاً حـاداً فى سـعـر الشلن الأوغندى بالمقارنة بالدولار الأمريكى كما شهد أيضاً إرتفاعًا حاداً فى معدلات التضخم(٣٠) ... مما أدى إلى تزايد المعاناة اليومية للشعب الأوغندى فى الحصول على السلع الأسـاسـية ، خاصة مع تأثر بعض مقاطعات أوغندا بظروف المجاعة والجفاف خلال هذه السنوات .

الإطاحة بأوبوتى والعودة إلى الحكم العسكرى:

وقد أدى تضـافـر عـوامل الأزمـة الاقـتـصـادية مع إسـتـمـرار تدهور الأوضـاع الأمنية ، إلى إنخفاض شعبية أوبوتى على المستوى القومى ، ومن ثم تزايد ضغط الحركات المعارضة لنظامه ... ولكن العامل الحاسم فى سقوط ذلك النظام كان تناقص ولاء الجيش له ، طالما أن القوة العسكرية قد أصبحت الفيصل فى وصول أية قوى سياسية أو عسكرية إلى الحكم ، أو بقائها فيه .

فقد تصاعدت الصدامات المسلحة بين عناصر اللانجى والأتشولى فى الجيش الأوغندى منذ صيف ١٩٨٤ ، ووصلت إلى أعنف حد لها حينما إنفجر قتال عنيف فى الثكنات فى مبويا فى ٧ يوليو ١٩٨٥ ، بعد مطالبة كبار الضباط من الأتشولى بالتفاوض مع قوات موسيفينى - جيش المقاومة الوطنى - لإنهاء حالة الحرب الأهلية الدائرة فى البلاد . ومنذ ذلك الوقت - بدأ العد التنازلى لإقصاء أوبوتى من السلطة . فقد إنضم القائد العام للجيش - الجنرال تيتو أوكيللو - مع أحد عناصر الأتشولى - الفريق بازيليو أولارا أوكيللوا - قائد الفرقة العاشرة فى جولو . ومن هناك زحف الجيش نحو كمبالا فدخلها دون مقاومة تذكر بعد هروب أوبوتى وبعض وزرائه إلى كينيا (٣١) .

ولكن ما أن نجح الإنقلاب وتولى تيتو أوكيللو رئاسة البلاد ، حتى بدأت الحركة الإنقلابية فى الإنشقاق بسبب عدم رضاء الجماعات المعارضة الرئيسية فى البلاد عن الحكومة التى شكلها أوكيللو . وتركزت المعارضة على شخص باولوموانجا الذى عين رئيساً للوزراء . وكان موانجا يشغل منصب نائب الرئيس أوبوتى وبالتالى فهو يمثل استمراراً لسياسته فى الحكم ... كما أن موانجا كان يعتبر من قبل القوى المعارضة ، المسئول الأول عن تزوير الإنتخابات عام ١٩٨٠ . ولذلك رفضت حركة المقاومة الوطنية بزعامة موسيفينى الإعتراف بالنظام العسكرى الجديد وأعلنت استئناف المقاومة المسلحة ضده . وقد إضطرت حكومة أوكيللو إلى تقديم تنازلات هائلة فى الإتفاق الذى تم التوصل إليه فى العاصمة الكينية نيروبى فى ديسمبر ١٩٨٥ بتعيين موسيفينى نائباً لرئيس المجلس العسكرى الحاكم على أن يتمتع هو وقواته بسلطات واسعة داخل الجيش. ولكن بدلاً من تنفيذ الإتفاق قام موسيفينى وقواته بإستئناف الهجوم من جنوبى كمبالا متجهاً إليها، حتى تمكن من الإستيلاء عليها وعلى السلطة فى السادس والعشرين من يناير ١٩٨٦(٣٢).

حركة المقاومة الشعبية :

حكومة عسكرية أم تنظيم سياسى واحد :

فى أعقاب تولى موسيفينى رئاسة الجمهورية ، أعلن فى عدة تصريحات له حرصه على تحقيق التنمية الإقتصادية بتشجيع خليط من المؤسسات الحكومية والخاصة وإقتلاع جذور التخلف والأمية ، والخلافات القبلية والعشائرية حتى يتم بناء الإقتصاد الأوغندى من جديد. وأكد موسيفينى حرصه على المحافظة على سياسة عدم الإنحياز مع الدول العظمى ، ووعد أيضاً بالعودة إلى الديمقراطية البرلمانية، وأصدر أوامره بوضع حد للفظاعات التى كانت تقوم بها القوات المسلحة(٣٣).

وعلى الرغم من أن المدة التى مكثها موسيفينى فى السلطة حتى الآن لا تسمح بالحكم على نظامه من حيث وفائه بعهوده ، و إلاّ أنه من الممكن إستخلاص بعض المؤشرات التى قد تفيد فى إستقراء الخطوط العامة لسياسة هذا النظام وتوجهاته ، والإحتمالات التى تواجهه فى المستقبل .

لقد وصل موسيفينى إلى السلطة عن طريق حرب أهلية أعلنها منذ ١٩٨١ إحتجاجاً على وصول نظام أوبوتى إلى الحكم بطريقة غير شرعية . ولم يكن تولى موسيفينى السلطة نتيجة إنقلاب عسكرى من داخل النظام الحاكم تم تدبيره فى الظلام ، بل على العكس ، فإنه منذ البداية قد أعلن عن هدفه فى إسقاط نظام الحكم غير الشرعى والإستيلاء على السلطة. وبقول آخر فإنه على الرغم من إستخدام موسيفينى للقوة العسكرية للوصول إلى الحكم، إلاّ أنه لا يدخل فى عداد الإنقلابات العسكرية التقليدية التى تحدث فى القارة الأفريقية أو تلك التى حدثت فى أوغندا من قبل . وقد إستفاد موسيفينى من ظروف الحرب الأهلية حيث تمكن من تكوين جيشه - جيش المقاومة الوطنى - الذى يتألف من حوالى عشرة آلاف مقاتل، يدينون بالولاء لشخصه بشكل صارم، حيث أحسن إعداده وتدريبه وتنظيمه بصورة جعلته أفضل من الجيوش النظامية لبعض الدول الأفريقية (٣٤). وقد منحت الحياة فى الأحراش فرصة الإحتكاك بين المقاتلين من جيش المقاومة وبين أفراد الشعب الأوغندى وساعدت على وجود نوع من الصلة بينهم وبين المواطن الأوغندى ، كما إمتنع مقاتلى الحركة عن

أعمال العنف ضد المدنيين أثناء تقدمهم فى المناطق التى تركتها قوات الجيش الحكومى ، مما أدى إلى زيادة عدد المتطوعين فى صفوفهم بالإضافة إلى وجود نوع من التأييد الشعبى الذى تحظى به هذه الحركة (٣٥). وتكاد تجمع جميع التحليلات والأنباء على أن موسيفينى لا تحركه دوافع أو عوامل قبلية، وإنما يتحرك بوحى من إتجاهاته القومية ... والدليل على ذلك أن موسيفينى يأتى من قبيلة أنكولى فى غرب أوغندا ، ومع ذلك فقد استطاع أن يجتذب إلى حركته العديد من الباجندا الذين ساندوه على قيادة الحرب فى المناطق الجنوبية(٣٦).

وقد صرح المسئولون فى حركة المقاومة الوطنية بأن الإنتخابات العامة سوف تجرى بعد فترة ٤ سنوات ، وفى هذه الأثناء فإنه تقع على عاتق حركة المقاومة مهمة توعية الأغلبية من الشعب وهم المزارعين حتى لا تستغل الأحزاب السياسية جهلهم وفقرهم كما فعلت ذلك من قبل . وتحاول الحركة أن تعيد بناء النظام السياسى فى أوغندا من جديد بتكوين خلايا سياسية تعرف باسم «لجان المقاومة» على مستوى القرى ثم المقاطعات ثم الدولة، أى من القاعدة إلى القمة، وتنتهى إلى المجلس الوطنى للمقاومة الذى يقوم محل البرلمان وتصاحب هذه العملية مجموعة من الندوات السياسية تهدف إلى توعية المواطنين بأنهم يملكون الآن السلطة وعليهم واجبات ممارستها من خلال لجان المقاومة ، كما تهدف إلى دحض الشائعات حول كون الحركة تنظيم ماركسى يرفض الأديان . وقد أنشئت مدرستان للتعليم السياسى إحداهما فى لويرو للمدنيين والأخرى بعنتيبى للعسكريين ، وتهدف هذه المدارس إلى تخريج الكوادر السياسية التى من واجبها مساعدة إنتشار مجالس المقاومة ، أما مهمة هذه المجالس فتتلخص فى إستعادة الأمن والعمل على حفظه فى مناطقها ، ومحاربة الفساد ومراقبة التجار لمنع الإتجار فى السوق السوداء ، كما تتولى مع الشرطة عملية إختيار المتطوعين فى الجيش الأوغندى من أجل إختيار العناصر الصالحة بهدف تشكيل جيش متوازن قبلياً. ويمكن مقارنة هذه المجالس بالجمعيات الشعبية فى أريتريا ، أو لجان الدفاع عن الثورة فى كوبا(٣٧) .

وقد كان من الطبيعى أن يفرض واقع المجتمع الأوغندى بما يحتويه من روح قبلية ونزاعات دينية وسياسية وممارسات لها تاريخ من الفساد والإرهاب –

نفسه على الساحة السياسية . فبعد أقل من عام بدأت الأحزاب السياسية القائمة تتهم النظام الحاكم بمحاولة فرض نظام الحزب الواحد مرة أخرى على أوغندا ، وتطور الأمر إلى مصادرة جريدة «المواطن» لسان الحزب الديمقراطى ، وإعتقال بعض المحررين من صحف الأحزاب السابقة[٣٨]. وإلى جانب التيارات السياسية المناوئة لحكومة حركة المقاومة الوطنية، تواجه هذه الحكومة ما هو أصعب من مجرد الجدل السياسى خاصة فى المناطق الشمالية وعلى الحدود مع السودان حيث تتمركز قوات أوكيللو منذ الإطاحة بحكمه القصير، كما تتجمع القوات التى كونها عيدى أمين على أمل العودة إلى الحكم [٣٩]. كذلك أعلنت حكومة حركة المقاومة نبأ قضائها على محاولة إنقلاب عسكرى قام بها وزيرا الطاقة والبيئة فى الحكومة، وهما من الباجندا، وكانا يستهدفان الحصول على تأييد الأعداد الكبيرة من الباجندا داخل جيش المقاومة الوطنية». وإتهمت الحكومة باولوموانجا - نائب أوبوتى ثم رئيس الوزراء السابق بتمويل محاولة الإنقلاب ، ولذلك ألقى القبض عليه مع عدد من زعماء الحزب الديمقراطى ورئيس تحرير جريدة الحزب . وبلغ عدد المقبوض عليهم ٢٠ شخصاً بالإضافة إلى بعض عناصر من فرق الجيش المتمركزة فى ليرا[٤٠].

وتشير هذه الأحداث إلى أن المهمة التى تقع على عاتق موسيفينى ليست بالمهمة السهلة أو الهينة ... فهناك عامل الصراع القبلى الذى ظل نشطاً فى تشكيل المسرح السياسى الأوغندى منذ الإستقلال ، ثم نمو المؤسسة العسكرية إلى الحد الذى جعلها وسيلة الفصل بين القوى المتصارعة على السلطة ، وجنوحها نحو إنتهاك حقوق الإنسان الأوغندى وتمرسها منذ أمد طويل على الإعتداء على المدنيين... كل هذا ليس من السهل محوه من على الساحة السياسية، أو إقتلاع جذوره الضاربة فى أعماق المجتمع الأوغندى... بل يتطلب سنوات من العمل السياسى الجاد الذى يفرز مؤسسات وهياكل سياسية تستطيع أن تحتوى عوامل الإنقسام والصراع، وتخلف حد أدنى من الفكر القومى الذى يسمح بالتعدد ولكنه يصنع الأرضية المشتركة التى تعلى الإنتماء القومى على الولاءات القبلية أو الدينية أو الطبقية. هذا ما فشلت فى تحقيقه الأنظمة الوطنية السابقة فى أوغندا ، فهل يستطيع موسيفينى ونظامه أن يعيد إلى «لؤلؤة أفريقيا» بريقها السابق؟ هذا ما ستكشف عنه الأيام والسنوات القادمة .

المراجع :

(1) Mazrui, A. & Tidy, M. "Nationalism and New States in Africa". Heinemann, London, 1985, pp. 211-3.

(2) Ibid., PP. 213-4. Also, Gertzel, "Uganda", In Legum, C., (Ed.), "Africa Hand Book". Penguin References Books, London, 1969, PP. 203-5.

(3) Pinycwa, A., "A Decade of Independence in Uganda", in Africa Quarterly, July, 1972, pp. 75-81. Also, Pinycwa, A., "Political Development and Ideological Void: Uganda under Apolo Milton Obote". A paper submitted to the International Congress of Africanists, Addis Ababa, 1973, pp. 1-6.

(4) Mazrui & Tidy, Op. Cit., PP. 211-2.

(5) Glentworth, G. & Hancock, I., "Obote and Amin; Change & Continuity in Modern Ugandan Politics", in African Affairs, July 1973, PP. 242-8. And, Mittleman, J., "The Anatomy of a Coup: Uganda, 1971, "in Africa Quarterly, October 1971, P. 192.

(6) Rochild, R. & Rogin, M. "Uganda", in Carter, G.M., "National Unity and Regionalism in Eight African States". Cornell University Press, New York, 1966, P. 353.

(7) Sathyamurthy, T.V. "The Social Base of the Uganda People's Congress, 1958-70, "in African Affairs, October 1975, PP. 452-8. Also, Mittleman, Op. Cit., P. 191.

(8) Mazrui & Lakidi, D., "Parliament, Parties, and Presidency in East Africa's Experience". A Paper submitted to the International Congress of Africanists, 1973, Addis Ababa.

(9) Gutteridge, W., "Military Regimes in Africa". Methuen & Co., Ltd., London, 1975, PP. 158-9.

(10) Lee J.M., "African Armies And Civil Order". Chatto & Windus, London, 1969, P. 105. Also , Glentworth, Op. Cit., PP. 248-9.

(11) Mazrui & Tidy, Op. Cit., PP. 250-2. and Lofichie, M., "Uganda Coup: Class Action by the Military", in Journal of Modern African Studies, May, 1972, PP. 26-9.

(12) Glentworth & Hancock, Op. Cit., P. 288.

(13) Mazrui & Tidy, Op. Cit., PP. 272-9.

(14) Newsweek, 28 February, 1977, P. 11.

(15) A Special Correspondent; "Uganda Under Military Rule", in Africa Today, March, 1973, P. 16.

(16) Legum, C., (Ed.) "Africa Contemporary Record, (1974-5), Rex Collings, London, 1975, P. B303. Also, Shaw, T., "Uganda Under Amin: The costs of confronting dependency", in Africa Today, Spring 1973, P. 38. and Willettes, Op. Cit. P. 283.

(17) Gertzel, C., "Uganda After Amin: The counting search for leadership and control", in African Affairs, October 1980, P. 463.

(18) Ibid., PP. 471-3.

(19) African Research Bulletin, June, 1979, P. 5301.

(20) Matatu, Godwin, "Uganda: The resurgence of a nation", in Africa, February, 1981, p. 17.

(21) Nedge, W., "Obote Regains Power", in Africa, January, 1981, P. 10.

(22) "Why Obote Fell a Second Time?" in Africa Now, August 1985, P. 18.

(23) Gertzel, (1980), Op. Cit., PP. 481-2.

(24) "President Milton Obote Talks To The Editor-in Chief", in Africa, February, 1981, PP. 14-6.

(25) Legum, (Ed.), "Africa Contemporary Record, (1984-5)". London, 1985, P. B397.

(26) Ibid., PP. B401-2.

(27) "Uganda: Evidence of Post Amin Atrocities", in Africa Now, July, 1985, P. 21.

(28) Legum, (1985), Op. Cit., P. B403.

(29) "Rendezvous With the NRA", in New African, July, 1985, P. 15.

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٤٠٧ - ٤٢٥

ثـروة النيل السـمكية

د / أحمد سليم خليل

وكيل الوزارة بالهيئة العامة لتنمية الثروة السمكية

المحتـويـات :

أولاً المقدمة :

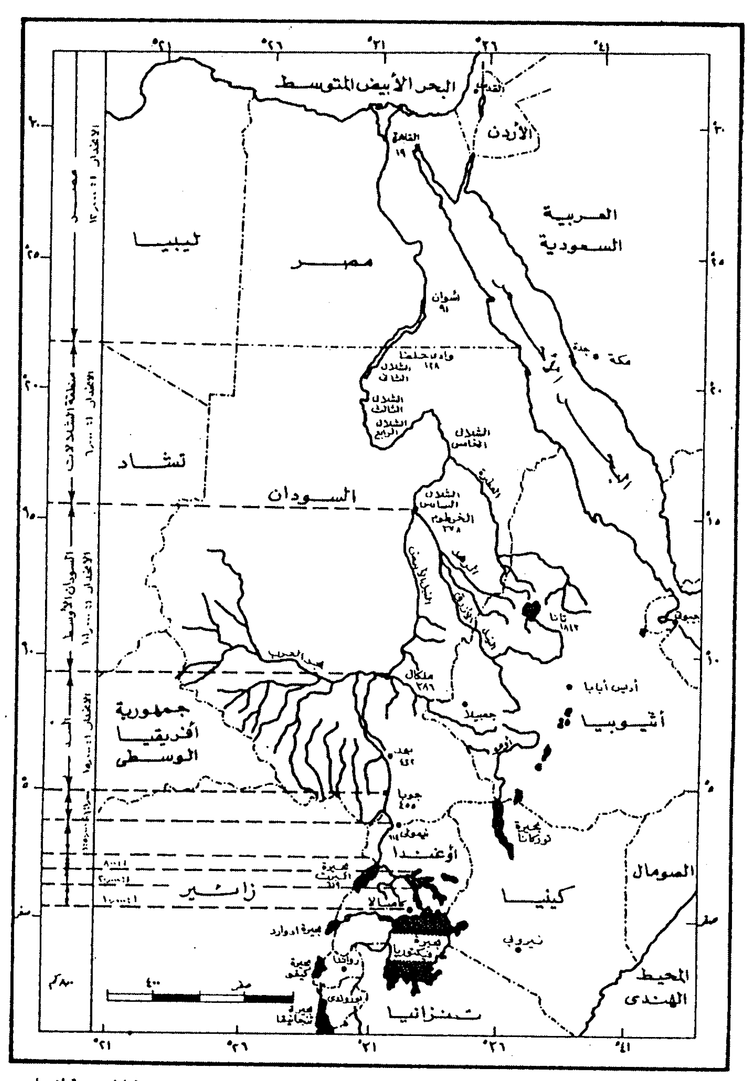
يمتد نهر النيل من منبعه من قلب الغابات والبحيرات الأستوائية وهضبة الحبشة فى قلب أفريقيا ويصل إلى شمال الدلتا المصرية ... والنيل فى سريانه وتدفقه المستمر يضارع فى شموخه وكبريائة نهر الميسيسبى فى القاره الأمريكية الشمالية ونهر الأمزون فى القارة الأمريكية الجنوبية ونهر الفولجا والجافايا فى آسيا .... ولكن نهر النيل يمتاز عنهم جميعاً بمائه الصافى وتدفقه المستمر وهو بذلك يضرب لنا مثلاً فريداً فى الوفاء والعطاء حتى حدا الأمر للمؤرخ القديم هيرودوت للقول بأن مصر هبة النيل .

وقد أوضح هيرودوت مدى انتشار مهنة الصيد فى عهد القدماء واعتمادهم على الأسماك فى الغذاء ، وهذا الإنتشار لمهنة الصيد نجده مسطرا أيضاً على جدران أهرامات ومعابد الفراعنه وأنهم أول من استخدم فى التاريخ القديم الحرب كحرفة فى صيد أسماك النيل .

وتعتبر مهنة صيد الأسماك من نهر النيل عاملاً رئيسياً لإستقرار المصريين القدماء وقيام الحضارة المصرية القديمة حيث أنها عملت على توفير مصادر الغذاء والرزق لهم وحافزاً على مزاولة مهنة الزراعة والتوسع فى الإنتاج الزراعى نظراً لأن الإنتاج السمكى يقوم بتغطية فترة الزراعة وحتى جنبى المحصول .

ويعتبر الماء أهم عناصر التنمية فى مصر ولما كانت مصر قليلة الأمطار فهى تعتمد أساساً على نهر النيل باعتباره المصدر الرئيسى للماء ومصدر الحياه فيها .

وينبع نهر النيل من منابعه فى هضبة البحيرات وهى هضبة مرتفعة تكثر فيها البحيرات العذبة التى تغذى النيل بمياهها وأهم هذه البحيرات (بحيرة ڤيكتوريا) حيث تقع وسط الهضبة وتصب فيها أنهار عديده مكونه فى النهاية مجرى نهر النيل ، وتختلف أعماق النهر واتساعه من مكان لآخر على طول بحرى النهر .



١ - ٢ : حوض النيل موضحا ارتفاع النهر فوق سطح البحر فى مواقع مختارة بغرض توضيح اختلاف درجة انحدار النهر فى اجزائه المختلفة .

ويمتد نهر النيل فى جمهورية مصر العربية من محافظة أسوان جنوباً وحتى محافظة القاهرة مكونه منطقة الصيد التى تظهر كشريط عظيم الطول وعند القناطر الخيرية يرتفع مجرى النيل شرقاً وغرباً إلى فرعيه دمياط ورشيد حيث يصب فى النهاية فى البحر الأبيض المتوسط حاصراً بينهما دلتا نهر النيل .

وتختلف كمية المياه التى كانت تجرى فى النيل من فصل لآخر ومن سنة إلى أخرى ، فبلغت فى بعض السنوات ١٥٠ مليار متر مكعب من المياه بينما إنخفض إلى ٤٥ مليار متر مكعب فى السنوات الشحيحة ويبلغ متوسط إيرادات النيل السنوى ٨٤ مليار متر مكعب ويستفاد بـ ٥٢ مليار بينما ينساب الباقى ومتوسطه ٣٢ مليار متر مكعب من المياه إلى البحر المتوسط رغم الحاجة الماسة إليه .

ومن هنا اتجه التفكير إلى بناء سد كبير لتخزين مياهه لتدخر من مياه السنوات الوفيرة الإيراد لإستخدامها فى السنوات الشحيحة الإيراد مع ضمان تخزين متوسط الإيراد السنوى للنيل والذى يقدر بـ ٨٤ مليار متر مكعب ويقدر حالياً نصيب مصر الكلى من إيراد النيل بعد إقامة السد العالى ٥٥,٥ مليار متر مكعب .

ويجرى النيل حاملاً فى طياته العديد من المواد العضوية والأملاح المعدنية والخصوبه والتى تعمل على توفير الغذاء الطبيعى اللازم لنمو وتكاثر وازدياد المخزون السمكى ، ويقدر مساحة السطح المائى لنهر النيل وفروعه بحوالى ١٧٨,٠٠٠ فدان كما يقدر متوسط الإنتاج السنوى للأسماك نحو ٢٠ ألف طن من أنواع الأسماك المختلفة (بلطى - قرموط - لبيس - شال - بساريه - بنى - بياض - ثعبات) .

ويلعب نهر النيل دوراً هاماً فى تنمية الثروة السمكية سواء من خلال المجارى المائية المتفرعة عنه وكذلك الأخوار والخلجان المائية التى تكون بيئة صالحة ومربى طبيعى لأمهات الأسماك لكى تضع بيضها وتنمو فيها الأصباعيات أو من خلال البحيرات الصناعة مثل بحيرة ناصر ووادى الريان وأخيراً دوره فى تغذية البحيرات الشمالية مكونه بيئة خصبة لنمو الأسماك وزيادتها هذا من ناحية ومن

ناحية أخرى عمله على خلق فرصة عمالة وتكوين تجمعات سكانية وعمرانية على ضفافه أو من خلال مشاريع المزارع السمكية المنتشرة فى ربوع الوادى .

ثانياً : دور نهر النيل فى تكوين البحيرات الصناعية :

١ - بحيرة السد العالى (على جانبى المجرى) :

نتيجة لبناء السد العالى فقد تكونت بحيرة السد العالى بمساحة إجمالية ١٢٠٠٠٠٠ فدان وبذلك تكون هذه البحيرة الصناعية لعظيمه والتى يتوسطها مجرى النهر ٠٠٠٠٠٠ أكبر بحيرات العالم الصناعية حيث أمتد الحديث عنها شرقاً وغرباً كأكبر خزاناً مائياً فى العالم صنعته يد البشر وعلى جانبى هذه البحيرة سارعت جموع الصيادين للإستيطان على شواطئ خلجانها وأخوارها لتكون قريبة من مصايد السمكة الفرعونية الأصل "بلطى النيل" وهنا إشارة واضحة لهجرة عمال الصيد حيث الرزق والإنتاجية وبذلك تظهر ملامح حضارة حديثة على ضفاف بحيرة السد على قدم وساق مع حضارة الإستزراع النباتى .

٢ - بحيرة وادى الريان :

نتيجة لأساليب التنمية تكونت بحيرة وادى الريان .. البحيرة البكر لمياه صرف الأراضى الزراعية بمحافظة الفيوم بمساحة إجمالية ٥٠٠٠٠ فدان تربى وتستزرع فيها أسماك المياه العذبه ونظراً للكثافة العالية للكائنات النباتية والحيوانية بها والمواد العضوية المتهتكة فإن الأسماك تنمو فى بحيرة وادى الريان بمعدلات تفوق كثيراً المسطحات المائية الأخرى ولذلك هرع الصيادون للإستيطان والصيد هكذا طبيعة البشر يهرعون وراء الرزق .

ثالثاً : دور النيل فى تكوين وتذية البحيرات :

١ - بحيرة قارون :

رغم أن بحيرة قارون هى من بحيرات المياه البحرية وتتساوى نسبة الملوحة فيها مع نسبة ملوحة البحر الأبيض إلا أن هذه البحيرة تكونت فى الأصل من

تصافى مياه صرف الأراضى الزراعية تلك المياه الواردة من مجرى النيل عبر بحر يوسف منذ القدم والتى لا يزال يصب فيها حتى اليوم مصرف البطسمى فهى رغم ملوحتها إلا أنها مازالت تتغذى حتى اليوم من تدفق النيل وشريانه ولولا هذا التدفق لتحولت البحيرة إلى كتلة ملح نتيجة للبخر اليومى لمسطحها المائى والذى يبلغ ٥٥٠٠٠ فدان ويعيش على ضفافها صائدى محافظة الفيوم منذ قارون حتى اليوم .

وتقوم الهيئة العامة لتنمية الثروة السمكية من منطلق مسئوليتها بتغذيتها بزريعة واصباعيات أسماك المياه البحرية .

٢ - بحيرات الشمال :

لقد صدق هيرودوت حين قال إن كل المصريين يمتلكون شبكة فى دلتا النيل حيث يمتد الأثر المباشر لنهر النيل فى تكوين بحيرات الشمال الدلتا وتغذيتها بمياه صرف الأراضى والتى تكون بيئة خصبة غنية لأ فضل الأسماك التى تهرع زريعتها للدخول عبر البواغيز - هذه البحيرات والتى يصل إنتاجها إجمالاً أكثر من ٦٠ ٪ من الإنتاج السمكى السنوى لجمهوية مصر العربية فإذا كان الإنتاج العام ٢٢٠٠ طن فى العام فإن ٦٠ ٪ يتم صيده من بحيرات مصر حيث يغذيها النيل عبر المسالك المائية والمصارف .

- بحيرة البرلس وسط الدلتا وتبلغ مساحتها الحالية ١٣٠٠٠٠ فدان .
- بحيرة أدكو شمال غرب الدلتا وتبلغ مساحتها الحالية ١٦٠٠٠ فدان .
- بحيرة مريوط شمال غرب الدلتا وتبلغ مساحتها الحالية ١٥٠٠٠ فدان .
- بحيرة المنزلة شمال شرق الدلتا وتبلغ مساحته الحالية ١٩٠٠٠٠ فدان .

رابعاً : مؤشرات التوسعات الأفقية فى مجال الثروة السمكية :

شملت إستراتيچية وزارة الزراعة والهيئة العامة لتنمية الثروة السمكية إستغلال مياه النيل فى إنشاء مزراع سمكية جديدة ونشر زراعة الأسماك فى حقول الأرز .

١ - الأستزراع السمكى :

- مزرعة برسيق السمكية بمحافظة البحيرة ٢٠٠٠ فدان .
- مزرعة الزاوية السمكية بمحافظة كفر الشيخ ١٠٠٠ فدان .
- مزرعة الرسوة السمكية بمحافظة بور سعيد ١٠٠٠ فدان .
- مزرعة مشروع المزارع السمكية بمحافظة الشرقية "جارى الإنشاء" ١٢٠٠ فدان .
- مزرعة محافظة الشرقية بالعباسية بمحافظة الشرقية ٢٠٠ فدان .
- مزرعة محافظة دمياط بمحافظة دمياط ١٠٠٠ فدان .
- مزرعة القوات المسلحة بمحافظة كفر الشيخ ١٠٠٠ فدان .
- مزراعة محافظة كفر الشيخ بمحافظة كفر الشيخ ١٠٠٠ فدان .

هذا بخلاف مزارع القطاع الخاص التى تشرف عليها الهيئة العامة لتنمية الثروة السمكية وتستئجر منها وتبلغ مساحتها ٨٠٠٠ فدان وبخلاف المشاريع تحت الإنشاء فى وادى مريوط وأطراف البحيرات الشمالية والتى تروى كلها من ماء النيل أو صرف الأراضى الزراعية والتى يرويها النيل أيضاً .

هذه الأرقام تعد دلالآت ومؤشرات إقتصادية فى نفس الوقت نظراً لإنتاجيتها المنتظمة.والكم الهائل من العمالة المدربة التى تعمل فى هذا المجال المبكر للمصريين .

٢ - الأستزراع السمكى فى حقول الأرز :

لقد أنتشرت زراعة الأسماك فى حقول الأرز تدريجياً

- فى عام ١٩٨٣ أستزراع ٥٠٠ فدان .
- فى عام ١٩٨٤ أستزرع ٥٤٠٠٠ فدان .

- فى عام ١٩٨٥ أستزراع ١٠٠٠٠٠ فدان .

- فى غام ١٩٨٦ أستزراع ٢٥٠٠٠٠ فدان .

بمتوسط إنتاجية من ١٠٠ - ١٢٠ ك فدان .

خامساً : وسائل رفع إنتاجية أسماك النيل :

١ - القضاء على التلوث :

تلقى بعض الهيئات والشركات والأفراد المخلفات فى ماء النهر وفروعه مما تسبب عليه تلوث مياه النيل فى كثير من الأماكن .. وذلك دون إكتراث بقدسية الماء وأهمية مما تسبب عنه الأضرار الجسيمة بحياة الأفراد .

وقد صدر بحمد الله قانون منع التلوث فى نهر النيل والأمل معقود على أن يتم التنفيذ بكل حزم وفاءًا للنيل وصحة الإنسان المصرى .

٢ - تنظيم أستخدام المبيدات :

تقوم وزارة الرى بالقاء مبيدات الحشائش فى كثير من الترع والرياحات ويتسبب على ذلك تدمير جميع أنواع الأسماك الكبيرة منها والصغيرة وبكميات ضخمه .

وحفاظاً على صحة الإنسان وتوفير الغذاء البروتينى من الأسماك يجب تنظيم إستخدام هذه المبيدات وأماكن القائها ودراسة إقتصاديات إستخدامها لإزالة حشائش الماء فى ضوء الخسارة الكبيره من موت الأسماك نتيجة لألقاء هذه المبيدات فى مياه النيل والترع والرياحات .

٣ - القضاء على طرق الصيد المخالفة :

تفشت طرق الصيد المخالفة لقانون الصيد فى كثير من مسطلحات مياه النيل والترع بشتى المحافظات ويجب التنسيق مع شرطة المسطحات المائية للوقوف

بحزم ضد المخالفين وإرشادهم إلى طرق الصيد القانونية والتوعيه بمواسم الصيد والحجم التسويقى للأسماك .

٤ - تحويل الأخوار إلى مزارع سمكية :

توجد على جانبى نهر النيل مجموعة كبيرة من الخيرات ضحلة المياه ويمكن أن تمتد يد التنمية إلى هذه الأخوار بأسلوب علمى وتحويلها إلى مزارع سمكية يتمثل فيها المراحل الفنية اللازمةلإدارة وتشغيل المزرعة السمكية الطبيعية ويمكن أن يتم ذلك بعمل فواصل من الشباك مختلفة الماجات لحجز الأسماك فى مراحل نموها (الزريعة - الأصبعيات - أسماك التربية - الأمهات).

وقد سارت بلاد كثيره فى هذا الدرب كالاتحاد السوفيتى وبلاد شرق آسيا المزدحمة بالسكان حيث أخبرتها وسائل التنمية لإستغلال الخيران والأماكن الضحلة فى مياها النهرية .

ومصر تمتلك هذه الأساليب والإمكانيات وقد شهد خوراطاً بمحافظة المنيا هذا الإهتمام والأمل معقود على إمتداد هذه السياسة الباقى الخيران بالنيل .

٥ - إنشاء المفرخات السمكية لتنمية نهر النيل :

تتضمن سياسة الهيئة العامة للثروة السمكية إنشاء المفرخات السمكية لتوفير زريعة الأسماك وتحسين سلالاتها وقد أقامت الهيئة عدة مفرخات لتفريخ أسماك المياه العذبة فى المحافظات الشرقية والبحيرة وكفر الشيخ .

ومن منطلق هذه السياسة لتنمية الثروة السمكية بمياه نهر النيل ستقوم الهيئة العامة للثروة السمكية بإنشاء عدة مفرخات للأنواع المرغوبة من الأسماك وذلك بمحافظات صعيد مصر لتوفير الزريعة اللازمة بالقرب من أماكن تربية الأسماك وما يترتب عليه من تنمية لصناعة تفريغ الأسماك وتربيتها لصعيد مصر الذى ظل إلى عهد قريب فى حاجة ماسة إلى الأساليب العلمية للتنمية فى مجال الثروة السمكية .

٦ - إزالة الحشائش التى تسد مجرى النيل :

دأبت بعض بلاد العالم على إستخدام بعض أنواع الأسماك أكلة الحشائش لألتهام الحشائش التى تعوق مجرى النيل .

وفى هذا المجال إستجلبت الهيئة أسماك مبروك الحشائش الذى يتغذى على الحشائش الخضراء وقامت بتفريغ هذا النوع من الأسماك فى المفرخات السمكية بها وقد قامت الهيئة بالفعل بنقل أصبعيات أسماك مبروك الحشائش مع بعض الأنواع المختلفة من الأسماك ووضعها فى أماكن مختلفة على جانبى نهر النيل فى محافظات صعيد مصر كأسلوب للتنمية الرأسية وإرشاد الزراعين والصيادين بمراحل نمو الأسماك وتربيتها حتى الحجم التسويقى ويترتب على هذا الإجراء إزالة الحشائش التى تعوق نهر النيل ومنع تدفق المياه من ناحية ، ومن ناحية أخرى توفير كميات جديدة من الأسماك للمستهلك المصرى حيث أن الزيادة فى الأنتاج السمكى وتنمية الثروة السمكية هى الركيزة الأساسية فى الأمن الغذائى لأنه الأمل السريع للخروج ومن أزمة نقص البروتين الحيوانى .

٧ - تربية الأسماك فى الأقفاص :

وتمشياً مع سياسة الزراعة المحمية فوق سطح الأرض فقد سارت الهيئة أيضاً فى هذا الإتجاه بمد سياسة الزراعة المحمية تحت سطح الماء وإنشاء الوحدات الآتية لتربية الأسماك بالأقفاص :

(أ) وحدة وفوه :

وتعد الوحده الرئيسية من حيث العدد ونوعية الأسماك التى تربى حيث تم أنشاء هذه الوحده على الفرع الرئيسى للنيل "رشيد" بجوار مفرخ فوه حتى يمكن إمداد الأقفاص بالأصبعيات المناسبة ورعايتها وحمايتها وتعد هذه الوحدة من الوحدات المنتجة حالياً للأسماك من المبروك والبلطى .

(ب) وحدة جزيرة الدهب :

تم إنشاء هذه الوحدة أيضاً على نفس نمط الوحدة السابقة بإشراف الهيئة .

(هـ) وحدة جامعة قناة السويس :

أنشئت هذه الوحدة على ترعة الاسماعيلية بالقرب من مدينة الاسماعيلية وتشرف عليها جامعة قناة السويس .

(د) وحدات القطاع الخاص :

وتنتشر هذه الوحدات على فروع النيل والمسطحات المائية الداخلية والأمل معقود على زيادتها عدداً وعدة خاصة بعد أن توفرت زريعة الأسماك من المفرخات السمكية التى تشرف عليها الهيئة .

٨ - توجية الإستثمارات اللازمة :

إن مدارات التنمية المذكورة يلزمها بالضرورة تكريث وتوجيه الاستثمارات المناسبة .

(أ) فى مجال إعداد الأفراد والكوادر البشرية بالتدريب والإرشاد والتوعيه .

(ب) المعدات والأدوات والميكنه .

وذلك تمشياً مع سياسة التقدم والتنمية العلمية .

سادساً : مؤشرات إحصائية لتطور الإنتاج الشهرى والسنوى فى نهر النيل فى السنوات الخمس الأخيرة مقارنة بالنسبة الماضية :

مناطق الصيد فى مجرى نهر النيل والرياحات والترع والمصارف المنتشرة كما تعتبر أراضى الحياض فى المحافظات التى تتبع نظام الرى فى الوجه القبلى مرابى طبيعية للأسماك النيلية .

وكما ذكرنا سابقاً أن النيل وفروعه فى مصر ينتج ١٢,٠٠٠ طن من الأسماك خلال الستينات أو نحو ١٥ ٪ من جملة محصول الصيد فى مصر وهذا التقدير قابل للزيادة والنقص ولا توجد تقديرات مضبوطه لمصايد المياه الداخلية ويقدر محصول أسماك المياه الداخلية وفقاً لإحصاءات منظمة الأغذية والزراعة بنحو نصف الكمية السابق الإشار إليها .

وأنه خلال السبيعنات والثمانيات يبلغ الإنتاج نحو ٢٠ ألف طن ويختلف تقدير الإنتاج السنوى والشهرى وكذا الإنتاج للمناطق المختلفة بالنسبة لكل نوع حيث يتحكم فيها العديد من العوامل منها مؤثرات طبيعية (مثال ذلك درجة الحرارة) والكيماوية ، وطرق الصيد المستعملة فى المياه الداخلية والتى تشمل : -

(أ) الكور (ب) شباك الرى والطرحات

(حـ) غزل القراط . (د) غزل الدورا .

(هـ) شباك الصيد . (و) السنار بالطعم أو بدون .

وقد تلاحظ أن الإنتاج خلال العام يزداد من شهر يناير حتى يصل أقصى إنتاج خلال شهر أغسطس كما أن أعلى إنتاج كان لأسماك البلطى يليه القرموط وبالنسبة لبيانات عدد رخص المراكب ٨٤٩ إجمالى عدد البرار بالقدم ٢٤٨٩ وإجمالى عدد الصيادين ٤٣٧٦ وإجمالى الإيرادات المتحصلة من المياه العذبه ١٤ ألف جنيه وبلغت جملة عدد بطاقات الصيادين ٤٣٠٥ وذلك فى عام ١٩٦٨ (١) .

أما فى السنوات من ١٩٨٠ حتى ١٩٨٥ بلغ المتوسط العام للإنتاج السمكى ٢٠,٠٠٠ ألف طن سنوياً ويمثل أسماك البلطى أعلى نسبة وبلغ جملة عدد المركب المرخصة للصيد ١٢٦٢٩ درجة أولى وثانية وثالثة وبلغت جملة عدد الصيادين عام ١٩٨٥ ، ٥٣١٤٢ ، وعدد البراره المرخصين بالصياد ٥٠٢٧ صياداً(٢) .

والمستهدف عام ٢٠٠٠ هو ، ٥٠ ألف طن حيث أن النيل وفروعه يعتبر مربى سمكى خصب لما تحمله مياهه من مواد عضوية وأملاح معدنية صالحة لتربية الأسماك وقد ساعد هدوء تيارات مياهه بعد إقامة السد العالى إلى إتاحة الفرصة لزيادة تكاثر أسماكه وخاصة البلطى .

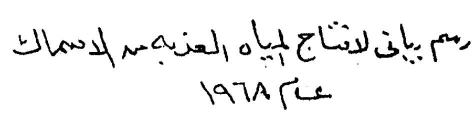
---

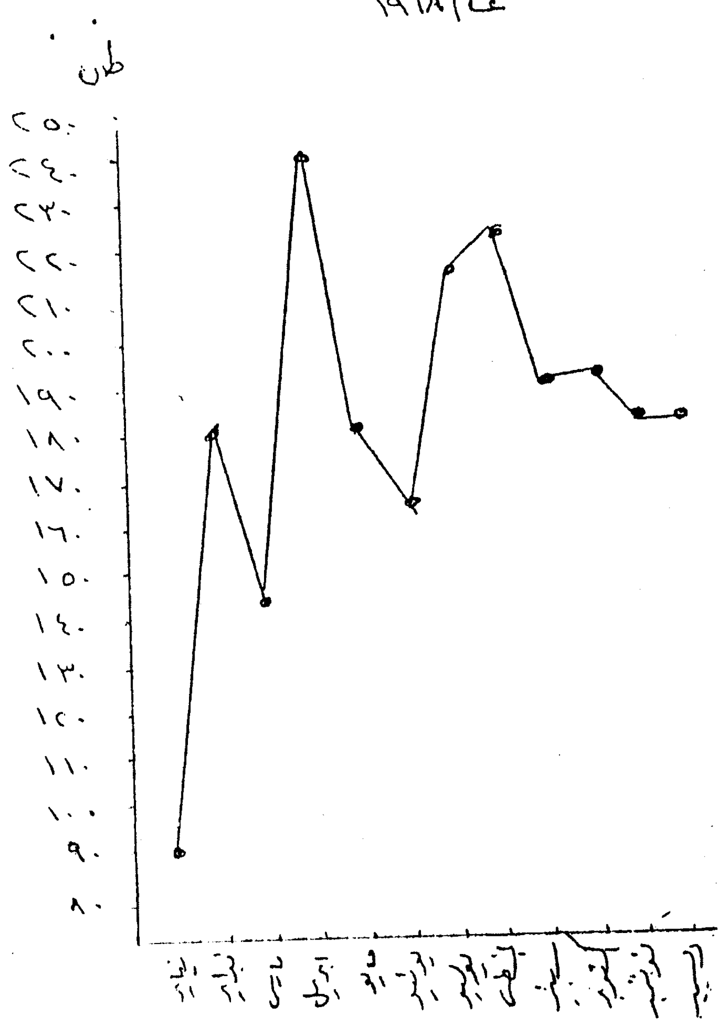
(١) انظر جدول عام ١٩٦٨.

(٢) انظر جدول من عام ١٩٨٠ - ١٩٨٥.

التقدير الشهرى لأسماك المياه العذبة حسب المناطق عام ١٩٦٨

الجهة / الشهر	مصر	بنى سويف	المنيا	أسيوط	سوهاج	الأقصر	أسوان	المنصورة التزام	الجملة بالكيلو	الجملة بالطن
يناير ٦٨	١٩٢٦	٣٩٦٠	١١٣٦٦	٤٢٤١	١٣٩٩٥	١١٨٦٧	٤١٨٦٧	٧١٩	٨٩٩٤١	٩٠
فبراير	١٧٥١	٣٣٧٥	٧٧٢٨	٤٣٢٩	٧٤٥٤	٦٨٥١	١٤٩١٧٥		١٨٠٦٦٣	١٨١
مارس	٢٩٣٩	٣٨٩٥	٥٥٧٨	٤٠٢١	١٢٣٤٠	٧٤٨٩	١٠٧٨٠٢		١٤٤٠٦٤	١٤٤
إبريل	٣٩٧٥	٥٥٦٢	١٠٥٠٩	٤٤١٣	١٧٨٢١	١١٤٧٤	١٨٧١١١	١٢٤٩	٢٤٢١١٥	٢٤٢
مايو	٣٦٢٨	٧١٥٥	١١٥٥١	٤٦٢٤	١٦٢٠٧	١٥٤٧٠	١٢٢٢٠٩		١٨٠٨٤٤	١٨١
يونية	٣٩٢٩	٦٧٧٤	١٠١٩٤	٦٢٧٦	١٤٠٧٥	١٢٣٧٩	١٠٨٩٩٩	١٢٦٧	١٦٣٨٦٣	١٦٤
يولية	٣٣٦٠	٤٥٩٠	١١٦٧٨	٣٩٨٦	١٥٣٨٧	١٢٢٣٨	١٦٣٠٧٨	١١٣٣	٢١٥٦٠٠	٢١٥
أغسطس	٣٧٩٤	٥٦٩٣	١٤١٢٠	٤٠٩١	١٩٠٢٦	١٣٠٠٠	١٦٣٣٧٢		٢٢٣٠٩٦	١٢٣
سبتمبر	٣٤٦٢	٥٦٣٠	١٦٣٥٧	٣٨١٢	٢٥٠٥١	١٤١١٨	١٢١٤٤٤		١٨٦٨٧٤	١٩٠
أكتوبر	٢٥٣٤	١٩٥٢	١٦٧٠٦	٤٢١٠	٣٤٤٣١	١٦١٢٠	١٠٦٧٥٣	٢٨١	١٩٠٩٨٦	١٩١
نوفمبر	٢٧٤٥	٣٤١٣	١٥٥٣٦	٤١٥٩	٣٦٠٩٨	١٢٠٣٧	١٠٨٨٤٠		١٨٢٨٢٨	١٨٣
ديسمبر	٤٤٦٥	٣٨٨٤	١٥٥٤٢	٤٤٦٠	٢٧٤٤٨	١٨٦٦٨	١٠٨٥٧١		١٨٣٠٣٨	١٨٣
الجملة بالكيلو	٣٨٥٠٨	٦٣٨٨٤	١٤٦٨٦٥	٥٢٦٢٢	٢٣٩٣٣٣	١٥١٨٦١	١٤٨٩١٩٠	٤٦٤٩	٢١٨٦٩١٢	
الجملة بالطن	٣٨	٦٤	١٤٧	٥٣	٢٣٩	١٥٢	١٤٨٩	٥	٢١٨٧	


رسم بيانى لانتاج المياه العذبة من الاسماك
عام ١٩٦٨


طن
٢٥٠
٢٤٠
٢٣٠
٢٢٠
٢١٠
٢٠٠
١٩٠
١٨٠
١٧٠
١٦٠
١٥٠
١٤٠
١٣٠
١٢٠
١١٠
١٠٠
٩٠
٨٠

بيان عدد الرخص المنصرفة لمراكب الصيد
والبرارة بالقدم بالمياه العذبة عام ١٩٦٨

الوحدة	أولى	ثانية	ثالثة	برار بالقدم	إجمالى عدد الصيادين
مصر		٥	٣٦٣	٧٦	١١٩٥
القناطر الخيرية			٢٥٠	١٣١	٨٨١
بنها		٢	٢٣٥	١٨٤	٩٠١
منوف			٢٢٢	٩٨	٧٦٤
الزقازيق			٢٨	٤٠١	٤٨٥
المنصورة		١	٧٢٤	٤٥١	٢٦٢٩
دسوق		٢	٣٤٠	١٩٩	١٢٣١
كفر الزيات		٥	٣١٥	٢٤٥	١٢٢٠
بنى سويف		٢	١٢٧	٣٤١	٧٣٤
المنيا		٦	١١١	٣٠	٣٦٩
أسيوط		٤٢	٤٥٢	١٩١	١٧٦٩
سوهاج		١٤	١٣٨	١٣٨	٩٣٦
الأقصر		١	٧٧		٢٣٧
أسوان			٢٨٧	٤	٨٦٥
الجملة		٨٠	٣٧٦٩	٢٤٨٩	١٤١٧٦

التقدير الإنتاج السمكى شهرياً من مصايد البحيرات والمياه العذبة

بالطن

المصايد / الشهر	مصايد البحيرات				مصايد المياه العذبة			
	١٩٨٠	٪	١٩٨١×	٪	١٩٨٠	٪	١٩٨١	٪
يناير	٥٩١٨	٧,٥	٧٠٩٣	٨,٩	١٧٩٧	٩,٠	٢١٠٤	١٠,٥
فبراير	٥٩٠٢	٧,٤	٥٧٦٧	٧,٢	١١١١	٥,٦	١٣٢٣	٦,٦
مارس	٧١٧٩	٩,١	٧٨٨٤	٩,٨	١٥٧٢	٧,٨	١٦٦٥	٨,٣
إبريل	٧٠٢٠	٨,٩	٧١٥٣	٨,٩	١٧٣٦	٨,٧	١٦٩٥	٨,٥
مايو	٦٩٣٣	٨,٨	٦٣٣٢	٧,٩	١٦٧٠	٨,٤	١٦٧٨	٨,٤
يونية	٦٠٧٢	٧,٧	٦٤٦٥	٨,١	١٥٣٠	٧,٦	١٣١٨	٦,٦
يولية	٦٣٠١	٨,٠	٦٣٦٨	٧,٩	١٧٤٦	٨,٧	١٥١٨	٧,٦
أغسطس	٦٥٥٠	٨,٣	٦١٦٣	٧,٧	١٨٥٥	٩,٣	١٦٠٢	٨,٠
سبتمبر	٨٠٣٠	١٠,٢	٧١٠٠	٨,٩	١٩٣٩	٩,٧	٢٢٥٠	١١,٣
أكتوبر	٦٧١٧	٨,٥	٦٠٧٦	٧,٦	١٨٤٤	٩,٢	١٧٦٦	٨,٨
نوفمبر	٦٢٥٩	٧,٩	٧٤٥٠	٩,٣	١٧٥٩	٨,٨	١٦٧٨	٨,٤
ديسمبر	٦١٠٧	٧,٧	٦٢٤٦	٧,٨	١٤٤١	٧,٢	١٤٠٣	٧,٠
الجملة	٧٨٩٨٨	١٠٠	٨٠٠٩٧	١٠٠	٢٠٠٠٠	١٠٠	٢٠٠٠٠	١٠٠

× لا تشمل مصايد البحيرات عام ١٩٨١ إنتاج ملاحة بور فؤاد وقدره ٢ طن ، ١٩ طن عام ١٩٨٠ .

بيان الإنتاج السمكى لمسطحات مياه النيل عام ١٩٨٥

م	المنطقة	الإنتاج بالطن
١	محافظة أسوان	١٩٣٣,٩٢٥
٢	محافظة سوهاج	٩٤٥,٠٦١
٣	محافظة قنا	٣٥٧١,٣٨٨
٤	محافظة أسيوط	٥٦٠,١٠٣
٥	محافظة المنيا	٩٣٧,٤١١
٦	محافظة بنى سويف	٥٧,٠٣٠
٧	محافظة القاهرة	٩٠,٧٧٣
٨	محافظة المنوفية	٥٩٣٣,١٢٣
٩	محافظة القليوبية	٨٣٣,٤٨٥
١٠	محافظة البحيرة	٥٢٥٣,٥٠٠
	الإجمالى	٢٠٠١١٥,٧٩٩

الخلاصـــة :

يتضح مما سبق أن نهر النيل يلعب دوراً هاماً فى تنمية الثروة السمكية سواء من خلال مجراه الطبيعى أو المجارى المائية المتفرعة منه وكذلك الأخوار والخلجان المائية التى تكون بيئة صالحة ومربى طبيعى لأمهات الأسماك التى تضع بيضها وتنمو فيها الأصبعيات أو من خلال البحيرات الصناعية والبحيرات الشمالية المختلفة التى يقوم النيل بإمدادها بمياهه العذبة .

ويمكن تنمية الثروة السمكية عن طريق نهر النيل بإتباع الوسائل المختلفة التى تعمل على زيادة إنتاجيته وذلك بالوسائل والطرق التالية : -

١ - القضاء على التلوث البيئى فى نهر النيل وفروعه .

٢ - تحسين الصيد وإتباع الطرق السليمة فى الصيد .

٣ - إنشاء المفرخات المختلفة سواء طبيعية أو صناعية لإنتاج الزريعة اللازمة لتخزينها فى المجارى المائية المختلفة لنهر النيل .

٤ - العمل على تطهير النيل من الحشائش والأعشاب المختلفة التى تسد المجارى المختلفة لنهر النيل وتتنافس الأسماك فى غذائها .

٥ - إقامة الأقفاص على مجارى النيل المختلفة لزيادة الإنتاج والتحكم فيه .

٦ - توجيه الاستثمارات المختلفة للقطاعين العام والخاص للطرق السليمة لإستغلال النيل .

المراجـــع :

١ - الثروة المائية فى جمهورية العربية المتحده ووسائل تنميتها (الدكتور / أنور عبد العليم) رئيس قسم علوم البحار - كلية العلوم - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦١ .

٢ - بيانات عن المصايد المصرية ١٩٦٨ :-

الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الحربية - إدارة السواحل - فرع المصايد قسم الإحصاء (م. السواحل ٨١ / ١٩٧٠ / ٣٠) .

٣ - إحصاءات الإنتاج السمكى فى جمهورية مصر العربية ١٩٨١ - الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء .

٤ - الإدارة العامة للمصايد - بالهيئة العامة لتنمية الثروة السمكية .

٥ - وزارة الزراعة - الأمن الغذائى والسياسات (الثروة المائية) .

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٤٢٧ - ٤٤٥

تجارة مصر الخارجية مع دول حوض النيل
دراسة تحليلية

دكتور / سعيد عبد المقصود محمد إسماعيل
باحث بمعهد بحوث الإقتصاد الزراعى والإحصاء

تمهيد :

قد كان لمصر بدول حوض النيل علاقات ذات طبيعة خاصة نتيجة العوامل الجغرافية الطبيعية والتاريخية ، ومن أهم تلك العلاقات ولاشك ، العلاقات التجارية ، كل هذه الحقائق تبرز فى الرسوم والصور على جدارن معابد مصر القديمة التى مازالت باقية حتى اليوم* .

ولقد ساعد نهر النيل على ربط حضارات مصر ووسط وشرق أفريقيا على مدى أكثر من خمسة آلاف عام ، كما ساعد على صهر الحضارات والأجناس ما بين مصر والنوبة والسودان وأثيوبيا .

وكما كانت العلاقات بين مصر وبلاد حوض النيل وثيقة العرى طوال العصور القديمة ، فلقد ظلت كذلك فى العصر الوسيط والعصور الحديثة ، وحين جاءت المسيحية إلى مصر فى عهد الرومان إنتقلت منها إلى أثيوبيا وغيرها من بلاد حوض النيل ، ثم جاء الإسلام ، وربط بين العديد من هذه البلاد ، وكان لهذه الروابط الدينية (المسيحية والإسلام) أثرها فى تقوية العلاقات بين هذه البلاد . وفى العصر الحديث ، أخذت العلاقات بين دول حوض النيل أشكالاً عديدة ، ما بين تعاون فى المصالح المشتركة والتبادل التجارى، وروابط دبلوماسية وسياسية وأمنية ، وسعى نحو تحقيق الحرية والإستقلال وتأكيد الشخصية الأفريقية . ولقد ساندت مصر حركات التحرر فى الدول الأفريقية ، مما ساعد على إنحسار الإستعمار عنها وحصولها على الإستقلال السياسى .

* تشمل دول حوض النيل : مصر، السودان ، زائير ، تنزانيا ، رواندا ، بروندى ، كينيا ، أثيوبيا، أوغند، وتوضح ذلك الخريطة الموجودة بالملحق.

ولقد بدأت دول حوض النيل التسع تدرك أهمية التقارب والتعاون فيما بينها للإفادة القصوى من مياه النيل ، ولضمان تحسين إستغلال وإدارة مياهه وروافده، وبدأ الجميع فى عقد إجتماعات فنية على مستوى الخبراء للبحث وإيجاد أفضل الحلول المشتركة لمشاكل إدارة وإستغلال هذا النهر العظيم . الأمر الذى يؤدى وبإستمرار إلى تدعيم وتقوية العلاقات الإقتصادية عامة والتجارية خاصة بين هذه الدول ، وقد تمثلت مجالات التعاون الإقتصادى بين مصر ودول حوض النيل فى المجال التعدينى ومجال الإنتاج الحيوانى ، المجال الزراعى ، وأخيراً التبادل التجارى .

المشكلة البحثية والهدف من البحث :

تتركز مشكلة البحث فى دراسة الملامح الرئيسية لهيكل تجارة مصر الخارجية مع دول حوض النيل مستهدفين من ذلك تنشيط التبادل التجارى معها وإعتبارها أسواقاً بديلة للكثير من وارداتنا ، وأسواقاً لصادراتنا التى تحتاج إليها تلك الدول، فى الوقت الذى تواجه فيه صادراتنا منافسة شديدة فى الأسواق الأوربية والآسيوية ، وخصوصاً إذا ما علمنا أن هذه الدول تنتج سلعاً تستورد مصر الكثير منها من دول أخرى فى حين تنتجها بعض الدول حوض النيل ، فأثيوبيا وكينيا تنتجان البن ، وكينيا وتنزانيا ورواندا وبورندى تنتج الشاى . وفى المقابل تستورد دول حوض النيل بعض السلع التى تنتجها مصر وتصدرها ، وبذلك فمجال التعاون بين هذه الدول فى المجال الإقتصادى مفتوح إذا حققت التعاون فيما بينها عن طريق تكامل إقتصادى يحقق مصالحها المشتركة . وخصوصاً أن إقتصاديات هذه الدول يعتمد على الزراعة والرى إلى جانب القليل من التعدين ، وكان إقتصادها ولايزال - إلى حد كبير - مرتبطاً بالدول الأوربية التى كانت تستعمرها ، ذلك أن إعتمادها على الأسواق الأوربية فى تسويق منتجاتها الزراعية والحيوانية والمعدنية ، جعل تلك الأسواق شبه محتكر لسلعها ، تتحكم فى أسعارها ، الأمر الذى أدى إلى إهتزاز الهياكل الإقتصادية لتلك الدول .

وبالتالى أصبحت أكبر المشاكل التى تواجه هذه الدول هو إهتزاز المورد الأساسى لتمويل مشروعاتها التنموية والتى تعتمد بصفة أساسية على

الصادرات، وذلك لتذبذب أسعار سلعها التصديرية ، وبالتالى إختلال موازينها التجارية وموازين مدفوعاتها وأمر هذا هو شأنه يتطلب من دول حوض النيل التسع البحث عن حلول لعلاج مشاكلها الإقتصادية ولعل منها :

(أ) إنشاء صناديق لتأمين أسعار منتجاتها التصديرية .

(ب) التنويع فى تلك المنتجات بحيث تقل المخاطر الناجمة عن الإعتماد على تصدير سلعة واحدة أو سلعتين .

(جـ) التكامل الإقتصادى بين هذه الدول وخاصة فى المجال التجارى من أجل تنسيق مسائل الإنتاج والتسويق على النحو الذى يحقق إحتياجات كل دولة من الدول الأعضاء ، حتى تعتمد هذه الدول على نفسها بدلاً من إعتمادها على الدول الخارجية .

الأسلوب البحثى و مصادر البيانات :

أجرى فى البحث تحليلاً إحصائياً للسلاسل الزمنية لبيانات التجارة الخارجية لمصر مع دول حوض النيل خلال الفترة (١٩٧٠ - ١٩٨٣)* والتى ترد فى النشرات الشهرية للتجارة الخارجية التى تصدر عن الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء . كما رسمت عدة أشكال بيانية لتوضيح الميزان التجارى المصرى مع دول حوض النيل عامة .

* وحتى تاريخ تقديم هذا البحث فى شهر فبراير ١٩٨٧ ، كانت البيانات التفصيلية للتجارة الخارجية لعام ١٩٨٣ هى أحدث ما أصدره الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء .

نتائـــج الدراســــــة

وفيما يلى إستعراض لنتائج الدراسة :

أولاً : تطور تجارة مصر الخارجية مع دول حوض النيل مجتمعة :

يتضح من الجدول رقم (١) مايلى :

١ - زيادة حجم الصادرات المصرية لدول حوض النيل خلال فترة الدراسة ، حيث كانت فى عام ١٩٧٠ حوالى ٨١٠٣ ألف جنيه ، بلغت ٢٣٠٠٠ ألف جنيه فى عام ١٩٨٣، أى أن قيمة الصادرات المصرية لهذه الدول قد تضاعفت ثلاث مرات، وبلغ متوسط الزيادة السنوية حوالى مليون جنيه خلال فترة الدراسة ، الأمر الذى يشير إلى زيادة وتحسن العلاقات التجارية بين مصر وهذه الدول وخصوصاً فى الفترة ١٩٧٨ - ١٩٨٣ وفى المقابل فقد تزايدت واردات مصر من هذه الدول بشكل كبير حيث بلغت ٦٤١٨٩ ألف جنيه عام ١٩٨٣ أى ثمانية أمثال ما كانت عليه قيمة هذه الواردات عام ١٩٧٠ وبمتوسط زيادة سنوية حوالى أربعة ملايين جنيه ، وقد شكل هذه الوضع عجزاً كبيراً ومستمراً فى الميزان التجارى المصرى لصالح هذه الدول خلال فترة الدراسة ، حيث بلغ هذا العجز حوالى ٥٧٥٩ ألف جنيه عام ١٩٧٢ وصل إلى ٤١١٨٩ ألف جنيه عام ١٩٨٣ ، ويعزى ذلك إلى أن المؤسسات التجارية المصرية المنوط بها عمليات الإستيراد والتصدير لهذه الدول قد واجهت العديد من الصعوبات التى أخذت تحد من نشاطها ، ويرجع أهمها للأسباب التالية :

(أ) عدم توفر نوعيات السلع المناسبة للمستهلك الأفريقى ، وعدم وجود فائض فى بعض السلع المصرية الصالحة للتصدير .

(ب) التعقيدات الروتينية والإدارية التى تعطل إبرام التعاقدات أو تنفيذ الصفقات فى الوقت المحدد بالشروط المتفق عليها .

(جـ) الإتفاقيات التفضيلية المعقودة بين غالبية هذه الدول والسوق الأوربية المشتركة .

(د) صعوبة النقل لعدم وجود خطوط ملاحية أو جوية منتظمة بدرجة كافية ، أو لإرتفاع تكلفته .

(هـ) الإفتقار فى كثير من الأحيان للتنسيق اللازم بين فروع الشركات المصرية ومكاتب التمثيل التجارى[1] .

(١) جمهورية مصر العربية، مجلس الشورى ، تقرير لجنة الشئون العربية والخارجية والأمن القومى عن العلاقات المصرية الأفريقية، دور الإنعقاد العادى الثالث القاهرة، ١٩٨٣، ص٣٠-٣٢.

جدول رقم (١) تطور التجارة الخارجية لدول حوض النيل

خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٣

(القيمة بآلاف الجنيهات)

السنوات	التجارة الخارجية			الأهمية النسبية			
	الصادرات	الواردات	الميزان التجارى	للصادرات		للواردات	
١٩٧٠	٨١٠٣	٨٨٩٤	(-) ٧٩١	٢,٤[١]	٤٠,١[٢]	٢,٦[٣]	٦٦,٠[٤]
١٩٧١	٧٥٥٦	٦٠٨٦	(+) ١٤٧٠	٢,٢	٣٦,٥	١,٥	٤١,٠
١٩٧٢	٤٥٨٣	١٠٣٤٢	(-) ٥٧٥٩	١,٧	٤١,٨	٢,٦	٥٩,٧
١٩٧٣	٣١٢٨	٧٦٦٨	(-) ٤٥٤٠	٠,٧	١٥,١	٢,١	٥٩,٨
١٩٧٤	٥٩٥٦	١٠٥٩٨	(-) ٤٦٤٢	١,٠	٢٣,٠	١,٢	٦٤,٨
١٩٧٥	٣٧٧٥	١٣٧٥٩	(-) ٩٩٨٤	٠,٧	١٣,٨	٠,٩	٤١,٧
١٩٧٦	٣٥٨١	١٩١٠٠	(-) ١٥٥١٩	٠,٦	١١,٩	١,٣	٥٨,٦
١٩٧٧	٦٥٢٥	١٩٩٤١	(-) ١٣٤١٦	١,٠	٢٤,٠	١,١	٥٨,٠
١٩٧٨	٨٢٣٠	١٥٥١٤	(-) ٧٢٨٤	١,٢	٣٣,٩	٠,٦	٤٧,٧
١٩٧٩	١٦٠٥٥	١٧٥٩٦	(-) ١٥٤١	١,٢	٤٩,٩	٠,٧	٧١,٧
١٩٨٠	٩٢٧٢	١٨٨٦٤	(-) ٩٥٩٢	٠,٤	٤٢,٧	٠,٦	٧١,٧
١٩٨١	٩٣١٠	٣٤١٢٠	(-) ٢٤٨١٠	٠,٤	٦٣,٧	٠,٦	٦٧,٩
١٩٨٢	٦٤٣٢٠	٤٠٩٣١	(+) ٢٣٣٨٩	٢,٩	٨١,٦	٠,٦	٦٠,٨
١٩٨٣	٢٣٠٠٠	٦٤١٨٩	(-) ٤١١٨٩٠	١,٠	٧١,٥	٠,٩	٧٤,٣

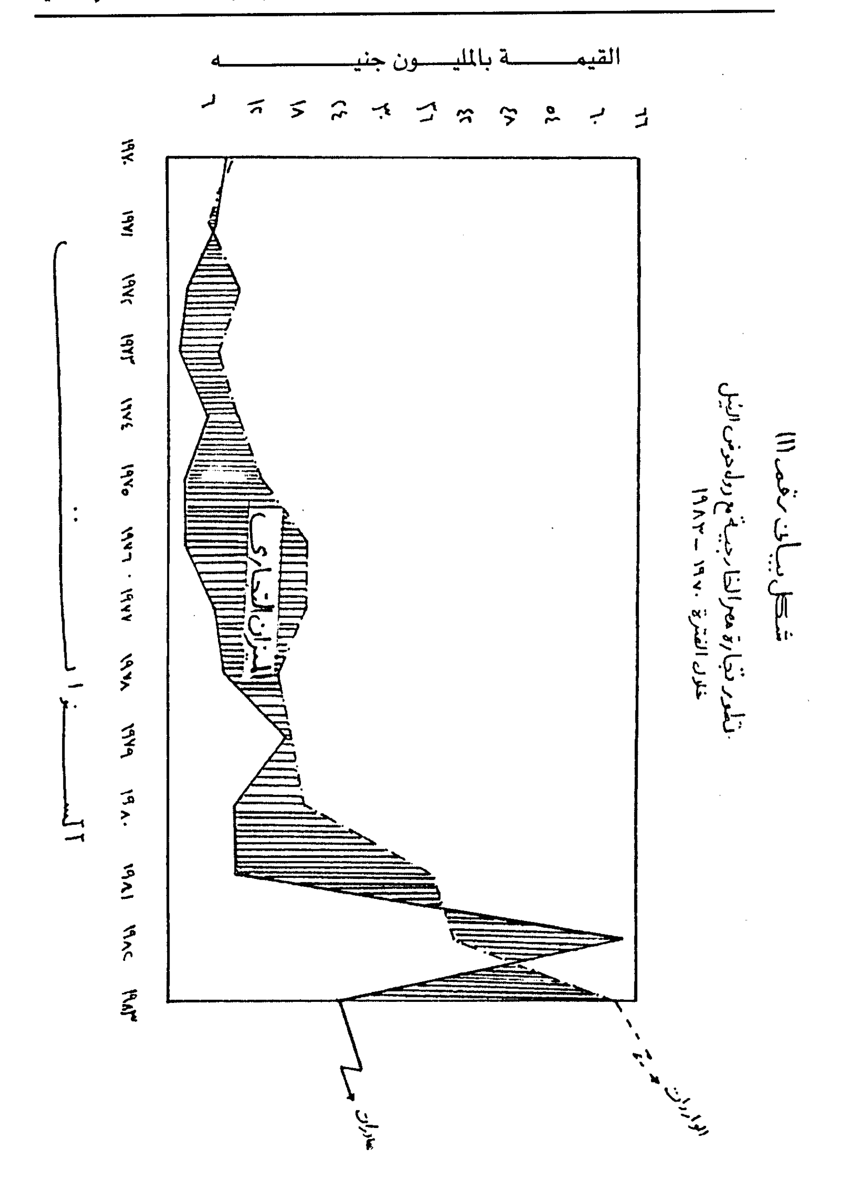
١ - النسبة المئوية لإجمالى قيمة صادرات مصر لدول حوض النيل إلى إجمالى قيمة الصادرات المصرية لجميع الدول .

٢ - النسبة المئوية لإجمالى قيمة صادرات مصر لدول حوض النيل إلى إجمالى قيمة الصادرات المصرية للدول الأفريقية .

٣ - النسبة المئوية لإجمالى قيمة الواردات المصرية لدول حوض النيل إلى إجمالى قيمة الصادرات المصرية لجميع الدول .

٤ - النسبة المئوية لإجمالى قيمة الواردات المصرية لدول حوض النيل إلى إجمالى قيمة الصادرات للدول الأفريقية .

المصدر : حسبت وجمعت من بيانات سلاسل النشرة الشهرية للتجارة الخارجية التى يصدرها الجهاز المركزى للتعبة العامة والإحصاء.



شكل بياني رقم (١)
تطور تجارة مصر الخارجية مع دول حوض النيل
خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٣

وبصفة عامة يتطلب هذا الوضع الإسراع فى وضع إستراتيجية مصرية للتصدير تقوم على دعائمها صناعة تصديرية قوية تحاول علاج العجز فى الميزان التجارى وإقامة علاقات متوازنة عن طريق عقد إتفاقات ثنائية يشترط فيها تقليل هذا العجز إلى حد كبير وإقامة علاقات تجارية تفضيلية بين مصر ودول حوض النيل .

وقد تم حساب معادلة الإتجاه العام للصادرات المصرية ، والواردات المصرية والميزان التجارى خلال فترات الدراسة (١٩٧٠ - ١٩٨٣) وكانت كما يلى :

الصادرات المصرية (القيمة بالمليون جنيه) :

ص^ = ٥,٣٠٧ + ١,٦٥ س + ٠,١٠٩ س٢

ر = ٠,٦٩٩ ر٢ = ٠,٤٨٩

حيث تشير ص^ إلى قيمة الصادرات المصرية المقدرة لدول حوض النيل ، بينما تشير س إلى الزمن بالسنوات ، ولقد بلغ معامل التحديد (ر٢) حوالى ٠,٤٩ ، كما بلغ معامل الإرتباط (ر) حوالى ٠,٧ ، وثبت معنوية معامل الإنحدار على مستوى معنوية ٥ ٪ ومن المعادلة السابقة يتضح أن حجم الصادرات المصرية يأخذ إتجاها متزايداً (كما أشرنا إلى ذلك سابقاً) ، ويوضح ذلك أيضاً الرسم البيانى رقم (١) .

الواردات المصرية (القيمة بالمليون جنيه) :

ص^ = ١٣,١٩٨ + ١,٥٧٧ س + ٠,١١٣ س٢

ر = ٠,٦٩٩ ر٢ = ٠,٤٨٩

حيث تشير ص^ إلى قيمة الصادرات المصرية المقدرة لدول حوض النيل ، بينما تشير س إلى الزمن بالسنوات ، ولقد بلغ معامل التحديد (ر٢) حوالى ٠,٤٩ ، كما بلغ معامل الإرتباط (ر) حوالى ١,٧ ، وثبت معنوية معامل الإنحدار على مستوى معنوية ٥٪ ، ومن المعادلة السابقة يتضح أن حجم الصادرات المصرية يأخذ إتجاهاً متزايداً (كما أشرنا إلى ذلك سابقاً) ، ويوضح ذلك أيضاً الرسم البيانى السابق.

الميزان التجارى (القيمة بالمليون جنيه) :

ص^ = -٨,٤١ - ٠,٥١١ س + ٠,٠٠٤ س٢

ر = ٠,٢١ ر٢ = ٠,٠٤

حيث تشير ص^ إلى القيمة المقدرة للعجز فى الميزان التجارى المصرى ، بينما تشير س إلى الزمن بالسنوات . ولم يثبت معنوية معامل الإنحدار على مستوى معنوية ٥ ٪ ، ومن المعادلة يتضح أن العجز فى الميزان التجارى المصرى يأخذ إتجاهاً عاماً متزايداً لصالح دول حوض النيل ويوضح ذلك أيضاً الرسم البيانى رقم (١) .

٢ - تناقص الأهمية النسبية للصادرات المصرية لدول حوض النيل خلال فترة الدراسة بالنسبة لإجمالى الصادرات المصرية مجتمعه من ٢,٤ ٪ عام ١٩٧٠ إلى ١,٠ عام ١٩٨٣ . وقد تراجعت الأهمية النسبية للصادرات المصرية عامة ما بين ٠,٤ - ٢,٩ ٪ خلال نفس الفترة . وقد بلغت أقصاها فى عام ١٩٨٢ . وأدناها فى عامى ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، وإن كان قد لوحظ أيضاً إرتفاع فى الأهمية النسبية للصادرات المصرية لهذه الدول بالنسبة لإجمالى الصادرات المصرية للدول الأفريقية من ٤٠,١ ٪ عام ١٩٧٠ إلى ٧١,٥ ٪ عام ١٩٨٣ ، وقد تراوحت هذه النسبة ما بين ١١,٩ - ٨١,٦ ٪ خلال فترة الدراسة ، وقد بلغت أدناها فى ١٩٧٦ وأقصاها فى عام ١٩٨٢ .

هذا وقد تناقصت الأهمية النسبية للواردات المصرية من دول حوض النيل بالنسبة لإجمالى الواردات المصرية مجتمعة خلال فترة الدراسة من ٢,٦ ٪ عام ١٩٧٠ إلى ٠,٩ ٪ عام ١٩٨٣ ، وقد تراوحت هذه النسبة بين ٠,٦ إلى ٢,٦ ٪ خلال نفس الفترة ، وقد بلغت أقصاها فى عامى ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ وأدناها فى الأعوام ١٩٧٨ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، وفى نفس الوقت فقد تزايدت الأهمية النسبية للواردات المصرية من هذه الدول بالنسبة لإجمالى واردات مصر من الدول الأفريقية ، حيث بلغت حوالى ٧٤ ٪ فى عام ١٩٨٣ بعد أن كانت ٤١٪ فقط فى عام ١٩٧١ ، وقد تراوحت هذه النسبة بين ٤١ - ٧٤ ٪ خلال فترة الدراسة ، وقد بلغت أقصاها فى عام ١٩٨٣ وأدناها فى عام ١٩٧٢ ، ولعل ذلك يوضح

بجلاء مدى حاجة مصر لمراجعة ميزانها التجارى مع هذه الدول بغية إيجاد نوع من العلاقة التجارية المتوازنة معها .

ويبين الجدول رقم (٢) التبادل التجارى بين مصر ودول حوض النيل من السلع والمنتجات خلال فترة الدراسة .

ويلاحظ من إستعراض هذا الجدول أن الواردات المصرية من دول حوض النيل تتمثل أغلبها فى بعض الحاصلات الزراعية كالعدس ، البن ، الشاى ، المواد الخام كالنحاس ، الزنك ، الرصاص وبعض المنتجات الحيوانية .

وبصفة خاصة كانت الواردات المصرية من هذه الدول لعام ١٩٨٣ تشمل صلال فصيلة ضأن ، زنك ، خلاصات دباغة ، تبغ ورق ، تنباك ، وبعض الحاصلات الزراعية فاصوليا ، تمر ، تمر هندى ، كركديه ، شاى ، فواكه ، ألياف السيزال ، بعض بذور النباتات .

أما بالنسبة للصادرات المصرية لهذا الدول خلال فترة الدراسة فقد تمثلت أغلبها فى المنتجات القطنية ، الأحذية ، البترول الخام ، الأدوية البشرية ، وبعض الحاصلات الزراعية كالأرز ، الثوم ، عجين الطماطم ، برتقال ، بعض المنتجات الصناعية الأخرى : كالأسمنت ، الأسلاك الكهربائية ، أدوات المائدة ، زجاج ، البطاريات ، وبصفة خاصة كانت الصادرات المصرية لدول حوض النيل فى عام ١٩٨٣ يتمثل أغلبها فى الأحذية ، البترول الخام ، الأدوية البشرية ، منتجات قطنية ، وبعض المنتجات المعدنية .

ثانياً : تطور تجارة مصر الخارجية مع دول حوض النيل منفردة :

يوضح الجدول رقم (٣) تجارة مصر الخارجية مع دول حوض النيل كل دولة على حدة ، وفيما يلى عرض تفصيلى لكل من هذه الدول كل على حدة :

١ - تجارة مصر الخارجية مع زائير خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٣ :

يتضح من إستعراض بيانات تجارة مصر الخارجية مع زائير أن هناك عجزاً كبيراً فى الميزان التجارى المصرى لصالح زائير ، وقد بلغ هذا العجز أقصاه فى عام ١٩٨٣ حيث بلغ ٢٤٩٩ ألف جنيه بعد أن كان هناك فائض فى الميزان

جدول رقم (٢)

التبادل التجارى بين مصر ودول حوض النيل من السلع والخدمات خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٣

البيان	الصادرات	الواردات
زائير	ثوم، قطن طبى ، نسج قطن (أقمشة) بياضات للأسرة، مداوس للمنزل وجه جلد، عجين طماطم محفوظة، إطارات مطاط، راديو، أحذية ، البطاريات .	نحاس خام، قضبان مجلفنة أو مسحوبة، نحاس، أصناف من جلود وفراء، مواقد وأفران طبخ، ثلاجات للمنازل، زنك، تليفزيون، خردة وفضلات من حديد أو صلب نحاس نقى.
أثيوبيا	صحف ومجلات، ملابس داخلية (قطن)، أدوية للبشر، نعال وأجزاء أحذية، أرز، أسمنت، سبائك مربعة أو مستطيلة القواعد من حديد أو صلب، طباشير، مستحضرات تجميل، مصنوعات سكرية، المضخات.	عدس، بن غير محمص، بذر سمسم، صلال طرية أو مملحة ، صمغ عربى، جلود خام غير مدبوغة، ثلاجات للمنازل، سيارات ملاكي، فول بقلاء، فاصوليا جافة، موز، لبان .
كينيا	أجزاء أحذية ، سجاد صوف ، ألبسة خارجية قطن ، قطن طبى ، الومنيوم خام بترول خام القطن الخام .	شاى ، بن غير محمص ، خلاصات نباتية للدباغة، ورق ، فواكه محفوظة، عصير فاكهة، زيوت تشحيم، جوز الهند طباشير سيارات ملاكى، السيزال، الخشب المنشور.
تانزانيا	ادوية بشرية ، ملح عادى ، أغطية ، بضائع وخيام قطن ، الومنيوم خام ، أسمدة فوسفاتية ارز ، الأربطة الطبية.	خلاصات للدباغة من أصل نباتى، ألياف نسجية نباتية، شاى ، حب المال، فاصوليا جافة، بذر سمسم، نحاس خام، أخشاب للصباغة والدباغة، مبيدات حشرية، سكر قصب مصفى، قرنفل ثمار وسيقان، رصاص خام، السيزال.
السودان	فاصوليا جافة، عنب طازج، برتقال، أرز، شعير ناشط(مالت)، حبوب واثمار للبذار، اشمنت، أدوية للبشر، محضرات غسيل، ورق، خيوط وأنسجة قطنية، أجهزة تليفزيون، أسلاك كهربائية سكر قصب، سجاد صوف، مبيدات حشرية أدوات مائدة زجاج، ضأن .	ضأن، بذر سمسم، بذور بطيخ، جلود مدبوغة، سيارات ملاكى ، أسماك غير مدخنة تمر، تمر هندى ، بذر لب أبيض، صمغ عربي خلاصات نباتية للدباغة، فضلات أو خردة نحاس أو رصاص، لحوم فصيلة البقر، أبقار لغير التناسل، ثلاجات للمنازل ، صحف ومجلات.

المصدر : الجهاز المركزى للتعبة العامة والإحصاء، النشرة الشهرية للتجارة الخارجية «سلسلة متفرقة» .

التجارى لصالح مصر مابين ٦٢ ألف إلى ٢٤٩٩ ألف جنيه خلال فترة الدراسة ، وقد تخلل هذه الفترة فائض فى الميزان التجارى فى السنوات ١٩٧٠ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٧ .

وتتمثل أغلب الصادرات الزائيرية لمصر فى النحاس الخام النقى ، الزنك أما أهم الصادرات المصرية لزائير فتشمل المنسوجات القطنية ، الأحذية وبعض الحاصلات الزراعية كالثوم .

وفى عام ١٩٨٣ كانت أهم صادرات زائير لمصر تتمثل فى الزنك ، والصفائح ، أجهزة التليفزيون الملون وأجهزة التسجيل ولم تكن هناك أية صادرات مصرية لزائير .

٢ - تجارة مصر الخارجية مع أثيوبيا :

يتبين من تطور تجارة مصر الخارجية مع أثيوبيا أن هناك عجزاً كبيراً فى الميزان التجارى فى أغلب سنوات الدراسة مع ملاحظة وجود فائض فى الميزان التجارى لعام ١٩٨٣ ، وعموماً فقد تراوح العجز فى الميزان التجارى ما بين ٢١ ألف - ٥٢٨١ ألف جنيه خلال فترة الدراسة .

وتتمثل أغلب الواردات الأثيوبية فى بعض الحاصلات الزراعية كالعدس والبن وبذر السمسم والفاصوليا الجافة والجلود غير المدبوغة ، أما أهم الصادرات المصرية فتشمل المنسوجات القطنية والأحذية ومستحضرات التجميل والمضخات.

وفى عام ١٩٨٣ تركزت الواردات الأثيوبية فى صلال فصيلة البقر خام فقط، أما الصادرات المصرية فاشتملت على ألواح وصفائح وأسلاك كهربائية .

٣- تجارة مصر الخارجية مع كينيا :

يتضح من إستعراض بيانات تجارة مصر الخارجية مع كينيا حدوث عجز فى الميزان التجارى المصرى لصالح كينيا فى أغلب سنوات الدراسة ، وإن وجد فائض كبير فى الميزان التجارى لصالح مصر ابتداء من عام ١٩٨٢ حيث وصل إلى ما يزيد عن ١٢ مليون جنيه ، انخفض إلى حوالى ٥ ملايين جنيه فى

جدول رقم (٣)

التجارة الخارجية بين مصر ودول حوض النيل خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٣

"القيمة بآلاف الجنيهات

البيان		السنوات													
		١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣
زائيـر	صادرات	١٧	١٤	١٧	١٢	٢١	٣١	٢٧	١٣٠	—	—	—	١١	—	—
	واردات	١٣	٥٣٠	٧٩	٥	—	٧٩٤	١	٢	—	—	—	٤٨٥	١٠٣١	٢٤٩٩
	الميزان التجارى	+٤	-٥١٦	-٦٢	+٧	+٢١	-٧٦٣	+٢٦	+١٢٨	—	—	—	-٤٧٤	-١٠٣١	-٢٤٩٩
أثيوبيا	صادرات	٦٠	٢٩	٩٠	٢٣	١١	١٠	٢٥	٦٠	٤٢	٨	—	١٠٩	٥٠٩	٤٧٨
	واردات	٨١	١٠٥	٤٤	٤٤٣	٢٠٧٠	٥٢٩١	٣٩٦١	—	٢٢	٤٨٧	١٤٠٢	٢٥٤٦	٢٩٥٢	٤٢٨
	الميزان التجارى	-٢١	-٧٦	+٤٦	-٤٢٠	-٢٠٥٩	-٥٢٨١	-٣٩٣٦	+٦٠	+٢٠	-٤٧٩	-١٤٠٢	-٢٤٣٧	-٢٤٤٣	+٥٠
كينيـا	صادرات	٤٣	٣٤	٤٠	٥٣	٢٧	٣١	٣٠	٢٥	١٢٣	١٨	٨٧	١٤٠	١٦٩٨١	١١٢٣١
	واردات	٤٤٤	٤٥٠	٤١١	١٨٤	٩٥	٢٨٥٨	٢٧٠٧	٦٣٢٣	٤٥٠٨	٦٥٣٢	٥٧٠١	٣٤٨٨	٤٢٢٥	٦٣٤٥
	الميزان التجارى	-٤٠١	-٤١٦	-٣٧١	-١٣١	-٦٨	-٢٨٢٧	-٢٦٧٧	-٦٢٩٨	-٤٣٨٥	-٥٦١٤	-٥٦١٤	-٣٣٤٨	+١٢٧٤٦	+٤٨٨٦
تنزانيـا	صادرات	٦٣٩	٢٩	٨٦	—	٦٩١	٥٧	٣٠	٤	٧	٤٧	—	٩٢	١	—
	واردات	٦٩٥	٣٧٥	١٠٧	٩٧	١١٤٩	٢٤١١	٤٩٨	٥١٩	١٢٦٥	٨١٨	٣٦٩	٤٣٢	٤٢٨	١٤٧٩
	الميزان التجارى	-٥٦	-٣٤٦	-٧١	-٩٧	-٤٥١	-٢٣٥٤	-٤٦٨	-٥١٥	-١٢٥٨	-٧٧١	-٣٦٩	-٣٤٠	-٤٢٧	-١٤٧٩
اوغنـدا	صادرات	٢٢	٢٥	٢	١٨	—	٤٩	—	٥٠	١٣٤	١٨	٩	٦٠٠	٧٠	٢٥
	واردات	١٩١	١٤٩	٨٧	١١٣	١٨١	١٦٠١	١٩٢٢	٢٧٠٢	٧٧٤	٢٢٢٨	١٨٢٣	٥٦٦	١٠٣	٣٩
	الميزان التجارى	-١٦٩	-١٢٤	-٨٥	-٩٥	-١٨١	-١٥٥٢	-١٩٢٢	-٢٦٥٢	-٦٤٠	-٢٢١٠	-١٨١٤	-٥٦٠	-٣٣	-١٤
برونـدى	صادرات	=	=	=	=	=	=	=	=	=	=	—	٣	١	—
	واردات	=	=	=	=	=	=	=	=	=	=	—	—	—	—
	الميزان التجارى	=	=	=	=	=	=	=	=	=	=	—	(+) ٣	(+) ١	—
روانـدا	صادرات	=	=	=	=	=	=	=	=	=	=	—	٢٥	٢٣	—
	واردات	=	=	=	=	=	=	=	=	=	=	—	—	—	—
	الميزان التجارى	=	=	=	=	=	=	=	=	=	=	—	(+) ٢٥	(+) ٢٣	—
السودان	صادرات	٧٣٢٢	٧٤٤٣	٤٣٢٨	٣٠٢٢	٥١٩٩	٣٠٩٧	٣٤٦٩	٦٢٣٢	٧٩٠٦	١٠٩٠٦	٦١٧٦	٨٨٩٨	٤٦٧٥٩	١١٢٦٦
	واردات	٧٤٦٨	٤٤٧٧	٩٥٦٤	٦٨٢٦	٧١٠١	٨٠٤	٩٩٦١	٧٦٤٦	٨٩٤٤	٧٥٢٧	٩٥٦٥	٢٦٦٠٣	٣٠١٨٢	٥٣٣٩٩
	الميزان التجارى	-١٤٦	+٢٩٤٦	-٥٢١٦	-٣٨٠٤	-١٩٠٢	+٢٧٩٣	-٦٤٩٢	-١٤١٣	-١٠٣٨	+٣٣٧٩	-٣٨٩	-١٧٧٠٥	+١٦٥٧٧	-٤٢١٣٣

= القيمة أقل من ٥٠٠ جنيه .

المصدر: الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء، النشرة الشهرية للتجارة الخارجية" أعداد متفرقة".

عام ١٩٨٣ ، وهذا تحسن محمود يشير إلى تأكيد ضرورة علاج العجز فى الميزان التجارى المصرى مع دول حوض النيل.

ويتمثل أغلب الواردات الكينية فى بعض الحاصلات الزراعية كالشاى وألياف السيزال والفواكه المحفوظة وبعض الخلاصات النباتية للدباغة إلى جانب زيوت التشحيم.

أما أهم الصادرات المصرية فتتضمن المنسوجات القطنية والأحذية والبترول الخام والألمنيوم الخام.

وفى عام ١٩٨٣ كانت الواردات الكينية تشتمل على الشاى والفواكه وخلاصات دباغة وصلال وأجهزة وأدوات ولوازم الألعاب الرياضية، وتضمنت الصادرات المصرية البترول الخام والكتب فقط.

٤- تجارة مصر الخارجية مع تنزانيا :

يتبين من الجدول رقم (٣) أن العجز فى الميزان التجارى المصرى مع تنزانيا مستمر طوال فترة الدراسة، وقد بلغ هذا العجز حوالى ١,٥ مليون جنيه عام ١٩٨٣ ، بعد أن كان حوالى ٥٦ ألف جنيه فقط فى عام ١٩٧٠ .

وتتمثل أغلب الواردات التنزانية فى بعض الحاصلات الزراعية كالفاصوليا الجافة وبذر السمسم والقرنفل والسيزال والشاى وحب الهال وبعض المواد الخام كالنحاس والرصاص.

أما الصادرات المصرية فتتضمن الأدوية البشرية وبعض المنسوجات والمنتجات القطنية وبعض الحاصلات الزراعية كالأرز .

وكانت أهم الواردات التنزانية لعام ١٩٨٣ تتضمن : تبغ ، ورق ، تنباك ، خلاصات دباغة ، صلال ، ألياف السيزال ، والزنك الخام ، ولم تكن هناك أية صادرات مصرية فى هذا العام .

٥ - تجارة مصر الخارجية من السودان :

يجدر الإشارة هنا إلى أن السودان تستحوذ على أغلب تجارة مصر الخارجية فى الناحيتين الإستيرادية والتصديرية ، وبصفة عامة فإن الميزان التجارى يميل كثيراً فى صالح السودان ، وقد بلغ العجز أقصاه فى عام ١٩٨٣ حيث بلغ أكثر من ٤٢ مليون جنيه بعد أن كان حوالى ١٤٦ ألف جنيه فقط فى عام ١٩٧٠ .

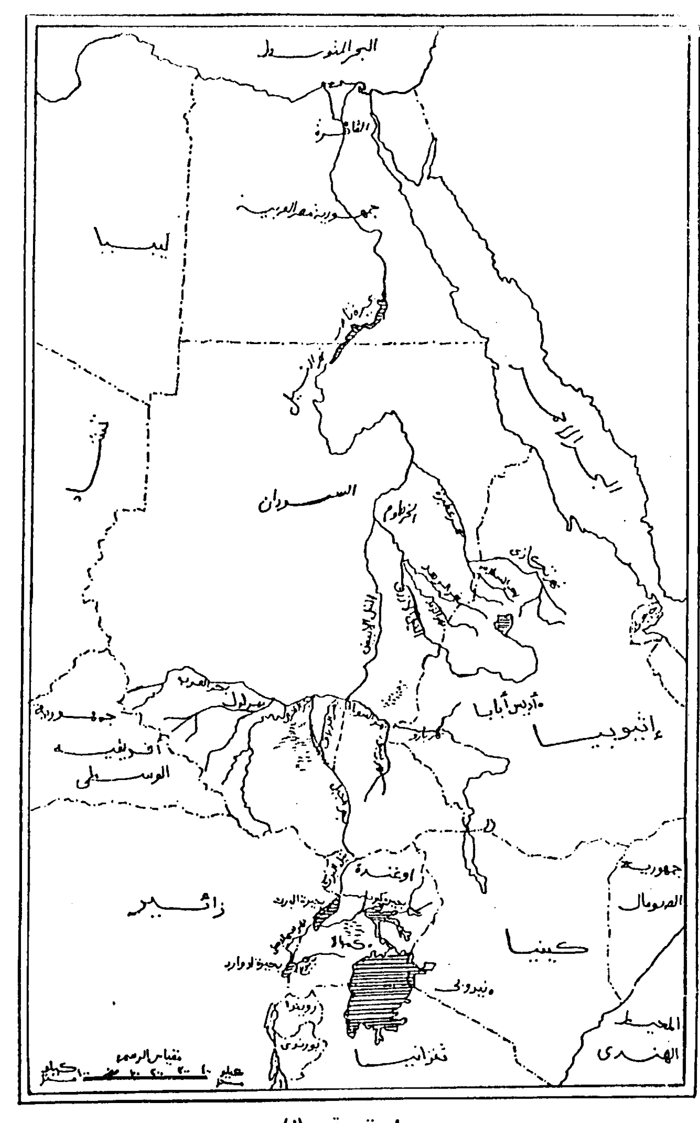
وقد إشتملت أهم الواردات السودانية خلال فترة الدراسة على بعض البذور كالسمسم والبطيخ وبعض المنتجات الحيوانية ، أما الصادرات المصرية فكانت أغلبها منتجات قطنية وبعض الحاصلات الزراعية .

وتتمثل أغلب الواردات السودانية عام ١٩٨٣ فى بعض المواشى كالجمال والجواميس وبعض الحاصلات الزراعية كالشاى والتمر والتمر هندى والكركدية والبذور والجلود والصمغ العربى .

أما أهم الصادرات المصرية فتشمل بعض المنتجات القطنية وبعض الحاصلات الزراعية كالبرتقال والعنب الطازج والفول الأخضر ، وبعض المنتجات الصناعية كالأسمنت والمبيدات الحشرية والأدوية البشرية والأحذية وبعض المنتجات المعدنية كالألمونيوم والحديد الصلب .

٦ - تجارة مصر الخارجية مع رواندا وبروندى :

تمثل تجارة مصر الخارجية مع دولتى رواندا وبروندى نسبة ضئيلة جداً فى تجارة مصر الخارجية مع دول حوض النيل ، وتتضمن الصادرات المصرية إليهما الملح العادى فقط . وعموماً فإن الميزان التجارى يميل إلى صالح مصر حيث إتضح أن هناك فائضاً فى الميزان التجارى خلال فترة الدراسة (السنوات المتاح عنها بيانات لهاتين الدولتين ، ١٩٨١ - ١٩٨٣) .



ملحق رقم (١)

خريطة حوض النيل

ملخص البحث

يعتبر التصدير أحد القضايا الرئيسية فى مصر فى أوضاع الإقتصاد العالمى ومتطلبات الصناعة الحديثة التى تتجه إلى العالمية ومزيد من الترابط ، فضلاً عن أحتياجات الإقتصاد المصرى لعلاج مشاكل ميزان المدفوعات المزمنة ، وتقليل الفجوة فى الموارد المحلية بزيادة المدخرات ، كما أنه الوسيلة الأساسية لتخفيف الكفاءة الإقتصادية والدخول فى الصناعة الحديثة .

وتتركز مشكلة البحث فى دارسة الملامح الرئيسية لهيكل تجارة مصر الخارجية مع دول حوض النيل لما تربط مصر بهذه الدول من علاقة مصيرية قوامها الإعتماد على مصدر رئيسى واحد للرى يمر بينها منذ آلاف السنين ألا وهو نهر النيل ، هذا من ناحية ، والروابط الإقتصادية والسياسية والثقافية والإجتماعية من ناحية أخرى ، مستهدفين من ذلك زيادة الصادرات المصرية إلى هذه الدول بغية فتح أسواق تصديرية جديدة لصادراتنا فى الوقت الذى تواجه فيه هذه الصادرات منافسة شديدة لها فى الأسواق الأوربية والآسيوية .

وقد أجرى فى البحث تحليلاً إحصائياً للسلاسل الزمنية لبيانات التجارة الخارجية خلال الفترة (١٩٧٠ - ١٩٨٣) والتى ترد فى النشرات الشهرية للتجارة الخارجية الصادرة عن الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء .

وقد توصل الباحث إلى جملة من النتائج كان من أهمها ما يلى :

١ - وجود عجز كبير ومستمر فى الميزان التجارى المصرى لصالح دول حوض النيل .

٢ - ضآلة نسبة التعاملات التجارية مع دول حوض النيل بالنسبة لإجمالى قيمة تجارة جمهورية مصر العربية .

٣ - أن أغلب السلع والمنتجات التى تقوم عليها حركة التبادل التجارى بين مصر ودول حوض النيل تتمثل فى بعض الحاصلات الزراعية والمنتجات المعدنية .

٤ - أنه يمكن تنشيط التبادل التجارى بين مصر وهذه الدول وإعتبارها أسواقاً بديلة لكثير من وارداتنا وأسواقاً لصادراتنا التى تحتاج إليها تلك الدول .

التوصيـــات

توصى الدراسة بما يلى :

١ - وضع إستراتيجية للتصدير تقوم على دعائمها صناعة تصديرية قوية تهتم بالكيف والكم معاً بإضافة خدمات تسويقية إلى السلع الخام والنصف مصنعة عن طريق التجهيز والتصنيع والتعبئة والتغليف ، مع تشجيع القطاع الخاص على المشاركة بفاعلية فى عمليات التصدير والإستيراد جنباً إلى جنب مع القطاع العام .

٢ - التعمق فى دراسة أسواق دول حوض النيل من ناحية الصادرات والواردات تمهيداً لزيادة التبادل التجارى بين مصر وبين هذه الدول ، وذلك فى إطار سياسة الإنفتاح الإنتاجى المصرى وفى ضوء إحتياجات مصر الإستيرادية الكبيرة سواء من المواد الغذائية أو السلع التى تدخل فى الإنتاج .

٣ - العمل على قيام منظمة حوض النيل ، بحيث تتماشى مع منظمة الوحدة الافريقية كى تنهض ببرامج ومشروعات فنية مشتركة وتركز على المصالح الإقتصادية لهذه الدول ، بحيث يكون هناك إتفاقيات ذات أفضلية بين هذه الدول أيضاً .

٤ - دراسة إقتصاديات التوسع فى الخطوط النقل البحرى والبرى والنهرى مع دول حوض النيل تمهيداً للعمل المشترك لتحقيق هذا التوسع .

٥ - دعم الإتصال الجوى المباشر بين دول حوض النيل .

٦ - وضع خطة متكاملة تراعى ظروف الإنتاج المصرى وإمكانية تطبيقها علمياً لزيادة حركة التجارة الخارجية مع دول حوض النيل ، مع العمل على إيجاد الوسائل الكفيلة بوضع الإتفاقيات التجارية الثنائية موضع التنفيذ التام .

٧ - النظرة المستقبلية للصندوق المصرى للمعونة الفنية للدول الأفريقية وللصندوق العربى للمعونة للدول الأفريقية والعربية ووضع خطة محددة تدريجية لمضاعفة أنشطتهما فى مختلف المجالات .

٨ - تحقيق أكبر قدر من التنسيق مع القطاعات المصرية المختلفة فى مجالات الإنتاج والتصدير والإستيراد ، مع ضرورة دراسة شكل العلاقات الحالية بين فروع الشركات المصرية والبعثات الدبلوماسية والمكاتب التجارية فى الخارج بغرض وضع الأسس اللازمة وتحديد الإطار الذى يزيد حجم التعاون بينها .

المراجع العربية

١ - أحمد عباده سرحان (دكتور) ، **مقدمة فى طرق التحليل الإحصائى** ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢ - أحمد عباده سرحان (دكتور) وآخرون ، **مقدمة فى الإحصاء التطبيقى** ، القاهرة ١٩٧٢ .

٣ - الجهاز المركزى للتعبئة العامة والأحصاء ، **النشرة الشهرية للتجارة الخارجية** ، أعداد متفرقة .

٤ - جمهورية مصر العربية ، مجلس الشورى ، **تقرير لجنة الشئون العربية والخارجية والأمن القومى عن العلاقات المصرية الأفريقية** ، دور الإنعقاد العادى الثالث ، القاهرة ١٩٨٣ .

٥ - مركز تنمية الصادرات المصرية "أنباء الصادرات" نشرة شهرية ، العدد ٤١ ، يونيو ١٩٨٥ .

٦ - المركز المصرى الدولى للزراعة ، "مجموعة أبحاث مؤتمر تنمية الصادرات الزراعية المصرية" ، ٢٨ فبراير - ٣ مارس ١٩٨١ ، القاهرة ١٩٨١ .

المراجع الأجنبية

Regine van chi - Bonnardel, **The Atlas of Africa**, Editions Jeune Afrique, University of paris 1 st edition, Holand, 1973.



جامعة القــاهــرة - معهد البحــوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٤٤٧ - ٤٨٠

مقومــات الإنتــاج الغذائى فى الســـودان

الدكتور كايد ابو صبحة
قسم الجغرافيا- الجامعة الأردنية
عمان الأردن

ملخص

من أهم المشكلات التى تواجه السودان، مشكلة الجوع وسوء التغذية التى تأثرت بها قطاعات مختلفة وكبيرة من الشعب السودانى، وقد أدت هذه المشكلة إلى حركات سكانية وهجرات جماعية، مما جلب إهتمام وسائل الإعلام العالمية التى ركزت عليها بشكل قوى، كما قامت العديد من الدول العربية والصديقة والهيئات والمنظمات العالمية بتقديم المساعدة العاجلة للشعب السودانى.

لذلك فقد هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن هذه المشكلة والإجابة على الأسئلة التالية: هل يمكن حل هذه المشكلة بالإعتماد على مصادر الإنتاج الغذائى المحلية ؟ ما هى مقومات الإنتاج الغذائى الطبيعية والبشرية ؟ هل تملك السودان الإمكانات القادرة على توفير المواد الغذائية له، ما هى المقومات التى تعترض سبل الإكتفاء الذاتى، وتطوير الموارد المحلية ؟

وقد تبين من الدراسة أن لدى السودان إمكانات طبيعية هائلة من حيث تنوع الظروف المناخية وتنوع الترب وتوافر المصادر المائية الضخمة، بالإضافة إلى أعداد السكان والقوى العاملة التى تكفى لتطور الإنتاج وزيادة المساحات المنزرعة وزيادة إنتاجية المواد الغذائية. فتمتلك السودان أكثر من ٥٨ مليون هكتار أراضى قابلة للزراعة، بلغت نسبة الأرض المنزرعة منها ١١٪ فقط بالإضافة إلى مساحات هائلة للمراعى التى تمكن السودان من تربية ثروة حيوانية ضخمة، تساعد فى كون السودان سلة خبز للمنطقة والوطن العربى بشكل عام.

ويعترض هذا الهدف صعوبات بيئية مختلفة منها، الجفاف الذى يسود بعض المناطق وإرتفاع الملوحة وصعوبة الصرف فى مناطق أخرى، بالإضافة إلى الأساليب التقليدية المتبعة فى الزراعة واستخدام وسائل الرى القديمة، وانخفاض كمية الأسمدة والمبيدات الحشرية المستخدمة . وكذلك ضعف طرق المواصلات والسياسات الحكومية وملكية الأراضى وعجز ميزان المدفوعات والديون المتراكمة.

وقدمت الدراسة عدة توصيات لحل المشكلات السابقة من أجل الإستفادة من الموارد المحلية المتوافرة والمحافظة عليها كالتخلص من الملوحة واستخدام أنظمة رى حديثة وأساليب زراعية حديثة، وإتباع خطط تكاملية إقليمية لحل بعض المشكلات كالنقص فى الأيدى العاملة المدربة أو فى كميات المياه، وإتباع الحكومة سياسيات اقتصادية تعمل على خفض الديون وتشجيع المستثمرين ووضع سياسات تسويقية تشجع الإستثمار وغيرها.

مقدمــة

يواجه السودان كغيره من الدول النامية، تحديات كثيرة أهمها سوء التغذية ونقص المواد الغذائية، وتعرض بعض قطاعات المجتمع للجوع والفقر ووجود أعداد من اللاجئين من بعض الأقطار المجاورة، ومن مناطق محلية مختلفة تأثرت بالجفاف أو بعوامل أخرى، دفعتهم للحركة والإنتقال بحثا عن ملجأ أو مكان تتوافر فيه بعض مقومات الحياة.

وقد حظيت مشكلة سوء التغذية والجوع واللاجئين فى السودان بإهتمام وسائل الإعلام المختلفة، وقامت كثير من المنظمات والهيئات الدولية وبعض الدول العربية والصديقة بتقديم المساعدات العاجلة من مواد غذائية وطبية لمن هم بأمس الحاجة إليها.

ومن أهم ملامح هذه المشكلة ما يلى:

١- تزايد أعداد السكان فى السودان بمعدل ٢,٩٪ ، وعلى الرغم من أن هذا المعدل متوسط ولا يصنف ضمن المعدلات السريعة، ربما يعود السبب فى ذلك إلى إرتفاع معدلات الوفاة، إلا أن هذا المعدل يؤدى إلى تضاعف سكان السودان خلال ٢٤ عاما تقريبا.

٢- الإرتفاع النسبى فى دخل الفرد: فعلى الرغم من أن معدل دخل الفرد فى السودان من المعدلات المنخفضة، إلا أنه قد ظهر زيادة طفيفة، مما يؤدى إلى الإفراط فى الإستهلاك، لدى بعض القطاعات من المجتمع السودانى،

٣- نمو مصادر الإنتاج الغذائى بمعدلات صغيرة لا تتناسب مع نمو حاجات السكان.

٤- انخفاض مستوى الإنتاج للأراضى الزراعية وكذلك الذبذبات فى الإنتاج الناجمة عن تباينات الظروف المناخية الطبيعية والبشرية.

٥- وجود حوالى نصف مليون لاجئ فى السودان من بعض الأقطار المجاورة.

٦- الحرب الأهلية فى جنوب السودان.

كذلك فقد هدفت هذه الدراسة إلى تحليل بعض مقومات الإنتاج الغذائى فى السودان، والإجابة على بعض التساؤلات مثل: هل تعود مشكلة الغذاء فى السودان لأسباب داخلية ؟ ما هى هذه الأسباب ؟ هل تعود إلى مقومات الإنتاج الغذائى الطبيعية والبشرية ؟ وإذا أريد معالجة المشكلة، فهل يمكن حلها بالتوجه إلى خارج البلاد، أم أن حلها يمكن فى تطوير عناصر ومقومات الإنتاج الطبيعية من تربه ومياه ورأس مال وقوى بشرية ومدخلات زراعية وتقنية، إلى مستوى يمكن السودان من معالجة هذه المشكلة.

كما ستتناول هذه الدراسة تحليل بعض المقومات الطبيعية لإنتاج الغذاء، كالمياه، التربة، المصادر الأرضية ومستويات استخدامها، وبعض المقومات البشرية للإنتاج الزراعى كالقوى العاملة ورأس المال والمدخلات الزراعية كالالات والتقنية والأسمدة وأنواع البذور أو الأشتال.

كما ستشمل الدراسة تقييماً عاما يوضح المشكلات الرئيسة التى تواجه السودان، ثم اقتراح بعض التوصيات التى قد تسهم فى حل هذه المشكلة.

أولا: المقومات الطبيعية والإنتاج الغذائى:

(أ) المياه [١]:

يمتلك السودان مصادر متنوعة للمياه، وهذه المصادر هى: مياه الأمطار، المياه السطحية ثم المياه الجوفية.

ا - مياه الأمطار :

وتقدر بحوالى ١٦٢٧ مليار م٣ سنويا وتشكل هذه الكمية حوالى ٨٩,١٪ من مجموع الأمطار السنوية فى أقطار الوطن العربى الأفريقى، وبناء على معدلات الأمطار، فإنه يمكن تقسيم السودان إلى المناطق التالية: (شكل ١).

(أ) المنطقة الصحراوية: وتشمل المنطقة التى تقع شمال خط عرض ١٧° شمالا، وتغطى حوالى ٧٣ مليون هكتار، ويقل معدل الأمطار فيها عن ٧٥ ملم.

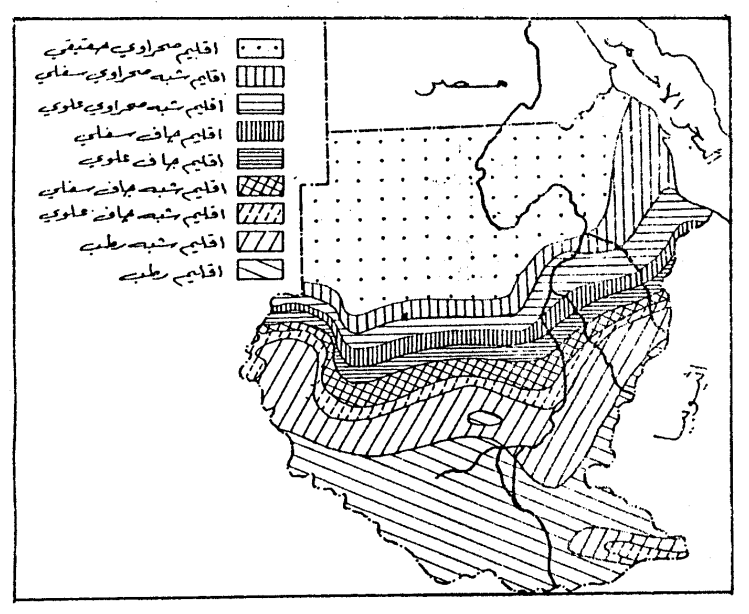
(ب) المنطقة شبه الصحراوية : وتشمل المنطقة التى تقع بين درجتى عرض ١٥° و١٧° شمالا، وغطى مساحة تقارب من الخمسين مليون هكتارا، ويتراوح معدل المطر فيها بين ٧٥ - ٣٠٠ ملم سنويا.

(جـ) منطقة حشائش السافانا: وتشمل المنطقة التى تقع بين درجتى عرض ٩ - ١٥° شمالا، كما يغطى مساحة تصل إلى ٦٠ مليون هكتار، ويبلغ معدل الأمطار السنوى فيها بين ٣٠٠ - ٨٠٠ ملم.

(د) منطقة الغابات الإستوائية: وتقع هذه المنطقة جنوب درجة عرض ٩ شمالا، وتبلغ مساحتها حوالى ٦٠ مليون هكتار، منها ٣٥ مليون هكتار مغطاة بالغابات وحشائش السافانا، والباقى ومساحته ٢٥ مليون هكتار تغمرها مياه الفيضان.

---

(١) جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتنمية الزراعية، برامج الأمن الغذائى العربى ، الموارد الطبيعية ، الجزء الثانى ، الخرطوم ١٩٨٦، ص٥٢٠.



شكل -١- الاقاليم المناخية فى السودان
عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية ١٩٨٦

ويمكن توزيع مناطق السودان حسب معدلات الأمطار السنوية على الشكل التالى:

معدل الأمطار السنوى	النسبة المئوية من مساحة القطر
أقل من ١٠٠ ملم	٣,٨
١٠٠ - ٣٠٠ ملم	٦,٩
٦٠٠ - ٦٠٠ ملم	١٨,٢
٦٠٠ - ١٠٠٠ ملم	٤٧,٢
أكثر من ١٠٠٠ ملم	٢٣,٩

٢- المياه السطحية

لقد حدد نصيب السودان من مياه نهر النيل فى الإتفاقية التى عقدت بين مصر والسودان عام ١٩٥٩ بـ ١٨,٥ مليار م٣ عند أسوان و ٢٠,٣٥ مليار م٣ عند سنار، ونصيب مصر بـ ٥٥,٥ مليار م ٣ تستغل السودان حوالى ١٥,٦٣ مليار م٣، وتترك الباقى للاستغلال المستقبلى، وتتوزع الموارد النهرية المستغلة على النحو التالى: (٢)

الموارد النهرية المستغلة	الإستغلال المائى/ مليار م٣	المساحة المروية بالمليون هكتار
النيل الأزرق وروافده	١٠,٨٨	١,١٣٢
النيل الأبيض	١,٩٣	٠,٢٢٦
نهر عطبرة	١,٦٢	٠,١٦٨
النيل الرئيسى	١,٢٠	٠,١٣١
المجموع	١٥,٦٣	١,٦٥٧

(٢) جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتنمية الزراعية، برامج الأمن الغذائى ، مصدر سابق ، ص ٥١٥.

أما الموارد الممكنة (للسودان نصفها) مقدرة عند أسوان، فتتوافر على الشكل التالى:

قناة مستنقعات مشـــــار	٢,٥ مليار ٣ سنويا .
سد نهـــــــر بـــارو	١,٥ مليار ٣ سنويا
قنـــــاة جولخلـــــى	٧,٠ مليار ٣ سنويا
مشاريع حوض بحر الغزال	٧,٠ مليار م٣ سنويا.

يضاف إلى ما تقدم حوالى ٢,٦٥ مليار م٣ من المياه السطحية بمنطقة جبل مرة والخيران الموسمية فى منطقة السافانا بأواسط السودان. ويقدر ما يفقد من المياه السطحية، بشكل عام، بواسطة التسرب والتبخر وغيرها حوالى ٣٧,٦ مليار م٣ المياه السطحية، بشكل عام، بواسطة التسرب والتبخر وغيرها حوالى ٣٧,٦ مليار م٣ سنويا موزعة على النحو التالى:

بحر الجبل والزران	١٥ مليار م٣
بحر الغـــــزال	١٤,٦ مليار م٣
نهر الســـــوباط	٤ مليار م٣
مستنقعات مشـــار	٤ مليار م٣

٣- المياه الجوفية:

تقدر كميات المياه الجوفية المتاحة للشرب فى مناطق الريف السودانى حوالى ٦٣,٨٤ مليون م٣ منها حوالى ٦٢,٦٤ مليون م٣ من آبار عميقة وحوالى ١,٢٠ مليون م٣ من آبار سطحية. أما المياه الممكن استغلالها فتقدر بحوالى ١٢٠ مليون م٣ تستغل فى رى حوالى ٨ آلاف هكتار موزعة على مناطق مختلفة من السودان. وتبلغ السعة التخزينية السنوية للأحواض المائية حوالى ٤٢ مليار م٣، وتغذية أحواض المياه الجوفية ١,٤ مليار م٣، يستغل منها حاليا حوالى ٦٣,٨٤ مليون م٣ سنويا.

(ب) التربة:

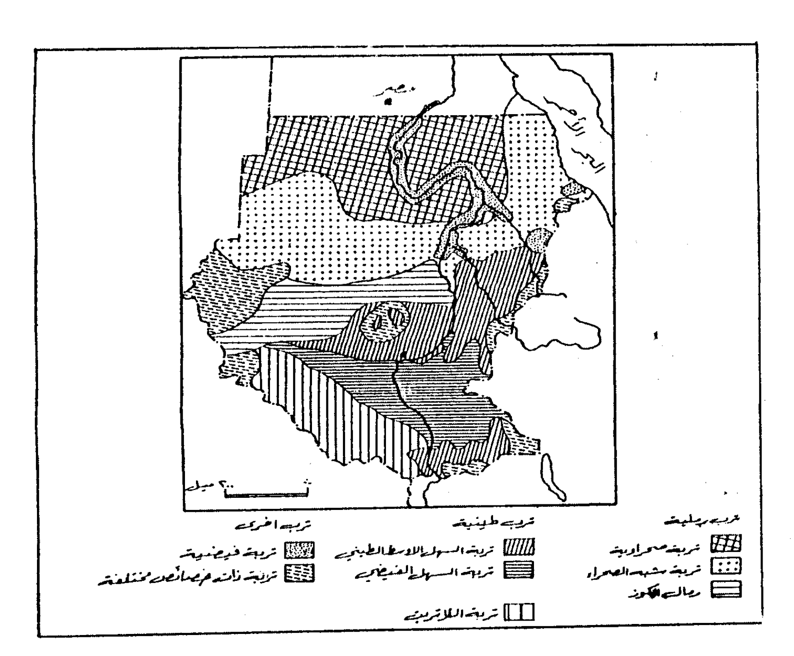
يمكن تقسيم التربة فى السودان إلى المجموعات التالية: (شكل ٢)

١- تربة الأراضى الصحراوية: وتبلغ مساحة الأراضى الصحراوية ٦٦,٨ مليون هكتار، كما تشكل حوالى ٢٦,٦٪ من مجموع أراضى السودان، وتتكون من تلال وصخور وكثبان رملية وسهول حصوية وطينية. وتوجد فى هذه المنطقة بعض التربات الرسوبية وبشكل خاص فى وادى (خوى) ووادى (كرمة) إلا أن هذه التربة تعانى من الملوحة والقلوية، وعملية استصلاحها صعبة ومكلفة ماديا.

٢- تربة الأراضى شبه الصحراوية: وتبلغ مساحتها حوالى ٣٨,٩٥ مليون هكتار، وتشكل حوالى ١٥,٥٪ من مجموعة مساحة القطر، وتمتد هذه الأراضى جنوب المنطقة الصحراوية وتتراوح الأمطار فيها بين ١٠٠ - ٢٢٥ ملم، وتتميز التربة هنا بضحالتها وبذلك توفر مراع ضعيفة، كما تتوفر فيها إمكانية لإستخراج مياه جوفية، وتعتبر بعض المناطق هنا صالحة لزراعة الدخن والذرة والفول السودانى.

وهناك منطقة أخرى شبه صحراوية: هى أراضى منطقة البحر الأحمر، وتبلغ مساحتها حوالى ٦,٨ مليون هكتار، أى حوالى ٢,٧٪ من المساحة الكلية، وإمكانيات تنمية التربة فى هذه المنطقة منخفضة جدا ماعدا بعض الأودية، كما أن الزراعة ممكنة فى بعض المناطق الدولتاوية الأخرى، وبشكل عام فإن الأمطار قليلة والمناخ قاس، والرياح شديدة والتعرية الريحية عالية.

٣- تربة أراضى الكوز: وتبلغ مساحتها حوالى ٢٢,٠٥ مليون هكتار، وتشكل حوالى ٩,٦٪ من مجموع مساحة القطر، وتتميز التربة هنا بأنها عميقة وجيدة الصرف غير كلسية، كما أنها تصلح لزراعة كثير من المحاصيل الزراعية والرعوية، وتحتاج إلى عمليات صيانة. ويمكن تطوير الزراعة المطرية فى هذه المنطقة وبخاصة زراعة الدخن والذرة الصفراء، وتتراوح الأمطار فى هذه المنطقة بين ٤٠٠ - ٧٥٠ ملم سنويا.



شكل – ٢ – النطاقات الرئيسية للتربة فى السودان

(عن نلسون ١٩٨٢)

٤- تربة أراضى السهل الأوسط الطينى، وتبلغ مساحتها حوالى ٢١,٣ مليون هكتار كما تشكل حوالى ٨,٥٪ من مجموع المساحة. إن إمكانية الزراعة فى بعض المناطق الجافة من هذه الأراضى عالية، أما المناطق شبه الجافة والتى تتميز بتربة طينية متشققة فهى ملحية وقلوية وتستخدم للرعى، وكذلك فإن المناطق الموسمية من هذه الأراضى جيدة للرعى وبناء السدود. إن إضافة الأسمدة تساعد فى زراعة بعض المحاصيل المقاومة للجفاف كالذرة والسمسم، ومع إمكانية الرى فإنه يمكن زراعة القطن والبقوليات والذرة الصفراء. والمشكلة الرئيسية هنا هى ضعف طرق المواصلات وقلتها.

٥- تربة أراضى دلتا الجامش: وتبلغ مساحتها ٠,٩٠ مليون هكنار وتشكل حوالى ١,٢٪ من مساحة القطر، ويمكن زراعة البساتين فى هذه المنطقة وكذلك الزراعة الآلية، كما تسود حرفة الرعى فى مناطق أخرى.

تربة اراضى جبل مرة : وتبلغ حوالى ٢ر٩ مليون هكتار وتشكل حوالى ١ر٢٪ من مساحة القطر ، ويمكن زراعة البساتين فى هذه المنطقة وكذلك الزراعة الآلية كما تسود حرفة الرعى فى مناطق أخرى.

تربة أراضى سهل دارفور: وتبلغ مساحتها ٩,٢ مليون هكتار وتشكل حوالى ٣,٧٪ من مجموع المساحة، بعض المناطق جافة وبعضها شبه جافة والأخرى موسمية. وهناك إمكانية للرعى والغابات فى بعض الأجزاء، وتكون إمكانات الغابات والمراعى أكبر فى الأجزاء الموسمية حيث توجد التربة الطينية المتشققة.

٦- تربة أراضى حوض سهل كردفان: وتبلغ مساحتها حوالى ٢ مليون هكتار وتبلغ ٠,٨٪ من مجموع المساحة، وتتميز التربة فى هذه المنطقة بأنها ريحية حديثة

التكوين فقيرة وكمية الرطوبة قليلة وتتعرض للتعرية، ويمكن استغلالها فى زراعة بعض المحاصيل والرعى.

٧- تربة أراضى مرتفعات النوبة وتبلغ مساحتها ٦,٥ مليون هكتار وتشكل ٢٧٪ من مجموع المساحة، وتتوافر فى هذه المنطقة فرصة كبيرة للتطوير الزراعى والمراعى المتطورة.

٨- تربة أراضى مجمعات السهول الرسوبية : وتبلغ مساحتها ٥,٩ مليون هكتار وتشكل حوالى ٢,٤٪ من المساحة الكلية، وتتكون من سهول رسوبية، والمناخ هنا شبه جاف فى بعض الأجزاء وموسمى جاف فى أجزاء أخرى.

٩- تربة أراضى السهل الطينى الجنوبى، وتبلغ مساحته ٢٤,٧٥ مليون هكتار وتشكل مساحته ٩,٩٪ من مجموع مساحة القطر. أن الجزء الأوسط من هذه المنطقة تغمره مياه الفيضانات خلال الفصل الرطب، كما أن الأرض، فى وضعها الحالى، غير قابلة للإستغلال، ولكن استغلالها ممكن بواسطة السيطرة على مياه الفيضان وإنشاء مصارف لها، وتزرع فى بعض أجزاء هذه المنطقة الذره البيضاء والأرز.

١٠- تربة أراضى المستنقعات وتبلغ مساحتها ٣,٩ مليون هكتار وتشكل حوالى ١,٦٪ من مساحة القطر، ويمكن إستغلال هذه المناطق بالرعى فى فصل الجفاف، كما أن إستصلاح أراضيها ممكن مستقبلا.

١١- تربة أراضى السهول والمرتفعات الشرقية والجنوبية الشرقية، وتبلغ مساحتها ١٠,٤٥٠ مليون هكتار وتشكل حوالى ٤,٢٪ من مجموع المساحة، وتتكون التربة فى هذه المناطق من أنواع مختلفة فبعضها يصلح لزراعة البطاطا والشاى والقهوة، والبعض الآخر يصلح لزراعة الفواكه والتبغ والذرة الصفراء.

وهناك نوعان آخران من الأراضى السودانية وهما:

(أ) الصخور الحديدة التى تشكل حوالى ٩,٥٪ من مساحة القطر، وتشمل المناطق المنحدره من النيل باتجاه أراضى الكونغو ويصل معدل الأمطار السنوى فيها إلى ٩٥٠ - ١٤٠٠ملم، وتتميز التربة بإنتاجية منخفضة حيث تحتاج إلى إدارة مكثفة وإستخدام الأسمدة، وتزرع فيها وبخاصة التربة العميقة منها الذرة الصفراء والبيضاء والكسافا والفول السودانى.

إن تربية المواشى هنا محدودة بسبب انتشار ذباب التسى تسى.

(ب) تربة الحزام الأخضر، الذى تشكل مساحته حوالى ١٪ من مجموع المساحة، وتتميز التربة هنا بأنها أعمق نسبيا، وخصوبتها منخفضة، وتعانى هذه المنطقة من ضعف شبكة المواصلات وقلتها، وانتشار ذبابة الشى شى.

وبإختصار، فإنه يمكن تجميع أنواع الترب السابقة فى مجموعات رئيسية ثلاث هى:

(أ) الأراضى الرملية فى المناطق الشمالية والغربية والوسطى.

(ب) التربة الطينية فى الإقليم الأوسط.

(جـ) تربة اللاتريت فى الجنوب.

يضاف إلى هذه المجموعات، تربات فيضية توجد على جوانب المجارى الدنيا للنيل الأبيض والأزرق والنيل، ودلتا نهر القاش فى منطقة كاسالا ودلتا بركة فى منطقة تادكار جنوب شرق البلاد فى منطقة البحر الأحمر.

إن أهم هذه الترب من الناحية الزراعية هى الطينية التى تمتد من غرب كاسالا عبر الجزيرة ومناطق النيل الأزرق وجنوب كردفان. وهناك مساحات كبيرة تقع إلى الشرق من النيل الأزرق تستغل فى الزراعة التقليدية.

(جـ) الأرض ومستويات استخدامها:

تقدر مساحة السودان بحوالى ٦٢٤ مليون فدان، يصنف منها حوالى ٢٠٤ مليونا أراضى قابلة للزراعة و ٥٨,٤ مليونا أراضى للمراعى و ٢٢٦,٥ مليونا

أراضى غابات، وحوالى ٩٤ مليون فدان غير مزروعة[٣] . وقد أظهرت دراسة لمنظمة الأغذية والزراعة الدولية عام ١٩٧٥ إن مجموع مساحة الأراضى المزروعة كانت حوالى ١٦,٦ مليون هكتار موزعة على النحو التالى[٤].

- مناطق تتميز بكميات من الأمطار وتبلغ مساحتها ١١,٦ مليون هكتار.
- مناطق تتميز بأمطار قليلة وتبلغ مساحتها ١,٤ مليون هكتار.
- مناطق فيضانات طبيعية وتبلغ مساحتها ٠,١١ مليون هكتار.
- مناطق مروية كاملا وتبلغ مساحتها ٢,٥٨ مليون هكتار.
- مناطق مروية ريا جزئيا وتبلغ مساحتها ٠,٤١ مليون هكتار.
- مناطق أخرى تبلغ مساحتها ٠,٤٦ مليون هكتار.

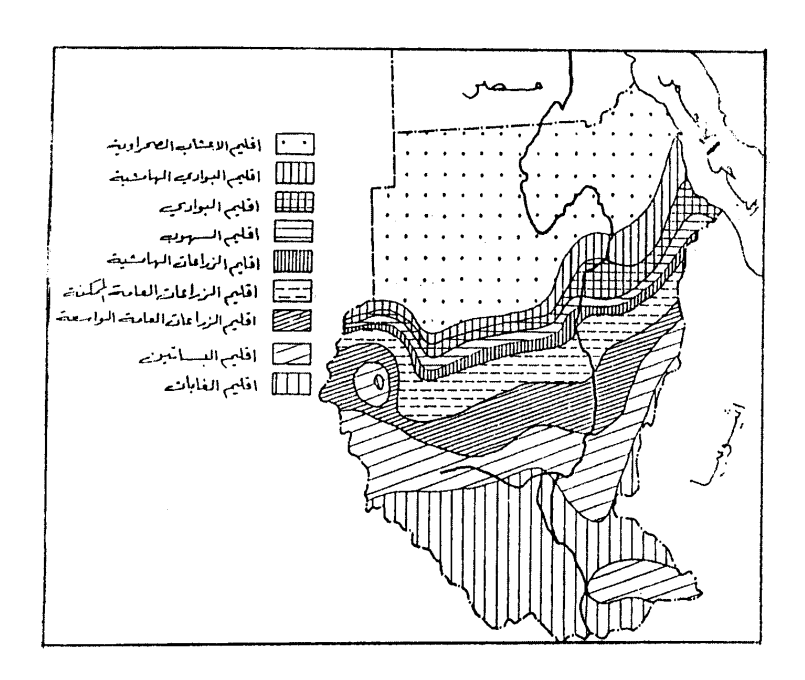
وتتوزع أنماط استعمالات الأرض والأنماط البيئية لاستعمالات الأراضى فى السودان على النحو التالى: (شكل ٣)

أنماط إستعمالات الأرض

نمط الاستعمال	المساحة بالمليون فدان سنة ١٩٨٠
المساحة الكلية	٥٩٦,٤
مساحة اليابس	٥٦٥,٥
أراضى قابلة للزراعة بالمحاصيل الدائمة	٢٩,٥
مراعى دائمة	١٣٣,٣
غابات	١١٦,٤
أراضى مروية	٤,١
أخرى	٢٨٦,٠

(٣) قدر البنك الدولي الأراضى القابلة للزراعة عام ١٩٧١ بحوالى ٨٨,٩ مليون هكتار وقدرتها منظمة الأغذية والزراعة العربية بحوالي ١٤٥,٥ مليون هكتار. وهذه الأرقام مأخوذة من نشرة بعنوان Country Analysis وتحمل ما يلى: JEFAD/ZMA-re/84/214 تاريخ ٢٣/آذار ١٩٨٤.

(٤) المصدر السابق. وتقدر المنظمة العربية للتنمية الزراعية أن مساحة الأراضى القابلة للزراعة فى السودان تبلغ ٥٨,٩ مليون هكتار ، يزرع منها بالمحاصيل الزراعية ٧ مليون هكتار فقط أى حوالى ١١٪ من المساحات القابلة للزراعة. وتغطى المراعي الطبيعية ٢٤ مليون هكتار والغابات ٩١ مليون هكتار والأراضى الأخرى ١٩١,٦ مليون هكتار.



شكل - ٣ - الاقاليم الزراعية فى السودان
عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية ١٩٨٦

أنماط البيئة لاستعمالات الأرض فى السودان

نمط الاستعمال	المساحة بالمليون فدان
سافانا تتميز بأمطار قليلة بين ٤٠٠-٩٠٠ ملم	١٦٤,٤٦
سافانات تتميز بأمطار عالية بين ٩٠٠-١٣٠٠ملم	٨٢,٨٢
مستنقعات أمطار بين ٨٠٠-١٠٠٠ ملم	٥٨,٥٥
صحراء صفر - ٧٥ملم	١٧٢,٧٤
شبه صحراوية ٧٥-٣٠٠ ملم	١١٦,٨٥
مرتفعات جبلية	١,٤٣

وتقدر الدراسة السابقة، أيضا، أن تكون مساحة الأرض المزروعة فى عام ٢٠٠٠ حوالى ٢٨,٨ مليون هكتار موزعة على النحو التالى:

- مناطق تتميز بكميات كبيرة من الأمطار حوالى ٢٠,٣ مليون هكتار
- مناطق مروية حوالى ٦,٤ مليون هكتار، وما يبقى من مجموع المساحة للأغراض التى سبق ذكرها.

وتصنف دراسات أخرى (٥) الأرض فى السودان على النحو التالى: حوالى ٢٤ مليون هكتار للزراعة، وحوالى ١٢٠ - ١٥٠ مليون هكتار للرعى، وبين ٦٠ - ٩١,٥ مليون هكتار للغابات .

ويظهر من الأرقام السابقة أن هناك إمكانية قوية لإستغلال مساحات كبيرة من الأرض فى المستقبل. ويقدران حوالى ثلثى المساحة المخصصة للمراعى هى مستغلة حالياً ، كما يقدران حوالى ١/٣ مساحة الأراضى السودانية هى صحراء وحوالى ٩ ر٢ مليون هكتار أرض مستنقعية أو مسطحات مائية ، وحوالى ٢٨٠٠٠ هكتار مستغلة فى العمران .

يعتمد حوالى ١/٤ المساحة المزروعة فى القطر على الرى الحديث، أو حوالى ١,٩ مليون هكتار (عام ١٩٨٢) تعتمد على الرى الحديث ، وتمتلك الحكومة

(٥) Harold D. Nelson, Suden: A Country study, Foreign Area Studies, The American University, Washington D.C., 1982, P. 142.

حوالى ٩٣٪ منها ويمتلك القطاع الخاص حوالى ٧٪ فقط ، كما أن حوالى ٩٣٪ منها يعتمد على مياه النيل ، وحوالى ١/٣ هذه المساحات تروى بواسطة المضخات والباقى يروى بواسطة الجاذبية أو الانسياب .

وفيما يتعلق بالزراعة المطرية فيعتمد معظم السكان على هذا النوع من الزراعة، ويزرع حوالى ٨٠٪ من المساحات المخصصة لهذا النوع بالذرة الرفيعة Sorghum ، وبخاصة فى الأراضى الطينية المتشققة وحوالى ١٠٪ منها ببذور السمسم و٥٪ فقط بالقطن[٦] .

ثانيا: *المقومات البشرية للإنتاج الغذائى*:

(أ) الوضع الحالى للإنتاج الزراعى :

وبالنسبة للإنتاج الزراعى فإنه يعتبر العمود الفقرى للإقتصاد السودانى، إذ شكل حوالى ٣٤٪ من مجموع الناتج المحلى وحوالى ٩٥٪ من مجموع السكان على الإنتاج الزراعى بشكل مباشر فى معيشتهم. كما ويعمل حوالى ٧٧٪ من الناشطين اقتصادياً فى هذا القطاع ، وبالإضافة إلى ذلك فتعتمد الصناعة والمواصلات على المنتجات الزراعية كمصادر للمواد الخام.

والزراعة نوعان: زراعة مطرية وأخرى مروية، وتنقسم الزراعة المطرية إلى قسمين : أحدهما يعتمد الأساليب الحديثة، ويعمل حوالى ٧٥٪ من السكان فى الزراعة التقليدية. ويتميز الإنتاج الزراعى هنا بإنخفاض الإنتاجية التى تتأثر بالذبذبات المناخية بشكل كبير، ويكون العمليات الزراعية بدائية وبنقص فى الآلات والمعدات وبخاصة التى تستخدم فى حراثة الأراضى الطينية[٧] .

لذلك فقد تركزت الجهود على الزراعة المروية حيث يعتمد حوالى ١/٤ المساحة المزروعة فى السودان على الرى الحديث أى حوالى ١,٩ مليون هكتار ، وتمتلك الحكومة حوالى ٩٣٪ منها [٨]. فقد نال قطاع الزراعة والرى ما يعادل ٣٩٪ من استثمار الخطة العشرية بين ١٩٦٠-١٩٧٠ وانخفضت هذه النسبة

(٦) مصدر سابق. Ibid, 1982, P. 142 .

(٧) Country Analysis , JEFAD/ZMA-re/84/214, 1984.

(٨) Harold Nelson. Op Cit., P. 143.

إلى نحو ٢٦٪ فى الخطة الخمسية (١٩٧٠-١٩٧٥) وإلى نحو ٢٧٪ فى الخطة من ١٩٧٧-١٩٨٣. ويحتاج السودان لتمويل خطط الإنمائية الزراعية حتى عام ١٩٩٠ حوالى ٤,٢ بليون دولار ، ولا يزيد مجموع رأس مال الهيئة العربية للإستثمار على ٥١٣ مليون دولار (٩).

وقد اقترح تنفيذ ثلاثين مشروعاً موزعة على خمسة برامج على النحو التالى:

١- برنامج إنتاج القمح والحبوب ويشمل (٨) ثمانى مشروعات .

٢- برنامج إنتاج البذور الزيتية ويشمل مشروعاً واحدًا .

٣- برنامج إنتاج السكر، ويشمل (٩) تسعة مشاريع .

٤- برنامج الإنتاج الحيوانى والداجنى ويشمل (١١) أحد عشر مشروعاً .

٥- برنامج إنتاج الأسماك ويشمل مشروعاً واحداً .

تقدر الإستثمارات الإجمالية لتنفيذ هذه المشروعات بحوالى ٨٣٤٥,٢٥ مليون دولار، أى حوالى ٣١,٤٪ من مجموع الاستثمارات القطرية للأمن الغذائى فى الدول العربية (١٠).

وقد بلغ إنتاج السودان من المواد الغذائية عام ١٩٨٤ بالطن المترى ما يلى :

١,٩٣٩,٠٠٠ حبوب ١٦٢٠٠٠ قمح ٧٠٠٠ أرز

٥٠٠٠٠ ذرة ٢٥٠٠٠ بطاطا(١١)

أنظر (جداول ١، ٢، ٣).

(٩) جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتنمية الزراعية ، برنامج الأمن الغذائى العربى ، جـ ١، استراتيجية الأمن الغذائى ، الخرطوم ، ١٩٨٦ ، ص٣١، ٧٩، ٨٠).

(١٠) لمزيد من المعلومات عن هذه المشاريع والعائدات الناتجة عنها يمكن الرجوع إلى : جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتنمية الزراعية، مصدر سابق، ص ٨٠ .

(١١) U.N. Statistical Yearbook, 1983-1984.

جدول (١) يبين الإنتاج والاستيراد والتصدير والاستهلاك لبعض المواد الغذائية فى السودان بالألف طن لعام ١٩٨٢ (١٢).

المادة الغذائية	الإنتاج	الاستيراد	التصدير	الاستهلاك الكلى	إستهلاك كل فرد بالكغم فى السنة
الحبوب	٢٥٤٠	٦١١	٣٧٠	٢٧٨١	١٤٣
القمح	١٥٠	٥٧٣	-	٧٢٣	٣٧
الأرز	٨	٣٨	-	٤٦	٢,٣
الذرة	١٢	-	-	٥٢	٢٦

جدول (٢) يبين معدل الإنتاج والإستهلاك لكل فرد بالكيلو غرام لعام ١٩٨٢ .

المـادة	الاستهلاك	الإنتاج	النقص
الذرة والشعير	٢,٦	٢,٦	صفر
لحم ، سمك ، بيض	٢٥,٢	٢٥,٢	صفر

(١٢) الأرقام الواردة فى جدول (١، ٢) مأخوذة من الورقة المقدمة من بيكارتورانى إلى ندوة الإمد الغذائى التى نظمها منتدى الفكر العربى حول الأمد الغذائى فى الدول الغربية والعالم الثالث، عمان ، ١٩٨٦.

جدول (٣) يبين المواد الغذائية / الاستيراد والإنتاج والاستهلاك ونسبة الاكتفاء الذاتى بالطن [١٣].

المادة	الإنتاج	الاستيراد	الاستهلاك	الاستهلاك لكل فرد/كغم فى السنة	نسبة الاكتفاء الذاتى
اللحوم	٤٤٣,٠٠٠	٤٠	٤٤٣,٠٤٠	٢٢	٩٩,٩
مواشى	٢٢٣,٠٠٠	٤٠			
خراف	١٥١,٠٠٠	-			
طيور داجن	٢٣,٠٠٠	-			
بندورة طازجة	١٥٣,٠٠٠	-	١٥٣,٠٠٠	٨,٣٠	١٠٠
السكر	٢٥٩,٠٠٠	١٧٣,٩٢٠	٤٣٢,٩٢٠	٢٢,٢٠	٥٥,٨
الحليب	١,٥١٣,٠٠٠	١٦٧,٩٢٥	١,٦٨٠,٩٢٥	٨٦,٤١	٩٠

(١٣) المصدر السابق.

(ب) الثروة الحيوانية:

يعتمد أكثر من ٤٠٪ من مجموع السكان فى حياتهم على الثروة الحيوانية ، وتعد السودان ثانى قطر فى أفريقيا بعد أثيوبيا من حيث أمتلاك الثروة الحيوانية. وتتوزع الثروة الحيوانية عام ١٩٨٤ على النحو التالى (١٤):

- أبقار ١٩,٦ مليون رأس
- أغنام (ضأن) ٢٠,٠ مليون رأس
- ماعز ١٣,٠ مليون رأس×
- جمال ٢,٦ مليون رأس×

وقد شكلت الثروة الحيوانية عام ١٩٨٢/١٩٨١ حوالى ١٤٪ من مجموع عائدات الصادرات. وتتركز الثروة الحيوانية فى المناطق التى لا يمكن الوصول إليها بسهولة وبخاصة فى المناطق الشرقية والجنوبية والغربية من البلاد . كما يوجد ضغط متزايد على المراعى المطرية، التى تتميز بالفقر والجفاف وتنتشر الأمراض التى تصيب المواشى وتتميز مراعى هذه المناطق، أيضاً، بطاقة حمولية منخفضة .

ويوجد الفائض فى الثروة الحيوانية فى مناطق النيل الأبيض ودارفور وكردفان ، كما يوجد جزء كبير من هذه الثروة فى جنوب السودان. ومن المعوقات التى تؤدى إلى إنخفاض الإنتاجية للثروة الحيوانية ضعف طرق المواصلات.

وفيما يتعلق بالثروة السمكية، فقد قدر معدل إنتاج السودان من الأسماك خلال السبعينات بحوالى ٢٣ ألف طن سنوياً، ويقدر أن الثروة السمكية المقدرة حوالى ١٠٠ ألف طن، وقد حصلت السودان على ٢٩,٥ ألف طن من الأسماك عام ١٩٨٣(١٥) . ومصادر هذه الثروة هى نهر النيل والبحيرات الداخلية ثم المناطق الساحلية للبحر الأحمر.

---

(١٤) U.N. Food and Agricultural Organization (FAO) Production Yearbook, Vol. 39, 1985, P. 65.

× Harold Nelson, Op Cit., 1982, P. 143.

(١٥) هذه الأرقام مأخوذة من Harold Nelson وكتاب الإنتاج السنوى عام ١٩٨٥ .

(جـ) معوقات الإنتاج الزراعي:

يمكن تلخيص المعوقات الزراعية فيما يلى:

١- معوقات فى مجال استعمالات الأراضى : وذلك نتيجة استغلال نسبة من الأراضى الزراعية فى البناء والعمران، وعدم زراعة مساحات من الأرض التى تعتبر قابلة للزراعة وبخاصة فى المناطق المطرية، والمطلوب هو إعادة تخصيص تلك الأراضى لإستعمالات أخرى مناسبة كالرعى مثلاً.

٢- الطرق المتبعة فى المحافظة على التربة وبقاؤها ، كالملوحة فى المناطق المروية.

٣- معوقات تسويقية.

٤- معوقات فى مجال مستلزمات الإنتاج كالبندورة والاشتال والآلات الزراعية.

٥- معوقات أخرى فى مجال العلوم والبحث والإرشاد الزراعى .

٦- المواصلات ، تخلف شبكة المواصلات ونقصها.

(د) التوسع الأفقى فى الزراعة : ويتم ذلك بواسطة :

١- إستصلاح أراضى لم تزرع من قبل لقلة الأمطار ووضعها تحت الرى .

٢- إستصلاح أراضى تسقط عليها كميات كافية من الأمطار وذلك بإزالة الغابات.

٣- ضم أراضى كانت مخصصة للمراعى.

ويتم التوسع الأفقى من خلال إقامة السدود لخزن مياه الشتاء والفيضانات، وتقليص الفاقد من المياه فى مجارى الأنهار بواسطة تعميق المجرى وتقليل السطح المعرض للتبخر، واستخدام القنوات الأسمنتية أو الأنابيب المغلقة. يضاف إلى ذلك اتباع أنظمة الرى الحديثة بالرشاشات والتنقيط ، وحفر الآبار الارتوازية وإقامة أنظمة الصرف فى الأراضى المعرضة للملوحة، وكذلك وضع أراض هامشية تحت الرى [١٦].

---

(١٦) جامعة الدول العربية المنظمة العربية للتمية الزراعية ، مصدر سابق، ص٣١.

وإذا أراد السودان تحويل أراضى إضافية لتزع ريا ، فإن ذلك يستدعى إعادة النظر فى الاتفاقية المعقودة مع مصر عام ١٩٥٩ ، وقد يكون ذلك ضمن خطة متكاملة كأن تساهم مصر بالمياه والسودان بالأرض (١٧) .

وتتوافر للسودان الإمكانات الهائلة لزيادة الإنتاج الزراعى ، وتحقيق الإكتفاء الذاتى فى إنتاج الغذاء وتصدير الفائض ، حيث أن إستغلال التربة الجديدة وتنوع البيئات الزراعية تؤدى إلى تنوع المحاصيل ، وقد وضعت الخطط التنموية لبلوغ هذا الهدف ، إلا أن هذه الخطط لم تنجح ليكون السودان سلة خبز المنطقة فأتجهت الجهود لمنع الإقتصاد السودانى من التدهور والمحافظة على المستوى الذى كان عليه فى السبعينات .

وقد شجعت الحكومة رؤوس الأموال الخارجية لتستثمر فى الزراعة ، ومنها صندوق التمويل الكويتى للتنمية الإقتصادية والإجتماعية فى خطة (١٩٧٦ - ١٩٨٥) ، وكذلك الهيئة العربية للإستثمار والتنمية الزراعية . كما ذكر سابقاً ، فإن هذه الخطط لم تنجح ، وحتى يستطيع السودان تحقيق الفائض فى المواد الغذائية ، فإنه يجب إتخاذ بعض الإجراءات ، وبخاصة تلك التى تؤدى إلى تشجيع الإستثمار مثل تغيير السياسات الحكومية ، وتحسين وسائل الرى وتشجيع الإنتاج والمنتجين واتباع سياسات تسويقية تأخذ بالإعتبار تشجيع المنتجين المحليين ، بالإضافة إلى ما سبق ، العمل على تغيير الأنماط الزراعية وكذلك زيادة الإنتاجية والإستثمار .

هذا وقد بلغ مجموع الإستثمار خلال الفترة (١٩٨٠ - ١٩٨٥) حوالى ١,١ بليون دولار ، ويتوقع أن يصل خلال الفترة (١٩٩٠ - ٢٠٠٠) حوالى ٢,١ بليون دولار ، ويحتاج هذا إلى مساعدة خارجية .

---

(١٧) صبحى القاسم ، «نظرة تحليلية فى مشكلة الغذاء فى البلدان العربية ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ، ١٩٨٢، ص ٣١٤.

بعض مدخلات الإنتاج الغذائي .

بلغ عدد السكان في السودان عام ١٩٨٥ حوالى ٢١,٥٥٠,٠٠٠ نسمة ، وعدد السكان الزراعيين ١٤,٦٣٧,٠٠٠ نسمة - وبلغ عدد الناشطين إقتصادياً ٦,٩٩١,٠٠٠ شخصاً منهم ٤,٦٤٨,٠٠٠ فى زراعة ، أى أن نسبة الناشطين إقتصادياً فى قطاع الزراعة حوالى ٦٧,٩ ٪ من مجموع الناشطين إقتصادياً[١٨].

وبلغ معدل نمو السكان ذوى النشاط الإقتصادى خلال الفترة (١٩٨٠ - ١٩٨٥) حوالى ٢,٤٤ ٪ ويتوقع أن يصل هذا المعدل خلال الفترة (١٩٨٥ - ٢٠٠٠) حوالى ٣,٠٦ ٪ فى حين كان معدل نمو السكان خلال الفترة (١٩٨٠ - ١٩٨٥) حوالى ٣,٩ ٪ [١٩] .

وكذلك فقد تطورات نسب القوى العاملة فى القطاعات المختلفة وخلال السنوات من ١٩٦٥- ١٩٨٠) على الشكل التالى [٢٠]، وكما تتضح من جدول (٤).

جدول (٤) نسب المشاركة فى القوى العاملة .

السنة	القطاع	النسبة المئوية
١٩٦٥	زراعة	٨٢
	صناعة	٥
	خدمات	١٣
١٩٧٧	زراعة	٧٩
	صناعة	١٠
	خدمات	١١
١٩٨٠	زراعة	٧٢
	صناعة	٧
	خدمات	١٢

(١٨) U.N. FAO, Production Yearbook, Vol. 39, 1985, P. 65 .

(١٩) المكتب المركزى للإحصاء والتوثيق، مجلة الوحدة الإقتصادية العربية، عدد ٢ ، السنة الأولى ، كانون أول ، ١٩٨٥، ص ١٥٩.

(٢٠) U.N. World Population Prospects, Estimated and Projected as Assessed in 1985

ويظهر من الجدول السابق إنخفاض نسبة القوى العاملة فى قطاع الزراعة خلال الفترات الزمنية الثلاثية ، كما يلاحظ زيادة نسبة القوى العاملة فى قطاعى الخدمات والصناعة ، ولعل الإنخفاض فى نسب القوى العاملة فى الزراعة يشير إلى إنخفاض الإنتاج الزراعى الذى سيؤثر بالتالى على مستوى التغذية للسكان .

وقد أرتفعت نسبة مشاركة المرأة فى قوة العل من ١١,١ ٪ سنة ١٩٨٠ إلى حوالى ١١,٥ ٪ سنة ١٩٨٥ ، كما يتوقع أن ترتفع هذه النسبة إلى ١٢,٧ ٪ عام ٢٠٠٠ [٢١] . ويظهر أن تطور معدل النشاط خلال الفترة بين (١٩٧٠ - ١٩٩٠) هو أقل منه فى الدول النامية والعالم، ويظهر هذا التطور من الجدول التالى[٢٢]:

جدول (٥) تطور نسبة مشاركة المرأة فى القوى العاملة فى السودان بالمقارنة مع الدول النامية والمتقدمة والعالم

الإقليم / السنة	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٨٥	١٩٩٠
الدول النامية	٣٩,٧	٣٨,٩	٣٨,٣	٣٨,٣
الدول المتقدمة	٤٥,٩	٤٦,٦	٤٦,٤	٤٦,٤
العالم	٤١,٩	٤١	٤٠,٦	٤٠,٣
السودان	٣٢	٣١	٣٠,٧	٣٠,٤

(٢١) المكتب المركزى العربى للإحصاء والتدقيق، مجلة الوحدة الاقتصادية العربية ، عدد ٤ ، السنة الثانية، كانون أول، سنة ١٩٨٦.

(٢٢) معدل النشاط العام = $\frac{\text{عدد القوى العاملة (الناشطون اقتصادياً) فى سنة معينة}}{\text{عدد السكان فى الفترة ذاتها}} \times ١٠٠$

هذا ، وتقدر القوة العاملة فى السودان بحوالى ٣٧٪ من مجموع السكان ، وتزداد بمعدل يقارب من ٣٪ سنوياً أى يعدل ١٩٥,٠٠٠ عامل ، وهذه الزيادة قادرة على زيادة المساحة المزروعة بما يتراوح بين ٢,٥ إلى ٣ مليون فدان فى العام ، بالإضافة إلى الوفاء بالإحتياجات غير الزراعية .

وفيما يتعلق بالنقص فى العمالة الماهرة ، فإنه يمكن الحصول عليها من مصر لفترة إنتقالية مؤقته [٢٣] .

ومن مزايا الأخرى للقوى العاملة فى السودان نسبة الأعالة التى تبلغ حوالى ٢,٢ أى حجم الناشطين إقتصادياً إلى حجم الناشطين أقتصادياً .

كما أرتفعت نسبة العمالة السودانية فى أقطار عربية فى دول الخليج العربى والجزائر والعراق وليبيا والسعودية من ١,٦ ٪ من حجم العمالة العربية الوافدة عام ١٩٧٥ إلى ٣,٢ ٪ عام ١٩٨٥ [٢٤] .

ويمكن إضافة بعض المعلومات المتعلقة بإستخدام المكائن والالات وبخاصة فى الزراعة وكذلك إستعمال المبيدات والأسمدة ، وإستخدام البذور والأشتال الحسنة فى الزراعة ، كمدخلات فى إنتاج الزراعى ، بالإضافة إلى تحسن مستوى الإدارة فى إدارة الخدمات والرى والتسويق .

وقد بلغ معدل الجرارات الزراعية فى السودان خلال الفترة بين عام (١٩٧٥ - ١٩٨٧) ٩٢٧٥ جراراً ، وكان معدل نصيب الجرار من الأرض المزروعة بالدونم ٧١٢٧ ومعدل عدد الحصادات ٩٧٥ ، وكان نصيب الحصاد من الأرض المزروعة بالقمح والشعير ٢٩٠ دونما .

(٢٣) د. خميس طعم الله، التطور الديموغرافى فى الوطن العربى ، مجلة شؤون عربية ، آذار ، ١٩٨١، ص ١٣٠.

أ.، تشارنز، س. دفوعة، أ. السفار ، من جامعة البترول والمعادن، هل يستغل العرب السودان لتحقيق الأمن الغذائى العربى ، فى دراسة قدمت لمؤتمر تنمية الصناعة الغذائية العربية فى الكويت عام ١٩٨٦.

(٢٤) البنك الدولى، قوة العمل والهجرة الدولية للعمل فى الشرق الأوسط وشمال افريقيا ، التقرير النهائى ، واشنطن ، ١٩٨١.

وفيما يتعلق بالأسمدة فقد كان نصيب الدونم المزروع خلال الفترة السابقة أقل من ١ كغم ، فى حين كان المعدل العالمى ٨,٩ كغم من السماد للدونم الواحد. وبلغ مجموع ما أنفق من أجل الحصول على المبيدات خلال الفترة ذاتها ٢٣,٥ مليون دولار ، وبلغ نصيب الدونم من الأراضى المزروعة من قيمة المبيدات الحشرية ٠,٣٦ من الدولار .

وبلغ عدد المحاريث الزراعية الآلية (تراكتورات) عام ١٩٨٤ حوالى ١١٢٠٠ وعدد الحصادات ١١٥٠ ، كما بلغ سماد النيتروجين ٨٢,٨ ألف طن مترى و ٠,٧ من الألف طن مترى من سماد الفوسفات وحوالى ٠,٣ من الألف طن مترى من سماد البوتاس [٢٥] .

الوضع الغذائى :

يبدو من جدول (١) أن إستهلاك السودان من الحبوب والقمح والأرز يزيد على ما أنتجة عام ١٩٨٢ ، ويبدو من جدول (٣) أيضاً ، أن لدى السودان إكتفاء ذاتياً فى اللحم والبندورة الطازجة ، كما يعتقد أن لدى السودان إكتفاء ذاتياً فى الخضار والفواكهة والذرة والبقوليات ، وعجزاً فى مشتقات الألبان بالإضافة إلى القمح والأرز والسكر .

وقد بلغ معدل نصيب الفرد اليومى من الطاقة الغذائية بالكيلو كالورى فى السودان خلال الفترة بين عام ١٩٧٥ - ١٩٧٧ حوالى ٢٢٤٧ منها ١٩٩٣ يعود لمصادر نباتية و ٢٥٤ لمصادر حيوانية ، وتشكيل نسبة المصادر الحيوانية للطاقة الغذائية للفرد حوالى ١١ ٪ فقط ، وهذا يشير إلى إنخفاض مستوى التغذية ، ونقص البروتين الحيوانى فى الغذاء .

كما بلغ المعدل اليومى لنصيب الفرد من البروتينات بالغرام (٦٧) منها (٥٠) من مصادر نباتية و (١٧) من مصادر حيوانية ، وبلغت نسبة البروتين الحيوانى حوالى ٢٥ ٪ من مجموع البروتينات .

---

(٢٥) FAO. Production Yearbook, 1985 .

وقد قدر نصيب الفرد اليومى من الطاقة الغذائية للفرد فى السودان عام ١٩٨٤ بحوالى ٢٢٨٠ فيما كان المعدل العالمى ١٦٣٥ [٢٦] ، أى أن هذا المعدل للفرد السودانى أقل من المعدل العالمى .

يتمتع السودان بامكانية هائلة فى أن يكون مكتفياً ذاتياً فى معظم المحاصيل الزراعية بما فيها القمح والأرز والعدس ، وقد ارتفعت فاتورة المواد الغذائية من ١٦٨ مليــون دولار عـــام ١٩٧٥ إلى ٣٩٥ مليـــون دولار عـــام ١٩٨١ ، فى حين انخفضت الصادرات من المنتوجات الزراعية من ٥٣٦,٦ مليون دولار إلى ٣٨١ مليون دولار خلال الفترة ذاتها ، وتزيد نسبة الواردات للصادرات من ٣١ / ١٠٠ إلى ١٠٤ / ١٠٠ [٢٧] .

ويوجد تباين مكانى داخل السودانى من حيث الفائض فى المواد الغذائية ، فمثلاً يوجد فائض من حيث الفائض فى الحبوب فى المقاطعات الشرقية ، فى حين تعانى المناطق الغربية وجنوب دار فور من نقص فى هذه المادة الغذائية . وقد أدى ضعف طرق المواصلات فى تأخير إيصال الفائض من المواد الغذائية إلى المناطق التى تحتاج إليها . وهذا يستدعى سياسة حكومية لتحسين وسائل المواصلات وتحسين مستوى خدمات التخزين ، والإحتفاظ بالإحطياطى اللازم للسكان أثناء فترة الجفاف .

---

(٢٦) حسبت هذه الأرقام من كتاب الإنتاج السنوى :

FAO , Production Yearbook, Vol.. 39 , 1985, P. 65.

(٢٧) Country Analysis, Op Cit, P. 13.

الخلاصـــــة :

يتضح مما تقدم أن حوالى ٢٧ ٪ من مساحة السودان هى أراضى صحراوية وإمكانية إستصلاحها صعبة جداً ، وهناك حوالى ١٨ ٪ من المساحة الكلية أراضى شبة صحراوية ، تتوفر فيها بعض الإمكانات لإستخراج مياه جوفية ، كما تتوفر فى بعض أجزائها مناطق دلتاوية يمكن إستغلالها بالزراعة ، وكذلك فإن زراعة بعض المحاصيل الزراعية ممكنه فى هذه المنطقة وبشكل خاص زراعة الذرة والدخن والفول السودانى .

أما بقية الأراضى السودانية فهى تكاد تصلح للإستغلال الزراعى ، إذا تم إستصلاح بعض المناطق ، وبخاصة تلك المناطق المغطاه بالمستنقعات ، أو المناطق التى تغمرها مياه الفيضانات ، كما تعانى المناطق من الملوحة أو القلوية ، إلا أنه يمكن إستصلاح هذه الأراضى .

وبشكل عام فهناك حوالى ٥٨,٩ مليون هكتار من الأراضى القابلة للزراعة فى السودان ، وقد بلغت مساحة الأراضى المستغلة فعلاً فى الزراعة ٧ مليون هكتار ، وهذا يعنى أن هناك مساحات شاسعة من الأراضى القابلة للزراعة وتحتاج إلى إستصلاح فقط ، وهذا ربما يحتاج إلى أساليب حديثة أو وسائل تصريف للمياه وما إلى ذلك .

وكذلك فإن المراعى الطبيعية تغطى حوالى ٢٤ مليون هكتار ، يمكن تنمية الثروة الحيوانية فيها ، وكذلك تعانى بعض أراضى المراعى من وجود ذبابة النوم (تيسى تيسى) التى تحول دون تربية المواشى فى هذه المناطق . ويستغل حالياً حوالى ١/٣ مساحة المراعى فقط ، وتغطى الغابات حوالى ٩١ مليون هكتار ، يمكن التوسع فى بعض المناطق منها واستغلال بالزراعة ، ويبقى هناك حوالى ١٩١,٦ مليون هكتار غير قابلة للإستغلال الزراعى .

وهناك حوالى ٢٦,٥ مليون هكتار من الأراضى تقع فى المنطقة المطرية ، يزرع منها سنوياً حوالى ٤ مليون هكتار فقط ، وتشمل حوالى ١٠ مليون هكتار من الأراضى الرملية . وتعانى المناطق المزروعة فى هذه المنطقة من عدم إنتظام

الأمطار وإحتواء تربتها على نسبة عالية من الطين الذى يعيق إستعمال الآلات الزراعية ، كما تخلو من الكلس والجبس والنتروچين . هذا ويمكن رفع كفايتها الإنتاجية بأستخدام الدورات الزراعية والميكنة وتطبيق أساليب صيانة الأراضى والمياه .

وتبلغ مساحة الأراضى القابلة للرى حوالى ٥ مليون هكتار ، ما يزرع منها فعلاً ٣ مليون هكتار فقط ، وتوجد هنا إمكانية للتوسع فى حدود ٢ مليون هكتار.

وفيما يتعلق بالمياه ، فتمتلك السودان كميات هائلة من المياه ، على الرغم من أن هناك نسبة كبيرة تفقدها بسبب التبخر أو التسرب وبخاصة من الأنهار ، وكذلك فالمناطق الجنوبية من السودان تسقط عليها كميات كبيرة من الأمطار ، إلا أن جزءاً كبيراً من هذه المياه يفقد أيضاً بسبب التبخر الناتج عن إرتفاع درجة الحرارة . على الرغم من ذلك فهناك مناطق وبخاصة الصحروية وشبه الصحراوية ، وتلك المناطق المطرية فإنها تعانى من نقص فى المياه وتعانى من الجفاف أيضاً .

تستغل السودان حالياً حوالى ١٤ مليار م٣ من المياه سنوياً من حقها وتترك حوالى ٤,٥ مليار م٣ للإستغلال المستقبلى التى تكفى لرى حوالى ١,٠٤ مليون هكتار من الأراضى ، هذا بالإضافة إلى المياه الجوفية ومياه الأمطار التى تسقط على السودان .

أما بشأن المقومات البشرية كأعداد السكان والقوى العاملة ، فإن السودان يمتلك القوة الكافية للعمل وللإنتاج الزراعى أو التنمية الزراعية ، على الرغم من عدد المهاجرين السودانيين فى الخارج حيث أن عدد المهاجرين السودانيين فى المملكة العربية السعودية وصل إلى حوالى ١٢٠ ألفاً . وربما تحتاج بعض قطاعات القوى العاملة إلى التدريب أو الخبرة . كما أن مشاركة المرأة فى قوة العمل تصل إلى ١١٪ وهى قليلة نسبياً يمكن رفعها فى المستقبل .

وبخصوص المدخلات الزراعية والتقنية ، فلا زال أمام السودان جهود كبيرة يجب أن تبذل، كأستخدام أنواع محسنة من البذار والأشتال ، وكذلك لا زال معدل استخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية أقل من المعدلات العالمية . كما أن إساليب الزراعية التقليدية لا زالت شائعة، وأساليب الرى قديمة بحاجة إلى إستعمال الأساليب الحديثة بالرشاشات والتنقيط، واستعمال القنوات الأسمنتية أو المغطاة، من أجل تخفيف نسبة الفاقد من المياه .

وتكمن المشكلة الكبرى أمام السودان فى توفير رؤوس الأموال اللازمة للإستثمار والتنمية ، وقد شجعت الحكومات المتعاقبة فى السودان رؤوس الأموال على الإستثمار، وشكلت الهيئات والمنظمات والصناديق العربية لتنمية الموارد الزراعية فى السودان، وقد نجحت بعض هذه المشاريع إلاّ أن البعض الآخر لم يحقق النجاح المطلوب ، وذلك لأسباب كثيرة منها : عدم ملائمة المناخ الاستثمارى، وتعاقب الأنظمة كالنظام الاشتراكى والإسلامى والرأسمالى، وضعف الإدارة وما إلى ذلك، ويمكن تلخيص المشكلات التى يعانى منها الإقتصاد السودانى عامة والزراعى بخاصة بما يلى :

– التسويق أو وضع أسعار مشجعة للإنتاج ، ومن هذه المشكلات تلك التى نشأت عن السياسات التسعيرية بالتبادل الخارجى Foreign exchange ورأس المال والمنتوجات الزراعية والصناعية والخدمات العامة .

– الكفاية الإنتاجية : فقد تناقص إنتاج القطاع الزراعى المروى بشكل خاص، خلال السبعينات ، وقد انعكس هذا الإنخفاض على القرارات المتصلة بالاستثمار والإنتاج التى كانت قد اتخذ فى الماضى وعلى النقص الحالى فى قوة العمل والتحويلات المالية وإيجاد مشكلات فى الإدارة. وانخفضت مساهمة القطاع الزراعى من ٤٤٪ عام ١٩٧٤ إلى ٣٥٪ عام ١٩٨٢ فى الدخل القومى . وقد أدى هذا الإنخفاض إلى إنخفاض فى معدلات النمو الإقتصادى خلال السبعينات وأوائل الثمانينات .

- إستغلال المصادر المتاحة : فقد انخفض معدل الوفورات من حوالى ٧٪ من الناتج المحلى عام ١٩٧٨ إلى صفر عام ١٩٨١/١٩٨٢، مما أدى إلى نقص فى السيولة النقدية ، مما دفع السودان إلى الديون من البنوك السودانية .

ومن المشاكل الحادة التى تواجه الاقتصاد السودانى حجم الديون الخارجية التى وصلت عام ١٩٨٤ إلى ٧,٨ بليون دولار ونسبة خدمات الديون حوالى ٧٠٪، وستبقى الديون الخارجة واحداً من الضغوط والمعوقات للإقتصاد السودانى والتنمية الزراعية. وقد بلغت خدمات الديون عام ١٩٨٣ حوالى ما يعادل ٣٠٪ من عائدات الصادرات .

كما يعانى الاقتصاد السودانى من مشاكل أخرى تنعكس بشكل مباشر على التنمية الزراعية وإنتاج الغذاء، من أهمها انخفاض مستوى الدخل وتناقص معدلات النمو وتزايد فى الديون ومشكلات حادة فى الدفع وزيادة فى التضخم، وتنعكس كلها على مستوى المعيشة ونقص فى الخدمات وتدهور فى تنمية القطاع الزراعى . بالإضافة إلى زيادة الفجوة بين الصادرات والواردات.

يتضح مما تقدم، أن السودان يملك إمكانات طبيعية هائلة من حيث التربة والمياه والظروف المناخية، تؤهل السودان فى أن يوفر المواد الغذائية ليس لسكانه وجدهم بل للسكان فى العالم العربى والأقطار المجاورة، بعد أن أصبحت المشكلة الغذائية سياسية ولم تعد اقتصادية فقط، كما أصبح الغذاء سلاحاً استراتيجياً، فى وقت يعتمد الوطن العربى على ٥٠٪ من حاجته على الخارج. كما أن الدول الغنية قد لا تستطيع الحصول على حاجتها من المواد الغذائية. ويبدو أن الجانب البشرى هو الذى يحتاج إلى مزيد من الجهود والعمل من أجل تنمية مصادر الإنتاج الغذائى ، وتطوير الزراعة.

التــوصيات:

يتضح مما تقدم أن السودان يمتلك الإمكانيات الطبيعية الهائلة للإنتاج الغذائى إلاّ أنه يعانى من مشكلات حادة تتعلق بصيانة موارده واشتغلالها ، لذلك فإنه يمكن تقديم التوصيات التالية:

١- المحافظة على الموارد المائية المتاحة وذلك بواسطة بناء السدود لخزن مياه الشتاء والفيضان وتحديث أساليب الرى ، واستخدام القنوات الأسمنتية والمغطاه لتخفيف الفاقد من المياه ، وكذلك حفر الآبار الإرتوازية لزيادة المياه الجوفيه.

٢- استصلاح أراضى جديدة واستغلالها فى الزراعة ، ويتم ذلك بالتوسع الأفقى والتوسع الرأسى، وإقامة أنظمة الصرف فى الأراضى المعرضة للملوحة ، ووضع أراضى هامشية تحت الرى.

٣- استخدام الأساليب الحديثة فى الزراعة ، واستخدام الآلات الزراعية، والأسمدة والمبيدات الحشرية .

٤- تنمية الثروة الحيوانية والمراعى الطبيعية، واستغلالها بشكل كامل.

٥- الإصلاح الزراعى : مراجعة ملكية الأراضى الزراعية، وتشجيع المشروعات الفردية، لأن معظم الأراضى الزراعية فى السودان تمتلكها الحكومة.

٦- تحويل أراضى مطرية إلى أراضى زراعية تعتمد على الرى ، وهذا يستدعى حصول السودان على كميات من المياه وربما يدعو ذلك إلى إعادة النظر فى الإتفاقية الموقعة بين مصر والسودان عام ١٩٥٩ .

٧- وضع برامج تكاملية إقليمية كأن تقدم مصر المياه وتقدم السودان الأرض ، وقد تقدم مصر الخبرة الفنية والأيدى العاملة المدربة ولو لفترة مؤقتة.

٨- تشمل هذه البرامج التكاملية الدول العربية الأخرى كالسعودية أو الكويت بحيث تساعد هذه الدول فى توفير الأموال اللازمة للمشروعات الإنتاجية الزراعية ، كما تقدم السودان الغذاء لهذه الأقطار.

٩- وضع سياسات اقتصادية تسعيرية جديدة ، تشجع الإنتاج الزراعى والتنمية المحلية ، بتشجيع المنتجين ، وضع سياسات تسويقية تضمن تشجيع الاستثمار والإنتاج وزيادة الإنتاجية وتغيرات فى الزراعة وفى كثافتها.

١٠- تشجيع الاستثمار الذى يتوقع أن يصل إلى ٢,١ بليون دولار خلال الفترة من عام ١٩٩٠ - ٢٠٠٠ ويحتاج هذا إلى مساعدات خارجية.

١١- التنمية فى قطاع الزراعة المطرية الذى لم يلق الإهتمام الذى يستحق.

١٢- تحسين طرق المواصلات من أجل تسهيل الإتصال والإنتقال والحركة ونقل الفائض من بعض المناطق التى تكون بأمس الحاجة إليه، وكذلك تحسين وسائل التخزين والاحتفاظ بالاحتياطى اللازم من المواد الغذائية.

١٣- حل مشكلة جنوب السودان: لأن الوضع الحالى يحول دون استغلال الموارد والثروات المتوافرة فى هذه المنطقة، ويمنع وصول المواد الغذائية للسكان الذين يحتاجون إليها ، كما أن الحرب الأهلية ، أيضاً ، تمنع السكان من العمل فى الأراضى الزراعية وفى الإنتاج الزراعى.

مما تقدم، يحتاج إلى سياسات حكومية تقع على عاتق الحكومة السودانية، ثم يتطلب ذلك جهوداً استثنائية من الحكومة والشعب السودانى وكذلك الدول العربية والمجتمع الدولى . ففى أراضى السودان أكثر من نصف مليون لاجىء من أقطار مجاورة ، بالإضافة إلى مشكلاته المحلية، مما يدعو إلى التعاون الإقليمى وتحمل المجتمع الدولى مسؤولياته أمام هذه المشكلة.

جامعة القاهـرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٤٨١ - ٥٢٥

دور النقــل النهـرى فى تنمية إقلـيم بحـيرة السـد العالى

دكتور / فاروق كامل عز الدين
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

مقدمــة وتـعريف

يبـرز دور الجغـرافى فى النقل ، وفى مـوضوع التنمـية الإقـتصـادية بالذات ، حيث يمثل النقل فى أى أقليم حجر الزاوية فى تنميته وتقدمه ورفاهيته .

وبحيرة السد العـالى هى أحد الأقـاليم الجغـرافيـة الحديثة النشأة [1] حـيث تمثل بحق الأثر القـوى للتفـاعل المتبـادل بين الإنسـان والبيـئة . حيث اسـتطاع الإنسـان المصـرى أن يلوى عنق البـيـئة ممثلة فى النيل ويقـيم سـده العـالى الذى يحجـز أمامـه كمية هائلة من المياه تمتد فى حوالى ٥٠٠ كم فى الطول وأكثر من عشـرة كيلو مـترات فى العـرض . الأمـر الذى أوجب أن تسـتغل هذه الكمـية من الميـاه فى هذه المسـاحة الهـائلة فى مـشروعـات إقـتصـادية عـده فى تنظيم للرى والزراعـة ، وصيد الأسمـاك وتوليد الكهـرباء والصناعـة . والسياحة والرياضـة . وبناء مستوطنات عـمرانيـة ... وقبل هذا وبعده للنقل النهرى ، الذى يكمل ويتمم عملية التنمية فى البحيرة .

وكـمـا يقـول أوكنور - O'Conner : تلعب تسـهيلات النقل دوراً هامـاً وحـيوياً لا غنى عنه فى عملية التنمية الإقتصادية [2] .

ويقــول "هيلنج - Hilling" : أن النقل لا يستطيع أن يتحقق من وجهة النظر الإقتصـادية إلا إذا كان هناك حركة تجارية ونقل معقولة ، ولا يمكن كسـر هذه الحلقة المفرغة إلا إذا كان النقل جزءاً من خطة متكاملة شـاملة للتنميـة [3] . تشمل التـنمية الزراعية والصناعيـة والسياسية والعمرانية والسكانية والتى تؤمن تزايد ونمو حركة النقل فى البحيرة .

ويذكر "هيلنج" : أن من معوقات التقدم الإقتصادى عدم وجود شبكة ملائمة للنقل " ويضيف بقوله : أن هناك بعض الساذجين الذى يعتقدون أن مجرد نشر الخدمات الخاصة بالنقل سوف تؤدى مباشرة إلى التنمية الإقتصادية ، على الرغم من أن النقل يعتبر الأساس الأولى والضرورى Essentiol pre-condition للتنمية الإقتصادية " (٤) .

ويقول "تافى Taafe " وزملاؤه : أنه يوجد فى الدول النامية عامل حاسم وهام يؤثر على التنمية إلا وهو النقل الداخلى - وخاصة النهرى - والتوسع فيه ، حيث مع بداية أنتشار وسائل النقل المتاحة تبدأ عملية غير عادية تتأثر بقوى نوعيه إقتصادية وإجتماعية وسياسية " (٥) .

ويذكر "سعودى" فى معرض حديثة عن "النقل والنشاط الإقتصادى" حيث يقول : " لسنا فى حاجة إلى ذكر أهمية النقل فى التنشيط (التنمية) الإقتصادية (خاصة بين أجزاء البحيرة) وإذا كان السؤال التقليدى يتبادر إلى الذهن هل النشاط الإقتصادى يخلق النشاط النقلى ؟ أم أن النشاط النقلى يخلق النشاط الإقتصادى ؟ . وأن كان النشاط الإقتصادى أحياناً يسبق نشاط النقل . ولكن فى معظم الإحايين يخلق النشاط النقلى نشاطاً إقتصادياً .

ويضيف بقوله : والحق لا يعتبر تأخر وسائل النقل عائقاً رئيسياً أمام التنمية الإقتصادية فحسب بل عائقاً أمام التنمية فى جميع الميادين البشرية بعامة (٦) .

ويعتبر أنتشار خدمات النقل وتحسينها فى بحيرة السد العالى الأساسى الرئيسى فى عملية التغيير أو التطوير الإقتصادى ، فعند ما كان النقل يتم قبل وجود البحيرة بمراكب وسفن وقوارب شراعية وصنادل محدودة فى مجرى النيل ... كانت التجارة محدودة نسبياً . إذ أن عملية الإنتقال من التجارة المحدودة بين ضفتى النهر أو فى مجرى النيل النوبى ، إلى الحركة فى بحيرة السد العالى تعتبر سمة عظيمة من سمات التطور والتنمية الإقتصادية التى فرضتها ظروف السد العالى ، والتى ساعد على وجودها توافر السفن والبواخر ذات الحمولة الكبيرة والغاطس المعقول .

ومما لا شك فيه أن الحصيلة الضخمة فى مجال الدراسات النيلية باتت تمثل تراثاً علمياً عظيماً لا نظير له فى مجال الأبحاث والدراسات المتعلقة بالأنهار والمجارى النهرية فى كافة أنحاء العالم (٧) .

أولاً (*النقل النهرى فى إقليم البحيرة قبل السد العالى*)

يقول "ماكدونا"

أن ماء النيل هو دم الحياه فى السودان كما هو تماماً فى مصر (٨) . ويعد النيل من أطول أنهار العالم ، إن لم يكن أطولها جميعاً ، إذ يبلغ طوله من منابعه حتى مصبة ٦٧٠٠ كم ، يخص مصر منها ١٣٥٠ كم ، وكان النهر قبل بناء السد العالى يجرى مسافة ٣٥٠ كم إبتداء من وادى حلفا حتى جنوب أسوان فى وادى ضيق تحف به الصخور الجرانيتيه والرملية على الجانبين تاركاً بعض الأرسابات الغرينية الضيقة (٩) . التى يسكنها أهل النوبة المصرية على جانبى النهر ، أو بالدقة من الشلال الأول عند أسوان إلى الشلال الثانى عند حلفا ، ولكن تكملها عبر الحدود النوبة السودانية حتى ثنيه النيل عند الدبة (١٠) .

وتعد سلسلة الأبحاث التى أجراها "ساندفورد وآركل" Sandford and Arkell فى بلاد النوبة ، وأيضاً دراسة "كنتشى ويللوز Kentsch and Yallouze عن منطقة السد العالى ، تعد أحدث ما لدينا من معلومات عن تاريخ نهر النيل فى بلاد النوبة ، هذا على الرغم من أن الدراسات مختصرة وعامه ، ولعل أهم ما نخرج به من هذه الدراسات أنها أبرزت حداثة نهر النيل فى بلاد النوبة (أى إلى الزمن الرابع) ويمكن أرجاع حداثة النهر فى بلاد النوبة . إلى ظاهرة ضيق مجراه (١١) .

والنيل النوبى فى القطاع الطويل الممتد فيما بين الخرطوم وأسوان تكتنفة الجنادل التى تفرض التحدى الطبيعى الأعظم فى مواجهة الملاحة النهرية وانتظامها (١٢) .

والخدمة النهرية من حلفا إلى شلال أسوان تعتبر أقدم خدمات النقل على النيل الرئيسى (١٣) وما من شك فى أنها لعبت دوراً هائلاً فى بعض السنوات لنقل التجارة بين مصر والسودان ، بل أنها كانت الوسيلة الوحيدة التى تمكن

السودان من أن يقوم بقسط من دوره كعمق إستراتيچى لمصر والوطن العربى وكهمزة وصل بين مصر والسودان وسائر أفريقيا .

ولقد تأثرت خدمة النقل النهرى فى النيل النوبى بالشكل الشريطى المتقطع للوادى وبشكل قرى النوبة المفرطة الإستطالة والتبعثر ، وكانت شديدة الإرتباط بالنهر الذى كان الشارع الحقيقى الوحيد الذى يصلها ببعضها البعض عن طريق المراكب الشراعية ، وقد تقلصت أرض وقرى بلاد النوبة بمشاريع تخزين المياه ، ولذا حدثت العملية على عدة مراحل بدأت مع بناء خزان أسوان سنة ١٩٠٢ ثم أطردت مع تعليته مرتين الأولى سنة ١٩١٢ والثانية سنة ١٩٣٣ (١٤) فكان العمران فى كل مرحلة يتقلص نحو الجنوب وفى الوقت نفسة يصعد على جانبى النهر إلى أعلى زاحفاً على السفوح والمنحدرات ليصبح معلقاً أكثر من ذى قبل (١٥) . كما تأثر النقل النهرى بزيادة المناسيب فى حوض التخزين الهائل أمام خزان أسوان حيث سمح بالملاحة طول العام من أسوان إلى حلفا بإستثناء شهرى يونيه ويوليو أثناء تفريغ حوض التخزين أمام الخزان ، وكانت الحركة الملاحية تنتهى عند "فرس" شمال حلفا ، وقد تقدمت رأس السكة الحديد بالفعل من حلفا إلى فرس فى الحرب العالمية الثانية لمواجهة هذا القول لضمان إستمرار الخدمة النهرية (١٦) .

وكان للنوبيين زوارق ينقلون بواسطتها بين الشلال الصغير والشلال الكبير الأشياء التى يأتون بها من مصر لإستهلاكهم . وتتمثل هذه التجارة المحدودة بصفة أساسية فى الأقمشة التى يشترونها من أسنا والتى يقايضون بها البلح المجفف (التمر) ، ويستخدمون فى ملاحتهم الشراع ، ويضطر الناس لوقت طويل إلى جر قواربهم بالحبال ، لذلك تكون الملاحة هناك بطيئة بالضرورة ، وتوجد بأرض النوبة ٨٣ نجعاً وقرية يقع ٤٤ منها على الشاطئ الشرقى ، وتقع ٣٩ على الشاطئ الغربى ، وكانت "أبريم" بمثابة عاصمة لبلاد النوبة (١٧) .

وبعد التعلية الأولى والثانية لخزان أسوان غرقت تحت المياه "٤٠" قرية ، وتبقى "٤٣" قرية حتى بناء السد العالى ، وقد بلغ عدد السكان نحو ٦٥ ألفاً ، تم تهجيرهم جميعاً إلى النوبة الجديده (فى كوم أمبو) بالإضافة إلى ألفى نسمة من

المصريين كانوا يعيشون فى حلفا ، وكان يقوم على خدمة النقل والملاحة والتجارة لهؤلاء السكان عدد من المراكب الشراعية تقدر بـ ٣٥٠ مركباً شراعياً بمتوسط مركب واحد لكل حوالى ١٢٣ نسمة ، وكانت هذه المراكب تسمى "مراكب البقالة" وقد اتخذت إسمها هذا من الوظيفة التى كانت تؤديها للسكان ، وكان متوسط حمولة المركب الواحدة ما بين ١٥ ، ٢٠ راكباً ومثلهم فى الوزن بضائع ، وكان البيع على ظهر هذه المراكب ، أو بين هذه المراكب والسكان يتم عن طريق المقايضة ، وأهم مبيعات "المراكب البقالة" الشاى والسكر والأقمشة فى مقابل بيض الدجاج والتمور وكانت "عنيبه" بمثابة العاصمة للبلاد ، أما المركز التجارى فكان فى "بلانه" حيث كانت توجد بها الجمارك بين مصر والسودان [١٨] .

وكان يجرى فى نيل النوبة السد العالى عدا المراكب الشرعية السابق ذكرها ، حوالى ١٢ باخرة آلية خاصة (ملك للأفراد) حمولة الواحدة حوالى ٣٥٠ طناً حيث تتعهد بنقل التموين الحكومى الشهرى (السكر والشاى والكيروسين) لكل قرى النوبة .

وكانت حكومة السودان تمتلك باخرة واحدة ، وصندلين من النوع البطئ لنقل الركاب والبضائع بين مصر والسودان ، وبينهما وبين بلاد النوبة بشكل منتظم ، ويضاف إلى هذا العدد حوالى ١٢ باخرة من النوع السريع (إكسبريس) لنقل الركاب والبضائع والبريد بين مصر والسودان بمعدل ثلاث رحلات فى الأسبوع ، منهم رحلة لقرى النوبة .

أهم الموانى فى النيل النوبى :

أولاً : ميناء حلفا السودانى : وكان ميناء التصدير الرئيسى لمعظم حاصلات السودان حتى سنة ١٩٠٦ (تاريخ تشغيل ميناء بور سودان على البحر الأحمر) والتى أهمها (اللب الأبيض والأسمر والكركدية والعرديب وقرون وحوافر الحيوانات والصمغ والسمسم والذرة والفاصوليا البيضاء والفول السودانى والأعشاب الطبية والحيوانات الحية حوالى ٤٥ ألف رأس أبقار فى السنة والأغنام حوالى ٣٠ ألف رأس . بالإضافة إلى الجلود) .

ثانياً: ميناء الشلال المصرى : وكان ميناء مصر الرئيسى على نيل النوبة جنوب أسوان بحوالى ٧ كم وكان يوجد به رصيف واحد بطول كيلو متر واحد ، وكان منسوب الماء يسمح بالوقوف بجوار المحطة (الرصيف) على الشاطئ (عمق ١,٥ م) .

أما فى (يونيه ويوليو) مع بداية الفيضان فينتقل الرصيف والمرسى من الشلال جنوباً إلى مسافة ٣ كم ، وفى هذه الحالة كانت تتوقف بواخر السودان عن السير فى المجرى ، وتستخدم بواخر القطاع الخاص ذات الغاطس الصغير الذى يقل عن ١,٥ م وتنشط المراكب الشراعية ، وكان يتم فى هذا الميناء أهم صادرات مصر إلى السودان مثل «السكر (حوالى ٣٠٠ طن شهرياً)» والملابس والأدوات الكتابية والأسمنت الأبيض والزجاج المعمارى والأدوات الصحية والأدوات المنزلية .

وكانت التجارة بين السودان ومصر تتم فى النيل النوبى ، حيث تنقل حمولة البواخر فى الشلال إلى السكة الحديد حتى القاهرة. أما بواخر البضائع فتستمر فى سيرها فى النيل إلى القاهرة مباشرة ثم إلى الأسكندرية ، وكذلك القادمة من القاهرة . أما بواخر البضائع فتستمر فى سيرها فى النيل إلى القاهرة مباشرة ثم إلى الأسكندرية ، وكذلك القادمة من القاهرة تواصل سيرها إلى حلفا ، غير أنها تتوقف فى الشلال إجبارياً للتفتيش الجمركى .

ثالثاً: هناك عدد من المراسى بين الشلال وحلفا : أهمها من جهة الشمال "دكا" ثم "قورته" "فالعلاقى" "فوادى العرب" "فالمالكى" "فالدر" "فالديوان" "فعنبه" فتوشكى" "أبو سمبل" "فبلانه" "فادندان" ، ثم من أدندان آخر نقطة على الحدود المصرية السودانية إلى مرسى "فرس" السودانى للأمن والتفتيش وكانت تؤدى وظيفة الميناء ومنها إلى حلفا .

وظل حال النقل فى النيل النوبى كذلك حتى تغير المجرى الملاحى فى سنة ١٩٦٤ كنتيجة لبناء السد العالى جنوب أسوان .

صفوة القول أن حركة الملاحة والنقل النهرى فى نيل النوبة من حلفا إلى الشلال ، كانت تقوم بخدمات نقل الركاب والبضائع والبريد بين مصر والسودان والعكس ، وكذلك كانت تؤدى وظيفة النقل والتجارة الداخلية لسكان النوبة .

ويلاحظ أن النقل والملاحة والتجارة كانت تتذبذب من شهر إلى آخر ومن سنة إلى الأخرى ، فكانت محدودة للغاية خاصة فى شهرى يونيه من كل عام مع بداية كل فيضان حيث يفتح خزان أسوان كل أبوابة لتصفية المخزون فى المجرى .

وقد كان النقل النهرى فى ميناء حلفا هو النافذة التى يطل منها السودان على العالم الخارجى وكانت تكتنف الملاحة فى هذا المجرى عقبات عده أهمها :

١ - التغير الموسمى الواضح فى حجم المياه فى المجرى النهرى ، زيادتها فى الصيف ونقصها فى الشتاء .

٢ - وجود بعض الحواجز والصخور والجنادل والعديد من المندفعات المائية فى المجرى النهرى .

٣ - بالإضافة إلى ضيق الوادى فى المنطقة وقلة السكان والعمران .

ثانياً : السد العالى والبحيرة

من المعروف أن خزان أسوان بات لا يوفر إلا جزءاً ضئيلاً من حاجات مصر المائية ، وجزءاً أشد ضآلة من إيراد النيل نفسة حوالى خمسة مليارات فقط (١٩) من مجموع إيراد نهر النيل الطبيعى عند أسوان ٨٤ مليار متر مكعب (٢٠) . كما أنه لا يضمن موارد المياه أطلاقاً فى الفياضانات الضعيفة ، كما حدث فى سنة ١٩١٣ كان مجموع تصريف النيل ٤٥,٥ مليار متر مكعب (٢١) ، ولا يعد هو بعد واقيا ضد خطر الفيضانات العالية ، كما فى سنة ١٩٤٦ ١٠٤ مليارات ، وكان هذا الفيضان تهديداً خطيراً لمصر ونشرت على أساسه بحوث كثيرة ودعا إلى إقتراح مشروعات التخزين القرنى Century Storage System (٢٢) . وقد أرتفع الفيضان إلى ذروة خطيرة سنة ١٩٦٤ - ١١٧ ملياراً (٢٣) وكان لهذا التذبذب الواضح لمائية النهر أثره على الأنشطة الإقتصادية المختلفة وخاصة الملاحة النهرية . إلى أن أهتدى مهندس زراعى مصرى من أصل يونانى (هو أوريان

دانينوس) إلى فكرة إقامة سد عالى فى جنوب أسوان سنة ١٩٤٦ . ولم يجد هذا الإقتراح إستجابة فى بادئ الأمر من الحكومة المصرية ، وحتى صدر قرار "مجلس قيادة الثورة" فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٥٢ : بالبدء فى دراسة المشروع وساهمت فى هذا خبرات مصرية وعالمية ، ودلت البحوث والدراسات على إمكان بناء السد العالى على بعد ٦,٥ كم إلى الجنوب من خزان أسوان .

وقد أعدت دراسات وأبحاث عديده فى هذا المجال ، وكان أبرزها ما قام به كل من "هيرست وبلاك وسمكية "طوال سنوات عديده ، وتمخضت هذه الأبحاث عن أختبار فاختيار المنطقة التى تقع إلى الجنوب من خزان أسوان ، كخزان يضمن تنفيذ سياسة التخزين القرنى التى تضمن الوفاء بكمية معتدلة من المياه للبلاد [٢٤] لتنظيم أمور الرى والزراعة والملاحة .... إلخ . وعلى ذلك تم إنشاء الهند العالى ، وهو سد سركامى كبير يقفل مجرى النيل تماماً ، ويبلغ حجمة مثل حجم الهرم الأكبر ١٦ مرة ، أما عرضه أو سمكه فيصل عند القاع إلى نحو الكيلو متر وعند القمة ٤٠ م هى عرض الطريق العلوى ، أما طوله بجناحيه الصحراوين فيمتد نحو ٣,٥ كم منها نصف كيلو متر بين الضفتين نفسها ، وأكثر من كيلو مترين للجناح الأيمن وأقل من الكيلو متر للأيسر ، وتقع قمته على منسوب ١٩٦ م ، غير أن الحجز لا يكون بالطبع بكامل أو أقصى إرتفاع للسد، وأنما دونه بقليل إلى منسوب ١٨٢ م فوق سطح البحر كحد أعلى[٢٥] .

وتقع قناة التحويل على الضفة الشرقية من النيل ، كما يوجد فى الضفة الغربية مفيض لصرف المياه الزائدة عن السعة القصوى لحوض التخزين يسمى مفيض توشكى [٢٦] وهو بهذا يأتى كملحق أو متمم للسد العالى وكمصحح لأخطائه .

أبعاد وملامح بحيرة السد العالى :

أدى إنشاء السد العالى إلى خلق بحيرة ضخمة تحتوى على مسطح مائى هائل تشغل مساحة ٦٢١٦ كم٢ ، وهذا الحجم لا مثيل لها فى العالم ، أى تعادل

حجم بحيرة خزان أسوان ٣٠مرة ، فهى ثانى أو ثالث بحيرة من نوعها على النيل ولكنها أول بحيرة صناعية فى العالم مساحة وإتساعاً [٢٨] .

وأقصى منسوب للتخزين فى بحيرة يحقق ١٥٧ مليارا متر مكعب . وكان يطلق على الجزء الأول من البحيرة داخل الأراضى المصرية إسم "بحيرة ناصر" وعلى الجـزء الأخـيـر الواقع داخل الأراضى السـودانيـة إسم بحـيـرة النوبة : إلا إن إصطلاح "بحيرة السد العالى" أصبح هو الأسم الدارج والذى أستخدام للدلالة على كلا الجزأين معاً [٢٩] .

وتقع البحيرة فيما بين خطى طول ٤٠ ٣٠ً إلى ٣٠َ ٣٣ً شرقاً ، وفيما بين خطى عـرض - ٢١ و ٥٨ ٢٣ شـمالاً (الخـريطة) وتغطى البـحـيـرة - كـمـا سـبق القول - مسطحاً قدره ٦٢١٦ كم٢ أى أكثر قليلاً من مساحة الضفة الغربية لنهر الأردن ، وأقل قليـلاً من مساحة جـزيرة قبـرص ، ويصل طول خط الشاطئ إلى ٩٢٥٠ كم ويصل متوسط عرضها إلى ١٢,٥ كم [٣٠] ، ومتوسط العمق فيها إلى ٢٥,٥ م [٣١] . ويبلغ طول البحيرة من الشمال إلى الجنوب ٥٠٠ كم منها ٣٥٠ كم فى القسم الجنوبى من الأراضى المصرية ، و ١٥٠ كم فى أراضى السودان [٣٢] وقـد تداخلت الميـاه فى مصبـات الأودية التى كـانت تتـصل بالوادى مما أعطى البحيرة شكلاً فريداً فى شكل الأذرع والأخوار الناتجة عن دخول المياه لمصبات الأودية ، وكذلك تعرج.خط الشاطئ وغرق كثير من التلال على كلا الجانبين فى شكل جزر ، وبشكل عام يمكن وصف المنطقة التى تحيط بالبحيرة بأن الجانب الشرقى يعتبر أكثر أرتفاعاً من المنطقة على الجانب الغربى ، ويرجع ذلك إلى تأثير وجود جبال البحر الأحمر ككتلة صلبة على هذا الجانب [٣٣] .

ولقد أحدثت بحيرة السد العالى تغيراً جغرافياً بكل المقاييس على الأقليم . وأهم مظاهر التغيير - ما يعنينا - كانت فى الظروف البشرية والإقتصادية وأمكانات التنمية فى البحيرة . وكان لزاماً على الباحث بالإضافة إلى ما حصل عليه العديد من الدراسات والبحوث والتقارير المتنوعة من الجهات المختصة والمختلفة عن البحيرة أن تقوم بزيارة ميدانية متخصصة تستكمل العديد من الزيارات والاستطلاعات التى قمنا بها لزيارة الأقليم قبل وبعد بناء السد العالى

لعده مرات . وقد استمرت هذه الزيارة الأخيرة لمدة أسبوع خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٨٦ طفت بجوانب وأركان البحيرة ، وركبت بعض مراكب الصيد ، وبواخر نقل الركاب والبضائع ، واستطلعت أراء المهتمين والمسئولين عن الأنشطة المختلفة والعاملين فى البحيرة .

ثالثاً النقل فى بحيرة السد العالى

قبل الحديث عن أوضاع النقل فى البحيرة ، سنعرض باختصار لأهم العوامل الطبيعية والبشرية التى تؤثر فى النقل والملاحة فى البحيرة .

فالنقل فى بحيرة السد العالى شأنه شأن النقل فى أى مكان آخر يتأثر بالعوامل الجغرافية التى أهمها :

أولاً : العوامل الجغرافية الطبيعية :

١ – أن التكوينات الجيولوجية السطحية التى تشكل قاع وجوانب البحيرة ، تؤلف التكوينات النارية والمتحولة أغلب الجزء الواقع داخل الأراضى السودانية ، فهى تكون قاع وجوانب البحيرة من شلال دال فى الجنوب حتى حلفا فى الشمال . كما تظهر هذه التكوينات فى أماكن متفرقة فى الجزء الواقع داخل الأراضى المصرية خاصة بين السد العالى وكلابشة . ويتكون معظم الجزء الواقع داخل الأراضى المصرية معه قاع البحيرة وجوانبها من تكوينات الحجر الرملى والنوبى الذى يختلف سمك طبقاته من مكان لآخر ، كما يؤلف الجزء الشمالى من المنطقة الواقعة داخل الأراضى السودانية .

وليس لهذه التكوينات أثر على النقل فى البحيرة اللهم قبل السد العالى حيث كانت تشكل عقبة خاصة فى مناطق الشلالات والجنادل والمندفعات .

غير أنه وبعد إنشاء السد العالى ظهرت عملية الإرساب فى البحيرة وأصبحت تتركز فى الجزء الجنوبى فيما بين شلال دال وحلفا ، ويقدر معدل الارساب فى البحيرة بـ ٢٦٢ مليون طن سنوياً ، وهذا الرقم يفوق كل الدراسات والتقديرات السابقة لإنشاء السد العالى (٣٤) . ويمكن القول أن هناك دلتا مغمورة بدأت تكتمل معالمها فى الجزء الجنوبى من البحيرة ، وقد

عجل فى ظهور هذه الدلتا أو الجزيرة إنخفاض منسوب البحيرة فى نوفمبر سنة ١٩٨٦ إلى ١٦٢م فقط . لأن فيضان هذا العام والفيضانات السابقة جاءت أقل من معدلها، بمتوسط عجز سنوى يقدر بحوالى ٦ مليارات متر مكعب .

ومع إكتمال ظهور هذه الجزيرة وإنخفاض منسوب الماء فى البحيرة الأمر الذى سيفرض علينا - سواء فى مصر أو السودان - إستغلال هذه المناطق فى الزراعة والإستغلال الإقتصادى وتهجير سكان إليها وربطها بوسائل النقل النهرية بحلفا وأسوان وأبو سمبل .

٢ - أما بالنسبة للظروف المناخية لأقليم البحيرة بصفة عامه فتتجلى خصائص المناخ الصحراوى القارى المتطرف ، والمدى الحرارى كبير بين الصيف والشتاء، وبين النهار والليل والمطر نادر جداً ، إذ كثير ماتمر سنوات دون أن يسقط المطر ، وإذا سقط فيكون من النوع الإعصارى الذى يهطل بغزارة وبكميات كبيرة تملأ الوديان الصحراوية الجافة القريبة من البحيرة ، وقد تفيض فيها ، وتسود الرياح الشمالية الجافة بإنتظام طول العام ، والبيانات المعتمدة عليها من هيئة الأرصاد الجوية ومن محطتى أسوان وأبو سمبل فى مصر وحلفا فى السودان تبين لنا أن درجات الحرارة فى الأقاليم شديدة معظم شهور السنة ، ويعتبر يناير أبرد الشهور . حيث بلغ متوسط درجة حرارته فى حلفا ٧,٧ مْ وفى أسوان ١٦,٨ مْ وأبو سمبل ١٥,٢ مْ . ويعتبر يوليو أحر الشهور . حيث بلغ متوسط درجة حرارته فى حلفا ٤١°م وفى أسوان ٤٨,٤°م وأبو سمبل ٤٧,٥°م .

ومن الجدير بالذكر أن أثر البحيرة على درجات الحرارة أتضح بعد أكتمالها فى سنة ١٩٧٢ حيث أنخفضت متوسطات درجة الحرارة فى الصيف والخريف بمعدل درجتين وأرتفعت متوسطات درجة الحرارة فى الشتاء والربيع كذلك ، وجاء أثر البحيرة على الرطوبة فى أسوان بأزدياد معدلاتها فى فصلى الشتاء والربيع بمتوسط ٥ درجات وفى فصلى الصيف والخريف بمعدل درجتين فقط ، أما فى أبو سمبل فقد أزدادت فى فصلى الشتاء والربيع بمتوسط ١٥ درجة وفى

فصلى الصيف والخريف بمعدل ٦ درجات فى حلفا الجديده مثلها فى أسوان تقريباً .

وعموماً لا أثر لمعظم عناصر المناخ على النقل فى البحيرة أو حتى على الأنشطة الأخرى ، إلا إذا صحب أرتفاع الحرارة فى معدلات الرطوبة حيث تؤثر بالسلب على النقل والحركة والأنشطة الأخرى . ويتضح أثر الرياح (معظمها شمالية على البحيرة) فى مساعدة قوارب الصيد فى الحركة تجاه الجنوب والإستفادة بالتيار من الجنوب إلى الشمال (الخريطة) تتأثر حركة الملاحة فى البحيرة بالتوقف تماماً أثناء الهبات الشديدة لرياح الخماسين والتى ترفع من درجة الحرارة وتزيد من سرعة الرياح وإثارة الأتربة ، وهى لا تكرر إلا مرة أو مرتين فى العام .

ثانياً : العوامل الجغرافية البشرية :

إن النقل (وخاصة النهرى) وأن تأثر بالظروف الطبيعية فأنه ظاهرة بشرية أولاً وأخيراً [٣٦] .

١ - كان أثر خزان أسوان ثم السد العالى واضحاً فى نقص عدد السكان فى النوبة وزيادة الهجرة والنقل خاصة النهرى - لأنه أرخص الوسائل لأفقر الناس - فقد كان عددهم فى السنة ١٩٠٧ ٥٧,٦٠٠ نسمه أنخفض فى سنة ١٩٢٧ إلى ٥٤,٥٠٠ نسمه ثم إلى ٤٠,٦٠٠ نسمة فى السنه ١٩٤٧ . حتى تم ترحيلهم جميعاً بشكل إجبارى فى سنة ١٩٦٤ . غير أنه وبعد إكتمال شكل البحيرة فى سنة ١٩٧٢ بدأت هجرات مرتده من النوبيين وغيرهم للعمل والإقامة فى البحيرة وأصبح مجتمعهم الجديد أقرب إلى المجتمع البحيرى منه إلى المجتمع النهرى ، وتحولوا من مجتمع زراعة فقط إلى زراعة وصيد أسماك ورعى وملاحه .

٢ - أما بالنسبة للملامح الإقتصادية والتى أهمها المياه الجوفية والثروات المعدنية والثروة السمكية والرعى والزراعة ونشأة مناطق الأستقرار والسياحة والتجارة ، فمما لا شك فيه أن هذه الحرف والأنشطة تأثرت بالسد العالى

ولن تكون هنـاك تنمـيــة لهــا إلا بشــبكة وأسطول نقل نهــرى حــديث مــلائم ومناسـب لكل حـرفـه ونشـاط على حـده . وسنعـود لهـذه الأنشطة بـالتفـصـيل فيما بعد .

شبكة وأوضاع النقل فى البحيرة :

مع بداية تكوين بحيرة السد العـالى وفى سنة ١٩٦٤ سـحبت حكومة السـودان بواخرهـا - والتى كانت تعمل بين أسوان وحلفـا - إلى الخـرطوم للعمل بين ملكال والخـرطوم فى النيل الأبيض ، حيث تم ترحيل أهـالى وادى حلفـا حـوالى ١٢ ألف نسـمة إلى خشـم القـرية فى السـودان وأصبـحت وادى حلفـا القـديمة خاليـة من السكان تماماً بعد أن تم ترحيل السكان جبرا وأنقطعت حركة الملاحة النهرية بين أسوان وحلفا فى هذه الفترة .

إلا أن المشــروعـات التى ظهـرت فى بلاد النـوبة وأهمـهـا مـشـروع رفـع الاثار الفرعونية خوفاً عليها من الغـرق. نشطت لهذا عمليات النقل النهرى مـرة أخرى بوحدات هيئة الإثار حيث بلغت ٢٥ وحدة بواخر آليه وعوامات .

وفى سنة ١٩٧٠ عـاد بعض السـودانيين إلى مـينـاء "حلفـا الجـديد" الذى يبـعـد عن الميناء القديم بحوالى ١٤ كم جنوباً وحوالى ٢ كم شرقاً ، وعمل هؤلاء السكان فى الزراعـة على حـافـة البحيـرة والنقل والتجـارة بين حلفـا وأبو سـمبل للشـركات العاملة هناك .

ميناء حلفا : وقد شهدت الفترة من سنة ١٩٦٥ إلى سنة ١٩٧٢ هجرات مرتده من السـودانيين مـن خـشـم القـرية إلى حلفـا القـديمة فـالجـديده مع رجـال الاثار والقـيـام بنقلهم فى البـحيـرة والتجـارة معـهم ، فـقـد بلغ عـددهـم فى سنة ١٩٦٨ حـوالى ٥٠٠ نسـمـة إزدادوا فى سنة ١٩٧٢ إلى ثلاثة آلاف نسـمـة وفى سنة ١٩٨٦ قـدر عـددهـم بحـوالى تسـعـة آلاف نسـمـة يسكنـون "حلفـا الجـديده" وأهم أعـمـالهـم التجـارة وخـدمـات الميناء كالحـمل بين البـواخـر والسـكة الحـديد والتجـارة بجـوار الزراعة والرعى .

الميناء الشرقى : وفى سنة ١٩٧٠ انشأت مصر ميناء نهرى شرق السد العالى يتمشى مع تذبذب المناسيب (٣٧) ويطلق عليه إسم ميناء السد العالى شرق وتم تركيب (أوناش) وروافع لخدمة النقل والبضائع من البواخر فى البحيرة إلى عربات السكة الحديد التى وصلت من أسوان إلى محطة السد العالى بطول حوالى ٢٢ كم (٣٨) لكى تتكامل عملية النقل النهرى فى البحيرة مع النقل بالسكة الحديد .

الميناء الغربى : وفى سنة ١٩٧٠ أيضاً تم تشييد الميناء الغربى بنفس مواصفات الميناء الشرقى إلا أن هذا الميناء يقع على الجانب الغربى للسد العالى ويتخصص فى صيد الأسماك ونقل العاملين فى الاثار وبحيرة السد العالى نفسها . والورش العائمة داخل الميناء . أما الحركة التجارية هنا فهى مقصورة على الخط بين أسوان وأبو سمبل فقط . دون المرور على الجمارك الموجودة فى الميناء الشرقى .

غير أن الميناء الشرقى أخذ ينهض وتتطور حركة النقل والملاحة فيه خاصة بعد رجوع أهالى حلفا إلى ميناء حلفا السابق ذكره .

ففى الوقت الذى سحب السودان بواخره سنة ١٩٦٤ من أسوان وحلفا - تركت الشركة المصرية (شركة النيل العامة للنقل النهرى) أربع بواخر (٣٩) وثلاثة جرارات (٤٠) وثلاثة صنادل (٤١) لنقل وتهجير أهالى بلاد النوبة إلى النوبة الجديدة فى نجع حمادى كما كانت تقوم هذه الوحدات المصرية بالملاحة من أسوان وأبو سمبل لتنقل البضائع والأسمنت والحديد والمواد الغذائية للعاملين فى إنقاذ الإثار ، وفى سنة ١٩٧٠ بدأت هذه الوحدات تزحف من أسوان وأبو سمبل إلى حلفا الجديدة تنقل ركاباً ومواد تموينية وتعود من حلفا بالركاب أيضاً واللب الأبيض والأسمر وبعض الأعشاب الطبية والجلود ، ونشطت وتطورت هذه التجارة سنة بعد أخرى .

وقد شهدت الفترة من سنة ١٩٧٠ إلى سنة ١٩٨٠ تطوراً واضحاً فى حركة النقل والتجارة فى البحيرة وفى الموانى الأربعة الشرقى والغربى على السد العالى وميناء أبو سمبل وميناء حلفا .

أما صيد الأسماك فى البحيرة فقد تأسست جمعية للصيادين فى سنة ١٩٦٨ لترعى مصالحهم وشئونهم، وكانت تملك ستة مراكب روسية للصيد[٤٢] وكـانت تعمل هذه المراكب بالمناوبة، وكان مجموع الصيد اليومى حوالى ١٨ طن سمك[٤٣]

وفى سنة ١٩٧٠ تم تصنيع ٢٠ مركباً للصيد مزودة بثلاجات حمولة الواحدة ١,٥ طن وفى سنة ١٩٧١ تم تصنيع باخرتين أكبر فى الحجم [٤٤] مـــزودين بثلاجات حمولة الواحدة ٢٠ طناً وكانت تقوم هذه البواخر الكبيرة بتجميع صيد المراكب الصغيرة .

وفى سنة ١٩٧٥ بلغ مجموع الوحدات الآلية التى تعمل فى الصيد فى البحيرة ٧٥ وحدة وهو التاريخ الذى أنشئ فيه مصنع السمك فى الميناء الغربى .

وقد برز دور النقل والملاحة والتجارة فى البحيرة فى الربط بين مينائى أسوان وحلفا ، فقد دخلت الحكومة السودانية فى سنة ١٩٧٢ ومدت خط السكة الحديد إلى حلفا الجديدة وزحف الأهالى إلى هذا الميناء وبرز دوره فى الملاحة والتجارة وبدأت عملية نقل الركاب والبضائع من حلفا إلى أسوان بانتظام فطورت شركة النيل العامة للنقل النهرى وحداتها لتواكب زيادة الحركة على الخط الملاحى فقامت باستعارة بعض الوحدات من هيئة السد العالى لتنضم إلى أسطولها العامل فى البحيرة ، وما لبث عدد الركاب وحجم البضائع أن ازداد فأضطرت الشركة إلى نقل وحدات من أسطول ناصر النهرى للحديد والصلب الرومانى الصنع من مجرى النيل خلف السد إلى البحيرة كما تم نقل عدد من البواخر [٤٥] والصنادل.

وفى سنة ١٩٧٧ بلغت عدد الوحدات التى تعمل فى النقل والملاحة والتجارة فى البحيرة ١٦ وحدة مملوكة لشركة النيل العامة (المصرية) للنقل النهرى هذا بالإضافة إلى المراكب المتخصصة فى الصيد .

هيئة وادى النيل والنقل فى البحيرة وتحليل الشبكة :

بدأت "هيئة وادى النيل للملاحة النهرية" [٤٦] كجهة وحيدة ومحتكرة لنقل الركاب والبضائع فى البحيرة إبتدأ من أول يناير سنة ١٩٧٨ ، ويمر هذا الطريق

عبر بحيرة السد العالى ، ويبلغ طوله من أمام السد العالى حتى مدينة حلفا الجديدة ٣٥٠ كم منها ٥٠ كم داخل الحدود السودانية وقد تم تحديد هذا الطريق الملاحى باستخدام أبراج ثابته وعائمة مزودة بعلامات إرشاد نهارية ومصابيح إضاءة للإرشاد ليلاً (٤٧) .

وتعمل بهيئة وادى النيل للملاحة النهرية فى بحيرة السد العالى بعض الوحدات التى كانت تعمل فى بحيرة وقت تأسيس هذه الهيئة والتى كانت مملوكة لشركة النيل العامة للنقل النهرى ، والتى اتضح فيما بعد-عدم ملاءمتها وتشغيلها بأمان فى البحيرة بعد اتساعها وأرتفاع منسوب الحجز أمام السد العالى، وهو الأمر الذى حدى بالهيئة إلى تشييد وحدتين مناسبتين لنقل الركاب(٤٨) .

ويقدر متوسط حمولتها من الركاب طول العام بحوالى ٢٠٠ ألف راكب . وكان يتحكم فى عدم زيادة عدد الرحلات أسبوعياً لكل من هاتين السفينتين عاملان أساسيان ، أحدهما يتعلق بالمجرى الملاحى وعدم اتمام تحديده تحديداً ضوئياً ورادارياً ، وثانيهما خاص بمواعيد قيام القطارات من ميناء حلفا .

وتستخدم الهيئة عند الضرورة فى شهور الصيف السفينة "٦ أكتوبر" ولكن بعد ربطها بصندل من كل جانب لحفظ توازنها ، وحمولة هذه السفينه ١٧٠ راكباً، منها ١١٥ درجة أولى و ٥٥ درجة ثانية كما أن حمولة كل من الصندلين الجانبيين (صندل ٣٠٧ وصندل ٣٢٦) حوالى ٢٠٠ راكباً ، ويمكن لهذه المجموعة القيام برحلة أسبوعياً ذهاباً وأياباً عند الحاجة .

كذلك تستخدم الهيئة عند الضرورة أيضاً الوحدة النهرية "٨" وسعتها ٢٠٠ راكباً ويمكنها القيام برحلة واحدة أسبوعياً ذهاباً وأياباً .

هذا وتقوم بعض وحدات الهيئة بنقل الركاب على الخط أسوان / كلابشة / أبو سمبل . ومعظم الركاب على هذا الخط لأغراض السياحة ، وتستغل الهيئة فى هذا الغرض بعض وحداتها القديمة التى خرجت من خدمة الخط الملاحى أسوان / حلفا / بعد تشغيل السفينتين الجديدتين (ساق النعامة وسيناء)

بالإضافة إلى وحدات الهيدروفيل الذى يعمل كوحدة نهرية عادية [٤٩] ، وأحـد اللنشات الذى لا تتعدى حمولته ٢٤ راكباً [٥٠] . ولا شك أنه بعـد اتمام الخط البرى أسوان / أبو سمبل أثر تأثيراً طفيفاً على تشغيل هذا الخط النهرى ، وكذلك بعد احتراق الباخرة "١٠ رمضان" وظهر هذا واضحاً فى نقص عدد الركاب فى سنتى ١٩٨٣ و ١٩٨٤ كما كانت تقوم على خدمة حركة السياحة بين أسوان وأبو سمبل باخرتى (الأقصر وكورسكوم) [٥١] .

تحليل *الشبكة* : صفوة القول أن أوضاع النقل فى البحيرة شهدت تذبذباً واضحاً فى عدد الوحدات الناقلة كما يوضحه الجدول رقم (١) هذا بينما إزداد عدد الركاب المنقولين بشكل ملحوظ من سنة ٧٨ وحتى سنة ١٩٨٦ غير أن هذه الزيادة وهذا التطور شهد نقصاً محدوداً فى سنتى ١٩٨٣ و ١٩٨٤ نتيجة إحتراق أحد الوحدات الكبيرة وإحلال ناقلات صغيره مؤقته حتى دخلت الخدمة الناقلتين الكبيرتين (ساق النعامة وسيناء) فى أواخر سنة ١٩٨٤ ، وتبع تطور أعداد الركاب المنقولة فى البحيرة على المستوى الداخلى أسوان / أبو سمبل والعكس أو المستوى الدولى / أسوان / حلفا والعكس تطور مماثل فى حجم المنقول (الضائع) ، وقد إزدادت حركة الركاب ونقل البضائع بشكل واضح بعد قرار تشكيل مجلس أعلى للتكامل بين مصر والسودان سنة ١٩٨٢، وفيما يخص النقل فى هذه المعاهده هو : وضع وتطبيق سياسة مشتركة فى مجال النقل والمواصلات ، وكذلك حرية إنتقال الأشخاص ، وحرية تبادل السلع والمنتجات الوطنية ، مما أعطى دفعة قوية للحركة وتنقلات الأفراد والبضائع فى بحيرة السد العالى .

١ - ومن الجدير بالذكر أن أكثر من ٩٠ ٪ من الركاب فى بحيرة السد العالى من أسوان إلى حلفا والعكس من السودانيين ، حيث تشكيل نسبة السودانيين القادمين والمغادرين للعلاج فى مصر حوالى ٥٠ ٪ والطلبة بنسبة ٢٥ ٪ والتجار والموظفين بنسبة ٢٠ ٪ والمدرسين وطوائف أخرى الـ ٥ ٪ الباقية [٥٢] غير أن نسبة الطلبة تزيد فى شهور الصيف .

٢ - أما طبيعة الركاب المنقولين من أسوان إلى أبو سمبل والعكس فيشكل الأجانب فيهم نسبة ٥٠ ٪ والـ ٥٠ ٪ الباقية مصريين .

٣ - أما نوعية البضائع والمنقولات من مصر إلى السودان فهى : مصنوعات بلاستيك ومصنوعات ألومنيوم ومواد غذائية وأدوات منزلية .

٤ - أما نوعية البضائع والمنقولات من السودان إلى مصر فهى : جوالات عرديب وبلح وكركدية وصفائح سمك مملح وجلود وترمس ولبان .

جدول رقم (١) يوضح تطور حركة الركاب والمنقولات فى بحيرة السد العالى من سنة ١٩٧٨ إلى سنة ١٩٨٦ [٥٣] .

السنه	عدد الوحدات (الناقلات)	اعداد الركاب بالالف			المنقولات بالالف طن		
		فى اسوان	فى حلفا	فى ابو سمبل	اسوان	حلفا	ابو سمبل
١٩٧٨	١٦	٥٩	٦١	٩	٢٢	١١	٢٠
١٩٧٩	١١	٦٠	٦٢	١١	٢٧	١٦	٢٠
١٩٨٠	١٠	٦٥	٦٧	١٦	٢٨	١٩	٤٥
١٩٨١	١٠	٦٤	٦٦	١٧	٣٠	٢١	٤٩
١٩٨٢	٩	٦٦	٦٨	١٨	٣٦	٢٦	٥٣
١٩٨٣	٨	٥٧	٥٨	١٥	٣٨	٢٥	٤٤
١٩٨٤	٨	٥٣	٥٣	١٥	٣٦	٢٧	٤٣
١٩٨٥	٩	٨٦	٨٩	٢٩	٩٣	٥٤	٥٦
١٩٨٦	٩	٩٣	٩٩	٢٦	١١٩	٩٣	٧٠

٥ - ويمكن أن ترجع زيادة أعداد الركاب وتطورها فى النقل النهرى إلى رخص قيمة التذكرة ومنافستها لوسائل النقل الأخرى وخاصة فى السعر حيث تعتبر قيمة تذكرة السفر من أسوان إلى حلفا فى البحيرة مضافاً إليها السعر من حلفا إلى الخرطوم بالسكة الحديد أقل من عشر قيمة تذكرة الطائرة من أسوان إلى الخرطوم وحوالى خمس قيمة التذكرة من السويس إلىَ بورسودان.

٦ - على الرغم من أن نمط وأشكال تطور النقل فى البحيرة تدخل فيه عوامل كثيرة إقتصادية وأجتماعية وسياسية إلا أنه يمكن أن تشكل فى النهاية

نموذجاً عاماً . وينطبق هذا النموذج على تطور النقل فى إقليم البحيرة ، ويمكن وصف هذا النموذج بأنه تتابع نموذجى دقيق لتطور النقل فى البحيرة ووفقاً لهذا التتابع .

(أ) فإن المرحلة الأولى : بدأت مع إتمام بناء خزان أسوان سنة ١٩٠٢ حتى الإنتهاء من بناء السد العالى وتميزت بأن سمات الحركة كانت فى خط رأسى من الجنوب إلى الشمال والعكس .

(ب) والمرحلة الثانية : بدأت من سنة ١٩٧٠ حتى سنة ١٩٧٨ (أى تاريخ بداية عمال هيئة وادى النيل فى البحيرة) وكانت مرحلة مضطربة ومتذبذبة ، وتميزت بأن سمات الحركة كانت إشعاعية من أسوان إلى أبو سمبل فى الغرب وحلفا فى الجنوب وبعض الحالات العمرانية الحديثة النشأة على جانبى البحيرة فى الشرق والغرب .

(جـ) والمرحلة الثالثة : بدأت منذ سنة ١٩٧٨ ومستمرة حتى الآن ، وهى بداية ظهور الإحتكار فى النقل لسفن وناقلات هيئة وادى النيل للخط من أسوان إلى حلفا والعكس ، كما ظهرت فى هذه المرحلة الناقلات المتخصصة سواء فى صيد الأسماك أو الركاب أو المنقولات وهى تأخذ شكلاً إشعاعياً أيضاً .

والملاحظ أن هذه الخطوط والمراحل قد تطورت نتيجة لقرارات وأفكار سياسية وإقتصادية محدده ، وإن كان هذا النموذج يتفق مع نموذج Hoyele فى شرق أفريقية ، والذى يختلف عن نموذج Taafe وزملاؤه فى غرب أفريقيا ، حيث تعرف Hoyele على مر حلتين فى تطور مواصلات شرق أفريقية الأولى : الوجود فالأنتشار الأولى والثانية للتطور والتحسين .

٧ - مما تقدم يمكن أن يحزو النقل فى البحيرة حزو الدول التى تطل على بحيرات كبحيرة فكتوريا التى أغلقت موازينها الصغيرة على شواطئها نتيجة لتحسين خدمات النقل خصوصاً بعد إدخال "قطارات المعدية" Train Ferries التى أمكن لها نقل البضائع والمسافرين بين كينيا وأوغندا وتنزانيا [٥٤] فمن الممكن أن نستخدم هذه المعديات للربط بين أسوان وحلفا ونترك البواخر

الحالية تعمل فى النقل والربط بين سواحل البحيرة الشرقية والغربية حتى تساهم فى تنمية وتطوير بحيرة السد العالى .

رابعاً "دور النقل فى تنمية السكن والسكان"

من آثار السد العالى الأثر السلبى على العمران الذى بدأه خزان أسوان أتمة السد العالى من إغراق لكل الكفور والنجوع والقرى تحت الماء إلى تهجير السكان فى الفترة من سنة ١٩٥٩ إلى ١٩٦٤ فى النوبة الجديدة (٥٥) ويجئ الآن دور بحيرة السد العالى والنقل فيها فى إعاده توطين من هجروا من النوبيين وغيرهم من المصريين والسودانيين على المدى البعيد ، خاصة وأن السد العالى قد أغرق كل أو معظم النوبتين السفلى والعليا المصرية والسودانية إغراقاً تاماً ودائماً ، وقد أنتظم التهجير نحو مائة ألف نسمة نصفهم على كل جانب (٥٦) وهم سواء فى مصر أو السودان يتطلعون ليوم العودة على ضفاف البحيرة .

ولقد بدأ بعض النوبيين المهجريين فى مصر والسودان يعودون فعلاً بصفة فردية وجماعية أحياناً أخرى ، لاستغلال بعض تلك الرقع كما فى منطقة قسطل فى مصر وحلفا فى السودان ولولا النقل وتسهيلات ما وصل هؤلاء السكان .

كذلك تم إعداد مشروع تخطيط قرى النوبة من جديد سنة ١٩٧٨ لاستقبال الهجرة العائدة أو الراجعة مستقبلاً بما فى ذلك ثلاث قرى للنوبيين على الضفة الجنوبية لخور توشكى الأولى فى منطقة "دابود" الثانية فى "دهميت" والثالثة فى "توشكى" وحاولوا إستصلاح نحو ألفى فدان فى كل قرية بمساعدة الدولة ، وقد برز دور النقل فى البحيرة فى تهجير هؤلاء السكان إلى هذه القرى .

ويقدر أن العودة قد تستقطب معظم النوبيين فى المهجر ، ليس فقط من النوبة الجديدة التى لم يتأقلموا بها ولا قبلوها ، ولكن أيضاً من شمال الوادى ، ويفضل تعدد الوظائف والإمكانيات الإقتصادية الجديدة المتاحة من زراعة حديثة ممكنه ، ومحاصيل جديدة مدخلة ، وبيئة لصيد الأسماك وهناك إمكانيات لاستغلال طمى البحيرة المتراكم فى صناعة الطوب ، وهذا يمكن أن يمنح النوبة العائدة مستقبلاً إقتصادياً

ولا ننسى دور النقل والمواصلات فى ربط النوبة المصرية بالنوبة السودانية ، فبدل الفجوة أو الهوة العمرانية الخالية ، ستكون هنا شريط عقدى من الكثافة السكانية أكبر حجماً وأكثر إستمراراً وأقل تقطعاً مما عرفت النوبة قديماً ، ويصبح هذا الإقليم جسر عمرانى وسكانى يربط جزيرتى الكثافة الأساسيتين المصرية والسودانية ، وسيكون هذا الشريط إقليم حركة وإتصال هام (٥٧) بفضل شريانه الحيوى وهو النقل النهرى فى البحيرة .

ويقدر أن عدد من عادوا من النوبيين وغيرهم إلى البحيرة حتى سنة ١٩٧٩ حوالى أربعة آلالف نسمة إزداد هذا العدد فى سنة ١٩٨٦ إلى حوالى تسعة آلاف من المصريين ، أما على الجانب الآخر فى السودان فقد قدر عدد من عادوا إلى البحيرة حتى سنة ١٩٧٩ ألفى نسمة فقط ، ازداد هذا العدد فى سنة ١٩٨٦ إلى خمسة آلاف نسمة .

وتتأثر هذه الأعداد على شواطئ البحيرة شرقاً وغرباً فى حالات عمرانية ثابته كما فى أبو سمبل حيث يعيش فيها عمال وموظفين يعملون فى المعبد والفندق والمطار ومحطة الأرصاد الجوية وفى المزارع التجريبية وبعضهم يعيش فى سكن مؤقت حول الآبار كالرعاه الرحل الذين يستغلون الأدوية خاصة على الجانب الشرقى ، كذلك يوجد بعض الأفراد المكلفين بحراسة بعض المعابد كما فى الدكا والمحراقة والسبوع ومنطقة كلابشة . ونظراً لتشتت مجموعات الصيد الموجودة حالياً حول البحيرة وضماناً لحسن إستغلال الثروة السمكية فالأمر يلزم توطينهم فى الأقليم بجوار الفلاحين المزارعين والعمال والفنيين والمهندسين المكلفين بتنمية واستغلال الأقليم ، كما يجب أن تشمل خطة التوطين توفير التسهيلات والخدمات الضرورية للسكان الجدد وخاصة وسيلة النقل التى لا غنى عنها لسكان الأقليم وخاصة فى البحيرة .

وقد أعد مركز تنمية بحيرة ناصر (٥٨) خطة لبناء عشر قرى على جانبى البحيرة يوضحها الجدول التالى والخريطة .

اسم القريـــــــة	المسافة من الخط الملاحى	المسافة من الطريق البرى	بعدها عن السـد العالـى
ابو سمبل	٤ كم	١ كم غ	٢٧٥ كم
توشكى	٨ كم	١٧كم غ	٢٤٥ كم
عنيبـة ـ ابريم	٢,٥ كم	١٠كم غ	٢٢٥ كم
كرسكـــــو	٢,٥ كم	٦٢كم غ	١٨٥ كم
السبـــوع	٧ كم	٥٧كم	١٥٠ كم
العلاقى غرب	١٥ كم	ـــ ق	١٢٠ كم
العلاقى قبلى	٣٥ كم	ـــ ق	١٢٥ كم
المحرقة ـ السيالة	٥ كم	٥٠كم غ	١١٥ كم
مـــرواو	٥ كم	٥٢كم غ	٦٠ كم
دهميت	٥	١٧كم غ	٣٠ كم

ويلاحظ من هذا الجدول أن القرى روعى فى إختيار مواضعها القرب من بحيرة السد العالى والخط الملاحى بالذات دون الطريق البرى ، تقديراً لدور النقل النهرى فى البحيرة على جميع الإعتبارات الأخرى .

ولا يجب أن نتـوقف دراسـةً وتخطيطاً عند هذا الحـد ، ولكن من الواجب الإستفادة من هذا المسطح الكبير من المياه العذبة وهذه الشواطئ البالغة الطول فى تنمية السكن والسكان .

أن التنمية الحقيقية لن تكون إلا بتشجيع الأيدى العاملة للتوطن فى المناطق التى يجب أن نهيأها ببناء قرى ومدن بمعرفة الأجهزة العديده والعالمية الخبيرة فى التنمية والعمل على جذب السكان بإغراءات زيادة المرتبات وتشجيع رؤوس الأموال للعمل فى هذا الأقليم الحار ، ولا غرابة فإن المصريين يعملون فى الدول العربية بطاقة عظيمه ولكن بأجور كبيرة وبإمكانيات أقل مما هى فى إقليم بحيرة السد العالى [٥٩].

ولن يكون الإقليم إقليم جذب سكانى بدون وجود قرى ومدن وأراضى صالحة للإستثمار بالمفهوم الإقتصادى والجذب الكبير طبقاً لحركة السكان فتكون الحركة بين ضفتى البحيرة على إمتداد شواطئها ويجب التوسع فى النقل بزيادة عدد الوحدات ، وزيادة طاقتها الإستيعابية لـ ١٠٠٠ راكباً أو أكثر طبقاً للدراسة الإقتصادية .

ومن الجدير بالذكر أنه يمكن أن يصبح فى هذا الإقليم مدينة عملاقة على حدود مصر والسودان تصبح مركز جذب هائل لو أقيم فيها مثلاٍ متحف عالمى للحضارة الأفريقية والمصرية بتطوراتها وجامعة أفريقية لتدريس الثقافة والتراث الأفريقى ، وفرع لجامعة الأزهر .... إلخ .

خامساً : «دور النقل فى تنمية الثروة السمكية»

إذا كانت بلاد النوبة خسرت آخر مدرجاتها الزراعية المعلقة تحت مياه بحيرة السد العالى ، فقد كسبت مصايد أسماك هائلة تناظر وتنافس مصايد البحيرات الشمالية فى مصر [٦٠] ، فقد إجتذبت مصايد البحيرة مستعمرة صيادين بكاملها خاصة عندما أنشئت جمعية للصيادين سنة ١٩٦٨ بعدد سته مراكب للصيد آلية حمولة الواحدة ستة أطنان ، ثم أضيفت إليهم فى سنة ١٩٧٠ ٢٠ مركباً للصيد صغيرة حمولة الواحدة ١,٥ طن ، وأضيفت إليهم فى سنة ١٩٧١ مركبان حمولة الواحدة ٢٠ طناً لتجميع صيد المراكب الصغيرة .

وفى هذه الفترة كانت أمكانات البحيرة السمكية أعلى وأكبر من حجم أسطول الصيد ، لدرجة أن بعض أنواع الأسماك توحشت [٦١] كالبلطى والذى يمثل ٧٠ ٪ من إنتاج البحيرة أصبح أقل وزن للسمكة الواحدة ٥ كجم ، مما حدا بالحكومة فى مصر إلى إصدار قرار بإنشاء هيئة تنمية بحيرة ناصر سنة ١٩٧٤ وبدأت تساعد وتشجع الصيادين للمساهمة فى زيادة الإنتاج ونقل هذه الأسماك حتى بلغ مجموع وحدات الأسطول المخصصة للصيد فى البحيرة حوالى ٧٥ وحدة - كما نشطت الجمعيات التعاونية فى عمل لنشات آلية بالثلاجات لحسابها الخاص مما زاد فى حجم وكمية صيد الأسماك حتى تراوح الإنتاج ما بين ٥٠ إلى ٦٠ طن يومياً فى سنة ١٩٧٧ هذا بخلاف الأسماك المجففة والمحفوظة داخل صفائح (الملوحة) .

وفى نفس الوقت بدأ عدد العاملين بالصيد فى البحيرة محدود جداً فى سنة ١٩٦٦ حيث كان عددهم ٣١٨ صياداً منهم ١٨ صياداً من أهالى أسوان و ٣٠٠ صياداً من جزيرة مطيرة بقوص ، ومن الجدير بالذكر أن الأهالى النوبة لم يتقبلوا العمل فى الصيد فى بحيرة ناصر فى بادئ الأمر . وقد إزداد عدد

الصيادين وتطور بعد تأسيس جمعية لهم فى سنة ١٩٦٨ حتى وصل عددهم فى سنة ١٩٧٠ إلى نحو ألف صياد وتطور العدد فى سنة ١٩٧٢ إلى نحو ألفى صياد نصف هذا العدد جاء للعمل فى بحيرة من أبناء جهينه بسوهاج .

وبدأ نوع من التنافس على الأسماك فى البحيرة إبتداء من سنة ١٩٧٤ بين ثلاثة جمعيات (بعد أن كانت جمعية واحدة ترعى مصالح الجميع) حتى وصل عدد العاملين بحرفة الصيد نحو ٧٠٠٠ شخص منهم ٥٠٠٠ صياد و ٢٠٠ عراق[٦٢] والجمعيات الثلاثة هى :

١ - جمعية الصيادين (الأم) وتضم أهالى جهينة ومطيرة من قنا وسوهاج وعددهم ٧٠٠٠ صياد .

٢ - جمعية الصيادين لأبناء أسوان وتخصص فى الصيد فى منطقة الشمالية وعددهم ٢٠٠ صياد .

٣ - جمعية الصيادين لأبناء النوبة وتخصص فى الصيد فى جنوب البحيرة وعددهم ٣٠٠ صياد .

وبهذا الشكل قسمت البحيرة إلى مناطق وأجزاء للصيد مما أدى للتضارب فى عملية الصيد ، ومما يجدر ذكره أن جمعيتى الصيد لأبناء أسوان والنوبة كان **لا يمثل** انتاجهما معاً إلا ١/١٠ من إنتاج جمعية الصيادين (الأم) أى (جمعية أبناء **الصعيد**) . وقد إستحضرت الجمعيتان (لأبناء النوبة وأسوان) صيادين من الفيوم والبرلس إلا أن المناخ وطبيعة البحيرة لم تمكن هؤلاء الصيادين من العمل فيها ، فعادوا إدراجهم إلى مواطنهم الأصلية بعد أن أفلست الجمعيتان وبدأ تأجير مواقعهما إلى الجمعية الأم .

وقد أثر هذا النوع والخلاف دون شك على العمل والأداء وإنتاج الأسماك فى البحيرة ، حيث أنخفض عدد العاملين بالصيد فى أقل من عشر سنين من سنة ١٩٧٨ إلى سنة ١٩٨٦ إلى النصف تقريباً وأنخفض الإنتاج كذلك إلى النصف أيضاً .

ومن الجدير بالذكر أن من أسباب زيادة إنتاجية البحيرة من الأسماك فى المدة من سنة ١٩٧٥ إلى سنة ١٩٧٨ إستقدام الحكومة المصرية لبعض اليابانين وعمل مزارع سمكية وأحواض لتربية الزريعة وأطلاقها فى الخيران ، هذا بجانب إنشاء مصنع سنة ١٩٧٥ أيضاً لتجهيز وإعداد وتقشير الأسماك وتثليجها وتغليفها فى غرب البحيرة على مساحة ١٥٠٠م٢ بطاقة إنتاجية ٤٠ طن يوميا. وكان عدد العاملين فى المصنع حوالى ٤٠٠ شخصا بالإضافة إلى ٧٦٠٠ صيادا وعراقا، وبذلك يصبح عدد العاملين فى صيد وتصنيع الأسماك فى البحيرة ثمانية آلاف شخص أى حوالى ٦٪ من سكان أسوان فى سنة ١٩٧٦ ، وإزاء الأحداث السابق ذكرها من خلاف ومشاحنات وتضارب بين الصيادين، أصبح المصنع مهدد هو الآخر بالتوقف عن العمل والإنتاج بالرغم من أن الظروف البيئية فى البحيرة تلعب دورا هاما فى تحديد حجم ونوعية الأسماك، فتتوافر فى البحيرة بعض أنواع الهوام النباتية التى تعتبر غذاءا جيدا للأسماك، كما أنها غنية فى أملاحها المعدنية علاوة على أن مياهها دائما متجددة، كذلك اثبتت الملاحظات المستمرة إن جميع مياه البحيرة حاملة للأكسجين خلال فصل الشتاء، أما فى الربيع فترتفع كمية الاكسجين الذائب فى الطبقات السطحية، ويرجع ذلك إلى عملية التمثيل الكلوروفيلى التى تقوم بها الهوام النباتية، كذلك لوحظ وجود بعض أنواع من أملاح النترات والفسفور وكذلك السيلكات، كذلك تعيش بعض أنواع من الأسماك على مكونات الطمى التى تدخل للبحيرة سنويا، ولهذا كان للظروف البيئية فى البحيرة أثره الكبير على الأسماك فيها.

وقد أمكن حصر حوالى ٥٧ نوعا من الأسماك فى البحيرة تختلف فيما بينها فبعضها نادر جدا "كديب الجوت" والبعض شائع ومألوف "كالبلطى" و "الساموس"، والبعض الآخر وسط بين الأثنين "كالأنومه "أو" البياض أو "القروموط" صفوة القول أن إستغلال البحيرة فى صيد الأسماك ونقلها وتصنيعها وتوزيعها فى حاجة لتدعيم مستمر خاصة فى إعداد وحدات الصغير من قبل المسئولين، كما نوجه النظر إلى أن إستغلال الثروة السمكية فى البحيرة تركز فى الجزء الشمالى منها، فلماذا لا نستفيد من الجزء الجنوبى ؟

جدول رقم (٢) يوضح تطور اعداد المراكب والصيادين وكميات الصيد فى بحيرة السد العالى من سنه ١٩٦٦ الى سنه ١٩٨٦ (٦٣)

السنه	عدد المراكب	عدد الصيادين	متوسط وزن الصيد اليومى بالطن
١٩٦٦	٤	٣١٨	١٠
١٩٦٧	٤	٣٢٠	١٠
١٩٦٨	٦	١٠٠٠	٢٠
١٩٦٩	٨	١٢٠٠	٢٠
١٩٧٠	٢٦	١٥٠٠	٢٠
١٩٧١	٢٨	١٥٠٠	٢٠
١٩٧٢	٤٠	٢٠٠٠	٢٠
١٩٧٣	٤٠	٣٠٠٠	٣٠
١٩٧٤	٧٥	٧٠٠٠	٥٠
١٩٧٥	١٠٠	٧٦٠٠	٦٠
١٩٧٦	١٠٠	٧٦٠٠	٦٠
١٩٧٧	١٠٠	٧٦٠٠	٦٠
١٩٧٨	١٠٠	٧٦٠٠	٦٠
١٩٧٩	١٠٠	٧٢٠٠	٦٠
١٩٨٠	١٠٠	٧٢٠٠	٥٠
١٩٨١	٨٥	٦٤٠٠	٤٠
١٩٨٢	٨٥	٦٤٠٠	٤٠
١٩٨٣	٨٥	٦٠٠٠	٤٠
١٩٨٤	٨٥	٥٠٠٠	٤٠
١٩٨٥	٨٠	٥٠٠٠	٣٠
٨٦	٥٠	٤٠٠٠	٢٠

سادساً" دور النقل فى تنمية الثروة الزراعية

كـان لتكوين البـحـيـرة ووجـودهـا فى شكل مـسطـح مـائى كـبـيـر، أن تكونت بالضـرورة إمكانيـات هـائلة يمكن لو أحسن إستغـلالهـا أن تسـاهم مـسـاهـمـة فعـالة فى دفع عجلة تنمية الثروة الزراعيـة إلى خطوات بعيدة وخـاصـة فى مـجـال الأمن الغذائى. فبطبيعـة الحال شـواطئ البـحيرة التى لا تـغـمـرهـا، أو تغـمـرهـا وتنحسـر عنهـا الميـاه فـصليـا يمكن الإفـادة منهـا علـى غـرار زراعـة المدرجـات الجـبليـة

كمدرجات خصبة، ففوق أعلى منسوب للمياه بين خطى كنتور ١٨٠ - ١٨٥م يمكن عودة الزراعة الدائمة على وحدات رفع المياه العائمة، ويضم ذلك أكثر من ٣٠ ألف فدان، وأسفل ذلك يمكن عوده نوع مجدد من الزراعة الحوضية النموذجية، فبين خطى كنتور ١٧٥ - ١٨٠م يمكن زراعة أكثر من ٦٠ ألف فدان أغلب السنين، بين خطى كنتــور ١٦٠ - ١٧٥م [٦٤] يمكن زراعة أكثر من ١٥٠ ألف فدان (على الأقل فى الوقت الحالى ممكن زراعتها طول العام. وفى المستقبل ممكن زراعتها بمحاصيل لمدة تتراوح بين ٦,٣ شهور فى السنه)[٦٥] وبذلك تقدر مساحة الأرض التى يمكن زراعتها حول البحيرة بحوالى ربع مليون فدان حيث تعتمد الزراعة فيها على مياه البحيرة مباشرة، وهناك من الأراضى فى إقليم البحيرة يمكن إستصلاحها واستغلالها فى الزراعة تقدر بحوالى نصف مليون فدان تعتمد على المياه الجوفية وهى المصدر الثانى للمياه فى الإقليم بعد مياه البحيرة (الخريطة). حيث يعتبر الخزان الجوفى للحجر الرملى النوبى أفضل الخزانات الجوفية فى الإقليم إذا أمكن استغلاله فى الرى والزراعة والإستخدامات الأخرى خاصة فى المناطق البعيدة نسبيا عن البحيرة، يضاف إلى هاتين المنطقتين منطقة ثالثة فى إقليم البحيرة وهى الدلتا التى بدأت تتكون أمام حلفا فى إتجاه الشمال والجنوب نتيجة كمية الرواسب والطمى المحمولة سنويا والتى تقدر بنحو ١١٠ ملايين سنويا عند حلفا، تلك الحمولة الهائلة تترسب وتتراكم أمام السد فى شكل دلتا صناعية، وهى دلتا عكسية تنمو إلى الوراء ومن ناحية المصب وتجاه المنبع قدرها البعض بحوالى عشرة آلاف فدان.

أما بالنسبة للتربة فإن إقليم بحيرة السد العالى يضم أنواعا من التربات يمكن استغلالها فى عملية الزراعة، وخاصة على الهوامش والمدرجات البحرية وفى الأودية الغارقة (كالعلاقى وكركر وتوشكى) ومناطق كلابشة وادندان) وفى بعض هذه الرقع يصل سمك التربة الجديدة الطينية البكر المرسبة إلى نصف متر حتى المترين (الخريطة).

وقد بدأ بالفعل حصر وتصنيف وإختبار وإختيار هذه الأراضى الجديدة بعد أن قدمت دراسات قام بها عدد من مراكز البحوث المتخصصة فى التربة على

رأسها معهد الصحراء ومركز تنمية البحيرة والتخطيط الإقليمى بأسوان - ويقدرها البعض بنصف مليون فدان، وربما المليون أو أكثر حيث يمكن زراعتها بمحاصيل مدارية واستوائية غير تقليدية.

وقد أوضحت البحوث الزراعية التى أجريت فى هذا الإقليم إمكانية زراعة المحاصيل التالية:

١- النباتات النجيلية : ذرة المكانس والذرة والقمح والشعير والأرز.

٢- البقوليات: البازلاء والحمص والفول والعدس.

٣- الحبوب الزيتية: الفول السودانى والسمسم وعباد الشمس والعصفر والقرطم وبذر الكتان.

٤- النباتات الليفية: القطن والجوت

٥- الخضروات: الطماطم والبامية والبطيخ والقرع والخيار والترمس.

٦- الفواكه: البلح والعنب والليمون والبرتقال واليوسفى والجوافة والتين.

٧- المنبهات : البن والشاى.

ومن الجدير بالذكر أن المنطقة المنزرعة فى أسوان لا تتعدى ٢٥٠٠ فدانا تقع إلى الشمال من مدينة أسوان فى شريط ضيق على جانبى مجرى نهر النيل وبعض الجزر النيلية [٦٦] ويمكن أن نقارن إنتاج بعض الغلات الزراعية فى كل من أسوان ومنطقة الأرض البكر فى مزرعة أبو سمبل التجريبية، فنجد أن المحاصيل فى أبو سمبل أعطت غلة أكثر من مثيلتها فى أسوان وصلت أحيانا إلى الضعف مثل زراعة فدان القمح فى أبو سمبل أعطى ثمانية أرادب بينما يعطى فى أسوان ٦,٥ أردب.

وفدان الشعير فى أبو سمل أعطى ١٢ أردبا وفى أسوان ٩ أرادب .

وفدان الحمص أبو سمبل أعطى ١٠ أرادب وفى أسوان ٤ أرادب.

وفدان الحلبة فى أبو سمبل أعطى ٦ أرادب وفى أسوان ٣ أرادب.

وفدان اللوبيا فى سمبل أعطى ٥ أرادب وفى أسوان ٣ أرادب [٦٧] .

ولهذا فإن إقليم بحيرة السد العالى يعتبر مجالا جيدا للزراعة، ولو وضعت له البرامج والخطط التفصيلية الدقيقة التى تقوم على أساس من الدراسات العملية والبحوث المعملية فإن هذا الإقليم سوف يعطى ما يزيد عما هو متوقع منه خاصة وأنه تتوافر له مصادر المياه المختلفة وتتوافر به عناصر من التربة يمكن أن تعطى عائدا معقولا، وتتوافر له الأيدى العاملة الرخيصة متمثلة فى أبناء النوبة الذين يترقبون ساعة العودة إلى بلادهم أو ما جاورها، وهنا يبرز دور وأهمية النقل عامة والنهرى خاصة لانخفاض سعره فى توطين السكان حول البحيرة ونقل منتجاتهم والتبادل بينهم وبين جيرانهم.

سابعاً: دور النقل فى تنمية الثروة المعدنية ومواد البناء.

لم تحظ موارد الثروة المعدنية حتى الآن بنصيب وافر من الدراسة والبحث والتنفيذ أو الإستغلال فى البحيرة أو حولها. وتدل أغلب المؤشرات على أن الإقليم غنى بعدد من المعادن الهامة، والمواد الأخرى التى تحتاج إلى المزيد من البحث والفحص، ووضع خطط الإستغلال المناسبة (الخريطة).

ويمكن أن نحدد أهم هذه الثروات فى :

أولاً: المواد الخام المعدنية: أهمها والتى توجد فى إقليم البحيرة:

١- الكاولين (الصلصال الغرينى)

٢- الحديد من نوع الهيماتيت ويوجد على جانبى البحيرة.

٣- التلك ويوجد مع تكوينات الشست.

٤- ارسابات الفوسفات على الجانب الغربى للبحيرة.

٥- الاردواز وهو يتكون من الميكا البيضاء والكوارتز ويوجد شرق البحيرة.

٦- الكالسيت ويوجد فى غرب البحيرة.

٧- الرخام ويوجد فى غرب البحيرة.

٨- ويوجد خام الذهب ولكن قليل لا يصلح للإستغلال الإقتصادى فى الوقت الراهن.

ثانيا: مواد البناء: حيث تتوافر فى البحيرة وحولها بعض المواد التى يمكن أن تقوم عليها صناعة الطوب من أهم هذه المواد:

١- الصلصال ويستخدم فى صناعة الطوب والسيراميك ويوجد فى الجانب الغربى من البحيرة.

٢- احجار البناء مثل جرانيت أسوان الأحمر (المشهور) والحجر الرملى النوبى الحجر الجيرى. والبازلت (الذى يمكن إستخدامه فى رصف الطرق) ويوجد على كلا جانبى البحيرة.

٣- الجير والملاطة (مواد البياض) والملاطة تستخرج من الارسابات الجبسية.

٤- الرمل ويستخدم كمادة لاستغلال وتنمية إنتاج الثروة المعدنية وصناعة مواد البناء فى حاجة إلى دعامتين أساسيتين:

أولهما:ضرورة القيام بمزيد من الأبحاث على الخامات الموجودة لتحديد كميتها ونوعيتها ودرجة جودتها وإمكانية إستغلالها إقتصاديا (٦٨).

وثانيهما : ضرورة توافر وسائل النقل النهرى الرخيصة والمناسبة واللازمة لنقل الخامات من أماكن إستخراجها إلى أماكن تصنيعها على سواحل البحيرة أيضا ثم إعادة تصديرها بالنقل النهرى أيضا فى البحيرة.

ثامناً: دور النقل فى تنمية السياحة

إن الإهتمام بتاريخ الحضارات المصرية القديمة قد جذب إلى مصر وعلى مدى فترات طويلة من الزمن كلا من السائح المتخصص وسائح مفتون بشكل عام إن ذلك الإهتمام هو الذى أرسى دعائم تقدم السياحة فى مصر وجعلها من العوامل المساهمة فى الحصول على العملات الأجنبية، ويا حبذا لو أعطى نفس الإهتمام لحضارة مصر الحديثة ممثلة فى بناء السد العالى وبحيرته العظيمة حتى يتضاعف الدخل السياحى فى مصر.

وحتى يمكن إستغلال البحيرة استغلالاً سياحيا أمثل فإن الأمر لا يقتصر على سياحة الآثار التقليدية فى زيارات لمعبد أبو سمبل أو المسلة الناقصة ومعبد فيله

بأسـوان. بل يجب أن يمتـد ليـشـمل السـد العـالى ورحـلات نيليـة تجـوب أنحـاء البحيـرة فعلاوة على أنها وسيلة ترفيهيـة فهى وسيلة نقل مريحة وكذلك فنادق عـائمـة يطلع فـيـهـا السـائح على مـشـروع للصـوت والـضـوء إن أمكن ومـشـاهدة للفولكلور الشعبى وخاصة الرقص النوبى. ونهر النيل وبحيرة السد العالى لهما جاذبيتهما الخاصة بالنسبة للسياح وإذا كان هناك من عوامل لتنشيط السياحة فى البحيرة فنقترح:

١- إستغلال البحيرة فى الرياضة المائية وهواية صيد الأسماك، وهذا يتطلب تحديد أماكن للاستغلال تكون قريبة من أماكن العمران الحالية والمقترحة. وكذلك إنشاء نادى للتجديف ورياضة الإنزلاق على الماء، وتوفير اللنشات وقوارب الصيد والنزهة.

٢- تنظيم الرحلات المائية السريعة للقيام برحلات فى البحيرة للمعابد على طول شواطئ البحيرة.

٣- إنشاء مرسى للبواخر واللنشات والهيدروفيل بجوار مواقع المعابد على طول شواطىء البحيرة .

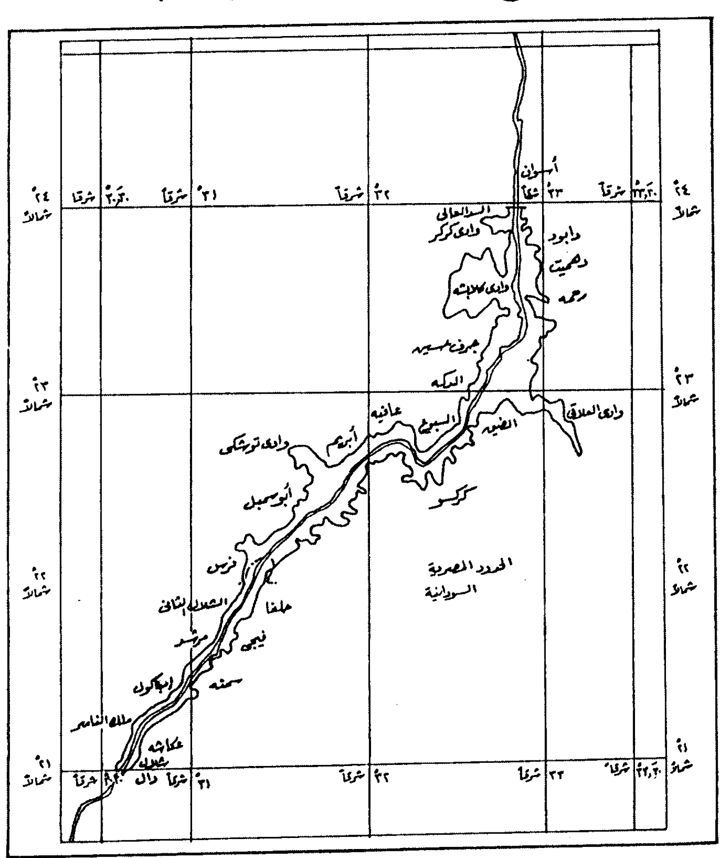
٤- يمكن انشاء العديد من الفنادق السياحية والشاليهات وبيوت للشباب رخيصة التكاليف فى منطقة أبو سمبل لجذب حركة السائحين للإقامة فترة أطول فى أبو سمبل وهو مكان جيد للراحة والإستجمام [٦٩].

٥- وعلى الرغم من إرتفاع درجة الحرارة فى الصيف فى أبو سمبل وفى الإقليم عامة وغياب مظاهر الحياة العادية والمرافق العامة لتنشيط السياحة فإن الإقليم فى حاجة إلى تنمية شاملة، ولكن يجب أن يؤخذ فى الإعتبار إهمال دراسة العائد الإقتصادى فى الأجل القصير وينظر أساسا إلى المستقبل على المدى الطويل وعليه فلابد من توفير.

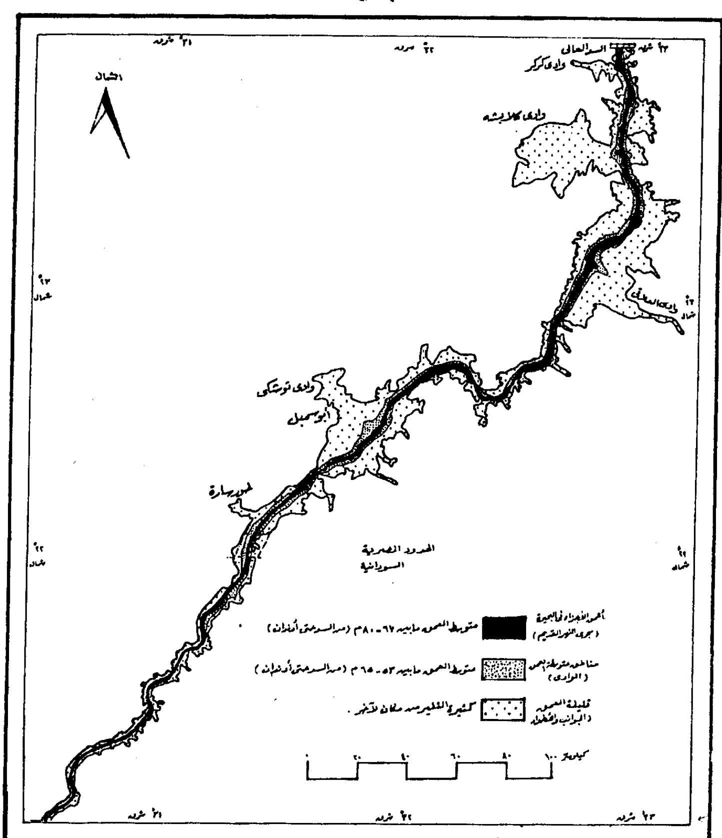
أولاً: جهاز بَشَرى مدرب ومجهز للقيام بالأعمال السياحية وتقديم الخدمات اللازمة.

ثانيا: تنمية وتطوير وسائل النقل النهرية فى البحيرة بإستخدام عبارات أو أوتوبيسات سياحية نهرية بين أسوان وأبو سمبل تحمل على الأقل ألف شخص وتربط بين المدن والقرى المقترحة على شواطئ البحيرة على غرار حركة النقل فى بحيرة جنيف وبحيرة زيورخ فى سويسرا وبحيرة فيكتوريا فى أفريقية.

موقع وحدود منطقة الدراسة

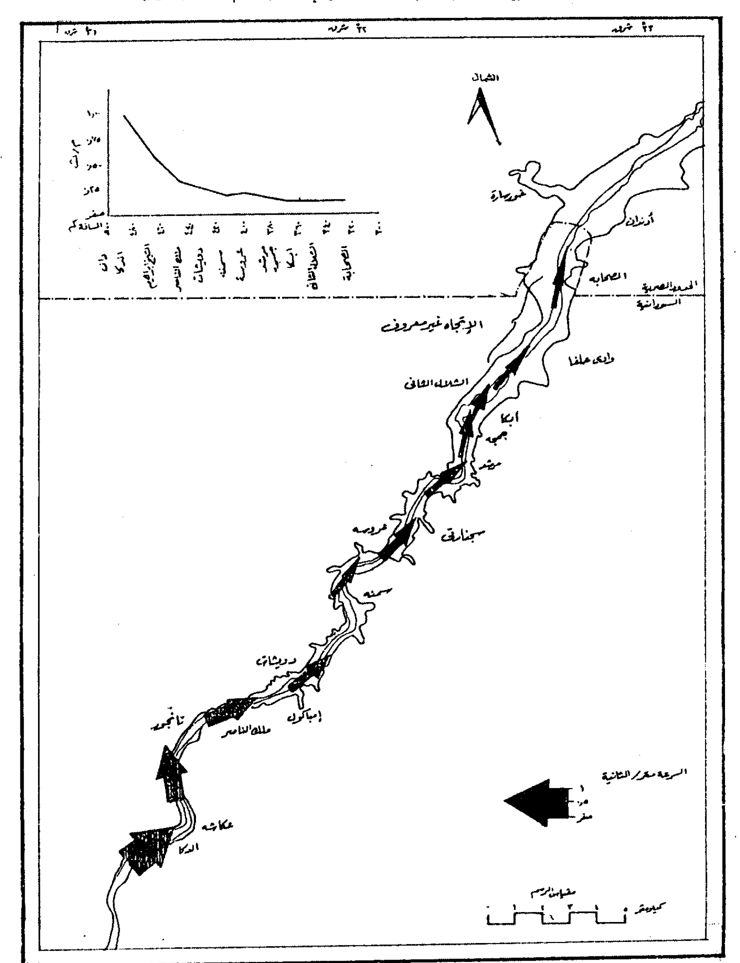


الأعمـاق فى بحيرة السد العـالى



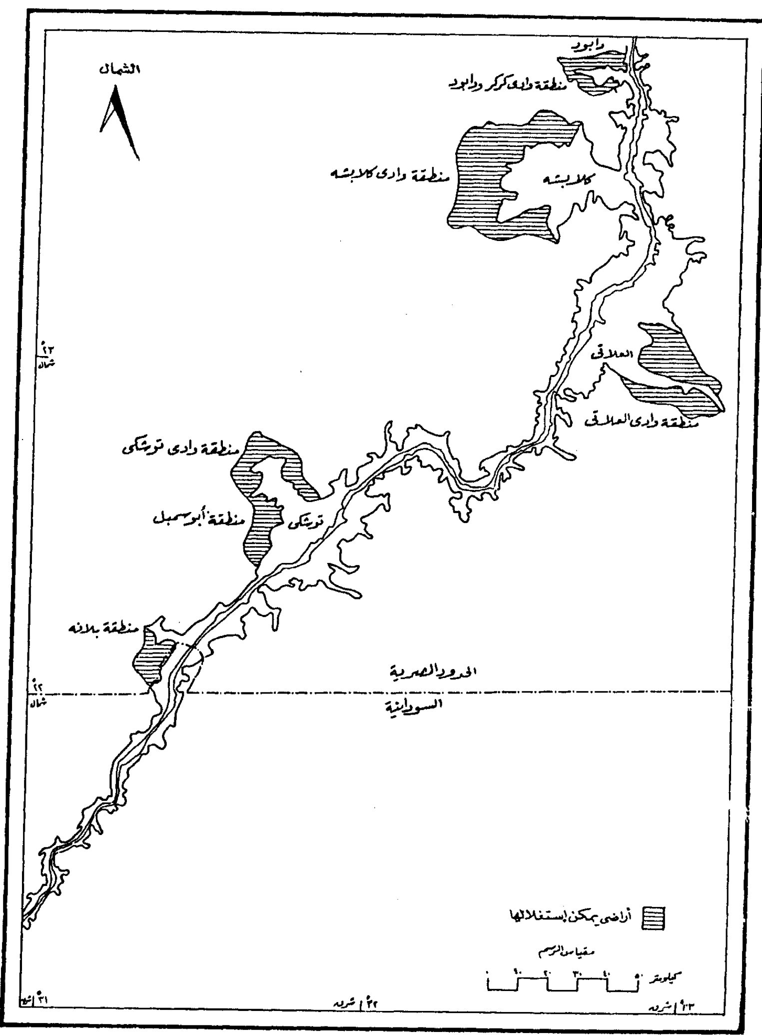
شكل رقم (٣)

سرعة التيار في بحيرة النوبة في عام ١٩٧٧ (أكتوبر)



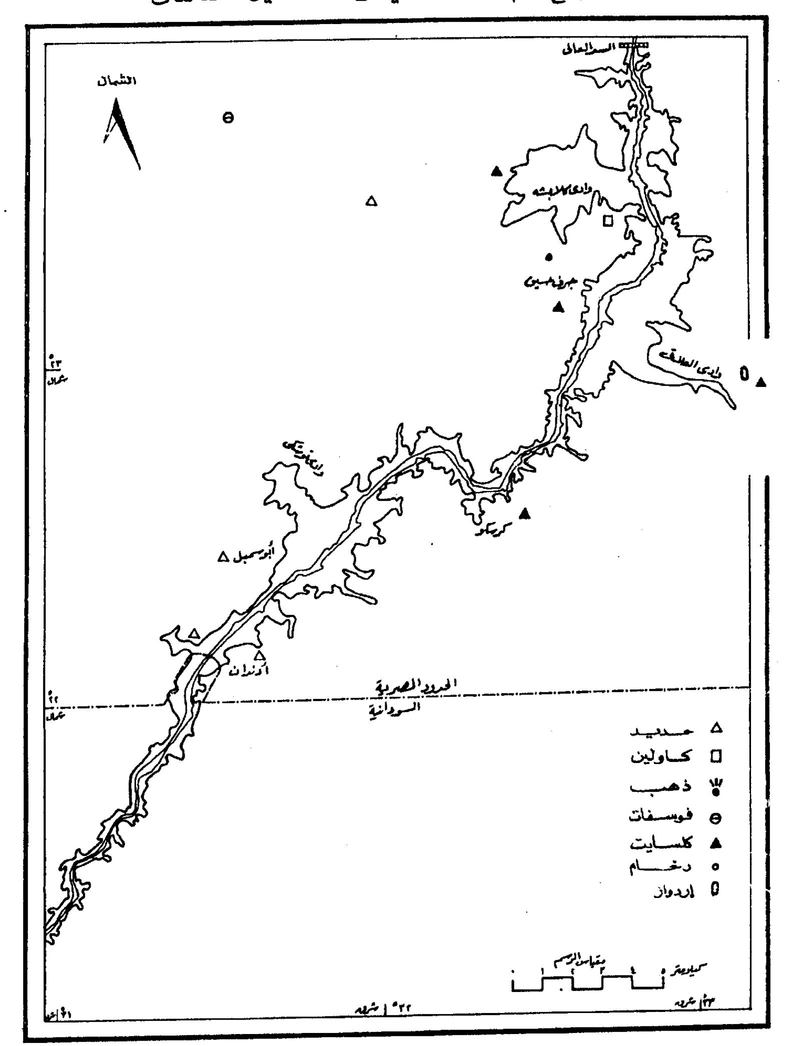
شكل رقم (٤)

الأماكن التى يمكن إستغلال التربة فيها فى الزراعة حول بحيرة السد العالى



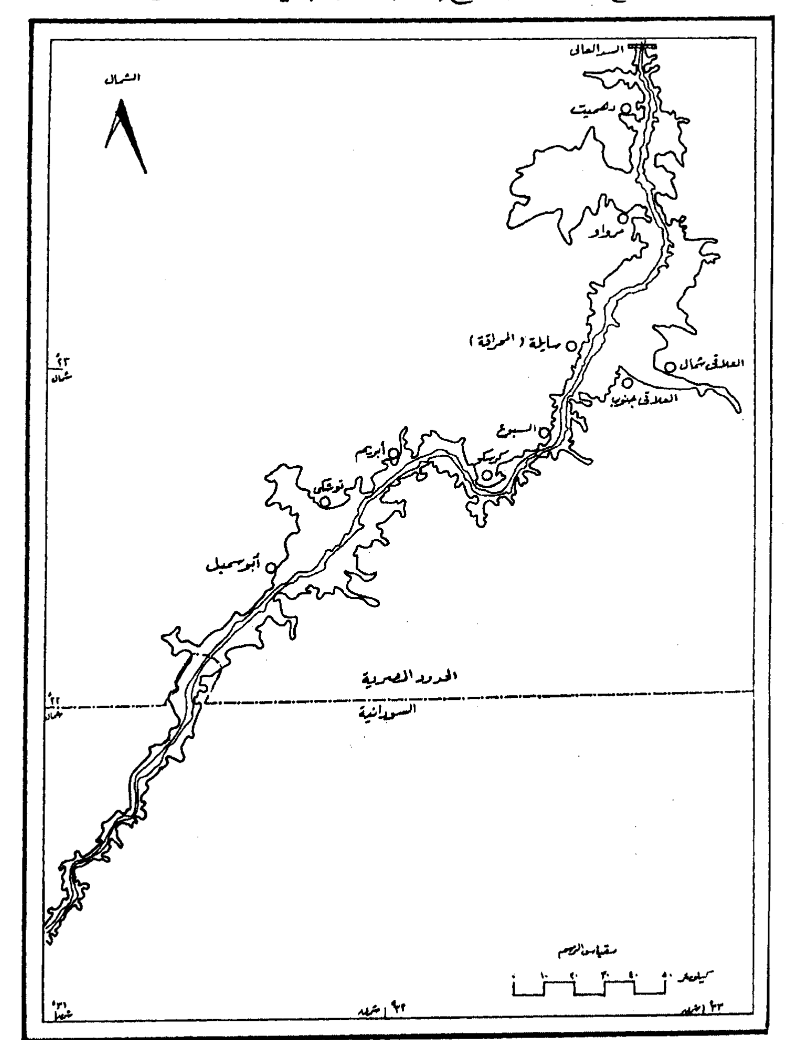
شكل رقم (٥)

مواقع أهم الموارد المعدنية فى منطقة بحيرة السد العالى



شكل رقم (٦)

مواقع القرى العشر المقترح إنشاؤها حول بحيرة السد العالى



توصيات ومقترحات

يعتبر إقليم بحيرة السد العالى بموقعه الحالى همزة الوصل بين سكان الوادى مصر (فى الشمال) والسودان (فى الجنوب). لذا كان من الضرورى إيجاد أنواع المواصلات والنقل المناسبة واللازمة لتنشيط حركة نقل الركاب والتجارة.

فإذا عرفنا أن خطوط السكك الحديدية - بوضعها الراهن من اختلاف المقياس فى كلا البلدين يصعب ربطهما ببعض.

وإذا عرفنا أن الطرق البرية التقليدية - كطريق الأربعين - أصبح لا يساير التقدم الهائل والتكنولوجيا فى العالم ناهيك عن طول الرحلة والتكلفة الباهظة لرصف هذا الطريق أو غيره ومتطلبات الصيانة الدائمة للطريق.

وإذا عرفنا طول المسافة وطول وقت الرحلة وتعدد وسائل النقل اذا استخدمنا الطريق البحرى من السويس إلى بور سودان.

وإذا عرفنا التكلفة الباهظة فى أسعار النقل الجوى.

تصبح أمامنا شرايين النقل والمواصلات بين مصر والسودان مقطوعة أو تكاد باهظة التكاليف أو شديدة البطء فيصبح أمامنا لا مناصى بالنظر بعين التقدير إلى النقل النهرى وبحيرة السد العالى وهى أمل الحاضر والمستقبل فى النقل والوصل بين القطرين الشقيقين، وإن كانت الحركة مهددة ببعض الشلالات والجنادل رغم أن البحيرة قضت على إثنين منهم. فهذا الموضوع الهندسى يمكن التغلب عليه بخطة هندسية محكمة بإقامة قناطر وأهوسة.

أن الحرص على تنمية بحيرة السد العالى يدعو إلى خطط متوازية ومتزامنة بشأن تحسين خدمات النقل وتمكين الوسائل على كافة المحاور والإمتدادات من الأداء الأفضل. وحتى تأتى فى النهاية متكاملة بالقدر الذى يحقق الأهداف الإقتصادية المرتقبة والمبينة على خطط التنمية الإقتصادية من ناحية، والذى يحقق الأهداف السياسية ويزيد من أسباب الترابط بين مصر والسودان ويدعم التكامل بين الشعبين.

التوصية الأولى:

يجب أن تبادر مصر نحو تنمية بحيرة السد العالى - كما أوضحنا - من خلال تنمية النقل والملاحة فيها على المستوى الداخلى - داخل حدودها الدولية - ومع السودان فى أعمال مشتركة على أن يوضع فى الإعتبار الظروف السياسية ودرجة توثيق الإرتباطات الإقتصادية بين البلدين: إذ ليس من ضرر من عمل حساب التنمية على المستوى الأول داخليا، وكذلك على المستوى المشترك بين البلدين ثانياً.

الثانية:

ينبغى أن نقرر أنه بعد مرور نحو عشرين عاما على بحيرة السد العالى فإن أنماط النقل فى البحيرة مازالت متشبثة بوضعها التقليدى من الجنوب إلى الشمال والعكس، على الرغم من حدوث تغيرات ملحوظة فى شكل البحيرة والإقليم، ويرجع هذا التثبت بهذا النمط لفقر معظم سواحل البحيرة وعدم وجود عمران على شواطئها إذ أن التعرف على الأخطاء والعيوب فهو من غير شك يكون الحصيلة ضمن الخلفية التى يضعها المخططون فى إعتبارهم، وهم بصدد التخطيط لتحسين وتنمية وسائل وأساليب النقل فى البحيرة على كل المستويات وعلى كل المحاور والإتجاهات. الأمر الذى يدعونا بالإسراع فى تنفيذ مخططات المدن والقرى حول البحيرة من الشرق والغرب وتنفيذ برامج التوطين المقترحة وخفض تكلفة الإنشاءات فى إقليم البحيرة.

الثالثة:

ينبغى أن تستمر سياسة الإستثمار الممكنة فى مجال البنية الأساسية للنقل فى بحيرة السد العالى وتطوير هذه السياسة ومتابعة تنفيذها، فالبحيرة فى معظمها صالحة للملاحة يجب أن تستقطب الناس من حولها وتتزايد على جوانبها- فى مصر والسودان - معدلات الإنتفاع بالأرض والموارد المتاحة فيها وخاصة مايرتبط بتطوير وتنمية الثروة السمكية والثروة الزراعية والحيوانية والصناعية والتعدينيه والسياحية. ويمكن للنقل النهرى أن يقدم خدمه رخيصة

وإن كانت بطيئة نسبيا. على ألا يتعارض الإنتفاع بالبحيرة فى خدمة النقل وتشغيل الخدمات النهرية وبين الإنتفاع بمنسوب الماء فى البحيرة وإقامة مراسى ومرافئ للسفن أو سحب الماء من البحيرة للزراعة والرى والكهرباء.

الرابعة: لتطوير عملية النقل والملاحة فى البحيرة يجب:

١ - أن يكون التشغيل للخدمات النهرية فى كافة الإتجاهات فى مصر والسودان تتكامل مع خدمات النقل الأخرى مثل السكة الحديد بالذات وكذلك النقل على الطرق بالسيارات.

٢- الإهتمام الفعلى بكل ما من شأنه أن يحقق درجة من درجات التوازن بين النمو الإقتصادى وزيادة حجم الحركة والحمولة والركاب التى تنقل لخدمة التجارة على المستوى المحلى فى الجزء المصرى أو على المستوى الأوسع فى إطار التجارة الخارجية بين مصر السودان.

٣- تطوير ميناء السد العالى وميناء حلفا لمواجهة زيادة الحركة المنتظرة بين مصر والسودان والعكس، والقضاء على الاختناقات التى تترتب على التأخير فى حركة الشحن والتفريغ وزيادة مساحة المخازن وأطوال وإعداد الأرصفة.

٤- ضرورة الإهتمام بتجهيز سفن النقل ورفع كفايتها إلى المستوى المناسب لنوع الحمولة وتطوير وحدات النقل النهرى من أسوان وحلفا ذات غاطس كبير ليتمشى مع طبيعة البحيرة ونوع الحمولة من ركاب أو بضائع أو مشتركة. وتسيير عبارات لربط الساحل الشرقى بالساحل الغربى للبحيرة (بين قسطل فى الشرق وأبو سمبل فى الغرب) وكذلك بين حلفا والطريق غرب النيل. مع فتح المجال أمام شركات القطاع الخاص لإنشاء شركات نقل نهرى تعمل عبر بحيرة السد العالى لنقل الركاب والبضائع والحيوانات والأسماك.

٥- وفى مجال الموانى والملاحة لابد من تدريب العاملين وتحسين الجهاز الفنى والإدارى وتجديد وإحلال بعض المعدات الضرورية والتكميلية لسرعة التفريغ والشحن، وكذلك إنشاء مرافئ ومراسى وموانى جديدة فى المناطق المزمع إنشاء مدن فيها وقرى حول البحيرة.

٦- ضـرورة انشـاء حـوض عـائم حمـولة ١٥٠٠ طن لصيـانة الوحدات المائية التى تعمل بالبـحـيـرة مـثل وحدات هيئـة وادى النيل للمـلاحـة النهـرية، وهيئـة السـد العـالى، ووجـدات صيـد الأسمـاك، وباقى الوحدات التى تعـمل فى البحيرة.

٧- زيادة عـدد الرحـلات طبـقـا للدراسـات الإقـتصـادية (دراسـة الجـدوى)، مع تحديد المحطات طبقا لنهاية خطوط النقل النهرى فى المحلات العمرانية على البحيرة. ودراسـة الأسـعار فى المراحل الأولى بالشكل الإقتصـادى حتى يتعود الناس على النقل النهـرى وإبراز مميـزاته كـرخص الأسـعـار وانتظام حـركتـه وكفايته واستمراره.

إن الهدف من هذه التوصيات هو تخفيض تكلفة وتحسين خدمة النقل النهرى فى البـحيـرة، مع تخفيض وقت النقل وتأمـينه بما يجـعله مـهيئـا لجذب حـركة الركاب والنقليات السلعية استقطابا من وسائل النقل الأخرى.

المراجـــع:

(١) لا يتجاوز عمر بحيرة السد العالى العشرين عاما بعد.

(٢) O'Conner, A.M.: Geography of Tropical African Development 1979.

(٣) - Hilling, D.: Transport Geogy. In an advanced Geog. of Africa, Edited by John Clark, 1975. P. 436.

(٤) - Ibid. P. 439

(٥) Taafe, E., Morrill, R. and Gould, P.: Transport expansion in Underdeveloped Countries. A comparitive analysis. In Geographical Review. October 1963.

(٦) محمد عبد الغنى سعودى: النقل فى أفريقية المدارية - سمات ومشكلات - المجلة الجغرافية العربية. السنة الثالثة. العدد الثالث سنة ١٩٧٠، ص ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٧) صلاح الدين على الشامى: دراسات فى النيل. الانجلو المصرية سنة ١٩٦٧، ص: تصدير

(٨) - MACDONA, B.F. & Wider horizons, in: The Africa of to-day and tomorrow. London, 1959. P. 12.

(٩) محمد محمود الصياد وآخرون: جغرافية مصر-القاهرة - سنة ١٩٧٦ - ص ص ١٨-٢٠ .

(١٠) جمال حمدان: شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان - القاهرة سنة ١٩٨١، ص٣٤٠.

(١١) محمد صفى الدين : مرفولوجية الأراضى المصرية- القاهرة سنة ١٩٦٦ ص ص١٢٩-١٣٠.

(١٢) صلاح الدين على الشامى: السودان - دراسة جغرافية - الاسكندرية سنة ١٩٧٣، ص٥١٠.

(١٣) صلاح الدين على الشامى: السودان - دراسة جغرافية - ص٥١٢.

(١٤) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٦٢ .

(١٥) محمد فاتح عقيل: بعض الظاهرات الجغرافية فى بلاد النوبة المصرية - الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٩٥٩ ص١٩٤.

(١٦) صلاح الدين على الشامى: السودان - دراسة جغرافية . ص ٤٣١.

(١٧) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر - ترجمة زهير الشايب - المجلد الثالث - المدن والأقاليم المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٨ ص ٢٠٣ - ٢١٤.

(١٨) بيانات غير منشورة طرف السيد / هاشم الشوربجى نقيب التطبيقين فى أسوان ورئيس قسم الملاحة السابق فى المحافظة - حصل عليها الباحث أثناء زيارته لأسوان فى نوفمبر سنة ١٩٨٦ .

(١٩) جمال حمدان: مرجع سبق ذكره ص ص ٩٦٥ - ٩٦٨.

(٢٠) مادة (٢) فقرة (٣) من اتفاقية بين الجمهورية العربية المتحدة (مصر) وبين جمهورية السودان للإنتفاع الكامل بمياه النيل - نوفمبر سنة ١٩٥٩، والتى حلت محل اتفاقية سنة ١٩٢٩.

(٢١) عبد العزيز كامل : فى أرض النيل - القاهرة - ص ٣٥.

(٢٢) نفس المرجع السابق: ص ٣٦.

(٢٣) Hurst & others: The Nile Basin. Vol. X: The Major Nile Projects P. 221.

(٢٤) أحمد سالم صالح: بحيرة السد العالى- دراسة فى الجغرافية الطبيعية - رسالة ماجستير بآداب عين شمس - غير منشورة سنة ١٩٧٩ ص : أ.

(٢٥) جمال حمدان: مرجع سبق ذكره ص ٩٧٣.

(٢٦) عبد العزيز كامل: مرجع سبق ذكره ص ١١٥.

(٢٧) جمال حمدان: مرجع سبق ذكره ص ٩٧٥.

(٢٨) نفس المرجع السابق: ص ٩٧٩.

(٢٩) أحمد سالم صالح: مرجع سبق ذكره. ص.ب.

(٣٠) يصل أقصى عرض فى البحيرة إلى حوالى ٣٠ كم عند التقاؤها بوادى العلاقى ، وأقل عرض بالقرب من شلال دال حوالى ٢٠٠ م فقط.

(٣١) ويمثل أقصى عمق للبحيرة ١٣٠ م.

(٣٢) محمد صفى الدين: مرجع سبق ذكره. ص١٦٠.

(٣٣) أحمد سالم صالح: مرجع سبق ذكره ص د.

(٣٤) أحمد سالم صالح : مرجع سبق ذكره. فى المقدمة .

(٣٥) محمد محمود الصياد: مرجع سبق ذكره . ص ١٠١.

(٣٦) محمد عبد الغنى سعودى: مرجع سبق ذكره ص ١٢٠.

(٣٧) شهدت السنوات العشر الأخيرة تذبذب لمنسوب المياه واضح، فقد وصل أعلى منسوب للماء سنة ١٩٧٥، سنة ١٩٧٦ م ، والسد العالى مهئ كما هو معروف ١٨٢ م ولم يبلغها حتى الآن . أما فى سنة ١٩٨٦ فقد وصل المنسوب إلى ١٦٢.

(٣٨) بلغ عدد الكبارى التى يمر عليها القطار فى هذه المسافة ١٦ كوبرى وتم بناء ٧٠ نفق لتصريف مياه السيول تحت شريط السكة الحديد .

(٣٩) متوسط حملة الباخرة ١٥٠ راكباً.

(٤٠) يستخدم فى الجر فقط.

(٤١) متوسط حمولة الصندل ٢٠٠ طن .

(٤٢) متوسط حمولة المركب ٦ طن فقط.

(٤٣) كان يؤخذ كيلو السمك من الصياد بـ٧ قروش وتبيعه الجمعية للمستهلك بـ٢٠ قرش.

(٤٤) أحد هذه البواخر سميت مدكور والثانية أسوان .

(٤٥) إحدى هذه البواخر ٦ أكتوبر والثانية ١٠ رمضان . حمولة الواحدة ٥٠٠ طن و ٣٠٠راكباً.

(٤٦) برأسمال مصرى سودانى مشترك قيمته ٥ مليون جنيه مناصفة بين البلدين.

(٤٧) المجلس القومى للإنتاج والشئون الاقتصادية برئاسة الجمهورية: دراسة عن تطور النقل المائى الداخلى وعلاقته بالمرافق الأخرى. تقرير غير منشور ص ١٩.

(٤٨) السفينة الأولى تسمى ساق النعامة والثانية تسمى سيناء بحمولة ٥٠٠ راكباً لكل واحد على حدة منها ٥٠ راكباً درجة أولى، بالإضافة إلى ٢٥٠ طن بضائع .

(٤٩) تقوم الهيئة العامة للنقل النهرى بتشغيل وحدات الهيدروفيل الثلاثة حمولة الواحد ٦٠ راكباً من أسوان إلى أبو سمبل تستغرق الرحلة ٥ ساعات فى الذهاب ومثلهم فى العودة .

(٥٠) تقرير المجلس القومى للإنتاج والشئون الاقتصادية السابق ذكره ص ص ٥٩-٦٠ .

(٥١) حمولة الواحدة ٥٠ راكباً وتستغرق الرحلة ٣٦ ساعة فى الذهاب ومثلهم فى العودة.

(٥٢) استبيان اجراه الباحث على ظهر السفينة (ساق النعامة) المبحرة من أسوان إلى حلفا فى ١٩٨٦/٨/١١ و ١٩٨٦/١١/٧ والتى كانت تحمل ٥٠٠ راكباً فى كل رحلة .

(٥٣) الجدول من إعداد وتجميع الباحث .

(٥٤) السعيد إبراهيم البدوى: النقل فى إفريقيا - الأنماط- المشكلات - الحلول - القاهرة سنة ١٩٨٦ .

(٥٥) أجيه يونان: دراسة مقارنة بين السد العالى وسد الفرات - القاهرة سنة ١٩٦٤ ص٦٤.

(٥٦) جمال حمدان: مرجع سبق ذكره. ص ٩٩٣.

(٥٧) نفس المرجع السابق. ص ٩٩٧.

(٥٨) أبو الفتوح عبد اللطيف : حول تنمية بحيرة ناصر - مشروع التخطيط الإقليمى لمحافظة أسوان سنة ١٩٧٤.

(٥٩) حسين كفافى: رؤية عصرية لخريطة مصر - القاهرة سنة ١٩٧٩ ص ص ١٤١-١٤٢.

(٦٠) جمال حمدان: مرجع سبق ذكره ص ٩٩٥.

(٦١) تم صيد سمكة واحدة فى مايو سنة ١٩٧١ بلغ وزنها ٤٣ كجم استخدم الونش فى رفعها.

(٦٢) عامل مساعد للصياد.

(٦٣) الجدول من إعداد وتجميع الباحث .

(٦٤) منسوب ١٦٠م وهو المنسوب الذى تقترب منه البحيرة الآن سنة ١٩٨٦.

(٦٥) جمال حمدان: مرجع سبق ذكره ص ٩٩٥ .

(٦٦) El-Ramly, I.M.: Final Report on gcomol-phology, Hydrogelogy planning for Ground water resources and land reclamation in lake Nasser region and its Environs. Governorate of Aswan. Regional planing of Aswan Cairo, 1973. P. 44.

(٦٧) أحمد سالم صالح: مرجع سبق ذكره . ص ٣١١.

(٦٨) نفس المرجع السابق ص ص ٣١٤- ٣١٧.

(٦٩) لا تتعدى الزيارة الحالية أكثر من ساعتين يعود بعدها السائح إلى أسوان .

جامعة القاهـرة – معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٥٢٧ – ٥٤٧

محاصيل الغذاء ومشاكلها
دراسة تحليلية

د. حسني عبد الحميد محسن ود. سعيد عبد المقصود محمد

باحث بمعهد بحوث الإقتصاد الزراعي | باحث بمعهد بحوث الإقتصاد الزراعي

مركز البحوث الزراعية

تمهيد

إن الزيادة المتوقعة فى تعداد سكان العالم، وضرورة مواجهة المتطلبات الغذائية المتزايدة تستلزم بالضرورة وضع البرامج والخطط لتنمية قطاع الزراعة والنهوض بالإنتاج الغذائى على المستوى العالمى وخاصة بالنسبة للدول النامية ومنها مصر ودول حوض النيل الأخرى بطبيعة الحال، هذه الحقيقة تؤكدها الأجهزة الدولية المتخصصة فى الإنتاج الغذائى العالمى والأجهزة التابعة للأمم المتحدة.

ومن ثم توجيه طاقات مصر الزراعية لضمان توفير حاجة الإستهلاك القومى تدريجياً من الحاصلات الغذائية خاصة الحبوب فى الفترة القادمة أصبحت ضرورة ملحة تحتمها الظروف المحلية والعالمية ، خاصة وأن نمو السكان ربع لسكان مصر (٢,٨٪ سنوياً) وزيادة الدخول وتغيير نمط الإستهلاك وارتفاع معدلاته تؤكد الزيادة المتزايدة والمتوقعة فى الطلب على الحاصلات الزراعية وخاصة الغذائية منها سنة بعد أخرى.

كذلك فإن الإنتاج القومى من هذه الحاصلات الغذائية لا يكاد يفى بالطلب المتزايد عليها نتيجة لأسباب عديدة ، منها محدودية الأراضى الزراعية والبالغة نحو ٥,٦ مليون فدان (٣٪ من جملة مساحة ج. م. ع) وأن نسبة الزيادة فى الرقعة المنزرعة منذ بداية هذا القرن لم تتعد ٢٥٪ مقابل زيادة فى عدد السكان

تزيد على أربعة أمثال ما كانت عليه فى بداية هذا القرن. إضافة إلى ذلك فإنه فى ظل التركيب المحصولى الحالى فى مصر يعجز الإنتاج القومى من الحاصلات الغذائية عن الوفاء بالطلب المتزايد عليها مما يستدعى تدبير العملات الحرة اللازمة للإستيراد تلك العملات التى لم تعد صادرات مصر الزراعية قادرة على توفيرها بالقدر اللازم.

المشكلة البحثية والهدف من الدراسة :

تنحصر مشكلة الدراسة فى إلقاء الضوء على المشكال المتعلقة بإنتاج المحاصيل الغذائية وخاصة محاصيل الحبوب بهدف الوصول إلى وضع بعض الخطوط الرئيسية والتى لابد من أخذها فى الإعتبار عند دراسة إمكانية التوسع فى إنتاج هذه المحاصيل والتقليل ما أمكن من الإعتماد على الإستيراد لسد العجز وهو الهدف الأساسى للدراسة .

الأسلوب البحثى و مصادر البيانات:

أجرى فى هذا البحث تحليلاً إحصائياً لبيانات الإنتاج والاستهلاك والتجارة الخارجية لمحاصيل الغذاء فى مصر خلال الفترة (١٩٦٠ - ١٩٨٤) وأعتمد كلياً على البيانات الواردة فى السجلات والكتب والنشرات التى يصدرها كل من الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء والإدارة المركزية للإقتصاد الزراعى والإحصاء بوزارة الزراعة .

إطار الدراسة :

تحقيقاً لأهداف البحث، قسم الباحثات موضوع الدراسة إلى فصلين على النحو التالى :

الفصل الأول : الإنتاج الزراعى من المحاصيل الغذائية والأمن الغذائى فى ج.م.ع.

الفصل الثانى : مشاكل الإنتاج الزراعى من المحاصيل الغذائية بصفة عامة والإتجاهات المقترحة للتغلب عليها .

- الملخص والنتائج .

الفصـــــل الأول

الإنتاج الزراعى من المحاصيل الغذائية والأمن الغذائى فى ج٠م٠ع٠

تعيش مصر الآن ، وهى تستغل رقعة زراعية محدودة على إمتداد سنوات هذا القرن تقريباً إذ أن نسبة الزيادة فى مساحة الرقعة المنزرعة منذ بداية هذا القرن لم تتعدى وكما سبق أن ذكرنا ٢٥٪ مقابل زيادة فى عدد السكان تزيد على أربعة أمثال ما كانت عليه فى بداية هذا القرن .

ولقد تجاوزت المساحة المحصولية ١١ مليون فدان بمعدل للتكثيف الزراعى يبلغ ١,٩ فدان وعلى هذه الرقعة المنزرعة أمكن تحقيق زيادة اقتصادية تفاوتت حدودها بالنسبة للمحاصيل المختلفة فى الثلاثة عقود السابقة المنتهية - وحتى تكون الصورة أكثر إيضاحاً، فإن مقارنة تطور الإنتاجية فى عام ١٩٨٥ مقارناً بعام ١٩٧٠ والموضح بالجدولين أرقام (١، ٢) والبيانات الإحصائية بصفة عامة يتضح أن هناك محاصيل زراعية رئيسية بلغ حد الإنتاجية منها أرقام عالية مثل القطن والأرز وفول الصويا، فى حين أن هناك محاصيل أخرى بالغة الأهمية فى البنيان الزراعى تتميز بإنتاجية منخفضة مثل القمح والذرة الشامية والفول السودانى والبصل، كما أن هناك محاصيل زراعية أخذت إنتاجيتها فى التناقص خلال السنوات الأخيرة مثل القصب والعدس والسمسم والذرة الرفيعة .

وفى ظل ظروف الإنتاج الزراعى الحالى فى ج.م.ع. فإن الأراضى الزراعية تتحمل درجة عالية من تكثيف الإستغلال الزراعى تحت نظام الدورات الزراعية المتعاقبة ويبلغ عدد الحاصلات التقليدية الرئيسية والثانوية ١٨محصول ، وتعطى المحاصيل الغذائية للإنسان نحو ٥٤٪ من جملة المساحة المحصولية السنوية للمحاصيل الحقلية ، بينما تصل نسبة ما يخص البرسيم ومحاصيل الأعلاف الأخرى نحو ٣٠٪ والباقى يخص القطن ومحاصيل الألياف الأخرى وواضح أن النسبة التى تحتلها محاصيل الألياف تمثل نسبة كبيرة بالمقارنة بنصيب المحاصيل الغذائية للإنسان من جملة المساحة المحصولية . ومن هنا فإنه يمكن القول أن التباين الواضح بين نمو الموارد السكانية والزراعية ولإتساع هذا التباين

جـــدول رقـــم (١) تطـــور الانتاجيـــه

متوســـط أنتاج الفدان بالطن

السنة	القمح طن	الذرة الشامى الصيفـى طن	الذرة الرفيعة الصيفى طن	الارز طن	العدس طن	السمسم طن	الفول السودانى طن	القصب طن	البطاطس طن	الفول طن
١٩٧٠	١,١٦٣	١,٧٢٦	١,٧٩٥	٢,٢٨٠	,٧٠٤	,٤٩٢	,٨١٧	٣٧,٢٩٣	٧,١١	,٧٦٩
١٩٧٥	١,٤٥٩	١,٦١٩	١,٦٠٠	٢,٣٠٢	,٦٧٢	,٥٣١	,٨٧٠	٣٦,٢٤٥	٧,٣١	,٧٧٢
١٩٨٠	١,٣٥٥	١,٨٤٣	١,٥٧٥	٢,٤٥٠	,٤٠٣	,٤١١	,٨٩٨	٣٤,١٣٥	٧,٢٦	,٨٦٩
١٩٨٥	١,٥٧٩	٢,٠٨٨	١,٦١٨	٢,٥	,٦٧٦	,٤٢٤	,٨١٦	٣٧,٤٠٨	٨,٣٤	١,٠٦٠

المصـــــدر :ـ وزارة الزراعـه ـ مركز البحوث الزراعيه ـ معهد بحوث الاقتصاد الزراعى ـ سجلات الاداره المركزيه للاقتصاد الزراعـــى ـ قســم الاحصـــاء .

جدول رقم (١) تطور المساحة المحصولية الغذائية الرئيسية

المساحة بألف فدان

السنة	القمح	الذرة الشامى الصيفى	الذرة الرفيعة الصيفى	الارز	العدس	السمسم	الفول السودانى	القصب	البطاطس	الفول
١٩٧٠	١١٠٤	١٥٠٢	٥٠٠	١١٤٢	٤٧	٤١	٤٢	١٨٦	٧٧	٣٠١
١٩٧٥	١٣٩٤	١٤٢٦	٤٦٩	١٠٤٧	٥٨	٣٣	٣٢	٢١٧	٩٨	٢٨٠
١٩٨٠	١٣٢٦	١٤٣٢	٤١٠	٩٧٣	١٥	٣٨	٢٨	٢٥٢	١٦٧	٢٤٤
١٩٨٥	١١٨٦	١٢٩٦	٢٣١	٩٢٤	٢٠	٢٢	٢٨	٢٤٤	١٧٧	٢٨٥

المصدر : ـ نفس المصدر السابق .

فقد عجزت الزيادة التى أمكن تحقيقها فى إنتاجية بعض المحاصيل والزيادة المحصولية عن تضيق الفجوة التى نشأت فى العلاقة بين النمو السكانى ونمو الموارد الأرضية وبطبيعة الحال فقد ظهرت هذه الفجوة وبرزت كمشكلة بالنسبة لِكَمِّ إنتاج المحاصيل الغذائية للإنسان، ولم يكن بروزها بالوضع الحالى مفاجئاً بل كان نتيجة طبيعية للمتغيرات التى لازمت التنمية الزراعية خلال السنوات التى مضت من هذا القرن بالإضافة إلى كثير من الإختناقات والمعوقات والتى وقفت حائلاً فى سبيل زيادة الإنتاجية والإنتاج لتحقيق أقصى حد ممكن من الإكتفاء الذاتى من المحاصيل الغذائية وذلك ما سوف نتعرض له تفصيلاً فى الأبواب التالية من البحث .

ويبدو حجم المشكلة أكثر تحديداً ووضوحاً ببيان حجم الإنتاج والاستهلاك ونسبة الاكتفاء الذاتى لأهم المحاصيل الغذائية عام ١٩٨٤ والذى يوضحه الجدول رقم (٣) ومنه نرى أن هناك سلعة غذائية أساسية تنتج منها مصر أقل من نصفها بكثير مثل القمح، والذى بلغت نسبة الإكتفاء الذاتى فيه نحو ١/٤ حاجة البلاد وتصل الفجوة إلى مداها بالنسبة لإنتاج العدس وهو غذاء شعبى حيث بلغت نسبة الإكتفاء الذاتى فيه حوالى ١٤٪ إضافة إلى ذلك فهناك عجز فى نسبة الإكتفاء الذاتى فى الزيوت النباتية، ولحوم الماشية، والدواجن، والألبان والأسماك الطازجة تتراوح بين ٣٦٪-٧٣٪. ولا تقتصر المشكلة فى مصر على نقص كميات الحبوب اللازمة للإستهلاك المحلى وضرورة استكمالها بالإستيراد من العالم الخارجى ولكن تتمثل أيضاً فى تدبير العملات الحرة اللازمة وهو ما يوضحه الجدول رقم (٤) وهو يبين قيمة الصادرات والواردات الزراعية فى مصر ومقدار الفائض أو العجز خلال السنوات من (١٩٥٢ - ١٩٨٢) ويتضح من هذا الجدول ما يلى :

١- استمر الميزان التجارى الزراعى يحقق فائضاً لصالح مصر منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٤ بدرجات متفاوتة إلاّ أنه ونتيجة للمشاكل التى تواجه الزراعة المصرية إضافة إلى إرتفاع الأسعار العالمية للسلع الغذائية عام ١٩٧٢ تناقص فائض الميزان من ١٦٥,٢ مليون جنيه عام ١٩٧١ إلى ١٤٣,٠ مليون جنيه

جدول رقم (٣) ـ حجم الانتاج والاستهلاك القومى ونسبة الاكتفاء الذاتى لاهم المحاصيل الغذائيه عـام ١٩٨٤ ·

عدد السكان فى أول يوليو ١٩٨٤ ٤٤,٨٣٠ ألف نسمه

المحصـــول	الانتـــاج بالالف طن مترى	الاستهـلاك بالالف طن مترى	النسبه المئويـه للاكتفاء الذاتــى
القمح	١٩٠٦	٦٧١٤	٢٨,٤
الارز	٢٤٤٢	٢٣٤١	١٠٤,٣
فول سودانى	٢٠	١٦	١٢٥
ذره شاميه	٣٥٠٩	٥١٤٢	٦٨,٣
سكر خام ومكرر	١٠٣٨	١٣٥٢	٦٧,٨
الخضـــر	٥٦٧٢	٥٦١٧	١٠٠,٩
المولاح	١٤٠٧	١٢٤٤	١١٣,١
الزيوت النباتيه	٢٩٢	٧٩٧	٣٦,٦
البصـــل	٧١١	٦٣٧	١١١,٦
سمســـم	١١	٣٣	٣٣,٣
لحوم ماشيـه	٣٥٥	٤٦٨	٧٥,٩
دواجـــن	١٥٦	٢٠٢	٧٧,٢
ألبـــان	٢٠٠٥	٢٢٥٣	٨٨,٩
بيـــض	١٢٢	١٢٢	١٠٠
أسماك طازجه	٢٠٩	٢٨٣	٧٣,٩
فـــول	٢٨٣	٢٨٢	١٠٠
عـــدس	٩	٦٤	١٤,١

(١) ـ تشمل زيت بذرة القطـــن وزيوت أخرى وزيوت مجمده ·

(٢) ـ لاتتضمن لحـــوم الخنازيـــر والجمـــال ·

(٣) ـ تتضمن ألبان البقرى والجاموس والماعـــز ·

المصـــــدر :ـ وزارة الزراعـــه ـ مركز البحوث الزراعيـــه ـ معهد بحوث الاقتصاد الزراعى ـ قسم بحوث اقتصاد الانتـــاج الزراعـــى ·

جدول رقم (٤) الميزان التجارى المصرى والميزان الزراعى
خلال الفترة من (١٩٥٢ ـ ١٩٨٤)

السنوات	قيمة الصادرات	قيمة الواردات	الميزان التجارى	قيمة الصادرات الزراعية	قيمة الواردات الزراعية	الميزان التجارى الزراعى المصرى	النسبة المئوية للصادرات الزراعية	النسبة المئوية للواردات الزراعية
١٩٥٢	١٤١,٨	٢٢١,٤	-٧٩,٦	١٢٠,٩	٥٩,٠	٦١,٩	٨٥,٣	٢٦,٦
١٩٦٠	١٩١,٦	٢٢٥,١	-٣٣,٥	١٧٥,٣	٨٦,٣	+٨٩,٠	٩١,٥	٣٨,٣
١٩٦١	١٦٨,٩	٢٤٣,٨	-٧٤,٩	١٤٠,٥	٨٣,٩	+٥٦,٦	٨٣,٢	٣٤,٢
١٩٦٢	١٥٨,٣	٣٠٠,٩	-١٤٢,٦	١٣١,٦	١١٧,١	+١٤,٥	٨٣,١	٣٨,٩
١٩٦٣	٢٢٦,٨	٣٩٨,٤	-١٧١,٦	١٩١,٧	١٦٨,٤	+٢٣,٣	٨٤,٥	٤٢,٣
١٩٦٤	٢٣٤,٤	٤١٤,٤	-١٨٠,٠	١٩٨,٠	١٥٦,٢	+٤١,٨	٨٤,٥	٣٧,٧
١٩٦٥	٢٦٣,١	٤٠٥,٩	-١٤٢,٨	٢٣١,١	١٥٧,٨	+٧٣,٣	٨٧,٨	٣٨,٩
١٩٦٦	٢٦٣,١	٤٦٥,٥	-٢٠٢,٤	٢٣٠,٢	١٨١,٤	+٤٨,٨	٨٧,٥	٣٩
١٩٦٧	٢٤٦,١	٣٤٤,٤	-٩٨,٣	٢١٩,١	١٧٧,٣	+٤١,٨	٨٩	٥١,٥
١٩٦٨	٢٧٠,٣	٢٨٩,٦	-١٩,٣	٢٤٢,٥	١٢١,٢	+١٢١,٣	٨٩,٧	٤١,٩
١٩٦٩	٣٢٣,٩	٢٧٧,٣	+٤٦,٦	٢٨٩,٣	٩٨,٠	+١٩١,٣	٨٩,٣	٣٥,٣
١٩٧٠	٣٣١,٢	٣٤١,٠	-١٠,٨	٢٩٣,٥	١٠٣,٢	+١٩٠,٣	٨٨,٦	٣٠,٢
١٩٧١	٣٤٣,٢	٣٩٩,٩	-٥٦,٧	٣١٤,٧	١٤٩,٥	+١٦٥,٢	٩١,٧	٣٧,٤
١٩٧٢	٣٥٨,٨	٣٩٠,٨	-٣٢,٠	٣٠٧,٠	١٦٣,١	+١٤٣,٠	٨٥,٦	٤١,٧
١٩٧٣	٤٤٤,٢	٣٦١,١	+٨٣,١	٣٧٣,٣	١٤٦,٤	+٢٢٦,٩	٨٤	٤٠,٥
١٩٧٤	٥٩٣,٣	٩٢٠,١	-٣٢٦,٨	٥١١,٧	٤٤٧,٨	+٦٣,٩	٨٦,٢	٤٨,٧
١٩٧٥	٥٤٨,٦	١٥٣٩,٣	-٩٩٠,٧	٤٥١,٤	٥٦٣,٤	-١١٢,٠	٨٢,٣	٣٦,٦
١٩٧٦	٥٩٥,٥	١٤٨٩,٩	-٨٩٤,٤	٤٠٠,٨	٥١٤,٣	-١١٣,٥	٦٧,٣	٣٤,٥
١٩٧٧	٦٦٨,٥	١٨٨٤,٣	-١٢١٥,٨	٤٥٤,٣	٦١٤,٤	-١٦٠,١	٦٨	٣٩,٦
١٩٧٨	٦٧٩,٨	١٦٣٢,٢	-١٩٥٢,٤	٤١٣,٣	٨٠٦,٣	-٣٩٢,٩	٦٠,٨	٣٠,٦
١٩٧٩	١٢٨٧,٨	٢٦٨٦,٢	-١٣٩٨,٤	٦٢٧,٦	٨٤٧,٩	-٢٢٠,٣	٤٨,٧	٣١,٦
١٩٨٠	٢١٣٢,٢	٣٤٠٢,٠	-١٢٦٩,٨	٦٢٩,٣	١١٤٢,٩	-٥١٣,٦	٢٩,٥	٣٣,٦
١٩٨١	٢٢٦٢,٩	٦١٨٧,٥	-٣٩٢٤,٦	٥٨٣,٣	١٠٧٩,٧	-٤٩٦,٤	٢٥,٨	١٧,٤
١٦٨٢	٢١٨٤,١	٦٣٥٤,٥	-٤١٧٠,٤	٤٨٨,٩	٩٦٢,٢	-٤٧٣,٣	٢٢,٤	١٥,١

المصدر : ـ الجهاز المركزى للتعبئه العامه والاحصاء ، النشره الشهريه للتجاره الخارجيه ، القاهره .

عام ١٩٧٢ ثم إلى عجز قدره ١١٢ مليون جنيه فى عام ١٩٧٥ ليصل العجز إلى ٣,٤٧٣ عام ١٩٨٢. وفى ظل ظروف المشكلة الغذائية فى العالم وإحتمال إرتفاع أسعار الغذاء أو مستلزمات إنتاجه فإن هذه الصورة أصبحت تهدد بالخطر ولا تبشر بالخير .

٢- بإستقرار معدلات نمو الصادرات الزراعية ، مع معدلات نمو الواردات الزراعية نجد أن نمو الواردات كان بمعدل أسرع من معدل نمو الصادرات مما يشير إلى إنخفاض كفاءة ومقدرة الزراعة المصرية بشكل مستمر عن تحقيق أهدافها القومية فى توفير العملات الحرة أو الأمن الغذائى وهذا الوضع يتفاقم بشكل مستمر.

٣- بالنظرة المدققه إلى مكونات الواردات الزراعية، نجد أن قيمة سلع الإستهلاك الغذائى المباشر تتزايد بشكل مستمر ومتسارع بدرجة أكبر من نمو قيمة سلع الإستهلاك الوسيط وهذا يعطى صورة على عدم الإهتمام بتزايد المقدرة الإنتاجية للزراعة ومواردها المتاحة والإعتماد السهل واليسير فى إستيراد السلع الغذائية بدلاً من تنمية طاقتها الإنتاجية .

بهذا الشكل فإننا يمكن أن نقول أن تطور مشكلة الغذاء فى مصر قد تقل هذه المشكلة من مشكلة نقص عابر فى الموارد الغذائية إلى مشكلة نقص كبير ، حتى أصبحت تمثل فى السنوات الأخيرة مشكلة أمن عذائى قومى ، وكلما مددنا النظر عبر السنوات المقبلة وحتى فى المدى القصير إتسعت أبعاد هذه المشكلة إذا من المتوقع - حسب تقديرات وزارة التموين - أن تصل نسبة إستيرادنا للمواد الغذائية عام ٢٠٠٠ مقارناً بحجم الإنتاج والإستهلاك المتوقع ٨٥٪ للقمح، ٥٥٪ للذره، ٣٨٪ للأرز ، ٨٧٪ للبقول ، ٨٠٪ للسكر، ٩٠٪ للزيت ، ٥٦٪ للحوم الحمراء ٣٤٪ للأسماك والدواجن. ولعل هذا الوضع يوضح مدى أهمية وخطورة موضوع مشكلة الأمن الغذائى وما يتعين إدراكه ومداركته ، مع تأكيد دور الأجهزة المعنية والمختصة بهذه الحلول سواء فى مجال البحث العلمى ومجالات التخطيط والتنفيذ من أجل تحقيق تنمية زراعية موائمة فى الإنتاج الزراعى بوجه عام والإنتاج الغذائى بوجه خاص، بهدف تضييق الفجوة القائمة وأبعادها المتوقعة

قدر المستطاع وأن يكون مرعياً ومقدراً أن احتمالات الإنتاج الزراعى المحلى والخارجى قد تنطوى على نقص الإنتاج فى بعض السنوات بما لا يسمح بإستيراد كل الكميات المطلوبة للإستهلاك ، بما ينطوى عليه هذا الإحتمال من ارتفاع شديد فى الأسعار العالمية الأمر الذى يهدد إمكانات توفير كميات الغذاء الضرورية. ومن ثم يصبح العمل على ضمان توفير حد أدنى من المحاصيل الغذائية يمثل خطاً استراتيجياً أساسياً فى سياستنا الزراعية، بل وفى سياستنا القومية. وفى نهاية هذا الجزء من الدراسة وإيجازاً له بقيت نقطة واحدة يود الباحثان التركيز عليها وهى أن هذه الفجوة الغذائية وهذا النقص والتدهور فى الإنتاج بالنسبة للمحاصيل الغذائية لا يجب أن ننظر إليه من الناحية الكمية فقط بل يجب أن ننظر إليها من ناحيتين أساسيتين وهما:

(أ) من ناحية تزايد الكم الاستهلاكى ، لمواجهة حاجات السكان من الغذاء نتيجة تزايد عدده من ناحية ، وتزايد معدل إستهلاكه من ناحية أخرى ، وهذا التزايد الأخير تأثر تأثيراً كبيراً نتيجة إعادة توزيع الثروة والدخول ورغبة الطبقات العاملة فى رفع مستوى إستهلاكها.

(ب) - من الناحية السعرية للسلع الغذائية ، والتى أصبحت أسعارها تتصاعد تصاعداً كبيراً نتيجة وجود الوفرة فى الإنتاج الغذائى فى حيازة الدول المتقدمة والتى اتجهت إلى رفع أسعار سلعها الغذائية لمواجهة الزيادة السعرية فى البترول، ومن أجل الرغبة الجامحة فى زيادة مواردها لمواجهة الإنفاق العسكرى، وتوفير المزيد من الدخول لأفراد شعوبها، وهم منتجون أساساً للغذاء ، ونجد هذه الظاهرة بوجه خاص فى أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا) وفى أوربا (دول السوق الأوربية المشتركة) ومما يزيد الأمر تعقيداً الاحتكارات العالمية التى تحيط بإنتاج هذه السلع الغذائية .

وبهذا فإن حجم الفجوة الغذائية القائمة حالياً بين الإنتاج والإستهلاك وما يستلزمه هذا الوضع من ضرورة الوفاء بمتطلبات الاستهلاك عن طريق الاستيراد من الخارج ، وما ينجم عن ذلك من استنفاذ جانب كبير من الموارد المتاحة أو التى يجب أن تتاح لعمليات استيراد المواد الغذائية يمثل أمراً بالغ الأهمية والتعقيد.

الفصـــل الثانـــى

مشاكل الإنتاج الزراعى من المحاصيل الغذائية والإتجاهات المقترحة للتغلب عليها

مما لا شك فيه أنه فى ضوء الأوضاع الراهنة لمشكلة الأمن الغذائى فى ج.م.ع. فإن مجموعة من المشاكل تعترض طريق زيادة الإنتاجية والإنتاج من المحاصيل الغذائية وذلك لتحقيق أقصى قدر ممكن من الاكتفاء الذاتى من هذه المحاصيل ويمكن تقسيم هذه المشاكل إلى ما يلى :

١- مشاكل متعلقة بالتركيب المحصولى .

٢- مشاكل متعلقة بمحدودية الأراض الزراعية وبرامج التوسع الأفقى .

٣- مشاكل خاصة بإنخفاض الإنتاجية بالنسبة للمحاصيل الغذائية .

٤- مشاكل متعلقة بإرتفاع تكاليف الإنتاج الزراعى من هذه المحاصيل.

٥- مشاكل خاصة بإرتفاع أثمان مستلزمات الإنتاج .

٦- مشاكل خاصة بإستخدام مياه الرى والإسراف الشديد فيها الأمر الذى يؤثر على التربة والإنتاج الزراعى .

٧- مشاكل خاصة بصيانة وتحسين التربة .

٨- مشاكل متعلقة بالسياسة السعرية المتبعة وما لها من تأثير مباشر على الزراع وتطبيق التركيب المحصولى المستهدف وحفز الزراع على زيادة إنتاجهم.

٩- مشاكل متعلقة بزيادة إستثمار الرقعة الزراعية المتاحة للوصول بها إلى الطاقة الإنتاجية القصوى (تكثيف الإنتاج الزراعى) .

وفى ظل هذه الظروف وتلك المشاكل فإن الأمر أصبح يتطلب برامج وإجراءات تخطيطية وتنفيذية تنبثق من الخطط الزراعية التى يتم رسمها على أساس سياسة زراعية مثلى بحيث نصل فى إطار هذه السياسة وخطط التنمية الزراعية

المتوالية التى تحقق أقصى قدر تتيحه لنا موارد الزراعة الحالية وتلك التى يمكن إضافتها إليها على أساس من حسن إستثمارها بأقصى حد من الكفاءة الإنتاجية .

وفى تقديرنا فإن مثل هذه السياسة الزراعية المثلى والتى يمكن من خلالها تحقيق أقصى قدر ممكن من الاكتفاء الذاتى للمحاصيل الغذائية لابد وأن تأخذ فى الإعتبار الإتجاهات والأمور التالية :

ا - بالنسبة للتركيب المحصولى :

من المعلوم أن المساحة المنزرعة حالياً تقل عن ٦ ملايين فدان، تكَّون مساحة محصولية فى حدود ١١,٥ مليون فدان وبمعدل تكثيف وصل إلى ١,٩ فدان.

ونرى ضرورة إعادة تخطيط التركيب المحصولى بحيث يحقق أقصى حد من الكفاية الإنتاجية، بما فى ذلك توفير أقصى حد من المحاصيل الغذائية الأساسية وفى نفس الوقت يوفر الحاجات التصنيعية والتصديرية للبلاد ومن هنا تبدو ضرورة إحداث توازن بين الإحتياجات الثلاثة المذكورة ..

كما لابد أن يؤخذ فى الإعتبار عند إعداد التركيب المحصولى ما يلى :

(أ) مراعاة أن يحقق التركيب المحصولى أقصى عائد إقتصادى واجتماعى من الدخل للفلاحين والدولة معاً ، مع الإتجاه نحو التوسع فى المحاصيل الغذائية التى تزايدت الفجوة الغذائية بها. مثل محاصيل الزيوت النباتية والمحاصيل السكرية والمحاصيل البقولية .

(ب) حتمية التركيز على الأراضى المستصلحة، بحيث تترابط مع الهيكل الزراعى للدولة ، وترتبط مع إنتاجها وأن تكون دورتها الزراعية بما يلائم ظروفها وأحوالها.

(جـ) ضرورة تنسيق التركيب المحصولى مع العوامل والاحتياجات الأخرى المرتبطة به مثل - موارد الرى والصرف - إحتياجات الصناعة - طاقة النقل والتخزين ...... إلخ .

(د) ضرورة وضع التركيب المحصولى فى موعد مناسب بحيث يعلن للفلاحين والأجهزة المعنية سنوياً قبل بدء السنة الزراعية بمدة لا تقل عن ثلاثة شهور وذلك حتى يمكن الزراع من ترتيب دوراتهم الزراعية فى نطاق وعلى أساسه.

(هـ) كما أن اختيار الحاصلات الزراعية الملائمة للأمن الغذائى يعتبر من العوامل الهامة التى يجب أخذها فى الإعتبار عند إعداد التركيب المحصولي ولعل ذلك يستلزم إجراء المزيد من الدراسات الاقتصادية المحلية والخارجية ، كما يستلزم إجراء دراسات حقلية لتقدير تكلفة الإنتاج والمدة التى يمكثها النبات فى الأرض والاحتياجات المائية لكل محصول والعمالة اللازمة واحتمالات الميكنة والقدرة الإنتاجية الزراعية المختلفة بالجمهورية وذلك بهدف تكوين مجموعات من المحاصيل المختارة طبقاً لمواعيد زراعتها ومدى نجاحها فى كل منطقة زراعية وبحيث تحقق كل مجموعة الأهداف المرجوة منها أكثر من المجموعة الأخرى وذلك يمكن بإحلال حاصلات أو أصناف ذات إنتاج أعلى من المواد الغذائية محل حاصلات لا تنتج الغذاء أو أصناف أقل إنتاج له كاستبدال جزء من مساحة البرسيم بالقمح .

٢- زيادة الإنتاجية الزراعية للمحاصيل الغذائية :

ويعتبر ذلك أحد الإتجاهات الهامة والتى يجب التركيز عليها عند وضع السياسة الزراعية المثلى وإذا ما أردنا تحقيق حد أقصى من الإكتفاء الذاتى من المحاصيل الغذائية حيث أنه وكما سبق أن أوضحنا تشير البيانات الإحصائية للإنتاج الزراعى إلى أن هناك محاصيل بالغة الأهمية الغذائية ، تتميز بإنتاجية منخفضة بالمقارنة بالمستويات العالمية مثل القمح والذرة الشامية والفول السودانى والبصل، كما أن هناك محاصيل غذائية أخرى أخذت إنتاجيتها فى التناقص خلال السنوات الأخيرة مثل القصب والعدس والذرة الرفيعة والسمسم.

ولعل ذلك يستلزم تكثيف الجهود للأخذ بأسباب رفع إنتاجية هذه المحاصيل بالوسائل العلمية والتكنولوجية المختلفة والإجراءات التنفيذية اللازمة لكل جوانب التنمية وإن كنا لابد من التركيز على مجموعتين رئيسيتين من مجموعات الإنتاج النباتى الغذائى تتميزان بهبوط ملحوظ فى مستوى الإنتاجية بهما وهما :

(أ) المحاصيل السكرية والبقول (الفول والعدس) .

(ب) مجموعة المحاصيل البستانية (الخضر والفاكهة) .

ويمكن رفع إنتاجية هذه المحاصيل بإدخال سلالات جديدة فى منوال الزراعة وتكوين هجين وأصناف خليط منها ، على أن يتم ذلك وفق برامج محددة خلال فترات زمنية معلومة ترتبط إرتباطاً كاملاً بخطة التنمية الزراعية، أيضاً فإن استخدام الأساليب العلمية والتكنولوجية الحديثة يعتبر أساساً لزيادة الإنتاج الزراعى كما ترتبط زيادة الإنتاج الزراعى للمحاصيل الزراعية الغذائية على طول مراحل الإنتاج بالخدمة الجيدة لهذه المحاصيل واختيار أنسب المحاصيل لزراعتها فى أنسب المناطق وأكثرها ملائمة لتحقيق غلة إقتصادية مرتفعة وهو ما يعرف بالجدارة النسبية للمحاصيل الزراعية .

٣- بالنسبة لمياه الرى :

من المعلوم أن المياه عنصر أساسى من عناصر الإنتاج ، وأن استخدام هذه المياه بالقدر المطلوب أمر على جانب كبير من الأهمية والفاعلية بالنسبة لنمو الإنتاج وزيادته .

ومن الملاحظ أن ثمة إسرافاً شديداً فى إستخدام مياه الرى مما يؤثر على خصوبة التربة والإنتاج الزراعى وفى رأينا أن ترشيد استخدام مياه الرى يتطلب إجراءات محددة نوجزها فيما يلى :

(أ) الإتجاه نحو استخدام طرق الرى الحديثة (الرش أو التنقيط) مع توفير التجهيزات اللازمة ومع ضرورة التركيز على تطبيق هذه النظم فى الأراضى الجديدة.

(ب) ضبط المقننات المائية اللازمة لكل محصول من المحاصيل الزراعية الرئيسية.

(جـ) ضبط فتحات الرى على جميع الترع بما يتناسب واحتياجات المزارع التى تستخدم هذه الفتحات.

(د) تحـويل آلات الرى البـدائيـة إلى آلات مـيكانيكيـة مع توفـيـر الـتـمـويل اللازم للمزارع لعملية الإحلال.

(هـ) ضبط عمليات إنشاء الآبار الجوفية ومراقبتها .

٤- التـوسع في استصلاح الأراضي:

مما لا شك فـيـه أن مـحـدودية الأراضـى الزراعـيـة فى ج.م.ع. كـانت عـامـلاً أساسياً فى نقص كمية الإنتاج من المحاصيل الغذائية ولذلك برزت أهمية الإتجاه إلى زيادة الرقعة الزراعية بإستصـلاح أراضى جديدة وباعتبـار ذلك ضـرورة من ضـرورات التنمية الزراعية، وجزءاً أسـاسيـاً من التنمية الشـاملة للبـلاد وركناً من أركـان إحـداث التـوازن بين مـعـدلات النمـو السكانى والتنمـيـة الاقـتـصـادية والاجتمـاعيـة كمـا أنها وسيلة أسـاسيـة من وسـائل تضـيـيق الفجـوة الغذائيـة والتى اتسعت بين الإنتاج والإستهلاك.

٥- تكاليف الإنتاج الزراعي :

من الملاحظ أن هناك زيادة مـسـتـمـرة فى تكاليف الإنتـاج، إنخفـاض فـائض الربح الذى يحصل عليه الفلاح من الإنتاج وتقدر الزيادة السنوية فى معدل تكلفة الإنتاج بنسبـة ١٥-٢٠٪ فى حين أن مـعـدل نمو الإنتـاج أقل من ذلك وهـذا الوضع يجب تداركه من أجل زيادة فـائض الربح للفلاح من نـاحيـة وخفض تكلفـة الإنتـاج على المستوى القومى من ناحية أخرى ومن رأينا أن ذلك يتطلب إجراءات متعددة لعل من أهمها ما يلى :

(أ) توسيع عملية تجميع الحيازات الزراعية وتحـويلها إلى تجميعات واسعـة نسبياً حتى يمكن تطبيق الأساليب الفنية بهما على مستوي إقتصادى.

(ب) التوسع فى استـخدام الميكنة الزراعيـة المناسبـة للإستـغـلال والتى تؤدى إلى خفض تكاليف الإنتاج بشرط توسيع الدورة الزراعية إذ لا طائل من استخدام الميكنة دون تجميع زراعى مناسب .

(جـ) العمل على خفض أسعار مستلزمات الإنتاج وتوسيع مجالات التعامل فيها .

(د) تقليل حلقات الوساطة وتنظيمها فيما يتعلق بالإتجار فى مستلزمات الإنتاج مع ضبط عملية الإتجار فيها.

٦- السياسة السعرية :

لا شك أن السياسة السعرية تؤثر تأثيراً مباشراً فى الإنتاج الزراعى، وتطبيق التركيب المحصولى المستهدف . وحفز الزراع إلى مزيد من الجهد ، وإنتهاج أسباب تنمية إنتاجهم إلى طاقاته القصوى ولابد أن ينظر على أساس تسعير المحاصيل كحزمة مترابطة بحيث لا يتم تسعير محصول ما أو بعض المحاصيل منفرداً عن المحاصيل الأخرى على أن يؤخذ فى الإعتبار عند وضع هذه السياسة عناصر أساسية هى :

(أ) تحقيق مصلحة المنتجين من ناحية والمصلحة العامة من ناحية أخرى .

(ب) أن يؤخذ عند تقرير أسعار المحاصيل أسعارها فى الأسواق المحلية والعالمية ومحاولة التقارب بين السعرين حتى يؤدى ذلك إلى رفع الإنتاج المحلى وإعطاء الفلاحين السعر المجزى عن إنتاجهم.

(جـ) إعلان أسعار المحاصيل بعد إقرارها فى الوقت المناسب عند إعداد التركيب المحصولى .

(د) يرتبط بالسياسة السعرية أيضاً تسعير مستلزمات الإنتاج ، وأن يكون الدعم الذى تتحمل به الدولة لخفض أسعار مستلزمات الإنتاج متوازياً مع سعر الإنتاج أو أسعار المحاصيل ودفعاً لنمو الإنتاج .

٧- مستلزمات الإنتاج :

لا شك أن هناك احتياجات زراعية أساسية لابد من توافرها للزراع من أجل تحقيق أقصى حد من الإنتاجية الزراعية، ولعل أهم هذه الاحتياجات هى التقاوى الجيدة- الأسمدة والمبيدات - الأعلاف - الوقود .

هذه العناصر لابد أن تتوافر بالكم والكيف المناسبين وفى التوقيت الملائم ويتطلب ذلك حساباً دقيقاً لكل هذه الاحتياجات بحيث تتوافر للزراع وفق

معدلات اقتصادية سليمة مع ضرورة ملاحظة حسن توزيعها وتقليل الفاقد منها، وتوفير إمكانيات التخزين والنقل والتوزيع السليمة .

ويمكن للتعاونيات الزراعية أن تقوم بدور فعال فى توفير هذه الاحتياجات للزراع مع ضرورة تدبير الإعتمادات المالية اللازمة لأسباب قيامها بهذا الدور بفاعلية .

كما لابد من توسيع دائرة التعامل فى عمليات الشراء لهذه المستلزمات وألا يقتصر الأمر فى غالبه على القطاع العام فحسب وذلك أن القطاع الخاص يمكنه أن يقوم بدور فعال فى هذا الشأن كما كان عليه الحال فى الماضى .

٨- التكثيف الزراعى :

فى ظل الدورة الزراعية الحالية، وما تشتمل عليه من محاصيل مختلفة تتوالى زراعتها على رقعة محدودة من الأراضى الزراعية، فإن الأمر أصبح يتطلب زيادة إستثمار هذه الأراضى إلى طاقتها القصوى. وأنه إذا كانت المساحة المحصولية قد حققت نمواً فى العشرين سنة الماضية وخاصة بعد إنشاء السد العالى وتحويل مساحة كبيرة من الأراضى من رى الحياض إلى نظام الرى المستديم، إلا أن الأحوال الزراعية أصبحت تستلزم تكثيف الإنتاج الزراعى. وذلك عن طريق أن يشمل التركيب المحصولى محاصيل زراعية متجانسة ومتوافقة فى مواعيد زراعتها ومعاملاتها الزراعية ويمكن أن يتم هذا عن طريق التوسع فى تحميل المحاصيل بعضها على بعض مثل محاصيل البصل والثوم مع محصول القطن، محصول فول الصويا وعباد الشمس مع محصول الذرة، ومحاصيل البقوليات مع محصول القصب الحزيفى على أن يتم الإعداد لهذه المحاصيل المحملة ضمن الدورة الزراعية وتوفير الإمكانات اللازمة لها.

٩- تحسين وصيانة الأراضى الزراعية :

لعل من أهم المشكلات التى تواجه الإنتاج الزراعى فى السنوات الأخيرة هى تعرض خصوبة كثير من المساحات إلى الإنخفاض أو التدهور، بسبب عوامل كثيرة منها إرتفاع مستوى الماء الأرضى ، أو قلة أستعمال الأسمدة البلدية، أو سوء عمليات الحرفة الزراعية .

وتوضح البيانات الرسمية أن أكثر من نصف الأراضى الزراعية يقع تصنيفها من حيث درجات الخصوبة ضمن أراضى الدرجة الثالثة والرابعة والخامسة.

وقد كان لغياب الطمى أثره الملحوظ على خصوبة الأراضى الزراعية خاصة الرملية وكما سبق أن ذكرنا أن هناك كثيراً من المحاصيل الرئيسية قد تعرض إنتاجها إلى الإنخفاض مثل القصب والعدس والسمسم وثمة علاقة وثيقة بين غياب طمى النيل والعناصر النادرة من المعادن .

كما أن استغلال الأراضى الزراعية يتطلب تخصيباً مستمراً بالأسمدة الكيماوية والعضوية وبخصوص صيانة الأراضى الزراعية يمكننا القول بأنه من الملاحظ حالياً أن هناك توسعاً فى عمليات البناء على الأراضى الزراعية وتتضح خطورة هذه المشكلات فى ضياع حوالى مليون فدان من أجود الأراضى الزراعية فى مصر .

١٠ - بالنسبة لتصدير محاصيل الغذاء :

تقوم ج.م.ع. بتصدير القطن والأرز والموالح ، والبطاطس، والمانجو ، الخضر والفول السودانى، والعنب، والبصل. ويفتقد نظام تصدير الحاصلات الزراعية المصرية إلى بعض العوامل الرئيسية اللازمة لوجوده واستمراره. ومن هذه العوامل يمكن التأكيد على عدم وضوح السياسة التى توجه عمل النظام، وعدم تحديد وتناسق الأهداف الموضوعة له ومن هذه العوامل أيضاً إفتقاد الصيغة النظيمية المناسبة إلى تجنب أضرار هذا النظام، وافتقاده إلى وجود نظام جيد للمعلومات لإنجاز القرار التصديرى.

لذلك نرى ضرورة العمل على وضع استراتيجية جديدة للصادرات الزراعية وفيما يلى بعض الاقتراحات التى يمكن أن تأخذ بها عند وضع ملامح هذه الاستراتيجية.

١- يجب أن تركز الاستراتيجية على زيادة عائدات الصادرات من الكميات المتاحة منها وذلك بالإهتمام بالكيف وليس بالكم.

٢- تشجيع القطاع الخاص وتشجيع المنافسة بين القطاعين العام والخاص على الشراء من المزارع والبيع فى الداخل والخارج .

٣- إنشاء مشروعات مشتركة للتصنيع والتسويق مع الشركات العالمية وذلك للإرتقاء بالمستوى التكنولوجى للصناعة والتسويق ونمات بيع الإنتاج فى فروع هذه الشركات المنتشرة فى العالم .

٤- تشجيع تصدير السلع الزراعية غير التقليدية ومنها البطاطس والطماطم والعنب وغيرهم من الخضر والفاكهة .

٥- فتح أسواق جديدة للصادرات الزراعية خاصة بعد اتساع السوق الأوربية المشتركة عن طريق اختيار الأوقات المناسبة للتصدير ودراسة وافية لهذه الأسواق من ناحية تفضيلات المستهلك فيها وذوقه.

ملخص البحث

إن المشكلة المتوقعة فى تعداد سكان العالم، وضرورة مواجهة المتطلبات الغذائية المتزايدة تستلزم بالضرورة وضع الخطط والبرامج لتنمية قطاع الزراعة والنهوض بالإنتاج الغذائى على المستوى العالمى وخاصة بالنسبة للدول النامية. هذه الحقيقة تؤكدها الأجهزة الدولية المتخصصة فى الإنتاج الغذائى العالمى والأجهزة التابعة للأمم المتحدة.

وقد تأثرت مشكلة البحث فى الدراسة محاصيل الغذاء مستهدفين من ذلك التعرف على الوضع الحالى لها وإلقاء الضوء على المشاكل المتعلقة بإنتاجها وتصديرها واستيرادها .

وقد أجرى فى البحث تحليلاً إحصائياً لبيانات الإنتاج والاستهلاك والتجارة الخارجية لهذه المحاصيل خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٤ أو اعتمد كلياً على البيانات الواردة فى السجلات والكتب والنشرات التى يصدرها كل من الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء والإدارة المركزية للإقتصاد الزراعى.

وقد انتهى البحث ببعض المقترحات الخاصة بحل مشاكل الإنتاج واستيراده وتصدير حاصلات الغذاء فى مصر ومن أهمها :

١- مرعاة أن يحقق التركيب المحصولى أقصى عائد اقتصادى واجتماعى من الدخل للفلاحين والدولة معاً .

٢- حتمية التركيز على الأراضى المستصلحة بحيث تترابط مع الهيكل الزراعى للدولة وترتبط مع إنتاجها .

٣- ضرورة مواءمة التركيب المحصولى مع العوامل والاحتياجات الأخرى المرتبطة به.

٤- العمل على زيادة إنتاجية المحاصيل الغذائية عن طريق إدخال سلالات جديدة فى منوال الزراعة .

٥- زيادة التكثيف الزراعى عن طريق التوسع فى تحميل المحاصيل بعضها على بعض.

٦- توسيع عملية تجميع حيازات المزارعين المفتتة وتحويلها إلى كميات واسعة نسبياً.

٧- التوسع فى إستخدام الميكنة الزراعية .

٨- العمل على خفض أسعارمستلزمات الإنتاج وتوسيع مجالات التعامل فيها.

٩- العمل على تحسين وصيانة الأراضى الزراعية .

١٠- وضع سياسة سعرية عادلة للدولة والفلاح.

١١- التوسع فى برامج استصلاح الأراضى.

المراجـــع :

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، النشرة الشهرية للتجارة الخارجية، أعـــداد متفرقة .

(٢) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، الكتاب الإحصائى السنوى ، أعداد متفرقة .

(٣) مجلس الشورى، تقرير لجنة الإنتاج والقوى العاملة عن السياسة الزراعية، ١٩٨٢.

(٤) محمد الشحات (دكتور) ، مشكلات الغذاء العالمية مشكلات التنمية ، مكتبة الأنجلو المصرية، يونيو ١٩٧٤.

(٥) مركز تنمية الصادرات المصرية، أنباء الصادرات ، نشرة شهرية ، العدد ٤١ ، يونيو ١٩٨٥.

(٦) المركز الدولى للزراعة ، «مجموعة أبحاث مؤتمر تنمية الصادرات الزراعية المصرية»، ٢٨ فبراير - ٣ مارس ١٩٨١.

(٧) وزارة التخطيط، الاستراتيجية العامة للزراعة والأمن الغذائى ، مشروع الخطة الخمسية ٧٨-١٩٨٢، القاهرة، أغسطس ١٩٧٧.



جامعة القاهـرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٥٤٩ - ٥٥٦

نقص المياه والآثار المترتبة عليها

د. محمد عبد الهادى راضى
مدير معهد بحوث توزيع المياه وطرق الرى - القاهرة

مقدمـــة :

يتزايد الطلب على المياه لأمكان الوفاء بالإحتياجات المتزايدة لسكان العالم من الغذاء والكساء وإنشاء المجتمعات الجديدة وتحسين البيئة بصفة عامة ..... علاوة على إمكان تحقيق نجاح العديد من الأنشطة الإقتصادية المرتبطة بالطاقة المائية أو الملاحية النهرية .

وفى نفس الوقت الذى يتطلع فيه العالم لترشيد الموارد المتاحة وتنميتها أو البحث عن موارد غير تقليدية للمياه ..... ، يفاجأ بالظواهر الطبيعية المتكررة التى تؤدى إلى تتابع موجات الجفاف وينتج عنها نقص الموارد التى يمكن أتاحتها لمختلف أغراض التنمية ، وعلاوة على ذلك فإن نقص المياه ينتج عنه تدهور فى الظروف البيئية وكذلك تدهور نوعية المياه المتاحة للإستخدام مما يضع قيوداً جديدة على إمكانية إستخدامها بالكامل .... .

وعلى الرغم من أن بعض الدول ومن بينها مصر قد نجحت فى الحفاظ على مواردها المتاحة وترشيد إستخدامها من خلال ما أقامته من منشآت وأعمال على المجارى المائية الطبيعية ... إلا أن الوصول إلى ما تبتغية شعوب العالم لا يزال يعترضة عدد من المحددات التى نرجوا أن يتم التغلب عليها من خلال تعاون شامل على المستويين الأقليمى والدولى حتى ينعم العالم كله بالرخاء والطمأنينة .

طرق ووسائل تنمية الموارد المائية .

تتحدد الطرق التقليدية لتنمية الموارد المائية وفق عدد من العوامل التى تختلف بأختلاف المصدر المائى أو موقعة ، وبصفة عامة فأن هذه الطرق كما يلى:

- حصاد مياه الأمطار بتخزينها سطحياً أو جوفياً أو عن طريق زيادة معدل السريان السطحى إلى المجارى المائية .
- تثبيت التربة بهدف تقليل فواقد التسرب .
- تنمية الموارد النهرية من خلال السيطرة والتحكم العلمى فى النهر لتنظيم إيراد مهما اختلفت ظروف مع خلق نظام كامل للتنبؤ والمتابعة والتقييم .
- تطوير طرق ووسائل إستخدام المياه لتعظيم العائد من نقطة الماء .
- تنمية المياه الجوفية من خلال تطوير تكنولوچيا رفع المياه ونقلها لمواقع الإستخدام .
- الحافظ على نوعية المياه ومنع تدهورها حتى لا تقف نوعية المياه عائقاً أمام الإستفادة بما يتاح من موارد .

ويجب فى جميع الأحوال وضع خطة متكاملة ومتزامنة للسيطرة على أى آثار سلبية تنجم عن تنفيذ هذه الطرق ، مع الأخذ فى الإعتبار الموازنة بين إقتصاديات مختلف الطرق ومدى ملاءمتها للنواحى الإجتماعية والبيئية ، مع تكثيف الدراسة حول جدوى نقل المياه إلى مواقع التنمية الحالية أو القريبة منها أو خلق مواقع للتنمية بجوار موقع المياه .

عوامل نقص المياه :

تتنوع عوامل نقص المياه وفق طبيعة المورد وموقعة الجغرافى وتوقيتات الحصول عليه علاوة على التغيرات التى تحدث فى المناخ وتؤدى إلى موجات من الجفاف ... وبالإضافة إلى هذه العوامل الطبيعية فإن هناك عدداً آخر من العوامل غير الطبيعية التى قد تكون ذا أثر كبير فى نقص المياه كما ونوعاً ... ، وبصفة عامة فإن أهم عوامل نقص المياه تتلخص فيما يلى :

- عدم التوافق الزمنى والمكانى بين الموارد والإحتياجات .
- الظواهر الجوية التى تؤدى إلى الجفاف ، ونظراً لعدم إمكان التنبؤ المسبق لفترة طويلة بالظواهر الجوية ... فإن هذه الظاهرة تعتبر من أهم عوامل نقص المياه التى لا تزال من الصعب إيجاد حلول مناسبة لها .
- الموقع الجغرافى ... حيث تزداد فواقد المياه فى المناطق الحارة ، كما تزداد هذه الفواقد بزيادة عدد مرات الجفاف وتتابعها .
- إنتشار البيانات المائية فى المجارى المائية وبحيرات المياه العذبة .
- عدم القدرة على فهم طبيعة المورد وكيفة التعامل معه .
- تلويث المياه مما يقلل من حجم المتاح للإستخدام منها .
- إستنزاف موارد المياه الجوفية لعدم وجود تخطيط علمى مدروس فى شأن إستخدامها .
- سوء الإستخدام للمياه أو إتباع أساليب وطرق غير سليمة فى مجال تنمية وإستخدام المياه .
- عدم وجود صيغ مقبولة للتعاون بين الدول المشاركة فى نظام مائى واحد من أجل تنمية المورد وصيانتة .

نظرة حول الموارد المائية المتاحة :

تزداد أهمية التعرف الدقيق على حجم الموارد المائية المتاحة للإستخدام مع تزايد الطلب على المياه لأغراض التنمية المختلفة . وعلى الرغم من كثرة الموارد المائية على المستوى العالمى إلا أن المتاح للإستخدام منها تكتنفة عدة مصاعب فنية وسياسية علاوة على عدم تناسب توزيعها مع إحتياجات شعوب العالم المختلفة .

وبصفة عامة ، فإن حجم المياه المتجدد سنوياً والتى يمكن إتاحتها للإستخدام لو تحقق تعاون شامل تكفى لأكثر من ثلاث أضعاف سكان العالم الحاليين ولكن الأمل لا يزال بعيداً لتحقيق التعاون المنشود .

وإذا إنتقلنا إلى منطقة حوض النيل ، فإن الأمطار الساقطة سنوياً فى المتوسط تكفى لأكثر من خمسة أضعاف السكان الحاليين إذا أحسن التعامل معها ، كما أن نسبة السريان السطحى التى لا تتجاوز ١٤ ٪ فى أحسن الظروف تكفى لأكثر من ضعف سكان حوض النيل لو أحسن إستغلالها ... كما أنه يمكن زيادتها بصورة فعالة إذا تحقق التعاون بين دول الحوض فى هذا المجال .

ونظراً لأن الفوائد الحالية فى مياه المجموعة النهرية للنيل نحو ٦٠ ٪ من متوسط إيراده الحالى ، فإنه لو تحقق تعاون فى شأن إستقطاب هذه الفواقد لتغير الموقف كثيراً وتحقق ما يريدونه من تنمية دون مشاكل أو تعارض فى المصالح .

وبصفة عامة فإن الحجم السنوى المتوسط للأمطار على الحوض تبلغ نحو ٩٠٠ مليار م٣ يمثل السريان السطحى منها نحو ١٣٧ مليار م٣ ، بينما إيراد النيل حالياً لا يتجاوز ٨٤ مليار م٣ سنوياً فى المتوسط .

ولما كان تعداد السكان بحوض النيل حالياً يقارب مائتى مليون وتبلغ إحتياجاتهم المثلى نحو ١٧٠ مليار م٣ سنوياً ، فإن المزج بين الزراعة المطرية والمروية من المجارى المائية أو الآبار يمكن أن يحقق إكتفاء ذاتياً لدول الحوض دون أى مشاكل . الأمر فقط يحتاج إلى تعاون شامل فى إطار صورة مقبولة من جميع الأطراف تأخذ فى إعتبارها الحقوق التاريخية والطبيعية لكل دولة من دول الحوض .

وإذا إنتقلنا إلى مصر ... فإنه لا توجد موارد مائية يمكن الإعتماد عليها سوى النيل ... فالأمطار معدومة والمياه الجوفية بالصحارى غير متجددة ومن هنا فإن مياه النيل تمثل ٩٧ ٪ من موارد مصر المائية .

ولما كانت حصه مصر تبلغ ٥٥,٥ مليار م٣ وعدد سكانها ٥٠ مليون نسمة والأرض المنزرعة تبلغ نحو ٦,٣ مليون فدان وكثافة محصولية قدرها ٢٠٠ ٪ ، فأن هذا القدر من المياه لا يكفى إحتياجات السكان مما يضطر المصريين لإعادة إستخدام المياه لمرة ثانية بالرغم من إنخفاض نوعيتها وتأثيرها المستمر على خصوبة الأرض الزراعية وعلى معدلات الإنتاج .

أما إذا نظرنا للموقف عام ٢٠٠٠ حيث سيصل عدد السكان إلى نحو ٧٠ مليون نسمة فإنه لكى نحافظ على نصيب الفرد حالياً من المياه سنكون فى حاجة إلى نحو ٧٧ مليار م٣ بعجز ٢٢ مليار م٣ ومهما أتخذ من إجراءات بشأن إعادة الإستخدام أو تخفيض معدلات الإستهلاك فإن ذلك يكون كافياً على الأطلاق لتحقيق أدنى أحتياج للسكان ... خاصة لو أخذنا فى الإعتبار موجات الجفاف المتكررة والتى تؤثر على الموقف المصرى بصورة كبيرة .

نقص المياه فى مصر والآثار الناجمة عنه :

يترتب على نقص الموارد المائية بصفة عامة العديد من المشاكل الإقتصادية والإجتماعية والبيئية والسياسية والتى تؤدى فى النهاية إلى إنهيار نظام الدولة السياسى والإجتماعى .

ولعل ما يحدث حالياً فى حوض النيل نتيجة لموجات الجفاف المتلاحقة والذى نتج عنه موت ملايين من البشر وفقدان ملايين أخرى من الثروة الحيوانية هو إنذار توجهة الطبيعة لدول الحوض لكى تقف صفاً واحداً فى سبيل مواجهة التحديات والتغلب على الصعاب .

ولأن مصر تعتبر دولة المصب بالنسبة للحوض فإنها عادة تكون أكثر الدول تأثيراً بموجات الجفاف ولولا ما أقامته مصر من مشروعات على النيل عبر تاريخها الطويل لكانت الحال بها أسوأ منها فى أى مكان آخر ... ، ولعلنا نسترجع من التاريخ الحديث مثلاً نسوقة فى هذا المجال ... حيث تكررت موجات الجفاف لسبع سنوات متتالية خلال العصر الفاطمى وما عرف حينئذ بإسم الشدة المستنصرية ... وادى ذلك إلى عدم وجود مواد غذائية ولجؤ السكان لأكل لحوم القطط والكلاب وأكل لحوم البشر أيضاً وتدهورت الحالة الإجتماعية وزادت الجريمة والأمراض القاتلة وفى النهاية أدت إلى سقوط الدولة بالكامل .

ومن هنا مقياساً على ما حدث فى العصر الفاطمى ... فإن الفترة من عام ١٩٧٨ وحتى عام ١٩٨٥ كان يمكن أن تؤدى إلى نفس النتيجة لولا وجود مخزون من المياه ببحيرة السد العالى وقد تحقق من وجوده الفوائد التالية :

- سحب نحو ٥٠ مليار م٣ من المخزون منها ٢٠ مليار م٣ فى عام واحد فقط هو عام ١٩٨٥ وذلك نتيجة لإنخفاض إيراد النيل .
- توفير نحو ٧,٥ مليار جنيه للإقتصاد القومى بالعملة الصعبة كان سيتم شراء غذاء بها من الخارج وللوقود الذى كان سيستخدم فى توليد الطاقة .
- تجنب العديد من المشاكل الإجتماعية والسياسة .

وبصفة عامة فإن أهم آثار نقص المياه تتلخص فيما يلى :

١ - التدهور الإقتصادى والإجتماعى والسياسى .

٢ - زيادة الجريمة .

٣ - انتشار الأوبئة والأمراض القاتلة .

٤ - تأثر البيئة وتدهور نوعية المياه .

٥ - زيادة أثر الملوثات على المياه بالمجارى المائية .

٦ - زيادة فرص التصحر وأثر على التنمية القائمة .

٧ - قلة نسبة السريان السطحى نتيجة للجفاف .

٨ - زيادة المشاكل والخلافات بين دول النظام النهرى المشترك حول نقطة الماء.

٩ - إنخفاض القدرة بالمجارى المائية على التنقية الذاتية .

١٠ - تأثر الثروة السمكية بصفة عامة .

وقد أجريت دراسة تحليلية على أثر نقص المياه بنسب مختلفة على الإقتصاد المصرى ، وجد منها أن التأثير سيكون بليغاً حتى بالنسب البسيطة .

ونظراً لأنه لا يمكن إنتقاص مياه الشرب فإن التأثير سوف ينعكس أساساً على الإنتاج الزراعى وفق السيناريوهات التالية :

١ - فى حالة عجز فى الحصة الحالية قدره ٥ ٪ أى ٢,٧٧٥ مليار م٣ فى السنة، فإن ذلك سيؤدى إلى خفض مساحات الأرز بنحو ٢٠٠ ألف فدان ومساحة قصب السكر بنحو ٥٠ ألف فدان ، مما سيؤثر تأثيراً بليغاً على ميزان المدفوعات المصرى .

٢ - فى حالة عجز قدره ١٠ ٪ من الحصة الحالية أى ٥,٥٥ مليار م٣ فى السنة فأن ذلك سيؤدى إلى نفس النتيجة المشار إليها بالبند الأول علاوة على تخفيض كافة الأحتياجات المائية للمحاصيل بنسبة ٤ ٪ ، وخفض أنتاج الطاقة المائية بنسبة ٢٠ ٪ وهو ما لا يستطيع الأقتصاد المصرى تحمله ... ، كما أنها لا تستطيع أيضاً أن تتحمل العجز البسيط بنسبة ٥ ٪ لعدة سنوات متتالية .

فإذا نظرنا للمستقبل حتى عام ٢٠٠٠ فإننا سنستشعر صعوبة الموقف المصرى بعد أن إستنفذ كل سبل فى مجال حسن إستخدام المياه .. حيث أن مصر أكثر الدول الحوض بل من أكثر دول العالم حفاظاً على المياه وصيانتها .

وعلى ضوء ما سبق فقد يكون من المفيد أن نستعرض أيضاً أهم الخصائص والمحددات التى تميز الموقف المصرى فى مجال المياه :

١ - أن وجود مصر وحياتها مرتبط بمياه النيل ، ومن الصعب إغفال ذلك عند التعامل مع مشكلة المياه محلياً وأقليمياً وعالمياً .

٢ - أن مصر كدولة مصب تعتبر أكثر الدول حفاظاً على المورد المائى وصيانة له ، كما أنها أكثر الدول تأثيراً بموجات الجفاف .

٣ - أن المورد الوحيد للمياه فى مصر هو نهر النيل .

٤ - أن مضر تطورت خلال أكثر من سبعة آلاف عام أسلوب تعاملها مع النيل حتى حققت تنمية مياهه وصيانتها وأكتسبت حقاً تاريخاً فى مياهه يؤكده حرصاً الدائم على الحفاظ على كل قطرة ماء .

٥ - أن المجتمع المصرى لا يمكن فصلة عن النيل فكلاهما يرتبط بالآخر أرتباطاً مادياً وروحياً .

٦ - أن مبدأ التعاون الشامل لتحقيق أفضل أستغلال لموارد نهر النيل من أجل صالح كل شعوبه يمثل حجر الأساس فى تحقيق الخير لحوض النيل .

الخلاصـــة :

يعتبر نقص المياه ذات أثر مدمر على الإقتصاد القومى وعلى البيئة ناهيك بالآثار الإجتماعية والسياسية المترتبة على ذلك ، ونظراً لتداخل عناصر المشكلة على المستويين الإقليمى والعالمى فى حالة النظام المائى الدولى ، فإن الأمر يقتضى وضع صورة مناسبة ومقبولة للتعاون الشامل تأخذ فى الأعتبار الحقوق التاريخية والطبيعية ومصالح كافة الشعوب فى هذا النظام المشترك .

وبالنسبة لحوض النيل فإن المستقبل يبشر بالخير الكثير إذا خلصت النوايا وأتحدت جميع الأطراف من أجل تحقيق تنمية شاملة لموارد النيل يمكن أن تزيد من إيرادة الحالى أكثر من ٦٠ ٪ علاوة على الفوائد الأخرى من طاقة مائية وملاحية وسياحة كما أن الأمر يقتضى أيضاً تعاوناً عالمياً فى مجال تطوير تكنولوچيا تنمية المياه وإستخدامها مع العمل المستمر على تطويع هذه التكنولوچيات لتناسب المجتمعات المختلفة تمهيداً لتوليد تكنولوچيا وطنية مناسبة.

المراجـــع :

١ - دور المياه فى التنمية الريفية ، محمد عبد الهادى راضى ، المؤتمر الدولى الرابع للمياه ، بروكسل ، بلچيكا ، ١٩٨٥ .

٢ - أثر السد العالى فى حماية مصر من جفاف ، محمد عبد الهادى راضى وزارة الرى ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٣ - الآثار السلبية لمشروعات تنمية وترشيد المياه ، محمد عبد الهادى راضى ندوة أثر مشروعات تنمية المياه على البيئة ، طشقند الأتحاد السوفياتى ١٩٨٥ .

موسوعة حوض النيل ، هرست ، بلاك ، سميكة ، وزارة الرى ، القاهرة .

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٥٥٧ - ٥٨١

التغيير الإجتماعى والثقافى فى قبيلة الهدندوه بشرق السودان فى الثلاثين سنة الأخيرة (١٩٥٣ - ١٩٨٣)

د. عبد الفتاح عبد الصمد منصور

٥ شارع الغيث "العجوزة" - جمهورية مصر العربية (ت: ٣٤٧٧١٤٣)

أولاً : بلاد الهدندوه :

قبيلة الهدندوه بطن من قبيلة البجه أكبر التجمعات القبلية بشرق جمهورية السودان. ويسكن الهدندوة منطقة واسعة تمتد حدودها فى الشمال من مدينة سواكن على ساحل البحر الأحمر حتى كامبوسانها Kambosanha على خط سكة حديد عطبرة بورسودان وتتجه الحدود جنوباً بغرب على المنحدرات الغربية لجبال البحر الأحمر حتى مدينة مسمار على نفس خط السكة الحديد، ومن هناك تتسع أراضى القبيلة كلما اتجهنا جنوباً عبر السهول حتى تنتهى عند قوز رجب ، أما الحدود الشرقية لبلاد الهدندوة فتسير محاذية للحدود السودانية الأثيوبية وعلى إمتدادها يقع ما يعرف «بقرى ريفى الحدود».

وبلاد الهدندوه شحيحة المطر قليل الآبار قاحلة فقيرة فى الكلأ تكاد تكون عارية من الأشجار اللهم إلاّ القليل من أشجار الدوم المتناثرة على ضفاف خور الجاش وغيره من الخيران . وينتشر على أرض الهدندوه نبات الرامتوك القاتل الطارد [1] ....

---

(١) الرامتوك: لفظ فى لغة الهدندوه يعنى «خذنى معك» ويطلق على نبات شوكى خبيث ينتشر بشكل رهيب. وهو نبات طارد لأنه يقضى على الكلأ ويطرده حيثما نما ، وهو نبات قاتل لأنه حين يلامسه حيوان يلتصق بجلده، ولا ينفك عنه حتى يغوص إلى اللحم، ويجرح الضرع، ويسبب للماشية آلاماً مبرحه فلا تقوى على السير ولا تطيق الرقاد كما لا يستطيع الحيوان منه فكاكا ، فينتهى الأمر بذلك الحيوان إلى الموت حيث هو . ويقول الناس هناك عنه أنه الخطر القادم ولكنه فى الواقع الخطر القائم.

ونبات المسيكا المانع الواقى(٢)

والحرفة الأساسية للهدندوه هى الرعى، غير أن حيواناتهم قليلة العدد نتيجة لفقر المراعى وقلة الماء فضلاً عن الدور الذى يلعبه نبات الرامتوك الخبيث فى القضاء على كمية غير قليلة من حيواناتهم ومراعيهم.

ثانياً : مجتمع الهدندوه قبل ثلاثين عاماً :

والهدندوه أكبر بطون البجة عدداً (٢٦٠ ألف نسمة) (٣) كانوا أول أمرهم يسكنون منطقة جبال البحر الأحمر ثم تحركت القبيلة غازية فى إتجاه الجنوب والجنوب الشرقى وفى إتجاه الغرب حتى وصلت بالغزو جنوباً إلى دلتا الجاش وجنوباً بشرق إلى الحدود السودانية الأثيوبية الحالية ، واستولى الهدندوه على كل ما دخلوه من أرض سواء كان بحد السيف أو بالفتح السلمى .

ثم لم تلبث أعراف القبيلة وتقاليدها أن نظمت عملية الحقوق بالنسبة للأراضى فى بلاد الهدندوه ، فصار هناك ما يعرف بحقوق ملكية "الأصل" (٤) وهى حقوق تأسست نتيجة الغزو وأهم سماتها أنها جماعية وراثية لرجال القبيلة دون نسائها (٥) . وقد تكرست حقوق "الأصل" وتأصلت لديهم حتى صار من أشهر أقوالهم المأثوره "O'hash hasun, balad baladun" أى "الأرض أرضنا والبلد بلدنا" أو "الأرض أرضنا والدار دارنا" .

---

(٢) المسكيت : هو نبات ذو شجيرات متوسطة ، وهو من أنجح وسائل إيقاف «التصحر» أى الزحف الصحراوى على المراعى والأرض الزراعية ويلعب الحيوان دوراً كبيراً فى إنتشار المسكيت إذ تأكله الحيوانات وتلقى ببذوره مع فضلاتها حيث سارت ، ثم لايلبث فى موسم الأمطار أن تنمو أشجاره.

(٣) H.M. Saleh: Hadanuwa Traditional Territorial Rights and Inter-Population Relations Within the Context of Native Administration System (1927-1970). SNR Vo. LXI (61) 1980 pp. 118.

(٤) الأصل : هو الحق فى ملكية الأرض الناتج عن الغزو أو الاستقرار المبكر فيها.

(٥) حجبت ملكية الأرض عن نساء القبيلة لضمان عدم تسرب ملكية الأرض إلى غير أبناء القبيلة الذين قد يتزوجون من بناتها فيزاحم أولادهم أخوالهم فى ملكية الأرض .

وكان هناك كذلك ما يعرف بحقوق "الإماره" (٦) وهى حقوق الإنتفاع بالأراض بواسطة من لا يملكون "الأصل" فيها مقابل أداء "الجواداب" (٧) لأصحاب حق "الأصل" فى الأرض .

ويعيش الهدندوه فى مجموعات عائلية صغيرة كثيرة العدد تنتشر على أرض القبيلة الواسعة ، ولا تتجاوز كل مجموعة منها ثلاث عائلات إلا نادرا بسبب ظروف البيئة القاسية ، حين حتم شح الكلا وقلة الماء على المجموعات القبلية الإرتحال من مكان إلى آخر بحثاً عن الرزق ، وهكذا كتب على هذا المجتمع الذى يقوم على أسس قبلية أن ينشطر أقليمياً إلى شتات من وحدات صغيره يربط بينهم جميعاً إحساس مشترك بأصرة الغربى والتمتع بحقوق قبلية جماعية والخضوع لشيخ واحد(٨) .

والهدندوى بطبعه قليل الإختلاط بالغرباء ، ويعاملهم فى حذر إذا التقى بهم ومن هنا اشتهر عنه ما عرف بأسم "السكناب" (٩) وتلك صفة قديمة سجلها عليهم تيودور الصقلى فى القرن الأول قبل الميلاد (١٠) .

وثمة عدد من العوامل كان لها أثرها فى تحديد العلاقة بين الهدندوه وغيرها من القبائل ، ومن تلك العوامل موقع الهدندوه المتوسط بين القبائل الراعيه الأخرى (الأمرار ، والبشارين ، البنى عامر ، الشكريه وأخيراً الرشايده وغيرهم) فقد طمعت تلك القبائل فى أرض الهدندوه بسبب ما تتمتع به من ثراء نسبى فى الكلأ والماء خصوصاً فى دلتا الجاش فوجد الهدندده أنفسهم فى صراع مرير مع

---

(٦) الإمارة : هو حق الإنتفاع بمساحة من الأرض فى الرعى أو الزراعة أو السقيا وإقامة الخيام مقابل أداء جعل عينى يسمي «الجواداب» لمن يتمتع بحق ملكية «الأصل» على تلك الأرض.

(٧) الجواداب : جعل عينى يؤديه صاحب حق الإمارة على الأرض لمالكها الأصلى، ولا يفرط الهدندوه فى جباية الجواداب ليظل دليلاً على ملكيتهم الأصلية لها .

(٨) T.R.H. Owin: The Hadendowa, SNR Vol. XX Part II 1837 pp. 201 .

(٩) السكناب: لفظ هدندوى يعنى الصمت والسكون وهذه عادة بجاوية عموماً وهدندوية خصوصاً فحواها أن يسكن الشخص حين يقابل غريباً ولا يتكلم معه إلا بعد أن يطمئن إليه.

(١٠) T.R.H. Owin: Ibid PP. 190 .

تلك القبائل دفاعاً عن مراعيهم ومصادر مائهم وكذلك دفاعاً عن حقوقهم التقليدية التى أسسوها على تلك الأرض بحد السيف أو "حفاظاً على هيبتهم كملاك للأرض" ، فى رأى أحد المفتشين الأنجليز قبل خمسة وخمسين عاماً (١١)

وقد ولدت الظروف التى يعيشها الهدندوه "حساسية شديده - لديهم - تجاه الغرباء ، حتى باتو يستثارون سريعاً حين يطرح موضوع علاقاتهم القبلية (١٢) .

ومن الملاحظات التى تسترعى الإنتباه أن الأوربيين الذى مروا ببلاد الهدندوه أو إتصلوا بهم من التجار والرحالة والموظفين وغيرهم لم يسجلوا عنهم إلا الجانب السئ من حياتهم ومن تلك الملاحظات التى سجلوها "إنهم لا يتكلمون مع غرباء ولا يحفلون بشئ (١٣)" . وأنهم مسلمون سيئون جداً ويتحلون بعادات خسيسة قذره(١٤) وأنهم أشرس من حيوان الغاب (١٥) وأنهم متوحشون وغادرون وقطاع طرق وعنصر تهديد مستمر لمن يقترب منهم (١٦) وهم عموماً قبيلة سيئة جداً (١٧) يتميز أفرادها بالكذب والبلاده (١٨) وهم أكثر المتوحشين عناداً وعجزاً ويجب إقتلاعهم من مناطق سكناهم ونقلهم إلى مناطق أخرى حتى يمكن الإتصال بهم وعجم عودهم (١٩) وآخر هذه الأوصاف ذلك الذى قاله عنهم المستر أوين أشهر حاكم أنجليزى لمديرية كسلا وأكثر الناس معرفه بهم ودراية بأحوالهم بحكم العمل والدراسة حيث قال «كان الهدندوه من قديم الأزل ومايزالون أكثرهم جماعات البجة تأخراً وصلفا ، وأكثرهم خشونه فى الحديث وأسوأهم نطقاً فى الكلام وأكثرهم عناداً وميلاً إلى الفرار إلى جحورهم ، ونسبة

(١١) Kassala Province, File No. KP/66F-4/5-1, August 1933 .

(١٢) T.R.H. Owin: Ibid. PP. 189-190 .

(١٣) قال ذلك تيودور الصقلى الذى زار بلادهم فى القرن الأول قبل الميلاد.

(١٤) وصفهم بذلك Don Juan de Castro الذى زار منطقة سواكن عام ١٥٤٠ ,

(١٥) قال عنهم ذلك الرحالة بروس الذى مر ببلادهم عام ١٧٧١ .

(١٦) هذا ما سجله عليهم بوركهاردت عام ١٨٤١ حين مر ببلادهم وهو فى طريقه من بربر إلى عطبرة إلى الجاش .

(١٧) وصفهم بذلك صمويل بيكر عام ١٨٦١ الذى زار بلادهم آنذاك .

(١٨) قال ذلك عنهم الرحالة Josia Williams وهو أحد رحالة القرن التاسع عشر.

(١٩) قال عنهم ذلك الصياد البريطانى Abel Chapman عام ١٩٢١ وهو يمر ببلادهم.

القتل والشجار بينهم مرتفعة وأنهم دأبوا على إحتقار جيرانهم المساكين من بنى عامر»[٢٠]. محبون للقتال ولا يعترفون بسلطان الحكومة عليهم وهو أمر لم يصل أبداً إلى قمم جبالهم[٢١] وعلى العكس لهم وقائع مشهوده فى مقاومة الحكومة والتصدى لها .

وإذا كان ماسلف هو وصف الأوربيين لهم فإن واحداً من كبار الموظفين السودانيين من سكان مدينة كسلا قال فيهم "الحياه على هذا النحو قاسية ، وتركت هذه القسوه بصماتها على الناس فأتصفوا فى سابق عهدهم بقسوة الطباع وشدة الشكيمة وخروجهم على كل قانون وشريعة يقتتلون لأوهى الأسباب حيث القتل بطولة والسرقة شرف وقطع الطريق والسلب والنهب والإختطاف ممارسات يتغنى بها الشعراء فى فخر وإعتزاز [٢٢]» .

تلك كانت حال قبيلة الهدندوه منذ القدم ، وظلت على ذات الحال إلى ما قبل ثلاثين عاماً دون تغيير برغم مرور السنين حتى وبرغم تغير بعض الظروف من حولهم [٢٣]» .

---

(٢٠) O.T.R.H. Owin: Op. Cit. PP. 206 .

(٢١) مثل مسنادتهم لحركة الفكى آبكر عام ١٩١٤ التى قتل الهدندوه فيها البريطانى كونرى بك Conry Bey قرب ستيت. وحركة الفكى محمد سمبو عام ١٩١٨ فى كسلا. وكانت أشهر وقائعهم عام ١٩١٩ حين اغتصبت السلطة أبلهم لإجبارهم على دفع الضرائب فتمكنوا من استرداد أبلهم بالقوة دون أن تتمكن الحكومة م عمل أى شىء .

(٢٢) هو الأستاذ محمد شريف فضل مدير عام قطاع التربية والتوجيه - وزارة الخدمات - الإقليم الشرقى . كسلا ، وقد زارهم واختلط بهم ودون ذلك فى مذكره غير مطبوعة بعنوان «همشكوريب واحة القرآن في شرق السودان» ص٢ .

(٢٣) ومن هذه الظروف قيام مشروع دلتا الجاش الزراعى ووفود جماعات من غير البجة للعمل فى ذلك المشروع والإقامة فى المنطقة مثل الهوسا والفلاتا والبرنو والبرقو والرشايدة والجعليين والمناصير والدناقلة وغيرهم. لكن الهدندوه ظلوا بعيدين عن أولئك الغرباء ، وظلوا فى معسكراتهم التقليدية على حواف المشروع ، لأن لأولئك المهاجرين الجدد في رأى الهدندوة- قيم وأعراف متباينة تهدد الحياه العائلية التقليدية للهدندوه، وبات من الصعب كثيراً على الهدندوه أن يحضروا عائلاتهم قريباً من دلتا الجاش مكان وجود المهاجرين الجدد. وفى الوقت الراهن هناك المهاجرون الأرتريون بطباعهم المختلفة تماماً عن الهدندوه.

ثالثاً : رحلاتى فى مناطق الهدندوه :

وقد مررت ببلاد الهدندوه فى عام ١٩٥٤ وفى عام ١٩٥٧ وأنا فى طريقى إلى بورسودان فى كلتا الرحلتين ، ورأيت أعداداً من الهدندوه وكانوا شبه عراه إلا من أسمال تستر عوراتهم ، تعلو وجوههم سمات القلق ، شعر رؤسهم مشعت غرست فيه قطعة من خشب رفيعة يستخدمها الرجل منهم لحك فروة رأسه عند الحاجة، ويحمل كل واحد منهم عصا وفى حزامه سكين . ولم تكن هذه الصوره تختلف عن الصور التى نشرها أوين T . R . H . OWIN أشهر مديرى مديرية كسلا من الأنجليز عام ١٩٣٧ فى مجلة "السودان فى مدونات ووثائق" .



(صورة هدندوى الملحق (أ) المرفق)

وبعد رحلتى الأولى بحوالى ثلاثين عاماً كنت أسمع عن التغير الذى حدث لقبيلة الهدندوه والتقيت عام ١٩٨٢ مع أحد أبناء القبيلة الذى يتلقى تعليمة العالى بالمدينة المنوره [٢٤] فأكد لى ما سمعته . وأثناء رحلة عمل بالسودان رتبت أمر زيارة القبيلة فى ديارها البعيدة عن العمران ، وأخترت منطقة الحدود السودانية الأثيوبية التى يطلق عليها إداريا "قرى ريفى الحدود" بإعتبارها منطقة سكنى جانب مهم من أبناء قبيلة الهدندوه (قبيلة الجميلاب) فضلاً عن أن المنطقة لاتمر بها مواصلات وتنعزل تماماً عن العالم فى فصل الخريف (الأمطار) وهى أمور لها قيمتها فى البحث .

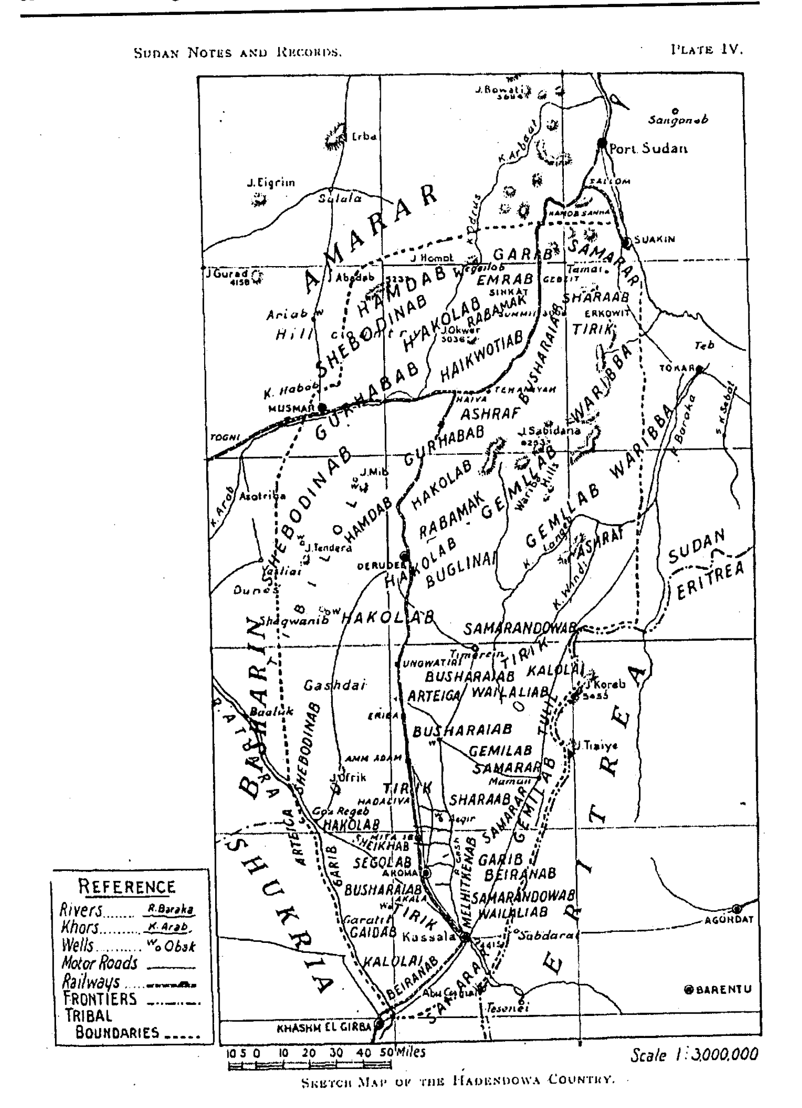
وكانت الرحلة من كسلا إلى همشكوريب تستغرق أكثر من خمس عشرة ساعة وقد عزمت على أن أصل همشكوريب قبل الغروب ، لذلك كان على أن أبدأ رحلتى مبكراً وفعلاً غادرت كسلا فى الساعة الثالثة والنصف صباحاً أى قبل الفجر بساعتين ، ورافقنى فى رحلتى الشيخ محمد فضل "مدير عام قطاع التربية والتوجية" بالأقليم الشرقى وقد سبقت له زيارة المنطقة قبل ذلك بعام فى رحلة عمل ، كما كان معنا دليل من أبناء الهدندوه وسائق السياره ، والطريق عبر "قرى ريفى الحدود" وعر غير ممهد لا تقوى على السير فيه إلا سيارات من نوع خاص وبرغم قوة السيارة التى أستخدمتها فإن إطاراتها كانت أحياناً تغوص فى الرمال عند عبور بعض الأودية الجافة .

رابعاً : مجتمع الهدندوه الجديد :

وقد غطت السيارة قرى المنطقة واحدة بعد أخرى إبتداء ، من قرقر ودرست وتوابيت وإيلات أيوت وتهداى أسيس وتلكوك وعدرديب وبودروت ومامان وأخيراً همشكوريب القرية الأم التى وصلناها قرب الغروب ، وكثير من هذه القرى لم يكن له أثر على الخرائط التى رسمت فى الثلاثينيات من هذا القرن ومنها الخريطة التفصيلية لبلاد الهدندوه التى نشرها المستر أوين مدير كسلا عام ١٩٣٧ بمقياس رسم ١ : ٣,٠٠٠,٠٠٠ .

---

(٢٤) هو الشيخ محمد أحمد عيسى الشهير باسم الشيخ محمد أحمد عيسى النميرى .



(الخريطة أ الملحق (ب) المرفق)

وكل قرية من القرى التى مررت بها كانت تضم عشرات المنازل ، تزيد أو تقل تبعاً لعدد سكان القرية ، وكذلك خلوتان واحدة للرجال وأخرى للنساء منفصلة عنها تماماً هذا بالإضافة إلى عدد قليل من آبار الماء وقد تجمع عليها الهدندوه وفى بعض المناطق يشاركهم فيها جموع المهاجرين الأرتريين. ومنازل كل قرية وخلوتاها مصنوعة من خشب الدوم والقش ولا أثر لأى بناء بالحجر أوالطوب غير ثلاثة مبان أحدها مدرسة بنات حكومية مهجورة في قرية همشكوريب - سيأ تى الحديث عنها - ووحدتان صحيتان تحت الإنشاء فى قريتي تلكوك وتمالح تقوم على بنائها فتاتان هولنديتان تابعتان للكنيسه الهولندية. ومن الامور الملفته للنظر النار المشتعله الى جوار الخلوه فى كل قرية زرتها قبل الشروق ، وتظل مشتعله كذلك الى وقت الشروق . وحول تلك النار جلس الذكور من أبناء القرية وظهورهم اليها يتلون القرآن ويحفظونه فى الألواح الخشبية التقليدية على يد مُحفظ .

ومهما يكن من أمر فإن ظهور قرى جديدة على الخريطة وقيام المنازل والخلاوى فيها واستقرار البدو الرحل دليل قوى على التغير الاجتماعى الكبير الذى حدث لقبيله الهدندوه فى الثلاثين سنة الأخيره.

وكان قد بلغ أهالى قرى ريفى الحدود خبر إعتزامى زيارتها ، لذلك تكرر فى كل قرية مررت بها منظر خروج كوكبة من أبناء القرية على هجنهم يلوحون بسيوفهم خارج حرم القرية حتى إذا لمحوا السيارة هرعوا إلى القرية يحملون إلى أهلها نبأ وصولنا ، وعند مدخل القرية يتجمع أهلها لإستقبالنا وهم ينحرون الأبل والبقر كنوع من الترحاب والتكريم . وأثناء ذلك تدوى هتافاتهم التى فهمت منها عبارة التهليل "لا إله إلا الله محمد رسول الله" كما التقطت أذنى هتافا أخر "أيتا نينا - أيتا نينا" وقد ذكر لى مرافقى أن معناه فى لغة الهدندوه "جئتمونا بالخير - جئتمونا بالخير" .

ولشدة ما كانت دهشتى أن عينى لم تقع على منظر الهدندوى الذى رأيته فى الخمسينيات بل كل الرجال يلبسون ثياباً نظيفة بيضاء تتكون من سروال وقميص وصديريه والرأس عليه الغطاء السودانى التقليدى وعلى الأكتاف قطعه طويله من قماش أبيض تدور حول الرقبة وأختفى العرى والأسمال الباليه كما أختفى الشعر الأشعث الكث تماماً .





(صورة هدندوى حديث - الملحق (جـ) المرفق)

وكان الناس فى كل قريه أمر بها يحرصون على أن أزور خلوتى بالقرية - خلوة النساء وخلوة الرجال - وأماكن سكنى الدارسين الوافدين على خلوتهم ليثبتوا مدى إقبالهم على التعليم والدراسة. والواقع أن الخلاوى كانت مملوءة بالدارسين من مختلف الأعمار الذين يحفظون القرآن ويتعلمون اللغة العربية ومبادئ الدين والسيره النبوية ومبادئ الحساب ، وما كان يجرى فى خلوة الرجال يجرى مثله فى خلوة النساء ، والإقبال كبير على الدراسة فى كلتا الخلوتين بكل قرية .

أبعد هذا نحتاج إلى دليل على التغير الثقافى بل الطفره الثقافية الضخمة التى حدثت فى قبيلة الهدندوه ؟؟

خامساً : زيارة همشكوريب :

وحين مالت الشمس إلى المغيب أشار الدليل إلى كوكبة ضخمة من الرجال فوق ظهور الهجن على مرمى البصر ، وذكر أنهم أبناء "همشكوريب" القرية الأم فى منطقة الحدود ، وما أن أقتربنا من موقعهم حتى أطلقو العنان لهجنهم صوب همشكوريب ليبلغوا أهلها خبر وصولنا ، وخارج القرية كان بأنتظارنا جمع غفير من أهلها على رأسهم الشيخ طاهر بيتاى متعهد الخلاوى بعد وفاة شقيقه الشيخ على بيتاى الرجل الذى كان وراء هذا التغيير الضخم بين الهدندوه. والشيخ طاهر بيتاى شيخ وقور ذو لحيه كثه وخطها الشيب ، وهو أمى ولا يتكلم اللغة العربية ، وصوته خفيض فى نبراته تواضع جم وورع وفير وبساطة متناهية . ووصلت إلى ساحة القرية بجوار خلوة الرجال مع الشيخ طاهر حيث كانت الجموع الغفيره تهلل وترحب "لا إله إلا الله محمد رسول الله" "مرحب مرحب أيتانينا أيتانينا" .

وخلوة الرجال فى همشكوريب بناء ضخم من خشب الدوم والقش ، أرضها غير مفروشة وتضم حوالى سبعة آلاف دارس ينتظمون فى أكثر من خمسين حلقة ، ويتوسط كل حلقة واحد من حفظة القرآن الكريم يتعهد أفراد الحلقة فيحفظهم القرآن الكريم ويعلمهم كتابة اللغة العربية وقراءتها وجانبا من علوم الدين والسيره النبوية ومبادئ الحساب ، ويتباين أفراد كل حلقة فى اللسان واللهجات والقبائل كما يتباينون فى الأعمار فإبن الخامسة يجاور إبن السبعين



(منظر لذلك الملحق (د) المرفق)

فى الحلقة . وإبن الخامسة يتعلم الكتابه على أديم الخلوة بأصابعه حتى يكبر ويجيد القراءة والكتابة فيتسلم لوحاً خشبياً يكتب عليه مثل الكبار .

وأفراد الحلقة جميعاً منهمكون فى التعليم فبعضهم يكتب فى لوحه آيات من القرآن الكريم ليحفظها وبعضهم يحفظ ما كتب وبعضهم يسّمع الشيخ ما حفظه والشيخ يقظ واع منتبه للجميع بشكل مدهش ، وما أن ينتهى أحد الدارسين من تدوين آية على لوحه حتى يبادر الشيخ بجزء من الآية التى دونها فيكمل له الشيخ الآية ويلقى عليه الآية التالية لها فى الحال دون أن يسأل عن السورة التى يكتب منها الدارس ، على أن وجه الغرابة أن الأسئلة ترتفع للشيخ فى وقت واحد من أكثر من دارس ، وهو يجيب على الجميع فى إقتدار رغم إختلاف السور ، وهذا دليل على درجة الإتقان العالية فى الحفظ والإستيعاب الكاملين اللتين يتمتع بهما شيخ الحلقه ، ويحدث هذا العدد الضخم من الدارسين داخل الخلوه دويا هائلاً نتيجة ارتفاع الآيات على الألسنة فى كل الجهات فيحس المرء أن الجميع قد أجادوا حفظ القرأن واستوعبوا سوره وآياته .

ويبدو أن مرافقى داخل الخلوه أدرك دهشتى ليقظة شيوخ الحلقات وتعاملهم مع تلاميذهم فى إقتدار ودون تردد وسرعه فائقه فسألنى عن رأيى فى "الرميه"[٢٥] والحق أن المنظر كله كان مثيراً ويأخذ بمجامع القلوب ويدعو لكثير من التفكير والتأمل .

ومن خلوة الرجال إنتقلت إلى خلوة النساء وهى بعيده عنها وإن كانت شبيهه بها فى كل شيئ حتى فى الإتساع إلا أن سوراً من سعف الدوم المجدول ولا يدخلها الرجال لأن المجتمع محافظ جداً . وقد أقتربت من السور لأستطيع تسجيل ما يدور فيها صوتاً وصوره ، فوجدت الخلوه قد أكتظت بالنساء ، وأصطحبت بعضهن أطفالهن وقد أخبرونى أن بالخلوه خمسة آلاف إمرأه يحفظن القرآن ويتعلمن العلم الدينى واللغة العربية والسيرة النبوية ومبادئ الحساب مثل الرجال ، والنساء كلهن محجبات حجاباً كاملاً حتى أنك لا تدرى أن كن مقبلات أم مدبرات .

---

(٢٥) «الرميـة» : إصطلاح فى الخلوة ربما يقصد به أن الدارس فى الحلقة يرمى أستاذه بالسؤال فيرميه شيخه بالإجابة الفورية دون إبطاء .







منظر الصبى الملحق (هـ) المرفق





(صورة للنسوة داخل الخلوة والمرفق)

وفجأة وجه الشيخ طاهر بيتاى - من خارج الخلوه - حديثاً فأرتفعت أيدى النساء جميعاً بألواح القرآن ، ثم أصدر الشيخ نداء آخر فأرتفع صوت دارسة من الدارسات يتلو القرآن تلاوة مجودة ممتازة ، وبنداء ثالث سمعت أخرى تردد حديثاً لرسول الله ﷺ بسنده كاملاً ، وأثر نداء رابع سمعت أخرى تذكر شطراً من السيرة النبوية وبعدها تحدثت خامسة فى إحدى أبواب الفقه وسادسة تحدثت عن بعض أحكام المواريث وهكذا (٢٦) . وقد لفت إنتباهى أنه إذا أخطأت واحدة صوبت لها كل النسوة الحاضرات خطأها ، مما يدل على متابعة الجميع لما تقول فضلاً عن أن ذلك أقنعنى بأن الأمر ليس مرتباً ، خصوصاً وأن نفس المنظر - بشكل مصغر - حدث فى خلاوى النسوة فى القرى الأخرى التى زرتها .

وفى رأيى أن خلوة النساء ، فضلاً عن خلوة الرجال تمثل تغيراً ثقافياً جذرياً بين قبيلة الهدندوه ، وأن مجرد جمع هذا العدد الغفير من النسوه لتلقى العلم هو فى حد ذاته أشبه بمعجزة خصوصاً وأن ما حدث تم فى مجتمع كان يعتبر مجرد التطرق للحديث عن المرأة عيباً كبيراً ، فى مجتمع يرفض النمط الحكومى لتعليم البنات لأسباب لها وجاهتها ، إضافة إلى أن هذا التغيير قد تم بجهود فردية وإمكانات بسيطة جداً فى وقت فشل فيه كثير جداً من مشاريع حكومات العالم الثالث لتعليم الكبار .

وخلوة همشكوريب تمد سائر الخلاوى فى بلاد الهدندوه وخارجها بالمحفظين وقد عرف بعض الدارسين عن الشباب والشابات الهدندويين فى همشكوريب وغيرها الطريق إلى الجامعة فى أم درمان وفى المملكة العربية السعودية ، وبعضهم عاد إلى الخلوة مرة أخرى بعد أن أنهى دراسته الجامعية .

ولفت نظرى أمام خلوة الرجال شجرة سنط (أكاكيا) ضخمه يتدلى من بعض أغصانها عدد من الحاجيات الشخصية مثل مسبحه وسكين وخاتم وما إلى ذلك وحين سألت عن ذلك أخبرونى أن من يجد لقطه يعلقها على هذه الشجره ومن أفتقد شيئاً يبحث عنه على غصونها .

---

(٢٦) لدى تسجيلات صوتية كاملة لهذه الزيارة يتضح فيها كل ماذكرت .

أليست هذه الشجره فى حد ذاتها دليلاً قوياً على التغير الضخم الذى حدث فى طباع الهدندوه ، وأين هذا مما صوره الرحالة والتجار والموظفون قبل ثلاثين عاماً من تأصل عادة الخطف والسلب والسرقة فى جماعات الهدندوه .

ولأستكمال الصوره سألت عن حوادث القتل بين الهدندوه فأخبرونى أنه لم تعد هناك حوادث قتل للقتل على الإطلاق . ثم أليس فيما صادفته دليل على تراجع عادة نفور الهدندوه من الأجانب ؟؟

أليس فى كل ذلك علامات واضحة وأدله ساطعة على ما أصاب الهدندوه من تغير إجتماعى وثقافى .

وكما سبق القول فأن شطراً من الدارسين فى خلوة همشكوريب وبعض خلاوى القرى الأخرى فى منطقة ريفى الحدود من غير أبناء الهدندوه من شمال السودان وغربه وجنوبه . بل ومن خارج السودان من نيجيريا وأوغندا وفدوا على الخلاوى لحفظ القرآن بعد أن ذاعت شهرتها ، فالآباء يرسلون أبناءهم إلى الخلوه ويتركونهم لدى شيخ الخلوه الذى يتكفل بإقاماتهم وإعاشتهم بل وكسوتهم فى أحيان كثيرة بدون مقابل ، ولفت إنتباهى أن بين الدارسين بعض الصيادله والمهندسين والأطباء الذين تفرغوا للقرآن .

ويصرف الدارسون من شونة الخلوه نصيبهم من الحب كل يومين بنظام خاص، وفى الشونة طاحونة يمكن لأى شخص أن يطحن نصيبه من الحب فيها أن أراد ، ويبلغ مجموع ما يصرفه الشيخ طاهر بيتاى يومياً على الدارسين فى هشكوريب وحدها أربعه وثلاثين جوالا من الحب (الفتاريتا أو الذره العويجه) ويدبر الرجل جانباً من هذا الحب من مشروع زراعى أقامه فى مدينة القضارف إضافه إلى بعض زكاة الزروع التى يرسلها إليه أهل الخير ، ولا يقتصر صرف الحب على الدارسين فقط بل للمعوزين والمحتاجين من الهدندوه نصيبهم فى الشونه .

ونتيجة لذيوع شهرة خلاوى الشيخ على بيتاى فقد نشأت لها فروع خارج منطقة الهدندوه فى شمال السودان وغربه وجنوبه .



(الملحق (ح) المرفق)



(بيان بهذه الخلاوي الملحق (ز) المرفق)

سادساً : الشيخ على بيتاى :

ويبقى السؤال : من هو الشخص الذى أحدث هذا التغيير ؟

إنه الشيخ على بن السيد محمود الملقب بيتاى ، ولد بمنطقة همشكوريب فى ١١ سبتمبر ١٩٣٠ م ومات والده وهو فى سن الرابعه ، وبدأ حياته على نمط يشابه ما تواتر عن كثير من مشايخ السودان ، وترك سيرته وفلسفته وتعاليمه فى كتاب بعنون "الهداية إلى الطريق المستقيم" .

وكانت دعوة الرجل تقوم على سبعة أسس هى :

١ - التوبه النصوح بنيه خالصة .

٢ - صلاة الجماعة ولو بإثنين .

٣ - إستقرار العرب الرحل .

٤ - قراءة القرآن شيبا وشبابا ورجالاً ونساءاً مع معرفة أمور الدين .

٥ - التسامح فيما حصل من الناس فى الماضى لوجه الله .

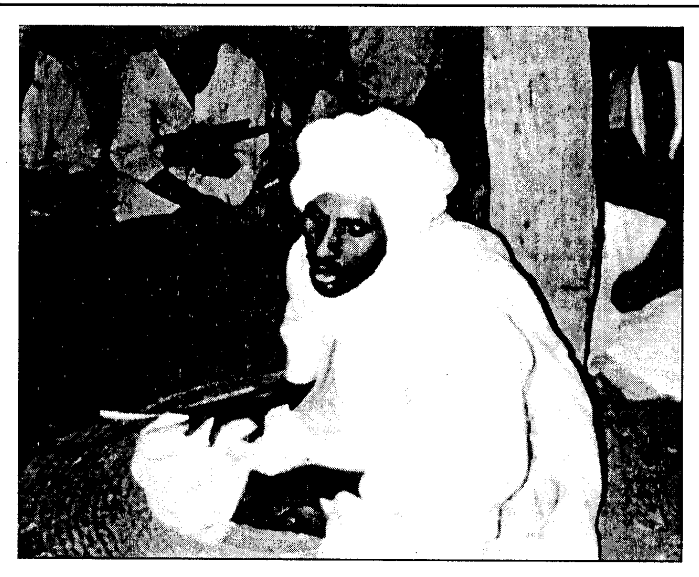
٦ - عدم التفرقة بين المسلمين وإن إختلفت أنواعهم ولهجاتهم .

٧ - معرفة طريق المعيشة فى الحياه لكسب الرزق الحلال والإعتماد على النفس.

وقد جاهد الرجل كثيراً فى سبيل نشر دعوته ووضعها موضع التنفيذ وأمرهم بارتداء ملابس كاملة فحلق للرجال شعورهم التى أشتهروا بها وصنّفتهم تحت إسم "Fuzzy Wuzzy" .

ونجح الرجل فى تحقيق كثير مما دعا إليه . لدرجة جعلت حكومة السودان الأنجليزية على أيام الحكم الثنائى تنظر للرجل نظرة شك وريبة فنفته إلى وادى حلفا التى ظل بها حتى أفرج عنه الحكم الوطنى بالسودان عام ١٩٥٦ .

وواصل جهوده وجهاده حتى مات فى ١٨ يناير ١٩٧٨ وتعهد الخلاوى من بعده أخوه الشيخ طاهر بيتاى .



(نبذة من تعاليم الرجل وشطر من سيرته (الملحق «ى» المرفق)

سابعاً : الخلاصة :

ومهما يكن من أمر فإن ما حدث بين الهدندوه يعتبر بكل المقاييس طفرة إجتماعية وثقافية ضخمه وتغيراً كاملاً فى حياة الناس وإضافة على خريطة بلادهم . وبات الأمر يحتاج إلى تغيير المفاهيم والمعلومات القديمة عن الهدندوه فى كتب الأنثروبولوجى والإجتماع وغيرها .

كما أن تجربة الشيخ على بيتاى مع الهدندوه تستحق الدراسة المتأنية من جانب كثير من الجهات لتحديد العناصر المؤثرة فيها ومدى إمكان تطبيقها فى مناطق أخرى من حوض النيل بعد أن كان ومايزال لتعاليم الرجل صدى واستجابة فى مناطق من حوض النيل خارج بلاد الهدندوه خصوصاً وأن هذا التغيير الذى حدث ومازال يحدث إلى الآن قد تم بجهود ذاتية متواضعة غير مكلفة فى زمن قياسى ونجع فى تحقيق ما فشلت فيه حكومات كثيرة ، من أجل ذلك يمكن أن تشمل الدراسة المطلوبة تحديد وسائل وأساليب دفع الحركة للأمام وإثراء التجربه فى جوانبها الإيجابية وإزالة ما يصادفها من معوقات ومدها بعناصر القوة حتى لاتخبو نار القرآن الكريم فى شرق السودان .

والله ولى التوفيق

خلاوى الشيخ على بيتاى
خارج منطقة ريفى الحدود

منطقة الشواك :

خلوة قرية العمارة الشريف حسب الله (٣٠ دراساً) خلوة حلة القيداب (٧٠ دارساً) خلوة قرية شوط (١٢٠ دارساً) و (٧٠ دارسه) خلوة مقويه (١٦٠ دراساً) خلوة حى الهوسه (١٠٥ دارساً) خلوة حى السلكك (٢٠ دارساً) خلوة قرية المريبيعه (٤٥ دارساً) خلوة مشلاييب (٥٠ دارساً) خلوة حلة الشرفه (٣٥ دارساً) خلوة تهاتيب (٢١ دارساً) و (٢٥ دارسه) .

منطقة القضارف :

خلوة ديم بكر (٥٠٠ دارساً) خلوة حلة سفاوه (المقرن) (٥٠ دارساً) خلوة حلة عصار (٢٥ دارساً) خلوة حله كامبو (٣٠ دارساً) خلوة القليعه (٢٥ دارساً) خلوة ود أبو عسل (٣٥ دارساً) خلوة أم سوانى (٣٥ دارساً) خلوة الثلاثاء (٣٥ دارساً) خلوة المحرقات (٣٥ دارساً) .

منطقة عطبره :

خلوة حله مرزوقه (٧٠ دارساً و ٥٠ دارسة) .

منطقة بربر :

خلوة حلة أم على (٧٠ دارساً و ٥٠ دارسة) خلوة حلة العرابية (٣٠ دارساً) .

منطقة الدامر :

خلوة البشارين (٥٠ دارساً) .

منطقة أم درمان :

خلوة حلة الكوع (٥٠ دارساً) خلوة حلة العامره (٤٠ دارساً) خلوة فتاشه مسجد وادى النيل (١٠٠ دارساً و ٨٠ دارسة) خلوة حلة الصغير (٤٠ دارساً) .

الخرطوم بحرى :

خلوة حلة أم عوف (الحامده) (٦٠ دارساً و ٦٠ دارسة) خلوة حلة البطاحين العمه (٥٠ دارساً) خلوة حلة المسلميه (٨٠ دارساً) .

حلفا الجديده :

خلوة حلة رناجه (٣٥ دارساً) .

كردفان والنهود :

خلوة حلة المعاركة (٣٠ دارساً) خلوة حلة قيت أبو القاسم (٣٥ دارساً) خلوة حلة التمييده (٤٨ دارساً) خلوة حلة أرمله (٤٠ دارساً) خلوة أم عشى (٥٠ دراساً) خلوة حلة ود سلمان (٣٨ دارساً) خلوة أم بواطى (٤٩ دارساً) خلوة حلة أم أرضت (٤٢ دارساً) خلوة أم أرمله (٥٠ دارساً) خلوة حلة ودنيده (٨٠ دارساً) خلوة حلة ود نيده الشعبيه (٨٠ دارساً) خلوة حلة طرير العيش (٣٣ دارساً) خلوة حلة ود تقليد (٣٧ دارساً) خلوة حلة نايف (٤٠ دارساً) خلوة حلة ود جمر (٤٥ دارساً) خلوة حلة أريد ود مكى (٦٠ دارساً) خلوة حلة أمر تريقت نايل (٤٥ دارساً) خلوة حلة تربعت أجب (٥٥ دارساً) خلوة حلة الجوير (٤٠ دارساً) خلوة حلة أبو كومت (٥٠ دارساً) خلوة حلة ود دم جمد (٣٢ دارساً) خلوة حلة عشيسات (٤٣ دارساً) خلوة حلة دوكى أم ريل (٥٧ دارساً) خلوة حلة ود دكرت (٧٠ دارساً) خلوة حلة أم هشاب (٦٥ دراساً) خلوة حلة تريه (٦٠ دارساً) خلوة حلة أم مشالايه (٦٠ دارساً) خلوة حلة دقلوس (٦٤ دارساً) خلوة حلة جبريل (٥٥ دارساً) خلوة حلة الصبيحه (٥٠ دارساً) خلوة حلة بوكوده (٨٠ دارساً) خلوة حلة آدم الياس بالنهود (١٠٠ دارساً) .

الشـــيخ على بيتــاى

عجـاله حول بعض مبادئـه وشطر من سـيرته

هو الشيخ على بن السيد محمد العاقب بيتاى ، ولد بمنطقة همشكوريب فى ١١ سبتمبر ١٩٣٠ ومات والده وهو فى سن الرابعه ، وبدأ حياته على نمط يشابه ماتواتر عن كثير من مشايخ السودان وترك سيرته وفلسفته وتعاليمه فى كتاب بعنوان "الهدايه إلى الصراط المستقيم" .

وقد جاهد الرجل كثيراً فى سبيل نشر دعوته ووضعها موضع التنفيذ فقد نجح فى إخماد نار الحروب التى كانت مستعرة بين الهدندوه وغيرهم فى شرق السودان خصوصاً تلك التى أستمرت بين فبيلة الجميلاب التى ينتمى إليها الشيخ على بيتاى ، كبرى بطون الهدندوه وقبيلة بنى عامر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى أوائل الخمسينات وراح ضحيتها نفر كثير .

ولما دعا الشيخ على بيتاى القبائل للإستقرار والإجتماع على القرآن ، لقيت دعوته أرضاً خصبه وأذانا صاغية فإنتشرت الدعوة وقامت قرى كاملة لم تكن من قبل شيئاً وعمرت حلقات القرآن وقامت الخلاوى على تحفيظه فى كل تجمع سكانى .

وامتد نشاطه إلى أرتريا داخل حدود أثيوبيا وقامت بها خلاوى تشبه خلاويه فى السودان .

وقد نظرت حكومة السودان الأنجليزية إلى دعوة الشيخ على نظرة ريبة وشك بعد ما رأوا أثرها فى تطوير حياة البدو بسرعة مذهله وقيام القرى بين عشيه وضحاها ، فأستعدت السلطه البريطانية الشيخ على بيتاى وطلبوا منه الإقلاع عن دعوته وأن يعيد الناس إلى بداوتهم ولكنه رفض فنفتـه السلطه إلى وادى حلفا، ولم يتوقف الرجل عن الدعوة هناك واتصلت به قبائل شمال السودان

وغربه وانتشرت دعوته وفتحت الخلاوى هناك ، وظل الرجل فى منفاه حتى عام ١٩٥٦ حين أفرج عنه الحكم الوطنى إلى أن توفى بعد ذلك فى ١٨ يناير ١٩٧٨ .

وكانت دعوة الرجال تقوم على مبادئ سبعه هى :

١ – التوبه النصوح بنيه خالصه .

٢ – صلاة الجماعه ولو بأثنين .

٣ – استقرار العرب الرحل .

٤ – قراءة القرآن شيباً وشبابا ورجلاً ونساءاً مع معرفة أمور الدين .

٥ – التسامح فيما حصل بين الناس فى الماضى لوجه الله .

٦ – عدم التفرقة بين المسلمين وإن أختلفت أنواعهم ولهجاتهم .

٧ – معرفة طريق المعيشة فى الحياة لكسب الرزق الحلال والإعتماد على النفس .

وواضح أن هذه المبادئ السبعة البسيطة تمثل حركة إصلاح إجتماعى وثقافى فى آن واحد ويظهر الجانب الإجتماعى فى المبدأ الثالث الخاص بدعوة الرحل إلى الأستقرار ، وقد نجح هذا الشطر من دعوته نجاحاً كبيراً حين ظهرت على الخريطة فى بلاد الهدندوه قرى لم تكن موجودة من قبل ، كما كانت دعوته إلى الكسب من عمل اليد فى محلها ودافعاً للناس على تغيير أسلوب حياتهم إلى الأحسن ومن أقواله فى هذا الصدد :

"ولا تعتمدوا على غيركم فى الدنيا فأعملوا بأيديكم وأكتسبوا الحلال وأياكم والشحده إلا على وجه تقبله الشريعة الإسلامية"

ونتيجة لدعوة الرجل إنخرط الناس فى أعمال وحرف جديده كالزراعة والتجارة وتحسنت أحوالهم تحسناً نسبياً بعد أن ذاقوا حلاوة الكد والسعى وراء الرزق .

كما حث الرجل الناس على التحلى بالفضائل من الأعمال وطلب منهم حسن المعاشرة لأهليهم ونسائهم ، ودعا إلى محاربة المكيفات وهجر السجائر والسعوط والقهوة .

كما نادى بنسيان الأحقاد والتسامح وعدم التفرقة بين الناس وحذر من تقديس الأفراد وهاجم عادة إقامة المآتم وغير ذلك . وفى مجال التربية والتعليم ركز الرجل على أهمية التعليم فى رفع مستوى الفرد ونادى بتعليم البنت إلى جانب تعليم الولد وعن تعليم البنت يقول أنه "شتان ما بين متعلمة وجاهلة ﴿لا يستوى الأعمى والبصير﴾ ، إذا الجاهلة ترى العيب شرفاً وتضيع شرفها وشرف قومها من أجل لقمة العيش ولاتربى أطفالها تربية دينية سليمه" ، وقد دعا الشيخ بيتاى العلماء إلى العمل على إنتشال مواطينهم من الجهل وظلام الضلال إلى نور العلم والهداية إلى الطريق المستقيم " .

وحدد الشيخ على بيتاى صفات العالم الذى يتصدى للتربيه والتعليم فيما يلى:

(أ) أن يكون "عالماً بالتفسير بجميع مباحثه ..."

(ب) أن يكون "عالماً بالسنة ومباحثها كلها ..."

(جـ) أن يكون "عالماً بالفقه وقواعده الأصولية ..."

(د) أن يكون "واسعاً فى علم اللغة والقواعد النحوية والصرف والبلاغة"

(هـ) أن يكون "حسن الخلق صابراً لا يضجز من السؤال"

تلك آراء الشيخ بيتاى التى عمل من أجلها ومات وقد حقق الكثير منها بين الهدندوه فأحدث تغييراً إجتماعياً وثقافياً هائلاً هناك ، وتعهد العمل من بعده أخوه الشيخ طاهر الذى توفى أواخر عام ١٩٨٤ ، فتعهد العمل من بعده إبنه سليمان طاهر وابن عمه محمد على بيتاى ، وقد بلغنى أن أمر الخلاوى آلت إلى الشاب محمد بيتاى أبن الشيخ على بيتاى بعد اتفاقه مع ابن عمه .

ومهما يكن مكن أمر فإن سيرة الرجل تضم الكثير الذى لا مجال له هنا ويحتاج إلى دراسة أوسع .

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٥٨٣ - ٦٤٤

الصراع الثقافى فى حوض النيل

د. عبد الله نجيب
قسم اللغات

موضوعات البحث

تمهيد

فى دراستنا لهذه الظاهرة ، وأعنى بها إلتقاء الثقافات الوافدة بالثقافة الإفريقية الأصلية ، وما ترتب على ذلك من تغيير وصراع فى حوض النيل خاصة وأسلم منذ البداية، بأن الثقافة الإفريقية ، كانت ثقافة أصلية، قوية الفاعلية، قادرة على البقاء والإستمرار واستطاعت أن تؤثر تأثيراً قوياً ومتوازياً فى كثير من الأحيان مع الثقافة الوافدة ، بحيث طبعتها بطابعها ، وخلقت منها ثقافة متميزة ذات خصائص واضحة ، أى أنها قامت بعيداً عن الذوبان أو الفناء الكامل فى الثقافة الوافدة ، وقامت بالتعديل والتوفيق حسب البيئة والظروف المحلية .

وظاهرة الإلتقاء الثقافى من الظواهر التى واجهت الحضارات الإنسانية كلما ألتقت ثقافتان ، وتبادلنا التأثير والتأثر ، وبدراستنا لهذه الظاهرة فى حوض النيل يمكننا أن نحدد قواعدها وملامحها فيما يأتى :

١ – أن الثقافة الوافدة المتفاعلة مع الثقافة الأصلية فى حوض النيل كانت تظهر بمستويات مختلفة فى المنطقة .

٢ – استمر التأثير والتأثر فترات زمنية مختلفة ، بمعنى أن التأثير كان يتم تدريجياً .

٣ – لم تؤخذ العناصر الثقافية الوافدة كلها ، بمعنى أن الثقافة الإفريقية كانت تنتقى ما يلائمها فتقبله ، وتنبذ ما لا يلائمها أو تقوم بالتعديل فيه .

٤ – لم يختف العنصر الثقافى المنهزم نهائياً ، بل ترك له بعض المخلفات أو اللمسات التى تدل عليه .

والعناصر الثقافية ، ليست شيئاً مجرداً بل يحملها الإنسان ، وعلى قدر ما يكون هذا الإنسان تسرع العناصر التى يحملها فى الإنتشار والتأثير ، كذلك فأن مدى التقارب أو التباعد بين العناصر الوافدة ، والعناصر المقيمة ، يؤثر بشكل فعال فى عملية القبول والإندماج ، فالمجتمع المتغير له ظروفه وأحواله المؤثرة فى خط التغيير ، تبعاً لاستعداده لقبول التغيير ، ومدى تمسكه بموروثاته القديمة ، وقدرة العناصر الثقافية الأصلية على الوفاء بحاجات الناس ومطالبهم

الإجتماعية ، فالديانات الإفريقية على سبيل المثال لا زالت تظهر حيويتها فى كل مكان ، على الرغم من الجهود المضنية التى بذلت لتحويل الإفريقيين إلى المسيحية أو الإسلام ، كذلك فإن تنوع الثقافات الإفريقية من مكان إلى مكان، يحمل معه أيضاً تباين المواقف، رفضاً وقبولاً للعنصر الثقافى الجديد .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن هناك حقيقة علمية جديرة بالإعتبار ، مؤداها أن الثقافة تكتسب بالتعليم ، فهى ليست فطرية ولا غريزية ولذلك نراها تختلف من جماعة إلى أخرى ، ومن عهد لآخر ضمن المجموعة الواحدة ، ومن هذه الحقيقة نستنتج مبدأ ذا أهمية أساسية ، وهو أن ما اكتسب بالتعليم "فى شتى صوره" يمكن تعديله بالتعليم آخر ، أى أن العقائد والأعراف والعادات وغيرها يمكن تغييرها مهما بدأ ذلك مستحيلاً أو صعب التحقيق ، وهذا المبدأ الهام يقود إلى مبدأ "علمى" أساسى ، وهو "قيمة العمل" المستمر ، والمصر على تحقيق الغاية المنشودة ، وهى "التغيير" باستخدام وسائل فعالة ، فإذا كانت الثقافة تتميز بقابليتها للتغير ، وبقوة دينامية دافعة مستمرة ، فعلى هذا الأساس يمكن التعرف على العناصر الأكثر قابلية للنبذ والتغير ، والعناصر الأخرى المصرة على البقاء ، وتلك التى يمكن تعديلها تدريجياً .

والحقيقة أن المسرح الإفريقى الراهن يتغير ، وفى الوقت نفسه يأخذ طريقه إلى الإستقرار الثقافى (النسبى) ، وهذه المرحلة بالغة الخطر والأهمية فى مستقبل القارة ، بل ومستقبل العالم كله ، لأن نتائجها هى أبلغ الدلالة على قوة العناصر التى سيكتب لها البقاء ، ومدى أهميتها وقيمتها وهو تحد حقيقى للأساس الحضارى القائم على قيم غربية ، وهو فى ذات الوقت إختبار لقيم الحضارة الإسلامية ، ومدى قيمتها وقدرتها وملائمتها لبناء صرح الحضارة الإفريقية الراغبة فى التفرد والتميز والاحتفاظ بشخصية مستقلة .

يواجه الأوروبيون هذه الحقيقة منذ زمن بعيد ، وقد خططوا ونسقوا جهودهم، وأعدوا العدة لإحراز النجاح ، ويواجهون فى ذلك مشكلة حقيقية تتلخص فى كيفية إيجاد الطرق والأساليب العلمية لحمل الإفريقيين على تقبل التغيير لصالحهم ، ومن وجهة نظرهم ، وليتمكنوا من وضع السياسات الملائمة

المرنه باستمرار لتحقيق هذا التغير ، ولعل جلاء هذه الحقيقة بهذا المنظور ، يوضح لنا نحن العرب والإفريقيين سراً من أسرار الإهتمام المتزايد بإفريقية ، ويوضح فى ذات الوقت مدى ما قصرنا فيه ونقصر ومدى المسئولية التاريخية التى تقع على عاتقنا الآن .

ولمزيد من التوضيح أقول بجلاء ، إننا نحن العرب والمسلمين نرغب أيضاً فى توجيه هذا التغيير لصالح الإسلام ، وثمة عناصر إيجابية تقوى من قدرتنا ، أهمها القوة الذاتية للإسلام وميراثه الحضارى والتاريخى العريق فى إفريقيا ذاتها ، وهناك أيضاً عناصر سلبية تضعف من قدرتنا ، أهمها الجهل بما يجرى والاستهانة به والتقصير فى مواجهته .

وردود الفعل الحالية فى إفريقية تجاه هذه المحاولات ، لا يمكن تفسيرها دون الوقوف على الأنماط الثقافية الإفريقية الحالية ، ودون الوقوف أيضاً على المشكلات الأساسية التى تواجه الإفريقيين ويهتمون بها ، وبالنسبة لنا يجب أن ندرك أن هناك مشابه أساسية بين ثقافات الشعوب الإفريقية عامة وبين الثقافة الإسلامية ، كما توجد مشابه فى أنساق التغيير ، وهذه المشابه هى التى يجب أن نهتم بها ، ونعنى بدراستنا .

وقد حاولت من جانبى أن أبذل الجهد لتقديم دراسة متماسكة توضح حجم المشكلة بكل أبعادها فى منطقة حوض النيل ، وتبين أبعاد التغيير وأسراره وأوضاعه ، بقصد إلقاء الضوء عليها ، وإقامة جسر من العلائق الموضوعية بينهما .

والله ولى التوفيق ،،،،

الفصـل الأول
الأسـاس الثقافـى فى حـوض النيـل

سكان حوض النيل ولغاتهم :

لا جدال أن دراسة الثقافة الإفريقية في حوض النيل تتطلب الرجوع إلى الماضى القديم ، ومصاحبة السكان به عبر القرون إلى حاضر القرن العشرين ، ذلك لأن الإفريقى مهما اختلف أصله وموقعه له تقاليده التى تربطة بماضيه البعيد ، ولكى نفهمه حق الفهم ، يجب أن نفهم أولاً ثقافته الأصلية ، وما فيها من معتقدات وعادات وتقاليد وأفكار ، تلك التى صنعت الإنسان الإفريقى وأثرت فيه ولا تزال تؤثر ، بحيث ترسم للناس حاضرهم ومستقبلهم ، وتبقى لهم كيانهم وشخصيتهم المميزة .

وحضارة إفريقيا الأصلية ، حضارة توصف بأنها حاميه (أوكوشية) وتاريخ هذه الحضارة القديم هو تاريخ هؤلاء الحاميين وصلاتهم بالمجموعة الأصلية الأخرى ، وأعنى بها المجموعة الزنجية النيلية ، وكذلك صلاتهم بالمجموعة السامية ، حيث إشترك الجميع فى بناء الحضارة الإفريقية ، والحقيقة أن الحاميين والساميين فرعان لمجموعة جنسية وثقافية ولغوية واحدة ، ولم يحدث التباين بينهما إلا فى عصور حديثة نسبياً ، وعلى ما يبينه التماثل الثقافى واللغوى والجسمانى حتى الآن [1] .

وتبدو أهمية الحاميين فى الدور الذى لعبوه فى إفريقيا منذ القدم ، فهم أصحاب الحضارة المصرية القديمة ، والتى بقيت مزدهرة قروناً عديدة ، وامتداد آثارها فى حوض النيل إلى بلاد النوبة ووسط السودان وكردفان والصومال وأثيوبيا ، بل وغرب القارة ووسطها أيضاً ، ثم أتى على إفريقيا دور جديد تأثرت

(١) ينقسم الحاميون منهجياً إلى فرعين كبيرين: الحاميون الشماليون(ومنهم البربر والتبو والفولبا من سكان السودان الغربى، والجواش من سكان جزر الكنارى والحاميون الشرقيون ويشملون المصريون القدامى والبجة والنوبيون والقالة (الاوروما) والصومال والدناقل والعفر والتيجرة والتجرينا وغيرهم .

فيه بالهجرات السامية ، ومن أقدمها هجراتهم المبكرة إلى مصر والقرن الإفريقى [٢] وامتداداته الجنوبية على الساحل ، وفى عصور لاحقة غلبت الثقافة السامية على كثير من شعوب القارة ، وخاصة فى شرقها ، فلما جاء الإسلام تحولت الشعوب الحامية فى أغلبها إلى الطابع الإسلامى ، ومما سهل هذا التحول حتى بدأ وكأنه أمر طبيعى هو كما قلنا - أن المجموعتين يعتبران تعديلاً لمجموعة أصلية واحدة ، وبقيت عدة شعوب أخرى على أصولها الحامية المختلطة بالمجموعة الزنجية ، ومنها الشعوب التى تقطن المنطقة الممتدة بين حدود السودان إلى كينيا (فيما عدا الشنجالا وهم من الزنوج) الذين يعيشون على المنحدرات الغربية الجنوبية للهضبة الأثيوبية وقد أطلق إسم النيلين لسنوات طويلة بلا تفرقة على كل الشعوب التى تعيش فى أعالى حوض النيل على شواطئ النيل وروافده، بل ومن يجاور النهر وفروعه إلى مسافة بعيدة ، ثم قصرها بعض العلماء على جماعات معينة فى حوض النيل أو أبعد منه قليلاً إلى الجنوب من أوغندة وكينا وتنزانيا ممن تربط بينهم روابط عرقية وثقافية [٣] .

ويعيش النيليون فى الجملة فى السودان الجنوبى (كردفان - دارفور- النيل الأبيض - دار الفونج - بحر الغزال - المديرية الإستوائية) أما الجماعات الأخرى فتعيش فى الأقاليم الشمالية لأوغندة وفى شرق كينيا، وتمتد مواطنهم أحياناً إلى الكونغو ليوبلدفيل وتنزانيا وحدود إثيوبيا الغربية[٤].

ومهما تكن آراء العلماء بشأن مواطن النيليين الأصلى ، فمن المؤكد أنهم أصلاء فى القارة الإفريقية ، وأن مواطنهم الأصلية القديمة لا تبعد كثيراً عن مواطنهم الحالية [٥].

---

(٢) سكان أثيوبيا من الحاميين القدامى المختلطين بالزنوج منذ القدم يسمون الكوشيون الأصليون مثل البوجوس Bogos فى الشمال والأجاو Agau فى الوسط والكافيشو Kafficho والولامو Wollamu فى الجنوب ، أما الكوشيون/ الساميون فاصطلاح يطلق على الحاميين المختلطين بالساميين ومنهم المتخذثون بالأمهرية.

(٣) Audreg: The Nilotes. London 1952 P1.

(٤) وهم بذلك لا يحتلون منطقة متصلة من الأرض ، ويقسمون منهجياً إلى الكتلة الشمالية (الدنكا والنوير والشيلوك والأنواك) والجنوبية (الأشولى شمال أوغندة واللانجو والألور فى الطرف الشمالى الشرقى للكونغو ليويلدفيل ويمتدون إلى أوغندا على الشواطىء الشمالية الغربية لبحيرة البرت وجويلو فى شمال واو ويمتدون إلى مديرية بحر الغزال.

(٥) راجع راى سليجمان: أجناس أفريقية ص ٨٦ ط ١٩٥٩ .

أمـا النيليـون الحـامـيـون ، فـهم أولئك الذين اخـتلطوا وتزوجـوا منذ أزمـان سـحيـقـة ، ذلك لأن الحـامـيين هـاجـروا إلى القـارة منذ العـصـر المطيـر حـوالى ٤٠٠٠ ق م وكـان من الضـرورى أن تنشـأ عن هذا الإخـتـلاط والإمـتـزاج بعض الجماعات الأساسية [٦] .

ويعيش هؤلاء النيليون الحاميون جميعاً فى شرق إفريقيا ووسطها ، أى الجزء الأعظم مـن كـينيـا والجـزء الشـمـالى مـن أوغندة وبعض الأجـزاء الشـمـاليـة من تنزانيا، ثم تمتد أوطان البانتو من شرق القارة ووسطها إلى جنوب القارة [٧] .

وأقدم اللغات المكتوبة فى حوض النيل هى اللغة المصرية الفرعونية ، وتتميـز بأنها مسجلة فى نصوص ثابتة يرجع تاريخها إلى ما لا يقل عن ٤٠٠٠ سنة ق . م وتبـدو فى وضـعـهـا الجـغـرافى فـاصـلاً بين لغـات الفـرع الليـبى البـربرى والفـرع الكوشيتى وتقع أيضاً على الحدود بين المجموعة السامية والمجموعات الإفريقية.

ويلاحظ وجود عـلاقـة بين اللغـة المصـرية ولغـات الفـرع الليـبى البـربرى وبينهـا وبين لغـات البجـة فى شـرق مـصـر والسـودان ، عـلاوة عـلى إقتـرابها بشكل ملحـوظ من اللغـات السـامـيـة وخـاصـة فى أقـدم صـورهـا ، ممـا يجـعل مـن هـذه اللغـة لغـة وسيطة إن جاز هذا التعبير بين فـروع الأسـرة الأفـروسـامـية [٨] وقـد مـرت اللغـة المصـرية بمراحـل عـدة آخـرهـا القـبطيـة التى تخلت عن مكانهـا للغـة العـربيـة بعـد دخول المصريين فى الإسلام .

أما اللغـة النوبية فقد عـاشت إلى جانب المصرية فى السودان ، ورغم اختلاف العلماء بشأن أصلها ، فقد اتفق أغلبهم على أنها فى أصـولها لغة كوشية (حامية) دخلتهـا مـؤثرات أجنبـيـة كثيـرة ، وهـذا الرأى يتـفـق أيضـاً مع المعطيـات التـاريخيـة

(٦) من هذة الجماعات: الماساى - الناندى - البوكو - التبو وغيرهم.

(٧) راجع عن أوطان البانتو كتاب السير جاري جونسون Acomparative study of the Bantu and semi-Bantu Lang, S Oxford 19: 22

(٨) نحن نفضل تسميتها «الافروسامية» لأن اللغات الغير افريقية بها كلها سامية وهذا الاسم يمنع اللغات الآسيوية غير السامية من الدخول بها .

والجغرافية والسكانية وغيرها، ويلاحظ العلماء أن هناك تشابها بين اللغة النوبية ولغة أهل جبل "داير" وما يليه من شمال منطقة كردفان، وكذلك توجد بعض لهجات تشبهها فى دار فور وجبل ميدوب ، وكذلك فى الأطراف الجنوبية من سهل البطانة بين أعالى العطبرة والنيل الأزرق ، وربما كان هذا التشابه بتأثير اللغة النوبية، وفوق ذلك إكتشف اللغويون أن هناك تشابها آخر ملفتاً بين اللغة النوبية وبين لغات البارى وخاصة فى نظامها الصوتى، ومجالها فى أعالى بحر الجبل ، كذلك لغة الماساى فى شرق إفريقيا ولغات بعض النيليين مثل "الدنكا" و"الشيلوك" ويرى بعض العلماء وعلى رأسهم "موريس ديلافوس" أن اللغة النوبية لغة زنجية سودانية ووضعها ضمن شعبة اللغات النيلية التشادية المنتشرة فى المناطق المحصورة بين أسوان شمالاً وفاشودة جنوباً ، ويعتقد البعض أن النوبية لغة مهاجرة إلى السودان الشمالى ، ألتقت بلغة "مروى" وهى لغة ملوك نباتا أصل الحضارة السودانية وعاشت اللغتان جنباً إلى جنب، وظلت اللغة النوبية لغة الكلام ولغة مروى "لغة الدين والدولة حتى سقوط مملكة مروى سنة ٣٥٠ م" .

وسواء أكانت اللغة النوبية هى المؤثرة فيما عداها من اللغات التى تشبهها أم كانت معها فروعاً للغة أصلية واحدة ، فإن اللغة النوبية بوضعها الجغرافى القديم كانت تعتبر مع المصرية لغة وسيطة بين لغات الأسرة الأفروسامية واللغات النيلية الزنجية أو الماكرو سودانية كما سماها العلامة "جرينبرج" .

أما اللغات الأثيوبية فمجالها هو الركن الشرقى لإفريقيا ، وهى منطقة تمتد شمالاً فى الأرض المصرية بين النيل والبحر الأحمر ، وجنوباً إلى كينيا ، أما فى الغرب فتحدها الهضاب الحبشية الجبلية ، والكوشيون فى هذه المنطقة هم قبائل البجة والأرومو "القالة" والأعفار والصومال والدناقل وقد تعددت اللغات فى المنطقة بتعدد الأقوام بحيث يتفق التوزيع اللغوى مع توزيع هذه الشعوب ومناطقها غالباً .

ولغات البجة تنتشر فى شمال أريتريا ، وهى لهجات متعددة منها لهجة البشارية والهدندوة ولهجة الحلنجا ولهجة بنى عامر ، واللهجة الأخيرة بصفة

عامة يعتقد كثير من الباحثين أنها لهجة سامية وليست كوشية ونحن نعرف أن أقدم اللغات السامية التى دخلت الهضبة الحبشبة هى لغة "الجمز" وأن اللهجة السائدة فى شمال أثيوبيا وهى اللغة "التجرينية" مشتقة منها، ولما كان مركز السلطان والحكم فى أثيوبيا فيما مضى ، كانت اللغة هذه ذات نفوذ واسع وصل إلى إقليم "البجة" وأثر فيهم ، وترتب على هذا التأثير نشوء لغة جديدة وهى خليط من اللغات الكوشية تسمى "التيجرى" التى تنتشر فى شمال "إريتريا" وهى أقرب اللغات الأثيوبية إلى لغة "الجمز" القديمة ، ويقدر عدد المتكلمين بها بنحو مليون ونصف مليون نسمة ، وقد أعلنت هذه اللغة لغة رسمية فى دستور إريتريا سنة ١٩٥٢ م ، ولكن إستيلاء الأثيوبيين على أريتريا عطل نمو هذه اللغة وأزدهارها .

ومن لغات المسلمين فى أثيوبيا أيضاً "اللغة الهررية" نسبة إلى مدينة هرر "التى تقع إلى الشرق من منطقة "شوا" الأمهرية ، وهذه اللغة متفرعة من الأمهرية ، ولكنها تأثرت بالعربية كثيراً ، كما تأثرت أيضاً باللغات الحامية المحيطة بها نظراً لموقع مدينة هرر كمركز تجارى هام فى المنطقة، وسكانها خليط من قبائل شتى منهم "القالة" والصومال والدناقل وغيرهم، وعلى الرغم من أن اللغة الهررية فى الأصل أمهرية إلا أنها لا زالت تحتفظ بالحروف الحلقية، وربما كان ذلك بتأثير العربية التى تركت بها أثاراً بعيدة المدى (٩) .

أما اللغة الأمهرية فهى فى أصلها سامية ، ولكنها تأثرت كثيراً باللغات الحامية فى البيئة الأثيوبية ، حتى أن بعض أساليبها وتراكيبها بعيدة كل البعد عن الأسلوب السامى فى تركيب الجملة ، وفقدت معظم الحروف الحلقية ، كذلك فإنها فى طرازها التنغيمى - تقترب من التنغيم الحامى بقدر ما تبتعد عن طراز التنغيم السامى .

وعندما أنتشر المبشرون فى أثيوبيا ، ترجموا إلى الأمهرية كثيراً من الكتب الدينية وبعض الكتب العلمية ، فأدت هذه الخطوة إلى سقوط اللغة الجعزية

---

(٩) من لهجات المسلمين باثيوبيا لهجة "Yedshi" ولهجة "Argubo" إلى الشرق من شوا ، ولهجة «جافات» شمال جبال طلباواوها ، ومنها لهجات منطقة جوراجبا جنوب «شوا».

تماماً ، والآمهرية الان هى أكثر اللغات السامية إنتشاراً فى أثيوبيا اليوم ، وتعمل الدولة على نشرها والعناية بها وربطها بالمسيحية (١٠) .

أما الصومالية ، فمنتشرة فى بلاد الصومال ، وفى مقاطعتى "هرر" والاوجادين وفى جزء من شمال كينيا ، وهى تتكون من عدة لهجات ، وهى قريبة إلى حد كبير من لغات القالة ، بل هى تختلط وتتلاقى فى عدد كبير من الألفاظ والتراكيب ، وتختلف إختلافاً يسيرا فى الأصوات ، وهى على إتصال وثيق بلغة أهل "شوا" ولغة هرر .

أما اللغات النيلية الأخرى ، وهى الدنكا - التبو - الليو - المازاى - ولغات البانتو وغيرها ، فهى تشكل جزءاً من الأسرة الماكروسودانية (كما سماها جرينبرج) والتى تكون مجموعة لغوية كبيرة تمتد من أعالى النيل شرقاً وتحتشد فى منطقة خط تقسيم المياه ، والقسم الشمالى من أقليم البحيرات الكبرى فى شرق إفريقيا ، وتتألف هذه المجموعة من أربعة فروع هى السودان الشرقى والسودان الأوسط واللغات النيلية ، وما أصطلح على تسميته باللغات النيلية الحامية (١١) .

---

(١٠) أكثر من نصف كلماتها غير معروف الأصل لأنه محرف غالباً ، وتختلف قواعدها أيضاً عن قواعد اللغة الجعزية واللغات السامية، فقد تغيرت فيها أشكال الضمائر، وأنقرضت معظم قواعد التذكير والتأنيث، ويزيد رسمها عن الهجاء الجعزى سبعة أحرف ويعتبر لسان «جوندار» الواقعة فى شمال منطقة «امهرة» عاصمة الدولة من الرن ١٩/١٧ يعتبر أفصح لهجاتها.

(١١) يمكن تقديم النموذج المبسط الآتى للمجموعات اللغوية فى حوض النيل.

(أ) حامية / سامية : المصريون - البحة - النوبيون مصر والسودان الأمهرة - التيجرة - التجرينا أثيوبيا هرر.

(ب) الكوشية الصومال - الدناقل - القالة أثيوبيا - كينيا السيدامو الصومال.

(جـ) السودانية/النيلية الدينكا - الشيلوك النوير - السودان. كينيا التيبو - الليو - الماساى أوغندا - تنزانيا.

(د) لغات البانتو ومنهم فى حوض النيل : بكونغو الكونغو بإنجالا بامونجو - المتيلى وغيرهم تنزانيا اللوبا - اللولوا - اللواندا - الياو نيامويزى - سوكومو - السواحيليون ، واهايا - الكافيرندو - باروندى رواندا الوجاندا - سوجا والشاجا - الكيكوبو - الكامبا وغيرهم .

وقد أمتص البانتو بعض المجموعات التى تتحدث بلغات حامية ، وقد تأثرت هذه اللغات جميعاً بدرجات مختلفة باللغات السامية الحامية المجاورة ، ومما سبق تتضح لنا الحقائق التالية :

١ - اللغات السامية ليست أسرة منفصلة عن اللغات الحامية أو الكوشية وكذلك اللغات التشادية، بل هى فروع من أسرة واحدة هى الأسرة "الأفروسامية".

٢ - اللغات النيلية على إختلاف مجموعاتها قد تأثرت بدرجات مختلفة بالأسرة الأفروسامية .

٣ - تقسيم الناس على أساس اللغات ليس صحيحاً ، فبعض الجماعات هى فى الواقع مجموعات لغوية وليست جنسية أو عرقية ، فالبانتو على سبيل المثال حاميون إختلطوا بالزنوج أو النيليين ، ويتكلمون لغات ذات أصل واحد .

وعلى ذلك يمكن القول بثقة أن سكان حوض النيل يتكونون أساساً من عنصرين : العنصر القوقازى (السامى / الحامى أو الكوشى) والعنصر الزنجى النيلى ، وأن لغاتهم تنتمى إلى أسرتين : الأسرة الأفروسامية والأسرة السودانية الزنجية ، وأنه قد حدث إختلاط وامتزاج بشرى ولغوى بين شعوب حوض النيل منذ أقدم العصور .

الأديان والعقائد :

أثبتت الدراسات الأثرية ، أن أهل السودان قد آمنو بعقائد المصريين القدماء، واستمدوا من ثقافتهم وأفكارهم ، واستخدموا نفس أدواتهم ، وساروا على مناهجهم فى السلوك والتقاليد والعادات ، وابتكروا ألواناً جديدة من المعرفة والفنون التى تلائم بيئتهم وظروفهم ، والسودان هو الجسر الذى انتقلت عبر أجزائة الواسعة التأثيرات المصرية إلى المنطقة المحيطة بمنابع وأواسط القارة .

فقد كانت مصر فى الأحقاب القديمة جزء من إفريقيا ، بل هى بالذات الجدار الحامى للحضارة الإفريقية ، والذى يعتبر الحد الشرقى لها ، وكانت بلاد النوبة بمثابة همزة الوصل بين مصر وأواسط إفريقيا منذ أول العصور التاريخية، حيث كانت مصر مصدراً للإشعاعات الحضارية إلى أقصى الجنوب،

حاملة معها الكثير من مظاهر حضارتها [١٢] وقد قيل أيضاً أن بلاد بونت كانت داخل القارة عند المناطق الاستوائية وليست على شاطئ البحر الأحمر ، وليس من شك أن المصريين القدماء قد ألتقوا بأشقائهم وأبناء عمومتهم فى الجنوب ، إما عن طريق الصعود جنوباً فى النيل حتى الجندل الثانى ثم التحول على الشاطئ حتى مناطق السودان الجنوبى أو عن طريق التغلغل داخل القارة بعد الوصول إلى أقصى الجنوب من البحر الأحمر ذاهبين إلى البلاد المقدسة "بونت".

وقد أثبتت العصور التالية أن مصر والسودان استمرا فى التلاقى الحضارى حتى أخذت السودان بعقيدة الإله آمون منذ القرن السادس عشر ق. م وأصبحت "نباتا" بمثابة المنارة التى ترسل إشعاعاتها الحضارية إلى كل جيرانها من الشعوب المتأخمة [١٣]

ولما انتقلت العاصمة إلى "مروى" جنوباً ظلت هذه المدينة فترة تزيد على سبعة قرون تؤثر فيما حولها ، وانتقلت منها عقيدة الخلود بعد الموت والملكية المقدسة ومكانة الملكة الأم ، واستمرت بعض مظاهر هذا التأثير فى المجتماعت الزنجية حتى يومنا هذا فـ: "الكا" وهى الجسم المعنوى الأثيرى خلقه "خنوم" رب منطقة الجندل الأول ، وخالق البشر خلقا مادياً سوياً ، وهى تنفصل عن صاحبها بعد الموت ويبقى حائراً حتى يستقر الجسم المادى (الجسد فى قبره الأخير) حيث يجد المؤن فى المقبرة ، أما "البا" فهى عنصر الحياة أو الروح التى تدب فى الجسم ، فهى تنفصل عن صاحبها ، وتصبح طائراً ، وتهبط من حين لآخر لتزور جسدها ، وتعيش معه بعض الوقت ، أما الآخ فقد أعتبرها المصرى شخصية الفرد المعنوية التى تذهب إلى السماء وتتعلق بها كنجم من النجوم .

(١٢) من أهم الدلائل على ذلك ما تركه الملك «دجر» ثالث ملوك الأسرة الأولى من نقوش عند وادى حلفا تمثل مجموعة من أهل السودان يحملون أقواساً مميزة لازالت تستعمل بين قبائل النوير ، كما يحملها الطبيب الساحر فى قبائل الدنكا ، وآثار أخرى كثيرة عند منطقة بوهن من عهد «خوفو» .

(١٣) وقد أشار إليها المصرى القديم على أنها كانت مقراً للآلهة حيث تنمو أشجار الكندر والمر، واستورد منها قردة البابون التى قدسها على أنها رمز للآله «تحوت» رب الكتابة والعلم الذى علمهم التوقيت الزمنى.

هذه العقائد لا تزال منتشرة بصورة ما بين كثير من القبائل الزنجية التى تعيش فى المناطق الأستوائية [١٤] ولقد أثبتت البحوث الكثيرة أن الملكية المقدسة تنتشر فى معظم القبائل الزنجية فى مناطق الكونغو ونيچيريا وغيرها ، وهى فى جوهرها مأخوذة من عقائد المصريين فى تاليه الفرعون ، ففى قبائل الدنكا والبارى وبعض قبائل البانتو والواونجا وغيرها تعتبر قدسية الملك أو الزعيم صورة من هذه العقائد ، وقد أرتبطت بعقيدة الملكية المقدسة فكرة ارتباط الملك ارتباطاً كاملاً فى قوتة الحيوية وقدرتة على الإخصاب مع وفرة المحصول والإنتاج الحيوانى فإذا فقد الملك أو الزعيم قواه الحيوية وجب التخلص منه ، وهو ما كان يحدث فى وادى النيل وسماء المصريون "جب سداى عيد النهاية" .

لم يكن النيل شرياناً للحياة المادية والزراعية فحسب ، بل كان شرياناً للأفكار والثقافات التى انتقلت مع مجراه إلى كل مكان تصل إليه ، ويشهد التاريخ ببراعة المصريين وجيرانهم السودانيين فى كافة العلوم والفنون ، ويشهد التاريخ أيضاً بما وصلوا إليه من رقى فى الآداب والأخلاق ، تلك التى كان لها أكبر الأثر فيما شاع بين سكان الوادى من دماثة فى الخلق ، وسماحة فى الطبع ورقة فى السلوك ، ويقول حكيم ينصح أحد أبنائة "حوالى سنة ١٩٥٠" ق. م:

لا تـــطـمـع فـــى ذراع مـــن الأرض
ولا تعتـــد عـــلى حـــدود أرمـلة
وأحـــرث الحقـــل لتـــجد حـاجتك
وخـــذ خـــبزك مـــن بيـــدرك
وأن قـدحـاً من الحب يعطيكه الله لخير
مـــن خمســـة آلاف تنـــالها بـالعدوان
أن الفقـــــر بـــين يـــــدى الله
خيـــر مـــن الغنـــى بـين المخـازن
والـــرغيــف والقـــلب فـــى هنـــاء
خيـــر مـــن الغنـــى مـع الشقـاء

(١٤) وصلت هذه العقائد إلى غرب إفريقيا بين قبائل «الأجان».

وقبل كل الفلاسفة بأكثر من ألفى عام، قام "بتاح حوتب" حوالى ٢٨٠٠ ق.م يعلم الناس الحكمة ، ويهديهم إلى طريق الحق والعدل وحسن المعاشرة فيقول :

"لا تزه بنفسك لأنك عالم ، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم ، لأن العلم لا حدود له ...... الكلام الجميل أندر من الزمرد ...... عش فى كنف اللطف يقبل عليك الناس طائعين ...... إحذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك ...... لا تتخط الحق .

وها هو "أخناتون" الذى آمن بالاله الواحد ، يخاطب ربه بنفس خالطتها عظمته ، وملأتها محبته فيقول :

أيها الإله الأوحد الذى لا سلطان لاحد كسلطانه

إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها

وكل من يمشى على قدمين

وكل ما هو فى العلا ويطير بجناحين

والبلاد الأجنبيه من سوريا إلى كوش وأرض مصر

تمدهم أنت جميعاً بحاجاتهم

وتضع كل إنسان فى موضعه

أنت موجد النيل فى العالم السفلى

وأنت تأتى به كما تحب

لتحفظ حياة الناس

الا ما أعظم تدبيرك

يارب الأبدية (١٥)

---

(١٥) راجع : قصة الحضارة : ول ديورانت الجزء الثانى من المجلد الأول ص ١٠٠ وما بعدها .

أدرك الباحثون فى الشئون الإفريقية منذ زمن ، أن الدين هو أهم العناصر الثقافية فى حياة الإفريقيين بصفة عامة ، وهو القوة المحركة للحياة فى القارة ، فما من نظام إجتماعى أو سياسى أو إقتصادى إلا ويرتكز على فكرة دينية .

والواقع أن المعتقدات الإفريقية لا تقوم على عبادة الأوثان ، وإنما تقوم أساساً على الإيمان بوجود إله خالق منفرد بالخلق ، ذاتى الحضور والأكتفاء شامل القدرة والمعرفة ، وهو الذى خلق العالم كله بما فيه من جميع المخلوقات يقول النيليون الحاميون : إن هذا الإله هو الأول ، وهو خالق النظام الكونى كله ، وفى كينيا ومناطق البحيرات الكبرى ، الإله الأعظم منجو Mungu قادر على كل شئ ، حاضر فى كل مكان ، وبيده إنزال الغيث ، وقد يمثل بالشمس وأما قبائل أعلى النيل فتعتقد باله سماوى عظيم خلاق ، ينزل الغيث ، لا يعرفون له صورة مادية ، لأنه لا شكل له ولا تدركه الأبصار ، وإنما يدركونه بالعقل ، فهو روح عالمى ، هو مصدر الخير والشر على السواء ، وهذا الإله عند الدينكا يسمى "دنجاوت" أو"ينالخ" وعند "الشيلوك" "وجوك" ، وهم جميعاً يؤمنون بقدرته وواسع علمه وأنه الحاكم فوق كل شئ ، ومن الحماقة تشبيهه بشئ ما، لأن أحداً لم يره (١٦) .

والإفريقيون إلى جانب هذا ، يؤمنون أيضاً بأن الله الذى خلق كل شئ بحكمته وقدرته ، قد خلق أيضاً آلهة صغيرة ، أوكل إليها مهمة الإتصال بالناس ، والسيطرة على شئون الحياة الأرضية ، وهذه الآله الصغيرة لها القدرة على الأعمال الخيرة والشريرة ، ثم إنها قريبة وتأثيرها مباشر ، بينما تعالى الله فى ملكوته عن التدخل فى أمور الناس ، ولذلك يلجأ الإفريقى إلى هذه الآلهة الصغيرة حتى لا يضايق الإله الأعلى ، ولكنه يلجأ أيضاً إلى الإله الأعلى عندما تعجز الالهة الصغيرة عن إجابة دعواته .

وهناك فكرة أساسية فى العقائد الإفريقية ، تدور على أساس الأيمان بأن لكل شئ روح ، وما دامت لديه روح ، فلديه قوة حيوية خاصة هى أصل هذا الشئ وماهيته ، وهى فى ذات الوقت شئ يختلف عن مظهر هذا الشئ وعرضه ،

---

(١٦) راجع : الرب والله وجوجو، الأديان فى افريقية المعاصرة ص ٤٠ وما بعدها
وراجع أيضا: الأديان فى أفريقية السوداء ص ٤٥ وما بعدها.

ولها القدرة على الإنتقال من الشئ إلى شئ آخر وهى لا تموت مع الأشخاص ، بل تبقى كامنة ، أو تنتقل منه إلى شئ آخر بمعنى أن هذه القوى تسرى فى الطبيعة بجميع مشتملاتها ، المرئية وغير المرئية ، فالأشياء المادية مشحونه بشعاع إنسانى ، وطاقة روحانية أى إنها فى نظر الإفريقى رموز أو تشخيصات تتبع من الذات ثم تتحول إلى الموضوع ، وتعتبر العبادات والشعائر وسائل تهدف إلى تزويد الأحياء بهذه القوة ، ويعتبر المرض والألم وغيرها أعراض تدل على نقصها فى جسم الإنسان (١٧) .

من أجل هذا تمتعت أرواح الموتى فى نظر الإفريقيين جميعاً بالتقديس لأنها قادرة على الحلول فى كل مكان ، وهى موجودة فى العالم المنظور وغير المنظور ، ويمكنها أن تتقمص الأحياء وتراقب سلوك الإنسان ، وتحاسبهم على كل إهمال أو تقصير فى حقها أو حق ذويها .

ويعبر عن ذلك الشاعر السنغالى الجامبى "بيرارجو ديوب" فى قصيدة له يقول فيها :

إستمع إلى الأشياء أكثر من الكائنات
صوت النار وهى تنصت
إستمع إلى خرير المياه
إستمع فى الرياح
إستمع إلى الأحراش وهى تنتحب
إنه تهد أسلافنا
هؤلاء الذين ماتوا لم يذهبوا أبداً
هم هنالك فى الظلال المتكاثفة
فالموتى ليسوا تحت الأرض
هم فى حفيف الشجرة
هم فى الخشب الذى يئن

(١٧) راجع : الديانات فى أفريقية السوداء ص ١٠.

هـــم فـــى الميـاه التــى تجــرى

هـــم فـــى الميـــاه المستقـــره

هـــم فـــى الـكوخ ، هـم فـى الجمهرة

أن المـــوتـــى غيـــر ميتـــين

هـــم فـــى صـــدر المـــرأة

هـــم فـــى الطفـــل الـــذى ينـــوح

وفـــى النـــار المتـــوهجـــة

إن المـــوتـــى ليســـوا تحـت التـــراب

هـــم فـــى النـــار التـــى تمـــوت

فـــى الحشـــائش التـى تبـــكى

هـــم فـــى الصخـــور النـــاشجة

هـــم فـــى الغـــابـــة ، هـم فى المنزل

إن المـــوتـــى غيـــر ميتـــين

ويعتقد معظم سكان حوض النيل بأن للشخص نفس وروح ، أو صورة وظل "توأم" تصعد إحداهما عند الموت إلى عالم الأرواح ، ويظل توأمه مع جسده ، أو يحوم ، أو يظل هائماً يزور مواطنه الأولى ، ثم يعود إلى قسيمه أو يصعد إلى السماء ، ويتناسى عالم الأحياء أو ينزل تحت الأرض أو يحل فى ذريته ولابد من أداء بعض الشعائر لراحة هذه الأرواح أو إبعاد خطرها أو التقرب منها .

ولا يفرق الإفريقيون كثيراً بين حياة الإنسان والحيوان ، بل إن أساطيرهم تجعل من الحيوان توأم الآدمى ، وبذلك يستطيع أن يظهر فى شكله ويتحول إليه كما يشأ فهو يشترك معه فى الروح ، وقد تكون له أيضاً نفسان ، كذلك النبات يسرى به جوهر روحى ، والمعادن والصخور وغيرها تجرى بها الحياة أيضاً ، كذلك الأرض مقدسة ولها روح تكمن فى باطنها .

وعلى عكس ما يتصور الكثيرون ، فإن السحر علم وفن ، الغرض منه تهيئة الصبية والفتيات للإنتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة ، ويقوم هذا التلقين على تثقيف دينى وخلقى ، وقد نشأ السحر ليستعين به الناس على إكتساب القوة الحيوية ، أو على صد قوى شريرة ، ولديهم منه نوعان ، السحر الأبيض المفيد ، والأسود الضار ، ويقوم بالأول الكاهن أو الطبيب ، وهو بعمله هذا يؤدى خدمة جليلة للمجتمع ، أما السحرة الذين يستخدمون النوع الثانى فهم مرفوضون من المجتمع .

ومجمل القول أن الديانات الإفريقية فى حوض النيل تلتقى عند الأسس التى ذكرناها ، والتى يظهر منها عمق الإحساس الدينى والرباط الوثيق الذى يربط الإفريقى بالبيئة الطبيعية من حوله ، حيث لا يتميز الإنسان عن الأشياء من حوله، وحيث يعتبر البشر أنفسهم صورة من صور الكون الكلى ، بمعنى أن مشاعر الإفريقى قد شملت الكون كله ، بدلاً من حصرها فى نطاق الإنسان ومنفعته الدنيوية ، أى أن الديانات الإفريقية قد أدركت الكون وفهمته على أنه وحدة لا تتجزأ أساسها ما يمكن تسميته "وحدة الوجود" وهى نفس النظرة الشاملة التى نظر بها بعض الفلاسفة والصوفية من المسلمين وغيرهم .

هذه النظرة وهذا الأحساس يقصر عن إدراكه الفكر المادى ، لأن الإفريقى لا يفرق بين الطبيعة ، ولا بين المادة والروح لأنهم يؤمنون بأن القوى الحيوية للكون تسرى فى الخليقة بأجمعها وتربطها بعضها ببعض ، وهى التى ليس وراءها حقيقة والإفريقيون علاوة على ذلك ، يرتبطون بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، ولاتقف صلاتهم به عند حدود المولد والممات ، بل تظل الصلة قائمة حتى بعد الموت، فالموتى من الأسلاف يهيمنون على الأحياء ، وهم القوامون على حفظ القانون والنظام والأخلاق والعادات ، ولهم كل الحق فى عقاب المذنبين والخارجين ولهم القدرة أيضاً على إثابة المحسنين ، والدين بهذا هو حلقة الإتصال بين أفراد المجتمع فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الطبيعة ، وقد أورثتهم هذه العقائد إستقراراً وثباتاً تمكنوا به من أن يشيدوا تراثاً راقياً من الأخلاق ، وتقوم عليه حضارتهم .

وقد حاول الكثير تسمية هذه الديانة (١٨) ولكن تسمياتهم جانبت الصواب لأنها جميعاً إعتبرت جانباً واحداً منها ، وفى رأيى أن التسمية الجديرة بها هى "وحدة الوجود" وهى تسمية تحمل فى معناها ومضمونها أساس هذه الديانة وجوهرها ، وقد عبر الفيلسوف الغانى ج . ب دانكو عن هذه الديانة شعراً بقوله:

إن الاله الكامل هو الرب
والله ليس مسيحياً
ولا هو بمسلم
ليس ملكاً
ولا هو ثلاثة
وليس واحداً
ولا كثيرين
ولكنه الكل
والكل هو كل الكل
الكل شامل
كل الكل هو الله
الله الشامل (١٩)

(١٨) راجع : الديانات في افريقية السوداء ص ١١٠.

(١٩) مذهب وحدة الوجود مذهب صوفى فلسفى ، يقرر صدور الموجودات جميعها عن الله، ويرى أن الوجود الحقيقى إنما هو الذات الإلهية ، التى تفيض على الوجود من وجودها ، وتشيع فيها الحركة والحياة ، وليس ثمة وجود حقيقى إلا لله، وكل ما سوى الله لا يتحقق له الوجود إلاّ بمقدار ما يفيض عليه من عين وجوده ، وأن الله هو كل شىء في هذا الكون، موجود في كل مكان وفى كل شىء ، وخلاصة تعاليم أصحاب هذا المذهب ، أن نظرهم فى الحياة يتخطى ظواهر المادة ، ليصل إلى ما تخفيه وراءها من الحقائق الأزلية والمعانى المجردة ، ويقررون أن المادة لا وجود لها بذاتها ، وإنما وجودها مستمد من قوة إلهية هى غير المادة، وهذه القوة تسرى فى كل موجود من الذرة إلى أسمى شىء فى =

من كل مـا سبق ، يتضح لنا أن الأفـريقـيـين فى الماضى ، كانت لديهم عقـائد راقيـة ، ونظماً أخلاقيـة دقيقـة ، ولكن يبدو أن الأوربيين قد أسـاءوا فهمهم ، أو كمـا قـال الشـيخ "أنتـا ديوب" : إن الأعـمـال والأبحـاث التى يقـوم بهـا العلمـاء الأوروبيـون عن مـاضى أفـريقيـا إنما هى أبحـاث تعسفـيـة الهدف منهـا التـرويج لخدمة الإستعمار ، كما يهدفون تحت ستار العلم إلى جعل الأفريقى يعتقد أنه غير مسئول دائماً عن أى شئ له قيمة وكذلك أبرز "شارل كرافت" ما يقال من أن التاريخ الأفريقى (تاريخ السود) يبدأ من إحتلال الأوربيـون لهذه البلاد التى كان يسكنها المتوحشون" .

ولقد تأكد فى العصر الحديث ، زيف كل هـذه الافتراءات واتضح للعلماء أن الأفـريقـيين قد ساهموا بقدر عظيم فى الحضـارة ، وابتكروا ألوانـاً مـختلفـة من المعارف والعلوم ، وكانوا يعيشون أيضـاً فى ظل نظم ديموقـراطيـة يتمتعون فيهـا بالحرية الكاملة [٢٠] .

ويقـرر المؤرخ السنغالى "شيخ أنتا ديوب" أن سكان مصر أيام الفـراعنة كـانوا من الســـود [٢١] ويبـرهن على صلة القـربى بين لغة "الأولوف" واللغـة المصـرية

= الوجـود ، فـالله في كل شيء، وهو كل شيء ، وليس من شيء آخـر فى الكون على هذا يستحق التقدير والمحبة والإجلال ، وهذا هو علم عين اليقين، وحق اليقين (وهما فوق علم اليقين) وهو ما يشهده العارفون بأسرارهم ، وبهذا يستطيع أهل الوحدة أن يبلغوا بالنفس الإنسانية إلى أبعد ما تصبو إليه من تفهم معنى الحق والعدل والجمال فى هذا الكون ، وهنا تسمو النفس على كل شيء ويستوى أمامها كل حادث وكائن ، ويستقر لها كل شيء على حد المساواه ، وتسقط فى نظرها الفروق والحواجز .

وهكذا اقتربنا من أساس الديانات الأفريقية. ولعل هذا هو السبب فى إنتشار الإسلام كالنار فى الهشيم فى الصحارى والغابات وأعماق الوديان الأفريقية بصورة طبيعية لاعنف فيـها ولا تكلف . وقد ذكر فى القرآن أيضاً ﴿وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وقد أشار إليها بضمير العقلاء.

(٢٠) يستشهد الكتاب الأفريقيون بنظام رؤساء العشائر فى مجالس القرى، الذى ينتخب بدوره مندوبين لمجلس الشيوخ على مستوى القبيلة. راجع كتاب : (أفريقى يخاطب مواطنيه: بارميناس ج.م. وهو أحد رفقاء «كينياتا» ، وراجع أيضاً (جمهورية افريقية فى القرن ١٩)

(٢١) راجع كتابه: (الأمم الزنجية والثقافية).

القديمة ويقول أيضاً : لقد حلت مشكلة أصل اللغة الزنجية القديمة ، إذ مهما كان المكان الذى يعيش فيه الأفريقى فى القارة ، فمن المعروف أن اللغة المصرية القديمة قد ساهمت فى إعداد أصول اللغات الأفريقية القديمة تماماً كما اشتق الغرب أصول لغاته من اللغة اليونانية واللاتينية القديمة ، وقد دعا "سنغور" أيضاً إلى إتخاذ اللغة المصرية أساساً لدراسة اللغات الأفريقية .

وسواء أكان المصريون القدامى سودًا أم غير سود ، فالمؤكد أنهم ارتبطوا بالسود وشاركوهم وخالطوهم ، وابتنوا معهم أعظم حضارة فى التاريخ ، حيث تطورت على أيديهم العلوم والفنون تطوراً عظيماً فى معظم بلاد النيل ، فيما عدا بعض الأجزاء القليلة التى اتخذت طريقاً مغايراً ، واحتفظت بتراثها القديم فلم تواكب التطور المستمر فى مصر والسودان .

ولا يفهم من هذا أن هؤلاء لم تكن لديهم علومهم وفنونهم ، بل كانت لديهم من ذلك أنواع متعددة ما زالت موجودة حتى يومنا هذا ، وعلى رأس فنونهم فنون القول بأنواعه ، وفنون الرقص والغناء التى لم يباريهم فيها شعب من الشعوب ، وكانت لديهم أيضاً الرسوم والدروع المزينة والنحت على الخشب والأقنعة بالأضافة إلى أنماط من الإيقاعات الموسيقية المنفردة التى تكتشف عن صفاء وبساطة وصدق فى التعبير وواقعية مستمدة من بيئتهم وأحوالهم .

ولقد برع النيليون بالذات على روافد النيل الأعظم وما وراءها فى أوغندا وكينيا وتنزانيا فى حبك القصص التى تجمع بين الإنسان والحيوان ، مما يشبه حكايات كليلة ودمنة (٢٢) .

ويعتبر الطبل - برغم تعدد الآلات الموسيقية لديهم - هو الدعامة الأساسية فى أدواتهم الموسيقية ، ويسمونه "أبا الموسيقى" وقد ذكر "سليجمان" أن القيثارة والعود أو المزهر قد انتقلت من مصر إلى غرب أفريقيا ووسطها عبر الطرق

(٢٢) TH.B. Mynors, Sudan Notes Records; volxxiv 41.

الصحراوية أو عبر النيل الأعظم وهضبة البحيرات [٢٣] ومن أغانى البارى الطريفة أغنية تقول :

لقد طارحنى الفتى الغرام

ثم تقدم نحوى للزواج منى

إن "لوكو" يريد أن يزوجه بى.

و "كاكو" يحمى عاطفته نحوى

وأبى يبتسم له عندما يراه

ولو لم تكن ماشيته قد هلكت

لكنت قد تزوجته منذ بعيد

ومن أغانيهم أيضاً :

لقد قهرتنى نظراتها

وسيطرت عيناها على

لقد نظرت "موريا" إلى

وأذابتنى نظراتها وأجتذبتنى إليها

لقد إخترت من سبانى حبها

ومن جعلنى جمالها أتوله فى حبها

(٢٣) انظر: «السودان فى رسائل ومدونات» فى العدد ٢ من المجلد ٣٣ ١٩٢ - الأب فيلبيرتو جيورجيتى ، الذى نشر نوتة موسيقية لأغنيات الأزاندى ومقالة عن الموسيقى الأفريقية .

الفصل الثانى
انتشـــار المسيحية والإسلام وظاهرة التوفيق بين الثقافات

انتشار المسيحية :

عندما قام السيد المسيح ﷺ ، يدعو إلى دين الله ، لم يدخل فى المسيحية إلا نفر قليل ، حتى نفذت دعوته إلى مصر ، فآمن بها المصريون ، وانتشرت على نطاق واسع ، وأدى انتشارها إلى إحياء القومية المصرية التى كانت قد أضمحلت منذ زمن بعيد، وعمد المصريون إلى ترجمة الأنجيل إلى اللغة القبطية(٢٤) ، وأستخدموها فى صلواتهم وتراتيلهم وآدابهم .

ولم تلبث الكنيسة المصرية أن إتخذت لنفسها كياناً مستقلاً عن الدولة الرومانية ، حيث تأثرت بتعاليم مدرسة الاسكندرية ، وبمذهب أفلوطين على وجه الخصوص ، وفسرت طبيعة المسيح على أنها طبيعة واحدة يندمج فيها الناسوت فى اللاهوت فى أقنوم واحد .

بهذا أستقرت المسيحية فى وادى النيل ، ثم انتشرت على نطاق واسع من مصر إلى الشمال الأفريقى حتى المغرب الأقصى ، ثم تدفق التيار المسيحى إلى بلاد النوبة على يد المبشرين المصريين فى القرن الثانى الميلادى ، ومضى فى طريقه جنوباً إلى سنار ، فقامت الكنائس والأديرة على جانبى النيل فى كل مكان كما انتشرت فى القرن السادس بين شعوب المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر (٢٥) ، وكانت المسيحية قد نفذت إلى هضبة الحبشة قبل ذلك على يد أحد رجال الدين الأسكندريين أثناء حكم "عيزانا" (٢٦) ثم نفذت إلى أجزاء أخرى من حوض النيل والسودان الغربى ، حتى قيل إنها وصلت إلى منطقة بحيرة

---

(٢٤) راجع: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ج١ د: حسن محمود دار النهضة العربية ١٩٦٣م ص٨٦.

(٢٥) راجع : التربية فى السودان ج١ عبد المجيد عابدين ، ص ١٥ وما بعدها.

(٢٦) عابدين : الحبشة ص٢٧-٢٨.

"تشاد" و "برنو" و "غوبير" (٢٧) ، وقد تمكنت المسيحية بهذا ، من القضاء على العقائد الوثنية فى مصر ، ولكنها توقفت عند حدود السودان الشمالى ، ولم تستطع النفاذ إلى الجنوب حول منابع النيل ، وظلت أيضاً بعض المناطق فى الهضبة الأثيوبية على الوثنية ، وقد كافحت المسيحية طويلاً حتى تحقق لها هذا الإنتصار.

ولم تلبث المسيحية فى حوض النيل أن أنفردت بمذهب خاص أتاح لها التفرد والتميز عن عالم الدولة الرومانية ، وقد أدى ذلك إلى دخولها فى صراع معها ، ظلت تعانى منه طويلاً ، وتعرض المسيحيون المصريون للتعذيب على أيدى الرومان، ولكنهم صمدوا إلى النهاية .

وقد أثرت المسيحية فى المنطقة أثاراً شتى ، فى الفنون والآداب ، وأزدهرت اللغة القبطية والثقافة المسيحية على نطاق واسع فى مصر والسودان ، يشهد بذلك مخلفات هذا العصر الفنية والأدبية التى اتخذت لنفسها طابعاً خاصاً يميزها عن الفنون البيزنطية ، حيث استوحت فى طرزها الروح الشعبية فى الوادى ، وكذلك التراث المصرى السودانى القديم وحدث تطور مماثل فى أثيوبيا، ولكنه كان متأثراً بالتراث السامى والفنون البيزنطية بدرجة أكبر ، وقد أثرت عقيدتهم الجديدة فى سلوكهم وأدابهم إلى حد بعيد منذ عهد الملك "عيزانا" الذى يقول :

بيدى الله ذى الجلال صاحب الأرض والسماء
بيدى الله ذى المن الذى أنتصر فى كل مكان
على كل مغالب ، هنا على الأرض وفى السماء
يعلن عيزانا أن لن يقهره قاهر
فالله سيد الأشياء والناس يؤثره
سأحكم بين الناس بالحق والعدل يارب

(٢٧) Palmer; The Bantu Sahara and Sudan P 61 .

لــم أســئ إلـــى أحــــــــــــــــد
وســـأضع عـــرشى هذا الذى أقـــمـــتــه
والأرض الـتـى تقـف عـلـيــــــــهـــــا
فــى حـــــــجـــــــــر ربـى وفـــى يـده
شـــكـــراً وذكـــــــــــــــــرى لـــه (٢٨)

وانتهت هذه الجولة بانتصار ساحق للمسيحية على الوثنية فى حوض النيل ، ولكنها توقفت عند الحدود التى ذكرنا ، وربما لو أتيح لها الوقت الكافى لأستمر انتشارها إلى النهاية

أنتشار الإسلام :

ما كادت المسيحية ينتظم عقدها على هذا النحو حتى ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية ، ثم حمله العرب إلى خارج الجزيرة ، وما لبث أن انتشر فى منطقة الهلال الخصيب بأسرها ، واتخذ طريقة إلى إيران ، ومنها إلى أواسط أسيا والهند ، ثم إنحدر إلى شمال أفريقيا حتى المغرب الأقصى ، وأستدار مع الساحل إلى غرب القارة ، ونفد من الصحراء الكبرى إلى كل المناطق الواقعة على أطرافها الجنوبية ومناطق السافانا .

وكان وادى النيل من أهم المراكز التى زحفت منها الدعوة الإسلامية فى اتجاه الجنوب ، ولم يتوقف عن الزحف حتى اصطدم بممالك النوبة المسيحية التى حالت دون توغله حتى عام ١٢٥٠ م حيث فتحت تلك الممالك ، ودخلت فى الإسلام، ثم تأسست مملكة الفونج عام ١٥٠٥ فقضت على مملكة علوة نهائياً ، وامتد نفوذهم إلى سنار وما جاورها جنوباً إلى "فازوغلى"على النيل الأزرق ، ونشروا الإسلام فى جبال النوبا وكندكرو ووصلوا إلى جبال تقلى وجنوب كردفان.

---

(٢٨) راجع : أفريقيا تحت أضواء جديدة : بازل دافيدسون ، ترجمة جمال «م» أحمد ص٢٢ وما بعدها.

وفى القرن السادس عشر ، تأسست عدة ممالك إسلامية فى غرب هذه المنطقة وشرقى بحيرة "تشاد" فى "واداى" و "دارفور" و "كردفان" واتخذت لها طابعاً إسلامياً خاصاً أساسه الثقافة العربية .

وفى عام ١٨٢١ فى عهد محمد على "إنحدر المصريون إلى السودان وأسسوا مدينة "الخرطوم" ، وتوغلوا حتى بحيرة "ألبرت" وانساح المسلمون فى تلك الأرجاء حتى التقى تيارهم بتيار آخر وافد من المغرب ، عند بحيرة "تشاد" وفى عهد الثورة المهدية فى السودان ، أرسلت الرسل لنشر الدعوة الإسلامية فى البلاد الواقعة غرباً ، وقد أتت هذه الجهود ثمارها ، حتى أنبثقت مجتمعات إسلامية أفريقية فى المنطقة .

توقف إنتشار الإسلام عند المناطق الجبلية فى شمال الكاميرون وحوض نهر "شارى" الأوسط وبحر الغزال وأعالى النيل ، فلم تنفذ إلى هذه المناطق دعوة الإسلام ، فظل السكان على وثنيتهم .

أما المنطقة الشرقية من أفريقيا ، فقد نفذ إليها الإسلام من الجزيرة العربية، ثم اصطدم بالهضبة الحبشية الوسطى التى اعتصم بها سكانها من المسيحيين، فتحول الإسلام عنها إلى السهول والسواحل الصومالية ومنطقة "هرر" ، بينما ظل سكان السفح الغربى للهضبة الوسطى على وثنيتهم ، ثم تابع الإسلام مسيرته إلى الجنوب على الساحل الشرقى الأفريقى المطل على المحيط الهندى ، حيث كان الملاحون العرب ينزلون به متاجرين ومهاجرين منذ القرن الثامن الميلادى [٢٩] وبعده ، ولم تتوقف هجراتهم واستقرارهم به ، حتى تكونت مجتمعات إسلامية هى عبارة عن مزيج من "البانتو" وهم السكان الأصليون والعرب وغيرهم ، ونشأت بينهم اللغة السواحيلية " التى أصبحت لغة السكان على طول ساحل أفريقيا الشرقى والجزر المحيطة به ، أما سكان المناطق الداخلية فلا زالوا فى مرحلة التحول إلى الإسلام أو لا زالوا على الوثنية .

---

(٢٩) راجع : الإسلام فى شرق أفريقية : س. ترمنجهام ٣٣ وما بعدها .

الصراع بين الإسلام والمسيحية :

بعد هذا التوسع العظيم الذى بلغته القوى الإسلامية ، بدأت القوى المسيحية تلتقط أنفاسها وتقوم بهجوم مضاد ، وكان هذا الهجوم قد بدأ فعلاً بقيام حركة الإسترداد فى أسبانيا ، والذى ترتب عليه سقوط الممالك الإسلامية فى الأندلس حيث أحدق المسيحيون بالمسلمين وطردوهم ، ثم استولى النورمان على جزيرة صقلية ومدينة المهدية وأحرزوا النصر فى معركة السيادة فى البحر الأبيض المتوسط ، ثم قام المد الصليبى المعروف الذى استولى به الأوربيون على بيت المقدس وهددوا قلب العالم الإسلامى فى مصر والشام .

دافع المسلمون الصليبيين وطردوهم من الشام ، واستردوا المهدية ولكنهم فشلوا فى استرداد صقلية من أيدى النورمان ، ثم مضت القوى المسيحية فى تقدمها حتى انتهى الأمر بأكتشافات البرتغاليين ودورانهم حول أفريقيا ، واتصالهم بالمسيحية فى الحبشة ، وقيامهم بجهد مشترك لمهاجمة المسلمين من الخلف ، ففى سنة ١٤٤٢ ضرب "فاسكو داجاما" ميناء مقديشيو بالقنابل ، وأستولى سنة ١٥٠٧ على جزيرة "سومطرة" فى مدخل البحر الأمر ، وفشل المسلمون فى مدافعتهم وتدخل البرتغاليون فى الصراع القائم بين المسلمين والأحباش، ونزلوا "مصوع" واشتركوا مع الأحباش فى مهاجمة المسلمين سنة ١٥٤٣ .

وعلى الصعيد الثقافى ، قام البرتغاليون بإنشاء مراكز للتبشير فى ساحل الذهب ، وبالقرب من مصب نهر الكونغو ، وفى عام ١٤٩١ إعتنق ملك الكونغو الدين المسيحى ، وخلفه أبنه على العرش ، فعمد وسمى "الفونسو" ورسم عدد من أهل البلاد قساوسة ، ثم أسسوا أسقفية مسيحية سنة ١٦١٠ فى "لواندا" بمستعمرة أنجولا ، وفى شرق أفريقيا تابعوا أيضاً نشاطهم ، فأعتنق الملك "مونوموتابا" المسيحية على أيديهم سنة ١٥٦١ ، "وأستقر الأباء اليسوعيون والدومينكان فى حوض نهر "زامبيزى" ، ثم دخل الأسبان ميدان التبشير ، وأرسلوا عدة بعثات تبشيرية أدلت بدلوها فى هذا المضمار .

ومما سبق يتضح لنا أن القوى المسيحية ، قد نجحت آخر الأمر فى حصار المسلمين على المستوى العسكرى ، ولكنهم فشلوا على المستوى الثقافى ، فلم تحقق جهودهم نجاحاً يذكر حتى أوائل القرن التاسع عشر، ويرد كثير من الكتاب أسباب نكسة المسيحية ، وانتصار الإسلام إلى ما أصاب الكنيسة من ضعف خاصة فى مصر والنوبة فى بداية ظهور الإسلام ، وفساد رجال الدين الغربيين الذين رافقوا الحملات الإستعمارية الأولى .

ونحن لا نريد أن تشايع ما أنتهى إليه هؤلاء ، والذى لا شك فيه أن الناس دخلوا فى الإسلام لما فيه من قوة ذاتية ، وما أتخذه المسلمون من وسائل شديدة الفاعلية مما سنوضحة بعد قليل .

أسباب التحول وظاهرة التوفيق الثقافى :

إنتصر الإسلام إنتصاراً ساحقاً على المسيحية والوثنية ، وبقى صامداً قوياً على الرغم من ضعف المسلمين وإنهيار قوتهم منذ القرن الثالث عشر ، وظلت العقيدة الإسلامية قادرة قاهرة حتى الآن ، وتلك ظاهرة جديرة بالبحث والتقصى، فقد صمد الإسلام صموداً رائعاً أمام المنافسين ، بدأ بالأتراك والمغول (الذين دخلوا فى الاسلام) ومروراً بالصليبيين إلى الإستعمار الغربى الحديث رغم ما حاق بالمسلمين من هزائم وضربات وأضطهاد وتمزيق حتى كان يخيل للناس كل مرة أن لا نجاة للمسلمين من هذا الفريق أو ذاك ، خاصة الغربيين الذين حازوا كل مقومات العلم والقوة ، ومع ذلك إنتهى القرن التاسع عشر بتراجع الإستعمار ، وازدهار الإسلام ، حتى برزت له دول عديدة فى أسيا وأفريقيا ، وعلى رأسها فى آسيا ماليزيا وباكستان ، وعلى رأسها فى أفريقيا "نيجيريا" أكبر الدول الأفريقية وأغناها (علاوة على موريتانيا وتشاد والنيجر ومالى والسنغال وغانا وغينيا وأفريقيا والوسطى ، وكينيا وتنزانيا ، علاوة على أقليات ضخمة فى ذلك النطاق العريض من وسط أفريقيا فى أوغندا ومالاوى ورواندا وبوروندى وموزمبيق والكاميرون وغيرها) .

لقد سرت قوة العقيدة الإسلامية فى هذه الأرجاء بمعزل عن الفتح أو السياسة، وقد فسر ذلك المفسرون ، وأرجعوه إلى أسباب عديدة ، ولكن

السـبب الأسـاسى فى نظرنا - يرجع إلى كون الإسـلام عـقـيـدة شـاملة تحـيط بالإرادة والشعور والظاهر والباطن ، سـواء أكان الفـرد ناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ، مسالماً أو محارباً ، معطياً أو آخذاً (٣٠) .

إن شـمـول العقيدة الإسـلاميـة فى ظواهرها الفـردية والإجتماعيـة هو الميزة الخاصة للإسلام، تلك التى توحى للإنسان أنه «كل» شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين ، ثم تعيا فى الجمع بين الشطرين على وفاق، فالمسلم مستقل فى عبادته عن الهياكل والمعابد، بل وعن الكاهن ورجل الدين ، يصلى حيث يشاء، ولا يتوقف مصيره على مشيئة أحد من الكهان ، وليس بينه وبين الله واسطة ، وهو مع الله فى كل مكان ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾ والله كل شامل لا تدركه الأبصار ، ولم يقف أحد على صورته وهو شامل القدرة والمشيئة ، والمسلم أيضاً فرد مستقل ، له حقوق معروفة وعليه واجبات معروفة، وليس لأحد من الناس عليه سيادة، فالسيادة لله وحده ومحمد رسول الأمة بشر من خلق الله، والمسلم أيضاً عضو فى جماعة عبادة وحياة ، فى الصلاة الجامعة والحج إلى بيت الله ، وفى ظل أخوة إسلاميـة شاملة لا فـرق فيـها بينه وبين الأمير، ولا يفضل الغنى الفقير، ولا يفضل أحداً للون أو جنس أو حسب أو نسب أو أى إعتبار مهما كان، والمسلم يمكنه أن يرقى فى العبادة إلى منزلة يغبطه عليها الأنبياء يوم القيامة، كذلك المسلم لا ينقسم إلى قسمين، لا ينكر عليه الدين حقوق جسده، ولا حقوق روحه، ولا تنفصل دنياه عن آخرته، الدنيا والدين متلازمان منسجمان ، والإسلام يخاطب دائماً العقل والشعور معاً، والمسلمون جميعاً مهما اختلفت الوانهم وأجناسهم سواء ، فالإسلام ليس دين أمة بعينها ، وليس المسلمون أمة مختارة دون سائر الأمم ، ولا ينبغى لهم أن يظلموا أو يعتدوا، والحاكم منفذ لشريعة الله، وليس سيداً من دون الناس ، واختياره بالبيعة ، والأمر شورى ، ويستطيع المسلم أن يراجع أو يعيد النظر فى كل حكم مهما كانت منزلة من اجتهد.

---

(٣٠) راجع الإسلام فى القرن العشرين : عباس محمود العقاد ص ٢٠ وما بعدها.

هكذا التقت الثقافة الإسلامية الوافدة، بثقافات مختلفة ففى مصر التقت بالثقافة المصرية الفرعونية ممتزجة بالثقافة الأغريقية البيزنطية، والديانة المسيحية ، وكان من نتيجة هذا الإلتقاء ، ظهور الثقافة المصرية الإسلامية بكل خصائصها العامة والمحلية ، وتتكرر نفس الظاهرة فى سودان وادى النيل حيث تظهر الثقافة الإسلامية فى ثوب جديد ، بل فى أثواب متعددة تنسجم مع البيئات المختلفة فى شمال السودان وغربه وشرقه وجنوبه. وكذلك الشأن فى كل المناطق حول البحيرات ومنابع النيل.

كان الإسلام ينتشر غالباً بقوته الذاتية ، وعلى أيدى دعاة افريقيين من أهل البلاد، وكان فى إنتشاره يأخذ طريق التدرج والتفاعل مع البيئات المحلية والثقافات المختلفة، ولقد قال «مارتى» الفرنسى: إن ثوب الإسلام على الرغم من بساطته لم يكن مصنوعاً على قد الزنوج، فأعاد هؤلاء تفصيله على حسب قامتهم، واتخذوا منه زياً يلائم مزاجهم ، وقد عمل على تحوير شكله عاملان البيئة، والديانة والعقائد والطقوس.

و«مارتى» معه كل الحق فيما قال ، فالذى يحدث ، أنه غالباً ما يقوم نوع من التمازج بين عقائد الإسلام ونظمه وتقاليده، وبين النظم والتقاليد الإفريقية ، حيث يبدأ الأفريقيون فى أعتناق الإسلام ظاهراً ، ثم يرون أن إله المسلمين لا يختلف عن إلاههم ، فهم - كما سبق القول - يعتقدون بوجود إله خالق عظيم منفرد بالخلق، واسع القدرة والمعرفة ، وهو الذى ينعم على جميع مخلوقاته بالقوى الحيوية والرزق ، فيزدادون قرباً من الإسلام ، أما النبى «محمد» ﷺ والصحابة والأولياء ، فيقومون لديهم أول الأمر كصانعين للمعجزات ، أو يقومون بدور الأرباب الصغيرة، أو بدور الوسطاء بين الله والناس، أما عقائدهم فى الأرواح ، فيستبدلونها بعقائد المسلمين فى إبليس الذى عصى عن أمر ربه ، وكذلك الجان ، وغالباً ما تتبقى لديهم بعض الشعائر، وخاصة ما يتعلق منها بالسحر والكهانة، وشيئاً فشيئاً يتخذون من مزارات الصالحين والأولياء بديلاً عن الاهتمام بأرواح أسلافهم ، وقد يقوم «الشيوخ» فى القرى بالعرافة والتطبيب، فينافسون السحرة والكهنة فى صناعاتهم، ويستخدمون أساليب لا تكاد تختلف

عن أساليبهم ، فهم يصنعون الأحجبة، ويبيعون التمائم والتعاويذ التى تحتوى على آيات من القرآن الكريم، وقد يدعى بعضهم القدرة على استحضار الجان والعفاريت بتلاوة العزائم.

وعلى الرغم من أن الإسلام الصافى لا يعترف لهم بذلك، إلاّ أنه يبدو أن هؤلاء المشايخ قد قاموا بدور فعال فى التوفيق الثقافى وتدريج الإنتقال من الثقافة الأفريقية إلى الثقافة الإسلامية.

الإسلام بذلك لم يفرض على الشعوب الإفريقية فرضاً في ظل حكم أجنبى إنما حمله قوم من أهل إفريقيا نفسها، سواء أكانوا تجاراً أو معلمين فليس غريباً أن يلقى قبولاً منهم ، فهو فى نظرهم دين إفريقى غير دخيل .

يضاف إلى هذا أن الإسلام عقيدة سمحة بسيطة، ملائمة لكل العصور والبيئات يتلائم معها ويتداخل فى كيانها ، وقد استطاع أن يخلق فى كل منها طابعاً محلياً يناسب الجماعات المختلفة فى أمزجتها وأذواقها ، ويكسب نظمها المحلية شكلاً جديداً يناسب تقاليدها، كذلك فإن العبادة فى الإسلام بسيطة ميسورة ، لا ترتبط بمكان ولا برجال محترفين، ولم يكن ديناً فحسب، بل كان ديناً وثقافة ، ولذلك ارتبط الإسلام بالعلم، وكان لهذا الإرتباط أثر عظيم فى حياة الأفريقيين ، فما يكاد المرء يسلم حتى يتعلم القراءة والكتابة، فيرتفع قدره إجتماعياً، وقد أثر فى نفوسهم إرتفاع مستوى المسلمين ثقافياً واجتماعياً، كما أن الإسلام يخلو من التفرقة العنصرية فهو لا يعترف بحواجز الطبقات أو الجنس أو اللون، ولا يحول بين المسلم والتمتع بكامل حقوقه فى الحياة .

لم تقم دعوة الإسلام على القسر ، وإنما قامت على الإقتناع، وعلى اكتاف دعاة لا يملكون سوى الإيمان وقدوة السلوك ، وهو على ذلك سهل المتناول، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه، سهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف، ووسائل الإنتساب إليه أيسر ، إذ لا يتطلب الأمر سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح المرء فى عداد المسلمين ، ومما حبب الإسلام لديهم أيضاً، مظاهره البعيدة عن التكلف، التى تضفى على المسلم وقاراً وجاذبية ساحرة ، وتمده بالقوة والحيوية، وترفع مكانته الإجتماعية.

ولما كان الإفريقى جماعياً فى ثقافته وأسلوب حياته ، يعتز بإنتسابه إلى جماعته وقبيلته ، فقد وجد فى جماعة المسلمين وأخوتهم الحارة مدداً جديداً يضاف إلى رصيده، ولا يحرمه من جذوره، فكانت له فى جماعات الصوفة ومجالسها ومنتدياتها عزوة وسلوى بالغة الأثر فى نفسه.

وقد أدى انتشار الإسلام إلى استبدال هذه الشعوب فنونها وآدابها بالأدب العربى الإسلامى، وظهرت عبقرية الفن الإسلامى فى كل مكان ، أما المناطق التى لم يدخلها الإسلام حتى ذلك الوقت ، فقد ظلت على فنونها وآدابها القديمة، ولكن الأمر لا يخلو من بعض التأثيرات الإسلامية ، كما أن زحف الإسلام السلمى لم يتوقف لحظة واحدة.

وقد كان للعرب فى اليمن وأطراف الجزيرة العربية قبل الإسلام فنون واداب راقية، كشف عنها النقاب فى العصر الحديث، ولما اعتنق العرب الإسلام وخرجوا من جزيرتهم إلي ما حولها، أقبلوا على فنون الأمم الأخرى، وأقبلوا على المساجد يرفعون من شأنها، وينمقونها إجلالاً وتعظيماً لقدرها، حتى لا تقل فى العظمة والبهاء عن تلك الكنائس الفخمة التى شاهدوها فى البلاد المفتوحة، ثم عملوا على تجميل عواصمهم لتستهوى النفوس، وتروق فى أعين المسلمين ، والإسلام يدعو إلى الجمال وإلى الرقي المادى والمعنوى ، فلم يجد المسلمون حرجاً يحول بينهم وبين الإقبال على الفنون الجميلة فى شتى صورها ، فانصرفوا إلى الحياة المدنية وابدعوا فيما أبدعوا فنوناً من العمارة والنقش والخط والحفر والنحت والتصوير والزخرفة وما إليها ، وصناعة الخزف والمنسوجات ونقش المعادن والعاج والأخشاب وكانت فى بادىء الأمر مزيجاً من فنون الروم والفرس ومصر والعراق وشمال أفريقية وبلاد القوط.

وعندما قامت الخلافة العباسية فى العراق، والى جانبها الخلافة الأموية فى الأندلس ، ثم الفاطمية فى مصر والمغولية فى الهند والعثمانية فى تركيا إستقام عود الفن الإسلامى ، ونضج وتحددت معالمه واكتملت شخصيته، فأضاف

(٣١) راجع : مقالة بعنوان «مكانة الفن الإسلامي بين الفنون" د. محمد مرزوق، مجلة كلية الآداب مجلد ١٩٨ جـ١ مايو ٥٧ .

المسلمون إلى الفنون السابقة، وهذبوها وأخرجوا بعد ذلك فناً جميلاً فيه متعة للفكر، وراحة للعين، وغبطة للنفس، ثم ذاع وانتشر فى أنحاء الدنيا حتى بلغ أواسط الصين وجميع أرجاء أوروبا وشرق ووسط وغرب أفريقيا ، ولا يتسع المجال لتقصى هذه الآثار، ولكن ينبغى الإشارة إلى ما بلغه المسلمون فى فن العمارة من عظمة وروعة، حيث طوروا كثيراً من العناصر المعمارية كالعقود والشرفات والمآذن ، أما فن الخط فقد سما به الفنان المسلم إلى الذروة جمالاً وإجادة، وزينوا به العمائر والخشب والعاج والزجاج والمنسوجات والقصور والخزف والمساجد ، زينوها بالآيات القرآنية والعبارات الدينية وغيرها ، حتى صار هذا الفن قاسماً مشتركاً فى فروع الفن الإسلامى، وكان طرازاً فريداً تحولت به الحروف العربية إلى أشكال نباتية وهندسية وحيوانية محورة أو غير محورة وأوضاع وطرز زخرفية تبدو فى صور من الجمال لا تنتهى [٣٢].

وتعد الطنافس الشرقية التى أبدعت صنعها أيدى المسلمين تحفاً فنية علاوة على ما فيها من توازن الفكر وإنسجام الصنعة والتنوع والإبداع، يسحر مرآها العيون، وترتاح إلى ملمسها اليد، حتى أقبل عليها الأغنياء فى كل أنحاء الدنيا، وفى كل العصور، وانعكس ذلك فى صور قصورهم ونوافذهم وشرفاتهم بل ولوحات فنانيهم، كذلك الخزف المزين بآيات من القرآن الكريم، ومنها أنواع مبتكرة لم يسبقهم إليها فنان فى الشرق أو الغرب[٣٣] كذلك برع الفنان المسلم فى صناعة الحرير والمنسوجات الأخرى وفنون التصوير ، التى كانت آيات فنية رائعة ، أكسبت الفنون الإسلامية أحتراماً وتقديراً حتى يومنا هذا، وكانت مدارس الفن الإسلامى تتجدد بصفة مستمرة ، كلما استجدت عاصمة من عواصم العالم الإسلامى .

---

(٣٢) كتب الأوروبيون على بعض تحفهم عبارات عربية مثل «لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله دون أن يفهموا معناها حيث ظنوا أنها مجرد زخارف ، وسمى هذا الفن «الأرابيسك» أو «الرقش» أو «التوريق».

(٣٣) منها الخزف ذو البريق المعدنى.

الفصل الثالث

عودة المسيحية إلى حلبة الصراع من جديد

الأستعمار الأوربى و مرحلة جديدة فى الصراع:

المعروف أن العالم الإسلامى بلغ أوج قوته فى الناحية الثقافية فى القرن الخامس عشر الميلادى، وكان سقوط بغداد سنة ١٩٥٨م سبباً فى تركيز هذه الثقافة فى مصر المملوكية، كما كان سقوط الأندلس سبباً فى تطور مماثل فى المغرب الأقصى، ولم تلبث الثقافة الإسلامية أن وجدت لها مرتكزاً جديداً فى عاصمة الدولة العثمانية، ولكن سرعان ما بدت الثقافة الإسلامية، وكأنها قد قطعت آخر الشوط الذى بدأته منذ ظهور الإسلام.

فى هذا الوقت الحاسم ظهرت القوة الأوروبية ، وبدأت تسير سيرها الحثيث نحو التقدم، وكانت جهود الأسبان والبرتغاليين فى الكشف الجغرافى هى طلائع النهضة الأوروبية التى تفجرت تفجراً عنيفاً متدفقاً، ولم تستطع جهود المسلمين أن تلاحق الأوروبيين فى تطورهم وتقدمهم، فتخلفوا عن الركب، وساروا فى طريق التخلف.

ولا يعنى هذا أن المسلمين قد توقفت جهودهم نهائياً ، بل الصحيح أنهم تابعوا المسيرة بجهد محدود ، ونشاط أقل، وترتبت على جهودهم تلك رغم ضآلتها وقلتها نتائج هامة، خاصة فى إفريقيا، ومن تلك الجهود ما بذلته مصر فى السودان الشرقى منذ مطلع القرن التاسع عشر وجهود المغرب فى السودان الغربى، وجهود العرب فى شرق أفريقيا ، والتى تمخضت عن انتصارات ساحقة، ونتائج مبهرة على الصعيد الثقافى ، حتى برزت بهذه الجهود أمماً إسلامية لا تقل عن مثيلاتها القديمة عدداً وقوة وتطلعاً إلى المستقبل .

تحققت هذه النتائج وأوروبا ممسكة بزمام المسلمين ، وبيدها مقاليد القوة والسيادة والعلوم، وبلغ هذا التطور غايته بإحتلال الأوروبيين لبلاد المسلمين جملة.

تركـزت جهـود الغـرب فى المراحل الإسـتـعـمـارية الأولى على اسـتنزاف الموارد الطبيعية للبلاد المحتلة، فلم تعمد إلى نشر الثقافة المسيحية إلا لماماً ثم باءت جهودهم بالفشل تباعاً كما سبق القول، ثم تطورت أولوياتهم منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وعملوا على نشر المسيحية بين أبناء القارة.

عاودت المسيحية جهودها فى شرق افريقيا بعد أن سيطر الإنجليز على زنجبار سنة ١٨٤٠، وقام أحد المبشرين بالإستقرار فى ممباساً ، وترجم الكتاب المقدس إلى السواحيلية ، وتبعه آخرون اتجهت جهودهم إلى نشر المسيحية فيما يلى الساحل، وتأسست بعثة كاثوليكية عام ١٨٦٠ على الساحل ، وأستقر آخرون فى تنجانيقا «تنزانيا الآن» وفى كينيا ، وتطرقوا إلى أوغندة سنة ١٨٧٤ بعد اكتشاف منطقة البحيرات العظمى ، وأرسل الملك «ليوبلد الثانى» والإنجليز والأمريكيين بعثات متعددة إلى الكونغو.

أما فى السودان فقد بدأ النشاط التبشيرى يطرق بابه أثناء الحكم المصرى وكان للسودان أهمية خاصة فى نظر الغرب ، نظراً لمرور الطرق المؤدية إلى غرب افريقيا وجنوبها وشرقها فى أراضيه، كما رأوا فيه دائماً باباً يمكنهم من الوصول إلى مملكة أثيوبيا المسيحية التى كانوا يسعون إلى الإستيلاء على كنيستها القبطية ، وكان الرهبان الفرنسيسكان والجزويت يمرون بالسودان الشمالى خلال القرن الثامن عشر فى طريقهم إلى إثيوبيا ، ولكن عندما تم إحتلال السودان فى عام ١٨٢٠ بدأ المبشرون يوجهون إهتمامهم الى السودان ذاته ، وحرص المبشرون الإنجليز والفرنسيين الذين كانوا قد أنشأوا مراكز لهم فى شرق افريقيا على مد نفوذهم إلى وادى النيل [٣٤] .

وكان من أهداف إنجلترا أيضاً العثور على طريق يصل بين أوغندة والأصقاع الشمالية، ثم أقام المبشرون مدرسة كاثوليكية فى الخرطوم، وكرسيا رسولياً لأفريقيا الوسطى برعاية البابا «جريجورى الرابع عشر» ولم يلبث هذا الكرسى الرسولى أن مد نشاطه إلى الجنوب ، فأنشأ مركزاً تبشيرياً فى «غندوكرو» سنة ١٨٥٠ ، وآخر فى «كاكا» سنة ١٨٦٢ .

(٣٤) راجع «جنوب السودان» محمد عمر بشير ص ٣٧ وما بعدها .

وكانت ساسة مصر وحكامها يحسنون الظن بالأوروبيين آنذاك ، فشجعوا تلك البعثات، وقدموا لها كل التسهيلات والحماية، وقدم «غوردون» للمبشرين مساعدات جمة ودعاهم للعمل فى المديرية الاستوائية التى عين حاكماً عليها من قبل الحكومة المصرية، وترجم الإنجيل إلى لغة «الدنكا» سنة ١٩٦٢، وعندما احتلت بريطانيا الأراضى المصرية عام ١٨٨٢ فتحت الباب على مصراعيه للتبشير ، وعندما ضعف النفوذ المهدى على جنوب السودان سنة ١٨٩٥ بهزيمتهم فى معركة أم درمان، إنتقل مصير الجنوب من أيدى الافريقيين إلى أيدى الأوروبيين الذين فتحوا الباب من جديد أمام التبشير على أوسع نطاق.

ولم يقتصر إهتمام جمعيات التبشير المسيحية بالسودان فى ظل الحكم الأوربى على الإرساليات الإنجليزية ، بل شاركت فيها جميع الدول الأوروبية تقريباً، فقد أرسلت «ألمانيا» إرسالية سنة ١٩٠٠ إلى السودان وأخرى إلى أسوان للعمل بين قبائل البشارية فى شمال شرقى السودان، وبين أبناء دنقلة وسميت فيما بعد «الإرسالية المتحدة للسودان، ومن أعضائها النشطين الدكتور «كارل كوم» الذى وصل إلى السودان سنة ١٩١٠ وارسلت النمسا كذلك بعثة كاثوليكية ، وأخيراً قسم الجنوب إلى مناطق نفوذ لكل بعثة قسم منها حتى تحول الجنوب إلى ساحة تبشيرية مفتوحة.

ثم اتفقت البعثات التبشيرية على أنه ينبغى التخلص من النفوذ الإسلامى فى جنوب السودان فى أقرب وقت ممكن، وفى عام ١٩٠٤ م كتب «وينجت» إلى حاكم مديرية بحر الغزال يبلغه أنه لا يجوز تدريس اللغة العربية لغير المسلمين ...... ولما كان «وينجت» غير متحمس لترويج الإسلام فى بلاد لم يصبح فيها هذا الدين ديناً لأغلبية السكان، فإن اللغة الإنجليزية ينبغى أن تكون هى لغة التعليم (٣٥) ، وذكر فى المؤتمر العالمى للمبشرين الذى انعقد فى «أدنبرة» فى ١٩١٠ م أن السباق بين الإسلام والمسيحية فى إفريقيا ، هو الأمر الذى ينبغى أن تكون له الأولوية على كل ما عداه بين القضايا التى تواجه المبشرين.

---

(٣٥) السابق ص ٦٨ .

لم تلبث الظروف العالمية أن تغيرت عقب الحرب العالمية الثانية نتيجة لتراكم المعرفة، والتطور الحضارى الهائل، الذى أدى إلى سرعة التواصل بين شعوب العالم، وبزوز مبادىء الحرية وحقوق الإنسان وحق تقرير المصير للشعوب ، وغير ذلك ، مما ترتب عليه بالدرجة الأولى القضاء على ظاهرة الإستعمار المباشر ، حيث أدرك الغرب أن ذاك عصر قد فات أوانه ، وعليه أن يخرج سلماً قبل أن يخرج مرغماً ، وانطلاقاً من هذا المبدأ ، أعد الغرب عدته ، وخطط استراتيجيته، حتى يستمر ممسكاً بزمام القوة العسكرية فى العالم، متحكماً فى اقتصاديات الشعوب ، ومسيطراً على مقدراتها ، وقادراً على توجيهها فى الوجهة التى يراها محققة لمصلحته .

وكان من بين أهدافه أن يمحق ثقافات الشعوب أو يحورها إلى ثقافة غربية هزيلة ممسوخة لا ترق بالشعوب إلى مستواه، وإنما تجعلها أكثر قبولاً وخضوعاً للتوجيه وفرض الإرادة، وتلك هى ما يسمى بسياسة التغريب الثقافى وأبرز الوسائل التى توصل إليها الغرب فى هذا الشأن هى:

أولاً : نشر المسيحية: على نمط من صنعهم وتدبيرهم، لا كما ينبغى أن تكون ، كما أن لهم من وراء ذلك أهداف سياسية واقتصادية، أبرزها القضاء على الثقافة الإسلامية وحصار المسلمين، والتمكن من فرض أنماط استهلاكية وإتاجية تحقق مصلحة الغرب والرأسمالية العالمية. ومن بين المناطق التى كان لها الأولوية فى هذا المخطط منطقة حوض النيل.

ثانياً : القضاء على الثقافة الإسلامية: فى وسط القارة وجنوبيها ، لمقابلة الحزام العربى الإسلامى فى الشمال بحزام أفريقى مسيحى فى الوسط والجنوب ، بهدف منع التأثيرات العربية الإسلامية من النفاذ إليه، وحصر المسلمين بين حزامين : أوروبى شمالى وأفريقيا جنوبى، بمعنى أن لهم فى التبشير أهدافاً غير دينية، تنم عن آثار ثارات قديمة بينهم وبين العرب، لم تشف منها قلوبهم، ولو كانت نياتهم خالصة للمسيحية ، لتعاونوا مع المسلمين، ولكنهم يبغونها حرباً وصراعاً، واين المسيحية الحقة من كل هذا؟

من أجل هذا حاول الغربيون وما زالوا يحاولون، الوقوف فى وجه انتشار اللغة العربية، وكان الهدف من ذلك حرمان الشعوب الأفريقية من لغة عامة شاملة بينهم، يتفاهمون بها ويتعاملون ، إذا ما اختلفت لغاتهم، وكانت اللغة العربية قد قطعت شوطاً بعيداً فى هذا المضمار ، وتسربت إلى كل مكان فى القارة، فعمد الأوروبيون إلى محاولة الوقوف فى وجه انتشارها وشيوعها ، واتخذوا لذلك الوسائل الآتية:

١- منع تعلمها، والحيلولة بين التقاء العرب والأفريقيين إلى الجنوب منهم، فاغلقوا الطرق والمسارب الصحراوية فى الصحراء الكبرى، وحولوها إلى موانىء أنشأوها على المحيط الأطلنطى، وأقاموا الحدود والموانع بين العرب والأفارقة .

٢- تدعيم اللغات الوطنية وكتابتها والتعليم بها، للوقوف بها فى وجه العربية.

٣- وفى مرحلة تالية عمد الأوروبيون إلى نشر إحدى اللغات الأوروبية كبديل عن اللغة العربية ، واللغات الوطنية ، لتصبح قاسماً عاماً مشتركاً بين الأفريقيين، ووسيلة للإفصاح والتعبير.

ويدعى كثير من الكتاب الأوروبيين، إن الإفريقيين لم يعرفوا الكتابة إلا منهم ، وهذه مغالطة ، فالكتابة العربية كانت معروفة لديهم منذ أمد بعيد، فى أنحاء متعددة من القارة، ثم ادعى بعضهم أن حروف الهجاء العربية تعجز عن التعبير عن كثير من الأصوات الافريقية .

ويقول البعض معللاً استخدام اللغات الأوروبية ، أن السبب فى ذلك هو كثرة اللغات وكثرة لهجات اللغة الواحدة، وهذا أيضاً سبب لا يدعو إلى إهمال اللغات الوطنية ، فكل الشعوب لها لهجات مختلفة، وتستطيع إحدى اللهجات بمعاونة أجهزة الإعلام الحديثة، أن تتغلب على الأخرى، كما حدث للغة السواحيلية فى شرق أفريقيا ، والهوسا فى غربها.

ولعل السبب الحقيقى هو تلك السياسة التى أشرنا إليها ، فقد حرمت فرنسا على سبيل المثال فى مستعمراتها إستخدام اللغات الوطنية فى المدارس ، وفرضت تعليم اللغة الفرنسية(٣٦).

واتخذت بريطانيا فى مستعمراتها سياسة أكثر خبثاً ، فكانت تفرض التعليم باللغات الوطنية فى المرحلة الإبتدائية، بهدف إذكاء الفرقة اللغوية ، ثم تفرض التعلم بالإنجليزية فى المرحلة الثانوية ، فعملت بذلك على الإبقاء على تعدد اللغات، وزيادة التباعد بينها، وإحياء العديد منها فى ذات الوقت ، لمواجهة نفوذ اللغة العربية، التى كانت تزدهر فى مستعمراتها، وكانت أيضاً اللغة المشتركة بين الشعوب المختلفة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية عملت على إستبدال هذه اللغات جميعاً ومنها العربية باللغة الإنجليزية، وكذلك كان الحال أيضاً فى المستعمرات البلجيكية وغيرها.

كذلك قامت بعثات التبشير ، بطبع الكتاب المقدس سنة ١٩٥٠ م بمائة لغة أفريقية مختلفة، وقد أدت هذه السياسة بالفعل إلى وقف إنتشار العربية، وكانت النتيجة أن صارت اللغات الأوروبية هى لغة المثقف الأفريقى ، ووسيلة الإتصال بين الأفارقة، ولغة التعلم والتعبير فى معظم أجزاء القارة (٣٧).

ثالثاً : إستهدف الأوربيون أيضاً فيما يتعلق بالرق ، إلقاء المسئولية علي المسلمين فى شرق القارة ووسطها ، مع أن الغرب له تاريخ طويل فى مضمار الإستعلاء العنصرى ، وأدعوا أيضاً أنهم هم الذين قاموا بتحرير

---

(٣٦) يحدثنا «برنارد داديه» فى قصته «كيليمبيا» عن مشاعره وهو تلميذ صغير فى المدرسة حين صدر قرار يحرم على التلاميذ الحديث في الفصل بلغتهم القومية ويعاقب المخالف بعقوبات متفاوتة منها أن يسخر فى كنس ومسح المدرسة.

(٣٧) يعبر شاعر «هاييتي» عن هذه المأساة بقوله:

هل تشعر بهذا الألم
وهذا اليأس عديم النظير
باستخدام كلمات فرنسية
للتعبير عن شعور سنغالى؟

الرقيق ومنعه ، مع أن جهود مصر فى ذلك لا يستطيع أن ينكرها أحد، وليس صحيحاً أن الأوربيين الغوا الرق بل الصحيح أنهم نظموه وطوروه[٣٨].

وليس صحيحاً أيضاً ما أدعاه الغرب من الصاق التهمة بالمسلمين ، فالمسلمون كما هو ثابت تاريخياً لم يقوموا بالإختطاف الذى هو محرم شرعاً، وإنما أقتصر دورهم على شراء الرقيق من بائعيهم، والإسلام يحرم الاسترقاق فى جميع صوره.

الإسلام كمبدأ، إجتث المرتكز الذى تقوم عليه عملية الإسترقاق. وذلك حين قرر مبدأ المساواة بين الأجناس، وقرر أيضاً أن الأصل فى الإنسان أن يولد حراً فإذا كانت هذه الحرية بين الأجناس تعرضت للمصادرة بشكل ما، فيجب أن توجد الوسيلة لاستردادها ، ولذلك نرى القرآن الكريم يشرع العتق ولم يرد فيه نص يشير من قريب أو بعيد إلى جواز الاسترقاق بل لم ترد فيه كلمة الاسترقاق أو مشتقاتها ، كما لم ترد فى أحاديث الرسولﷺ ، أما ما ورد فى القرآن من حديث عن «ملك اليمن» فقد جاء بصيغة الفعل الماضى ، مما يرجح أن المقصود ما هو قائم بالفعل من رواسب الجاهلية.

ومن الأمور التى قررها لذلك:

١- تحريم الاختطاف بشتى أنواعه، وهذا يقطع السبيل على الاسترقاق ويوقف مصادره، ويجفف منابعه.

---

(٣٨) كان الهدف القديم من الاسترقاق هو استغلال قوى الرقيق لصالح السيد وتوجيه عمله كله لصالحه، ولأن قتل الحرية الشخصية ليس هدفاً فى ذاته ، لذلك طور الغرب خطته بحيث أصبح الرق استغلال قوى مجموع بأكمله لصالح مجموع آخر وقد ترتب على هذا التطور: (١) تحول الاسترقاق من ظاهرة فردية إلى ظاهرة جماعية (٢) إستخفاء الاسترقاق في أثواب متعددة يصعب الكشف عنها، وتقل فى ذات الوقت الأحاساس بخطرها (٣) تنتفى مسئولية المستغل عن رقيقه وهذا أبشع وأخطر من الاسترقاق القديم لأن السيد القديم كان مسئولاً عن رفيقه يطعمه ويحافظ على صحته كسلعة ، أما الآن فلم تعد للسيد الاعتبارى الجديد أية مسئولية مباشرة (٤) لم تعد هناك حاجة لنقل الرقيق من أوطانهم، بل يتم استغلال الناس في أوطانهم وثرواتهم.

٢- أما المسترقون فعلاً فقد فتح لهم الباب واسعاً لاسترداد حرياتهم، وقرر لذلك هذه الأمور:

(أ) للرقيق الحق فى طلب الحرية بالمكاتبة، وللقاضى أن يجبر السيد على ذلك ليس ذلك فحسب، بل فرض الإسلام على الحكام معاونة المكاتب بالمال حتى يتمكن من استرداد حريته بأسرع ما يمكن، وجعل هذه المعونة مصرفاً من مصارف بيت مال المسلمين،

(ب) إذا حلف المسترق أن سيده أعتقه، يقضى له بذلك فوراً على الرغم من مخالفة ذلك لقاعدة فقهية مشهورة وهى : «البينة على من أدعى».

(جـ) من أعتق عبده بأى لفظ كان ، ينفذ ، حتى لو كان مازحاً أو سكراناً.

(د) من قال لعبده: «أنت حر» بعد وفاتى ، حرم عليه الاسلام التصرف فيه بالبيع ، وليس له أن يرجع فيما قال، وهذا هو المدبر».

(هـ) إذا لطم السيد عبده أو جلده فكفارته عتقه.

(و) جعل الإسلام تحرير العبيد مصرفاً من مصارف الزكاة.

(ز) جعل الإسلام كفارات المآثم عتق الرقاب.

( ) رغب الإسلام الأحرار فى الزواج بالمسترقات، والحرائر فى التزوج بالأرقاء فتتحرر المسترقة والمسترق.

(ح) كل مسترقة تنال حريتها بمجرد إنجابها، وبتحرر أولادها ويرثون آباءهم أسوة بإخوتهم الحرائر، وإذا حررت الجارية تمهيداً للزواج منها بوسعها أن ترفض .

(ط) من جاء إلى المسلمين من المسترقين لغيرهم، يحرر وليس من حق أحداً أن يرده.

(ى) جعل القرآن الكريم العتق من أعظم القربات إلى الله.

ومن الحقوق التى جعلها الإسلام للمسترقين، الذين يؤثرون البقاء فى كنف أسيادهم:

١- يقطع السيد بقطع عبده، ويجدع بجدعه، ويقتل به، وقد أتفق على هذا معظم المشرعين المسلمين،

٢- جعل الإسلام للمسترق الحق فى أن يطعم مما يأكل سيده ، ويلبس مما يلبسه ويجلس معه عند الطعام .

٣- لم يرد فى القرآن الكريم ما يجيز إتخاذ الإماء سرارى بغير زواج، واستنتج الفقهاء من ذلك أن المسترقة لا تستباح لغير مالكها.

٤- يفهم من كل هذا أن الإسلام قد فتح الباب واسعاً للمسترقين كى يستردوا حرياتهم، فإذا لم يستردوها ، فهم فى الإنسانية أحراراً ، لهم من الحقوق على سادتهم ما يجعلهم فى منزلة لائقة كريمة، لأن المصادر فى الحقيقة هو الحرية وليس الإنسانية التى له بها الحق فى أنواع متعددة من الحرية والاختيار والحقوق، وهذا شبيه باستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على التبادل أو التعويض بالفداء (٣٩) .

ولقد نهى الإسلام عن كل ما يجرح إحساس وشعور المسترقين أو يمس إنسانيتهم بالفعل أو بالقول، بالجد أو بالهزل، وقام الفقهاء والمشرعون بوضع القوانين المنظمة لحياة المسترقين وأحوالهم وحقوقهم ، وكل ما يتعلق بهم من أحوال شخصية وزواج وطلاق وميراث وغير ذلك.

ونحن إذا نظرنا إلى كل ذلك فى ضوء الظروف آنذاك، حيث لم تكن للعبيد قبل الإسلام حقوق ، وحيث كانت الحياة قاسية غير مأمونة لدرجة أن بعض الناس كانوا يسعون إلى بيع أنفسهم وأولادهم حذر الموت جوعاً وحيث كانت الحرية لا تعنى الكثير لطبقات بأسرها، كانت تجد لها مأمناً وملاذاً فى كنف السادة، إذا أدركنا كل ذلك، عرفنا مدى رقى الإسلام وسمو نظرته ، وحرصه على كرامة الإنسان والإنسانية.

وقد سأل سائلون عن جهل بهذه الظروف، وغفلة عن واقع الحياة آنذاك ولماذا لم يقرر الإسلام فى صراحة تحرير الرقيق، طالما أنه أمر بقطع السبيل عليه وتجفيف منابعه ؟.

(٣٩) راجع: السود والحضارة العربية د. عبده بدوى ص ١١٢ وما بعدها.

والواقع أن الإجابة على هذا تكمن فى نظرة الإسلام الواقعية ، لأن من سمات الإسلام ، بل من أخص خصائصه أخذ الناس بالتدرج فيما تعودوه وأعتادوه لأن التدرج واللين يفعلان دائماً فعلهما ، ويؤتيان ثمارهما دون صراع، ودون أن يقلب نظام المجتمع وموازينه دفعة واحدة، مما قد يؤدى إلى إنهيار وإفساد ، وأى مبدأ فى الحياة لا يمكن أن يبدأ من حد الصفر، لأنه إنما يبدأ فى مجتمع قائم بالفعل له نظمه وموازينه، فالتدرج هو الوسيلة الأجدى والأنفع والقادرة على التغيير ، وهكذا كان الإسلام.

لقد أراد الإسلام للمسترق نفسه، أن يطالب بحريته، حين يدرك قيمتها، وحاجته إليها والمسئولية المترتبة عليها، بمعنى أنه أراد أن يتخلص المسترق أولاً من آثار العبودية ، ويعطيه الوسائل لإسترداد حريته بإختياره وبناء على رغبته وفى الوقت الذى يناسبه .

والأمر الثانى ، إن إلغاء الرق لا يتم بالتشريع بقدر ما يتم بتحرير الإنسان نفسه، والإنسان هنا يشمل السادة والعبيد، ولما كان الاسترقاق فى مضمونه إستغلالاً، وطرق الإستقلال لا أول لها ولا آخر، فما فائدة الحرية الشكلية ما لم تكتسب مضموناً عملياً، وهذا المضمون العملى لا يتأتى إلا باقتناع الناس سادة وعبيداً بقيمة العدل، والحرية قيمة أساسها العدل ولو تحرر الناس من رغبتهم فى الاستغلال لما بقى فى الناس عبد، والعبد حين يتحرر من داخله ، أعنى عندما يدرك إنسانيته ، ويعرف قيمتها عند نفسه وعند الله فمن ذا الذى يستطيع أن يستعبده ؟

بعض العبيد قد لا يقدرون على تبعات الحرية، بل إن بعض الأحرار لا يقدرون معناها، ولا يقدرون أيضاً على تبعاتها، وما دامت الحرية حق من الحقوق ، وأخص خصائصها النسبية، فلها أيضاً مسئوليات ، بل هى أساس المسئولية، ولقد كان الإسلام مدركاً لهذه الحقيقة، ولذلك نراه يجعل مثلاً نصف عقوبة الجرائم على العبيد، لأنهم بدرجة ما - فاقدى المسئولية وهكذا مهد الإسلام لعلاج المشكلة وحلها بما يتفق مع الطبيعة البشرية ويلائم ظروف الحياة.

ومن سوء الحظ ، أن الخطط التى وضعها الإسلام لتحرير الرقيق والشرائع التى وضعها وقررها لتصفيته والقضاء عليه، لم تبلغ ما كان ينبغى لها أن تبلغه، فبعض المسلمين لم يكونوا على مستوى سمو الإسلام بل لم يفهموه، وكأنه قد دق عن مدركاتهم، وغاب معناه عن أرواحهم وقلوبهم ، ونحن لا نخلى بعض علماء الأمة وفقهائها من المسئولية لصمتهم غير الكريم على من أباحوا نظام التسرى والاستمتاغ بالمسترقات دون نكاح شرعى، فهذا محرم بإجماع الأمة[٤٠].

ومع ذلك فنحن نرى أن العلاقة التى كانت تربط المسترقين بسادتهم فى إطار الحضارة العربية الإسلامية لازالت فى حاجة إلى مزيد من البيانات، لأنها لم تلق العناية من الكتاب والمفكرين ، وخاصة الأوروبيين ، بل لم تلق الإنصاف بل تعرضت للزيف.

كان الأرقاء فى الشرق الإسلامى كأفراد الأسرة، وكانوا يتزوجون أحياناً من بنات ساداتهم، وكانوا يستطيعون أن يصلوا إلى ذروة الهرم الإجتماعى، ولقد وصل بعضهم إلى الخلافة كابن شكلة ، وتولاها أيضاً من كانت أمه من الجوارى كالمأمون ، ومن كانت أمه من النصارى كعبد الرحمن الثالث بالأندلس، ووصل بعضهم إلى منصب الإمامة كأحمد الرشيد، وإلى حكم بلد كمصر كأبى المسك كافور، وإلى قيام دول بإسمهم كالدولة النجاحية فى اليمن ، وإلى قيام ثورات رائدة فى المطالبة بالعدالة الاجتماعية كثورة الزنج بالعراق.

---

(٤٠) السود والحضارة العربية ص١١٧.

الفصــل الرابــع
الإنعكاســات والنتائــج

رد الفعل الإسلامى:

لقد وطد الغرب سيطرته، وطور خططه قبل انسحابه من أفريقيا وترك ثقافته تصارع الثقافة الإسلامية والمحلية من خلال أنصارها الوافدين والمحليين، وكان لابد للمسلمين فى أفريقيا وفى حوض النيل من مواجهة الثقافة الغربية وقد واجهوها وهم مغلوبون على أمرهم مقهورون عسكريا وسياسيا، وهم يواجهونها الآن أيضا مكرهين، يواجهونها ثقافة فتية متحررة، مجددة ومبتكرة تأتى لهم كل يوم بجديد فى الكشوف والعلوم، وتهددهم فى عقر دارهم بينما هم يعيشون فى قوالب جامدة محافظة تعيش على تراثها القديم.

وكانت الطبقة الواعية فى العالم الإسلامى فى موقفها من هذه المشكلة فرقا، فريق المجددين: الذين سعوا إلى الإصلاح، ومحاولة التقريب بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، بحيث تحتفظ الثقافة الإسلامية بخير ما فيها وتأخذ من ثقافة الغرب أيضا خير ما فيها، وقد عمدت فى ذلك إلى محاربة البدع والعادات السيئة، ووقفوا موقفا عنيفا من الطرق الصوفية متهمين أياها بأنها السبب فيما شاع بين الناس من بدع وخرافات، وأنها كانت حربا على الدنيوية، كما عمدوا أيضا إلى إصلاح التعليم العالى وتطعيمه بالأفكار الجديدة والملائمة، ونادوا بضرورة تحرير الثقافة الإسلامية، والقضاء على القيود التى يفرضها الفقهاء على المعرفة وكان لهم رأى فى الخلافة ونظامها، وفى ميدان الشريعة الإسلامية، محاولين الملائمة بين الأحوال الشخصية للمسلمين وبين الآراء الجديدة، بل كانوا يهدفون إلى خلق نزعة رومانتيكية تحررية تهدف إلى تخليص الخيال من الآراء المفروضة ودراسة التراث الإسلامى دراسة نقدية تحليلية، وحاولوا ما استطاعوا الدفاع عن الإسلام فى وجه التأثيرات الأوروبية بدراستها والرد عليها (٤١).

---

(٤١) من هؤلاء : الشيخ محمد عبده فى مصر والفيلسوف والشاعر محمد أقبال فى الباكستان .

والفريق الثانى هم المستغربون، الذين دفعهم مركب النقص إلى السير وراء الثقافة الغربية، وإستخدام طرائقها فى الفكر والسلوك، بل واللغة، مهملين الثقافة الإسلامية واللغة العربية إلى حد بعيد.

أما الفريق الثالث فهم السلفيون، الذين رأوا أنه لا عاصم من أفكار الغرب وشروره ومفاسده، ولا منجاة من الضعف والتخاذل الذى شاع فى الحياة الإسلامية إلا بالعودة إلى ماضى الإسلام المشرق (٤٢) وقد عادى هؤلاء أيضا الصوفية، ومنها مجموعات لم تسفر عن هذا العداء، وتلك هى الحركات المهدية التى رأت أن الأمر لا يصلح إلا بالجهاد ومحاربة الإستعمار وآثاره فى كل مكان.

أما الفريق الرابع فهم الصوفية أنفسهم، حيث عمت فرقها نهضة شاملة ونشأت فرق جديدة، واتحدت أهدافهم مع أهداف بعض المصلحين فى مقاومة الحضارة الغربية والنفوذ الأوروبى والنزعة المادية والتبشير المسيحى، واتخذ بعضها طابعا عسكريا، وبعضها الآخر اتخذ الدعوة سبيلا له (٤٣).

وقد ظلت هذه الاتجاهات الفكرية فى العالم الإسلامى قائمة إلى يومنا هذا، ولكن الانتفاضات العسكرية التى قامت فى القرن التاسع عشر انتهت دون أن تتمكن من إحراز النصر أو إنقاذ العالم الإسلامى من الإستعمار الأوروبى، واستسلم المسلمون عسكريا، وتعرضوا للتأثيرات الغربية على نطاق واسع، وحاربهم الغرب فى كل مكان بأساليب شتى (٤٤) وتأثر المسلمون بالثقافة الغربية فى التعليم المدنى والقانون الغربى وعديد من النظم الأخرى ثم بدأت طلائع النهضة الحديثة، والحركات التحررية فى النصف الثانى من القرن العشرين (٤٥) حتى نجح المسلمون آخر الأمر فى التحرر السياسى، وكان المفترض أن يواكب

---

(٤٢) من هؤلاء مدرسة الشيخ محمد رشيد رضا وجماعة المنار والوهابية.

(٤٣) من هذه الطرق الصوفية : السنوسية فى طرابلس ، والنيجانية والقادرية ومن الحركات المهدية : حركة محمد أحمد الدنقلاوى فى السودان وأحمد بن محمد أحمد لوبو "فى منطقة ماسنة " ومحد بن عبد الله حسان فى الصومال - راجع الأسلام والثقافة العربية فى ص ٢٥ وما بعدها .

(٤٤) السابق ص ٢٦ .

(٤٥) السابق ص ٢٨ .

هذا التحرر تحررا ثقافيا شاملا، ولكن التحرر الثقافى بدأ فى ظروف مختلفة، وأحاطت به عوامل شديدة التأثير، تؤخره أحيانا، بل وتعارضه، وهذه العوامل يمكن إجمالها فيما يلى:

١- بدأت قوى المجموعات الثقافية المختلفة التى ظهرت إبان القرن التاسع عشر بدأت تتنافس داخلياً تنافساً قوياً ، والغريب أن الهوة بين المجددين والسلفية والمستغربين والصوفية لم تأخذ الاتجاه نحو الاقتراب والاندماج أو حتى الاتفاق على حدود للعلاقات ، بل اتجهت فى أغلبها إلى التمسك بوجهات نظرها ، واتجه بعضها إلى إتخاذ العنف وسيلة لفرض آرائها .

٢ - على عكس ما كان متصوراً ، إزدادت قوة المستغربين زيادة كبيرة ، ووجدت لها أنصاراً كثيرين فيمن تخلفوا من الغربيين فى أوطان المسلمين ، وفى طبقة كبيرة كان الغرب قد تولى تدريبها على النمط الغربى ، وارتبطت مصالحهم فى الداخل بالغرب ، الذى وجدت فيه أيضاً سنداً يدعمها ويشد من أزرها علاوة على تزايدها المستمر وقوة تأثيرها بسبب الانفتاح على الغرب ، والرحلة المستمرة الميسورة إليه ، فى معاهدة العملية أو غيرها ، وأرتبطت بهذه الطبقة طبقة أخرى تشترك معها فى المصالح المادية .

٣ - ومما زاد الأمر تعقيداً أن النخبة الحاكمة فى أوطان المسلمين ومعظمهم من العسكريين كانت غالباً من هذه الطبقة ، وتثقفت بثقافة غربية مما جعلها فى موقف المعارضة مع غيرها ، فحاولت - بما لها من سلطان - فرض آرائها وأساليبها على المحكومين ، وفى ظل الحكم العسكرى - غالباً - وفى غياب الديموقراطية لم تجد القوى المحافظة متنفساً لها ، بل تعرضت للقهر فأذداد إستمساكها بالقديم ، وإزداد تطرفها ، وظهرت حركات تحتية شديدة التطرف فى غياب الحرية ، وحرية التعبير والمناقشة .

٤ - ومما زاد من حدة الصراع ، ظهور الأيدلوچيات الحدثية وإلقائها بظلال كثيفة على المجتمعات والفكر الأسلامى ، وانحياز مجموعات قوية إلى هذه الأيدلوچية أو تلك ، مما فت فى الوحدة الوطنية ، وزاد فى التباعد والخلاف بين أبناء الوطن الواحد .

٥ - يضاف إلى هذا محاولات الغرب المستمرة لتنمية النعرات والعصبيات العرقبة داخل الوطن الواحد ، وضرب القوميات بعضها بالبعض ، علاوة على المشاكل الحدودية وغيرها التى تخلفت عن الفترة الأستعمارية .

في ظل هذه الظروف ، أزداد التأثير الغربى والتدخلات الغربية لتحقيق مصالحة ، وأعتمد الغرب فى ذلك على وسائل مؤثرة وشديدة التأثير ، ومنها أنشاء المدارس على النمط الغربى ، والبعثات إلى بلاد الغرب التى لا تتوقف لألتقاط الأنفاس ، والكتب والدوريات والنشرات الأجنية التى تزاحم مثيلاتها المحلية بل وأستطاعت أن تقصيها فى ركن ضئيل ، علاوة على أجهزة الأعلام التى لا تتوقف لحظة واحدة عن التوجية توجيها غربياً .

يساند كل هذا ويدعمه السيطرة الإقتصادية الغربية . بل والنفوذ السياسى ومحاولات الغرب المستمرة لتأخير الاندماج الوطنى وخلق الحروب المحلية واصطناع القيادات والثورات ، وخلق أنماط إستهلاكية وأساليب معيشية وغير ذلك وكلما ظهر إتجاه قومى ذاتى الفكرة والثقافة ، نجد من يتصدى له ويحاربه، وقد ترتب على هذا صراع لا ينتهى ، وقلق عميق ، وشعور بالدونية التى تؤدى إلى السلبية والأنانية ، مما لا يتيح الفرصة لبناء الشخصية الثقافية للمسلمين .

من خلال هذه السحب الكثيفة ، ووسط المشاعر المعقدة المختلطة إحساساً بالحيرة، وإدراكاً لحقيقة ما نحن فيه من تخلف ، أحاط بنا ونزع من قلوبنا الثقة، وبعد سنوات طويلة إستسلمت فيها الأمة الإسلامية لهذا الصراع الظاهر والمستتر بدأت الأمة الإسلامية فى السنوات الأخيرة ، تدرك أن الخيار بين هذه الاتجاهات المختلفة خيار محفوف بالخطر الداهم ، وأن الصحيح هو الإلتقاء والتلاقى على منهج للحوار والعمل فى محاولة للمحافظة على هويتنا الحضارية وقيمنا الأساسية بمواصلة العناية باستخلاص هذه المبادئ الأساسية ، إجتماعية وسياسية وإقتصادية وثقافية ، وصياغتها صياغة عملية مرتبطة بالواقع متصلة بمشاكله وهمومه بعيداً عن التجريح والانتقاض والتعصب ومحولات التصنيف ، إدراكاً منها بأن التجربة الثقافية والإصلاحية تولد وسط تسيج حيوى يتجدد مع الظروف والملابسات .

رد الفعل من جانب الثقافة الأفريقية الأصلية :

لقد نجح الغرب بالفعل فى وقف إنتشار الثقافة الإسلامية فى جنوب السودان وحول البحيرات وبعض المناطق الأخرى ، وحرم الأفريقيين الزنوج من إتخاذ اللغة العربية وسيلة للتفاهم المشترك بينهم ، وحلت محلها اللغات الغربية وعلى رأسها الأنجليـزية (وأحيانـاً اللغات الوطنيـة) ، ويتمـثل النجاح الأكبـر للغرب أيضـاً فى تمكنه من أشعار الأفريقيين فى هذه المناطق بأنهم من عنصر مختلف ، وأن لهم ثقافة مختلفة ، وأن المسلمين استعبدوهم فى الماضى ويريدون إستيعابهم والسيطر عليهم الآن .

بمعنى أن الغرب الذى يواجه رد الفعل من جانب الأفريقيين فى مناطق كثيرة من أفريقيا متمثلاً فى النفور من الثقافة الغربية ، ومحاولة إستعادة الشخصية الثقافية على أسس أفريقية ، قد حول الأمر هذه المرة - خاصة فى جنوب السودان وبعض مناطق أثيوبيا - إلى المسلمين ، بحيث ظهر رد الفعل مناوئاً للمسلمين ، ومعارضاً لهم ، ونافراً من الثقافة الإسلامية .

ومع ذلك فالأمر يختلف فى المناطق الأخرى غير السودان وأثيوبيا ، حيث اشترك الأفريقيون فى أوغندا والكونغو وتنزانيا فى رد فعل مماثل لجميع الأفريقيين الذين تعرضوا للإستعمار والعنصرية والثقافية الغربية ، حيث تمثل رد فعلهم فى الآتى :

ا - الحركة الوطنية الزنجية :

يمكن تعريف هذه الحركة بأنها الأفكار التى عبرت عن الوطنية الأفريقية فى الأدب والعلوم الإنسانية الأخرى ، كرد فعل على محاولات الغرب فى السيطرة الثقافية ، حيث اتخذ الافريقيون من ذلك سلاحاً موجهاً ضد السيطرة الثقافية ، قال «اليون ديوب» : فى الخطاب الافتتاحى الذى ألقاه فى مؤتمر «روما» إننا لا نستطيع أن نجعل لغتنا كاللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو البلچيكية أو البرتغالية، وأن نترك أحجاماً لها صفتها الخاصة من عبقريتنا ، نتركها يقضى عليها لصالح لغة المغرب التى بدأت تزول وتضمر ، إننا سنجتهد لكى نصنع لهذه العبقرية مصادر تعبير تتلائم مع المهمة الملقاة على عاتقنا فى القرن العشرين .

ولقد الهبت الثورة على الإستعمار ، والشعور بالألم والضغينة على التفرقة العنصرية الهبت شعراء أفريقية شعراً يفيض مرارة وحزناً لما أصاب الأفريقى على يد الغرب ، ومن ذلك ما كتبته الشاعرة "فليس ويتلى" (٤٦) تقول :

أتستطيع يا إلهى عندما تنصت إلى غنائى
أن تعجب وتدهش من أين ينبثق حبى للحرية
أنه ينبثق من حيث تنبع سعادة الجميع
والتى تفهمها فقط القلوب الحساسة

فأننى وأنا صغيرة انتزعنى القدر القاسى من مهدى السعيد
فأى شئ كالدمع يمزق القلوب ، وأى حزن مزق قلب والدى
فهل أستطيع أن أتوسل إليك يا إلهى حتى لا يذوق غيرى هذا المصير الجائر أبداً

وقال المرحوم "شعبان روبرت" يحض على التمسك بلغته القومية

صدر الأم تمسك به فهو الأحلى
والسواحيلية لسان أمى ولا زالت عندى هى الأغلى
هى حديثى فى طفولتى وشبابى
ولسانى طلق فى التعبير بها عما أعرف
وهذا ينعش روحى من المشذى
يعطر الأنف وينعش القلب
صدر الام غيره لا يرضينى

---

(٤٦) يلوم "سنغور" نفسة لثقافتة الغربية فى كتاب (الطالب الأفريقى أمام الثقافة اللاتينية) فيقول على لسان أمير الأمراء بلاده :
أيها الأطفال ذوو الأفاق الضيقة ، ماذا لقنكم الأجانب لقنوكم وضع الكليمات فى الجمل ، وأن أباكم وأجدادكم من بلاد الغال .
وقد قيل لى أن بناتكم يطلين وجوههن كالخليعات ويجنحن نحو العلاقات الجنسية المتحررة ليحسن سلالتهن فهل أنتم سعداء ؟

٢ - أفرقة المسيحية :

كذلك يتمسك المسيحيون الأفريقيين ، بطبع عقيدتهم وإيمانهم بطابع خاص ولذلك اهتموا بتاريخ الأنبياء السود كما يتبين هذا الإهتمام فى الاجتماع الذى عقد فى "كمبالا" عام ١٩٦٣ م بين مندوبى الكنائس فى مؤتمر الكنائس الأفريقية حيث اتفق الجميع على ضرورة تزويد أفريقيا بكنيسة جديدة خاصة بها ، وطالبوا المثقفين السود بضرورة أن يمنحوا المجتمع الحديث المادى النزعة بالإنفعال الزنجى الذى تحدث عنه "سنغور" وحاولوا أن يجدوا مكاناً لعقائدهم فى الأسلاف فى رسالة المسيح .

وكان التعاون الذى تم بين الإستعمار والكنيسة المسيحية من شأنه أن يثير الشك فى نفوس الأفريقيين ، خاصة وأن تجارة الرقيق التى أزدهرت منذ القرن السادس عشر كانت تمشى جنباً إلى جنب مع عملية التعميد ، ويعتقد المسيحيون حتى البروتستانت أن التوراة تلعن أبناء حام ، وقد أثار كل ذلك ردود فعل عنيفة كانت تحزن الأفريقين بل كانت تعذبهم فكرة الشعور بأنهم لا يعتبرون مسيحيون كغيرهم من الأوربيين (٤٧) .

وقد وجدت هذه الأفكار لها صدى فى الشعر والقصة الزنجية ، من ذلك ما يقوله الشاعر "تشيكايا" حيث يهاجم القديسة أن " فى الكونغو والمسيح ودين الفقراء الذى كان يجب أن يكون أمل المحرومين .

---

(٤٧) يقول "مارك أيلا" فى المجلس المحلى الذى عقد فى الفاتيكان عام ١٨٧٠ لقد تقدمت مجموعة من الأساقفة المبشرين بملتمس إلى البابا يطلبون فيه أن يرفع عن العنصر الأسود اللعنة التى نزلت عليهم من أبناء حام ، راجع كتابة بعنوان "الكنيسة والعالم الأسود المؤتمر المسكونى ص ٢٢٤" ، وكتب المؤرخ الغانى شادى جرافت جونسون فى كتاب «مجد أفريقيا وعظمتها» يشرح كيف أرتبط الأستعمار بالتبشير الدينى ، وكتب أيضاً س "ب جروفر فى كتابة "غرس المسيحية فى أفريقيا" ما يوضح مصاحبة نشر المسيحية مع تجارة الرقيق ويفسر "كينيث كاوندا" أبتعاده عن الكنائس فى كتابة "ستتحرر زامبيا" ويهاجم الكنيسة لأنها تفصل بين السود والبيض عند أداء الطقوس الدينية ، مما جعل الكثيرين يلفظونها أنها تخالف التعاليم التى تدعو إليها .

يقول :

عنـــد مـــدخـل كانشـــأســـا
تجد تمثال القديسة أن والساعة الفريده
واقفـــة علـــى ظهـرها ولكن لم يعد لها
بشـــرة المسيـــح الـــرقيقـــة
ولا دمـــــه الصـــــافـــى

وفى موضع أخر يقول :

أنـى لا ضحـــك مـن حزنك أيها المسيح
يـامسيـــحى الـــرقيـق الـــوديـــع
فـــالسـن بـــالسـن
فنحـن سـواسيـة يجمعنا أكليل الشـوك

(٤٨) ويقول الشاعر الأمريكى الزنجى "لانجستو هيوز"

آه كم كان إسم يسوع المسيح غالياً ثميناً فى ذلك الوقت الماضى وقد أنقضى هذا الوقت ، وأنى على يقين من أن المسيح لن يموت من أجلى .
ولكن أعلم أن بيدى هاتين السوداوين فى لون الطين أستطيع بهما تحرير البشرية السوداء .

ويقول الكاتب الهاييتى "چاك رومان" فى موضوع القطة الزنجية الجديدة :

أن يهوزا يسخر قائلاً أن المسيح بين نصبيين كالشعلة الممزقة على أعلى الجبال فقد كان يشعل ثورة العبيد ولكن المسيح اليوم فى بيت الصوص تحوط ذراعاه كل الصقر الممدود فى الكنائس .
ويحصى القسيس فى أقبية الأديرة الأرياح التى تدر عليه ثلاثين فلسا وأبراج الكنائس وأجراسها تنشر الموتتع على الكتل البشرية الجائة وفى ميدان القصة وارواية كتب "مونجوينى" قصتين جعل موضعها "أفلاسس المبشرين" إما الكاتب فرينانداً بوتو فأنه يجعل من الزنجى العجوز الورع "ميكا" نموزجاً للمخدوع الذى تخلى للبعثة التبشيرية . أما الكاتب "حزقيال مغاليلى فيقول :
"لقد أصبحت الكنيسة بالنسبة لنا رمزاً لنفاق الغرب"
وكانت شهادة المبشرين أنفسهم امن أقوى العامات التى أستتد إليها المثقفون إليها الأفريقيون فى التدليل على طاطو الكنيسة والأستعمار - راجع مقالاً بعنوان : أفريقيا السوداء والأدب الوردى" مجلة الوجود الزفريقى وكتاب المختارات الزنجية لرايموند ميشلن"

وكتب المرحوم ر «ج» اراماتوا :

أن ربنـــــــــا أســـــــــــود

أســـــــود مـــــن ســــــواد دائـــــم

بشفـــــــاه كبيـــــــرة فـــــاجـــــرة

بشعـــر ملبد ، وعينين عسليتين صافيتين

أنــــــه ذو جســــــد جميـــــــــل

لأنـــــه علـــــى صــــورتــــه قــد صنعنا

أن ربنـــــــــا أســـــــــــود

بهـذه الكلمـات يعـبـر الأفـريقـيـون عن رد الفـعل ، تجـاه النظريات الأوربيـة العنصرية التى قدمت لهم "الرب" فى النظرية المسيحية "أبيضاً" وجعلت مقاييس الجمال وكل الفضائل بيضاء .

والواقع "أن أكثر أجنحة المسيحية كشفاً وقابلية للأنثلام ، هو التفرقة العنصرية الوحشية باسم المسيحية إن سلالة البيض قد رأوا أنفسهم كتقليد توارثوه - أنهم يعيدون تمثيل الدور الوارد فى الأنجيل عن الشعب المختار ، وأهل الميعاد ، حيث فرض الرب على الرجل الأسود أن يصقل الخشب ، ويجلب المياه ، خدمة للرجل الأبيض (٤٩) ، وقد عطروا التفرقة العنصرية ، والتحامل الجنسى ، بأنه حقيقة طبقاً للكتاب المقدس " لو كان الرب أراد المساواه بين الأجناس لقال ذلك فى الأنجيل (٥٠) .

والواقع أن هناك محاولات عديدة فى القارة "لأفرقة المسيحية" وقد كتب "رنجت ساند كلر" عن الكنائس الأفريقية المنشقة (٥١) وقال أن عددها يزيد عن ثمانمائة كنيسة ، ذات قيادة أفريقية ، سجلتها رسمياً حكومة جنوب أفريقيا فى

---

(٤٩) راجع : الرب والله وجوجو ص ١٦٢ .

(٥٠) السابق ، نفس الصفحة .

(٥١) راجع : أنبياء قبيلة البانتو فى جنوب أفريقيا - كتاب رنجت .

سنة ١٩٤٥ م ، كما يضيف مائة وعشرين وثلاثة أخريات كان وجودها معلوما خلال الثمانية عشر شهراً التالية .

وفى بلاد أخرى فى أفريقيا ، توجد كنائس مستقلة ، بعضها يحمل أسماء وطنية ، ويقول "ف . ب . ويليبورن" فى دراسة عن الكنائس المنشقة فى أوغندا وكنيا : "أنها تعكس رد مدينة كاملة على أخرى ، لأنها تكشف ما جاء به المبشرون وما منعوه " على تأكيد ذاته وهويته المستقلة.

لقد قام الغرب بمحاولات جمة ليحصر الأفريقى بين احتمالين لا ثالث لهما ، أما أن يكون أوروبيا أسود ، أو أفريقياً ، ولكن الأفريقى بصفة عامة يريد لنفسه شخصية مستقلة ، ويريد إعادة تشكيل حياته وحضارته على نحو فريد خلاق ، وهو الان يقف متأرجحاً يحاول أن يختار ، ولن تقف فى سبيل رغبته أية قوة ، كتب الشاعر الغانى "داى أنانج" يقول :

هـنـا نـقـف
متأرجحين بين مدنيتين
إلى الخلف ؟ إلى أيام الطبول
وإلى رقص الاحتفالات فى ظلال
أشجار النخيل الباسقة
أم إلى الأمام
إلى الأمام
صوب ماذا
صوب الأحياء القذرة حيث
يرتطم الرجل بالرجل
إلى المصانع
إلى ساعات الطحن الشاقة
فى طاحونة غير بشرية ؟

وفى أفريقيا أيضاً كثير من الحركات الدينية التى ترفض كلا من المسيحية والإسلام ، وتحاول العودة إلى الدين الطبيعى الأفريقى ، بحجة أنه الدين الوحيد المناسب للروح الأفريقية ، وهو المتغلغل فى تربتها وكيانها ، وقد حاول الفيلسوف الغنانى ج "ب" دانكو بلورة الديانة الطبيعية الأفريقية وشرائعها ، بما قاله فى قصيدته التى سبق ذكرها ، والتى مطلعها :أن الإله الكامل هو الرب.

وكثيراً ما يقول أفراد النخبة : أن مجرد قبول الأفريقيين للمسيحية ، ويكون نوعاً من القبول الثقافى والنفسانى ، فالمسيحية على حد تعبيرهم قد جاءتهم ليس فقط كنظرية دينية بسيطة ، ولكن كمجموعة من القيم والقواعد الإجتماعية والحضارية ، رئى أنها أرقى من أى شئ قدمته الحضارة الأفريقية ، فليس غريباً إذا أن ينتج من أزدياد الشعور بالذات بين المثقفين الأفريقيين رد فعل عدائى بين الكثيرين منهم ، وكثيراً ما يقذف الأفريقى بكل ما تعلمة فى مدارس التبشير ليعود إلى التحرر أو "الأفريقية" كما يقولون .

والأفريقى الآن ينظر إلى الاحتفالات القديمة والرقص والطبول والطقوس الطبيعية على أنها تعبيرات تربوية للروح الأفريقية ، والواقع أن الصور التقليدية للعالم الأفريقى لم تتداعى نهائياً ، بل الصحيح أن هناك تقاليد روحية تقف الآن موقف الحكم على الثقافات الوافدة ، ولا يعنى هذا محاولة أحياء الماضى وبعثه كما كان ، بل يعنى أن الأفريقى لن يقبل الأدعاء بأنه رجل بلا ماض روحى ، وهو يرغب فى إدماج الماضى فى المستقبل ، وبمعنى آخر يرغب فى بعث التقاليد الأفريقية فى ثوب جديد ، وهذه مهمة صعبة ودقيقة ، ولكن يبدو أن الأفريقى مصر على تأكيد ذاته وهويته المستقلة .

خاتمة ورؤية مستقبلية :

واضح من كل ما سقناه تمسك الأفريقيين ببناء شخصيتهم الثقافية الذاتية ، وكيانهم المستقل ، وبالنسبة لحوض النيل الذى ينبع من أواسط القارة يربط بلاده العديدة فى وحدة طبيعية متماسكة ، ويصل بينها بشرياً وثقافياً ، وليس فى العالم كله بلاد ترتبط ببعضها برباط متين كهذا الرباط الذى ندين له جميعاً

بكياننا كله ووجودنا كله ، ويتوقف عليه حاضرنا ومستقبلنا ، وإذا كانت فكرة الوحدة الأفريقية هى الفكرة المثالية فى فكر الجيل الجديد ، فيجب أن نعمل بكل الجهد للبحث والكشف عن المبادئ المشتركة بيننا تعزيزاً لهذه الوحدة وتدعيماً لها .

وفى رأيى أن المستقبل يحمل فى طياته عدداً من المشكلات والموضوعات التى يمكن أن نستشفها فيما يأتى :

١ - نحن نتنبأ للمسيحية فى أفريقيا بأنها سوف تتخذ لنفسها طابعاً جديداً ، أفريقياً فى شكله ومضمونه ، يعود بها إلى أصولها الصحيحة من الكتاب المقدس ، وربما ارتبطت بالكنيسة المصرية .

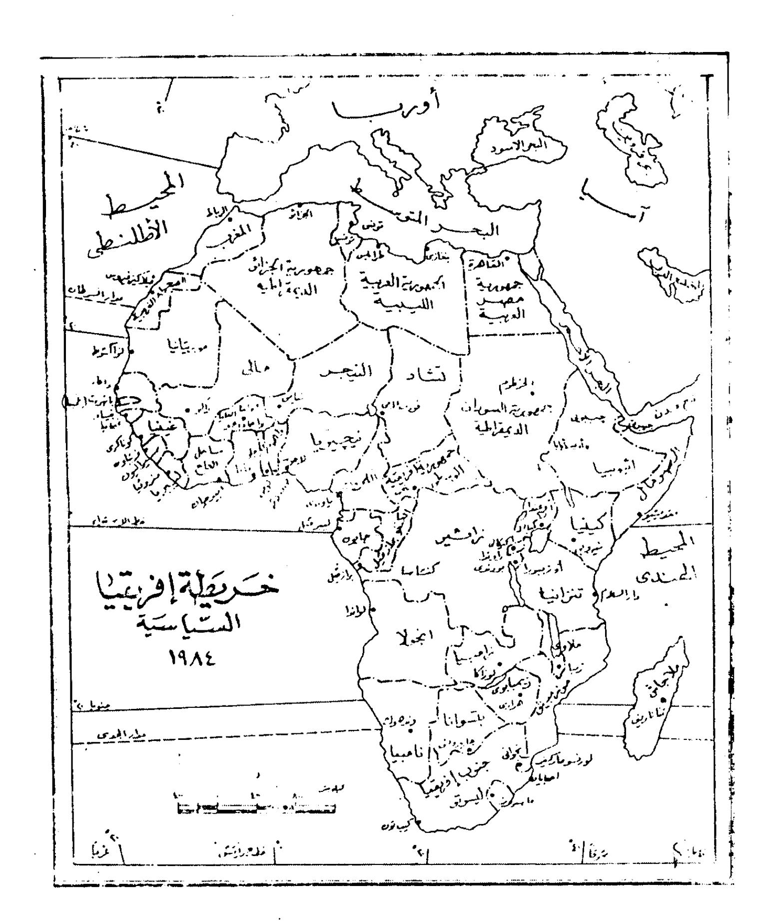
٢ - سيقوم الأفريقيون ببلورة الديانة الأفريقية الطبيعية ، ويسجلونها فى إطار يجمع عناصرها الأساسية ، ويقضى على العناصر الفرعية أو المحلية .

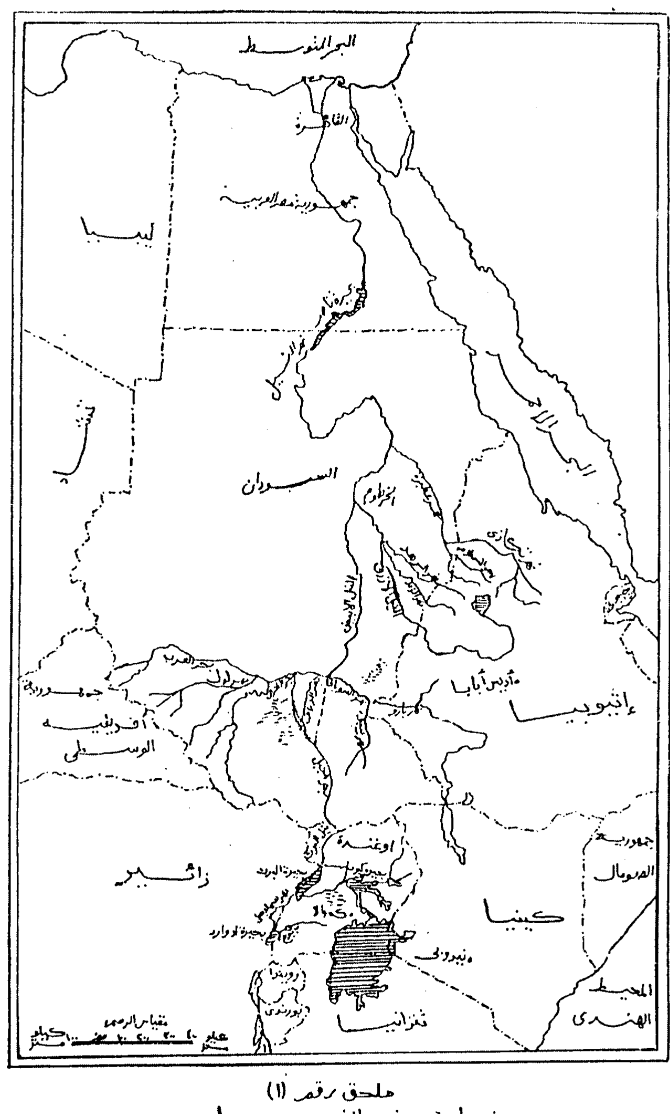
٣ - سيزداد انتشار الدين الإسلامى فى ثوب أفريقى ، ومستويات مختلفة وسوف يدرك الأفريقيون قريباً مدى قرب الإسلام منهم .

٤ - وفى اللغات ستظل اللغات الأوربية لها السيادة فترة طويلة ، وسوف تحل محلها اللغات الوطنية بالتدريج ، وستزداد هذه اللغات الوطنية إرتباطاً باللغة العربية والثقافة الإسلامية .

٥ - ستستمر أزمات الأندماج الوطنى ، والضعف الإقتصادى والسياسى والانحلال الإجتماعى والقلق النفسى فترة طويلة ، وتزداد البلاد تمسكاً بالإشتراكية فى ثوب أفريقى ، وستزداد مشاعر الوحدة الأفريقية قوية لأنها الأمل الوحيد فى التخلص من الضعف العام .

٦ - أخطر التحديات التى تواجة البلاد هى التغلغل المادى على النمط الغربى ، والحرية غير المسؤلة ، ووجود طبقات مرتبطة بالغرب بعيدة عن تطلعات الشعوب .


خريطة إفريقيا
السياسية
١٩٨٤
أوربا
آسيا
المحيط الأطلنطى
البحر المتوسط
المغرب
جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية
الجمهورية العربية الليبية
جمهورية مصر العربية
موريتانيا
مالى
النيجر
تشاد
نيجيريا
جمهورية السودان الديمقراطية
أثيوبيا
كينيا
تنزانيا
أنجولا
ناميبيا
بتسوانا
جنوب إفريقيا
المحيط الهندى



ملحق رقم (١)
خريطة حوض النيل

التوصـــيات :

١ - يجب أن تصبح المعرفة بيننا نحن الأفريقيين مباشرة ، وعن طريق الرحلة المباشرة ، لا عن طريق الترجمة أو الغرب .

٢ - ضرورة العمل المشترك فى مواجهة محاولات الغرب للسيطرة الثقافية وغيرها .

٣ - ضرورة تبادل المعرفة بالتطورات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والفكرية التى تشهدها الساحة الأفريقية كجزء من رحلتنا المشتركة .

٤ - ضرورة العمل المشترك لإعداد الخطط الكفيلة بأنماء وتقوية ساعد اللغات الوطنية بشتى السبل للحفاظ على هويتنا الثقافية ، والبحث فى تراثنا على الأسس المشتركة لتدعيمها وتقويتها .

المراجــع

المراجع العربية :

١ - د : أبراهيم شحاته حسن : ريجنالد وبنجت فى الصومال من مطبوعات ج . القاهرة .

٢ - أدريس كوكس : سقوط الأمبراطورية ، ترجمة محمد رشاد خميس . س الألف كتاب .

٣ - الأدريسى : محمد بن عبد العزيز الشريف العلوى : المغرب وأراض السودان ومصر والأندلس ، ليدن ١٨٨٦ م .

٤ - أدمس : الأسلام والتجديد : تعريب : عباس محمود العقاد . القاهرة ٣٢ .

٥ - أرتولد : الدعوة إلى الأسلام ط ٢ القاهرة ١٩٥٧م .

٦ - أحمد عزت عبد الكريم : العلاقات بين الشرق العربى وأوربا بين القرنين السادس عشر والسابع عشر .

٧ - بارتولد : الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٤٥ .

٨ - بازل دافيد سون : أفريقية تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال "م" أحمد . دار الثقافة بيروت ١٩٦١

٩ - حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢م.

١٠ - حمدى السيد سالم : الصومال قديماً وحديثاً الدار القومية ١٩٦٢ .

١١ - جاك مندلسون : الرب والله وجوجو : ترجمة إبراهيم سعد محمد ، دار المعارف ١٩٧١ .

١٢ - دونالد ويدنر : تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء ترجمة راشد البراوى ٦٢ .

١٣ - د : رأفت الغنيمى الشيخ : أفريقيا فى التاريخ المعاصر دار الثقافة . للطباعة والنشر ١٩٨٢ م .

١٤ – سبنسر ترمنجهام : الإسلام فى شرق أفريقيا ترجمة : محمد عاطف النواوى الأنجلو ١٩٧٣ م .

١٥ – صابر طعيمة : الإسلام ومشكلات السياسة دار الجيل بيروت ١٩٧٤ م .

١٦ – عباس م . العقاد الإسلام فى القرن العشرين دار الكتب الحديثة ٩٥٤ .

١٧ – عبد العزيز عبد المجيد : التربية فى السودان ٣ "ج" القاهرة ٩٤٩ .

١٨ – عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان دار الثقافة ط ١ ١٩٧٢ م .

١٩ – د : عبده بدوى : السود والحضارة العربية المكتبة العربية ١٩٧٦ م .

٢٠ – عز الدين الأمين : تراث الشعر السودانى م "البحوث العربية " ٦٩ .

٢١ – كارل بروكلمان : الأسلام فى القرن التاسع عشر ت نبيه أمين فارس وأخر ١٩٥٠م .

٢٢ – كلود قونية : إفريقيا للأفريقيين ت . أحمد كمال يونس . دار المعارف ٧٨ .

٢٣ – محمد إقبال : تجديد الفكر الدينى فى الإسلام ت عباس محمود . لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٥ م .

٢٤ – محمد عمر بشير جنوب السودان ت أسعد حليم الهيئة المصرية ١٩٧١ .

٢٥ – محمد عوض محمد : السودان الشمالى لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٢ م .

٢٦ مجلة رسالة أفريقيا الجمعية الأفريقية .

٢٧ – مجلة السياسة الدولية مؤسسة الأهرام .

٢٨ – مجلة لوتس المكتب الدائم للكتاب الأفريقى .

٢٩ – مجلة الدراسات الأفريقية معهد البحوث والدراسات الأفريقية .

٣٠ – مجلة المستقبل العربى مركز دراسات الوحدة العربية .

٣١ – مذكرة عن مشروع اليونسكو لتدوين اللغات الأفريقية ٦٥ .

٣٢ - مؤتمر الدولة الأفريقى للتخطيط التربوى والتعليمى فى أفريقيا أديس أبابا ١٩٦١ م.

٣٣ - مؤتمر الثقافة الأفريقية - ملتقى الجزائر ١٩٦٩ م .

٣٤ - هوبير ديشان : الديانات فى أفريقيا السوداء ت أحمد صادق ٥٩ .

٣٥ - ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٢٠ ت محمد بدران ج . الدول العربية .

٣٦ - وليم باسكوم : الثقافة الأفريقية ت عبد الملك الناشف وأخر م . المصرية بيروت ٦ .

المراجع الأجنبية :

i - Allen (B'M) : Gordon and the sudan, 1931.

Blyden : Christianty, Islam and the negro race.

Bovill (F.W) : Garavans of the old Sahara, Oxford 1933.

Budge (E.A.W) : A history of Ethiopia, London 1918, 2vols.

Carpenter (G.W.) : The role of chrstianity and Islam in contemporary Africa, Africa to day .

Conolly (R.L.) : Africa's Stratagic significance, Africa to day.

Cooley (W.D.) : The negroland of the Arabs, London 1841 .

Coupland (A.) : East Africa and it's invaders, London 1983 .

Craster (E.) : Pemba the spice Island of zanzibar, London 13 .

Doman (M.H.) : The kilwa civlisation and the kilwa ruins ; T. N. R. 1938 .

Groves : The planting of christianity in Africa, vol. I. London 1946.

Von gnunebaum : Unity and verieety in muslim civilisation .

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٦٤٥ - ٦٥٩

التكبيـــر والتصغيـــر
فى اللغة السواحيلية

د. على على أحمد شعبان
مدرس بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر

تصنف اللغة السواحيلية - الواسعة الانتشار فى شرقى أفريقيا - كواحدة من أسرة لغات البانتو ، ولعل أكثر ما يؤيد هذا التصنيف هو تقسيم الأسماء فى اللغة السواحيلية إلى فصائل ، تتميز كل فصيلة منها بمقطعين يدل أحدهما على الإفراد والآخر على الجمع ، ويستثنى من هذا التعميم بعض الألفاظ التى لا تحتوى على سابقة الجمع أو كليهما لأنها محدودة ولها سماتها الخاصة . ويأتى كل من هذين المقطعين كسابقه ، ونعنى بالسابقة هنا المورفيم الذى يسبق جذر الكلمة .

وتعرف كل فصيلة من ناحية الصرفية بهذين المقطعين أو بأحدهما ، بينما تعرف نحوياً بمجموعة من السوابق واللواحق يحكمها الاسم الأساسى فى الجملة أو فى التركيب الاسمى داخل الجملة . بمعنى أنه إذا كان الاسم الأساسى فى الجملة يندرج تحت فصيلة ما من فصائل الأسماء فى اللغة السواحيلية فإن باقى الوحدات اللغوية والتى تعد من توابع ذلك الأسم لابد وأن تحتوى على سابقة أو لاحقة خاصة بالفصيلة التى يندرج تحتها ذلك الاسم سواء أكان التابع إسم إشارة أو إسم موصول أو صفة بانتوية أو ضمير ملكية أو عدداً أو رابطة إضافة. والفعل أيضاً - وأن كان لا يعد من التوابع - لابد وأن يحتوى على سابقة أو لاحقة تختص بفصيلة الاسم الواقع فاعلاً له لا فرق فى ذلك بين مجئ الفاعل قبل الفعل أو بعده .

أما من حيث الدلالة ، فقد حاول كثير من النحويين الذين وصفوا اللغة السواحيلية أن يضعوا معايير دلالية للفصائل يمكن بواسطتها أن تقرر أن أسماً ما يتبع بالضرورة فصيلة ما لاشتراكه معها فى نفس السمة الدلالية التى تعد ملمحاً دلالياً أساسياً لها .

على سبيل المثال نرى E. O. Ashton فى كتابها Swahili Grammar ص ١٤ تقول عن فصيلة Ki - Vi كثيراً ما يشار إلى هذه الفصيلة بفصيلة الأشياء الجامدة حيث أن كثيراً من الأسماء (التى تندرج تحتها [(١)]) تشير إلى مسميات جامدة تخالف الكائنات الحية أو المدركة ثم تنتقل إلى تقسيم الأسماء التى تندرج تحت هذه الفصيلة إلى أسماء جامدة وأسماء مشتقة ، ثم تستطرد فى تقسيم الأسماء الجامدة والمشتقة من حيث الدلالة إلى مجموعات :

(أ) بعضها يدل على الجمادات فى مقابل الكائنات الحية .

(ب) وبعضها يدل على التصغير .

(جـ) وبعضها ليست لها سمة دلالية محددة .

وهى بوضع هذا القسم الثالث تكون قد ألغت ضرورة أو امكان تصنيف الأسماء دلاليا طالما أن هناك مجموعة من الأسماء التى تندرج تحت هذه الفصيلة ولا تربطها بالفصيلة سمة دلالية واضحة .

فتقسيم الأسماء - إذن فى اللغة السواحيلية إلى فصائل من حيث الدلالة يفتح الباب أمام ورود كثير من الشذوذ ، وهو أمر غير مقبول فى الدراسات اللغوية الحديثة .

وينسحب هذا القول أيضاً على التصنيف الصرفى للفصائل حيث أنه يصعب الإعتماد على السوابق فى تحديد فصيلة الاسم باستثناء فصيلتين أو ثلاث يطرد استخدام بادئة محددة فيها . ويبدو أن هذا الأمر ناتج عن اقتراض اللغة السواحيلية لكثير من الكلمات من أكثر من لغة دون إجراء أى تغيير صرفى على

---

(١) ما بين القوسين زيادة فى الترجمة العربية ليست موجودة فى النص المترجم قصد بها إيضاح المعنى.

شكل الكلمة يتفق والفصيلة التى أدرجت فيها الكلمة المقترضة . وهذا السبب الذى أذكره يستمد دليله من اللغات البانتوية الأخرى كالزولو - مثلاً حيث تأخذ كل الأسماء المقترضة سوابق الفصائل التى ادرجت تحتها تلك الأسماء سواء فى حالة الافراد أو فى حالة الجمع . ولكن يبدو أنه كانت هناك بعض الأسباب التاريخية والثقافية حالت دون مراعاة ذلك الأمر فى حالة اللغة السواحيلية .

ولست أعنى بذلك أننى أرفض تقسيم الأسماء الصرفى إلى فصائل ، أو أعترض على محاولات التقسيم الدلالى . غير أننى أستدرك على هذين التقسيمين الصرفى والدلالى أنه لا يمكن الاعتماد عليهما وحدهما فى تحديد فصائل الاسماء فى اللغة السواحيلية . ولكنه لا بد لنا من أن نأخذ السلوك النحوى أو العلاقات النحوية لكل اسم حتى يمكن وصفه وتحديد فصيلته بدقة .

ولنأخذ مثلا على ذلك الكلمتين :

أعمى Kipofu و بقرة Ngombe فالكلمة Kipofu اذا اعتمدنا فى تصنيفها على بنيتها الصرفية سنجد انها تندرج تحت فصيلة Ki-Vi وسيؤدى هذا التصنيف الى توليد جملة غير مقبولة وان كانت صحيحة نحويا مثل :-

١ - Kipofu hiki hakiwezi kusoma واذا اعتمدنا فى تصنيف الكلمة Ngombe على بنيتها الصرفية سنجد انها تندرج تحت فصيلة N وسيؤدى هذا التصنيف أيضا الى توليد جملة غير مقبولة وان كانت صحيحة نحويا مثل :

٢ - Kipofu hii imezaliwa nwaka juzi فكلتا الجملتين السابقتين غير مقبولتين رغم أن تصنيف الأسماء الصرفى صحيح والتركيب النحوى المترتب على هذا التصنيف الصرفى صحيح أيضا .

والسبب فى ذلك هو أن التصنيف الصرفى لبعض الأسماء فى اللغة السواحيلية لا يتعدى حدودها - أى الأسماء - بوصفها وحدات لغوية مستقلة . ويختلف الأمر تماما حين نتعامل مع الأسماء كعناصر فى تراكيب لغوية كالجملة مثلا . ففى حالة تعاملنا مع الأسماء كوحدات لغوية مستقلة يكفى أن نقول أن الاسم Kipofu يتبع فصيلة Ki-Vi صرفيا وان الاسم Ngombe يتبع فصيلة N

صرفيا . ولكن حيث نتعامل مع هذين الاسمين كعناصر فى تراكيب لغوية يتعين علينا ان نقول انهما يتبعان فصيلة M - WA نحويا .

وسيؤدى ذلك التصنيف النحوى الى تصحيح الجملتين ١ ، ٢ ليصبحا كالتالى:-

- (أ) - Kipofu huyu hawezi Kusoma.

هذا الأعمى لا يستطيع القراءة .

- (أ)- Ngombe huyu amezaliwa mwaka juzi.

هذه البقرة ولدت العام قبل الماضى .

قد يرد على ذلك بأن التصنيف الدلالى أو أن إضافة الملمح الدلالى إلى التصنيف الصرفى قد يسد هذه الثغرة ولكننا نرد على هذا التساؤل التالى (ما هو الملمح الدلالى الذى يمكن أن يضاف إلى الملمح أو التصنيف الصرفى ليغنينا عن التصنيف النحوى لكلمات مثل Sherehe حفلة ، Shaba نحاس ، Sabuni صابون كأسماء تتبع فصيلة N ومثل Shada باقة ورد ، Shamba حقل ، Sanduku صندوق كأسماء تتبع فصيلة MA لا شك أن السلوك النحوى لهذه الأسماء وأن السوابق واللواحق التى تحكمها هذه الأسماء حين تقع عنصراً فى تركيب نحوى هى التى جعلتنا ندرج الثلاثة الأولى منها فصيلة N والثلاثة الأخرى تحت فصيلة MA ولا شك أيضاً فى أنه ليس للشكل الصرفى ولا للملمح الدلالى دخل أو تأثير فى هذا التصنيف .

كانت هذه المقدمة الطويلة عن فصائل الأسماء فى اللغة السواحلية أمر لا مندوحه عنه للتوطئة للموضوع الرئيسى لهذا البحث وهو اشتقاق صيغة التكبير وصيغة التصغير من الأسماء فى اللغة السواحلية ، ذلك أن التكبير والتصغير يعتمد أساساً فى اللغة السواحلية على الفصيلة التى يدرج الاسم تحتها ، فكل أسم فى اللغة السواحلية - كما سبق أن قررنا له فصيلة محددة يحكم السوابق واللواحق الخاصة بها .

ويعد عدم التميز Unmarkedness من أهم السمات أو الملامح الدلالية لأى إسم فى اللغة السواحلية التى يكتسبها ذلك الأسم حين يستخدم فى فصيلته الأصلية ويعنى ذلك أن الإسم قد يستعمل فى فصيلة أخرى غير فصيلته الأصلية بغرض إكسابه ملمحاً أو سمة دلالية متميزة أو غير عادية "Marked" .

والفصائل التى تنقسم إليها الأسماء فى اللغة السواحلية هى كالتالى :

١ – فصيلة	M - WA		
أشخاص	Watu	شخص	Mtu
أبناء	Wana (waana)	أبن	Mwana
٢ – فصيلة	M - MI		
أشجار	Miti	شجرة	Mti
سنوات	Miaka	سنة	Nwaka
٣– فصيلة	KI - VI		
أشياء	Vitu	شئ	Kitu
حجرات	Vyumba	حجرة	Chumba
٤ – فصيلة	Ji / Ø - MA		
عيون	Macho	عين	Jicho
حقول	Mashamba	حقل	Shamba
٥– فصيلة	N		
طبول	Ngoma	طبلة	Ngoma
قطط	Paka	قطة	Paka
٦– فصيلة	U (W)-Ø: NY/MA		
حوائط	KUTA	حائط	ILITA
شروخ	Nyufa	شرخ	Ufa

أمراض	Magonjwa	مرض	Ugonjwa
أغانى	Nyimbo	أغنية	Wimbo

٧- فصيلة Ku

قراءة	Kusoma
موت	Kufa

٨- فصيلة MO-KO- RA

مكان	Mahali
فى المنزل	Nyumbani
فى الجيب	Mfukoni

ولكل فصيلة من هذه الفصائل السوابق واللواحق الخاصة بها.

والفصائل التى تؤثر تأثيرا مباشراً فى إشتقاق صيغ التكبير والتصغير فى اللغة السواحيلية فصليتان هما فصيلة Ki-Vi وفصيلة Ji/ϕ-MA ذلك إن السابقتين Ki,Vi تدلان على إشتقاق صيغة التصغير - افرادا وجمعا - من الجذور التى تضاف إليهما بينما تدل السوابق Ji/ϕ,MA على إشتقاق صيغة التكبير - افرادا وجمعا - من الجذور - التى تضاف إليها.

ينطبق ذلك على الأسماء التى تندرج تحت أى من الفصائل الأخرى غير فصيلتى Ji/ϕ-MA, Ki Vi وتجدر الإشارة هنا إلى أن عملية اشتقاق صيغ التكبير والتصغير تنصب أساسا على جذر الإسم فقط دون السوابق التى قد تتصدره. ويمكن تقسيم جذور الأسماء إلى قسمين:

(أ) جذور أحادية المقطع أى تتكون من مقطع واحد مثل:

٣-	M-Tu	شخص
٤-	M-Ti	(شجرة)
٥-	Ji-Cho	(عين)

(ب) جذور متعددة المقاطع مثل:

٦- M-Guu (قدم)

٧- M-Dudu (حشرة)

٨- N-Goma (طبلة)

ويختلف الشكل الصرفى عند اشتقاق صيغة التكبير أو التصغير من وحدات القسم الأول عنه عند اشتقاق نفس الصيغ من وحدات القسم الآخر.

فالتغيير الصرفى الذى يجرى على الأسماء ذوات الجذور أحادية المقطع يتطلب أولا تجريد الأسماء من سوابق الفصيلة التى تنتمى أصلا إليها فتصبح الأسماء المذكورة أعلاه كالتالى:

٣أ- -Tu

٤أ- -Ti

٥أ- -Cho

ولكن التركيب الصوتى للغة السواحيلية لا يسمح بوجود المقطع نظرا لأن النبر فى اللغة السواحيلية يتطلب وجود مقطع يحمل النبر قبل المقطع الأخير. وحيث أنه قد تقرر فيما سبق أن فصيلة Ji/ϕ-MA هى الفصيلة الخاصة بالتكبير كان المقطع الذى يضاف إلى الجذر ليحمل النبر هو المقطع Ji الذى يدل على أفراد الأسماء المندرجة تحت فصيلة MA.

ولكنا حين نجرى هذا التغيير الصرفى على الجذور الثلاثة المذكورة أعلاه نجد أن الجذر الأول صار:

٣ب - Jitu (عملاق)

وصار الثانى:

٤ب- Jiti (كتلة خشبية)

بينما يصبح الجذر الثالث مطابقا فى شكله الصرفى للاسم Jicho (عــين) الذى يتبع فصيلة Ji/-ф-MA، ويفرض السؤال التالى نفسه.

هل المقطع أو السابقة Ji هى السابقة غير المميزة "Unmarked" التى لا تحمل أية سمة دلالية مميزة ولكنها فقط تشير إلى اندراج الإسم تحت فصيلة MA أم أنها سابقة مميزة Marked تدل على تكبير الجذر الذى تتصدره؟

وسنترك الإجابة على هذا السؤال الآن لنعود إليه فيما بعد. ونكتفى الآن بأن نقرر أن الجذور الآحادية المقطع ليس لها الا مستوى صرفى واحد من مستويات التكبير.

أما الجذور متعددة المقاطع مثل الأمثلة ٦، ٧، ٨ زعلاه فتمتاز بأن لها مستوين من التكبير:

المستوى الأول يتطلب إجزاء تغيير صرفى واحد على الإسم المراد اشتقاق صيغة التكبير منه وهو تجريده من سابقة فصليته الأصلية فتصير الأمثلة ٦، ٧، ٨ كالتالى:

٦أ- Guu قدم كبيرة

٧أ- Dudu حشرة كبيرة

٨أ- Goma طبلة كبيرة

وهذا المستوى الأول من مستويات التكبير. أى أن المستوى الأول من مستويات التكبير يمكن اشتقاقه من أى إسم عن طريق تجريد ذلك الاسم من سوابق فصيلته الأصلية. وبمجرد تجريده، من سوابق فصيلته يكون قد اندرج نحويا تحت فصيلة Ji/ф-MA كالتالى:

٩- مجلدات matabu مجلد tabu كتاب Kitabu

١٠- أجنحة كبيرة mabawa جناح كبير bawa جناح Ubawa

أما المستوى الثانى من مستويات التكبير فيتطلب إجراء تغيير صرفى آخر - إضافة إلى تجريد الاسم المراد تكبيره من سابقة فصيلته الأصلية - وهو إضافة

المقطع Ji إلى بداية الإسم. وبذلك تصير الأمثلة ٦ إلى ١٠ كالتالى:

٦ب- Jiguu قدم ضخمة جدا

٧ب- Jidudu حشرة ضخمة جدا

٨ب- Jigoma طبلة ضخمة جدا

٩أ- Jitabu مجلد ضخم جدا

١٠أ- Jibawa جناح ضخم جدا

وكل هذه الأسماء تتبع فصيلة Ji/ φ- MA نحويا أى أنها تحكم السوابق واللواحق التى يحكمها أى إسم يتبع هذه الفصيلة.

أما الأسماء التى تندرج تحت فصيلة Ji/ φ - MA معجميا مثل:

١١- صندوق Sanduku

١٢- سيارة Cari

فليس لها الا مستوى تكبير واحد. ويصاغ هذا المستوى بإضافة السابقة - ji فتصير

١١أ- صندوق كبير Jisanduku

١٢أ- سيارة كبيرة Jigari

هذا عن اشتقاق صيغ التكبير.

أما عن اشتقاق صيغ التصغير فينبغى أن نقسم الجذور نفس التقسيم السابق أى نقسمها إلى جذور أحادية المقطع وجذور متعددة المقاطع. وكل من هذين القسمين تجرى عليه تغييرات صرفية مختلفة عند اشتقاق صيغة التصغير منهما.

الجذور المكونة من مقطع واحد مثل:

٣أ- -tu

٤أ- -ti

٥أ- -cho

يضاف إليها السابقة المركبة – Kiji فتصير:

٣جـ- Kijitu قزم

٤جـ- Kijiti كسرة خشب

٥جـ- Kijicho حسد أو حقد (عين حقيرة حسودة)

أما الجذور المتعددة المقاطع مثل الجذور من ٦أ إلى ١٠أ فيمكن اشتقاق مستويين من:

المستوى الأول يمكن اشتقاقه باضافة السابقة ki كالتالى:

٦جـ- Kiguu قدم صغيرة

٧جـ- Kidudu حشرة صغيرة

٨جـ- Kigoma طبلة صغيرة

٩جـ- Kigoma لا يشتق من هذا الجذر هذه الصيغة.

١٠-- Kibawa جناح صغير

ويتضح من الثغرة الموجودة فى ٩جـ أن هذه القاعدة تنطبق على كل الجذور التى تندرج معجميا تحت أية فصيلة غير فصيلة Ki-Vi، حيث أن الكلمات التى تندرج تحت فصلية Ki-Vi يتم اشتقاق صيغة التصغير منها باضافة السابقتين Ki+Ji كما فى:

٩جـ Kigoma طبلة صغيرة

ويتضح أن الوظيفة الصرفية والدلالية للمقطع -ji- فى ٩ جـ تتمثل فى إزالة اللبس الصرفى والدلالى الذى يمكن أن ينشأ عن حذفه.

أما وظيفة نفس المقطع – ji – فى صيغ التصغير المشتقة من الجذور الأحادية المقطع فإنها وإن كانت تبدو وكأنها إزالة اللبس المترتب على حذفه من ٣جـ، ٤جـ فإنه ليس صرفى أودلالى يمكن أن يترتب على حذف المقطع -ji- من ٥ جـ، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول أن الوظيفة الصرفية والدلالية للمقطع -ji- مطرده

فى كل الأسماء التى تتدرج تحت فصيلة ki-vi بينما هى ليست مطردة فى كل الجذور الأحادية المقطع. وقد حاول الباحث جهده فى أن يستنبط سببا صرفيا أو دلاليا أو معجميا أو صوتيا من المادة المتاحة أو من الملقنين اللغويين الذين عمل معهم ليفسر ضرورة وجود المقطع -ji- مركبا مع المقطع -ki- عند اشتقاق صيغة التصغير من الجذور الأحادية المقطع دون جدوى. ولذلك فإن الباحث يعتبر هذه الظاهرة فى اللغة السواحيلية ظاهرة عرضية لا تفسير لها.

أما المستوى الثانى من صيغ تصغير الجذور المتعددة المقاطع فيشتق بإضافة السابقتين ki-ji إليها مثل:

٦ kijiguu قدم صغيرة جدا

٥٧- kijidudu حشرة صغيرة جدا

٥٨- kijigoma طبلة صغيرة جدا

٥٩- لا يشتق من هذا الجذر هذه الصيغة.

٥١٠- kijibawa جناح صغير جدا

ويتضح من الثغرة الموجودة فى ٩د أن وظيفة المقطع -ji- عند أمن اللبس الصرفى والدلالى هى تكثيف معنى التصغير المتضمن فى المقطع -ki- مع الجذور التى لا تندرج أساسا تحت فصيلة ki-vi أما فى وظيفته مع الجذور التى تندرج تحت فصيلة -ki-vi- فهى "كما قررنا سابقا" ازالة اللبس الصرفى والدلالى الذى ينشأ عن حذفه.

هناك حساسية خاصة تتعلق بتكبير وتصغير الأسماء التى تندرج تحت فصيلة ji/ϕMA وفصيلة N مثل:

١٣- Sanduku hili هذا الصندوق (العادى)

١٤- Gari hilli هذه السيارة (العادية)

فهذان الاسمان يندرجان معجميا تحت فصيلة ji/ϕ-MA وهما غير مميزين دلاليا وحين يستعملان نحويا استعمال الأسماء المدرجة معجميا تحت فصيلة N

يكون قد أضفى عليهما ملمح دلالى اضافى هو أول مستويات التصغير فيصيران:

١٣أ- Sanduku hii هذا الصندوق (المتوسط)

١٤أ- Gari hii هذه السيارة (المتوسطة)

بالإضافة إلى المستويين السابق ذكرهما وهما:

١٣ب- Kisanduku صندوق (صغير)

١٤ب- Kigari سيارة (صغيرة)

١٣جـ- Kijisanduku صندوق (صغير جدا)

١٤جـ- Kijigari سيارة (صغيرة جدا) "لعبة"

أى أن الكلمات التى تندرج تحت فصيلة ji/ϕ-MA لها ثلاث مستويات من التصغير ذكرت A shton فى كتابها Swahili Grammar صفحة ٢٩٦ أن "الأسماء يمكن أن تأخذ السابقة -ji- فى المفرد والسابقتين Ma أو Mi فى الجمع للدلالة على التكبير فى الحجم أو العدد أو القيمة" واعطت بعض الأمثلة مثل:

عمالقة Mijitu 8 Majitu عملاق Jitu شخص Mtu

شجرات كبير Mijiti 8 majitu شجرة كبيرة Jiti شجرة Mti

انهار كبيرة Mijito 8 majto نهر كبير Jito نهر Mto

والحقيقة أن ما ذكرته Ashton ينطوى على بعض النقص الناشئ ربما عن قلة المادة اللغوية التى أتيحت لها أو عن عدم الملم بمستويات التكبير والتصغير التى لم تشر إليها مطلقا عند معالجتها اشتقاق التكبير والتصغير فى اللغة السواحيلية.

ولكن الواقع أن الأسماء التى تندرج معجميا تحت فصيلة ji/ϕ-MA لها مستويات من التكبير:

الأول يصاغ بإضافة المقطع ji إلى جذر الإسم كما رأينا فى ٦ ب - ١٠ ب، ويظل الجذر بعد إضافة هذا المقطع مندرجا نحويا تحت ji/ϕ-MA .

أما المستوى الثانى من التكبير فيصاغ بإضافة المقطع M إلى الأسماء المكبرة فى المستوى الأول. وتتدرج بذلك نحويا تحت فصيلة M-MI كما فى :

١١ب- صندوق كبير جدا mjisanduku - صندوق كبير Jisanduku

١٢ب- سيارة كبيرة جدا mjigari (mi-) - سيارة كبيرة Jigari

ونظرا لأن هذه المستوى من التكبير غير مطرد الإستعمال وغير شائع فى اللغة السواحيلية لم أعده ضمن مستويات التكبير عند الكلام عنها.

بقيت هناك مشكلتان ناتجتان عن تصغير أو تكبير بعض الجذور الأحادية المقطع. المشكلة الأولى أشرنا إليها عند كلامنا عن تكبير الجذور الأحادية المقطع التى تندرج معجميا تحت فصيلة ji/ϕ-MA مثل .

١٥- -Fya

١٦- -We

حيث أنها لا تستعمل إلا مع سابقة الفصيلة ji أى تأخذ الشكل الصرفى التالى:

١٥أ- Jifya أحد جوانب الموقد

١٦أ- Jiwa حجرة (قطعة حجر)

وحيث أنه - كما قررنا سابقا - يتم اشتقاق صيغة التكبير من الجذور الأحادية المقطع باضافة السابقة ji إليها فإن تطبيق هذه القاعدة يتمخض عن اشتقاق أسماء طبق الأصل صرفيا من ١٥أ و ١٦أ الذين لا ينطويان على أى ملمح دلالى أو صرفى مميز، أى لا يدلان على التكبير. ولذلك فإنه لا تصاغ صيغة التكبير من مثل هذه الجذور فى اللغة السواحيلية وتقوم الصفات مثل:

١٧ - -Kuu كبير- عظيم

١٨- -Kubwa كبير - ضخم

بملء هذه الثغرة.

أما المشكلة الثانية تتمثل فى إشتقاق صيغة التصغير من الجذور المشتركة التى تتكون من مقطع واحد. ونقصد بالجذور المشتركة الجذور التى تندرج معجميا تحت أكثر من فصيلة مثل:

٣أ- -tu

٤أ- -ti

١٨- -to

فالجذور ٣أ، ٤أ، ١٨ تندرج معجميا تحت فصيلة ki-vi كما فى

٣د - Kitu شئ

٤د- Kiti كرسى

١٨أ- Kito فص (من الجواهر)

وتندرج الجذر ٣أ تحت فصيلة M-WA كما فى

٣هـ - Mtu شخص

بينما يندرج الجذران ٤أ و ١٨ تحت فصيلة M-Mi كما فى

٤هـ- Mti شجرة - خشب

١٨ب - Mto نهر

وهذه الجذور المشتركة لها صيغة تصغير واحدة مما يؤدى إلى لبس دلالى ليس فى اللغة من الوسائل الصرفية أو التركيبية ما يزيله إلا سياق الإستخدام فى الجملة اذ أن - السياق وحدة هو الذى يحدد ما إذا كان الإسم kijitu هو تصغير Mtu "شخص" أو تصغير Kitu "شئ" وما إذا كان الإسم Kijiti هو تصغير Mti شجرة خشب أو تصغير kiti "كرسى".

وتلعب "الهوائية" Aspiration دورا محدودا فى اضفاء ملمح دلالى يتعلق بالتكبير والتصغير بالنسبة للجذور التى تبدأ بصوت وقفى مهموس. فإن بدأ

الجذر بصوت وقفى مهموس مصحوبا بصفة "الهوائية" فإنه يندرج تحت فصيلة N نحويا وبالتالى يكون قد صغر دلاليا مثل

١٩- $K^{h}aa$ قطعة فحم

٢٠- Kaa قطعة فحم كبيرة

فإنه يندرج تحت فصيلة MA ويتسم دلاليا بالتكبير.

جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الإفريقية
الندوة الدولية لحوض النيل (مارس ١٩٨٧) : ٦٦١ - ٦٧١

مصادر القصائد السواحيلية الطويلة ومحتوياتها وأسباب ذلك

د. محمد ابراهيم محمد

المدرس بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر

إن القارئ لمحتويات القصائد السواحيلية الطويلة قديمها وكثير من حديثها يجدها متمثلة فيما يربو على مائة قصيدة يتراوح عدد أبيات كل منها فيما حول المائة والستة آلاف بيت. وهذه القصائد قليلها مطبوع ومنشور وكثيرها مخطوطات محفوظة أدراج المكتبات فى لندن ودار السلام وغيرهما.

ويمكن تقسيم هذه القصائد من حيث موضوعاتها إلى الأقسام التالية:

١- قصائد تذكر أسماء الله ونعمائه ومثالها: "طيب الأسماء[١]"، "ظل العرش[٢]".

٢- قصائد تقص سيرة المصطفى ﷺ منذ ولادته وحتى وفاته وما لاقاه فى سبيل نشر دين الله من مشاق فصبر وما جزاه الله به من خير فحمد:

(أ) من هذه القصائد ما يتحدث عن مولده ﷺ: "ولادة الرسول ﷺ[٣]"، "المولد الدالى[٤]"، "المولد النونى"، "مولد البرزنجى[٥]".

(ب) وأخرى عن معجزاته ﷺ وذلك مثل: "المعراج[٦]"، "انشقاق القمر[٧]"، "حديث الجمل والغزال[٨]".

(جـ) وبعضها عن هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة: "الهجرة[٩]".

(د) والبعض الآخر عن جهاده ﷺ فى سبيل الله. ومن ذلك: "غزوة بدر[١٠]"، "أحد[١١]"، "خيبر [١٢]"، "تبوك[١٣]".

(هـ) ومن هذه القصائد ما يخص زوجاته أمهات المؤمنين وأهل بيته ﷺ "خديجة[١٤]"، "عائشة[١٥]"، "فاطمة بنت محمد[١٦]"، "حديث على وفاطمة[١٧]"، "الحسين بن على[١٨]"، "الحسن [١٩]"، "أهل البيت [٢٠]".

(و) ومنها ما يمدح الرسول ﷺ ويعدد مناقبة مثل قصيدة: "البردة [٢١]"، "كتاب المديح[٢١]"، "بانت سعاد[٢٢]"، "خلق الرسول [٢٣]"، "مدح الرسول[٢٤]"، "الهمزية[٢٥]".

(ز) وآخرها ما يروى لحاقه بالرفيق الأعلى وهى قصيدة: "وفاة الرسول ﷺ[٢٦]".

٣- قصائد تتحدث عن الدين الإسلامى وأركانه وفرائضه وفوائدها وذلك مثل قصيدة: "الدين[٢٧]"، "أركان الإسلام[٢٨]"، "فرائض الإسلام[٢٩]"، "الصوم وفوائده [٣٠]"، "وداع رمضان[٣١]".

- ومنها ما تتحدث عن اليوم الآخر مثل: "القيامة [٣٢]"، "النشور[٣٢]".

٤- قصائد تمجد الشخصيات الإسلامية البارزة وجهادها فى سبيل الإسلام وذلك مثل: "أهل بدر[٣٣]"، "ابن مسعود[٣٤]"، "عبد الرحمن بن أبى بكر [٣٥]"، "المقداد بن عمر،[٣٦]"، "معاوية ويزيد [٣٧]".

٥- قصائد تحكى قصص الأنبياء ومعجزاتهم، ومن هذه القصائد قصيدة:

"آدم عليه السلام وزوجته حواء[٣٨]"، "نوح عليه السلام [٣٩]"، "يونس عليه السلام[٤٠]"، "يعقوب ويوسف عليهما السلام [٤١]"، "أيوب عليه السلام[٤٢]"، "موسى والخضر عليهما السلام [٤٣]"، "عيسى عليه السلام[٤٤]"، "محمد ﷺ[٤٥]".

- وقصيدة محمد ﷺ هذه هى أطول قصيدة ظهرت فى الأدب - السواحيلى حتى الآن حيث أنها تحوى ٦٣٨٤ بيتا [٤٦].

٦- قصائد تدور فى فلك الأقسام السابقة ومستقاه من تعاليم الإسلام ودروسه فتخرج للناس على شكل حكايات وروايات فيها العبر والعظات وتحمل وصايا الخير للبشر. ومن هذه القصائد: "الانكشاف [٤٧]"، "الدر المنظوم [٤٨]"، "واجى راجى [٤٩]"، "موان كيونا [٥٠]"، "السراج [٥١]"، "بارصيصا العابد [٥٢]"، "القاضى والحرامى [٥٣]" ... الخ.

والدارس لهذه القصائد السواحيلية يلاحظ أن هناك من الشعراء السواحيليين من ذكروا اسم المصادر التى أعتمدوا عليها فى قصائدهم. فمثلا البيت الثالث من قصيدة "وفاة الرسول ﷺ" يذكر أن مصدر القصيدة كتاب عربى للمؤلف محمد البصرى، والبيتان الثالث والستين والرابع والستين من قصيدة "الجمل والغزال" يبينان لنا أن مؤلف المصدر العربى هو جعفر بن محمد البيدى المكى.

وأيضا الشاعر السواحيلى المعاصر على محسن بروانى ذكر فى التقديم لقصيدته "حياة الرسول محمد ﷺ (٥٤)" أنه استعان فى نظم قصيدته بقراءته "لسيرة ابن هشام"، "تفسير القرآن" لشيخ الأزهر المرحوم محمود شلتوت، "على هامش السيرة" لطه حسين، "حياة محمد ﷺ" لمحمد حسنين هيكل، "تفسير القرآن" للشيخ عبدالله يوسف على، كتابات الشيخ عبدالله صالح قاضى زنزبار السابق والشيخ محمد قاسم المزروعى المبسى رحمهما الله.

وهناك فريق آخر من الشعراء السواحيليين يذكرون فى قصائدهم أنهم اعتمدوا على مصدر عربى ولكنهم ما عينوا اسم الكتاب ولا إسم مؤلفه ومن هذه القصائد قصيدة "أيوب عليه السلام"، "المقداد والمياسة".

والفريق الثالث والأخير من الشعراء هم أولئك الذين اعتمدوا فى أشعارهم على نتاج عصارة أفكارهم وثقافتهم الإسلامية وهم أيضا كثيرون. من بينهم الشاعر الكبير سيد عبدالله بن على بن ناصر فى قصيدته الإنكشاف. ولذلك فإن القصائد السواحلية يمكن تقسيمها من حيث مصادرها إلى :

١- أشعار سواحيلية مترجمة عن أشعار عربية وكلاهما دينى مثل:

قصيدة "البرده"، "الهمزية"، تبارك ذو العلا (٥٥)" وهذه القصيدة الأخيرة «تبارك ذو العلا» مطلعها:

تبارك ذو العلا والكبرياء ⁘ تفرد بالجلال وبالبقاء

وتنتهى عند البيت الخامس والأربعين بعد المائة القائل:

تقبل مواعظى بقبول صدق ⁘ تفز بالأمن عند حلول لأى

والقصيدة - فى ثوبها العربى - مؤبجدة يعنى تبدأ أبياتها الأولى بقافية حرف الهمزة وتنتهى القصيدة بقافية حرف الياء - وتحت كل حرف يوجد خمسة أبيات. وبضرب عدد الأبجدية العربية ٢٩ حرفا X عدد الأبيات تحت كل حرف ٥ أبيات = ١٤٥ بيتا وهو مجموع أبيات القصيدة.

وموضوع القصيدة هو شحذ همم البشر لأن يكونوا للخير رجالا - وللمعروف والإحسان فرسانا - وللحق والفضيلة صناعا - وللايمان وأهله خداما وعلى مدار الصراط المستقيم ركبانا - وفى الدنيا ولهوها زهادا.

والذى قام بترجمة هذه القصيدة إلى الشعر السواحيلى هو ذلك الشاعر السواحيلى العملاق والفقيه المتفقه والتقى الزاهد والقاضى العادل السيد منصب أبوبكر ابن عبد الرحمن بن أبوبكر الحسينى ١٢٤٤ هـ - ٢٠ شعبان ١٣٤٠ هـ/ ١٨٢٩م - ١٨ مارس ١٩٢٢م .

فعندما يقرأ الدارس النصين: العربى، والسواحيلى للقصيدة يجد تطابقا فى المعنى بين النصين. وهذه قدرة أدبية فائقة إن دلت على شئ فإنما تدل على ضلاعة الشاعر السواحيلى وطول باعه فى فهم اللغة العربية واتقانه لها مع وصوله فى لغة شعر السواحيلية ونظمها إلى درجة رفيعة جعلته يطوعها كيفما يشاء بل يشكلها ويصبها فى القالب الشعرى الذى يراه.

٢- أشعار سواحيلية مترجمة عن نثر عربي دينى. ويتمثل معظم هذا النوع فى قصص الأنبياء وسير الصحابة والقصص ذات الرد الوعظى والرمزى سواء كان ذلك الوعظ مباشرا أم غير مباشر كما فى قصيدة "القاضى والحرامى". وهى مترجمة عن قصة عربية بعنوان: "قصة القاضى مع الحرامى". والقصة فى رأى الباحث هى ضرب من ضروب الترف الثقافى الدينى - واظهار للقدرة على المحاجة فى عصر هارون الرشيد - كما أنها ترمز إلى اسداء الأمر والنهى إلى غير أهله مع تعاون أولى الأمر فى الإلتزام بشرع الله ولذا يجب تجريدهم مما هم فيه - وأيضا ترمز إلى أن الركون للمرأة فى ذلك العصر كان - عليه الاستناد وبه يتم الإعتماد.

فالقاضى يخرج فى ساعة متأخرة من الليل للتنزه مسترشدا فى ذلك بما قرأه لتوه من حكم السابقين: "من أراد اعتدال المزاج وصحة الجسم فليخرج إلى الفلا ويشاهد الخضرة والبساتين". وهناك يعترض الحرامى طريقه ليسلبه ملابسه وخاتمه الذهبى وبغلته التى يمتطيها. عند ذلك يدور بينهما حوار يترافع فيه كل عن نفسه من الكتاب والسنة. فيتهم الحرامى القاضى بأنه لم يلتزم فى خروجه هذا بالحديث القائل:

«خذ الرفيق قبل الطريق» وعندئذ يحاول القاضى الدفاع عن نفسه بحجج وذرائع يهدمها الحرامى فى كل مرة بالبرهان والدليل - فيكسب الحرامى القضية - مما يجعل هذا السلب فى النهاية سلباً مسوغاً مباحاً .

ويؤدى ذلك بهما إلى لقاءات أخرى فى منزل القاضى يتم فيها اختبار الحرامى فى مسائل مستعصية يسأله فيها القاضى وولداه. وفى كل مرة يتمكن الحرامى من إجتياز مثل هذا الإختبار إلاّ أنه لم يتمكن فى النهاية من إجتياز الإختبار الذى وضعته له زوجة القاضى.

٣- أشعار سواحيلية هى من ثمار تفاعل الشاعر السواحيلى مع بيئته وثقافته الإسلامية اللتين عبر عنهما أصدق تعبير فى أشعاره هذه.

وإن هذا النوع من الشعر يدعو في مجمله إلى:

- طلب التدبر والتأمل فى الكون وإرجاع البصر فيه مرتين لينقلب البصر إلى صاحبه خاسئاً وهو حسير فيتعظ فيسعَد ويسعِد. وهذا الطلب واضح وجلى فى قصيدتى «الإنكشاف» ، «واجى واجى» .
- الترغيب فى العمل الصالح وحث النفس عليه والاصطبار على ذلك فإن مآله الجنة ونعم المصير.
- والترهيب من اقتراف السيئات والإنغماس فى الملذات والسباحة مع النفس فى الهوى فتهوى به فى نار جهنم وبئس المصير .

وهذا الترغيب والترهيب موجودان فى كثير من القصائد السواحيلية ونخص منها بالذكر: «الدر المنظوم» أ إ أ[٥٦] .

- دعوة الوالدين للأولاد بنين وبنات إلى تقوى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المكاره فإذا ما كبروا وتزوجوا فلتكن الزوجة لزوجها أمه يكن لها عبداً وليتعاشروا بالمعروف ولتكن المودة والمحبة شعارهم.

فإذا ما خرجوا للمجتمع فليكونوا عبادًا لله صالحين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وبإختصار فإنها دعوة تشرح بالتفصيل والإطناب حديث المصطفى ﷺ «الدين المعاملة». وهذه الدعوة يجدها الملبى فى قصائد:

«السراج» ، «موان كبونا» ، «الخلق الحسن».

من هنا يمكننا القول بأن محتويات ومصادر القصائد السواحيلية هى أما إنها مأخوذة من القرآن والسنة وإما من كتب التراث العربى الإسلامى وأما أنها من الثقافة السواحيلية الإسلامية.

ولعل هذا يفسر ظاهرة الكثرة للكلمات السواحيلية المستعارة من العربية والمتواجدة فى القصائد السواحيلية عما عداها من نثر سواحيلى سواء كان ذلك فى القصة أو الرواية أو المسرحية أو حتى فى اللغة اليومية للسواحيليين بل أننا نستطيع القول بأن هذا النوع من القصائد السواحيلية كان مدخلاً من مداخل إثراء اللغة السواحيلية بالمفردات المستعارة من اللغة العربية.

فكان الشاعر السواحيلى عادة ما يأخذ بعض المفردات العربية من المصدر العربى ويستخدمه فى اللغة السواحيلية لأول مرة فى قصيدته بعد أن يأتى له بعملية سواحيلية. وربما هذا يفسر ويشرح السبب فى أن كل دارس لقصيدة من هذه القصائد - كانت لم تدرس من قبل - يكتشف أن فيها بعضاً من مفردات السواحيلية لم ير طريقه بعد إلى معاجم وقواميس السواحيلية المطبوعة.

ويبقى سؤال وهو ما السبب الذى يكمن وراء التواجد البارز للمصادر العربية الإسلامية فى القصائد السواحيلية...؟

إن الشعب السواحيلى شعب معظمه مسلم وأفراده يؤمنون بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

ولما كان محمد ﷺ عربى اللسان وأوحى الله إليه القرآن بلسان عربى مبين أصبحت قراءة القرآن بالعربية أمراً تعبدياً لكونه من كلام الله . لذلك راح أفراد هذا الشعب يطلبون تعلم اللغة العربية ليتمكنوا من فهم كتاب الله والوقوف على معانيه . وأيضاً ليدرسوا أحاديث رسول الله ﷺ وليتفقهوا فى أحكام شرع الله فكان لهم ما طلبوا .

ونظراً لثراء اللغة العربية بالمواد الإسلامية المتعددة بات أمراً منطقياً للشعراء السواحيليين أن تجئ منظوماتهم الشعرية متضمنة لكثير من هذه المواد كمرآة تعكس ما تعلموه وآمنوا به. ولم تقف هذه المنظومات عند هذا الحد بل تخطته لتكون آداه تثقيف ومعرفة لجميع المتحدثين بالسواحيلية والقارئين لها.

وثقافة هذه المنظومات الشعرية السواحيلية هى ثقافة عالمية حيث أنها تعنى فى المقام الأول بالدرس الذى تعم فائدته سائر البشر لو أخذوا به .

فلديكم مثلاً قصيدة «الصقر والحمامة [٥٧]» والذى يتجلى فيها موسى عليه السلام ليعطى البشرية درساً فى الرحمة والوفاء بالعهد والوعد - وذلك حينما أتاه جبريل عليه السلام متنكراً فى صورة حمامة تطلب حمايتها ونجاتها من ميكائيل عليه السلام المتنكر فى صورة صقر يتتبعها ويريد افتراسها فيعطى موسى عليه السلام الحمامة وعداً بالحماية لها. عندئذ يأتى الصقر طالباً الحمامة من موسى عليه السلام حيث أنها رزقاً رزقه الله إياه فلا يتأتى لبشر أن يحول بينه وبين ذلك الرزق خاصة وأن الجوع يؤلمه . وهنالك يقتنع موسى عليه السلام بمحاجة الصقر له فتلاحق الحمامة موسى عليه السلام بتذكيره بوعده الحماية لها . وأمام ذلك يجد موسى عليه السلام نفسه بين أمرين احدهما مُر - ولا مخرج له من هذا المأزق سوى أن يأخذ شفرة ليقطع بها قطعة لحم من جسده يناولها للصقر. فعندئذ يزيح جبريل وميكائيل عليهما السلام الستار والقناع عن نفسيهما بعد ما اجتاز موسى عليه السلام الاختبار الصعب ويتأكدا من تواجد الرحمة على ظهر هذا الكوكب .

وكان الشاعر السواحيلي يريد أن يقول فى منظومته هذه : ما أجمل وأعظم الرحمة والوفاء بالعهد والوعد لو تحلى بها أبناء البشر . ويبدوا أنه يستصرخ أولاد آدم وحواء أن يعلوا هذا الدرس ليعيشوا متوادين متعاطفين متراحمين على ظهر هذا الكوكب.

(كل مراجع المخطوطات المذكورة بهذا البحث متواجدة بمكتبة مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن).

١- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٨٤ ، ٣٦٦

٢- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٦٥٥

٣- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٥٢

٤- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٤٣

٥- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ١٥٥

وأيضاً الأجزاء الثلاثة لكتاب الدكتور جان كنابرت بعنوان:

Swahili Islamic Poetry طبعة لندن ١٩٧١ .

٦- المخطوطة رقم : ٣٥٤٩٧

٧- المخطوطة رقم : ٣٨٠٠٦٨

٨- المخطوطة رقم : ٥٣٤٩٧

٩- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣١٦

١٠- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٠٧

١١- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ١١٥

١٢- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٠٧

١٣- المخطوطة رقم : ٤٥٠٢٢

١٤- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ١٧٠

١٥- المخطوطة رقم : ٥٣٤٩٧

١٦- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٠٧ ، ٣١٩

١٧- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٠٧ ، ٣١٩

١٨- المخطوطة رقم: ٣٨٠٠٦٦

١٩- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٣٢

٢٠- المخطوطة رقم : ٣٨٠٠٦٧

٢١- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٢٤١ ، ٣٣٠

٢٢- المرجع السابق للدكتور جان كنابرت

٢٣- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٤٧

٢٤- المخطوطة رقم : ٤٧٧٨٠

٢٥- المخطوطة رقم : ٥٣٥٠٣

٢٦- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٤٨١

٢٧- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٦٩

٢٨- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ١٧٤

٢٩- المخطوطة رقم : ٢٧٧٧٩

٣٠- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ١ - ٣١

٣١- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ١ - ٣١

٣٢- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٧٤ وأيضاً ١

المخطوطة ٤٧٧٥٩ وأيضاً

Utenzi Wa nushuri للحاج تشوم : مكتب أدب شرق أفريقيا

٣٣- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٣٨

٣٤- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٣٥٦

٣٥- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ١ - ٣١

٣٦- المخطوطة رقم : ٥٣٥٠٣

٣٧- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٥٤

٣٨- المخطوطة رقم : ٢٥٣٠٢٨

٣٩- The Canon of Swahili Literature للدكتور كان كنابرت ص ٩٦

٤٠- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٤٧٩

٤١- المخطوطة رقم : ٢٢٨٦٢٤

٤٢- المخطوطة رقم : ٥٣٤٩٧

٤٣- المخطوطة ٢٧٩٨٨٨ رقم : ٤٩٦

٤٤- رسالة الدكتوراه للباحث بعنوان: The Life and Works of M. Kijuma لندن ١٩٨٣ . ص ٣٦٠

٤٥- المخطوطة رقم : ٣٢٤٨٤٢

٤٦- نفس المرجع المذكور تحت رقم ٣٩ ص ٩٥

٤٧- المخطوطة رقم : ٤٧٧٥٥

٤٨- المخطوطة رقم : ٤٧٧٥٩

٤٩- المخطوطة رقم : ٥٣٤٩٦

٥٠- المخطوطة رقم : ٥٣٥٠٣

٥١- نفس المرجع المذكور تحت رقم ٤٤ ص ٤١٨ - ٤٧٠

٥٢- المخطوطة رقم :٤٧٧٧٩

٥٣- انظر صفحة ٧ بالبحث الذى بين يديك

٥٤- Utenzi Wa Maisha Ya Mtume Muhammad للشاعر على محسن بروانى . نيروبى ١٩٨١ مقدمة الكتاب.

٥٥- Mitteilungen Des Instituts Fur Orientforschung, Prof. Dammann Band VII- 1959/60, Berlin PP 411-432.

٥٦- Afrika Und Übersec, Band LXIII, 1980 B.V. Ernst Dammann PP. 131-145.

٥٧- Utenzi Wa Tabia Nxuri Uliotungwa Na Abdallah Mohamed Bakathir (Kadara) Lamu-Kenya.

ملحوظة : تجدر الإشارة إلى أن بعض المخطوطات السواحيلية المذكورة كمراجع فى هذا البحث قد تم نشرها فى المراجع التالية:

1- Tendi: Six examples of a Swahili Classical verse from with translation & notes, by Mr. J.W.T. Allen Heinemann.

2- Swahili Poetry, by Dr. Lyndon Harries, Oxford 1962.

3- Dichtungen in der Lamu Mundart des Suaheli by Prof. Ernst Dammann, Hamburg, de Gruyter 1940.

4- Four Swahili epics, by Dr. J. Knappert. Leiden 1964.